أوجست موليبراس

Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

(الجزء الثاني)

اكتشاف جبالة

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

منشورات تيفراز 11

أوجست مولييراس

المغرب المجهول

الجزء الثاني

اكتشـــاف جبالـــــة

ترجمة وتقديم
د. عز الدين الخطابي

رسالة / مقدمة

إلى السيد روني باسي R. Basset مدير المدرسة العليا للآداب بالجزائر.

لم يستوعب الباحثون بالجزائر، إلا مؤخرا، فكرة أن دراسة العالم الإسلامي هي من أصعب المهمات التي تواجهها ملكة العلوم وأقصد بها السوسيولوجيا المتربعة بدون منازع على عرش المعارف الإنسانية.

ونحن نعاين اليوم مشهدا رائعا لا يستطيع قصيرو النظر ولا أصحاب العقول السطحية المنغلقة داخل الأدبيات الإدارية والجغرافية والعلمية عموما، رؤيته وإدراكه. ويتعلق الأمر بمشهد تناضد المجموعات اللسانية المختلفة بعضها فوق بعض وتداخل الطقوس والأهواء والمصالح وعظمة وانحطاط مختلف القبائل العربية والأمازيغية التي كانت ذات شأن في الماضي ولم تعد لها قيمة في الحاضر؛ وتوسع أو تمركز الكتل البشرية والتطور الأخلاقي والاقتصادي والديني ويقظة الوعي المثيرة للقلق وللتخوفات. وإذا ما كان العميان يبصرون شيئا بطبيعة الحال، فإن بإمكان بعيدي النظر التمييز بين الظواهر المهمة التالية وهي :

- التحول البطيء والانبعاث اللامحدود L'infinie palingenésie للتصورات الدينية والاجتماعية لدى مسلمي إفريقيا الشمالية.
- الدعوة إلى الاستضاءة بنور العقل.
- انبعاث فرع قوي داخل شجرة العائلة الإنسانية، يتطور تدريجيا بموازاة مع الانخراط المتزايد للعالم الإسلامي في دواليب حضارتنا الحديثة.

وأنا لم أسبر أغوار المجتمع الإسلامي حديثا، فقد مرت الآن حوالي ثلاثين سنة على انجذابي نحو هذا العالم الغريب والتولع به؛ وبقيت طوال هذه المدة أطل على الروح الإسلامية التي لا قرار لها. فأي عالم هذا ! وأي امتداد شاسع لهذا الفضاء ! ويا لها من تناقضات جذرية مع روحنا وحضارتنا الأروبية المتضمنة لما هو إيجابي ولما هو سلبي والتي نفتخر بها مع ذلك؛ علما بأنها لم تصل بعد إلى المستوى الكافي من النضج المعنوي لتفرض نفسها كنموذج للفضيلة على الإثنيات الدينية التي تصر على تجاهل المستقبل وتتقوقع داخل الحلم المستمر بالسعادة في الجنة.

إن صديقكم التائه في ركن من ساحة بلاد الأمازيغ القديمة وسط زحمة الظلال المتحركة ببرانسها كتماثيل حية ومتكلمة، دون أن يجرأ على التواصل معها؛ لم يتخوف مع ذلك، من المجهود الكبير الذي ينتظره والذي يتمثل في تطبيق مقتضيات السيكولوجيا الاجتماعية على أناس حذرين وغامضين، كما هو الشأن بالنسبة لجيراننا بالشمال الغربي الإفريقي.

وما أريد منحه اليوم إلى الفضول الأروبي، هو جانب من تفكيرهم ومن معيشهم اليومي، في منطقة هامة غير معروفة، داخل تراب هذا البلد. وبالرغم مما قيل مرارا و تكرارا، فإن المغرب ليس كما ساد الاعتقاد حوله، هو ذلك القبر الكبير والمظلم. وليطمئن الجميع، فنحن لن نقوم بتشريح جثة هامدة، لأن عملنا أجمل بكثير، حيث سنتابع شعبا حيويا ونشيطا وسنتجول في ربوع جبالة، هذه المنطقة التي شكلت يوما جزءا من أروبا ولكنها التصقت فيما بعد بالشاطئ الإفريقي؛ كما سنكتشف إحدى أغنى المناطق التي لجأت إليها عائلات من رجال الدين المتعصبين والمقاتلين والمستمتعين بالحياة في نفس الوقت، من أجل البقاء والدفاع عن النفس.

ولا يمكن اختزال هذه العائلات، رغم تميزها واختلافها، في نعوت غرائبية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع؛ فقد تمكنت من الصمود ومن مقاومة ضغوط أروبا الجشعة والغيورة القائمة منذ قرون.

فوراء الحدود الوهرانية يوجد ملايين من الرجال في حاجة إلى الهداية وتوجد منطقة شاسعة في حاجة إلى الإصلاح. وأتمنى أن تستحضر فرنسا هذا الأمر دوما.

وإذا ما استطاع هذا الجزء الثاني أن ينزعنا من افتتاننا المحموم بالشرق وأن يساعدنا على توجيه نظرنا إلى " الغرب" أي إلى هذا المغرب المجهول الذي تعد وضعيته الجغرافية بأروع مستقبل، فإن كل آمالي ستكون قد تحققت وسأتابع بدون كلل، إنجاز المخطط الذي رسمته لنفسي منذ زمن طويل، حيث اعتبرت بأنني نشأت تحت سلطان فكرتين ما زالتا حاضرتين إلى يومنا هذا وهما :

- معرفة جارنا الغريب.

- وإدراجه ضمن الدائرة الخاضعة لتأثير فرنسا.

والآن، أطلب منكم أيها الصديق العزيز، العمل على أن يحظى هذا الكتاب باستقبال ودود وألا يعامل بقسوة من طرف الحساد والنقاد المتجاوزين لكل الحدود Hypercritiques.

وأنا أعلم مسبقا بأن بإمكاني الاعتماد على طيبوبتكم ونزاهتكم ووفائكم، مثلما يمكنكم الاعتماد على صداقتي الخالصة والدائمة.

وهران في 3 مارس 1899

أوجيست مولييراس.

مـــدخـــل : عودة محمد بن الطيب إلى وهران بعد رحلة اكتشافية بربوع المغرب، دامت ثلاثة وعشرين سنة.

إلى حدود مساء 18 دجنبر 1895، كان قد مر شهران ويوم واحد؛ ولم أكن طوال تلك المدة قد توصلت بأي خبر عن الدرويش.[1]

فأين يوجد الآن ؟ هل بداخل المغرب أم خارجه ؟ وهل حان موعد رجوعه ؟

لقد طردت من ذهني الفكرة الحزينة حول موته، لأنني مقتنع بأن رجلا كالدرويش قادر على تجاوز المخاطر حتى ولو كان وسط شعب غير مروض بإمبراطورية الشرفاء.

وحدث في إحدى الأمسيات، أن كنت راجعا إلى البيت بعد إنهاء دروسي، حيث كانت كل الاحتمالات بخصوص مصير الدرويش تروج بخاطري. وبباب منزلي تحركت كومة من الملابس الباهتة اللون وانتصبت واقفة عند اقترابي منها.

أهذا أنت (D'Ketch) ؟

لقد كان السؤال صادرا عن الدرويش الذي تعرفت عليه بفضل نور مصباح غاز.

وأجبته على الفور بنفس اللهجة الأمازيغية: " D'nek (إنه أنا)".

وبالفعل لم يكن مخاطبي سوى محمد بن الطيب الذي لم يطرأ عليه أي تغيير اللهم من ازدياد حجمه بسبب العدد الكبير من الجلابيب المغربية المتنوعة الأشكال والألوان التي كان يرتديها والتي وهبها له بعض المحسنين بمراكش.

وقد ساهمت سنة تقريبا من التجوال عبر ثلوج الأطلس وتحت أشعة الشمس الصحراوية الحارقة، في اسمرار وجهه الشاحب عادة و الذي يذكر بوجه المسيح.

وعندما وصل إلى مدينة بلعباس، اعتقد رجال الشرطة بأنه جاسوس، فنزعوا منه جواز سفره؛ وهو ما كدر صفو رجوعه، لأن هذه الوثيقة كانت هي الدليل القاطع على رحلته الاستكشافية الأخيرة.

---

[1] أنظر الجزء الأول من كتاب " المغرب المجهول، اكتشاف الريف " الجزء الأول، ترجمة د. عز الدين الخطابي منشورات تيفراز الريف، مطبعة دار النجاح الجديدة الدار البيضاء، 2007، الصفحات من 207 إلى 209.

ملحوظة : ستكون الإحالة دوما على الترجمة العربية لهذا الكتاب.

وقد شعر بالغبن، معتقدا بأن هذا الجواز هو وسيلة إثبات كان يروم تقديمها لي لإقناعي بأنه أنجز مهمته؛ وأخبرني بأنه لم يذق الطعام منذ البارحة، بعد شعور الإحباط الذي انتابه ولم يتوقف وهو الهادئ بطبعه، عن الصراخ بغضب قائلا :

-لقد حافظت عليه هناك مائة مرة. ففي بلاد الأمازيغ والريف وباقي مناطق المغرب، سلب مني قطاع الطرق كل ما أملكه وتركوني عاريا كما ولدتني أمي، لكنني عملت كل ما في وسعي للحفاظ على هذه الوثيقة. والآن، بعدما بلغت هدفي وبينما كنت أستعد لأريك طوابع كل القنصليات الفرنسية بالمغرب، ها أنذا أفشل في ميناء بلعباس، أي في بلاد التمدن هاته !

لقد كان غاضبا وحزينا بشكل كبير : ورغم شعوره بالجوع فإنه رفض تناول أكلته المفضلة وهي البيض المقلي؛ وطلب مني بإلحاح الذهاب في تلك الساعة المتأخرة من الليل إلى مركز الشرطة للاستفسار عن سبب إلقاء القبض عليه ونزع جواز سفره منه بدون مبرر.

وقد تأسفت كثيرا على ما وقع له مع الشرطة وعلى هذه المضايقات البليدة التي كونت لدى المسلمين؛ بما فيهم الأقل تعصبا، حقدا دفينا تجاه المسيحيين. وإذا ما كان الدرويش المتنور والذكي والمتسامح جدا إزاء العرق والدين قد استشاط غضبا، فما بالك بالنسبة لغالبية البدو الأشداء والجهال والمناهضين لكل ما هو أروبي ؟ لقد تطلب مني استقطاب هذا الرجل من أجل قضيتنا سنة كاملة، حيث أظهرت له الفوائد المكتسبة من احتلال الجزائر وفسرت له الدور الإيجابي الذي لعبته فرنسا بهذا البلد وتعاملها بالتساوي مع كل الأديان وكل السكان دون تمييز. [ملحوظة المترجم : طبعا، فإن هذا الكلام الجميل يتعارض تماما مع واقع الاحتلال الاستعماري البشع، القائم أساسا على التمييز والاضطهاد] وبعد تشييد هذا البنيان بصعوبة، ها هو يتعرض للهدم من طرف سلوك لا مسؤول ومن الشطط غير المتوقع zèle intempestif لحبة رمل نعتقد بأنها مهمة ! فلماذا لم يسمح له باسترجاع جواز سفره، ملكيته الوحيدة والغالية ؟ لقد كان هذا هو طلبه الرئيسي كي يظهر لي بنوع من الافتخار المشروع، الطوابع القنصلية بكل من الصويرة وتطوان وفاس. وهذا شعور طفولي بالارتياح يستحقه مكتشف عرض حياته مرارا للخطر من أجل الوطن الذي تبناه.

وإذا ما استثنينا هذا الحدث المؤسف، فإن الدرويش كان مبتهجا بسفره و تجواله النموذجي والسريع عبر ربوع الإمبراطورية المغربية، من توات إلى طنجة ومن مليلية إلى سوس،

مشيا على الأقدام طبعا ومتوقفا على الخصوص، بمنطقة جبالة التي كان مطالبا باكتشافها، بغرض إغناء المعلومات التي سبق أن قدمها لي قبيل سفره.

وها هو قد رجع ليمدني بتواضع وإخلاص، كما وعد بذلك، بكنوز ملاحظاته واكتشافاته الجديدة. وكعادته لم يدون أية ملاحظة؛ فكل المعلومات الغنية كانت مسجلة بذاكرته؛ وسأقوم من جانبي بعرضها أمام أعين كل الشجعان من محبي المعرفة الذين يرغبون في مرافقتي، دون كلل، حتى نهاية مهمتي.

وهران، حديقة ولسفورد Welsford، 10 دجنبر 1897.

أوغست مولييراس.

قبيلة فشتالة [1]

تحت شمس حارقة وسط سهل ملتهب، كان الحصادون الذين يرتدون أقمصة قطنية قصيرة ملطخة بالتراب ومفتوحة عند الصدر وقد شدت في الوسط بحزام من الجلد البني، يغنون أهازيج البلد وهم يقطعون بمناجلهم الصغيرة، سيقان سنابل القمح.

وعلى امتداد البصر بالحقول، كانت النساء الفقيرات والفتيات من مختلف الأعمار، واللواتي يرتدين ملابس خفيفة أيضا، يسرن خلف الرجال ويجمعن السنابل المتساقطة ويقلعن "الخبيز" وبعض النباتات الأخرى، من أجل طعام الغذاء.

لقد كانت سنة 1872 تعد بموسم حصاد جيد وكان العابرون يتوقفون ويسألون الحصادين عن المحصول الزراعي، فيجيبهم هؤلاء قائلين : " أعطى الله الخير". وفي تلك الأثناء، جلس طالب متشوق لمعرفة أساليب حياتهم وشرع في الحديث معهم. وعلى الفور قدموا له المعلومات المطلوبة التي جاء فيها ما يلي :

من قبل، كان آباؤنا يربحون عشرة قروش في اليوم، أما الآن فإننا نربح اثني عشرة قرشا. ويبدأ العمل عند شروق الشمس لينتهي عند الساعة الثانية بعد الظهر؛ وهي اللحظة الممتعة التي يجمعنا فيها صاحب الأرض، ليقدم لنا أنواعا من الأطعمة المكونة من اللحم والبيض المقلي والزبيب. واستمر الشاب في سيره مرتاحا، بعد أن تلقى الأجوبة على أسئلته وتوجه نحو الشمال. لقد غادر قرية الخميس حيث يقام السوق الرئيسي لأولاد عيسى بدائرة فاس. ولأن طبيعة هذا الشاب ميالة إلى التجوال، فإنه ابتعد عن مدينة المولى إدريس، رغم أن مقامه بالمغرب لم يكن قد تجاوز بضعة أشهر. وقد أخبر بأن أهالي جبالة[2] يحتكرون العلم ويحبون الأكل الجيد، لذلك قرر زيارة منطقتهم دون أن يعير اهتماما للمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها.

ألم ير في الليلة الماضية وهو نائم بمسجد الخميس، حلما جميلا ؟ ففي البداية تهيب من هذا السفر وتصور وهو الشاب العديم التجربة، عالما مخيفا، مليئا بقطاع الطرق القساة

---

[1] أنظر، المغرب المجهول، الجزء الأول، مرجع مذكور، الصفحات من 48 إلى 50.

[2] أنظر عند نهاية الكتاب، الفصل المعنون ب " نظرة شاملة على جبالة" وأيضا الخريطة أو بالأحرى الرسم الطبوغرافي لهذا الإقليم.

وبالمسلمين المتعلمين لكن ذوي السلوكات المنحطة وبالغلمان الأرذال وبالفاتنات الغاويات. لذلك، لجأ كما يفعل كل مغربي طيب إلى الحجاب الواقي ذي المفعول السحري والذي يتضمن الدعوات التالية الموجهة إلى الله تعالى، طلبا للعون : " يا مجيب، يا مغيث، أنت قلت لنا ادعوني أستجب لكم. فها أنا دعوتك، فاستجب لي. لقد توكلت عليك أنت خير من يتوكل عليه وأنت تعلم سري وعلانيتي، لقولك أعلم ما تسرون وما تعلنون. يا إلهي، إذا كان سفري هذا خيرا أره لي وإذا كان شرا أره لي كذلك". [ملحوظة المترجم : كتب هذا النص هكذا في الأصل. وستتكرر نصوص كثيرة بهذا الشكل، بصياغتها الركيكة أحيانا والدارجة أحيانا أخرى] وبفضل هذا الحجاب الموضوع تحت رأسه، نام الشاب نومة عميقة بمسجد الخميس. وفجأة امتلأ بيت الله بنور ساطع وظهر رجل طويل القامة نحيف الجسد، ذو وجه شاحب، وشرع يتلو أمام الطالب آيات قرآنية بصوت مرتفع. و توقف عن القراءة ثم خاطب النائم بنبرة تجمع بين الدمدمة والطيبوبة قائلا :

- لا تنظر إلى هكذا ! أنا أعلم بأنك أتيت من الشرق راغبا في اكتشاف المغرب؛ أنا قنديل جبالة. واستفاق محمد بن الطيب وجلا، وهو الذي لم يكن يتجاوز السابعة عشر وقد فهم كل شيء. فماذا حصل ؟ هل حظي برؤية قنديل جبالة مولاي عبد السلام، في منامه ؟ أفلا يعني ذلك، أن الولي العظيم وعد الغريب الضعيف بالعون والحماية، ما دام موجودا في "مملكته"؟[3]

ولم يعد هناك مجال للتردد، فقد حان وقت الرحيل والشروع في الاكتشاف العجيب الذي سيدوم اثنين وعشرين سنة دون توقف.

هكذا، قرر في ذلك اليوم وهو جالس وسط حقل من حقول القمح، القيام بزيارة المنطقة الخاضعة لحاميها العظيم، مولاي عبد السلام.

ومنذ تلك الفترة البعيدة، اجتاز الطالب الجريء منطقة جبالة مرارا وتكرارا، لكن ذكرى السفر الأول ظلت عالقة في ذاكرته وكأنها حدثت بالأمس القريب؛ لأن ارتسامات المراهقة كما هو معلوم، تبقى هي الأقوى رسوخا.

[3] المغرب المجهول، مذكور، قبيلة قلعية وتحديدا الصفحة 163. ولن أضيف شيئا لما قلته بخصوص أحلام ورؤى المسلمين الأفارقة. وأنا أعتبر بأن إثنوغرافيا الشمال الإفريقي لم تكتمل بعد، بل هي قد بدأت بالكاد.

لقد انطلق من فاس واجتاز العديد من القرى والتقي بالحصادين وبالنساء اللواتي يلتقطن السنابل glaneuses، إلى أن بلغ نهر ورغة الجميل، الشبيه بنهر سبو، حيث يشكل أحد روافده الرئيسية. وتعتبر مياهه الوافرة والصافية المنحدرة من جبال صنهاجة الشاهقة، مصدر رزق الصيادين المتواجدين على ضفافه. ولا يمكن للمرء اجتياز النهر سباحة، لذلك كان من الضروري ركوب القارب الذي يطلب صاحبه قرشين لكل من يرغب في المرور إلى الضفة الأخرى. وقد طلب منه الدرويش نقله قائلا باستعطاف :

- انقلني إلى الجهة الأخرى، لوجه الله.

فأجابه صاحب المركب:

-عليك أن تؤدي قرشين

ورد عليه الرحالة :

-لا أحمل معي نقودا.

ثم قررا استعمال الكلمة السحرية وهي : أنا طالب. فاستدعاه الرجل إلى ركوب القارب قائلا:

- مرحبا بك.

ويوجد نهر ورغة عند الحدود الطبيعية التي تفصل دائرة جبالة عن دائرة فاس. وما أن يضع المرء رجليه بالضفة اليمنى من النهر، حتى يودع السهل ويجد نفسه بجبالة، أي بمنطقة الجبليين montagnards. وبالفعل، فإن التلال سرعان ما تبدأ في الظهور انطلاقا من الضفة الشمالية للنهر، كما تبرز تموجاتها الناتجة عن النباتات المتواجدة بها بكثرة؛ ففي الجنوب توجد حقول القمح بدون أشجار؛ وفي الشمال توجد الجبال المغطاة بالبساتين.

هكذا، سيجد محمد نفسه بقبيلة فشتالة الصغيرة. فعلى بعد ربع ساعة مشيا من واد ورغة، نجد قرية من 200 منزل تدعى القليعة. وتحاط منازل القرية العالية والبعيدة بعضها عن بعض، بأشجار متنوعة مثل أشجار الزيتون والحور peuplier والتوت والتين؛ وتتشابك حولها أغصان الكروم الضخمة والمتعرشة. والملاحظ أن بساتين الفواكه والخضر تحظى بعناية فائقة وتسقى بشكل جيد. وهناك مسجد مزخرف، وهذا ترف نادر خارج المدن الكبرى، وهو يتوفر على منبر من خمسة عشر درجا. ويوجد مسكن المعلم بالطابق الأول أو بالأحرى

بالغرفة المطلة على باحة المسجد. وقد بنيت بداخل بستان البرتقال الذي يوجد في ملكية المسجد، حظيرة مخصوصة لحيوانات الزوار العابرين.

<u>ـ المدارس والمساجد والطلبة الجبليون:</u>

قابل محمد المعلم الذي لم يتأخر في منحه "الرتبة"، أي أنه سمح له بمتابعة الدروس مع التغذية والمبيت مجانا بالمسجد رفقة الطلبة الأجانب الآخرين. وكما سبق أن قلنا، فإن جبالة يحتكرون العلم خارج المراكز الكبرى بالمغرب، لكن أي علم هذا؟! فمدارسهم التي يفتخرون بها، لا تقدم سوى تعليما ثانويا محدودا، وهي بالتأكيد أقل مستوى من جامعاتنا القروسطوية. ويعتبر المرء طالبا أو عالما، إذا كان حافظا للقرآن الكريم بالإضافة إلى معلومات بسيطة في النحو والفقه. أما بخصوص علوم الروح والأدب والفلسفة والفيزياء والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا واللغات الحية، فكيف يمكن أن تعلم في بلد يكره كل جديد صادر عن النصارى؟

والأمر المألوف لدى كل مسلمي إفريقيا الشمالية وخصوصا المغاربة، هو إرسال الشاب الراغب في التكوين إلى أماكن مختلفة. ورغم تغيير المعلمين، فإن المنهجية تظل هي نفسها؛ لذلك يعتقد المتعلم بأنه متعدد المعارف polymathe بشكل متميز، لأنه تلقى تعليمه على يد أساتذة مختلفين ومتبحرين في ميدانهم.

وهناك سبب آخر يدعو الطالب إلى الهجرة، وهو أن التغذية والمبيت والتعليم والملبس تقدم مجانا في المساجد، فكيف يمكن للمرء أن يقاوم هذا الإغراء؟ وهناك امتياز آخر لا يقدر بثمن في المغرب، يحظى به الطالب، وهو أنه من المسموح له السفر من بلده إلى بلد آخر طلبا للعلم؛ وهو ما لا يمكن للأمي أن يحظى به؛ فهو يظل داخل قريته طوال حياته ولا يغادرها إلا باتجاه سوق القبيلة.

ويسكن الطالب الأجنبي أحد البيوت المجاورة للمسجد التي تتسع لخمسة أو ستة طلبة. أما الأثاث فهو بسيط، ويتكون من حصائر وبضعة رفوف لوضع الكتب والملابس. ويتم الاستيقاظ مبكرا قبل شروق الشمس، حيث يتوضأ الطلبة بالعين المجاورة للمسجد أو المنابع المتواجدة بداخله ويصلون جماعة. ومع ظهور نور الصباح يقدم لهم سكان القرية الحريرة

[وهي عبارة عن سميد مطبوخ بالثوم والفلفل]. وبسرعة فائقة يلتهم الطعام بواسطة ملعقة وحيدة يتناوب الطلبة على استعمالها.

وبعد هذه الوجبة الأولى، يصل التلاميذ القاطنين بالقرية ويختلطون بالطلبة الأجانب. هكذا، يتناول كل واحد لوحه ويمحي الآيات القرآنية التي تم حفظها بالأمس، من أجل كتابة آيات جديدة. فأما المتقدمون من التلاميذ، فإنهم يكتبونها معتمدين على ذاكرتهم؛ وأما الجدد فإنهم ينقلون ما يمليه عليهم القدماء الذين يصبحون بذلك مرشدين لهم بمعنى من المعاني؛ وسيتعين عليهم تقديم خدمة لهؤلاء كمقابل؛ وهو ما سنعرض له في الوقت المناسب. وما أن تملأ الألواح بالكتابة العربية، حتى تتعالى الأصوات؛ لأن الدروس تعلم بهذه الطريقة. وعند الساعة الحادية عشر، يتوقف الزعيق وتوضع الألواح بباب الكتاب. وبعد تناول وجبة خفيفة وأداء صلاة الظهر، تبدأ الدراسة من جديد لتنتهي عند الساعة الرابعة موعد صلاة العصر. ويستريح التلاميذ والطلبة من الساعة الرابعة والربع إلى حين مغرب الشمس El-maghreb [4]. وبعد صلاة المغرب، ينتشر الطلبة الأجانب في القرية ويستجدون طعامهم من كل بيت. وعندما تكون الجولة مثمرة، وغالبا ما تكون كذلك، يرجع هؤلاء الطلبة إلى المسجد وقد حملوا معهم أطباق الكسكس واللحم المطبوخ واليقطين والزبيب والتين والزبدة والعسل والخبز الخ...

ويعتبر طعام العشاء أهم وجبة في اليوم، فهو عبارة عن وليمة حقيقية ينتظرها الطلبة بفارغ الصبر منذ الفجر. لكن قبل تناول الطعام، من اللازم أداء صلاة العشاء التي تتم بعد ساعة ونصف تقريبا من حلول الظلام. ومباشرة بعد أداء هذا الواجب الديني، توضع كل المأكولات فوق حصيرة ويتحلق الطلبة حولها ويبسملون ثم يهجمون على الأطباق المفضلة لديهم، مستخدمين أصابعهم، لأن استعمال الملعقة والشوكة غير مرغوب فيه لدى الغالبية العظمى من المغاربة.

وبعد تناول الطعام، يفعل كل واحد ما يحلو له. فالبعض يراجع دروسه تحت النور الباهت للمصابيح الزيتية ذات الشكل الدائري أو البيضوي والشبيهة بقناديل اليونان والرومان

---

[4] يلح الأروبيون على كتابة Mar'reb أو Maghreb والنطق بهما عند حديثهم عن المغرب Maroc كبلد. ولو كلفوا أنفسهم عناء قراءة الصفحة 30 من الجزء الأول من "المغرب المجهول" لانتبهوا إلى خطئهم .

القدامى؛ والبعض الآخر يروي حكايات وآخرون يحيكون ثيابهم وهناك من ينامون بلباسهم دون أن يعيروا أي اهتمام للجلبة القائمة حولهم.

- مولاي بوشتى سيد "الرياضيين Sport men" بدائرة فاس:

رغم حفاوة الاستقبال التي لقيها محمد بن الطيب من طرف هؤلاء الشباب، فإنه لم يقم سوى ثلاثة أيام بالقليعة. فقد سمع بوجود "وعدة"(5) قرب ضريح الولي مولاي بوشتى الخمار، لذلك غادر المكان رفقة مجموعة من الطلبة.

ولم تكن المسافة طويلة بين القليعة وقرية الصافيين التي أقيم ضريح الولي الصالح بها؛ وللإشارة فنادرا ما يتردد لقبه [الخمار]على الألسن. فأتباعه يرفضون المعنى المقترن بهذا اللقب وهو "بائع الخمر" ويدعون بأن الكلمة تعني عمار [من يبني ويستوطن ويوزع الخيرات]. وتوجد مزارات كثيرة، من الساقية الحمراء إلى طنجة مخصصة لمولاي بوشتى الذي يعتبره أهالي فاس سيد كل المزاولين للرياضة وخصوصا الفرسان والرماة(6) ويسهر "المقدمون" بالعديد من الأضرحة المخصوصة لهذا الولي على تلاوة "ورد" هذه الزاوية المنتشرة بشكل كبير و الكثيرة الأتباع؛ أو ليس هدفها هو الدفاع عن المسكن والقرية والقبيلة بل وحتى الإمبراطورية ؟

وتنظم حول هذه المراكز الدينية تداريب في الرماية، حيث يتوفر بعض الأهالي في هذا الإطار، على مهارة مذهلة؛ وعلى سبيل المثال، فإن إصابة طائر في الهواء ليست بالأمر النادر. كما أن تداريب ركوب الخيل تثير حماس سكان السهول، ويجب الاعتراف بأن النتائج المحصل عليها من طرف أتباع مولاي بوشتى، تبين عن خفة حركاتهم وشجاعتهم. فهؤلاء الفرسان يقفون فوق السرج أثناء ركض الحصان ويهاجمون ببنادقهم أو يلاحقون عدوا

---

(5) انظر المغرب المجهول، الجزء الأول، مذكور، قبيلة بني سيداث وبني سعيد، ص. 142، الهامش 41. والوعدة هي حفلة إحسانية تقام على شرف أولياء المنطقة.

(6) لقد وجدت بالجزء الثالث من كتاب الاستقصا وتحديدا بالصفحة 97 نبذة مختصرة عن هذا الولي؛ واسمه الحقيقي هو محمد بن موسى الشاوي؛ أما الاسم الذي اشتهر به وهو بوشتى، فيرجع إلى تحقيقه للكرامة التالية: ففي إحدى سنوات الجفاف، طلب الأهالي من الولي الصالح بأن يدعو الله لإنزال المطر، وما أن رفع أكفه إلى السماء حتى استجاب الله لدعوته. وقد توفي مولاي بوشتى سنة 997 هجرية [1589 ميلادية] ودفن بجبل أمركو بقبيلة فشتالة. [انظر النبذة التاريخية عن فشتالة].

وهميا. ويعتبر المرء فارسا مكتملا عندما يتمكن من القيام بما يلي : يقف رجلان ظهرا لظهر على سرج نفس الحصان ويكرون على مجموعة من "الأعداء"، بحيث يطلق الفارس الأمامي النار على الفارين في حين يكون رفيقه الذي يواجه ذيل الحصان مستعدا " لقتل" من يشكل خطرا عليهما. وتنسب إلى مولاي بوشتى كرامة شبيهة بكرامة الجد الأول للولي الصالح بوجداين بالريف. [7] فقد دفن الأول بقرية الصافيين التي تعتبر هي مقره المعروف. وكان أهالي بني مزگلدة، وهي قبيلة جبلية مجاورة لفشتالة، يقدسون هذا الولي ويعتبرون أنفسهم خداما له. وقد قاموا في إحدى الليالي بسرقة جثمانه من القبر، معتبرين بأنهم أولى به من غيرهم ! وبسرعة دفنوه بقرية أزويرة. غير أن سكان الصافيين علموا بهذا "الاختلاس الورع" Pieux larcin وفتحوا القبر، وكم كانت فرحتهم كبيرة عندما وجدوا الولي بمكانه. وعندما تلقي أهالي بني مزگلدة الخبر، أرادوا التأكد من أن وليهم المحبوب ما زال راقدا في المكان الذي دفنوه فيه. فاستخدمت المعاول لإزالة التسعين سنتمترا من التراب الموضوع فوق القبر؛ ووجد الولي السعيد كما تم وضعه، في هيئة النائم. لقد بقي كما هو بوجهه الشاحب ولحيته الطويلة البيضاء المتناثرة فوق صدره. وفي مساء ذلك اليوم، ظهر الولي في حلم العديد من الأشخاص الورعين بالقبيلتين وخاطبهم قائلا، إن جثمانه كان موجودا بالقبرين معا، بالصافيين وبأزويرة. وبذلك أقيم له ضريح في القريتين، مع الاعتقاد الراسخ لدى الجميع بأنه ولي عظيم، مادام قد حقق هذه الكرامة بعد موته.

إن مولاي بوشتى يحظى تقريبا بنفس التقديس الذي يحظى به المولى إدريس بفاس. ولا يتوقف الناس عن زيارة قبره، خصوصا في أعياد عاشوراء وفي العاشر من رجب، حيث يتكاثر الوافدون على قبة الضريح ويأتي العديد من الفرسان والرماة طلبا للبركة ولمزيد من المهارة والقوة والشجاعة.

ونحن نجد العديد من أتباع الأولياء بالغرب[8] [المغرب]، ممن يمارسون التداريب الرياضية العنيفة. ونذكر من بين هؤلاء الصلحاء : مولاي بوشتى بدائرة فاس وسيدي علال الحاج

---

[7] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 123، فقد أكد لي بعض الريفيين بأن بوجداين يتوفر أيضا على موهبة الحضور بأماكن متعددة في نفس الوقت ubiquité. فرفاته يوجد بالعديد من الأماكن. لذلك فإن كل قبر لبوجداين يتوفر على رفاته بالكامل.

[8] نفس المرجع السابق، ص. 30

بضواحي طنجة وسيدي علال بنداوود بمرنيسة [جبالة] وسيدي محمد بوزيان بسوس وسيدي سعيد بن وقاص بحوز مراكش.

ويعتبر مولاي بوشتى أيضا راعيا للموسيقيين وللمغنيين الذين يأتون لزيارته طلبا للعون، حيث يقفون ليالي عديدة في العراء أو بجوار قبره، في انتظار ظهور الولي السعيد الذي تملؤهم كلماته نشاطا وحيوية. وغالبا ما يحققون غرضهم ويستيقظون في الصباح، سعداء بلقاء سيدهم وسماع الوعود الصادرة عنه بمستقبل فني واعد.

أما الشباب الذين لم يتلقوا تربية موسيقية، فيأتون إلى الزاوية لتلقي دروس في نوعين من الغناء، مشهورين في البادية المغربية وهما العيطة والگباحية. وتتمثل الأولى في إصدار أصوات عالية والصراخ بشكل جماعي وفق قواعد لم أتمكن من دراستها؛ أما النوع الثاني، فهو عبارة عن ترديد جماعي للمقطع " هو-هو" كمحاكاة لنباح الكلاب. وأثناء إصدار هذا الصراخ، يقفز الراقصون كالمجانين مع القرع على " الگلال" [وهو طبل ضيق الحجم وطويل، مصنوع من الطين] وعلى "الطر" [وهو دف صغير بجلاجل].

وعند وصوله إلى الصافيين وجد الدرويش مباريات قائمة في الغناء والرماية والمسايفة. وكان هناك اختلاط بين الرجال والنساء والأطفال، بحيث لم يكن أي أحد يشعر بالحرج أمام الولي. فقد كان بعض الأزواج يتبادلون القبل بالقرب من ضريحه ويتابعون مداعباتهم بالبساتين المجاورة. وبجانب المزار، تم ذبح عدد كبير من الخراف والعجول وتهيئ جبال من الكسكس. وعند حلول المساء، كان الفقراء يقبلون على مكان الوليمة Curée، لأن "الوعدة" المقامة على شرف الولي، كانت مخصوصة لهم. وفي خضم الاختلاط، كانت جماعة النساء تسترعي انتباه الجميع. فالممارسات الجنسية السريعة التي تتم بحرية، كانت تذهل الدرويش. وكان يعلم كمتذوق للأطعمة الجيدة، بأن شراهة الأكل لن تسبب له أية مشكلة، على العكس من الفجور luxure، لذلك كان يتفادى النساء والغلمان، ليس من باب الفضيلة، بل من باب الحذر فقط. وفي أحد الأيام، وبينما كان مستلقيا تحت قبة مولاي بوشتى، بجوار القبر المغطى بأجواخ مطرزة بخيوط ذهبية وفضية، إذا بشابة في العشرين من عمرها، متوسطة الجمال ومرتدية أحسن الألبسة، تقف أمامه. وبدون مقدمات اقترحت عليه بأن يجامعها في عين المكان. فنظر إليها مترددا وبعد أن تحكم في رغبات جسده، تفوه باعتذار تافه قائلا :

-إن كوني شرقيا [قادما من الشرق] يعرضني لأكبر المخاطر. وإذا ما قمت فضلا عن ذلك، بمغامرة الجماع، فإن رأسي لن تظل طويلا فوق كتفي. فهل تفهمين ذلك يا عزيزتي ؟

وكان جواب الخليلة المحتملة كالتالي :

-هذا خطأ ! هذا خطأ ! فبإمكان أي رجل هنا أن يحتفظ بالمرأة التي اختارها بحرية. وعلى أية حال فأنا عايلة.

وبقيت هناك، متصلبة أمامه في وضعية مستفزة. ولكي يثبط عزيمتها، لف الدرويش قلنسوة جلابته حول رأسه وتظاهر بالنوم. فغادرت الشابة المكان وهي تكيل له سيلا من الشتائم، معتبرة إياه جبانا و مخصيا ومتحدية إياه بأن يثبت لها العكس.

إن العايلة بالنسبة لجبالة هي عبارة عن مومس، حرة أحيانا لكن أمة في غالب الأحيان. ويمكن شراؤها وامتلاكها بالتشارك من طرف العديد من العزاب. وهي تقضي حياتها في الرذيلة، تأكل وتشرب وترقص وتمارس الدعارة مع أسيادها ومع ضيوفهم في مكان خاص يدعى " بيت الصحفة"، وهو شبيه بأسوأ دور الدعارة المتواجدة بمدننا الأروبية.

وفي المساء الأخير للوعدة، لا يبقى أي أثر للحياء، حيث يأخذ الرجال العايلات و الغلمان معهم خارج الضريح متفوهين بكلمات بذيئة. وسيسأل الرحالة المندهش شخصا قريبا منه، عما إذا لم يكن هؤلاء الناس يخشون من غضب الولي بسبب أفعالهم المنافية لقواعد الاحتشام. غير أن الآخر سيحدج الغريب بنظرة متعجبة قائلا:

-إن مولاي بوشتى متسامح.

وسيعقب الدرويش على ذلك بالقول :

-مع ذلك، ألم يقل الله تعالى في كتابه العزيز " ومن يعظم حرمات الله، فهو خير له عند ربه"[9] ؟ وماذا تفعلون بالتعاليم القرآنية ؟ وهل الأمور تسير بنفس الشكل في كل ربوع الغرب [المغرب]؟

- بكل تأكيد، غير أن عرب وأمازيغ الجنوب والوسط لا يعرفون سوى النساء؛ في حين أن جبالة والسوسيين والريفيين يفضلون الغلمان؛ وبسبب هذا الذوق الخاص، نعتوا بقوم لوط.[10]

---

[9] سورة الحجر، الآية 27.

[10] لحسن الحظ، فإن هذا الأمر لا يطبق على جميع قبائل سوس والريف.

انظر فيما بعد، قبيلة الاخماس والتمييز الذي سيتم بهذا الخصوص بين الأمازيغ الخالصين و الأمازيغ المعربين.

وبين القليعة و الصافيين توجد أربع قرى. وهناك حوالي عشرين قرية بفشتالة. وهذه القبيلة الصغيرة مليئة بأشجار الفاكهة، مثل شجر التفاح والإجاص والبرقوق والتوت واللوز والتين. ويتم تشذيب الكروم كل سنة وتجفيف كميات كبيرة من التين لاستهلاكها في فصل الشتاء؛ وتعتبر كميات الخريف الأكثر استهلاكا وتسمى "الشريحة"؛ كما يوجد بها عدد كبير من الجياد والأبقار والخراف والماعز. ويرتدي الرجال جلابة سوداء فوق القميص ويضعون عمامة كبيرة حول رأسهم. وهم لا يتخلون أبدا عن أسلحتهم المتمثلة في البنادق الطويلة المستوردة من فاس وفي سيف طوله متر، يتدلى من خاصرتهم؛ ويكتمل تسلح المحارب الفشتالي بخنجر مكناسة الرهيب الذي يتجاوز الحزام من أعلى ومن أسفل. إن فشتالة توجد بين المطرقة والسندان، فلا يمكنها كقبيلة صغيرة عند حدود دائرة فاس، مقاومة عساكر السلطان، مثلما لا يمكنها مواجهة اجتياح القبائل الجبلية الكبيرة المجاورة لها.

فهي من جهة، تدور في فلك بني مسارة وبني زروال اللتين تمارسان عليها تأثيرا حاسما؛ ومن جهة أخرى، لا يمكنها أن تعفى من أداء الضريبة للمخزن، في حالة عدم تلقيها المساعدة من القبائل المستقلة. وبتمعنكم في الخريطة، سترون على الشرق من فشتالة، أربع قبائل صغيرة وهي بني ورياڭل، سلاس، الجاية ومزيات. ولا تتجاوز القبائل الخمس مجتمعة مساحة عشرين كيلومترا، طولا وعرضا. ولأن بعضها لا يحتمل البعض الآخر، فإنها لا تتفاهم ولا تتحالف فيما بينها، لمواجهة هيمنة قبيلة بني زروال التي تنهبها باستمرار. وهي خاضعة اسميا لمن ندعوه بسلطان المغرب الذي تتجاوز سلطته بالكاد، سلطة أحد كبار قياد بلاد الأمازيغ؛ ولذلك فإنها تشتكي دوما إلى فاس، من تعسفات بني زروال. ولأن البلاط الشريف لا يستطيع ترويض هؤلاء الجبليين المعتدين بأنفسهم، فإنه يكتفي بنصح المشتكين بالتحالف فيما بينهم ضد عدوهم المشترك !

لكن، يجب ألا نعتقد بأن فشتالة وأخواتها الصغيرات الأربع بئيسات؛ فغنى المنطقة يسمح لها بإرضاء متطلبات المختلسين الآتين من الشمال والجنوب، مع الاحتفاظ بما يكفي من المؤونة للعيش برخاء. فهذه المنطقة الموجودة على حدود دائرة فاس، هي عبارة عن بستان شاسع توجد فيه أغلب فواكه إفريقيا الشمالية التي يتم تسويقها على نطاق واسع. هكذا، تأتي القوافل العربية من دائرة فاس لمقايضة قمحها وشعيرها بخضر وفواكه جبالة. علما بأن هناك أيضا

حقول الفول والعدس والحمص والبازلاء المزروعة من طرف عائلات غنية ترغب في تنويع أطعمتها.

وفي الأسواق، يباع الصوف الأسود أكثر من الأبيض، لأن الحائكين [المتواجدين في كل قرية]، غالبا ما يصنعون ألبسة ذات لون داكن. فلنتوقف لحظة أمام دكان أحد هؤلاء الصناع التقليديين ولنطلب منه باسم مولاي بوشتى، بأن يقدم لنا معلومات حول اللباس المستعمل من طرف الجبليين. إن جوابه سيكون كالآتي: هناك الجلابة[11] الغرابية، السوداء تماما، ولا توجد بها أية فتحة، كما أنها تستخدم خلال المعارك وألعاب الفروسية.

وهناك الجلابة الذئبية [بلون الذئب] وهي رمادية تقريبا وتلبس أثناء القيام بالحراسة أو النهب maraude. وتجدون الفحصية المخططة بالأبيض والأسود، أما المسماة بالشاونية فهي قصيرة جدا وتصل بالكاد إلى الركبتين وقلنسوتها كبيرة بشكل مفرط. وتعتبر الوزانية أكثرها أناقة، وهي طويلة وخفيفة ومطرزة بالحرير عند الحواشي. أما أكثرها خشونة فهي الحصبية وبونداف؛ وهذه الأخيرة هي لباس الخماسين وقطاع الطرق. وأخيرا، هناك الخزيوية، لأن لونها شبيه بلون الجزر وتلبس في الخريف.

ـ سلوكات منحرفة:

قرر محمد التجول في المنطقة دون استعجال، متنقلا من قرية إلى أخرى ولاقيا الترحاب من طرف الطلبة المرحين الذين يجدهم بالمساجد. وتعتبر بيوت الله هاته، كفنادق استقبال حقيقية، مليئة بالمؤونة من كل نوع. وتستخدم غرفها كمخازن تملأ بالعنب والتين والجوز واللوز. وفي الأقبية، يحتفظ بجرات الزيت والخل و "الصامت" [هلام العنب] والعسل، التي تشهد على كرم سكان القرية. ويتألف المسجد الجبلي من قاعد كبيرة مخصصة للعبادة ومن بيوت أو غرف لفائدة الضيوف والطلبة الأجانب ومن قاعتين أو ثلاث قاعات للتدريس.

وعندما توجد صومعة بالمسجد، تقام بجانبها غرفة توضع فيها الكتب والزرابي. وهناك أيضا مرافق تابعة لبيت الله وتتمثل في الإسطبل وفي ورشة للحياكة وللحدادة وقاعة كبيرة تستخدم للقاءات أعضاء الجماعة [والمقصود بها جماعة الأعيان]. وبالقرب من المسجد يوجد أحيانا بيت الصحفة الذي توضع فيه الأسلحة وذخيرة الحرب التي تعتبر ملكية جماعية للقرية.

---

[11] الجلابة هي عبارة عن قميص مغلق من كل الجوانب، أو سترة من الصوف بقلنسوة وأكمام ضيقة قصيرة على العموم.

وكان بيت الصحفة في الأصل عبارة عن مخزن للأسلحة ومكان للحراسة، حيث كان يوجد باستمرار جنود محترفون يدافعون عن الجماعة. ولأن صفاء الأزمنة الأولى للإسلام ترك المكان للانحراف الجامح، فإن المحافظين على النظام والأمن، الأميين في غالبيتهم والذين لم يكونوا متوفرين على وسائل للترفيه مثل القراءة أو لعب الورق، ارتأوا البحث عن تسلية أخرى، فحولوا المخزن الحربي إلى دار للدعارة وإلى مكان للخلاعة البغيضة، حيث يستسلم الغلمان والعايلات لبهيمية هؤلاء الوحوش الذين يعتبرونهم كملكية وكأشياء وكعبيد.

آه لو أدرك الرحالة الأروبيون هذا الجرح الفظيع وتمكنوا من إماطة اللثام عن أسرار الحياة الحميمية لهذا المجتمع الموبوء وإبرازها لنا، لكنت قد أعفيت اليوم من هذه التوضيحات المقرفة التي تعذب فكري وقلمي. وبهذا الصدد، فإن هؤلاء الكتاب الطيبين يوجدون في وضعية يحسدون عليها ! فجهلهم باللغة العربية، جعلهم بعيدين عن معرفة العالم الإسلامي ومنعهم من رؤية وفهم العديد من التفاصيل التي ظلت مجهولة لديهم أو اعتبرت كألغاز بالنسبة إليهم. فقد سمح لهم جهلهم المريح على الأقل، بامتياز أساسي، وهو عدم الانتباه إلى هذا الجانب المنفر في سلوك المغاربة والتحليق عاليا في السماء فوق فضائح شعب، تعتبر فئة منه فاسدة حتى النخاع.

والآن، كيف نوفق بين شعورين متناقضين في الظاهر وهما الورع الديني والخلاعة؟ وهل هناك شخص أكثر ورعا وفي نفس الوقت أكثر فسقا من الجبلي؟ إذا ما كنتم قد درستم التاريخ كفلاسفة، أي دون تعصب مذهبي ومن أجل البحث عن الحقيقة وحدها، فستلاحظون بأن التعصب هو سبب كل الكوارث والمصائب التي أثرت سلبا في كوكبنا التعيس على مدى قرون وفي كل الأوطان.

فمن المجزرة الرهيبة التي قام بها اللاويون Lévites بعد عبادة العجل الذهبي إلى مذبحة سان برتليمي Saint Berthelemy التي لا تقل فظاعة، مرورا بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وتعذيب ميشال سرفي Michel Servet وخنق المعمدانيين وجهاد المسلمين[12]

[12] يعتقد الجهلة بأن المسلمين كانوا في عصرهم الذهبي، من أشد المتعصبين. صحيح أنهم أراقوا سيولا من الدماء لنشر الإسلام؛ لكن بعد انتهاء مرحلة الجهاد، أصبحوا متسامحين نسبيا. وفي جميع الأحوال كانوا أقل قساوة من كل المنتسبين إلى الديانات المنزلة الأخرى. ولن تجدوا في كتب التاريخ قرنا أفظع من القرن الذي استعاد فيه المسيحيون الأندلس.

والفظاعات الجسدية لعائلة بورجياس Borgias والمتعصبين الشهيرين في كل الديانات؛ لم يعرف كوكبنا لحظة توقف مع هؤلاء المسعورين الرهيبين الذين ألحقوا العار بكل الفرق والمذاهب والأحزاب والكنائس. وسيبين لكم التاريخ المحايد بأن هذا الجنون الديني وهذا التعصب الفظيع لا يتعارضان مع الشهوة، فهي تتلاءم معهما مثل تلاؤمها مع كل الرذائل والآثام والأهواء المنحطة.

لنقم مثلا، بزيارة قرية جبلية خلال أيام العيد؛ وسترون بأن السكان يطلقون العنان لكل شهواتهم دون أن يتخلوا عن أي طقس من الطقوس الإلزامية لدينهم. إنما الليلة السابقة على العيد الصغير الذي يلي رمضان. وقد اقتضت العادة أن تخصص هذه الليلة الأخيرة للصلوات قبل الاحتفالات الكبيرة للأيام القادمة.

وابتداء من الساعة التاسعة ليلا، يجتمع الرجال بالمسجد ويتلون سور القرآن من أولها إلى آخرها بورع كبير. هكذا سيتلون بدون تعب أو كلل، أكثر من ثلاث مائة صفحة، مع توقفات قصيرة لشحن أصواتهم من جديد.

وعند الفجر، تتلى آخر آية قرآنية وهي: "من الجنة والناس"، فيهرع كل المؤمنين نحو الصومعة حاملين بنادقهم ويتكدسون بالسطح وبالداخل وحتى داخل البرج الصغير؛ حيث تبدو الصومعة وكأنها ستنهار تحت وزنهم.

هكذا ستعلن الطلقات النارية التي يكررها الصدى وأيضا الطلقات الصادرة عن القرى الأخرى المجاورة، عن نهاية الصيام وبداية العيد. وسينزل الرماة إلى باحة المسجد التي تم ملؤها بالأطعمة؛ وهم لن يلمسوا الطعام بل سيشرعون في الوضوء وسيتجهون إلى قاعة الصلاة. ويا له من مشهد مثير سيقدمه هذا الشعب المصلي ! ذلك أن مئات الجباه المنحنية فوق صوف الزرابي، ستنتصب بعد قليل وستنسى لحظات الخضوع والابتهالات داخل بيت الله، حيث اتخذ الجميع هيئة وقورة شبيهة بهيئة التماثيل أو الرهبان.

وبشكل مفاجئ، ستغطي الطلقات النارية الكلمات الأخيرة للإمام ويتحول أصحاب الهيئة الوقورة الذين يشبهون الرهبان، إلى محاربين وأي محاربين ! سيتخذون هيئة مقاتلين قساة reitres وعنيفين وأصحاب أهواء لا حد لها. هكذا يبدأ الاحتفال ويتبادل الأشخاص قبلة السلام على الكتف فيما بينهم ويمتلئ المسجد بكل أنواع الأطعمة، فترى الصحون الخشبية

[القصاع]، الممتلئة عن آخرها بالكسكس واللحم؛ والصحون المقعرة المليئة بالعجائن والترائد والزبدة والزيت والتين.
وتتكون مجموعات داخل قاعة الصلاة على شكل دائرة يتواجد بمركزها أعيان القرية ومعلمها. وتشرع الأيادي في إعداد كرويات الكسكس التي توجد بمهارة إلى الفم دون أن تخطئ هدفها. وهناك بعض الأكولين الذين يتحركون على أربع، باحثين عن العسل الموجود بالقصعة. وتسمع أصوات المضغ وإشارات من المعدة معلنة عن امتلائها. حينئذ يقوم شيخ بتلاوة الفاتحة بصوت مرتفع ويكررها الحضور بصوت منخفض؛ ثم يترك الجمع ما تبقى من الوليمة لفائدة المساكين والغرباء ويتوجه خارج القرية إلى مكان شبيه بالسرك، حيث تستمر نفس الألعاب التي هي عبارة عن معارك وهمية، إلى أن يحل الظلام. (13)
بعد الوليمة المسائية الكبرى المقامة كالعادة بالمسجد، سيتجه العزاب والشباب الذين ملؤوا بطونهم إلى حد التخمة، إلى بيت الصحفة لقضاء بقية السهرة.
في ذلك اليوم، كان الدرويش يتجول في قرية الصافيين، منتبها إلى العادات التي لم يكن يعرفها من قبل. وعند حلول الليل، انسل إلى ركن مظلم من المنزل المشؤوم، ليرى بعينيه المشهد الغريب الذي تعرضه ساكنة قليلة الحياء. ففي وسط القاعة، كان غلامان وفتاتان يقومون برقصات مثيرة على إيقاع موسيقى صاخبة، تعزف بواسطة الطبل والناي والگلال والغيطة. وكان الدخان الكثيف لغلايين الكيف وللمصابيح الزيتية والصراخ والضحك والحركة التي لا تتوقف والإيقاعات الصاخبة وحركات أجساد الراقصين وشبه غيبوبة الحاضرين والرائحة النتنة الفظيعة للمكان الذي يفتقد إلى الهواء النقي، كان كل ذلك يصيب رحالتنا بالذهول الشديد. وكان يميز بالكاد، بين أسلحة هؤلاء الفجار الملقاة بجانب الحائط والمكونة من البنادق العربية المعروفة والخناجر وأوعية البارود وأغشية السيوف. أما أولئك الذين لم ينسطلوا بعد برائحة الكيف، فقد كانوا ممددين على ظهورهم أو على بطونهم وحولهم ركام من التين والزبيب وصحون كبيرة من اللحم والدجاج المشوي أو المبخر والكسكس وأباريق وكؤوس الشاي "والصامت" المسكر. (14)

---

(13) وهي لا تختلف عن الألعاب التي تقام بالريف، انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 143.

(14) انظر المرجع السابق، ص. 61.

وكان الغلمان والمومسات يتوقفون أحيانا عن الرقص ويندسون وسط المجموعات ويردون على الكلام البذيء بحركات مثيرة. والملاحظ أن الغلمان كانوا أكثر وقاحة بهذا الخصوص.
هكذا، فإن آلاف المتهتكين في هذه المنطقة الرائعة بجبالة المسماة ب "الشام الصغير" نظرا لجمال طبيعتها، من تطوان إلى نهر سبو، يقومون في لياليهم الحمراء، بتشجيع عناصر من الجنسين على الرذيلة.
وكان بجوار الدرويش شخص يتناول حبات اللوز ويشرب كأسا من الشاي ويبدو من ملامحه أنه جاد ولم يفقد وعيه. وتجرأ محمد على مخاطبته قائلا:
- ألا تفكرون أبدا في الموت؟
فانزعج الرجل من هذا السؤال غير المتوقع ورمق السائل الغريب بعيون قاسية لأنه تجرأ على نقد ضيوفه وأجابه وكأنه يخاطب جاسوسا:
- يا عزيزي، حينما يتوفر المرء على ما يريد وحينما يكون العيد هو عيد المسلمين، فهل هناك ما يمنع المرء من طلب المتعة؟
ولاحظ الدرويش الذي أراد التخفيف من الوقع السلبي لسؤاله الأول، بأن هذه العادات والتقاليد غير موجودة ببلاده بالشرق [الجزائر].
- هذا طبيعي ! لأن وجود النصراني في بلدكم يمنعكم من التعبير بكل تلقائية عن مشاعركم الدينية، في حين أننا هنا، نطلق العنان لحماسنا. اذهب عند بني زروال وسترى هناك أشياء مريعة. فنحن أناس عاديون بالمقارنة معهم. وتدخل شيخ، مدافعا عن الطالب الغريب قائلا:
- نعم، إن هذا الشرقي على حق؛ وأنا أخجل من الاحتقار المستمر الذي نناله من بني زروال. فلو لم يكن أبناء بلدي ذليلين مثل اليهود، لما انخرطوا في اللهو. آه ! إن بني زروال يعاملوننا مثل النساء ! فلا يمكن للفتاة أو للولد أن يبتعدا عن القرية وإلا تعرضا للاختطاف من طرف هؤلاء المحاربين القساة الذين يتجرؤون أحيانا على مهاجمتنا في عقر ديارنا واختطاف أطفالنا لتلبية رغباتهم السافلة؛ وعندما يقضون حاجاتهم منهم، يبيعونهم في الأسواق وغالبا ما نفقد أثرهم إلى الأبد.

- التنظيم العسكري:

لقد تمكن محمد من فتح حوار مع الشيخ المذكور وتعرف على المعطيات التالية: كل قرية من قرى جبالة تتوفر على بيت الصحفة المكون من غرفتين توجد في إحداها كل أسلحة وذخائر الحرب التي تمتلكها الجماعة، فهي عبارة عن مخزن للأسلحة arsenal؛ وتستخدم الثانية كثكنة يلجأ إليها العديد من الأفراد المنتمين لأدنى فئات المجتمع ولقطاع الطرق والرعاة الذين يقومون بمهمة جنود الحراسة؛ علما بأنهم جميعهم عزاب وأميون. ويمثل هؤلاء الرجال القوة العسكرية للقبيلة، فهم عبارة عن فصائل قارة مكلفة بالدفاع عن الأهل ومواجهة هجومات القبائل المجاورة وإعلان الحرب بهدف النهب أو الانتقام. ولا حاجة للتأكيد بأن هؤلاء المحاربين يسرقون وينهبون ويبتزون الضعفاء دوما ويسلبون المسافرين العزل الذين يمرون بأراضي الجماعة، كل أمتعتهم؛ لأن كل دوار أو قرية مغربية مستقلة هي بمثابة مجموعة غير خاضعة لأية سلطة ما دامت تحكم ذاتها عن طريق الجماعة كإطار سيادي مسؤول عن مصيرها.

وقد عمل الجبليون المتعلمون في غالبيتهم والمحتقرون لكل ما يرتبط بالأسلحة والحروب كمجال خاص بالرعاع، على خلق مليشيات محلية مكونة من الأميين. ومن باب المقارنة، ففي الريف، هذا البلد المحارب بامتياز والذي لم يحظ أهاليه إلا بالقليل من التعليم، يعتبر كل واحد مقاتلا، إلى درجة أن الطفل يشعر بالفخر والاعتزاز والسعادة عندما يحمل البندقية. بالمقابل، يظل التمييز قائما لدى جبالة، فالطلبة والمتزوجون لا يقاتلون إلا في اللحظات الحرجة، عندما يهدد العدو المنتصر بإحراق وتدمير كل شيء. ولهذا، يتعين أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الوضع، حينما نريد تقييم عدد السكان الجبليين، إذ يجب أن نضرب عدد المقاتلين في سبعة لنحصل على العدد التقريبي للساكنة.

ونوجد هنا أمام نواة لتنظيم عسكري لم يخطر على بالنا من قبل. ودون أن نجازف بفرضيات غير مقبولة، يمكننا تصور جميع هؤلاء المحاربين ضمن فصيل واحد، يصبح عبارة عن قوات مسلحة وطنية قادرة في الأوقات الحرجة، على مقاومة الأعداء بشكل فعال وغير متوقع. ولربما حققت الظروف هذه المعجزة أكثر مما سيحققها تخطيط العباقرة. وفي انتظار ذلك، فإن جبالة وكل أهالي الأقاليم المستقلة داخل هذه الفوضى المنظمة an archie

organisée التي تسمى المغرب، قادرون بفعل قوتهم العسكرية وحدها، على التخلص من السلطة الحكومية التي تفرض نفسها على السكان الخاضعين لطغيان الملك الصغير بفاس.
طبعا، فإن الطلبة المجدين والأشخاص الورعين والضيوف المحترمين لا يعيرون اهتماما لبيت الصحفة كمكان موبوء. ومع ذلك، قد يضل بعض الطلبة التافهين وبعض الأزواج الخائنين، داخل معبد الشهوة هذا.
لقد مر الوقت بسرعة وبلغت الساعة الواحدة صباحا، ومازال الشيخ الفصيح المعجب بمخاطبه اليقظ يرغب في استمرار الحديث حتى طلوع الفجر. لكن الدرويش قاطع هذا السيل من الكلمات وغادر المكان باتجاه المسجد من أجل النوم.
وفي الغد، تابع طريقه تاركا أهالي الصافيين المنهمكين في احتفالاتهم التي ستدوم يومين آخرين. وظل سائرا بمحاذاة واد فشتالة وهو غدير ملئ بالأسماك ورافد من روافد ورغة، يجري وسط منطقة مليئة بأشجار البرتقال ذات الفواكه الضخمة. وبعد أن اجتاز العديد من القرى المتواجدة وسط مناطق خضراء، توقف بالبهاليل المتواجدة بشمال القبيلة. وكالعادة، وجد حسن الضيافة بالمسجد.

القرى الرئيسية بفشتالة

- الصافيين، على واد فشتالة، 300 منزل، ويوجد بها ضريح مولاي بوشتى الخمار الشهير.
- القليعة 100 منزل
- البهاليل 100 منزل، شمال القبيلة

القوى العسكرية: 800 من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 5600 نسمة؛ التعليم القرآني منتشر بكثرة. وتوجد في كل مكان، تلال مكسوة بأشجار الفواكه. وهناك حوالي عشرين قرية متفرقة داخل القبيلة.

- المصادر التاريخية الرئيسية التي اعتمدت عليها:

سيكون ابن خلدون حتما هو دليلي الذي سأرجع إليه أكثر من غيره. كما سأستثمر العمل الهام لفورنيل Fournel وعنوانه "الأمازيغ"؛ وهو كتاب رائع وأكاديمي يتميز بنقده العميق والمتنور. وفي بعض الأحيان، أتصفح الترجمة الجميلة التي قام بها هوداس Houdas لكل من "نزهة الهادي" و "الترجمان ".

غير أن الكاتب الذي أفادني كثيرا بعد ابن خلدون هو بدون منازع أحمد بن خالد الناصري السلاوي، صاحب "كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى". ويتألف هذا الكتاب، في طبعته الأصلية بالعربية، من أربعة أجزاء، صادرة بالقاهرة سنة 1312 هجرية موافق لسنة 1895 ميلادية. ولم يتم إخباري بوجوده إلا في بداية صيف السنة الموالية لتاريخ صدوره.

وكم كانت فرحتي عظيمة باقتنائه، فقد وجدت أخيرا، تاريخا كاملا للمغرب سيسهل مهمتي التي وجدت صعوبة في القيام بها عند كتابة الجزء الأول من هذا العمل، نظرا لغياب الوثائق. وكنت آمل أن أجد رؤية شاملة ووقائع مضبوطة وتفاصيل دقيقة حول العادات والتقاليد والقواعد والتجارة والفلاحة والسكان وأيضا بعض المفاهيم الجغرافية الجديدة. لكن للأسف، خاب ظني.

فمن الزاوية الأدبية الخالصة، يحتوي كتاب الاستقصا على أصالة مميزة. وأنا أتحدث هنا عن الصفحات التي لم يكتف فيها المؤلف بنقل ما قاله المؤرخون السابقون. ففي الأماكن المتفرقة هنا وهناك، استعمل السلاوي بسهولة وبأسلوب دقيق، هذه الأداة الممتنعة والغنية التي نسميها اللغة العربية. وهو يحظى بامتياز نادر لدى الكتاب من أبناء عرقه، يتمثل في أسلوبه الواضح والسلس دون إطناب وفي رغبة الكاتب في أن يفهم من طرف الجميع. أما من زاوية المفهوم الواسع والعلمي للتاريخ، فتلك مسألة أخرى. فالعلوم التاريخية لدى المسلمين، مختلفة عن علومنا الحديثة لأنها ما زالت في مرحلتها الأدبية إن لم نقل الجنينية، كما هو الشأن بالنسبة لكل الحضارات التي لم تكتمل بعد.

وعليكم ألا تطالبوهم بعمل قائم على النقاش والنقد ولا برسم لوحة عن الحياة الاجتماعية وتطور العادات والوسائل المادية للشعب ولا أية رؤية فلسفية. فخارج الأحداث وأخبار الملوك والشخصيات الدموية بهذا القدر أو ذاك؛ وباستثناء مشاهد المجازر وهمجية الحرب، لن تتوفروا إلا على معلومات شحيحة حول ما يهمكم بالأساس.

لهذا، يجب أن نتعامل مع مؤرخنا بالمغرب كما هو، بإيجابياته القليلة وسلبياته الكثيرة وبتعصبه وتحيزه المعلن وعدم تسامحه الديني و حقده وخوفه من النصراني. لكننا نعترف له مع ذلك بذكر العديد من المؤلفين المغاربة المجهولين وإن كان يمر عليهم مرور الكرام. من جهة أخرى، فهو يفضل الحديث عن إنتاجه الشعري بدل إعطاء توضيحات حول المرحلة الغامضة من فترة حكم بني وطاس، حيث يعرض لهذه الأسرة الحاكمة باقتضاب دون أن يقدم جديدا في الموضوع. لكن الرجل يتمتع بأصالة خاصة حينما يعلن للعالم بأن ابنه ولد مختونا ! [الجزء الرابع، ص. 353]؛ وتتجلى أصالته أكثر في دفاعه الحماسي عن الأمة المغربية. وهذا أمر جاد ويتعين إعطاؤه ما يستحق من اهتمام.

طبعا، فإن هذه النداءات اليائسة لن تسمع من طرف الغالبية العظمى لمواطنيه، لكنها تكشف مع ذلك عن روح قلقة وعن بداية يقظة وطنية حديثة مثيرة للفضول وعن انزعاج إزاء الخطر الخارجي. وهذه أعراض خطيرة تجهلها الدبلوماسية الأروبية. فهي بمثابة تمهيد للتطور السيكولوجي والسياسي الكبير الذي يتهيأ بالمغرب والذي أصبح قائما على ما يبدو وسط الطبقات العليا بالمجتمع الإسلامي. وباختصار، فإن كتاب أحمد بن خالد المهم [وهو ما يزال حيا بسلا، مسقط رأسه] قد وفر لي، رغم اقتضابه، معلومات غير مسبوقة ما كان بإمكاني أن أجدها في مكان آخر. وستكون هناك مناسبات، سأعترف فيها بفضله بل وسأكيل له المديح couvrir de fleurs. أما على المستوى الجغرافي، فهو لم يفدني في شيء؛ ومن الواضح أنه غير مطلع على جغرافية بلده الذي يتحدث عنه.

ولا يسمح المقام هنا، بتفصيل القول في ندرة الوثائق التاريخية المتعلقة بالمغرب الأقصى. ويرجع جهلنا في الغالب إلى المغاربة أنفسهم لأنهم لا يذكرون العديد من المؤرخين والكتاب وناسخي المخطوطات القديمة التي يمكن لفحصها أن يميط اللثام عن حقائق متوقعة، بخصوص إحدى أكثر الإمبراطوريات غموضا.[15]

وقد حاولت دون جدوى، شراء أحد هذه المخطوطات النادرة بثمن باهظ، لكن صعوبات غير متوقعة حالت دون ذلك في آخر لحظة. وبذلك باءت كل محاولاتي بالفشل.

[15] يمكن لعشاق الأرقام، أن يسجلوا ضمن كتاب الاستقصا عددا هائلا من أسماء المؤرخين المغاربة المجهولين بأروبا.

وأخيرا، فإن العمل الجيد لماس لاتري Mas Latrie الأكثر أهمية وإفادة من كل سرد للمجازر البشرية، سيساعدني بشكل كبير، على إلقاء الضوء التاريخي وإعادة الاعتبار للشعوب القديمة التي أسيء فهمها باعتبارها منتسبة "الدول همجية".[16]

نبذة تاريخية عن فشتالة

هي قبيلة صنهاجية ذات أصل أمازيغي. وقد شغلت في القرن الرابع عشر، الجزء الذي يفصل سلسلة الأطلس عن جبال الريف. وتسمح لنا هذه المعلومة الصادرة عن ابن خلدون باستنتاج أن قبيلة فشتالة مازالت قائمة بنفس الرقعة الجغرافية التي ذكرها مؤرخ البربر العظيم. ففي تلك الفترة [القرن الرابع عشر]، كانت تزاول الفلاحة وحياكة الملابس، وهذه المهنة الأخيرة جعلتها تنعت، مثل القبائل الصنهاجية الأخرى ب "صنهاجة الملابس".

وقد عربت فشتالة تماما في القرن الرابع عشر وكانت تؤدي الضريبة للدولة الحاكمة [انظر ابن خلدون، الجزء الثاني ص. 123 من ترجمة دوسلان.

ملحوظة المترجم: يتعلق الأمر بكتاب العبر الذي عرف من خلال ترجماته بتاريخ البربر [Histoire de Berbères.

وفي سنة 1237 خرجت عن طوق الموحدين وأعلنت ولاءها للمرينيين الذين سيبادرون بإرسال الجباة إلى هذه القبيلة لاستخلاص الضرائب أيضا.

وقد كتب دوسلان اسم القبيلة كما يلي Fichtala بدل Féchtala واشتكى في العديد من ملاحظاته التي أرفقها بترجمته الجميلة لتاريخ البربر من التغييرات الحاصلة على كتابة الأسماء الأمازيغية في نص ابن خلدون. وسيقول بصريح العبارة في الملحوظة الأولى بالصفحة 173 من الجزء الأول ما يلي: "في الفصول المخصصة لتاريخ كل قبيلة حصل تشويه في نقل الأسماء. ويرجع خطأ الكاتب في كونه لم يضبط كتابة الكلمات حرفا حرفا على طريقة فقهاء اللغة العرب، وهو الأمر الذي كان سيوقف عمليات التشويه التي طالت هذه الأسماء. وهذه الملاحظة صائبة؛ لكن وجبت الإشارة إلى أن ابن خلدون لم يكن يعرف

---

(16) Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations Chrétiennes au moyen âge., Paris, 1886.

الأمازيغية بكل تأكيد[17]. فأثناء نقله لكلمات هذه اللغة لم يحتط بما فيه الكفاية من المخاطر الثلاثة الآتية وهي:

1) السماع السيئ لهذه الكلمات الغريبة.
2) عدم صلاحية الأحرف العربية لنقلها.
3) إهمال وجهل الناسخين.

ولم يكن اللاحقون، أي المؤرخون الذين جاؤوا بعده واهتموا بتاريخ الشعوب الأمازيغية، أفضل منه. فقد كانوا يحتقرون الأمازيغ وبذلك لم يدرسوا لغتهم وعاداتهم.[18]

غير أن الجهل بلغ ذروته لدى الكتاب المسيحيين الذين لم يترددوا في الحديث مطولا عن الشمال الغربي لإفريقيا، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعلم العربية والأمازيغية. فأغلب كتابنا تراجعوا أمام الصعوبة المرعبة لهذه الدراسة، دون أن يدركوا بأنهم سيصبحون حتما، إما منتحلين بدون ضمير أو جامعين للمعلومات بدون أي حس نقدي.

---

[17] انظر تاريخ البربر، الجزء الرابع، الصفحة 554، السطر الخامس وما يليه وملاحظة دوسلان بهذا الخصوص.

[18] وإليكم حجة على ذلك: فقد قام الشاعر العربي الأندلسي خلف بن فرج السميسر، بصياغة بيتين شعريين يتهجم فيهما على الأمازيغ، حيث قال متهكما:

رأيت آدم في نومي فقلت له *** أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابرة نسل منك، قال إذن*** حواء طالق إن كان الذي زعموا

- انظر الاستقصا، الجزء الأول، مذكور، ص. 30

قبيلة ســــلاس

بعد مغادرته لفشتالة، قرر الدرويش القيام بجولة كبيرة في منطقة بني زروال. وكان قد عرج على البهاليل حيث يوجد العديد من أصدقائه الطلبة. بعد ذلك، توجه إلى سوق الجمعة بأراضي سلاس واضطر لاجتياز قبيلة بني ورياكْل الصغيرة رفقة مجموعة من الطلبة قبل أن يصل إلى السوق. وتوجد عند مدخل هذا الأخير قبة بيضاء بنيت فوق قبر الولي سيدي السني. وهذا الولي الصالح من أصل ليبي؛ وكان قد استقر منذ قرون خلت بمنطقة سلاس، بعد مغادرته لموطنه وتوفي بها معظما ومحترما. وبالفعل، فهو السيد المبجل من طرف كل متعصبي المنطقة، حيث أن القبيلة برمتها تعترف بقداسته. وبفضل حمايته، فإن مجموعة صغيرة من السلاسيين على ما يبدو، يمكنها أن تواجه الجماعات الرهيبة القادمة من الحياينة. وعندما تنضج الفواكه، وهو ما يحصل دوما في هذه البلاد الغنية، تقام الاحتفالات على شرف الولي ويحرق البخور والطيب تحت قبته وتنظم العديد من الولائم الإحسانية حول ضريحه.

ولأن محمدا كان مطالبا بالتطهر قبل ولوج الضريح، فقد تيمم بحجرة وقام بعد ذلك بفحص المكان الذي لم يكن مختلفا عن باقي الأضرحة التي زارها؛ ولعل الشيء المميز بداخله هو الثوب المطرز بخيوط ذهبية والذي يغطي القبر [الكسوة]. وبشكل ورع تلا الدرويش سورة الملك[1] قبل أن يغادر المكان متوجها إلى السوق.

وهناك شرع في مراقبة ما يجري حوله، مبتدئا بالموقع الذي تحتله النساء. فقد كن يجلسن على الأرض ويعرضن بضاعتهن المكونة من الدجاج والبيض والصوف المنسوج والقطن وأيضا من أصناف من البيض المطبوخ والمختلف الألوان، أحمر وأصفر وأسود، بحسب الأعشاب التي أضيفت له.

وكان ثمن دزينة من البيض لا يتعدى قرشين وثمن الدجاجة يساوي عشرين سنتيما من عملتنا، أما العجل القوي فثمنه خمسة وعشرون فرنكا وثمن تيس كبير لا يتعدى أربعة فرنكات. ولا يوجد أي خروف في السوق حيث يعرض لحم العجل فقط. بالمقابل، فإن أثمان الثمر والسكر التي تأتي بها القوافل، باهظة الثمن.

---

[1] انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 89 وأيضا ص. 10 و 11.

وكانت قبيلة سلاس والقبائل المجاورة لها تتاجر في أزهار الآس والريحان التي كانت تصدر إلى تافيلالت لصباغة الجلود والأحذية وحافظات النقود.

ويتواجد بالسوق عدد كبير من تجار دائرة فاس الذين يشترون الفواكه وخصوصا البرقوق والمشمش المجففين. وهناك حوالي ألفي شخص يتاجرون بالسوق دون أن يتخلى أي واحد منهم عن بندقيته المغربية الطويلة.

ـ معركة وهمية:

دأب محمد على المجيء إلى سوق الجمعة كلما كانت هناك "وعدة" على شرف سيدي السني. وكان أهم احتفال بالمنطقة هو عيد المولد النبوي. ففي صباح العيد، يكون كل أفراد القبيلة مستعدين لمختلف الاحتفالات التي يحضرها العديد من الأجانب القادمين أحيانا من أماكن بعيدة جدا. وما أن تشرق الشمس، حتى يشكل السلاسيون أربعة طوابير طويلة، تتجه نحو ضريح الولي، مسبوقة بالرايات والطبول والمزامير. كما يوجد بمقدمة الصفوف المعلمون والغلمان الذين يتمايلون على إيقاع الموسيقى الصاخبة. ويتم طهي سبعة عجول وتهيئ جبال من الكسكس التي تنتظر قدوم الوافدين. ورغم شراهة الحاضرين، سواء كانوا فقراء أو أغنياء رجالا أو نساء أو أطفالا، فإن الأطعمة لا تنفذ، بل ستظل هناك صحون من الكسكس وقطع كبيرة من اللحم، في انتظار المتأخرين الذين سيلتهمونها عن آخرها.

ويبدأ العرض بألعاب الفروسية، حيث يقوم حوالي مائة من الفرسان بمعارك وهمية، يكرون فيها ويفرون ويطلقون عيارات نارية. وقد عاين الدرويش في ذلك اليوم موت ثلاثة فرسان بأحصنتهم، بعضهم نتيجة السقوط والبعض الآخر بفعل رصاصات دست ببنادقهم عن قصد أو بدونه. وبعد ألعاب الفروسية مباشرة، تبدأ ألعاب الراجلين، فتقام دائرة من خمسمائة إلى ستمائة رجل وتحيط بحوالي عشرين محاربا يمارسون كل الحيل الحربية؛ فبعضهم يزحف على بطنه باحثا عن مكان للاختباء، والبعض الآخر يقفز ويدور في مكانه أو ينبطح ثم يقف على رجليه؛ وتتكرر هذه الحكايات الغريبة مرات عديدة وهي تقليد لحركات أتباع سيدي أحمد بنموسى [أولاد أحماد أوموسى].

وتستمر هذه العملية بدون خطة ولا انضباط وفجأة يتعالى الصراخ وتنفث البنادق نيرانها ودخانها ثم يقذف بها عاليا ويتم تلقفها ثم قذفها من جديد. وتأتي مجموعة أخرى لتأخذ مكان الأولى وتقوم بنفس الحركات وهكذا يستمر الاحتفال إلى حلول الظلام.

ولم يبد أي تأثر على الجمهور من جراء موت أربعة أشخاص بسبب إصابتهم بطلقات نارية. وعلى ما يظهر، فإن الضحايا السبع، وهم الفرسان الثلاثة والراجلون الأربعة، قد حققوا نبوءة الولي المحبوب لدى السلاسيين. فقبل موته، أمر السني أتباعه بتنظيم "الوعدة" كل سنة قرب ضريحه، مرفوقة بألعاب الفروسيةéquestres والمعارك الوهمية على الأقدام pédestres وأضاف على ما يبدو قائلا:

- أنبهكم إلى أن سبعة منكم سيلقون حتفهم في كل "وعدة".

وغالبا ما تتحقق هذه النبوءة الرهيبة؛ وبطبيعة الحال، فإن الأحقاد والأخذ بالثأر، تجدها مناسبة للتحقق على أرض الواقع. وفي جميع الأحوال فإن إمكانية تلقي رصاصة بالرأس لا تخيف أحدا لأن الناس يقبلون بكثافة، في كل سنة، إلى هذه "الوعدة" غير الآمنة.

وهناك كرامات أخرى تنسب إلى هذا الولي الصالح ومن أشهرها الكرامة التالية: كان يوجد بالمكان الذي سيدفن فيه لاحقا، منبع مائي رائع، تجري مياهه وسط الحقول. وفي اليوم الأول من وصوله إلى سلاس، شرع الرحالة الطرابلسي الذي كان عطشانا، في الارتواء من هذه المياه الصافية والعذبة. وفجأة تبادرت إلى ذهنه فكرة غريبة. فقد نزل مائة خطوة أسفل المنبع، متبعا تعرجات الجدول. بعد ذلك، توقف عن السير ورفع عصاه المأخوذة من شجرة زيتون، ثم بدأ يضرب الأرض بقوة وبحنق شديد، مما جعل المياه تتسرب في باطن الأرض.

وإلى يومنا هذا، فإن الجدول يختفي بشكل فجائي في هذا المكان. طبعا، فإن ظاهرة ضياع مياه الجدول الصغير التي لا يفهمها الأهالي، ستعتبر كرامة من كرامات سيد القبيلة. وبالنسبة لي، فإن غرابة أطوار هذا الولي تبدو لي أكثر غموضا من اختفاء الجدول.

إن مساحة قبيلة سلاس الصغيرة لا تتجاوز أربعة كيلومترات طولا وعرضا. وتغطى تلالها الصغيرة بأشجار الزيتون والكروم، كما يخترق غدير صغير هذه المنطقة الغنية التي لم يتمكن جيرانها الأقوياء بالشمال والجنوب من إفقارها. وتعتبر العربية هي اللغة المتداولة فيها، كما هوة الشأن في جل مناطق جبالة، باستثناء بعض أهالي غمارة الذين يتكلمون

الأمازيغية، وهو ما سنشير إليه في حينه. أما العادات والتقاليد والملابس، فتشبه تلك الموجودة بفشتالة.

من جهة أخرى، فإن قبيلة سلاس تهاب بني زروال الذين يعتبرون أسيادها الحقيقيين بدون منازع. وقد عاين الدرويش مرارا الهلع الذي يبثه هؤلاء الجبليون الأشداء في جيرانهم الضعفاء. ففي أحد الأيام، كان بعض العزاب في طريق عودتهم إلى قرية الجمعة وبرفقتهم غلام اشتروه من بني ورياڭل. وفجأة حاصرتهم مجموعة من مليشيا قرية البياض الموجودة جنوب قرية الجمعة. وبعد معركة حامية بين الطرفين، استطاع المهاجمون أخذ الغلام. وبدأت إثر ذلك، حرب مناوشات بين القريتين. وبلغ الخبر مسامع بني زروال الذين أرسلوا عشرين مقاتلا من المشاة fantassins، كلفوا بالعمل على إرجاع الغلام إلى أصحابه. وقد شعر أهالي البياض بالرعب عند وصول مبعوثي القبيلة الكبيرة. هكذا، وبقدرة قادر، ستنتهي المعارك وسيعاد الشاب الفاسد infect إلى مالكيه كما سيتم إيواء المقاتلين الزرواليين في منزل شيخ الجمعة نفسه. ونظرا لهذا الإزعاج، أمرت القريتان بدفع غرامة إلى الوسطاء الذين سيعودون إلى قبيلتهم معززين، مكرمين من جراء هذا العمل البسيط. من جانب آخر، فإن نساء القبائل الأربع المحاذية بعضها لبعض وهي: فشتالة، بني ورياڭل، سلاس، الجاية، يتحجبن على طريقة مسلمات تلمسان. فهن يرتدين ملابس قطنية داخل المنازل ويلبسن الحايك الصوفي عند خروجهن.

القرى الرئيسية بسلاس

- سيدي حسون، المعروف لدى الأهالي باسم سيدي عبد الله بن حسون؛ وهي قرية صغيرة من 20 منزلا، موجودة بالضفة اليمنى من واد سلاس. ولسيدي حسون ضريحان، الأول بسلا والثاني بسلاس.
- سيدي السني، 100 منزل، محاطة ببساتين الفواكه.
- البياض، 10 منزل، موجودة على تل مغطى بالأشجار.
- أومليل [التسمية أمازيغية وتعني أبيض]، 100 منزل وتربتها ذات لون أبيض مائل إلى الصفرة.

- الجمعة، 100 منزل؛ ويوجد عند أحد أطرافها سوق هام بنفس الاسم، يبيع فيه صيادو السمك الشابل والبوري، وهي أسماك تصطاد خلال فصل الربيع بنهر ورغة وبمصب واد سلاس؛ ويقوم الصيادون بحصر مياه النهر؛ وعند حلول الليل يدفع السمك جهة السد حيث تم نصب شباك كبيرة ويتم أيضا اصطياد الأنقليس anguille ونوع آخر من السمك يدعوه سكان المنطقة كلب البحر وهو يشبه كثيرا سمك اللياء raie. وتأتي هذه الأسماك جميعها من المحيط الأطلسي، فتصعد نهر سبو في فصل الربيع وتمكث بنهر ورغة حتى الصيف لتعود ثانية إلى البحر.
- أولاد صالح، 100 منزل عند الحدود الشمالية للقبيلة.

القوى العسكرية : 800 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 5600 نسمة؛ التعليم منتشر بكثرة، وفي كل مكان، توجد تلال مكسوة بأشجار الفواكه. وهناك حولي عشرين قرية لم أتمكن من التعرف على اسمها. كما يوجد منجمان لم يستغلا بعد وهما منجم للكبريت بالشمال الغربي ومنجم للفضة بالوسط.

نبذة تاريخية عن سلاس:

كانت هذه القبيلة الصغيرة المذكورة بالصدفة في كتاب الاستقصا، غير مستقرة على ما يبدو. فوليها المبجل أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي، الملقب بابن حسون، اضطر إلى الهجرة فرارا من الفوضى الرهيبة التي جعلت منطقته عرضة للاقتتال الدائم. وقد استقر بسلا حيث توفي سنة 1013 هجرية (1604 ميلادية). [انظر، الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 146].

قبيلة الجايـــــــة

من قرية إلى أخرى، تمكن الرحالة الجريء، مشيا على الأقدام وملتزما بقاعدة رؤية وفحص كل شيء، من بلوغ الأراضي الصغيرة جدا لقبيلة الجاية. وعلى طول الطريق، امتدت أشجار الفواكه والبساتين والجداول والينابيع المائية والقرى، بدون انقطاع. وقد سبق بفاس، أن أخبر بجمال هذه المنطقة الصغيرة وبجاذبية نسائها وبلطف رجالها. وكان بعض السلاسيين متجهين إلى سوق الجاية، فرافقهم الدرويش؛ وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع في كل مكان وحتى بداخل الأكواخ البسيطة، أصوات المزامير والطبول والدفوف المجلجلة، وعندما استفسر عن الأمر، قيل له إن الجاية تحتفل باستمرار، نظرا للخصوبة الرائعة لبساتينها؛ وأضاف محاوروه بأن بإمكان الجاية أن تكون جنة أرضية، لولا الشطط الذي يقوم به جنود السلطان بأراضيها من جهة، والاجتياح المدمر الذي يقوم به أهالي بني زروال الرهيبون، من جهة أخرى.

وعندما وصلوا إلى حدود الجاية قال السلاسيون للدرويش: عليك الآن أن تتدبر أمرك، فنحن نوجد في منطقة أجنبية ولن نفيدك في شيء.

لكن محمدا لم يعر هذا الكلام أي اهتمام، فقد كان مأخوذا بجمال المكان ومعجبا بأشجار الفواكه وبالبساتين المزروعة حول المساكن وبالقرى العديدة والمتجاورة. وانفصل عن رفاقه ليتأمل في وجوه الرجال والنساء الذين يمرون أمامه. ورغم كون النساء محجبات، فإنهن كن يشحن بوجوههن عندما يقابلن شخصا أجنبيا. وكان الغلمان يمشون بتمايل أمام مجموعة من العزاب المسلحين الذين لا يجدون غضاضة في عرضهم أمام الملأ "كأدوات" لتلبية رغباتهم الدنيئة.

ويدعى سوق الجاية بسوق الأربعاء، وهذا يعني أنه يقام كل يوم أربعاء في مكان فسيح، قريب من قرية الزراردة الكبيرة.

وتوقف محمد عند رأس تلة مطلة على السوق؛ ومن هناك تمكن من رؤية القبيلة برمتها، بتعرجاتها المليئة بالأشجار وبأوديتها الخصبة. وأخبره أحد المارين قائلا:

- لا توجد بهذه الغابات أية أشجار شوكية. فهناك بالأساس أشجار الآس والريحان والدردار والفستق والصنوبر والبرتقال والعنب والزيتون. وهذا المظهر الممتع للقبيلة جعلها تلقب

بالبهجة. انظر أمامك، فبالقرب منا توجد قرية عين الريحان وبعيدا عنها من جهة الشمال، هناك قرية عين بوتلة وعين الزيتون وعين الصفصاف.[1]

ـ صناعة الحبر:

يتميز سوق الجمعة بشساعته، بحيث توجد به كل منتوجات المنطقة. وباستثناء قرية أولاد قرون التي يزرع فيها شيء من الذرة والشعير، فإن باقي أهالي الجاية يهملون الفلاحة. فمنطقتهم الجميلة التي غالبا ما يتم تشبيهها بسوريا، تمنحهم أنواعا كثيرة من الفواكه. وهم يقايضونها بالحبوب التي تجلبها القوافل القادمة من دائرة فاس. وبينما يحدد النشاط الرئيسي للقرى الأربع المذكورة سابقا في تجارة الصوف والكتان، فإن قرى السيوان والصنوبر والزبر مشواط تهتم خصيصا بصناعة الصمغ أي الحبر المستعمل كثيرا في المغرب. ويتم الحصول عليه كما يلي: تحرق قرون الماعز أو الخراف حتى تصبح رمادا؛ ويوضع هذا الأخير في قدر مليئة بالماء على النار، وبعد ساعات من الغليان تكون عجينة كثيفة وتسكب في قوالب دائرة ومسطحة قطرها خمسة وعشرون سنتيمترا تقريبا. ويباع الصمغ الذي تحول إلى قرص غامق اللون، بشكل جيد، حيث يشتريه تجار طنجة وتطوان وفاس بالجملة، بخمس سنتيمات للدزينة. وهذه المادة هي الوحيدة المعروفة في أغلب مناطق الامبراطورية؛ ويكفي تذويبها في الماء، للحصول على حبر متوسط الجودة.

وعندنا في وهران، يصنع التلاميذ المسلمون الصمغ بأنفسهم، حيث يقومون بتسخين كمية من الصوف غير المغسول داخل طاجين ويغطونه بحجرة كبيرة ضاغطة. وعندما يتحول الصوف إلى عجين، يخلط بالماء ويوضع في المحابر، ليتحول إلى سائل أصفر، يستعمله الطلبة في غياب البديل.

---

[1] تتوفر كل من فشتالة وبني ورياكّل وسلاس، مثل الجاية، على أربعة أقسام Fractions. وقد تذكر محمد بن الطيب أقسام الجاية، لكن ذاكرته القوية لم تستطع مع ذلك الاحتفاظ بأسماء أقسام القبائل الثلاث الأخرى.

واعترف لي صراحة بأنه لا يستطيع حفظ أسماء العديد من القرى والجبال والجداول بجبالة وبالدوائر الأخرى بالمغرب. ورغم ذلك، لا ننكر بأن هذا الرحالة الرائع، قد مد لوحده علم الجغرافيا المغربي بمادة ضخمة من المعلومات. ولن يكون للنقد أي معنى، إذا ما عمل على مؤاخذة هذا الرجل البدائي الذي لم يسبق له أن دون ولو ملاحظة واحدة، على نسيانه لبعض الأسماء وعلى كونه لم يذكر سوى بضع مئات منها وعلى عدم توفره في آخر المطاف على ذاكرة ربانية ! فهل سيعير المرء اهتمامه لغدير يابس في أغلب شهور السنة، وهو يؤاخذ المحيط على قلة مياهه؟ !

ـ موسم الصلحاء:

من بين قرى الجاية المأهولة خصيصا بحفدة الرسول، نذكر تالغزا، الحوتة والكدية. ومن بين الأولياء الذين يحظون بالتبجيل هناك سيدي عبد الرحمن وهو سيد زاوية تحمل اسمه وسيدي على بن الحسن وسيدي لحسن أدجانا وسيدي أحمد الحجام وسيدي بومدين وسيدي لحسن قنبور. وتعرف قبور هؤلاء الصلحاء الذين تنسب لهم الأسطورة العديد من الكرامات، بواسطة قبب بيضاء مبنية فوقها. هكذا، ففي اليوم السابع من عيد المولد النبوي يقام موسم الصلحاء المغاربة. ومع ذلك، فإن بعض الأولياء يحتفى بهم في اليوم الرابع عشر من العيد والبعض الآخر، من بين أكثرهم شهرة، يحتفى بهم كل أسبوع طوال هذا الشهر المبارك الذي يوافق شهر ربيع الثاني. وقد سبق لي في الجزء الأول من هذا الكتاب أن تحدثت عن هذا الموضوع وعن "الوعدة" لدى الريفيين.[2]

وبالنسبة لجبالة، فإن هذه الولائم الإحسانية تكتسي طابعا مهيبا واحتفاليا أكثر مما هو عليه الأمر في الريف. فالقبائل تأتي من كل المناطق لزيارة الولي، حاملة الرايات ومسبوقة بالموسيقى الصاخبة. وعلى مدى ثلاثة أيام، تقام الولائم وتقدم فيها الأطعمة بشكل مفرط ويتقاطر الزوار على قبر الولي الصالح متوسلين إليه لتحقيق رغباتهم. وأحيانا ما نسمع دعوات ساذجة من قبيل: "الله يا ربي، نتوسل بهذا السيد، لولا فضلك عليه ما جينا نزوروه".

ـ كرامات الولي قنبور:

إن سيدي الحاج قنبور مدفون بقرية الزاوية؛ وقد نال التعظيم بسبب الكرامات المنسوبة إليه والتي سيحس أشهر القديسين النصارى واليهود، بالدونية أمامها. وكانت حياته تعج بهذه الكرامات التي يحكي الرواة نماذج عنها خلال السهرات حول قبره. فقد شوهد في نفس اليوم والساعة وهو يصلي بمكانين متباعدين. وحصل ذلك يوم الجمعة، فبينما كانت الحشود تشاهده وهو يقيم الصلاة بمسجد الأندلس بفاس، كان قرويو الزاوية في نفس اللحظة، يشاهدونه وهو يصلي بمسجد القرية. وبعد أن شاع خبر هذه الكرامة، بلغ مجد الولي الأوج، مما جعله يقبل وظيفة مربي ولي عهد الشريف في تلك الفترة وأيضا ابن أخيه الأصغر.

---

[2] انظر، المغرب المجهول، مذكور، الصفحات 68، 142، 143.

وفي أحد الأيام، وبينما كان يدرس الأمراء روائع سيدي خليل[3]، كان السلطان يتجول على ظهر جواده، على بعد عشرين ميلا من القصر. وفجأة تعثر الحصان وكاد أن يلقي براكبه في هاوية سحيقة؛ آنذاك صرخ العاهل مناديا: يا سيدي الحاج قنبور ! وفي نفس اللحظة ظهر الولي وأعاد السلطان فوق السرج ثم اختفى. وقد مكنته هذه الكرامة من الحصول على قصر رائع بفاس وعلى الإعفاء من الضرائب وعلى معاش ووعد من العاهل ببناء ضريح للولي إن توفي قبله. ويعلم جميع الأهالي بأن قنبور حج إلى مكة في خمسة أيام ذهابا وأيابا. هكذا، قطع هذا الكائن المميز المسافة بين فاس والمدينة المقدسة بسرعة تتجاوز أفضل قطاراتنا.

طبعا إن هذه الأكاذيب ذات الصبغة الدينية وهذه الأساطير الطفولية، تلهب المخيلة والورع الشعبيين وترفع التعصب المغربي إلى أعلى المراتب. لكن علينا ألا نتهكم كثيرا من هذه الخرافات المميزة لعرق محروم من حسنات العلم. ولنتذكر بأننا لم نخرج من هذه الظلمات إلا منذ أمد قصير؛ وما زالت أمور غامضة قائمة لدى الأوطان المتحضرة أو التي تزعم أنها كذلك.

- الغلمـــان:

كان لا بد أن يخضع الدرويش كإنسان، لإغراءات الجسد أثناء عبوره لهذا البلد المختلف عن موطنه. وقد رفض من قبل، كل الفرص التي سنحت له، متلافيا الخوض في ما لا يعنيه ومتجنبا المتاجرين بأجسادهم من الجنسين. غير أن مقامه ببني زروال حيث احتفل ثلاث مرات بعيد الأضحى سنوات 1872 و 1873 و 1874 كان وبالا عليه.[4]

ففي سنة 1874 عاد إلى الجاية وتحديدا إلى قرية بني بوزلاط، بعد تجوال قاده حتى البحر الأبيض المتوسط. ولسوء حظه، ارتبط به طالب صغير السن، يوجد الكثير من أشباهه بالمدارس الجبلية، وأصبح وفيا له ومتعلما على يديه.

هكذا أصبح محمد يعامل كأمير وتكفل الغلام بكل الأشغال، بما في ذلك تسخين الماء من أجل معلمه واستجداء الطعام له وجلب كل الأشياء الممتعة التي يرغب فيها. وفي صبيحة أحد

---

[3] نفس المرجع السابق، ص. 191.

[4] نفس المرجع السابق، ص. 48.

الأيام، وتحديدا في يوم الأربعاء، أعلن الدرويش لخادمه، عن نيته في استصحابه معه إلى سوق الأربعاء، قرب زراردة، كمكافأة له على خدماته. فصاح الولد مبتهجا:

- لنذهب فورا.

وانطلقا سيرا على الأقدام. وكان من عادة الجبليين ألا يستصحبوا معهم الغلمان أو العايلات، دون شراء ما يسمى عندهم ب"المحاسين" أي الزبيب والجوز واللوز والبرتقال والحلويات؛ لأن الذهاب إلى السوق هو يوم عيد بالنسبة لهؤلاء البؤساء. لهذا، فإن محمدا أشبع تلميذه بقطع الحلوى التي اشتراها بقرشين أو ثلاثة قروش حصل عليها جراء بيعه لبعض الأحجبة. وبعد أن تبضعا، غادرا السوق. وأثناء صعودهما العقبة المحاذية لزراردة، انتبها إلى وجوه أشخاص يسيرون وراءهما. وكان هؤلاء الأشخاص يرتدون جلابيب سوداء ويحملون بنادقهم على أكتافهم ويتمنطقون بالسيوف.

وأسرع هؤلاء الصعاليك الخطى إلى أن لحقوا بالدرويش وتلميذه، فأمروا هذا الأخير الذي كان يرتعد خوفا، بالتوقف صائحين:

- قف أيها العايل.

وعلى الفور، انسل شخص قوي البنية من المجموعة وأخذ الغلام من يده وجره نحو الغابة. وفي نفس الآن، أوقف عنصران الدرويش وباشرا استنطاقه:

- من أين أنت؟
- من صنهاجة
- والعايل؟
- من بني زروال
- كيف؟ أنت صنهاجي وتسمح لنفسك بخطف عايل من قبيلتنا.

وبين لهم الدرويش بأنه معلم يسهر على تعليم الولد القرآن. واعتقادا منه بأنه سيؤثر في هؤلاء الصعاليك، خاطبهم قائلا:

- لا تنسوا بأنني صديق القايد

وكان الرد عبارة عن شتائم فظيعة وساخرة جاء فيها:

- ارجع إلى أمك، أنت وقايدك القواد !

وانهال أحدهم على رأسه بغشاء سيفه، فسقط أرضا، وفي رمشة عين تم تجريده من قميصه وسلب كتبه. وقبل أن يغادر أولائك الأوغاد المكان، هددوه قائلين:

- إذا وجدناك مرة أخرى بالقبيلة، فإننا سنقطع رأسك.

وغابوا وراء الأشجار في اتجاه مختطف العايل الذي كان صراخه يصل إلى مسامع سيده السيئ الحظ. وقد رجع هذا الأخير توا إلى القرية وهو على يقين بأن عصابة من أهاليها هي وحدها القادرة على القيام بهذه الجريمة. ودخل مسرعا إلى دكان حائك وهو مرعوب، مما أثار انتباه السكان. وعندما سئل عما إذا كان العايل المرافق له قد انتزع منه، ما دام الأمر مألوفا عند جبالة، أجاب بالنفي، لأنه لم يكن مستعدا لرواية قصته على هؤلاء الأشخاص المشبوهين، فمن المحتمل أن يكون من بينهم صديق أو قريب لأحد المعتدين.

بعد ذلك، ذهب إلى المسجد حيث كان الطلبة يتلون القرآن الكريم وجلس بجانبهم. وعندما حل الظلام، انتبه إلى حركة غير عادية صادرة عن الطلبة الذين كانوا يدخلون ويخرجون في كل لحظة. وسأل طالبا بجواره:

- ما الذي يحدث؟

فكان الجواب:

- لا شيء، إنه عايل هارب وأعتقد بأنه قدم من السوق.

وقال الدرويش في قرارة نفسه: لا يمكن أن يكون سوى هو؛ فيا للولد الجريء ! لقد تخلص من تلك العصابة.

وخرج الدرويش من المسجد ليجد الغلام واقفا عند الباب، محاطا بمجموعة من الطلبة الذين يخطبون وده. وعند رؤيته لسيده، اندفع العايل باتجاهه وانزوى به بعيدا ثم روى له كيف أن المعتدين، وبعد أن قضوا حاجتهم منه، اصطحبوه معهم إلى هذه القرية ببيت الصحفة، حيث أجبر على الرقص مع غلمان آخرين ومع العايلات. وقد انتهز فرصة انشغال سجانيه geôliers وهرب. وهو يشعر الآن برعب مضاعف أمام هؤلاء الطلبة المتفسخين الذين يرغبون في إخضاعه لعملية "التويزة" الرهيبة.

فلدى هؤلاء المتوحشين، عادةلا أخلاقية فظيعة بشكل مستفز وهي كما يلي: عندما يتم الاستيلاء على عايل أو عايلة، نتيجة سطو أو حرب، فإن طلبة المسجد أو عزاب بيت

الصحفة، يأمرون الضحية بالرقص أمامهم. بعد ذلك، يتناوب كل الحاضرين على اغتصاب هذه الضحية البئيسة.

وهذه الفظاعة التي يمكن اعتبارها من أسوأ الممارسات الموجودة على الأرض، تسمى "التويزة"، تشبيها لها بعملية متبعة في زراعة الأرض لدى العرب. ويعاقب بالتويزة كل عايل وكل عايلة حاولا التخلص من أسيادهما أو سرقتهم أو عصيانهم الخ.

وقد نهج الدرويش سلوكا حكيما، حيث لم يخبر أي أحد بما وقع لتلميذه؛ لأنه لو شاع الخبر، فإن الطلبة سيكونون أول من سيعيد الغلام إلى فاسقي بيت الصحفة. لذلك، اعتقدوا بأن الصديقين انفصلا لسبب ما وسمحوا لهما بمغادرة المسجد. وكان الثمن بالنسبة للدرويش، هو فقدان قميصه وكتبه؛ إلا أنه تفادى الإعلان عن ذلك.

وعندما رجع إلى قرية بني بوزلاط، لم يخبر أحدا بما وقع، خصوصا وأن الأمر يتعلق بإهدار للكرامة. وأخفى سره عن الجميع، بما في ذلك صديقه قايد الجاية، الحاج أحمد عبابو. وللإشارة، فإن هذا الأخير، يشغل حاليا وظيفته إمام مسجد بدار المخزن بمراكش. ويرجع ذلك إلى كون أهالي الجاية طالبوا المخزن بتخليصهم منه، بسبب اختلاساته المالية. وبالفعل، أمر عبابو بالحضور إلى البلاط السلطاني. وقد سجنه السلطان مولاي عبد العزيز في البداية، لكن عندما استجوبه تبين له ذكاءه النفاذ وسعة اطلاعه؛ واعتبر بأن بإمكان هذا العلامة أن يقدم خدمات كبيرة للعرش، رغم التهم الخطيرة التي وجهت إليه. ولأن عم صاحب الجلالة الشريف، مولاي العباس عامل مراكش، كان في نظر القصر مشبوها، لأنه كان يطمع في العرش، فقد كلف القايد السابق بمراقبته وعين إماما لديه أو لنقل مرشده الروحي. وبذلك استقر به المقام في عاصمة الجنوب حيث سيلتقي به الدرويش سنة 1895، عند زيارته القصيرة للمدينة. وقد أحسن القايد القديم ضيافة الجوال وعرفه على بعض خبايا ودسائس السياسة المغربية وسمح له بالالتقاء بشخصيات هامة اعتقدت بأن الدرويش رجل ساذج غير مشبوه. وكان هذا الساذج المزعوم يلاحظ كل شيء ويسجل في ذاكرته الهائلة كل ما يسمع ويرى.

وقبل مغادرته نهائيا للجاية، قام محمد بزيارة أخيرة لسوق الأربعاء. وبينما هو خارج من السوق بعد أن استقى معلومات من بعض الزرواليين الذين كان ينوي زيارة قبيلتهم، التقى

بشحاذة من الحيانية. وقد فرحت المرأة بلقاء إنسان بئيس مثلها ورأت فيه الشخص الذي سيحميها إلى حين بلوغ أول قرية. ولأن ابن الطيب مسالم بطبعه، فقد أخبرها بأن عادة جبالة لا تسمح له بالارتباط معها. وكانت المرأة في حوالي الثلاثين من عمرها وأجبرتها ظروفها البائسة على مغادرة منطقتها واللجوء إلى جبالة للتسول. وبينما هي تروي للدرويش قصتها إذا بثلاثة أشخاص من بني زروال يقتربون منها مخاطبين الدرويش بلهجتهم المحلية:

- ڭوز الليها يا ابن الكافر.[5]

فرد عليهم الدرويش قائلا:

- إنها قريبتي

- إن الأمر سيان، حتى ولو كانت ابنتك. اذهب يا ابن الكلب.

وأخذوا معهم المتسولة وشرعوا يدفعونها ويضربونها بأعقاب بنادقهم. وكانت المرأة تنتحب وتحاول الهرب وتندب وجهها وتمد يدها إلى الرحالة صارخة بكل قوة:

- لا أريد الذهاب معهم! لا أريد الذهاب معهم ! وكانت تلك هي آخر الكلمات التي سمعها الدرويش، فقد أدار ظهره وتابع مسيرته باطمئنان باتجاه زراردة.

القرى الرئيسية بالجاية

قسم بني بوزلاط

- بني بوزلاط، على ضفاف واد الجاية؛ وهي قرية كبيرة من 500 منزل وتتكون من أربعة دواوير متقاربة.
- زبر المشوط، 300 منزل وتشمل على خمسة دواوير وهي مقر إقامة قاضي القبيلة وكان يدعى سنة 1874 ولد الحايك؛ وصناعتها الرئيسية هي الصمغ.
- عين الريحان، 100 منزل، سميت كذلك بسبب العين التي تنبع من غابة الريحان، قرب القرية. وقد احتفل فيها الدرويش بعيد الأضحى سنة 1874.[6]

---

[5] لفظة " ڭوز" هي تحويل لفعل الأمر جز. وسيجد القارئ فيما بعد معلومات متعلقة بلغة جبالة.

[6] بخصوص احتفالات محمد بن الطيب بعيد الأضحى، في هذا الجزء أو ذاك من الإمبراطورية المغربية، انظر، المغرب المجهول، مرجع مذكور، ص. 48.

- بووليد، 100 منزل؛ سكانها جميعهم شرفاء. وتوجد بها أضرحة سيدي الحجام وسيدي بومدين وسيدي داوود. ووسط القرية هناك عين ماء وافرة تظللها شجرة جوز قديمة. وشرق العين يوجد قبر سيدي الحجام والجامع الكبير الذي تلقى فيه خطبة الجمعة باسم السلطان.
- الميزاب، 100 منزل. وهي تتعرض لاجتياح بني زروال الدائم. وفي إحدى الليالي حاصروها وقتلوا حوالي خمسين فردا وأبقوا على أرواح الأجانب الغرباء المتواجدين بالمسجد ومن بينهم الدرويش. ومنذ سنوات والمزابيون يطالبون عاهل المغرب بحمايتهم، لكن بدون جدوى. ولا يستطيع حلفاؤهم أنفسهم التدخل لصالحهم،لخوفهم الشديد من هؤلاء الأعداء القساة.
- عين بوتيلا، 100 منزل، على رأس تلة. ويجد بها الضريح الرائع لسيدي لحسن أجانا؛ وهو من قسم بني أجان، قبيلة غياثة [دائرة البرابر]. وهناك ضريح آخر لهذا الولي على ضفاف واد اللبن بقبيلة الحياينة [دائرة فاس]. ويوجد بالقرية منبع عذب المياه.

قســـم تالغـــزا

- تالغزا [الشجرة الكبيرة]، التسمية أمازيغية[7] 100 منزل، فوق قمة جبل تالغزا. ويجري واد المزاز عند المنحدر الجنوبي لهذا الجبل.
- عين الزيتون، 100 منزل، على واد الجاية. وتوجد عين ماء جارية بالقرية، قرب شجرة زيتون ضخمة.
- عين الصفصاف، 50 منزلا.

قســـم بني محمـــــد

- بني محمد، 500 منزل، على واد الجاية.
- ظهر خشب، 100 منزل، على الضفة اليسرى من واد الجاية.

---

[7] تدعى الشجرة الكبيرة "قيقب" بالدارجة المغربية والجزائرية.

- زاوية مولاي عبد الرحمن؛ ويقضي أعضاء هذه الزاوية جل أوقاتهم في نسخ بعض الكتب كالقرآن الكريم وسيدي خليل ويبيعونها في كل نواحي المغرب. ويوجد بهذه الزاوية قبر كل من مولاي عبد الرحمن والحاج الحسن قنبور. وتحمل هذه الكلمة الأخيرة نفس معنى الكلمة الجزائرية "البوش" [وهو وعاء من الطين يمخض فيه الحليب]. وكما يلاحظ، فإن هذه القرية تسمى اختصارا بالزاوية.
- عين بوتيلا، 100 منزل؛ وهي أقل شهرة من القرية التي تحمل نفس الاسم بقسم بوزلاط.
- أولاد قرون، وتتكون من عشرة دواوير صغيرة يشمل كل واحد منها عشرين نسمة تقريبا؛ ويتميز سكانها بمزاولتهم للفلاحة، على عكس أهالي القبيلة الآخرين. وتكسى الأرض في العديد من الأماكن بأشواك التوت الوحشي وبالزرنيخ، كما هو الشأن عند جيرانهم الحياينة.
- تيزي الأربعاء، 100 منزل، على واد ورغة وبأسفل التل. ويقام بها سوق كل يوم أربعاء؛ وأغلب سكانها ريفيون، وهو يشتغلون كمزارعين بزاوية سيدي الحمومي. كما تعتبر المنطقة برمتها ملكا لحبوس هذه الزاوية الغنية.

قســـــم السيـــــوان

- السيوان، 100 منزل، أهم صناعة بها هي صناعة الصمغ.
- الصنوبر، وتشمل خمسة دواوير. ويعود اسمها إلى شجرة الصنوبر الضخمة المتواجدة بها والتي يوجد بجوارها منبع ذو مياه سوداء لا طعم لها، تصلح للغسيل فقط. وهناك منابع أخرى ذات مياه عذبة.
- زراردة، 500 منزل، وهي قرية كبيرة، مبنية على جانب منحدر. ويوجد المنبع الوحيد الذي يمدها بالمياه على ر أس تلة. ولتفادي الازدحام والنزاعات، عين حراس على هذا المنبع ينظمون عملية النهل منه.
- سوق الأربعاء، فوق هضبة جنوب زراردة، حيث يقام السوق الرئيسي للقبيلة، كل يوم أربعاء.

- بني حيان، 100 منزل، على الضفة اليسرى لواد الجاية.
- تيزي الحد[8]، 100 منزل على واد الجاية، بين السهل والجبل، غير بعيد عن نهر ورغة. سكان هذا الدوار ريفيون مزارعون بزاوية سيدي لحمومي؛ ويعتبر الدوار بكل أراضيه تابعا لأحباس هذه الزاوية الغنية.
- سيدي الجاي، 100 منزل. وكل سكان القرية متعلمون ونساخ للقرآن، بحيث يجيدون كتابته ويبيعون نسخا كثيرة منه. ويقال أنهم يؤلفون بعض الكتب ! ويوجد قبر سيدي الجاي بهذه القرية.
- القوى العسكرية: 800 من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 5600 نسمة؛ التعليم منتشر بكثرة. وتوجد حوالي 15 قرية صغيرة متقاربة فيما بينها، لم أتمكن من تحديد أسمائها. ويشكل جبل تالغزا أكمة تمتد من الشمال إلى الجنوب ويجري واد المزاز عند سفحها.

نبذة تاريخية عـــن الجايـــة

بعد أن هزم الناصر ابن السلطان الغالب بالله بالحاجب، حيث كان يطمع في العرش؛ هرب من ساحة المعركة ولجأ إلى الجاية؛ وهي منطقة موجودة ببلاد الزبيب. وقد تمكن وريث العرش، وهو المامون، من القبض عليه وقتله وإرسال رأسه إلى مراكش. وحدث ذلك سنة 1004 أو 1005 هجرية موافق ل 1595 أو 1596 ميلادية.[9]

---

[8] تنطق الكلمة في المغرب والجزائر، بالعربية الفصحى.

[9] انظر الاستقصا، مذكور، المجلد الثالث، ص 72، السطر 24 وما يليه.

قبيلة بني زروال [1]

نجد الآن أنفسنا لأول مرة، بقبيلة جبلية كبيرة وقوية؛ بل يمكن القول إنها أكبر وأقوى قبيلة في المغرب برمته. فبإمكانها أن تعبئ في ظرف أربع وعشرين ساعة، 30 ألف محارب محترف للقيام بحملتها العسكرية، دون أن نحصي جنود الاحتياط المتكونين من المتعلمين والمتزوجين.

وليس هناك أي تعقيد في وضع تحديد هندسي لهذه القبيلة التي تحتل منطقة شاسعة. تصوروا معي مثلثا كبيرا، يغوص رأسه شمالا داخل قبيلة غمارة وترتكز قاعدته في الجنوب على الحياينة [دائرة فاس] والجاية وسلاس وبني ورياكّل.

وتبلغ المسافة من الشمال إلى الجنوب 70 كيلومترا تقريبا، أما بين الشرق والغرب، فإن الاتساع يختلف من منطقة إلى أخرى. وبني متيوة وبين أحمد السراق تصل المسافة إلى 40 كيلومترا وتتقلص تدريجيا كلما صعدنا باتجاه غمارة، بحيث تصل إلى 12 كيلومترا في الرأس الشمالي للمثلث و 10 كيلومترات في النقطة الجنوبية المحاذية للأراضي الخاضعة للسلطان.

وعلى مدى هذه المسافة الشاسعة، توجد جبال شاهقة بالشمال، عند حدود غمارة وكتامة. أما في الشرق، فإن جرف البهموت الذي سنتحدث عنه بعد قليل، هو عبارة عن مرتفع يفصل الوادي المحاذي لواد المزاز عن الوادي المحادي لواد بني ياذمي. وتنتشر باقي أجزاء القبيلة على سهل مليء إلى حد ما بمئات التلال المشجرة، الممتدة من الشمال إلى الجنوب، بموازاة مع الجداول الخمسة التي تسقي هذه المنطقة الجميلة. وهناك مئات من القرى الكبيرة التي يشبه بعضها مدنا صغيرة منتشرة في أماكن تجهلها خرائطنا التي تضع بدلها بياضات وتترك فراغات.

---

[1] زروال أو أزراولو، كلمتان أمازيغيتان، مازالتا تستعملان من طرف جبالة للإشارة إلى نبتة كثيرة العقد؛ وقد تمكنت من رؤيتها بوهران. وتوجد بالقبايل قرية تابعة لآيت سعيد تسمى أوزرويل. انظر بهذا الخصوص:

Hanoteau et Le Tourneaux, La Kabylie, tome 1er, p. 287.

هنا، نوجد في قلب بلاد السيبة، هذه البلاد الثائرة والمستقلة التي تتهكم من شبح عاهل شريف تخضع لطغيانه قبائل قليلة، يشكل مجموعها بالكاد، خمس هذه المنطقة ذات الموقع الرائع والتي ينتظرها مستقبل سياسي وتجاري زاهر.

بعد مغادرته لقبيلة الجاية وولوجه أراضي بني زروال، التقى محمد في الطريق الضيقة التي كان يسير فيها، مجموعة من الرجال المسلحين ، يتجولون وسط أشجار الفواكه. وكانوا منقسمين إلى مجموعات صغيرة، يرافق كل واحد منها عايل أو عايلة بالإضافة إلى عدد من الموسيقيين الذين كانوا يعزفون على العود والرباب والكمنجة. وكانوا يرتدون جلابيب سوداء ويحملون البنادق فوق أكتافهم وهم حاسرو الرؤوس ويمسك كل واحد منهم بحيوان ابن مقرض [النمس] furet الذي يستخدم في عملية القنص. وكانوا يضحكون ويتبادلون الحديث بصوت مرتفع ويعبرون عن بهجتهم التي تضاعفت عند رؤيتهم لأجنبي لا يحمل معه أي سلاح. ولترهيبه، خاطبوه قائلين:

- من أين أتيت وإلى أين أنت ذاهب؟

ولما أجابهم الدرويش بأنه قادم من الجاية ويرغب في الاستقرار ببني زروال. قالوا ضاحكين:

- لقد نجوت يا ابن ألف عاهرة ! لو لم توجد بأراضينا، لكنا قطعنا رأس أمك، لكي تتعلم السفر إلى بلاد الأجانب !

ويترجم هذا الكلام الفظ وهذه السخرية البذيئة المقرونة بإشارات معبرة، بأمانة عن الخطاب المألوف للمتهتكين الجبليين. طبعا، فقد كان هؤلاء الفجرة قاطعو الطريق، مستعدين لنهب أي شخص يلتقونه، غير أنهم أحجموا عن ذلك ولم يمسوا الدرويش، بل دلوه على الطريق المؤدية إلى عين باردة حيث كان يروم متابعة دروسه بمدرستها الشهيرة، وكان عليه إتباع مجرى واد المزاز لبلوغ هدفه.

هكذا، تغير موقفهم الساخر وتحول إلى شبه تبجيل لهذا المتسول الذي اعتقدوا بأنه من أولياء الله الصالحين. وبعد مروره بالعديد من القرى المتفرقة على جنبات الغدير وصل محمد إلى عين باردة عند المساء.

وتشتمل هذه القرية على خمسة دواوير من 100 إلى 200 منزل، بعيدة بعضها عن بعض بحوالي 300 أو 400 متر؛ مما يجعلها شبيهة بمدينة صغيرة.

ويدعى الدوار الأول دشر عونان أو جامع عونان ويوجد به أكبر مسجد بالقرية، وهو الوحيد الذي تتلى فيه خطبة الجمعة، من حيث الشكل طبعا. ويدعى الدوار الثاني جماعة الرقيبة والثالث دشر الريف والرابع جماعة الستر والخامس دشر الزاوية.

وتبدو عين باردة شاسعة بدواويرها الخمسة المتكئة على جرف البهموت، وهو عبارة عن صخرة أو جدار عمودي طوله ثلاثون كيلومترا، حفر به القدماء العديد من الكهوف. وتسقى الدواوير الخمسة بواسطة عين ذات مياه صافية وعذبة، يتعين النزول إليها عبر أدراج بنيت بطريقة غير متقنة. ويسمح للنساء المتزوجات وللفتيات ذوات السمعة الطيبة فقط، بالنهل منها؛ أما الرجال فيمنع عليهم منعا كليا الاقتراب منها. ويتعرض كل مخالف لهذا الأمر، لعقوبة شديدة. ورغم الخلاعة المتفشية بكثرة، فإن عادات البلد لا تتسامح مع الزنى.

وإذا ما ضبط مرتكب لهذه الفاحشة، فإنه يطاف به في أزقة القرية وعلى ظهره بردعة حمار، ثم تفقأ عيناه بمنجل حام. ويسهم هذا القانون الصارم في تفادي معارك دامية بين الأهالي الأفظاظ الذين يعيشون في حالة فوضى. وترتدي النساء المحصنات ببني زروال الحجاب؛ وإذا ما حدث أن التقى بهن المرء في طريقه، فعليه تجنب الاحتكاك بهن وعليه بالخصوص عدم مخاطبتهن. وقد نزل الدرويش الذي كان ادعاء الجنون أفضل وقاية له، إلى العين للارتواء. فوجد عدة نساء منهمكات في ملأ جرات من الطين وقرب مصنوعة من جلد التيس. ومن النظرة الأولى، اعتبر الرجل الغريب مجذوبا وتقيا، فأشفقت الحاضرات عليه وقدمن له الماء وسألنه من أين أتى.

وعندما علمن بأنه قدم من فاس، انشرحن ورفعن أيديهن نحو السماء بورع وخشوع وهتفن:

- شي الله يا مولاي إدريس.

وكان بعض الرجال يراقبون المشهد من بعيد،لكنهم لم يقلقوا من وجود رجل طيب وسط ربات بيوت مصونات يستجدين بركته.

بعد ذلك، توجه الدرويش إلى أقرب مسجد وهو مسجد عونان الأكبر الذي تلقى فيه خطبة الجمعة. وكان يوجد بداخله عدد كبير من الطلبة، كبارا وصغارا، منهم من بلغ سن الخامسة

والعشرين وكبرت لحيته ومنهم الأطفال الذين لا يتجاوز عمرهم السادسة أو السابعة؛ وكانوا جميعهم جالسين القرفصاء على حصائر، محتشدين بالمكان ويتلون بأعلى صوتهم آيات من القرآن الكريم. وكان بعضهم يقضي الوقت في تعلم القراءات المتنوعة للكتاب المقدس، وفق طرائق موضوعة من طرف الفقهاء.[2]

لقد اقتضت العادة الجبيلة بألا يتجاوز الطالب الأجنبي عتبة المدرسة، قبل أن يمنحه المعلم الرتبة.[3] وعندما يكون عدد الطلبة الأجانب بالقرية كبيرا ويعلن السكان عن عدم قدرتهم على رعاية المزيد، ترفض الرتبة ويضطر الطالب للبحث عنها في قرية أخرى.

وبالنسبة للدرويش، فبمجرد أن رآه المعلم بقاعة الصلاة، أرسل إليه طالبا صغير السن يخبره بقبوله من بين المرتبين [الممنوحين] بعونان. وفضلا عن الخبر، قدم له الولد سلة من الدوم مليئة بالفطائر والخبز والزبيب والرمان والتين والبيصار المصنوع من الفول ودقيق الشعير والثوم والزيت والفلفل الحار الذي يمنح نكهة خاصة لهذه الأكلة. ويعتبر البيصار أساس التغذية لدى الجبليين، فهم يأكلونه صباح مساء بقطع كبيرة من الخبز.

- **مضايقات مدرسية :**

بعد أن ملأ بطنه، استعد محمد لإغفاءة صغيرة، لكنه فوجئ بدخول المعلم؛ وهو رجل متميز غير متكبر ولا متعالم، كما هو الشأن للأسف، بالنسبة لأغلب المعلمين بالمغرب وبالعالم. فهو يرفض أن ينعت بالعالم ويعتبر بأن أكبر علامة على وجه الأرض، لا يعرف شيئا بالمقارنة مع ما يجب عليه معرفته. وكأب حنون، أخبر الدرويش وديا بما قد يحصل له من مضايقات، موضحا له خبايا العملية قائلا:

- ستواجه فترات قاسية، لأن طلبتنا الجبليين يتهكمون بشكل لاذع على الأجانب ولديهم كلمة رمز يتداولونها فيما بينهم ، للإشارة إلى ثلاثة أنواع من الأجانب وهم المشرقيون والريفيون والعرب. ويتعلق الأمر بكلمة "شراعة": فالشين تعني شرقاوة والراء تشير إلى الريفيين

---

[2] العاشر الصغير، العاشر الكبير، البصري، جزة، المكي فالون، الشامي، عاصم، البزي، فونبول، الورش؛ ويدعى هذا الأخير زين الخدود لأنه يعتبر من أبسط الطرق وأقلها غرابة.

[3] انظر، المغرب المجهول، مرجع مذكور، ص. 58.

ويقصد بالعين العرب. وعندما يريدون التهكم من طالب أجنبي، يخاطبونه قائلين، وهم على علم بأنه لن يفهمهم:

- أنت من حروف "شراعة".

ولأن القادم الجديد لا يفهم معنى هذه العبارة ويظل مشدوها، فإن جميع الطلبة يسخرون منه ويتمادون في مضايقته. فإذا كان ريفيا مثلا، فإن أحد الطلبة يفرض الصمت ويعلن قائلا:

- أيها السادة، إن الريفيين لا يعرفون شيئا، فالحمير أذكى منهم.

وطبعا فإن الأمازيغي سيغضب وسيحتج مستفسرا عن الأمر:

- لماذا تقول ذلك؟

وسيجيبه الطالب الجبلي:

- يا عزيزي لا تغضب، فلست معنيا بالأمر.

آنذاك سيصيح جميع الطلبة بصوت واحد:

- نعم، إن الريفيين حمير، لكن الحاضرين معنا منهم، يشكلون استثناء !

وترك المعلم الدرويش بعد أن طلب منه بألا يقلق إذا ما تعرض لسخرية الطلبة ولمح له بإمكانية سماعه لكلمات بذيئة وفاحشة وقاسية، سنتحدث عنها لاحقا.

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، وهي فترة الاستراحة، هرع الطلبة إلى ساحة المسجد للعب الكرة المملوءة بالصوف أو بنبات "الليف" [وهو نوع من الدوم] وذلك بقذفها بأرجلهم. وإذا كان الطلبة يفضلون لعب الكرة بهذه الطريقة، فإن الأميين يستعملون العصي أثناء لعبهم. فمن الريف إلى الصحراء، يلعب بعض الأهالي من العرب الكرة، مستخدمين عصي طويلة ومعقوفة؛ أما البرابرة الأكثر جرأة وقساوة من العرب، فإنهم لا يترددون في استعمال السيوف، بحيث يضربون الكرة بصفح plat سيفهم؛ ومن جانبهم، فإن سكان واد ورغة وواد نون، يفضلون ألعاب الفروسية والألعاب البهلوانية.

- معاقبة الزناة:

نسيت التحدث عن العقاب الذي ينتظر الزانية في بني زروال. ففي البداية تنال نفس المصير المخصص للرجل، أي بردعة الحمار على الظهر والطواف بأزقة القرية. لكن البقية تختلف.

فالمرأة التي تخون زوجها تتعرض للإهانة وتعذب أكثر من شريكها في الجريمة، قبل أن تقتل.

هكذا يؤتى بها إلى أكثر الأسواق اكتظاظا في القبيلة، لتنال أفظع الشتائم من أفواه الأشخاص المتعطشين لدمها. وعند وسط النهار، تلقى حتفها تحت ضربات العصي والسكاكين. وإذا ما حدث أن بقيت على قيد الحياة عند حلول المغرب، فإن رصاصة في الرأس تنهي عذابها.

وإذن هل يبدو لكم عذاب المنجل الحامي الذي تفقأ به عينا الزاني أفظع من هذا الاحتضار الرهيب؟

إن هذا الوضع هو الذي يفسر تهتك العزاب واستمتاعهم بالغلمان والمومسات، لأنه يستحيل عليهم تقريبا، مضاجعة امرأة متزوجة، لما يثيره العقاب على هذه الجريمة من رعب في النفوس. وإذا كنا نسخر من هذا الفعل في أروبا، فإنه يظل شنيعا مع ذلك، لكونه يدمر الأسر ويرفع عنها أفضل ما يملك الإنسان معنويا في هذا العالم، ألا وهو الشرف.

ولهذا السبب، تتم تلبية الرغبات بمطاردة الغلمان والفتيات. والويل للفتاة التي تبتعد عن قريتها، إذ يتم خطفها من طرف قطاع الطرق بالدواوير المجاورة، لتنضاف إلى عدد البئيسات الموجودات ببيت الصحفة. وعندما يحتاج أسيادها إلى المال أو يرغبون في تبديلها، فإنهم يبيعونها في السوق كأمة وترسل إلى مكان فاحش آخر، بقبيلة بعيدة، حيث يستحيل عليها الهروب.

ويلقى الأولاد المخطوفون نفس مصير الفتيات التعيسات. ويتلخص وجودهم ببيت الصحفة في الرقص والشرب والأكل والنوم وبأن يكونوا رهن إشارة أسيادهم وضيوفهم المحتفى بهم ، كأجساد مطواعة بين أيدي هؤلاء الوحوش. وقد يبدو لهم هذا الوجود غير محتمل، لولا تعودهم التدريجي عليه، إلى درجة عدم تصورهم لما هو أفضل منه.

ونريد الآن طي هذه الفظا عات التي تحدث لهؤلاء المتعهرين من الجنسين. فنحن لا نرغب في الغوص داخل هذا المستنقع الذي دفعتنا الضرورة إلى تحريكه بقلمنا مع سد أنفنا. ولننتقل إلى موضوع أقل كآبة وقرفا؛ وهو يهم جانبا آخر من عادات المغاربة وإن كان غير مسل في الحقيقة، إلا أنه يقدم لنا فكرة عن مستوى جهل الشعوب الإسلامية الخاضعة لإمبراطورية الشرفاء.

- سحر وشعوذة وعجز جنسي :

في أحد الأيام الجميلة، وصل محمد بن الطيب إلى مزوارة ببني زروال، بعد غيبة دامت سنوات بالحياينة. وكان جائعا جدا، لأنه لم يتناول أي شيء منذ الليلة الماضية. لذلك دخل المسجد أملا في العثور على بعض الطعام. والتقى هناك بالطلبة الذين كانوا قد انتهوا من الأكل؛ غير أنهم أخبرو بأنهم أتوا على كل شيء، بما في ذلك الفتات.

فقد كان الريفيون الذين يسكنون مزوارة غير مضيافين، فهم أمازيغيون حريصون على الربح âpres au gain وعاملون مجدون، لهذا فهم يقدمون لطلبة المسجد الطعام الضروري للتغذية، دون أن يضيفوا ولو صحنا واحدا، تحسبا لمجئ غريب. وكان من اللازم على الأجنبي المتأخر، انتظار طعام العشاء والصبر على الجوع. طبعا، فإن الدرويش كان على علم بهذه العادة المؤسفة، لذلك انزوى بركن بعيد عن المسجد. ورآه فلاح ريفي أثارته هيئته الغريبة، فاقترب منه وجلس بجواره وسأله بتمازيغث قائلا :

-thessenet attar [هل تعرف الكتابة] ؟

فأجابه محمد على الفور :

-Essener [أنا أعرف].

وكان انتفاخ وجه وعينا الرجل وجلده الملفوح وتدلي شفته السفلى، كان كل ذلك يشير إلى الحالة المزرية التي يوجد عليها جسده. وقد فسر للدرويش بلغة فظة وكلمات غير مهذبة، كيف أن كل أعضائه بدون استثناء، لم تعد تستجيب سوى لقوانين الجاذبية [أي أنها متجهة نحو الأسفل] ويتعين تحريره من وضعية العطالة هاته التي هي بمثابة كابوس بالنسبة لرغباته الجنسية.

ومثل كل طلبة إفريقيا الشمالية، فقد كان محمد ومازال مقتنعا بأن العجز الجنسي ناتج عن أطعمة غريبة وصف لي مكوناتها بدقة. فالمرأة المغربية الراغبة في وضع حد لخيانة زوجها تقضي على رجولته بالكامل، بإطعامه دون علم منه خليطا مقرفا من مخ الضبع ودم وشعر الإنسان وقطع من كفن الميت، حيث تمزج هذه الأشياء لتصبح عجينا فيما بعد.

ومن خلال العلامات البادية عليه، اعتقد هذا الرجل البئيس بأنه مسحور واعتبر بأن عجزه الجنسي راجع إلى عمل سحري. ولا يمكن لأي طبيب ولا أية امرأة خبيرة إبطال هذا العمل

الذي يتعرض له الذكر بهدف القضاء على رجولته. فمن اللازم تخليصه بأساليب أخرى، وهنا تبرز أهمية الطلبة لأنهم وحدهم القادرون على إرجاع الرجولة المفقودة بواسطتهم فنهم السحري. ولا يصدق المرء ما يسمعه من تفاصيل صادمة بهذا الخصوص، تذكرنا بقروننا الوسطى وبأزمنة القرارات الصادرة عن الكنيسة والتي يمكن للفضوليين في إطارها، قراءة النصوص الشهيرة حول البرود الجنسي الناجم عن السحر [De frigidis et maleficiatis] .

ورغم ذكائه المتميز، فإن ابن الطيب ظل مقتنعا بأن العجز الجنسي ناتج عن تناول هذه الأطعمة المقرفة التي ذكرناها؛ وهو يقر بأن الوصفات العلاجية لزملائه الطلبة، هي مجرد مراوغات وأشياء لا قيمة لها، لن تقنع سوى البلداء الذين يلجؤون إليها. ولأنه لم يكن يتوفر حينها على كتاب ولا على ورقة لكتابة الحجاب، فقد ابتكر حيلة غريبة، يمكن أن تنطلي على هذا الرجل الأمي الذي يتعين مداهنته للحصول على الغذاء. هكذا أمر الرجل بأن يحضر له بيضة، فسارع هذا الأخير بجلبها من منزله. وطلب منه الدرويش الابتعاد قليلا لسبب من الأسباب، ثم قام بتكسير البيضة وإفراغ نصفها وملئها من جديد ببعض العظام الدقيقة الحجم وبقطع جلدية صغيرة وبالشعر؛ ثم أعاد القشرة إلى مكانها وأخفى البيضة تحت ثيابه. بعد ذلك، نادى على الأمازيغي وطلب منه إحضار بيضة أخرى، لأن الأولى سقطت منه سهوا، على حد زعمه. وبالفعل أحضر الرجل الذي لم يساوره الشك في أي شيء، بيضة ثانية. وبسرعة استبدلها محمد بالأولى وكتب فوقها بعض الحروف التي لا معنى لها، ثم مررها فوق صدر القروي جهة القلب وهو يدمدم ببعض الكلمات القبالية.[4]

ومد البيضة إلى الرجل المريض قائلا:

- خذها واكسرها وعليك ألا تخف عند كسرها.

فامتثل الرجل المرتبك للأمر وكسر البيضة؛ وكم كانت دهشته كبيرة عند رؤية المواد الغريبة داخلها، مما جعله يصرخ بصوت امتزج فيه الغضب بالفرحة قائلا:

---

[4] انظر كتابي حول أساطير القبايل:

Légendes de la grande Kabylie, p. 280, note a

- Ettour’r’ouri senath en temrarir, erzemer’ as i idjjen temr’arth d’nettath ayi setshen a you !

[كانت لدي امرأتان وطلقت واحدة منهما، وهي التي جعلتني آكل هذا الشيء !]

وأخرج من "زعبولته" كمشة من النقود المغربية ومنحها للدرويش الذي ظل محافظا على وقاره، ثم استدعاه إلى منزله، حيث أطعمه الكثير من البيض المقلي بالخبز.

وبينما كان الرحالة يأكل بنهم، كان الريفي الفاجر يردد القصيدة التالية التي كانت متداولة لدى أهالي مزوارة:

أغنية أمازيغية حول مومسات فاس

Ad’etterer’ sidi yah’ya	أطلب من سيدي يحيى
D’ecellah’ g mia	ومن الصلحاء بالمئات
D’echra ir’rand’ illaya	ومن قارئي آيات القرآن
Aid dahd’ oun	أن يمدوني
Tih’andjrin el fas el bali	ببنات فاس البالي
Souith tekjount d’azarif	من جباههن مثل الفضة
Thibbouchin d’elkhrif	ونهودهن مثل فاكهة الخريف
Taksoumt d’filali	وجلدهن أملس مثل جلود تافيلالت
Oui thent issenen	وكل من يعرفهن
Ou llah ! our iedhif	لن يهزل وحق الله !
Ak’lil ou ount net t’if !	وويل لمن لا يختطفهن
Ounni i d’ouer d’zouali	فهذا الشخص سيكون بئيسا

لن نترك هذا الجانب من العادات المغربية، دون الكشف عن أسرار أخرى وحيل يستخدمها الطلبة لكي يسحروا أو يبطلوا السحر عن الناس البئيسين. ففي سناذة ببني يطفت بالريف[5]، حصل محمد كطالب أجنبي، على اعترافات حاخام يهودي اسمه موشي.

فقد كان رجل الدين هذا، ألعوبة بيد عشيقته، وهي يهودية جذابة، خسر معها كل أمواله ومع ذلك رفضت الاستمرار معه في علاقة اعتبرتها غير مسايرة لرغباتها الشهوانية. ولم يبق أمام اللاوي Lévite اليائس سوى رغبة واحدة وهي استرجاع ماله ورجولته. وقد عرض حالته على الدرويش قائلا:

- قبل كل شيء، يجب عليك أن تعالجني؛ بعد ذلك، ستستعمل سحرك لجلب الخائنة إلى مسكني. وعند دخولها إلى بيتي، لن تتمكن من مغادرته وسأعمل على استرداد كل الأموال التي سرقتها مني.

لقد كان ابن الطيب يعلم هذه المرة بأن التعامل مع موشي يختلف عن تعامله مع الفلاح الريفي. فاليهودي كان ماكرا ويقظا وكان يستغل أيضا جهل الناس ببيعه الأحجبة لأبناء دينه وحتى للمسلمين الذين كانوا ينخدعون ببصيرته المزعومة. وقد هيأ محمد العديد من التمائم واستخدم كل الحيل المتوفرة لديه، لكن بدون جدوى ! لأن الإسرائيلي كان يدعي بنوع من السخرية بألا شيء يتحرك بجسده وبأن ظل هذه المرأة يسيطر عليه كلية. وقرر الدرويش الذي لم تنفع كل محاولاته، بل تم اتهامه بالجهل من طرف موشي، القيام ب "ضربة معلم" فقد أمعن النظر في الحاخام، وبنبرة تنبؤية منتصرة، أعلن بفخر هذه الكلمات:

- ستشفى في غضون شهر ! وستكون حبيبتك بين ذراعيك !

فأجاب موشي:

- سنرى.

وعلى الفور توجه محمد إلى مكان بالضاحية الجنوبية لسناذة غير بعيد عن قرية تدعى العرصة[6]، حيث يوجد واد مليء بالقصب. وهناك، اختار أحسن قصبة وأطولها وألينها؛

---

[5] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 93 وما يليها.

[6] لم أذكر هذه القرية في الجزء الأول، لأن الدرويش لم يتذكرها إلا في سنة 1891. وتعني العرصة البستان عموما أو بستان الفواكه.

وفتحها عموديا ثم أدخل عبر الفتحة، قشور البيض وشعر النساء وقطعا من الجلد. وبعد ملئه للقصبة بهذه القاذورات حزمها بخيط من كل الجهات. وعاد بعد ثلاثة أسابيع إلى نفس المكان، ليلاحظ بأن القصبة التأمت وأصبحت تتمايل مع القصبات الأخرى وكأنها لم تخضع لأية عملية. آنذاك، اقتلعها من الجذر وحملها معه، وانتظر أربعة إلى خمسة أيام، حتى يبست تقريبا وقام بقطعها إلى أجزاء، بحيث تبدو القطع مسدودة من طرفيها. بعد ذلك، أخفى قطعتين أو ثلاث بداخل قلنسوته وغادر طريق المسجد، ثم عرج على الطريق النتنة المؤدية إلى منزل موشي. ووجد الحاخام بباب منزله، منشغلا بقطع عنق دجاجة. وعند رؤيته للدرويش، صاح اليهودي:

- آه، هذا سيدي محمد، مرحبا بك.

فحرك الجوال رأسه وابتسم ببلاهة، ثم اقترب منه وخاطبه بطريقة غامضة قائلا:

- أريدك يا موشي أن تخصص لي بعضا من وقتك.

فبادر اليهودي، بعد أن مسح السكين بريش الدجاجة، إلى دعوة محمد للدخول إلى المنزل وأجلسه في أنظف الغرف. وفي تلك الأثناء ظهرت الزوجة الشرعية للحاخام والتي كانت طبعا على علم بما حصل لزوجها؛ وهي يهودية منتفخة الأوداج، صفراء اللون، تنتعل خفين عتيقين وتلبس قميصا طويلا وتضع على كتفها ملفعا من النوع الرديء. وكانت المسكينة ترتجف بفعل الحمى الناتجة عن ملاريا دائمة أصابتها في مسكنها الحقير. وبأمر من موشي، ذهبت إلى المطبخ مدمدمة، لتحضير الأكلة المفضلة للدرويش وهي البيض المقلي ولتقدمه بعد ذلك، ساخنا على مقلاة من الطين، مخلوطا بالطماطم وبالسمن الريفي. وشرع الثلاثة يأكلون وهم جالسون القرفصاء فوق الحصير. ولكي لا يشعر بالحرج، ظل الرحالة يلوك طعامه تفاديا لإجابة موشي الثرثار الذي كان يمطره بالأسئلة المربكة. ومع ذلك، تمكن بين لقمتين، من تكرار الجملة الوحيدة التي يتوقع أن تطرب مسامع الزوجين. فقد قال، مقلدا تلفظ اليهودي، حيث غن صوته:

- شليمو بن داوود كان مليخ إشرائيل [كان سليمان بن داوود ملكا على إسرائيل]. وإثر ذلك، خاطبت المرأة زوجها، معبرة عن حيرتها قائلة:

- أظن بأن أصل هذا الرجل يهودي !

ولم يجبها الحاخام، فقد تعرض قبل ذلك بقليل لسعال حاد مزق صدره؛ ولأن السعال لم يتوقف فإن اليهودي بدأ يشتكي، معلنا بأنه لا يدري كيف حصل له ذلك. واستغل الدرويش الفرصة وانتظر توقف السعال وشعور موشي ببعض الراحة ليخاطبه بصوت هادئ:

- لست مصابا بالزكام يا موشي، بل أنت مسحور !

فأجابه المريض:

- إنني أعلم ذلك طبعا، وأنتظر منك العلاج.

فسأله الرحالة:

- هل لديك قصبة؟
- كلا
- ما عليك؛ فأنا أتوفر على واحدة.

وأخرج من قلنسوته إحدى القطع التي جلبها معه وكتب فوقها بعض الحروف ومررها فوق صدر اليهودي وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

وصاح بعد ذلك:

- والآن احضر لي سكينا على وجه السرعة.

فناوله موشي السكين التي ذبح بها الدجاجة والتي كان يحتفظ بها في جيبه. لكن محمدا بادره بالقول:

- لا، احتفظ بالسكين، فستفتح القصبة بنفسك. وقبل ذلك، لاحظها جيدا، هل هي سليمة أم لا؟

فأخذها الحاخام وفحصها من كل جانب واقتنع بأنها مغلقة من الجانبين وملساء وطبيعية. وأمره الدرويش بلهجة صارمة قائلا:

- عليك أن تشقها الآن. لكن آمرك بأن تزيل الخوف من قلبك وإلا صرعك جني يهودي !

وفتح موشي القصبة ليجد القاذورات التي سبق أن وضعها محمد شهرا قبل ذلك. وانتظر مدة لكي يتغلب على دهشته واعترف بأنه لا يفهم شيئا مما يرى وبأنه يقدر علم ضيفه كل تقدير. واستحضر ذكرى عشيقته القديمة بقوة، شاعرا بحزن لا يطاق وزمجر قائلا:

- لقد خلصتني من الشيطان؛ لكن هذا لا يكفي فأنا بحاجة إلى شيء آخر.

وأجابه الدرويش بنبرة هادئة لكن منتصرة:

- كن مطمئنا بهذا الخصوص، فسأكتب لك أحجبة.
واستغلت اليهودية غياب زوجها بعضا من الوقت لتقول للجوال:
- ساعدني لكي أسحر لزوجي.
وقبل أن يجيبها محمد، دخل موشي حاملا معه نعلين جديدين منحهما للدرويش الذي أخذهما وغادر المنزل. وبعد بضعة أيام، رحل عن سناذة ولم يعد إليها أبدا.
لن أفحص هنا بلادة الإنسان، عندما يكون خاضعا لثقل التعصب والجهل. وما أكرره بمعية أصوات أكثر وزنا من صوتي، هو ضرورة فضح المحتالين وعديمي الضمير الذين يعيشون بالمغرب وبغيره من البلدان، بغض النظر عن انتمائهم الديني، على حساب السذج.
وتحتكر منطقة سوس المغربية إنتاج السحرة، فهي المسكن الكبير والمدرسة الغنية التي يتخرج منها كل سنة، سرب من الطلبة الذين يتفرقون في كل أنحاء الإمبراطورية ويدعمون ويستغلون سذاجة الجمهور. ولأن محمدا خالطهم بكثرة وعاش معهم، فإنه اكتشف أسرار شعوذتهم واستخدمها في العديد من المرات أثناء تجوله في مملكة الشريف.
لننهي هذا الموضوع الذي قد لا نعود إليه ثانية، بالقول إن الاعتقاد بالسحر عام لدى الشعوب الإسلامية بالمغرب والجزائر وتونس. وظاهرة المس بالجنون منتشرة كالوباء، بنفس القوة التي كانت سائدة عندنا منذ أقل من ثلاثة قرون.
ومع ذلك، لنكن منصفين ولنعترف بأن هذه الشعوذة الفظة لم تسل دماءا غزيرة لدى المسلمين، في حين أنها تسببت في القرون الوسطى بأروبا، في مجازر رهيبة، تعكس الهمجية التي كانت سائدة حينذاك.
ففي المجتمع الإسلامي، لا يعتبر الساحر شخصا مرعبا، بل يحظى على العكس، بالشهرة كعارف ويلقى الاحترام بفضل سلطته الخارقة المزعومة. ولو عاش في البلدان المسيحية لكان وضعه مغايرا تماما ! ونحن نتذكر برعب ما قام به دولانكر Delancre مستشار برلمان بوردو ورئيس اللجنة المكلفة بمتابعة السحرة، حيث قاد إلى المشنقة سنة 1619 وحدها، 500 بئيس اعترفوا بممارستهم السحر. وفي نفس القرن، قتلت بريطانيا العظمى 3 آلاف شخص، ضحية هذا الاتهام السخيف.

واليوم، فإن كل البلدان المتحضرة تترك هؤلاء البؤساء وشأنهم. ومع ذلك، فإن مجرد وجودهم يبرهن على أن الاعتقاد بالسحر لن يزول قريبا من العالم. وقد تم التأكيد مرارا، على أن بعض السحرة المسيحيين يتوفرون على عدد كبير من الزبناء المنتمين أحيانا إلى الطبقات العليا. ويحدث هذا في نهاية القرن التاسع عشر !

وفي موضوع آخر، فإن قبيلة بني زروال تشتمل على ستة أقسام وهي: بومعان، بني مكا، وبني ياذمي بالشمال؛ وأولاد قاسم وبني إبراهيم والأحد بالجنوب. ويمكن لأولاد قاسم وبومعان لوحدهما، تعبئة 10 ألف فارس لخوض المعارك. ويتوفر قسم أولاد إبراهيم على 2500 من المشاة و 2500 فردا من الفرسان؛ وتعبئ كل من بني مكا وبني ياذمي والأحد، حوالي 15 ألف رجل من المشاة. ويشكل كل ذلك ما مجموعه 30 ألف رجل و 12500 حصان بالنسبة للقبيلة برمتها.

ويتضمن كل قسم 25 جماعة تراقب كل واحدة منها من 5 إلى 7 قرى. وفي كل قرية، يوجد مسجد أو أكثر، بحسب عدد الأحياء التي غالبا ما تفصل بينها مسافات كبيرة. كما تتوفر كل قرية على صومعة واحدة على الأقل، علما بأن المساجد لا تتوفر جميعها على صومعة؛ وتلقى خطبة الجمعة في المسجد المتوفر عليها.

ـ التجارة، الصناعة والعبودية:

يوجد بتمزڭانا سوق الاثنين الكبير. وتقع تمزڭانا غير بعيد عن واد المزاز في الجزء الجنوبي لبني ياذمي. وهناك سوق آخر وهو سوق الأربعاء متاع كتامة، بتراب بني مكا شمال هذا القسم وعلى الحدود الكتامية تقريبا. كما يوجد سوق الخميس في قسم بومعان، بقرية الخميس الكبيرة، على ضفاف واد تزلافن المعروف تحت اسم واد بومعان.

وأكبر سوق ببني زروال، هو سوق الأحد الموجود وسط قسم الأحد، على طول واد أودقة. ويأتيه الناس من كل فج، سواء كانوا زرواليين أو من أهالي القبائل المجاورة.

ويباع فيه كل شيء بثمن بخس، مثل الفول والعدس والشعير والقمح والصوف والفواكه والأسلحة والحيوانات والطرائد الحية والميتة. ففي هذه الساحة التي يتزاحم فيها كل يوم أحد أكثر من 20 ألف شخص، يمكن اقتناء البضائع بأبخس الأثمان. ويفصل واد أودقة السوق إلى قسمين، تعرض في أكواخ القصب المتواجدة بهما، شتى أنواع البضائع؛ أما الحيوانات على

اختلافها فقد هيئت لها أماكن خاصة بها. ويقوم الجزارون بذبح العجول دون غيرها، لأن الخراف نادرة في تلك المنطقة. وتباع قطع اللحم دون وزن، أي بالمعاينة فقط. وغير بعيد عن ذلك المكان، تعرض أكوام من "الغراير"، وهي أكياس كبيرة جدا تحتوي على القمح والزبيب. وثمن هذا الأخير ليس باهظا، إذ يساوي خمسة وعشرين سنتيما "للمد" الواحد [20 لترا تقريبا]؛ ويباع التين المجفف بثلاثة قروش "للمد" والفول بستة قروش. وعلينا ألا نندهش من عدم وجود خضر للبيع، لأن جميع الأهالي يتوفرون على بساتين خاصة للخضراوات. والآن سنحاول التعرف على زيوت البلد، وهي على عدة أنواع. فهناك زيت الزيتون المعصورة بواسطة رحى حجرية، والزيت التي عصر زيتونها بالأرجل والزيت المسماة بالزوبية وهي التي يشوى زيتونها بالفرن، ثم يطحن بمطرقة خشبية داخل قصعة [إناء واسع من الخشب]، بحيث يصب شيء من الماء فيها، فتطفو الزيت التي يتم تجميعها باليد. وهناك الزيت التي يعصر زيتونها قبل نضجه، وهي لذيذة المذاق. وتختم هذه الأنواع بزيت الفستق Lentisque التي يتم الحصول عليها كما يلي: تكدس قفف مملوءة بثمار هذه الشجرة بعضها فوق بعض وتوضع تحت معصرة بلولب pressoir à vis وتعصر حسب الجهد. وبعد تصفيتها، تستخدم هذه الزيت للإنارة، وتوضع بقناديل مختلفة الأشكال. أما بالشمال، حيث لا توجد أشجار الزيتون بالقمم العالية، فإن السكان يستنيرون بمشاعل تقطع من شجر الصنوبر أو تشترى بالأسواق، وأحيانا ما تستعمل زيت الفستق في الطبخ.

وينزع عنها مذاقها المر، عبر غليها لمدة طويلة وتركها في الهواء الطلق لعدة أيام.

والملاحظ أن شجرة الفستق المعروفة بجبال الأطلس تحت اسم "البطوم"، تنتج زيتا طيبة المذاق.

على مستوى آخر، يتواجد بالسوق أكثر من عشرين مسكنا من الطين المجفف، يقطنه أفراد من طائفة هداوة.[7]

---

[7] انظر المغرب ال مجهول، مذكور، ص.161. وقد نقلت هذه الكلمة في البداية بشكل خاطئ حيث نسيت التشديد، وهو ما انتبهت إليه وأنا أراجع ما سجلته بخصوص جبالة. لذلك يتعين قراءتها هداوي Heddaoui، جمع هداوة Heddaoua. وهنا يطرح سؤال محرج: هل جذر الكلمة هو هدأ أم هدى؟ لأنه لا يوجد فرق في تلفظ الكلمتين بالعربية الدارجة. وأتمنى إيجاد جواب على هذا السؤال فيما بعد.

ويتكاثر هؤلاء الأشخاص ويختلطون فيما بينهم بشكل مقرف ويربون القطط والجديان. وهم متسولون، يزورون القرى والأسواق الرئيسية ويرتمون كالوحوش الضارية على الذبائح التي تقدم من أجل درأ شر العدو المنتصر. وسأتحدث لاحقا عن هذه العادة الغريبة المعروفة باسم "العار".

وقد لجأ محمد يوما عند هداوة بسوق الحد، هاربا من حلابة وهو دوار من دواوير بني مجرو، مخافة أن تسرق منه جلابتان جديدتان حصل عليهما من بعض المحسنين. وألح عليه هؤلاء الهداويون بالانخراط في جماعتهم وحاولوا تخديره بالكيف الذي يستهلكونه بشكل فظيع. ونتج عن هذا الإفراط في تدخينه، آلام شديدة ببطن ورأس الرحالة، لن نتوقف عندها. لذلك، غادرهم عائدا إلى الجاية. وعلى بعد كيلومتر من السوق، اعترض طريقه شخصان ذوو هيئة مخيفة. وفهم محمد مقصدهما فنزع الجلابتين ووضعهما أمام الرجلين ورجع إلى قلاية بقميص قديم كلباس، وهناك منحه بعض المحسنين ملابس لائقة.

إن الشيء المثير بالنسبة لزائر سوق الأحد، هو بكل تأكيد المكان المخصص لبيع الزنوج والغلمان والعايلات. وكان الذكور أكثر عددا، ضمن الزنوج؛ وأحيانا ما يرى المتسوقون زنجيتين أو ثلاث زنجيات وطفلا أو طفلين، دون أية قرابة بينهم. ويقوم الدلال، الذي هو عبارة عن وكيل تجاري، بالإشادة ب "البضاعة" قائلا :

-إنه زنجي مكتمل وشهم ومجد وقوي وذكي، لا يسعى إلى الهرب من منزل أسياده ولا يتعرض للبوري[8] ، وهو وديع بطبعه ووفي.

وكانت الإشادة تهم كل ممثلي العرق الأسود المعروضين للبيع في ذلك اليوم، رجالا ونساء وأطفالا. فعلى حد زعم الدلال، لم يخلق الله أفضل منهم؛ لكن المشتري الحذر والماكر، كما هو حال كل العرب، لم يكن يكتفي بخرق الشرع الإسلامي الذي يمنع الاستعباد، بل كان يضع شرطا أمام الشهود، يتمثل في إرجاع العبد، إذا لم يجد كل الصفات المذكورة من طرف الدلال. ومن الممكن أن يبلغ ثمن زنجي شاب، قوي، وفي ونشيط، 500 فرنك. وهذا أقصى ثمن؛ ولا يتم بلوغه إلا في حالات نادرة. وعادة ما يتم ا لحصول على عبد قوي بثمن يتراوح ما بين 120 و 200 فرنك. وهو نفس ثمن الزنجيات اللواتي يقمن بوظائف عديدة داخل

---

[8] يزعم العرب بأن الزنوج يتعرضون خلال فترات محددة من السنة، لنوبات حادة من الجنون، تدعى البوري.

الأسر. وبخصوص صغار الزنوج négrillons، فإن ثمنهم يتراوح بين 20 و 250 فرنك، حسب حجمهم وقوتهم وسنهم ووداعتهم.

إن العبودية غير منتشرة عند جبالة، وبإمكان العائلات النبيلة والغنية جدا، وحدها أن تسمح لنفسها بهذا الترف الباهظ الثمن. وعلى العموم، فهي تعامل عبيدها بكل إنسانية، متبعة في ذلك التعاليم القرآنية الواردة في سورة النور، الآية 33 والتي جاء فيها : " وآتوهم من مال الله الذي أتاكم"، وكانت هذه الكلمات الطيبة الصادرة عن رسول معظم، كافية لإجبار المسلمين على اتخاذ سلوك إنساني تجاه هذه الكائنات التعيسة؛ علما بأن الأناجيل لا تبين عن أي موقف بخصوص العبيد. فلو كانت المسيحية قد أعلنت صراحة إلغاء العبودية، لقضت بنوع من الفخر على الآلام والفظائع التي لطخت التاريخ على مدى ثمانية عشر قرنا. صحيح أن القاعدة الأخلاقية " لا تفعل للآخر ما لا تريده لنفسك "، كافية في هذا الإطار، لكن الانحرافات الإنسانية لا تكتفي بقاعدة كونية؛ ويجب أن يكون المنع صريحا ودقيقا وواضحا. وحتى في هذه الحالة فإن الإنسانية تخرقه عندما يتعلق الأمر بمصالحها. إن العبيد المغاربة، لا يرغبون في حرية لا يعرفون كيفية استثمارها. فهم يعاملون بشكل جيد عند أسيادهم ويأكلون وينامون جيدا ويعتبرون أنفسهم جزءا من العائلة التي يخدمونها. لذلك، فإن تحريرهم يصبح مصدر مشاكل وأخطار حقيقية بالنسبة إليهم. فلولا حماية سيدهم لتعرضوا عند ابتعادهم عن القرية، إلى الاعتقال من طرف أشخاص غرباء ولا ستعبدوا من طرف أسياد أقل طيبوبة من أسيادهم الأوائل. وهناك بعض الزنوج الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب؛ وهذه الأفضلية التي يحظون بها مقارنة مع إخوانهم الأميين، ترفع من قيمتهم المادية.

أما بالنسبة للمكان المخصص للغلمان والعايلات فلا يقترب منه سوى أشخاص يدعون "القوادة". وهم منحرفون وفساق وغريبو الأطوار، يتميزون عن الناس المستقيمين بلباسهم ومشيتهم الغريبة ويلبسون جلابة سوداء مطرزة بالحرير، كما أن بنادقهم التاغزوتية الطويلة مرصعة بالعاج. وهم يمشون بخيلاء، متشابكي الأيدي، رافعين أصواتهم ومتفوهين بكلام بذيء ويعتقدون بأنهم ذو شأن وما هم كذلك. وأغلبهم عزاب ينتمون إلى بيت الصحفة السيئ الذكر ويلتقون في الأسواق لإبراز اعتدادهم البليد بأنفسهم وفحشهم.

إن العايلات والغلمان الذين يشترون بالأسواق هم في العادة سبايا حرب أو أطفال اختطفوا من قراهم أو بؤساء يبيعون أجسادهم، لأن الدعارة أصبحت هي موردهم الوحيد. وهذا "القطيع الحقير" لا يساوي ثمنا باهظا.

فأجمل عايلة وأظرف غلام [العايل]لا يتعدى ثمنهما 150 فرنكا. وأثناء مرور محمد بن الطيب أمام معرض الأجساد البشرية هذا، نادته امرأة بئيسة تعرف عليها فورا. لقد كانت هي متسولة الجاية التي اختطفت أمام عينيه؛ وها هي تعرض مع باقي العايلات للبيع. وتوسلت إليه بأن يخبر والديها بحالها، إذا ما رجع إلى قبيلتها، فرد عليها الرحالة قائلا:

- سأتأخر في رجوعي ولكنني أعدك بإخبارهم عند أول فرصة سانحة.

وبالفعل، فبعد مدة زمنية، التقى بمجموعة من الحياينة بقرية عين باردة وبلغهم الرسالة. وبذلك، قدم والدا المتسولة بأنفسهم إلى المكان الذي توجد فيه ابنتهم وخلصاها مقابل قدر من المال، تم قبوله من طرف مختطفيها. وقد تابع الدرويش تجواله إلى أن وصل إلى مسجد بناه محسنون وسط السوق. وكان يلتقي في طريقه بأغنياء وفقراء ومتعلمين وأميين؛ ولاحظ بأنهم كانوا مرفوقين جميعهم بالغلمان، لأن امتلاك غلام يعتبر مفخرة. والمثير في الأمر، أن بعض النساء المتزوجات لا يكتفين بعدم التعبير عن غيرتهن من هذه المنافسة الدنيئة، بل يؤاخذن أزواجهن على عدم توفرهم على عايل. ويصعب على طالب ليس له غلام بأن ينال الرتبة بالمسجد، مخافة أن يستولي على غلام رفيقه. وطبعا، فإن هذه السلوكات الفظيعة تتعلق بأناس لا وازع أخلاقي لديهم. أما العلماء الحقيقيون والشرفاء والصالحون وكل من يحترمون أنفسهم – وإن كانوا قلة – فسلوكهم لائق. صحيح أنهم لا يتسامون فوق الرذيلة الكونية، لأنهم يعلمون بأنه من المستحيل إزالتها كليا. ومع ذلك، فإنهم وبنوع من الاحتجاج، يواجهون الأغنيات الوقحة المحتقرة للمرأة عموما وللمرأة المصونة بشكل خاص، عبر تمجيد الزواج والفتاة البكر، من خلال الأنشودة التالية:

يارب ارزقنا من الحلال

صبية تكون كالهلال

صغيرة السن وهي ظريفة

وسيعة الصدر مع الأكتاف

وكحلة السلف مع الأطراف

وحمرة الشفة مع الخدود

وكحلة العينين كالمداد

طايعة لربها وزوجها

قايمة للصلاة في وقتها

في ذلك اليوم، انتشر خبر سار في السوق. فقد كان البراح يجوب ممراته ويتوقف صارخا:

- أيها المسلمون، يا بني زروال؛ اسمعوا وعوا ! إن السلطان قد سامحكم. وهو يسمح لكم من الآن فصاعدا بالتسوق بفاس دون أن يعترض سبيلكم أي أحد.

وكانت الفرحة عارمة. وأخيرا فتحت أبواب العاصمة، بعد معارك طاحنة مع قوات المخزن ! فقد اضطر السلطان الذي لم يستطع إخضاع هذا الشعب المستقل بالقوة، إلى التنازل والتعامل معه، لكي لا يحرم تجار فاس من زبنائهم الجبليين !

وتعالت الأصوات في جنبات السوق مرفوقة بطلقات نارية من البنادق وهي تردد عاليا:

- الله يحفظ السلطان !

- مناجم الذهب والفضة:

عند حلول الليل، صعد الدرويش برفقة طالب آخر، إلى قرية القلايعة متاع أفوزار المتواجدة على مسافة قريبة من شمال سوق الحد والمتضمنة لخمسة مساجد، واحد منها بصومعة. وقد بني كل مسجد بحي منفصل عن الأحياء الأخرى. وانتبه الجوال إلى وجود منجم للفضة غير مستغل، بين القلايعة وأفوزار. وكانت به فجوات كثيرة، حفرت منذ القديم، لكن الأعمال توقفت على ما يبدو، لسببين على الأقل:

1) لأن تصدير المعادن الثمينة ممنوع في المغرب

2) لأن الأهالي يجهلون كل شيء عن الصناعة المعدنية .

وبالحي المسمى دشر الزلالين الذي يقطنه الشرفاء العلويون، طلب محمد الرتبة من المعلم، فمنحها له على الفور. وانتابت الجوال رغبة جديدة أشعلها تواجد منجم الفضة بجواره. وقد تخيل نفسه سابحا في النعيم، مستمتعا كالملوك وفي نفس درجة أغنياء العالم. واستطاع خلال بضعة أيام الولوج سرا إلى المنجم والخوض في عمليات معقدة لاستخراج المعدن. وبعد

محاولات عديدة باءت بالفشل، استطاع في الأخير الحصول على سبائك غير صافية من الفضة؛ وقرر بيعها بفاس أي على بعد مسافة يوم مشيا، عن سوق القلايعة. وفي صبيحة أحد الأيام،غادر القرية حاملا كنزه معه؛ واجتاز المناطق التي يعرفها ويعرف بها، إلى ان وصل إلى العاصمة الشريفة بدون مشاكل. وهناك طلب من أحد أصدقائه الطلبة مرافقته للملاح لكي يساعده. وتجول الرجلان في الحي اليهودي، وكانا يعرضان سلعتهما على الصائغين الذين يقترحون عليهما ثمنا بخسا. وفي أحد الأزقة، التقى محمد يهوديا سبق أن تعرف عليه من قبل. فاستوقفه وأقترح عليه السبائك، وقبل اليهودي العرض ثم دعاه إلى منزله قائلا :

-سأشتريها بضعف ثمنها؛ فهذا المعدن الذي أتوفر على بعض منه بالمنزل، أفضل من النقود المسبوكة.

ودخل الثلاثة إلى منزل قذر؛ وبعد مساومة عسيرة، تم الاتفاق على مبلغ 500 فرنك. ودفع اليهودي النقود التي شرع الرحالة في عدها وما أن انتهى من العد حتى صرخ قائلا :

- يا للشيطان ! تنقصك خمسون فرنكا ! انظر بنفسك.

وهدد اليهودي باستعادة سبائكه، كما أن الطالب الآخر هدده بكسر ضلوعه. لكن تواجد الإسرائيلي بالملاح وشعوره بالأمان، جعله يصرخ بأعلى صوته ويهدد الرجلين بقوله :

- أيها النصابون، سأشي بكم إلى السلطان كمزورين للنقود !

وغير محمد خطته بعد أن اقتنع بان العنف لن يجدي شيئا وتمكن من استعادة الخمسين فرنكا باللين. وغادر محمد وصديقه الطالب الملاح واضطر الأول لاستعمال الحيلة كي يتخلص من الثاني الذي رأى كل شيء وأصبح نتيجة ذلك شاهدا خطيرا، هكذا منحه قطعتين أو ثلاث قطع نقدية من فئة 100 قرش وخاطبه قائلا :

- خذ هذه النقود [الدورو] واشتر لنا ما سنحتاجه للعشاء وسألحق بك بعد قليل بالمنزل.

وابتعد الفاسي، معتقدا بأن محمدا المهبول سيفي بوعده وبذلك سيتمكن خلال الليل من سرقة ما معه من نقود. هكذا، ذهب لشراء الطعام في نفس الوقت الذي سارع فيه الجوال إلى مغادرة المدينة والعودة إلى بني زروال. وعند رجوعه إلى قرية القلايع، شرع في تبذير الخمس مائة فرنك، حيث اشترى ملابس فاخرة وتصدق على المساكين وأبان عن كرمه إلى أن نفذ ماله. وقرر مجددا صناعة بعض السبائك، لكن عصابة من اللصوص كانت تراقبه،

كما أن رفاقه الطلبة، طلبوا منه تعليمهم طريقة استخلاص الفضة. ولما شعر بأن الوضعية ليست في صالحه، غادر في إحدى الليالي القرية وتوجه إلى جبل أودكة حيث توجد مناجم الذهب والفضة والنحاس بكثرة. وكانت معادن الرصاص والنحاس تستغل جهارا، أما الكبريت والشبة والكحل، فتستخرج من طرف النساء وتباع في الأسواق. غير أن كل محاولات الحصول على الذهب والفضة الخالصين، كانت تبوء بالفشل. وأحيانا ما يحمل الطلبة معهم هذه المعادن الثمينة ويبيعونها للأروبيين ولليهود المتواجدين بالساحل.

عند وصوله إلى المساكن المبنية بجبل أودكة اختار الرحالة الإقامة بتازوغارت وهي قرية كبيرة قائمة بسفح صخرة هائلة بالقرب من حدود كتامة. ولأن المعلم منحه الرتبة، فإنه شرع في متابعة دروسه بالقرية. ولم تمر ثلاثة أيام حتى قدم ريفي أمرد للدراسة أيضا. وقد ارتبط بالدرويش لأنه يتكلم الأمازيغية مثله، وهو الأمر الذي أثار غضب الطلبة الآخرين الذين أرادوا استخدام "المسلوخ" [الأمرد] لتلبية رغباتهم الدنيئة. وتفاديا لوقوع كارثة، اضطر محمد للهرب من القرية بعد مرور أسبوع على استقراره بها وذهب إلى قرية المشاعة الموجودة بالمنحدر الشرقي لجبل أودكة وبرفقته الطالب الريفي. وهناك أيضا منح المعلم الرتبة للطالبين وخصص لهما حجرة ضيقة بالمسجد. وكان الشاب يخدم الدرويش مقابل ما يتلقاه من دروس على يد هذا الأخير؛ وعلى ما يبدو فإن العلاقة لم تتجاوز هذه الحدود.

وكان محمد شديد الاهتمام بالثروات المعدنية الموجودة بالمنطقة. وعندما كان يسأل الرعاة والفلاحين، كان هؤلاء يشيرون بأيديهم جهة المناجم التي يبالغون في أهميتها قائلين :

-هيا إلى العمل ! فلو كان النصارى هنا لاكتشفوا كنوزا لا توصف !

وبجانب الطريق المؤدية إلى قرية المشاعة، ترتفع هضبة تستخلص منها النساء، بواسطة الفؤوس، الصلصال الضروري لصناعة المقالي والقدور وباقي الأدوات المنزلية. ولأن هذه الأواني تصنع بتراب ممزوج بغبار الذهب، فإنها تلمع مثل جرات باهظة الثمن. لذلك، فإن الأهالي المفتخرين بأدواتهم المنزلية يخاطبون الغرباء قائلين :

-أنظروا، فحتى قدورنا مصنوعة من الذهب !

ومرة أخرى، فشل محمد في الحصول على سبائك من الذهب والفضة، لأن طريقته المتبعة كانت بدائية جدا، لذلك لم يعد يحتمل قرية المشاعة وغادرها متجولا في باقي أجزاء القبيلة.

ميولات الدرويش ووفاؤه :

هل باستطاعتنا متابعة تجوال صاحبنا العجيب قرية قرية ؟ فمجلد كامل لا يكفي لوصف قبيلة بني زروال. وسيدرك المتمعن في الخريطة المثبتة بآخر الكتاب، أهمية اكتشافات الدرويش أكثر من قراءته لإنشاء ممل في بعض الأحيان. فهناك حيث أهمل جغرافيونا وخرائطنا مناطق عديدة، تاركين بياضات في هذه البلاد الشاسعة والجميلة التي لم يسبق لأي أروبي أن عبرها، تنشط الحياة في كل الأماكن، مما يسمح لهذه الأرض المجهولة بأن تكون من أكثر المناطق المأهولة بالسكان في كل إفريقيا الشاسعة.

وبعد مغادرته للمشاعة، زار محمد قبيلة كتامة ثم رجع إلى بني زروال حيث احتفل بثلاثة أعياد للأضحى، في سنة 1872 بقرية بني يزو، وفي سنة 1873 بغفساي وفي سنة 1875 بالقلايع.[9]

وبين هذه الفترات، كان يغيب أحيانا، متجولا في مناطق تقطنها ساكنة بدائية، غير معروفة وعابرا في نفس السنة بلاد المغرب من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، تحدوه الرغبة في معرفة كل شيء وباحثا عن أدق التفاصيل التي يسجلها في ذاكرته الرهيبة التي تتضمن خليطا من الأسماء العربية والأمازيغية التي لا يمكن لأية ذاكرة في العالم أن تحفظها، على ما أعتقد. وكان يعيش بالمساجد والزوايا ويتقرب من الشخصيات الدينية المؤثرة في البلد ويعاشر النبلاء والعوام والطلبة والمتسولين وتمكن من ارتقاء مختلف درجات السلم الاجتماعي المغربي. وقد قدم لنا معلومات ثمينة لن نجدها أبدا في الكتب العربية والمسيحية؛ لأنه لم يكن متكبرا ولا راغبا في الربح، ولأن مظاهر الغرور الإنساني التي تحدثت له عنها، كالميداليات والدبلومات، لا تهمه بتاتا وتبدو بالنسبة إليه كلعب أطفال. لقد كشف لنا الإمبراطورية الشاسعة والمجهولة، لأنه اقتنع بالحجج التي قدمتها له بخصوص المستقبل الذي ينتظر المغرب وحلول التقدم العلمي والتسامح والأمن، بدل الفوضى الرهيبة الحالية؛ وتحول كل سكان المغرب الأقصى بفضل العصا السحرية للتقدم المعنوي والمادي والعلمي. ومن خلال ضباب القرون القادمة، تمكنت عيناه المذهلتان، من رؤية الأخوة

[9] أنظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 48.

الكونية والمعتقدات الصافية التي تتجه مباشرة إلى الله دون وساطة وتلك الخلية الإنسانية المنخرطة في العمل والسلام الأبديين.

طبعا، فإن الدرويش لم يكن يفكر في هذا المستقبل الزاهر للشعوب عند عبوره للمغرب وقبل أول لقاء بيننا. فرغبته الأساسية تمثلت فقط في رؤية مناطق جديدة، مدفوعا بحبه للسفر، حيث كان يقطع الأميال دون كلل ولا خوف. وبقبيلة بني زروال ارتبط بعلاقة صداقة مع أحد قياد القبيلة اسمه ولد امحمد، الذي سيمده بمعلومات إدارية بالغة الأهمية. وقد رافق هذا القايد في جولاته وتعرف على طريقته في تدبير الشؤون المحلية.

- الإدارة المغربية:

لكي تتوفر لدينا فكرة واضحة عن الإدارة الشريفة لشؤون السكان شبه المستقلين بالمغرب، من الضروري أن نحدد من الناحية الموضوعية الحاجيات العامة والوضعية السياسية والجغرافية لهؤلاء السكان؛ ومن الناحية الذاتية الأجهزة والرجال المكلفين بالاستجابة لمتطلبات الأهالي وللأوامر المزعومة للسلطان.

ففي هذه القبائل المروضة بالكاد، تشكل سلطنة sultanat فاس ظاهريا، سلطة مركزية. غير أن هذه السلطة المعترف بها مبدئيا، محدودة جدا في الواقع. فمن الناحية النظرية، يتوفر السلطان على كامل السلطة التنفيذية، لكنه لا يمارسها عمليا إلا بشكل جزئي. ولأنه لم يسع أبدا إلى تحقيق الرغبات المادية والمعنوية لرعاياه المزعومين، لكونه يعتبرهم مجرد أدوات لجلب المال، عبر استخلاص الضرائب سنويا من السكان. وهذه المبالغ المستخلصة بحسب أهواء القياد، تختفي في جزء كبير منها، في جيوب هؤلاء الموظفين وجيوب أتباعهم وحلفائهم. أما الباقي فيرسل إلى العاهل لملأ صناديقه بفاس ومراكش بمزيد من الأموال غير المفيدة. فالسلطان يكنز هذه الأموال دون أن ينفق ولو سنتيما واحدا لحماية وتطوير مختلف مصالح البلد. فالجيش والبحرية والطرق والتعليم العمومي والعدل والأمن والصناعة والتجارة والحاجيات الجماعية التي لا تكفي المبادرات الخاصة لتلبيتها والمشاكل الكبرى التي يسعى علم الاجتماع إلى حلها في العالم المتحضر، كل ذلك لا يهم البلاط الشريف.

وعادة ما تقطن القبائل شبه الخاضعة لجنود المخزن، في السهول المتموجة أو في المرتفعات الشاهقة. هكذا فإن إقامتها بهذه الأماكن واعتمادها على القبائل المستقلة، يسمح لها جزئيا

بالتخلص من الجشع الضريبي للمخزن. غير أنها تقبل مع ذلك، وجود القياد المخزنيين وتؤدي ضرائب محدودة جدا وتمد الدولة بتجريدات مسلحة تساهم في فترات الحرب، في العمليات العسكرية التي تقودها الحكومة.

لكنها لا تتلقى أي شيء مقابل هذه التضحيات. ففقدان الأمن عندها أكبر مما هو عليه الحال في بلاد السيبة؛ ذلك أن القايد لا يتوفر إلا على عدد قليل من المخازنية [فرسان الإمبراطورية] ولا يمكنه عمليا الاهتمام بشيء آخر، باستثناء جلب الضرائب التي يصعب استخلاصها هي أيضا. بالمقابل، فهو لا يهتم بجرائم الحق العام، لأن قانون القصاص المستمد من القرآن، يطبق إما من طرف الضحايا أنفسهم أو من طرف أقاربهم؛ وهو ما يعفيه من التدخل في شؤونهم.

ويعتبر القاضي هو الموظف الآخر للسلطة التنفيذية؛ لكن مهماته تظل محدودة جدا. فهو يسجل عقود البيع والكراء والزواج ويستشار في أمور الميراث. أما المسائل المتعلقة بالعادات المحلية والتعاليم الدينية، فإن جماعة العلماء يعوض سلطته المحدودة أصلا والمعقدة، رغم ما يبدو عليها من بساطة، لأنها تهم أشخاصا لا يخضعون لأية سياسة ولا لأية سلطة شرعية معترف بها.

وأمام حكومة لا تعترف سوى بقوانين نزواتها وتسلب رعاياها ما لديهم، دون أن تقدم لهم شيئا بالمقابل؛ وتفرض عليهم قوة سلطة فردية لا تحتمل؛ أمام هذا الفساد الإداري الذي ينخر قبائل المخزن، هل من حقنا مؤاخذة المغاربة الذين مازالوا يخضعون للاستبداد الإمبراطوري، على محاولتهم التخلص بكل الوسائل من ثقل هذه السلطة؟ فلكم تشعر القبائل غير الخاضعة لهذه السلطة بالسعادة ! ومع ذلك، فإن كل الكتبة والمؤلفين الذين يتحدثون عن المغرب، دون أي تحليل للمسألة الإسلامية والمغربية، والذين ينسخ بعضهم بعضا، يشتكون من فوضى جبليي الإمبراطورية. فهم يؤكدون على أن هؤلاء الرجال الأحرار المحرومين من كل حكومة رسمية، يعيشون في تعاسة. فلماذا سيكونون تعساء؟ ألأنهم تخلصوا من طغيان إدارة يعلمون منذ قرون، مدى عجزها وتفسخها؟ ألأنهم لم يتمتعوا بعد بمزايا حضارة يجهلونها، لكنهم سيحتقرونها بمجرد التعرف عليها؟ إن هؤلاء الأهالي الذين يقتاتون من منتوجات أرضهم ويلبسون أثوابا مصنوعة من صوف مواشيهم؛ أو مما يقتنونه في الأسواق

والذين لا يؤدون الضرائب ولا يخضعون لشطط سلطة مرفوضة ويحمون أنفسهم وينتقمون لها ضد كل من يمس كرامتها، هم بالتأكيد أسعد من إخوانهم ببلاد المخزن. فوضعيتهم لا تحتاج إلى الشفقة، وهم لا يرغبون في تغييرها؛ بل على العكس، هم يدافعون عن حريتهم بكل بسالة. لكن، رب معترض سيقول:

- إن كل قبيلة ببلاد السيبة هي جمهورية صغيرة من العصابات؛ وهي تجميع لعناصر متنافرة لا تشكل هيئة منسجمة !

وجواب هو كالآتي:

- لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وسيبقى كذلك، إلى أن يأتي يوم تقوم فيه حكومة متنورة وعادلة وعطوفة، بتطور اجتماعي وسياسي، يجعل من هذا البلد الجميل، دولة قوية ومزدهرة. فهل سيتردد الجبليون المعتزون بأنفسهم، في التضحية باستقلالهم القائم منذ قرون، مقابل ثمن باهظ من الدمار وإراقة الدماء، عندما يمنحهم الوطن الموحد، كل الامتيازات والمنافع المطلوبة؟

- التعصب والجهاد:

رغم قوتهم والفوضى التي يعيشون في خضمها، فإن بني زروال يقبلون بوجود القياد الذين تم تعيينهم من طرف السلطان. لذلك، فهم يؤدون مبالغ زهيدة من الضرائب التي يستخلصها هؤلاء القياد أساسا من العائلات الميسورة. ويعتبر سيدي علال الحمومي "مقدم" زاوية الحمومي في دشرة المغراوي، الشخصية السياسية والدينية الأكثر تأثيرا في القبيلة حاليا، [أي في سنة 1897]. فلا يتم تعيين قايد أو قاض دون موافقته. وبإمكان هذا الحفيد المبجل لعدد من الصلحاء، أن يرسل إلى بلاد المخزن أكثر من 40 ألف مقاتل، لأن تأثيره قائم في كل مناطق جبالة. لذلك، فإن البلاط الإمبراطوري كان مطالبا بمداراة هذا الشيخ المهاب الجانب.

والملاحظ أن أضرحة الأولياء الرئيسيين بالقرية هي ميدان للاضطرابات السياسية والدينية. ونذكر من بين أكثرها أهمية وتبجيلا، ضريحين لصالحين مدفونين بقرية تزغادغة وهما سيدي الحمومي وسيدي الحاج الشطيبي. وتوجد بقرية شعريرة ذخائر سيدي الحاج محمد؛ أما بالشمال وتحديدا بجبل أودكة، فتجري طقوس خاصة على شرف سيدي علي الزغاري

وسيدي لحسن الزغاري. وأحيانا ما تنعت قبيلة بني زروال باسم قبيلة الخلفاء، لأنه يوجد في كل قراها حفدة خلفاء الرسول الثلاثة وهم: أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. ويعتبر حفدة هذا الأخير من أشرف وأنبل ساكنة المنطقة.

وإلى جانب الممثلين الرسميين للإسلام، نجد بعض الزوايا التي لا سلطة ولا هيبة لها، مثل درقاوة والناصريين والتيجانيين وتهامة والطيبيين.[10]

والأمر المؤكد هو أن بني زروال يكرهون النصارى واليهود، وهم يشبهون في ذلك الغالبية العظمى من أبناء دينهم الذين يشتركون معهم في أفكارهم المتخلفة حول العرق والدين. وهم مقتنعون بأن خصوبة أراضيهم راجعة إلى حماية الرسول (ص). وتدعي أسطورة زروالية قديمة بأن الولي سيدي عبد الوارث الذي كان يؤدي مناسك الحج بمكة رفقة ولي آخر من أنجرة وهو سيدي أحمد بن عجيبة، رأى الرسول في المنام وهو يخاطبه قائلا:

- يا عبد الوارث، بارك الله فيك وفي قبيلة بني زروال !

ويتبنى الشرفاء والعلماء والمعلمون، تعصب العوام، بحيث يقومون خلال الحملات الكبرى، بمرافقتهم وتشجيعهم على الجهاد ويعدونهم بالسعادة الأبدية في الجنة إذا ما استشهدوا من أجل قضية الإسلام المقدسة. لذلك، نادرا ما نجد جبناء في صفوف المقاتلين. ومع هذا يحكى أن طالبا جبليا أراد إقناع أبيه الأمي بالمشاركة في الجهاد ضد الكفار، فقال له يوما:

-اذهب يا أبي للجهاد؛وإذا مت فستحظى كل ليلة بحورية من حوريات الجنة العذارى.

فأخذ الأب بندقيته متحمسا بهذا الوعد وسارع إلى القتال متبوعا بابنه. وتربص في الصفوف الأولى، في انتظار الأعداء. لكن هؤلاء سيفاجئون خصومهم من وراء أكمة وسيشرعون في إطلاق النار. وأحس الرجل الأمي الذي كان الرصاص يتطاير على بعد سنتمترات من أذنيه، برعب شديد، فانزوى بابنه في ركن بعيد وقال له:

-يا عزيزي، إذا كان الأمر يتعلق بالحوريات فإن أمك تكفيني !

ويلبس الطلبة خلال الحملة جلابة بيضاء، أما الأميون، أي الجنود البسطاء، فيتميزون عن رؤسائهم بملابسهم الداكنة. وتحاط الرؤوس العارية بالأغشية الصوفية للبنادق؛ وهي بنادق طويلة من صنع تاغزوتي [الريف] لا يتعدى مدى طلقاتها 600 متر.

---

[10] بخصوص التأثير السياسي المزعوم للزوايا في المجتمعات الإسلامية، انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 112 وما يليها.

ويتقدم كل قسم من أقسام القبيلة مسبوقا بحاملي الرايات وبجوقة من عازفي الدفوف والمزامير والطبول. ولا يمكن وصف الفوضى التي توجد عليها هذه الفرق. فالقتال يبدأ عند الصباح الباكر، حيث يقاتل كل واحد كيفما اتفق، كرا وفرا وتوقفا؛ وعلى العموم فإن المجاهدين يقاتلون ببسالة، لكن دون شجاعة وإقدام الريفيين الأمازيغ على ما يبدو.

- الفلاحة والغابات:

يتميز مناخ بني زروال بالحرارة في الصيف والخريف في الجزء الجنوبي برمته، أي انطلاقا من قاعدة جبل أودكة إلى حدود دائرة فاس. وفي فصلي الشتاء والربيع، تسقط الأمطار بانتظام؛ وتزرع كل الأراضي البورية بالشعير والقمح. والملاحظ أن أدوات الفلاحة لم تتغير منذ الغزو الروماني، إذ يستعمل نفس المحراث والمعول اللذين كانا يستخدمان في عهد الرومان. ومع ذلك، فإن الأخاديد التي يحفرها مقطع المحراث الذي لا يتجاوز طوله عشرون سنتمترا تسمح بإنتاج محصول زراعي جيد نظرا لخصوبة الأرض. أما تنويع زراعة الأرض assolement فغير معروف؛ فمنذ قرون لا تعطي هذه الأخيرة سوى الشعير والقمح.

أما عن السماد؛ فلا مجال للحديث مع هؤلاء البدائيين بشأنه، لأنهم تعودوا على رتابة لا يحيدون عنها أبدا. وسيسخرون منك مؤكدين بأن الماشية التي تمر بالحقول، تسمد الأرض بما فيه الكفاية؛ هذا إذا كانت هذه الأرض في حاجة إلى تسميد. وحول الدواوير زرع السكان بساتين الفواكه والخضر المسقية بالعيون المائية والجداول المنحدرة من الوديان الخمسة الرئيسية بالقبيلة وهي : واد بومعان، واد أوذور، واد أودكة، واد بني ياذمي، واد المزاز. ويكثر منسوب المياه إلى حدود أواخر يناير، ليبلغ عمقها في هذا التاريخ، ما بين خمسين سنتمترا ومتر ونصف؛ بعد ذلك تقل مياهها، بحيث تصبح مجرد سيلان رقيق mince filet عند نهاية أكتوبر. ويتراوح عرضها، خلال فترة الفيضانات ما بين خمسة وخمسين مترا؛ وذلك بحسب مجرى النهر. وبالشمال، تكثر الأشجار بمنحدرات جبل أودكة وتكثر الطرائد وخصوصا الخنازير المتواجدة بكل الغابات الجبلية والتي لا تشعر بأي خطر لأن المسلمين يمقتون لحمها. وتظل قمم جبل أودكة مكسوة بالثلوج خلال شهري يناير وفبراير. ولو أحسن سكان هذه المنطقة استغلال خيراتها الغابوية بالجبل لتوفروا على مصدر غير محدود للربح؛

خصوصا وأن شجر السنديان موجود بوفرة. وللأسف، فباستثناء بعض أشغال النجارة، يتم قطع الأشجار بشكل فوضوي، مع القناعة بأن الله خلق خشبها للتدفئة وللطبخ فقط. ولا تعطى أهمية للسنديان لأنه لا يحترق بشكل جيد. هكذا، فإن الأهالي يعيشون في رخاء مع قطيعهم المكون من العجول ومع جيادهم وبساتينهم وأراضيهم الخصبة، دون أن يبذلوا مجهودات كبيرة. فكل هذه المنطقة الرائعة بجبالة خصبة بشكل لا يتصور؛ إنها جنة المغرب وفردوس الكسالى والفاجرين؛ وهي المنطقة الأكثر غنى وفسقا في كل أرجاء الإمبراطورية؛ ففيها يتداول هذا المثل الدنيء : " إلى ما تربى شي زامل، ما يخرج شي راجل" !

اختطاف عايل :

لن ينسى الدرويش طوال حياته، ذلك اليوم المشؤوم الذي اختطف فيه صديقه ورفيقه في الدراسة، ابن معلم قرية بني يزو، من طرف مجموعة من الفجار، في وقع بين النقلة والرطيبة. ففي يوم الخميس الذي كان يوم عطلة، قرر المعلم العجوز زيارة زميل له بالركيبة. واصطحب معه ابنه وهو شاب أمرد في العشرين من عمره. وكالعادة، رافقهما محمد بن الطيب المحب للسفر. وكان كل شيء على ما يرام، إلى أن وصل الثلاثة إلى المكان الموجود بين النقلة والركيبة. وعندما استعدوا لعبور غابة الزيتون، حيث شيدت القريتان، ظهر أمامهم فجأة، ثمانية رجال مسلحين كانوا مختفين وراء الأشجار. وبعد أن سلموا على الرجال الثلاثة سألوهم :

- من أين أتيتم ؟

فأجاب المعلم :

-من بني يزو.

فضحك أفراد العصابة قائلين :

-نحن نبحث بالضبط عن بعض أهالي هذه القرية. ومن هو مالك هذا الولد الجميل ؟

فرد المعلم :

-إنه ابني.

-لا يهم ! سيأتي معنا.

إثر ذلك، أمسكوا بالشاب وقادوه وراء أشجار الزيتون. وتبعهم الأب مستعطفا إياهم بترك ابنه. لكن أحد أفراد العصابة استدار وضرب المعلم بعصا معقوفة، تعرف في البلد باسم بطن الحوات. ولم يسقط الأب أرضا، لكن وجهه كان مضرجا بالدماء. ولما اقترب الدرويش من المعلم، خاطبه ذلك المجرم المعتدي قائلا :

-اسمع أيها الأحمق، لو خطوت خطوة أخرى فستلقى نفس المصير.

وتسمر في مكانه قاطعا عليهما الطريق نحو الركيبة. واضطر المعلم والدرويش إلى التوجه نحو النقلة حيث باتا الليلة واشتكيا لمعلم المدرسة ما حصل لهما. وعند الصباح روى هذا الأخير لأعضاء الجماعة ما وقع للرجلين. ولأن الاعتداء لم يكن من فعل سكان النقلة، فقد استنتج الجميع بأن الفاعلين من سكان الرطيبة. وعلى الفور، أرسلت الجماعة خمسين رجلا مسلحا إلى القرية المجاورة. وعندما وصل المبعوثون إلى الركيبة، شرحوا لأعضاء جماعتها سبب مجيئهم، مضيفين بأنه إذا لم يتم إرجاع الشاب إلى أبيه فورا، فإن أحداثا خطيرة ستقع. ولم يستغرق البحث عنه طويلا، فقد كان موجودا ببيت الصحفة حيث أجبر على الرقص خلال جزء كبير من الليل. وأعيد الابن إلى أبيه الذي لم يسأله عما وقع له، لأنه كان بعرف مسبقا الأجوبة التي سيدلي بها المسكين، حول ما تعرض له خلال فترة اعتقاله.

-مهاجمة قافلة النزاهة [أو قافلة المتسولين المتعلمين] :

بعد مرور فترة على وقوع هذا الحدث، غادر الدرويش بني يزو وتوجه غربا، ثم صعد الوادي المحاذي لواد أودكة واتجه شمالا بغرض الوصول إلى طنجة. وعند بلوغه تازوغارت على المنحدر الشمالي لجبل أودكة، التقى بمائة طالب يقومون بالاستعدادات للنزاهة بقبيلة مثيوة الجبلية.

ويعشق الطلبة كثيرا هذه الجولات التي يجمعون فيها الأموال والملابس والماعز والخراف والحبوب والفواكه التي يمنحها لهم سكان القرى. وتباع هذه الهدايا بعد ذلك إلى مانحيها بثمن بخس. وهكذا يشتري المحسن ما سبق أن قدمه كهدية.

وعند مغادرتها لتازوغارت، اتخذت المجموعة المسبوقة بالرايات وبالموسيقى، وجهة الشرق وقطعت مرتفعات جبل أودكة وقضت ليلتها الأولى بإغيل ملول الفوقاني والثانية بتاونات. وكان كل شيء على ما يرام طالما هي متواجدة فوق أراضي بني زروال. أما الآن، فعليها

اتخاذ الحذر لأنها ستقطع أراضي أجنبية. لذلك وجب عليها الاستعانة بخدمات شخص من البلد، كي تمر بسلام بهذه الأراضي؛ ويعرف هذا الشخص المرافق ب "الزطاط". ومن قرية إلى أخرى، ظل هذا الأخير بجانب الطلبة إلى أن بلغوا بوردول، وهي قرية مثيوية كبيرة، محاطة بأشجار الزيتون التي تشكل ثروة هذه المنطقة الخصبة. وبعد حصولهم على هبات كثيرة ببوردول، قرر الطلبة الزرواليون الذهاب إلى القرية بدون زطاط. وفي وسط الطريق، داخل غابة زيتون، أوقفهم ثلاثون رجلا مسلحا وتشرعوا في تفتيشهم واحدا واحدا، بغرض معرفة حامل النقود. ولأنهم لم يجدوا المال، لأن الطلبة سبق أن خبؤوه في مكان آمن، فإنهم طلبوا منهم نزع ملابسهم، باستثناء قميص داخلي تركوه لهم رفقا بهم ! لكن الطلبة تباطؤوا في نزع ثيابهم، مما دفع بالرجال المسلحين إلى نزعها بالقوة وصفع أكثر الطلبة تباطؤا. وحدث أن طالبا زرواليا فقد صبره، فأطلق رصاصة على الشخص الذي كان يعامله بفظاظة وأرداه قتيلا. وكانت تلك هي نقطة انطلاقا معركة رهيبة، ففي رمشة عين، تم نزع سلاح طالبين بعد أن تلقيا ضربات عنيفة على الرأس؛ غير أن رفاقهما بادرا إلى مخاطبة المهاجمين قائلين :

-حذاري أيها المثيويون، فنحن من قبيلة بني زروال.

وكانوا يجلسون القرفصاء في وضعية المهزومين الذين يطلبون عفو المنتصرين. وعمل هؤلاء على جمع الأسلحة والأمتعة والملابس وكادوا في ثورة غضبهم أن ينحروا الطلبة، غير أنهم خاطبوهم بالقول :

-أيها السفلة، اعلموا أننا لا نهتم بقبيلتكم مثل عدم اهتمامنا بكلب ميت. اذهبوا وأخبروا آباءكم الساقطين بأننا ننتظرهم هنا !

هكذا، فقد الطلبة كل شيء، باستثناء القميص الذي ترك لكل واحد منهم وعادوا إلى بوردول للتشكي، مطأطئين الرؤوس كالمعترفين بذنبهم؛ وجابوا أزقة القرية وهم على تلك الحالة، لكن شكاويهم واستجداءهم لم تؤثر في رئيس الجماعة الذي قال لهم :

-أتريدون ان ننتقم لكم ؟ إذن فأنتم مجانين ! إن سكان القرية الذين سلبوكم مالديكم أقوى منا بكثير. اذهبوا إلى باب محرز، وهي قرية أكبر وأقوى من قريتنا، ولربما ستجدون لدى أهلها بعض المساعدة.

وكان على الطلبة الاستجداء مرة أخرى وطلب العون، إلى أن قرر بعض أفراد هذا المركز الذهاب إلى القرية لتسوية هذه الوضعية. وعادوا ساعات بعد ذلك، محملين بأكوام من الملابس وبخمس أو ست بنادق قديمة. وقد احتفظ قطاع الطرق بعشر جلابات وببعض السيوف وبندقيتين أو ثلاث بنادق قديمة من صنع إسباني. وكان هذا الحدث المؤلم بمثابة إعلان عن نهاية الجولة، حيث رجع الطلبة إلى بني زروال.

ومن جهته، فإن ابن الطيب خسر خلال المعركة كل ما يملك، أي جلابة قديمة، وسخة وممزقة. وخلال العودة، منحه أحد رفاقه جلابة أفضل من تلك التي كانت لديه.

-جرف البهموت :

توجد منطقة بني زروال بسهل متموج وخصب جدا، مع استثناء يهم الشمال. وبالشرق، قرب الحدود مع مثيوة وبني زيات، هناك جدار صخري يسمى جرف البهموت. وهو يمتد من عين باردة إلى تزغادرة على خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب، طوله ثلاثون كيلومترا. بعد ذلك ينفصل الجدار كحصن عظيم قادر على إيقاف 100 ألف رجل. ويعتبر هذا الجرف من أهم العجائب المثيرة لدى جبالة ولربما في العالم، لأن الجبل محفور. وتستعمل حفره العديدة كملجأ لملايين الخفافيش والنسور والعقبان والورشان وطيور الليل. أما ظهر هذه الأكمة فهو عار وخال من أية نبتة. ويقسم من الداخل إلى عدة سراديب تؤدي إلى مغارات بالجبل، تمتد إلى مالا نهاية، كمتاهات غير آمنة، قد تغوص فيها الأرجل حتى الركبة بفعل زق الطيور المتراكم منذ قرون، بحيث وجدت هذه الأخيرة في هذا المكان، ملاذا هادئا ومنيعا. وبالإضافة إلى ما تثيره هذه المغارات العميقة والمظلمة من رعب في النفوس، هناك آبار لا قعر لها، يمكنها أن تبتلع الضحايا في كل لحظة وحين. وتؤكد الروايات المحلية، على وجود نهر جوفي وسط الجرف، ينبع من قبيلة كتامة. كما يدعي الأهالي بأن الصوت المتميز الذي يسمع عند الاقتراب من أحد الآبار، صادر عن تلك المياه الجوفية. إلا أن البعض يؤكد على العكس، بأن هذا الصوت المتفرد الذي يسمع بعيدا عن الجبل، هو صوت الأعداد الهائلة من الطيور. غير أن أصحاب الافتراض الأول يتساءلون معترضين، كيف يمكن لمنبعين مائيين أن يتدفقا من جنبات الجرف، لو لم يتم تطعيمهما من طرف المجرى المائي غير المرئي.

وعند طرفي هذا الجدار العجيب، توجد قريتان من 500 منزل وهما عين باردة وتازغادرة واللتان تستغلان المياه الوافرة المنبثقة من جرف البهموت. أما فائض المياه الجوفية فيصعد إلى السطح بقبيلة سلاس، حيث يشكل منبعا مائيا رائعا ويصب في نهر ورغة.

وهناك دليل على انبثاق هذه المياه من جرف البهموت، تدعمه التجربة التالية التي قام بها سكان عين باردة مرات عديدة. فمن أعلى القرية، يلقى بتبن داخل أحد آبار الجبل، وسيتفرق هذا التبن ويظهر في المنابع الثلاثة لعين باردة وعين تازغادرة وعين سلاس.

وهو ما يبين كيف أن النهر الجوفي، يجري من الشمال إلى الجنوب، مثل باقي الأنهار الزروالية. وفي إحدى السنوات، تواجد محمد بن الطيب بدوار الحدادة، وهو واحد من بين سبعة دواوير بعين تازغادرة، حيث تنبع العين من الجبل. وقد عاين معركة حامية الوطيس بين أهالي عين باردة وأهالي عين تازغادرة الإخوة الأعداد، ووقعت المعركة بساحة على نفس المسافة بين القريتين. وكان النصر حليف أهالي عين تازغادرة، فطاردوا المهزومين حتى عين باردة وأحرقوا اثنين من دواويرهم وهما : دشرة الريف ودشرة الركيبة؛ وهو ما آثار سخط أهالي عين باردة. وللانتقام، لم يجدوا أفضل من تحويل مجرى النهر الجوفي لحرمان أعدائهم من مياهه.

وعلى مدى شهر كامل، استخدمت المعاول والفؤوس للحفر جنوب القرية، غير بعيدة عن الجبل. وكان رجال مسلحون يحمون عمال الحفر ويطلقون النار على أهالي تازغادرة كلما اقتربوا منهم. ونظرا لعجزهم عن إيقاف أعمال الحفر طلب هؤلاء تدخل القبيلة. هكذا، قدموا إلى سوق الأحد وذبحوا عدة عجول ووزعوا لحومها على الحضور، وهو ما يعني طلب المساعدة منهم. وفعلا، تدخلت القبيلة وأمرت أهالي عين باردة بالتوقف عن الحفر وعن محاولة تحويل مجرى النهر.

-كاف [كهف] عروس :

في أقصى شرق بني زروال، بين عين باردة وتيمز غلا، على الحدود مع مثيوة، يرتفع تل معزول، مغطى بالأشجار والدواوير. وهو محفور أيضا من الداخل ويمتد بعيدا نحو السهل بشكل متواز مع جرف البهموت وقد سمى كاف عروس. وداخل هذا التل الطبيعي، يقال إن مدينة مدفونة تحت الأرض، شيدت في العهود السحيقة. ومعلوم أن بني زروال مشهورون

باكتشاف المغارات. فمنذ حوالي ثلاثين سنة، قرر أربعة إلى خمسة آلاف رجل من زاوية الحمومي، اكتشاف بعض مداخل الجبل المثير. وادعى طلبة المنطقة بانهم قرؤوا في الكتب معلومات تفيد بأن الكاف [الكهف] يحتوي على قطع من الذهب والفضة تخلى عنها الرومان. ويذكرون أسماء بعض الأشخاص الذين اغتنوا فجأة بفضل الكنوز التي وجدوها داخل هذا الكهف العظيم. ومعلوم أيضا، أن بعض المغامرين الذين توغلوا بداخله، لم يخرجوا منه أبدا. ولتفادي وقوع كارثة، حملت الحبال والفؤوس والمصابيح الزيتية وأخذت كل الاحتياطات اللازمة للإبقاء على النور، لأن ريحا عنيفة تهب على ما يبدو داخل الجبل. واندفعت البعثة كلها داخل الكهف وهي تتلو آيات قرآنية. وما أن أحيطت بالظلمة من كل جانب، حتى بدأت ريح باردة تهب، مما أرعب أفراد المجموعة. وأطفئت الأنوار وتراصت الصفوف لمواجهة الريح القوية الشبيهة بعاصفة. واستمرت الحشود في تقدمها، طالبة العون الإلهي وعون أبرز صلحاء الإسلام. وأخيرا وصلت الطلائع الأولى للطابور إلى نهر عميق يستحيل اجتيازه. وتوقف جميع أفراد البعثة ليشاهدوا بالجهة الأخرى للنهر، بقايا بنايات وحواجز ومنازل، أي بقايا مدينة مدفونة منذ قرون. وضاعفت الريح من قوتها وأصبحت عاصفية، فانطفأت أنوار المصابيح، مما أرعب النفوس الأكثر جرأة. وفي تلك اللحظة حدث تدافع وذعر جماعيان ونتج عن ذلك فقدان العديد من أعضاء البعثة. فقد ابتلع "الوحش" ضحايا آخرين. غير أن هذا الدرس المريع لم يكن عبرة لأحد، ذلك أن العديد من المتهورين الذين يغريهم الطمع في اقتناء الذهب، يدخلون كل سنة إلى هذا الكهف الرهيب ولا يخرجون منه.

وبقرية حمدان التي يدرس بها، ارتبط محمد المهووس باستخلاص الذهب والفضة الخالصين بطالب على دراية بالمعادن النفيسة. وكان الرجلان يعلمان بوجود كاف عروس وبكون منحدراته تشكل ملاذا آمنا يسمح لهما بالقيام بتجاربهما دون علم أحد. وكانا يدركان أيضا خطورة اتهامهما في المغرب بالقيام بعمليات تحويل المعادن. غير أن حكايات العجائز، حول هذا الجبل الشهير لم تكن لتخيفهما؛ لذلك غادرا في صباح أحد الأيام قرية حمدان، حاملين أدواتهما ومؤونة تكفي لعشرة أيام. وعند مدخل الكهف، أشعلا قنديلا وبسملا ثم دخلا الكهف دون وجل. ومن حسن حظهما لم تكن الريح قوية. وتساءل الدرويش وهو يتبع صديقه، عما إذا لم تكن الريح العاصفية المزعومة مجرد خرافة. وبعد مسيرة طويلة، بلغ المكتشفان النهر

الذي يشكل حاجزا أمام الجميع. وحاولا اجتيازه رافعين جلابتهما إلى السرة وقنديلهما إلى فوق، غير ان قوة التيار والماء البارد، جعلا حماسهما يفتر في رمشة عين.
وتراجع محمد، ثم تبعه رفيقه. وفي نفس اللحظة هبت ريح باردة وقوية باتجاههما، فتحرك النهر وارتفعت مياهه لتبلغ ركبتي الرجلين اللذين هربا بسرعة. وكان الدرويش المبلل عن آخره بالماء يصيح :
-ها هو، ها هو العفريت الحقيقي، الحارس الشرس واللدود للكهف !
ولم يتمكن البئيسان وسط هذه العاصفة، من إشعال القنديل واضطرا إلى المشي في الظلام متشابكي الأيدي، بمحاذاة جدران الكهف، مع الخوف المستمر من السقوط في هوة. وأخيرا، وصلا إلى نقطة الانطلاق وشعرا بالارتياح. وطبعا، فقد ظلت المؤونة والأدوات بكاف عروس وما زالت هناك.

- خربة مزراوة :

على الضفة اليمنى لواد المزاز، تنقسم قرية مزراوة الحالية إلى دوارين وهما : مزراوة الفوقانية ومزراوة التحتانية. وتتدرج المساكن على المنحدر الغربي غير الخطير للجبل. ويتوفر الدوار الأول على عين غزيرة المياه تستسقي منها نساء الحي المجاور لها؛ وبقمة الجبل تبدو آثار مدينة كبيرة، وهي مزراوة القديمة التي بحثث عن اسمها في كتاب المؤرخين العرب والمسيحيين، لكن دون جدوى.
ويروي الجميع بالبلدة، أن القايد الأخير للمدينة القديمة، كان يبسط سلطته على مساحة شاسعة. وقد خلد اسمه، وهو القايد المزراوي الذي كانت الهدايا تصله من كل جهة، خوفا من بطشه وصرامته.
وقد حبت الطبيعة وسط المدينة بعين ماء رائعة، تجري مياهها ببساتين الضواحي وتسقيها خلال الأشهر الحارة من السنة. وكان المزراوي يعيش بأمان داخل قصره إلى أن هوجم من طرف مغامر، من قبيلة الرهونة، نصبه الأمازيغيون حاكما عليهم. وبعد أن قضى على مقاومة المناطق المجاورة، اجتاح هذا المغامر تراب بني زروال وتغلب على الفرقة العسكرية التي واجهته. ومكنته انتصاراته من محاصرة مزراوة والتزود بمياه المدينة

المحاصرة. وبعد سنة من المواجهة، تولدت فكرة ذكية لدى المزراوي وهي قطع المياه عن العدو، مما سيجبره على الانسحاب.

وكان يوجد بمدينة تازة عاملا بناء يهوديان، استقدمهما القائد وطلب منهما ردم العين. وشرع العاملان في مهمتهما، حيث صنعا نوعا خاصا من الإسمنت المكون من الصوف والجبس والبيض والقطران؛ وخلطا هذه المواد ثم وضعا العجين على منبع العين. وبالفعل، لم تخرج أية قطرة ماء؛ وأجبر الجنود الذين كانوا يضربون حصارا على المدينة، على مغادرة مواقعهم بفعل العطش، متجهين إلى مكان آخر. وانتصر المزراوي أخيرا ! و إثر ذلك، فكر في فتح العين من جديد، لكنه لم يتمكن من ذلك، فنادى على اليهوديين مرة أخرى وخاطبهما بما يلي :

- ما دمتما قد ردمتما العين فأنتما مطالبان بفتحها !

لكن، كيف يمكن فتح هذا الصخر الذي أصبح أكثر صلابة من الغرانيت ؟ فقد كانت الفؤوس الحادة تنكسر كالزجاج بين يدي العاملين اللذين بذلا مجهودات خارقة لفتح العين، إلى درجة اعتقادهما بأنهما أخطآ المكان. فهل كانت العين هناك ؟ كلا؛ لأن الإسمنت لا يمكن أن يكتسب هذه الصلابة ! وبحثا عن العين في أمكنة أخرى، لكن دون جدوى. وأمام هذه الكارثة التي يتعين فيها التخلي عن المدينة لعدم وجود الماء، انتاب المزراوي غضب شديد وأمر بقطع رأسي اليهوديين. وما زالت تظهر بأحد صخور مزراوة القديمة، منحوتات للرأسين المقطوعين صنعتها يد نحات في ذلك العصر القديم.

هكذا، طرد العطش السكان من منازلهم، فهاجروا بكثرة إلى النواحي وخصوصا إلى بني زروال ومزيات والجاية.

إن مدينة مزراوة ما زلت منتصبة فوق قمة الجبل، مبرزة مساجدها ومصانعها وحواجزها المرتفعة. وقد ساهم الزمن والأمطار في تآكل المنازل وحفر الأزقة. وما زالت أشجار البرتقال والورد التي تنغرس جذورها، لتصل بدون شك إلى الطبقة المائية الجوفية للعين القديمة، محركة أغصانها بفعل الرياح التي تهب باستمرار فوق هذا التل المهجور الذي كان فيما مضى مليئا بالحركة والحياة.

إن القايد السيئ الحظ لم يتوقع النتائج الوخيمة لإغلاق العين التي تعتبر هي المصدر الوحيد المزود لشعبه بالماء؛ كما لم يتوقع الكارثة التي ستحدث داخل الجبل. فالمياه التي لم تعد تنبثق بالخارج، ستندفع بعنف في الجنبات الداخلية، بحثا عن منفذ. وكان الجانب الغربي بمثابة الحلقة الضعيفة، حيث سينهار تحت قوة اندفاع المياه، مما سيؤدي إلى انبثاق خمسة شلالات تهدد بإغراق كل شيء. ومع مرور الزمن، هدأت الشلالات وتحولت إلى خمسة منابع مائية، حيث توجد عين مزراوة الحالية. وتنقسم هذه العين إلى قسمين : يمتد أحدهما إلى زاوية الحمومي ويصب الثاني في نهر ورغة بعيدا جدا عن الزاوية، بين الجاية والحياينة، في مكان يدعى أولاد قرون.

بعد تشتت سكان مزراوة، أصبح تراب المدينة القديمة ملكا لزاوية الحمومي. وكان على رأس الزاوية، مؤسسها نفسه وهو سيدي الحمومي، الولي الصالح الذي امتدت شهرته لتهم المنطقة كلها، حيث كان مبجلا من طرف مهاجري مزراوة بالخصوص. وكأول محتل للمنطقة، وحتى يضع حدا لأي احتجاج من طرف أقارب المالكين القدامى، استدعى مجموعة كبيرة من الريفيين وأنشأ ثلاثين قرية تقريبا، أسكنها هؤلاء الأمازيغيين. كما شيد هنا وهناك مزارع معزولة ومنح لزارعيها أجرا يساوي نصف محصول الأراضي الخصبة التي أصبحت ملكا له. ولأن عملية الاستيلاء هاته، بدت قاسية، فقد كان من الضروري تنظيمها مع الاحتفاظ بمنتوجات الأرض على مدى قرون. واستخدمت لهذا الغرض طريقة بسيطة، هي من أروع الحيل التي لجأ إليها التشريع الإسلامي وأقصد بذلك الحبوس. هكذا، تمكن الولي الذكي من إرضاء الجميع، سواء كانوا مقتنعين أو منتقدين لعملية السطو. فهذه الأراضي الشاسعة، ستخضع لتصرف رجال الدين بالزاوية، مادامت الأملاك قائمة؛ وهذا هو مصدر غنى الزاوية الشهيرة. فقوتها معترف بها داخل القبيلة؛ وثرواتها لا تحصى، بحيث يلخص الأهالي هذه الوضعية حاليا بقولهم : " السماء لله والأرض للحمومي".

وفي آخر جولاته بالقبيلة، حط محمد بن الطيب الرحال بمزراوة الفوقانية؛ ومن حسن حظه أنه نزل ضيفا على شيخ القرية نفسه. وبعد تناول طعام العشاء المكون من دجاجة مشوية،

أعلن المضيف للدرويش بأن أصله من تمسمان وتحديدا من قسم بني ثعبان وأنه ولد بقرية بو يعقوب[11] . ولم يجد الضيف حرجا في إبلاغ مضيفه بأنه يعرف بلدته ولغتها قائلا :

-لقد درست مدة طويلة ببو يعقوب وأحتفظ بأفضل الذكريات عن تمسمان وأهلها.

فأجابه الأمازيغي برقة :

- مادمت تعرف بلدتي، فأنت أخ بالنسبة لي. ولن أخفي عنك شيئا من الآن فصاعدا. ويمكننا إذا ما أردت أن نزور خربة مزراوة غدا.

وفي الصباح، وبعد أن تناول الرجلان طعاما بسيطا شرعا في الصعود إلى الجبل. وقد انبهر محمد بالبنايات الضخمة للمدينة القديمة فسأل صديقه عن تاريخ تأسيسها؛ وأجابه الشيخ قائلا:

-لو سألتني متى هجرت من أهلها لأجبتك، منذ أربعة قرون تقريبا. لكن، من هو الشخص الذي يستطيع إخبارك بتاريخ تأسيسها ؟ وأين هي الوثائق التي تتحدث عن ذلك ؟

وباندهاش كبير، لاحظ الجوال الدائم، الجدران الآيلة للسقوط. وكان يمرر أصابعه على الكتابات الموجودة بها والمختلفة تماما عن العربية، وقد تأسف لعدم تمكنه من فك رموزها وفهمها. وكانت توجد أيضا صخور ضخمة نقشت عليها أجسام بشرية وبعض قطعان الماشية؛ ويبدو أنها نقوش رومانية. وتمتم الرحالة وهو يمر قرب الصخور مستحضرا خرافات الأهالي قائلا :

- لقد كان الجهال يملكون هذه المدينة وسيعودون إليها، لأن الغرب [المغرب] فقد دينه !

واكتشف وسط الخراب منجما مهجورا للنحاس. وفهم لماذا تبدو المدينة صفراء، فقد كانت في الحقيقة مدينة نحاسية مبنية بمعدن النحاس. وعند نزوله، استدار ليراها مرة أخرى. وكانت الشمس تغمرها بأشعتها، مما أضفى عليها روعة جعلته يتخيلها كمدينة سحرية مبنية كلية بأحجار ذهبية.

---

[11] أنظر ، المغرب المجهول، مذكور، ص. 119.

القرى الرئيسية ببني زروال

قسم بومعان

- أمجوط [الأجرب]، التسمية أمازيغية، 20 منزلا، وهي قرية صغيرة على ضفاف واد إزلفان وبها زاوية مخصوصة لمولاي العربي الدرقاوي.

- بوبريح، 100 منزل؛ وتوجد فيها أيضا زاوية مخصوصة لمولاي العربي الدرقاوي؛ وكان هذا الولي تلميذا لسيدي أحمد الشاذلي، مؤسس الطريقة الدرقاوية. وقد اشتهر بفضائله، في كل أرجاء المغرب، بحيث أن أغلب الدرقاويين يرجعون أصلهم إلى هذا الولي الصالح.

أما عن اسم بوبريح، فيرجع إلى كون أتباع الزاوية يصرخون عاليا أثناء دعواتهم وصلواتهم. وتتوزع أكواخ هذه القرية على طول الضفة اليسرى لواد بومعان.

- الخميس، 500 منزل، على مسافة قريبة من الضفة اليسرى لواد بومعان الذي يأخذ عند انحداره اسم واد إسلي [الخطيب]. ويقام بها سوق هام كل يوم خميس. وبواد الخميس، على مسافة متساوية من واد بومعان وواد تاموروز المسمى أيضا واد أوذور، يوجد منجم للفضة غير مستغل.

قسم بني مكا

- تازوقارت [التوت الوحشي]، التسمية أمازيغية، 800 منزل وتتضمن ثمانية دواوير متقاربة فيما بينها.

- تاينزا [الانحناء]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، على قمة جبل مغطى بشجر السنديان وبشرق تاينزا، في شبه الجزيرة المكونة من التقاء واد الأربعاء وواد أودكة، يوجد سوق الأربعاء الذي يتبضع منه أهالي بني زروال وغمارة وكتامة.

- سيدي علي الزغاري، 100 منزل. وهذه القرية المبنية بسفح جبل أودكة، محاطة بأشجار البلوط الرائعة التي يتم استغلال خشبها وثمارها.

- ثاورطا [الحادة]، التسمية أمازيغية 500 منزل وتشمل خمسة دواوير متساوية الكبر.

وعند الشمال والجنوب الغربي لثاورطا، توجد مناجم الذهب التي لا يستغلها أحد؛ وينطبق نفس الشيء على منجم الرصاص بالشرق.

- تامسنيث [عصا لقطف التين]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، على حدود قسم بومعان.
- دار تكوك، 500 منزل، على الضفة اليسرى لواد أوذور؛ ويرجع اسمها إلى تواجد العديد من الطيور بها [مثل الكوكو والقنابر].

بني مجرو، 1000 منزل، وتشمل مجموعة من الدواوير الموجودة بالضفة اليسرى لواد أوذور. وهي عبارة عن مدينة صغيرة وسخة، لكن الطلبة يفدون إليها كثيرا، نظرا لكرم أهلها ولاستقلالها النسبي. ومن أبرز دواويرها نذكر:

1) بني قبة، 50 منزلا.
2) حلابة، 50 منزلا.
3) بوفاضيس، 60 منزلا.

وتشكل هذه الدواوير جزءا من بني مجرو التي تعتبر مركزا يوجد به مسجد كبير بصومعة، كما توجد به الجماعة التي تفرض إرادتها على كل الدواوير التابعة لها.

- المراج، 500 منزل، على الجانب الشمالي لجبل أودكة وتوجد وسط أشجار عالية، كما يكثر الثلج بها خلال فصل الشتاء.
- المشاع، 500 منزل، على الضفة اليسرى لواد أودكة.
- الهوتة، 100 منزل.
- سيدي لحسن الزغاري
- تاوارارت [الدوار الصغير]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- قلعة بني قاسم، 800 منزل، وهي في نفس حجم بني مجرو تقريبا، ويوجد بها العديد من الطلبة ومساجد وزوايا وبنايات بسيطة ووسخة بشكل مفرط.
- تيمزقانا [قلب شجرة الدوم]، التسمية امازيغية، 500 منزل. ويوجد بهذه القرية وبنواحيها عدد كبير من الريفيين الذين يشتغلون بزاوية سيدي الحمومي.
- فرسيوا [الأرض المستصلحة]، التسمية أمازيغية، وهو اسم غابة الزيتون التي تمتد من واد بني ياذمي إلى واد المزاز. وهناك خمس إلى ست قرى بهذه الغابة، لم أتعرف على اسمها.

قسم الأحـــــد

- أفوزار [الخصبة]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد أودكة، حيث يسمى واد الحد، وعند الجنوب، يوجد منجم للفضة.

- القلايع انتاع أفوزار، 500 منزل، ويقام عند أبواب هذه القرية، أهم سوق بالقبيلة. وفي سنة 1875، احتفل محمد بعيد الأضحى بالقلايع.

- سوق الأحد، وهو أهم سوق ببني زروال وبه يصدر القاضي الحالي (1897) ولد الفقيه سيدي امحمد، أحكامه على المتقاضين من القبيلة برمتها. ولا يعقد جلساته إلا يوم الأحد.

- القليعة، 100 منزل.

- النقلة [أشجار التين]، التسمية أمازيغية، 500 منزل.

- الركيبة، 500 منزل.

- بني إزو [أبناء الشجر الشائك]، التسمية عربية-أمازيغية، 100 منزل. وقد احتفل الدرويش في هذه القرية بأول عيد أضحى له في المغرب وكان ذلك سنة 1872. وبالجنوب يوجد منجم للفضة.

- أولاد جامع، 100 منزل ويوجد منجم للرصاص على الضفة اليسرى لواد بني ياذمي.

- الناضور، 500 منزل.

- الروف، 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد المزاز الذي يشكل الحدود الطبيعة للقبيلة شرقا.

قسم بني إبراهيم

- مزراوا [الشرفة]، التسمية امازيغية، 200 منزل وتوجد آثار مدينة تحمل نفس الاسم، بهذه القرية.

- عين اللوح، 100 منزل. ويرجع اسمها إلى الألواح الكبيرة والمبلطة المحيطة بالمنبع المائي للقرية؛ وهي مأهولة كلية بالريفيين.

ومصدر هذه الألواح، آثار مدينة قديمة يشكل اسم عين اللوح آخر تسمية لها. فحول هذه القرية، هناك غابة تختفي بها المساكن القديمة التي أصبحت خرابا. وقد نمت أشجار السنديان

والزيتون بين الجدران الآيلة للسقوط. وتعتبر هذه الأدغال الصغيرة التي حلت محل هذه المساكن، ملجأ لبنات آوى والخنازير. ويؤكد الأهالي بأن هذه الآثار رومانية؛ وطبعا فإن النقوش التي مازالت موجودة بالمقبرة القديمة وكذلك أحجار الآثار القديمة، لم تفك رموزها من طرف أشباه المتعلمين بالمنطقة.

- عين الحجر، 100 منزل.

- عين تازغادرا [من الأمازيغية تاز بمعنى موكب وغادرا بمعنى الغدر]، 500 منزل. وتشتمل على الدواوير التالية:

1) دشرة الحدادة حيث توجد العين المشهورة باسم عين تازغادرا.

2) دشرة إمريزقن [أبناء زروق]، التسمية أمازيغية.

3) دشرة الزريبة.

4) باب البير.

5) أغفساي [النهب] التسمية أمازيغية؛ وفي سنة 1874، احتفل الدرويش بعيد الأضحى في هذه القرية.

6) الحيول.

7) بني إزو.

- زاوية الحمومي؛ اسم مؤسس هذه الزاوية الغنية هو علي بن حساين ولقب بالحمومي لأن حبوب الشعير والقمح التي كانت تملأ المطامير لم تكن تستهلك إلا بعد سنوات من الانتظار؛ ولذلك كانت تمتص رطوبة الأرض وتتعفن. ويدعى التعفن في هذه المنطقة "الحمومي"، في حين يدعى "المشروب" في الجزائر. وفي إحدى السنوات، كثرت الحبوب المتعفنة، فتولدت لدى سيدي علي بن حساين فكرة استخدامها كسماد في أراضيه الشاسعة التي أصبحت خصوبتها مضرب الأمثال، بفضل هذه العملية التي لم تكن معروفة من قبل. ويحتفظ في هذه الزاوية بذخائر هذا الولي؛ وتشمل القرية 100 منزل، وهي توجد عند ملتقى واد بني ياذمي وواد المزاز.

- بوزرقا، 100 منزل.

- المغراوين، 100 منزل، وهي مقر إقامة سيدي علال الحمومي "مقدم" الزاوية الحالي؛ وهو أب روحي فعلي لقبيلة بني زروال برمتها.

قسم بني ياذمي [أبناء التوت الوحشي]

- التسمية عربية أمازيغية

- إغيل ملول الفوقاني [القمة البيضاء الفوقية]، التسمية عربية أمازيغية، 500 منزل.

- إغيل ملول السفلي [القمة البيضاء السفلية]، ال تسمية عربية أمازيغية، 500 منزل.

- تقجذيت [العمود]، التسمية أمازيغية 100 منزل، قرب منجم للرصاص.

-حمدان، 300 منزل.

-تاونات، 100 منزل.

العزايب، 500 منزل.

-عين باردة، 500 منزل وتشتمل على الدواوير التالية :

1)استر [قطعة الخشب التي توضع في فم الحمل لمنعه من الرضاعة]، التسمية أمازيغية.

2)أوتان [الفأس الصغيرة]، التسمية أمازيغية.

3)الركيبة.

4)دشرة الريف

5)تيزي [الموكب]، التسمية أمازيغية.

قسم أولاد قاسم

- عين أحمد، 100 منزل، على واد أذور.
- شهريرة، 800 منزل.
- تيط فراحت [عين الفرح]، التسمية عربية أمازيغية 100 منزل.

القوات العسكرية للقبيلة : 30 ألف رجل، من بينهم 12500 فارس.

عدد السكان المحتمل: 210 ألف نسمة. والمنطقة عبارة عن سهل متموج، باستثناء الشمال حيث ترتفع الجبال. وتتوفر على خمسة وديان وهي: واد إسلي، واد أوذور [الواد الضخم]، واد بني ياذمي، واد المزاز [المخاضات]، واد أودكة [الشحم].

وتتبع هذه الوديان بقبيلتي غمارة وكتامة وتجري من الشمال إلى الجنوب لتصب في نهر ورغة. وتوجد مئات الدواوير التي لم أتمكن من معرفة أسمائها.

نبذة تاريخية عن قبيلة بني زروال :

هي قبيلة صنهاجية؛ وقد سماها ابن خلدون بني أو زروال. وفي عصره، أي القرن الرابع عشر وتحديدا سنة 1350، كان أفراد القبيلة يقيمون بجبل سريف مع القبائل الصنهاجية الأخرى وهي فشتالة بني ورياگل، بني معان [ولربما كانت هذه الأخيرة مجرد قسم من أقسام بني زروال، يسمى حاليا بومعان]. ولقبت هذه القبائل بصنهاجة العز، لأنها لم تخضع لأي سيد. وسيضيف مؤرخ البربر [والعرب]، بأن أفرادها لم يزاولوا أية مهنة، لأنهم كانوا يمارسون قطع الطريق. وفي سنتي 1667 و 1668، أخضع الشريف مولاي رشيد بني زروال لسلطته وتابع حملته حتى تطوان التي استولى عليها أيضا. [أنظر الاستقصا الجزء الرابع، ص. 17].

وعند نهاية القرن الثامن عشر، قاد شيخ درقاوة العربي الجمال، من قلب قبيلة بني زروال التي كان يتواجد بها، ثورة بدائرة وهران.[13]

ولا بأس من الإشارة، بأننا نتوفر في دائرة مستغانم على قسم منفصل عن القبيلة المغربية الكبيرة، مازال يحمل اسم بني زروال.

ويعلم الزرواليون المستغانميون الذين التقيت بهم، بأنهم أبناء عمومة بني زروال المغاربة. وترجع هجرتهم خارج الإمبراطورية المغربية إلى عهود سحيقة غير معروفة للأسف.

[13] أعتقد بأن هذه المعلومة خاطئة، لأنني لم أجد لها أثرا في الاستقصا أو " روض القرطاس" ومن المحتمل أن يكون الأمر متعلقا ببني زروال بنواحي مستغانم وليس ببني زروال بالمغرب، كما أقر ذلك ميرسيي عن غير قصد في مؤلفه :

-M.E. Mercier, Histoire de l’Afrique septentrionale, tome III, p. 462.

قبيلة كتــــــامـــة

تبدو كتامة، مرئية من أعلى، عبارة عن منطقة محاطة بالجبال، بحيث تتوفر على أعلى قمم جبالة. ولم يتمكن الدرويش الذي تاه وسطها، من دراسة جغرافية هذه الجبال orographie بشكل جيد. وقد تحدث لي جميع المغاربة عن هذه المنطقة برعب شديد؛ ولا يوجد طلبة جريؤون باستطاعتهم التغلغل وسط هذه الجبال الشامخة لخدمة العلم. وحاولت من جانبي أخذ فكرة عامة عن سويسرا الكتامية هذه، عبر طرح عشرات الأسئلة على محمد؛ وتمكنت من تحديد بعض التوجهات الكبرى التي يمكن للملاحظين في المستقبل أن يصححوها، عندما يكون باستطاعة علمائنا في الجيولوجيا ومهندسينا، التجول بأمان داخل الإمبراطورية الشريفة.

وتتألف المرتفعات الكتامية من سلسلتين جبليتين تقريبا، تحدان القبيلة من كل الجهات. وتحد السلسلة الأعلى الريف بحيث ترتبط بجبال غمارة في الشمال الغربي وتأخذ وجهة جنوبية وجنوبية شرقية، حتى وسط القبيلة تقريبا، لتصعد بعد ذلك جهة الشمال الشرقي وتلتقي شرقا بمرتفعات بني أحمد. أما السلسلة الغربية، فتضع حواجز طبيعية بين كتامة ومثيوة وتلتقي مثلها بالمرتفعات الغمارية، غير بعيد عن قرية تيلوطاف.

وبداخل القبيلة، تأخذ القمم والمنحدرات أشكالا متنوعة يصعب وصفها إذا ما أخذت منعزلة؛ لكن من الممكن وصفها إذا ما أخذت مجتمعة، شريطة أن يعتبر ذلك مجرد تمهيد لاكتشافات مستقبلية.

وتتضمن كتامة خمسة أقسام وهي : بني إزي، بني امحمد، الخميس، تملوغيث وزدمت. وتتكلم الجهة المجاورة للريف الأمازيغية بلهجة شبيهة بلهجة تاغزوت. وبالجنوب، بمحاذاة القبائل الجبلية الأخرى، تسود اللغة العربية الممزوجة شيئا ما بتمازيغث. وتحتفظ الجبال الشاهقة بردائها الأبيض من الثلوج، إلى حدود شهر ماي، بل إن بعضها يظل مكسوا بالثلج طوال السنة، وهو ما يعني أن علوها يتجاوز 3 آلاف متر. وفي كل مكان، توجد غابات تكثر فيها أشجار السنديان والصنوبر والأرز. وينتفع الأهالي بمادة لزجة تنبثق من شجر الأرز

وتدعى العسل الأسود. كما يستغلون الغابات المحيطة بهم بشكل مفرط، حيث تقطع الأشجار وتصدر إلى طنجة وتطوان ومنهما إلى أروبا.

وفضلا عن المرتفعات الغابوية، توجد بساتين عديدة تحتوي على كل أشجار الفواكه المعروفة بإفريقيا الشمالية، مثل أشجار الجوز واللوز والفستق. وبخصوص الحيوانات الأليفة، يوجد الكثير من الماعز والعجول التي تعلف بشكل جيد من أجل بيعها. أما في الأودية المعتدلة المناخ، فتزرع الكروم التي يستخدم عنبها لصنع الصامت [هلام العنب] والخمر والخل. وأهم الزراعات في المنطقة هي الفول والعدس والحمص والبازلاء والجلجلان والقليل من القمح. وتشتهر كتامة في المغرب برمته بإنتاج الكيف، بحيث تمتلك أغنى العائلات حقولا كثيرة من هذه النبتة وتكون مضطرة للجوء إلى عملية التويزة،[1] لزرعها وحصدها.

وغني عن البيان أن الكيف يباع في كل أسواق القبيلة، بل إن أهالي المغرب برمته يأتون لشراء هذه النبتة ذات التأثير السيئ الشبيه بتأثير الأفيون opium.

وتستخدم الوديان والمنابع المائية العديدة لسقي العديد من بساتين الخضر، حيث يزرع بالخصوص، البصل والفلفل والفاصوليا والبطاطس بما فيها الحلوة.

من جهة أخرى، فقد بلغ فن تلقيم أشجار الفواكه درجة عالية من الإتقان. هكذا، يتم تلقيم أشجار الخوخ والمشمش والبرتقال والزيتون، مما يسمح بإنتاج فواكه لذيذة المذاق. أما البلوط والأرجال والذرة، فهي المأكولات المفضلة لدى الفقراء. ويدخن كل الكتاميين الكيف؛ وقد تعودوا على ذلك، إلى درجة أن الواحد يحتاج إلى تدخين 12 إلى 20 غليونا كي ينسطل. ويستعمل الكتاميون أيضا مادة مشتقة من الكيف وهي "طابة". ولا يكتفون بذلك، بل يشربون إلى حد الثمالة خمرة رديئة يصنعونها بأنفسهم. وهم لا ينسون خلال حفلاتهم المتهتكة، إحضار الغلمان والعايلات، لأنهم شغوفون برقصات البطن التي تثير الغرائز.

ورغم خصوبتها، فإن هذه الأرض الجبلية لا تصلح لزراعة القمح والشعير. وتتكاثر الغابات بقمم أغلب الجبال، كما أن مئات الهكتارات من الأدغال تحتاج إلى استصلاح زراعي. وفي

---

[1] التعاون المتبادل بين المزارعين.

انتظار ذلك، فإن حيوانات عديدة مثل الخنازير وبنات آوى والثعالب والضباع وبعض الأسود والفهود، تعيش في هذه الغابات التي لا يجرأ أحد على اختراقها.

ويتكون سلاح الأهالي من بنادق مغربية مستوردة من تطوان وذات قناة طويلة بشكل مثير؛ ومن سيوف يحملها الرجال معهم دوما. واللباس التقليدي لهؤلاء الرجال، يتمثل في الجلابة الخزيوية الغليظة وغير المتقنة الصنع وذات الخطوط المتعددة الألوان. وتتساوى قوة القبيلة مع قوة بني زروال، بل إن أهالي كتامة أكثر استقلالية من جيرانهم الزرواليين. فداخل هذه الجبال، لا تخشى القبيلة أحدا، لأنها قادرة على دحر الجيش الإمبراطوري وكل العصابات التي تتجرأ على صعود هذه الجبال الوعرة؛ ويكفيها الاستعانة بالأحجار والصخور المحيطة بها. وككل الجبليين الذين لم تلن طباعهم لعدم احتكاكهم بالمدينيين، فإن الكتاميين يعرفون كأشخاص قساة، متوحشين، حريصين على الربح. ومع ذلك، فإنهم يحسنون ضيافة الغريب ويستقبلون الطلبة الأجانب بحفاوة ونادرا ما يسلبون المسافرين أمتعتهم. وهذا السلوك مفيد لهم، لأنهم ينتقلون كثيرا بين القبائل المجاورة لبيع المغازل والجوز والسواك [للحفاظ على بياض الأسنان] واللوز المر الذي يستعمل للزينة من طرف النساء بغرض العناية بشعر رؤوسهن. ويتجولون أيضا في الأسواق لبيع البارود ورصاص البنادق والكبريت والنيترات والقرمز وعجين الك.

وتوجد قرى كبيرة بالقبيلة، كما يتضمن كل قسم خمس مناطق إدارية، تشتمل كل واحدة منها على 15 دوارا من 10 إلى 500 منزل. وتتم إدارة كل منطقة – إذا ما سمح لنا بإطلاق لفظة إدارة، المستعملة ببلداننا المتحضرة، على الفوضى الكتامية – من طرف شيخ، تنتخبه الجماعة. ويعتبر القايد أعلى درجة من الشيخ، وهو يترأس القسم برمته وينسق عمله مع قياد الأقسام الأربعة الأخرى، بخصوص الشؤون العامة، مثل الحرب والتبادل التجاري واستخلاص الضرائب إن أمكن.

وأهم صناعات المنطقة هي: صناعة البارود الذي يتم إنتاجه انطلاقا من خليط الكبريت والنيترات والرماد والخرق المحروقة؛ وكذلك استخلاص الكحل والكبريت من المناجم وصناعة الصابون من الجير والرماد والزيت وتربية دود القز Sericulture في الوديان الدافئة؛ والنجارة وصناعة الزفت عند جنبات الغابات؛ وأخيرا صنع الكيف و"طابة". وتتشكل

هاتان المادتان الأخيرتان، المصدر الرئيسي لثروة المنطقة. فإذا ما طلبت من أي جبلي أين يوجد أفضل كيف وأفضل تبغ وأكثر المدخنين لهما في العالم، فإنه سيجيبك قائلا:
- اذهب إلى كتامة وأخبرني بعد ذلك.

اكتشاف منجم للفضة:

تحظى القبيلة بمناجم غنية، وللأسف فإن الأهالي لم يتجاوزوا أجدادهم في مجال الصناعة المعدنية. كما أن الطلبة الأجانب، الأكثر جهلا من الأهالي بهذا الخصوص، يقومون بمحاولات يائسة، أمام هذه الثروات التي لا تحصى والتي لا يستفيد منها أي أحد. وقد استعمل بعضهم وسائل جديدة وابتكروا أدوات غريبة، لكن بدون جدوى. ومرة، غادر الدرويش دوار بني إزي رفقة خمسين طالبا، لحضور جنازة بقرية القلعة وقراءة آيات من القرآن الكريم على جثمان شخصية مهمة بالقرية. وكانت الطريق وعرة وخطيرة لأنها موجودة على منحدر جبلي، تغطيه أشجار باسقة. وعلى بعد 300 قدم إلى الأسفل، يجري واد بني إزي الذي تظهر تعرجاته بين الفينة والأخرى من خلال أغصان الأشجار المحيطة بضفتيه. وبالقرب من الطريق، ترتفع أنابيبه الفضية الرائعة نحو السماء بشكل مثير. واندفع الجوال نحوه دون أن ينتبه إلى الهاوية، فصرخ طالب من ورائه :

-انتبه، ستهشم عظامك ! فكم من أجنبي جذبته هذه الأنابيب الفضية ولقي حتفه في قعر الهاوية.

واقترب الطالب من محمد وأضاف بصوت منخفض :

-اصبر، فسنصل عما قريب إلى مكان يكثر فيه هذا المعدن. فلندع الآخرين يسبقوننا.

وعلى بعد مئات من الأمتار، انفتح مضيق جبلي بفعل الأمطار الشتوية، يجري به جدول صغير. وأشار الطالب إلى الرحالة بدخول المضيق وأخبر الآخرين، بأنهما سيتوضآن بداخله. وعندما بقيا وحدهما، نزلا إلى الأسفل، بحيث ظهر الجدار العمودي مباشرة فوق رأسهما.

وانهال محمد بفأسه الصغير على المادة البراقة الملتصقة بالصخر. وعندما جمع بعضا منها وفحصها، تعرف على المعدن الثمين !

ولإثارة طمعه، أخبره رفيقه عن مجموعة من الأجانب الذين حملوا معهم قطعا كبيرة من الفضة وباعوها بالشاون وتطوان وأصبحوا أغنياء، حيث اشتروا أراضي شاسعة بعيدا عن كتامة التي يصعب فيها اقتناء الأراضي والمنازل بسبب كثافة السكان؛ وتحديدا، بسواحل المتوسط والمحيط الأطلسي. وتابع بحماس قائلا:

- كم ستكون ثروتنا عظيمة ! فالكتاميون يستطيعون بالكاد معالجة النحاس والرصاص والحديد. فهل تعرف كيفية الاشتغال على معدن الذهب والفضة؟

فأجابه الدرويش الذي كان يراقب المكان ويسجله في ذاكرته، كي يعود إليه مرة أخرى:

- للأسف فإنني لا أعرف.

ولأن الآخر قرأ ما يجول بخاطر الدرويش، فإنه أرعبه بالحديث عن وجود قردة بحجم الغوريلا، تسكن الجبل وتقتل كل متجول وحيد، رميا بالحجارة. ويجب الإسراع بالانضمام إلى باقي الطلبة، لأن المسافة بينهم أصبحت بعيدة.

ولم يكن الطالب يمزح، فقد كان ما ذكره حقيقيا؛ وكثيرا ما جرى الحديث في الأمسيات أمام الجوال، عن مدينة القرود التي يخشاها كل أهالي كتامة. وكانت الطريق التي يمرون منها، محاذية للمدينة الرهيبة، حيث كانت تبرز مغارات عديدة وسط الصخور. ومر الرفيقان بجوارها وقد انقطعت أنفاسهما؛ وقال الطالب بهمس:

- اصمت، ها هي مدينة القرود، ستكون حياتنا في خطر لو سمعتنا هذه الحيوانات.

وكان من الصعب عبور الطريق الضيقة المليئة بالأحجار والأعشاب التي يتعين اجتيازها.

ومما زاد من رعب الرجلين، أن الغابة الكثيفة أصبحت سوداء، مع اقتراب غروب الشمس. ولما كانا على وشك الخروج من ذلك المدخل الضيق شاهدا قردا جالسا القرفصاء؛ فصاح الكتامي:

- هل رأيت الكافر؟

فذعر القرد وقفز فوق الشجرة ومنها إلى أخرى وهو يصدر أصواتا حادة؛ وكأنه يطلب النجدة من جماعته. وركض الدرويش وصديقه بفعل الخوف، إلى أن وصلا إلى أطراف الغابة وقد بلغ منهما العياء مبلغه. ولحسن الحظ، وجدا بعض الرعاة الذين يحرسون قطيعا من الأبقار الحلوبة، يتجاوز عددها الثلاث مائة والتي لا يوجد من بينها ثور ولا عجل ولا

عجلة genisse . وكانت ذكورها ترعى بكل حرية في الغابة؛ ونادرا ما تعود إلى المنازل، حيث تنتظر فترة التزاوج؛ وفي فصل الربيع، تنضم إليها الأبقار لبضعة أيام. بعد ذلك، تعود الأبقار الحبلى ويتم الاحتفاظ بالعجول والعجلات إلى حين بلوغها سن التوالد؛ وتطلق بدورها في الجبل؛ ويمكننا أن نتصور سهولة سرقة هذه الحيوانات التي ترعى بدون حراسة. لكن عقوبة فظيعة ستلحق بكل سارق، مما يدفع كل واحد إلى الإحجام عن هذه المغامرة، لأنه سيلقى نفس مصير الزاني، حيث تفقأ عيناه بمنجل حام؟

وخاطب الرعاة الطالبين بالقول:

- أنتما محظوظان بوصولكا إلى مكاننا. أنظرا جهة رأس الجبل.

وبالفعل فقد كان آلاف القرود يغطون الجوانب العارية من الجبل. وكان صراخ القرد سببا في تجمعهم فوق الطريق التي سبق أن اجتازها محمد ورفيقه.

وبقرية القلعة وجدا باقي الطلبة بالمسجد جالسين القرفصاء حول أطباق الزبدة والبيض والسمك المقلي والبادنجال المقلي أيضا. وتناولا بعض الطعام بسرعة، لأن رفاقهما كانوا يتهيؤون للذهاب إلى دار الجنازة. وتبعهم محمد متخليا عن الطعام ومترقبا لما سيحدث. ودخل جميع الطلبة إلى البيت الذي يوجد فيه الميت؛ وكان جثمانه قد لف في كفن ووضع فوق نعش واطئ. وكان أهل الميت يحرقون البخور بابتسامة باهتة وينثرون الكافور في أرجاء البيت. وفي الغرفة المجاورة لا يسمع صوت النساء المتواجدات بها؛ فبالنسبة لهؤلاء الأهالي القساة، المعرضين يوميا لمخاطر كبرى، تعتبر المنية مسألة عادية. وفي الوقت الذي رفع فيه النعش من طرف أميين ذوي عزيمة صادقة، شرع الطلبة في تلاوة البردة. [2] وامتزجت زغاريد النساء المتواجدات بغرف المنزل، بأشعار البوصيري. وهذا الجو المهيب يعكس الاعتقاد السائد لدى أهل الفقيد بأن الروح الطيبة لهذا الرجل ستخلد في النعيم ؟ ووبأنه لا يمكن أن يوجد مسلم واحد في النار!

وفي الطريق من المنزل إلى المقبرة، كان هناك تدافع بين الناس الراغبين في حمل النعش، لأن هذا العمل عبارة عن "أجر"، يجازي عليه الله كل مؤمن ساعد في حمل الميت إلى مثواه الأخير.

---

[2] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 102.

ووضع النعش في حفرة لا يتعدى عمقها 70 إلى 80 سنتمترا؛ وشكل الطلبة دائرة ثم أقاموا صلاة الجنازة عبر انحناءة الرأس مرفوقة بعبارة "الله أكبر"؛ وبعدها تلا الجميع الدعوة التالية:

"اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين". ورفع رجلان الجثمان ووضعاه في الحفرة، حيث وجه رأسه نحو مكة [القبلة]، بعد جهد جهيد. وهذه هي طريقة دفن موتى المسلمين في أغلب مناطق المغرب؛ وتسمى الحفرة قبرا والمشكاة التي تغطي الجثمان لحدا. وغطي القبر بالأتربة والأحجار ووضع "شاهدان" من الحجر يشيران إلى مكان القدمين والرأس.

ولم تحضر أية امرأة مراسيم الدفن وذلك وفقا لعادة يطبقها كل المغاربة. فقد ظلت النساء في المنزل لتهيئ طعام الجنازة المكون من خبز الشعير واللحم المطهي بالخضر وبالتوابل الذي سيقدم بالمسجد، إلى حاملي النعش وإلى الطلبة الجائعين من جراء هذا التحرك نحو المقبرة. وعندما شبع الجميع ناول أهل الميت المعلم بعض النقود التي وزع بعضها على جميع الطلبة بمعدل 12 أوقية لكل واحد، أي حوالي 10 قروش؛ واحتفظ المعلم بالباقي، أي ما يعادل حصة الطلبة مضاعفة ثلاث أو أربع مرات [فرنكان تقريبا]؛ وأخفى النقود في "زعبولته" المصنوعة من الجلد الأحمر وهي حافظة نقود مشدودة إلى الحزام.

وفي الغد، اختفى الدرويش عن رفاقه، إلى حين مغادرتهم القرية. فقد كان يريد اكتشاف مناجم الفضة وحده، بجبل القرود الرهيب. ومرت أربع وعشرون ساعة قبل أن يأخذ الطريق وحيدا، حاملا بيده عصا صغيرة ومخبئا أخرى كبيرة تحت جلابته من أجل كسر الأنابيب المعدنية التي عاينها برفقة صديقه الطالب. وتوجه شمالا دون أن يسرع الخطى، مع الأمل في البقاء عدة أيام بالمنطقة. فمن المؤكد أن الرعاة سيحسنون ضيافته في أكواخهم وأنه سيكتب لهم بالمقابل، أحجبة يرغب الأهالي المؤمنون بالخرافات في اقتنائها.

وبالفعل، فقد استقبل الرعاة الجوال الفقير كأخ لهم وأطعموه البلوط وخبز الشعير والتوت الوحشي ونصحوه بالبقاء معهم وبألا يغامر وحده بجبل القرود. غير أنه نهض مبكرا في الصباح وأخبر أصدقاءه الجدد بأنه سيعود في المساء. وغادر المكان تحت نظراتهم، بجسده النحيل الذي ظل يبتعد تدريجيا إلى أن أصبح مجرد نقطة بيضاء داخل الغابة؛ وعندما أوشك

على الاختفاء، صاح الرعاة بصوت واحد : " الله يهديك "؛ فاستدار نحوهم وأرسل لهم قبلة على أطراف الأصابع، على الطريقة المغربية، واختفى عن أنظارهم. وقد اقتنعوا بأن هذا الرجل الذي عاشرهم في مسكنهم البسيط هو ولي صالح. والآن، ها قد وجد الدرويش نفسه وحيدا داخل الغابة الشاسعة والكثيفة التي عبرها من قبل مع رفاقه المرحين. ورغم جرأته، فإن قلبه كان يدق أكثر من المعتاد، أمام الأعشاب الكثيفة والأودية والقمم العالية. وتوجه رأسا حو المنجم وبدأ العمل بأناة مستخدما عصاه الغليظة وبعض الأحجار لاستخراج المعدن. وعند حلول الظلام استعد الرحيل، فجبل القرود غير آمن والمكان موحش وجبلي، لا يشجع على البقاء فيه مدة أطول. وكم كانت فرحته عظيمة، عندما رأى مع مجيء الليل، مسجد بني إزي، حيث أكرمت ضيافته مع الطلبة الأجانب الآخرين. وكان قد حمل معه بعض القطع المعدنية الفضية التي دسها داخل ثيابه. وفكر في البحث عن مساعد ذكي وكتوم يعول عليه بشكل كبير. وبالفعل، فقد وجده في شخص طالب مجد، اقترح عليه الدرويش بأن يكون معلما له. وكان والد الطالب كتاميا شهما لا يهمه شيء خارج عمله كحطاب، إلى درجة أنه لم يسأل الدرويش وابنه عما يفعلان داخل الغرفة التي خصصها لهما. هكذا، أشعل محمد النار بالموقد وشرع في عملية تحويل " خيميائي" للمعدن، بغرض الحصول على الفضة الخالصة. واقترح أب الطالب الذي تم إخباره بالعملية بيع القطع الفضية التي استخلصت بصعوبة من جبل القرود، بجبل طارق. وبالفعل حمل معه قطعا لا يستهان بها وباعها بمائة وخمسين (150) دورو Douros من العملة الاسبانية أي 750 فرنكا، أعطاها للدرويش وطالب بحصته، بسبب المخاطر التي واجهها في طريقه. وقد منحه الدرويش بكرم ما طلبه منه، أي بغلة وثورين وخمسين "مدا" من الزبيب ولم يشتر لنفسه أي شيء، بل قضى شهرين بمنزل مضيفه الذي أصبح صديقا وفيا له. وعند نفاذ المال، سمح الحطاب للرحالة باصطحاب ابنه إلى الريف فقد كان محمد المحب للسفر، يتحدث في كل حين عن رغبته في مغادرة قرية بني إزي والابتعاد عن قبيلة كتامة وزيارة المناطق الريفية التي كانت بعض أطرافها على الحدود الكتامية تغريه وتجذبه.

وفي ظهيرة مشمسة، غادر المعلم وتلميذه القرية حاملين لوحتيهما ومتجهين صوب تاغزوت. وعند حلول الظلام وصلا إلى دوار العدوة. واستقبلهم الطلبة بالمسجد بنوع من الفضول، لأن

الكتامي كان أمرد. وبعد تناول العشاء حوالي التاسعة ليلا، أعلن هؤلاء الطلبة الذين أثارهم وجود الغلام، بأنهم سيحيون حفلا موسيقيا في غياب المعلم، من أجل التسلية. وافتتحت الجوقة المكونة من عازف على العود بوترين Théorbe ومن عازف على كمان، الأمسية بلحن إيروتيكي وقدم للكتامي دف مع دعوته للرقص. وهو ما يعني أنه سيتعرض لنزواتهم بعد الحفل وسيفصل نهائيا عن معلمه. ولأن الغلام عارف ب "الخنقاتيرا" [عمليات سحرية]، فإنه رفض الرقص ورمى الدف إلى داخل الغرفة وصاح:

- ابتعدوا عني وإلا ردمت المدرسة على رؤوسكم.

وضحك الجميع واستهزاء بهذا الكلام، ثم اقترب منه بعض الطلبة الجريئين وبدؤوا يسجعون كالحمام roucouler وخاطبوه بكلام تافه وبإيحاءات متهتكة قائلين:

- يا حبيب القلوب، هل سيحقق جمالك الفتان هذه المعجزة؟ هيا، لا تخجل، دمر كل شيء !

وامتدت الأيادي نحوه للامساك به، فخاطب الدرويش على الفور قائلا:

- أسرع، ناولني "الخنشة" [كيس جلدي يحمله الطالب معه].

ولما حصل عليها، أخرج منها صندوقا مليئا بغبار أسود وطلب من معلمه إحضار شيء من "البريو" [روث الماعز]؛ وكان موجودا بكثرة بمدخل المدرسة. ووضعه في سلة دائرية من الدوم ثم خلطه بالغبار الأسود وأعلن أمام الجميع بأن الخليط تحول إلى زبيب.

ووزعت هذه الفاكهة اليابسة على الحضور الذي بدأ في التهامها مخافة عودتها إلى حالتها الأولى.[3] وصاح الساحر الصغير بعد ذلك:

- والآن، إلي بالحزمة؛ وأخذ حزمة من الحلفة وقطع سيقانها التي تحولت على الفور إلى أعواد ثقاب. وكان لذلك المنظر تأثير كبير على نفسية المتفرجين الذين تحولت رغباتهم الدنيئة إلى خوف. وغير الطلبة لهجتهم قائلين:

- مرحبا بك وبرفيقك.

وعندما لجآ إلى الغرفة المخصصة لهما، سأل التلميذ معلمه بنوع من الافتخار:

- كيف وجدت حيلي السحرية؟

فأجابه الدرويش الذي كان بين اليقظة والنوم:

---

[3] أنظر، المغرب المجهول، مذكور، ص . 59 و 60

- مزيان، مزيان ! [جيد، جيد !].

وفي الصباح، ألح الطلبة بقوة على محمد، من أجل البقاء بالقرية، وأدرك الدرويش من خلال هذا الإلحاح، بأن قتله وخطف غلامه مؤجلان فقط، لذلك أكد لهم بأنه سيبقى بالعدوة، لأنها منطقة خلابة وجذابة. وبعد الظهر، عندما كان جميع الطلبة يتلون دروسهم، هرب الدرويش مع رفيقه إلى أن بلغا واد تاغزوت وفي نفس اليوم وصلا إلى دوار القلعة بالريف.[4]

- مريوة Marroube وأعشاب طبية أخرى:

لن نتحدث عن طعام الكتاميين، فهو خشن وبدائي؛ وهم يأكلون الحلزون والفطر المسلوق في الماء، بكثرة. وتوجد لديهم، كما في كل مناطق جبالة والريف، نبتة ثمينة تسمى مريوة marribium vulgare ويتم هرسها واستنشاقها من طرف الأشخاص المصابين بالزكام. ومن واجب كاتب هذه السطور، إبراز أهمية هذه النبتة بالنسبة للإنسانية البئيسة وخصوصا بالنسبة للأفارقة الكثيري العدد، المصابين بالحمى وبآلام الكبد. فمريوة هي علاج رائع ضد هذين المرضين. ويتم تحضيرها ببساطة، حيث توضع سيقانها وأوراقها في الماء وتغلى لمدة طويلة. مثلا، يؤخذ نصف كيلو من مريوة ويغلى في لتر من الماء ، حتى يفقد السائل نصف حجمه بفعل التبخر، آنذاك يسحب من فوق النار. ويمكن شرب كأس من هذا السائل، ساخنا أو باردا، صباحا ومساء، ساعة قبل الأكل. وبعد مرور بضعة أيام تزول أصعب حمى، كما تختفي آلام الكبد تدريجيا وتعود للمرء شهيته في الطعام.

إن الطبيعة، هذه الأم الطيبة، قد وضعت العلاج إلى جانب الألم، ولذلك انتشرت مريوة في كل أرجاء إفريقيا الشمالية. ولقد تحدثت مع الأطباء الذين تتحدد مهمتهم في التخفيف من آلام البشر، عن مزايا هذه النبتة؛ لكنهم كأشخاص معتدين بأنفسهم ومرتابين دوما، كانوا يسخرون من كلامي ويعلنون باقتضاب، بأن حامض الكينين هو دواء لا مثيل له. وقد فعلت خيرا بعدم اتباع نصائحهم، حيث عالجت اثنين من أبنائي المصابين بحمى حادة، بنبتة مريوة، بعد أن لم يفلح دواء الأطباء في علاجهما. وأنا لن أتحدث عن الأعشاب الأخرى التي أستعملهما، حتى لا أتهم بممارسة الطب بطريقة غير شرعية.

[4] نفس المرجع ، ص. 54 وما يليها.

ويستعمل الجبليون الحرمل la ganum harmale ضد صداع الرأس، بحيث يسحقون الجذور ويطبخونها بالزيت، ثم يضعونها حول الرأس الملفوف بقطعة قماش. وعلى ما يبدو فإن العلاج يكون فعالا جدا. ويستخدمون كمسهل نبتة تدعى الدفلة أو أذن الحلوف [الخنزير] فبعد سحق جذورها، تخلط بالعسل ويتم تناولها، وبذلك يحصل العلاج؛ وأحيانا ما يؤدي هذا الدواء إلى التقيؤ.

وهناك أعشاب عديدة ومتنوعة بهذه المنطقة الجبلية الرائعة؛ وتستعمل هذه الأعشاب التي لا أعرف أسماءها، من طرف الأهالي الذين استغنوا عن الأطباء منذ قرون؛ ومع ذلك فإن حالتهم الصحية جيدة. وهم يحتقرون كل علم بشري بنفس درجة احتقارهم للموت؛ باستثناء العلم القرآني طبعا.

- المساكن، المناخ والوديان :

إن المنازل الكتامية فسيحة، وهي مبنية بالحجر ومطلية بالجير، أما سقوفها فهي شديدة الانحدار كي ينزلق الثلج ولا يتراكم فوق الديس والقرديمد الموضوع فوق لاطة هشة نسبيا. وأغلب المساكن موجودة في الدور الأرضي الذي تبنى فوقه سقيفة صغيرة تسمى الغرفة. ويتوفر كل مسكن على باحة، كما هو الشأن في الريف.[5] وكان من الضروري بناء الإصطبلات للحيوانات نظرا لقساوة فصل الشتاء. فبفعل علوها، توجد القبيلة برمتها في منطقة باردة. وتسقط الثلوج منذ نهاية الخريف إلى بداية الربيع. وقد تهطل سيول من البرد grêle مرفوقة بالعواصف، مما يؤدي إلى تجمد الوديان. ويقاوم البرد داخل المنازل بنيران المواقد.

ولأن المداخن غير معروفة، فإن الدخان يتسرب عبر الأبواب المفتوحة. ويحلق الرجال والنساء والأطفال حول الموقد ويثرثرون طوال النهار وهم يؤججون النار متسائلين متى سيعود الجو الجميل ؟ ونظرا لاستمرار الطقس الرديء، فإنهم يلقون بالجمرات فوق الثلج بعصبية، مستحضرين تقليدا شعبيا قديما، مفاده أن الأجداد كانوا يعيدون الشمس إلى كبد السماء، بهذا الأسلوب الطفولي.

---

[5] نفس المرجع السابق، ص. 58 وما يليها.

ويمشي الأهالي حفاة في البرد كما في الصيف، وهم متسلقو جبال ماهرون ويغامرون بالصعود فوق القمم الأكثر خطورة، كما يركضون دون خوف بجوار المنحدرات. ويتم تحويل بعض الصخور إلى رحي الطواحين، حيث تصدر بعض ذلك إلى أسواق الساحل.

وفوق القمم الشاهقة، ترسم الطيور الجارحة مثل النسور والعقبان والصقور والغربان، دوائر كبيرة في الهواء. وهي تعرف أمكنة الأسواق على بعد ثمانين كيلومترا وتتجه إليها لتقتات من الحيوانات الميتة؛ ولولاها للوثت جثتها المتعفنة هواء المنطقة.

وتقدم أوكار الزنابير والشحارير والخطاطيف خدمات للأهالي، لأنها تدمر الديدان التي تمتص نسغ الأشجار وخصوصا الصنوبر والسنديان. فهذه الحشرات المدعوة في البلد "مزردل" تؤذي النباتات الشجرية بشكل أكبر من الحرائق. ومن جهتها، فإن الزرازير étourneau وطيور السمان تعمل على مطاردة هذه الديدان أيضا.

ونادرا ما يجتاح الجراد المنطقة وكذلك الفئران التي تتكاثر في بعض السنوات، رغم تواجد عدد كبير من القطط المستأنسة أو المتوحشة.

ويتوفر كل مسكن على كلب للاعتناء بها، فهي تتكلف بنفسها، بالبحث عن غذائها في البساتين والحقول، حيث تملأ بطنها بكل أنواع الفواكه وخصوصا بالخروب المسمى في البلد " تاسلغوا. إن كتامة المتواجدة كلية في أعلى قمم جبالة، تشكل نصف دائرة على طوال خمسين كيلومترا، بالحدود الجنوبية مع الريف. أما عرضها فأقل بكثير خصوصا وسط القبيلة، بحيث لا يتعدى بضع مئات من الأمتار، بسبب تقارب السلسلتين الرئيسيتين لجبل كتامة. وفي هذه الجبال، تجري أربعة وديان أساسية وهي : واد بني إزي الذي ينبع من القسم الذي يحمل نفس الإسم؛ واد تاغزوت الذي ينبع بجبل الأرز ببني بونصر [أنظر الجزء الأول من المغرب المجهول، ص. 55]، واد الخميس المسمى عند المنحدر واد المزاز. أما واد تملوغيت بالقسم الذي يحمل نفس الاسم وواد أزيلا الذي ينبع ببني سيداث [الريف]، فيجريان عبر مداخل ضيقة، ليأخذا اسم واد الأربعاء، أسفل قرية سيدي أحمد السني. ووجهة هذه الوديان هي الشرق والجنوب والغرب وهي تسقي قبيلة بني زروال، باستثناء واد بني إزي الذي يخترق تراب مثيوة. وأغلب هذه الوديان يصب بنهر ورغة جنوب دائرة جبالة.

والآن، لنتعرف على الأقسام الخمسة لكتامة وعلى أهم قراها.

القرى الرئيسية بكتامة

قسم زدمت [حزمة]، التسمية أمازيغية.

- سيدي أحمد السني، 500 منزل؛ وهي قرية كبيرة على ضفاف رافد من روافد واد الأربعاء. وتعتبر الزاوية ذات أهمية، وهي مخصوصة لولي كتامة سيدي احمد السني الذي يحظى ضريحه بزيارات دائمة. وتقام فيها " الوعدة" كل يوم خميس. وتتمثل أعظم كرامة لهذا الولي، في إخباره لأهاليه بالمنطقة، بأنهم لن يجوعوا أبدا. وبالفعل، فإن العجول والخراف والدجاج المذبوح في "الوعدة" الأسبوعية من طرف الزائرين، إضافة إلى هداياهم تسمح للأهالي الكسالى بالقرية، بالتمتع بهذه الخيرات. وهو يستغلون الاحتفال لتدخين الكيف ولاستنشاق "طابة" باستمرار، مع قضم اللوز والزبيب في نفس الآن.

- باب تازة، 100 منزل، على واد أزيلة؛ وهي توجد في أعلى قمم جبال كتامة؛ ويقال إنها سميت كذلك، لأنه يمكن من موقعها، مراقبة مدينة تازة. ويسمي جبالة " باب تازة" كل موقع شاهق يطل من قريب أو بعيد على المدينة البئيسة الخاضعة منذ سنوات لطغيان القبيلة الأمازيغية غياتة.

-اسمرطس [الاختناق]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، وسط الجبال. وهذه القرية المبنية فوق أرض متموجة، نادرا ما تتم زيارتها من طرف الطلبة الأجانب الذين يخشون فظاظة هؤلاء الجبليين القساة. ويوجد منجم للذهب شمال اسمرطس وعلى طول واد الأربعاء.

- وحشية 100 منزل.

قسم تملوفيت (التلة)، التسمية أمازيغية

- تمولفيت، 500 منزل، على الضفة اليمنى من واد يحمل نفس الاسم وأيضا اسم واد ودكا. وتتشكل القرية من أربعة دواوير وتوجد بها وبكثرة، أشجار اللوز اللذيذ المذاق؛ وبالشرق هناك منجم غير مستغل للذهب.

- سوق الأربعاء

قسم الخميس

- الخميس، 100 منزل؛ توجد بوادي جميل مغطى بأشجار الأرز. وتستغل "ملكة" الغابات هاته من طرف الحطابين والنجارين وكل صناع الخشب الذين لا يتوفرون على كفاءة عالية.

فهم يصنعون الأبواب والألواح والعوارض والصناديق، لبيعها بسوق الخميس، غير بعيد عن القرية. وتحيط غابة الأرز بالقسم كله، وهي عرضة للنهب من طرف الحطابين؛ وقد تختفي إذا استمر الحال كما هو عليه الآن. وبالشمال، توجد مناجم الفضة والشبة alun.

ويعتبر سوق الخميس أهم سوق بالقبيلة.

قسم بني أحمد

- العدوة، 20 منزلا.

قسم بني عيسى

- بني عيسى، 500 منزل، على الضفة اليمنى من الواد الذي يحمل نفس الاسم.
- تيقجديث [العمود]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- القوى العسكرية، 25 ألف من المشاة، عدد السكان المحتمل 175 ألف نسمة. الجبال شاهقة في كل مكان، وتوجد بها مناجم الحديد والرصاص والشبة والفضة والذهب؛ والقبيلة غير مستقلة. أما الطرق فمنعدمة، وهناك مسالك ضيقة يطل كل واحد منها على هاوية رهيبة.

نبذة تاريخية عن كتامة

رغم وجود ادعاء قديم بأن هذه القبيلة التي كانت قوية فيما مضى ذات أصول عربية، إلا أنها كانت أمازيغية في الحقيقة. (6) وقد لاحظنا بأن نصف سكانها على الأقل، يجهل لغة القرآن ولا يتكلم سوى تمازيغث. وخلال الفتح العربي، كان قسم كتامي كبير يحتل المنطقة الممتدة غربا من قسطنطينة إلى بجاية وجنوبا من سرت القديمة إلى جبال الأوراس.

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد، إن اهالي كتامة كانوا يقيمون معسكرات مؤقتة، حيث ترعى مواشيهم وكانوا يحتلون كل المدن الهامة الواقعة بين الأوراس وساحل البحر والممتدة من بجاية إلى عنابة؛ حيث استولوا على إكداجن أو إنكدجان [وهي مدينة واقعة حسب دوسلان De Slane بين سطيف وميلا] وسطيف وبغاية أو براية [جنوب عين بيضة بدائرة قسطنطينة] ونكاوس وبلازما وتيخست وميلا وقسطنطينة وسكيكدة والكول [العنق] وجيجل.

---

(6) Cf. Fournel, Les Berbères, tome 1, p. 40.

وبينما كان كتاميو الشرق يقومون بهذه الأعمال البطولية، كان إخوانهم بالغرب، موضوع حديثنا، مسالمين. ويبدو أنهم لم يمارسوا أي تأثير على المصير السياسي لبلدهم. وبالمقابل، فقد حافظوا إلى يومنا هذا، على اسم وتراب قبيلتهم. وقد وجد الفاتحون المسلمون، العديد من الأهالي بالمغرب الأقصى، ذوي الأصول الكتامية. ويرجح تأسيس مدينة القصر الكبير على ما يبدو، إلى أحد فروع كتامة؛ وكان الاسم الأصلي للمدينة هو "قصر كتامة".[7]

وبالفعل، فكل شيء يشير إلى أن كتامة المغربية، قد أقامت منذ القدم، بالمنطقة التي تعيش بها حاليا، ولا شيء يمنعنا من افتراض أن قصر كتامة كان في فترة معينة، يشكل الحدود الغربية للقوة العسكرية لهذه القبيلة. وفي جميع الأحوال، فمنذ الفتح العربي إلى اليوم، من المؤكد أن القبيلة لم تبرح مكانها؛ فهي ما زالت موجودة كما كانت في زمن ابن خلدون في هذا الجزء من إقليم الهابط[8] القريب من قصر ابن عبد الكريم، أي من القصر الكبير الحالي. ويشير المؤرخ الكبير للبربر إلى وجود أقسام كتامية أخرى بالمغرب، مؤكدا بهذا الصدد، بأن الجبل الواقع جنوب جبل بني يزناسن بالمغرب الأقصى، مأهول بقسم من بني استيتن، وهي قبيلة كتامية.

وفي موقع آخر، يتحدث عن كتامة الحالية دون تسميتها، مشيرا إلى وجود أهالي من نفس السلالة في هذا الجزء من منطقة الهابط، المجاورة لقصر ابن عبد الكريم؛ ويقطن أهالي آخرون وسط صنهاجة بالمغرب.

ويفسر المؤلف اختفاء اسم كتامة الشرقية [بالجزائر] بسبب كون التسمية تستخدم لدى جميع القبائل لنعت شخص منحط. ومرد ذلك أنه خلال القرون الأربعة الموالية لسقوط الإمارة الكتامية، آخذت الأسر الحاكمة المتعاقبة الكتاميين على تعاطفهم مع المذاهب الهرطقية والمعتقدات الكافرة.

---

[7] يروي ليون الإفريقي حكاية غريبة، بخصوص تأسيس هذه المدينة الصغيرة.

[8] وهي منطقة موجودة جنوب تطوان بين القصر الكبير وبلاد غمارة، انظر

Ibn Khaldoun, Histoire des berbères, tr. Fr. de Slane, tome 1er, LXXXVI et 29

- بخصوص النص العربي فهو: تاريخ ابن خلدون، المسمى : ديوان المبتدأوالخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1 1981، ط . 2 ، 1988. [في ستة أجزاء]. [المترجم]

ونتج عن ذلك، تخلي كل الكتاميين عن هذه التسمية، بسبب التحقير الذي تجلبه وانتسبوا إلى قبائل أخرى.

[أنظر ترجمة دوسلان لتاريخ ابن خلدون، الجزء الأول، ص. 298 وما يليها].

وقد قرأت لدى الإدريسي خبرا مفاده أن الكتاميين بمنطقة قسطنطينة، كانوا يتبعون عادة فظيعة تتمثل في منح أطفالهم، لإشباع الرغبات الدنيئة لضيوفهم.

أما الكتاميون المغاربة، الغارقون في جهالة شبه تامة، فهم لم يسمعوا على الأرجح، باسم قبيلة كتامية بقسطنطينة؛ ولربما لم تصلهم أصداء أخبارها إلا بشكل ضعيف. لذلك لم يكن هناك داع لتغيير اسم سلالي، لم يتضمن أبدا أية دلالة قدحية.

وهناك إشارة في كتاب الاستقصا [الجزء الأول ص. 197]، إلى محاولة مثيرة لتأسيس ديانة جديدة من طرف شخص متنبي، اسمه محمد بن أبي الطواجين الكتامي وذلك بجبال غمارة، سنة 1228 ميلادية. وقد اغتيل الولي العظيم لجبالة مولاي عبد السلام بن مشيش، على يد أتباع هذا المتنبي. [أنظر فيما بعد، قبيلة بني عروس والصفحات المخصصة لمولاي عبد السلام].

قبيلة الاخماس [1]

عند غروب الشمس، وصل محمد بن الطيب إلى القرية الخماسية المسماة بني يسف، غير بعيد عن حدود بني أحمد السراق. وكانت المنازل الخمس مائة متواجدة على طوال الواد المسمى أيضا واد بني يسف. وكان كل مسكن محاطا بأشجار البرتقال والجوز والزيتون، التي تتسلقها كروم عريشة ضخمة. وتجري مياه العيون في كل الجهات، ساقية بساتين الخضر والفواكه ومنحدرة صوب الواد المتواجد بين الصخور والذي يسمح صبيبه القوي بتحريك رحي الطواحين العديدة القائمة على ضفافه. وكانت المدرسة المتواجدة بالمسجد في عطلة، لكن كان هناك بضع مئات من الطلبة القاطنين بالقرية مجتمعين؛ أما الطلبة الأجانب فكانوا يقومون بجولة الاستجداء [النزاهة].

استخدام الطلبة المسلمين كرسل للحضارة missionnaires de la civilisation :

من المؤكد أن الاخماس هي القبيلة التي تحظى فيها الدراسات القرآنية والشرعية، بأهمية أكبر مما هو عليه الأمر في باقي قبائل جبالة. فثلاثة أرباع السكان يعرفون القراءة والكتابة، أما الأميون فيشكلون أقلية. ولشعورهم بدونيتهم فإنهم ينعزلون ولا يذهبون إلى المسجد إلا في أوقات الصلاة؛ في حين يقضي فيه الطالب المتباهي بعلمه، أياما عديدة. فبيت الله، مخصص له وللطلبة القدامى الذين لا يمكنهم، رغم كبر سنهم، حرمان أنفسهم من الجلوس ساعات طوال، على حصير المسجد للثرثرة والاسترخاء. وفي كل مناطق جبالة، تحدد العطل [العواشر] ثلاث مرات في السنة؛ وتدوم عشرين يوما، عشرة أيام قبل وأخرى بعد الأعياد الدينية التالية: العيد الصغير، العيد الكبير وعيد المولد.[2]

ويستغل الطلبة هذه الأعياد للتجول في قرى قبيلتهم أو القبائل الأخرى لجمع التبرعات. وعند رجوعهم، يقيمون ولائم فاخرة لا يشارك فيها الأميون. ويكتفي الطلبة صغار السن، ما بين 7 و 14 سنة، بالتسول في قريتهم، لأنه ليس من المسموح لهم مغادرتها. ويكفي البيض

---

[1] الاخماس هي جمع خمس وتعني أيضا في الدارجة المغربية قسم القبيلة؛ لأن العديد من القبائل الجبلية الكبرى تنقسم إلى خمسة أجزاء، تنقسم بدورها إلى خمسة مناطق إدارية. ولفظة الأخماس المنطوقة بالدارجة المغربية، هي اختزال للكلمة العربية الأخماس.

[2] العيد الصغير هو الذي يلي شهر رمضان والعيد الكبير هو عيد الأضحى، ويبدأ في العاشر من ذي الحجة والمولود هو احتفال بعيد ميلاد الرسول (ص).

والدجاج والسنتيمات المحصل عليها، لتهيئ أطعمة جيدة للعشاء. ورغم ثقافتهم المعترف بها، فإن أهالي الاخماس لا يحتملون من طرف جيرانهم بسبب عنفهم ومكرهم وميلهم إلى الدعابة facétie، ويتم إدراجهم في المثال الجبلي الشهير: "ثلاثة أنا منهم باري، الخمسي والسلاسي والمساري". فهذه القبائل الثلاثة ممقوتة في كل شمال المغرب، لأن أهلها معروفون بنميمتهم ونفاقهم وتهكمهم؛ وهي خصال سيتجرعها ويعاني منها محمد فيما بعد. وعندما دخل إلى المسجد، لم ينتبه إليه أي أحد فقد كان الطلبة يتلون حزب الراتب، والمفهوم به حزبا من الأحزاب الستين للقرآن. فبرغم أيام العطلة ، كان من الضروري تلاوة حزبين في اليوم، واحد في الصباح وآخر في المساء إلى أن يختتم الكتاب المقدس لتعاد تلاوته، وهكذا دوليك. وشارك الدرويش الطلبة في تلاوتهم؛ وعندما تم إنهاء الحزب، رحب به هؤلاء بكلمات مقتضبة، لأنهم لاحظوا وجود أستاذ الفقه، وهو شخص متعصب، دائم النشاط وبيداغوجي مهاب الجانب. ويتجلى تفوقه في أمرين وهما: التأثير في مستمعيه بفصاحته التي لا تنضب وإرهاق الطلبة البئيسين بالواجبات. وكان الرجل لا يعرف معنى العطلة؛ لذلك، كان يأتي كل يوم إلى المسجد ويلقي درسه بنصوصه وتعليقاته، دون أن ينسى ولو كلمة ودون أن يرجع إلى شيء مكتوب لديه. وفي ذلك المساء، عرض خمس أو ست فقرات من سيدي خليل وأغرقها في بحر من الصيغ المدرسية. ولأن المستمعين كانوا يحفظون عن ظهر قلب المؤلف المذكور، فإنهم كانوا ينصتون بانتباه كبير للتعليقات التي غالبا ما يتم حفظها منذ السماع الأول، لأن ذاكرة هؤلاء الأشخاص "البدائيين"، ما زالت لم تخضع بعد للإجهاد الذهني surmenage. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحضر فيها الدرويش بجبالة، درسا يفوق مستوى الابتدائي. فقد كانت المنطقة بمثابة مكان تقليدي للدراسات القرآنية وللمراكز التي يعلم فيها النحو والفقه. وقد آلى الرحالة على نفسه، الاستفادة منها عبر اكتشاف متمعن للقبيلة. وعند حلول الليل وانتهاء المحاضرة المملة، تفرق الطلبة في القرية لاستجداء طعام العشاء. ورجعوا إلى المسجد محملين بأنواع من الأطعمة المكونة من اللحم والبيض والعسل والصامت والخمر والخل "وماء الحياة" [وهو نوع من الكحول الذي يصنع ويباع خفية، من طرف يهود الشاون]. إن أهالي الاخماس يأكلون جيدا، وهم يفضلون الطرائد كالأرانب البرية والحجل والسمان cailles والطيور العابرة التي يتم اصطيادها بشكل متقن. وحتى

الغربان وبنات آوى لا تسلم من الأكل إذا ما سقطت ضحية رصاص "عفاريت" المنطقة. ويمزج سمك الوديان الذي لا طعم له، بالفلفل الأحمر الحار، كما أن الثوم الذي تطبخ به كل الأطعمة يجعل نفس الخمسيين قوي الرائحة، لكنهم لا ينتبهون إلى ذلك ما داموا جميعهم يستهلكونه بشكل كبير.

وبعد تناول الطعام الذي استخدمت فيه الأيادي بدل الملاعق والشوكات، سئل محمد عن موطنه الأصلي. فلم يخف عن الحاضرين كونه جزائريا وأخبرهم بأن الحاكمين الحاليين للجزائر يحملون اسم الفرنسيين [الفرنسيس].

وتساءل كل الحضور:

- ما هي ديانتهم؟

فأجاب الرحالة:

- إنهم نصارى.

وفسر بطريقته وأمام اندهاش الجميع، كيف يتعامل هؤلاء الغزاة بلباقة مع رعاياهم من المسلمين. وكان الدرويش بدون شك، الناطق باسم فرنسا في ذلك اليوم.

وفي الحقيقة، فإن آراءه لم تتخذ هذا المنحى إلا بعد جلسات مطولة معي في سنوات 1894 و 1896 و 1897، حيث حاولت خلال نقاشات عسيرة ومتعبة إقناعه بالدور المصيري لفرنسا بالشمال الغربي لإفريقيا. وأخيرا انبثقت من نقاشاتنا السياسية والثيولوجية والفلسفية والميتافيزيقية، الحقيقة التالية التي ينحني أمامها كل مؤمن صادق، وهي أن امتداد الهيمنة الفرنسية بالبلدان الإسلامية، استجابة لأمر إلهي من أجل غاية سامية وهي إحياء النزعة الإسلامية islamisme من جديد وحمايتها من التطرف النابع منها وإعادتها إلى أصلها الخالص.

ولكم كان تأثر هذا الرحالة المتواضع كبيرا بمثل هذا الخطاب ! فقد اتسع الأفق أمام عينيه المندهشتين واختفت المسألة التافهة لاختلاف الأعراق والديانات، أمام المشروع الكبير لتنوير شعب بأكمله.

لقد أصبح ذلك هو مراده وهدفه والقاعدة التي يريد اتباعها. فبعد أن آمن بهذا المعتقد الجديد، رجع مرة أخرى إلى المغرب، سنة 1895 كمكتشف وأيضا كمبعوث لبلدنا. ولكم كان هذا

المتشرد رائعا بملابسه الرثة وهو يسعى "الغزو" بلد من خمسة وعشرين مليون نسمة، يعتبر من أكثر بلدان العالم قسوة، بحيث لم يجرؤ أحد من الرحالة على اكتشافه.

ومنذ تلك اللحظة، قرر هذا الأمازيغي النشيط المنجذب بعظمة الهدف، زيارة الغرب أو لنقل هذه النجمة الغربية التي تسطع وسط سماء أحلامه. فقد كانت هناك فكرة أساسية محفزة له، دفعته إلى المغامرة وسط أكثر الشعوب إثارة للرعب ألا وهي: إعادة إحياء الإسلام من طرف فرنسا !

نعم، سيكون هذا المتسول العجيب بالنسبة لنا في المغرب، مبعوثا لا يضاهيه أحد. وسيتمكن تدريجيا، دون أن يثير حساسية المغاربة ولا تعصبهم المعاند، من كون كلمة صادقة بحق هؤلاء "الفرنسيس" الذين لا يعرفهم المسلمون عموما والمغاربيون بشكل خاص. ولن أكتفي بإرساله وحده، بل سأشرف على تنظيم هيئة من المبعوثين المسلمين الذين يحبون فرنسا وسأقول لهم:

- اذهبوا إلى فاس ومراكش وإلى باقي المدن والقرى المغربية، اذهبوا إلى أي مكان تستطيعون إليه سبيلا في بلد جيراننا بالغرب. وانقلوا إليهم بأمانة، ما رأيتموه في الجزائر من أمن ومساواة وعدل وحرية دينية لا متناهية. وهذه الهيئة الدينية التي خلقناها بفضل أريحيتنا وحسن نيتنا؛ التي مولناها بسخاء من ميزانية الدولة؛ والمدارس ["المدرسات" medersa] الدينية الإسلامية المسموح بها والتعليم الثانوي والعالي للعربية بالمدارس الفرنسية واحترام المنتصرين لديانة وعادات وقوانين المنهزمين. وضحوا لهم ذلك بحماس، انطلاقا من القناعة بأن فرنسا هي المشعل الإلهي الحقيقي على هذه الأرض الإفريقية التي قدمت إليها حاملة معها تسامحها وأنوارها وأخوتها fraternité العظيمة. كونوا رسل هذه الدعوة الصليبية الجديدة والمقدسة التي لم تأت لتدمير الإسلام، بل لإنعاشه وتقويته وانتزاعه من ظلمات الجهل وإعادته كما كان في الأصل أداة رائعة للسلوك الأخلاقي، شبيهة بما كانت عليه المسيحية في العالم الهمجي.

وأنا لا أمدح فرنسا انطلاقا من نزعة وطنية متطرفة Chauvinisme ! وأعترف بكل سهولة بفضائل الأوطان المتحضرة الأخرى؛ واعلم بأن غالبيتها تصل على الأقل، إلى مستوانا في الفنون والعلوم والآداب؛ وأعرب هنا عن احترامي لها.

ويجب أن يكون الأمر واضحا لدى الجميع، فأنا أول من يتأسف على الجنون المريع الذي يدفع بأكثر ممثلي أروبا والعالم تنورا، إلى الاقتتال. فهل سيظل الانسجام بين الأعراق والديانات والشعوب، مجرد وهم؟

والآن، اسمحوا لي بأن أوضح بإيجاز السبب الرئيسي لتفضيل فرنسا وهو كالآتي: إن تاريخ الاستعمار الأروبي لإفريقيا، يبين على أن فرنسا كانت هي الأكثر تسامحا ورفقا من بين القوى المستعمرة للشعوب البئيسة والمهزومة. وتكفي هذه الحقيقة وحدها لتبرير تفضيلي لبلد سان فانسان دو بول ST Vincent de Paul وفولتير Voltaire وباستور Pasteur وفكتور هوجو Victor Hugo.

وأنا لن أخشى من قول الحقيقة التالية التي أطرحها على صيغة سؤال وهو: ما الذي يمنع هذه العملية الصليبية السلمية croisade pacifique وهذا الغزو الأخلاقي القائم على المجادلة بالتي هي أحسن وعلى الإقناع وعلى أنوار العلم، من تحقيق نجاحات أفضل مما حققته البعثات التبشيرية التي مكنت من تنصير Christianisation المجموعات المتوحشة بالقارة القديمة؟

طبعا، من الممكن تجريب هذا الإجراء الإنساني والتخلي عنه إذا لم يؤد إلى نتائج مرضية.

والآن، لنعد إلى الدرويش. فقد استقبله الأهالي بحفاوة، رغم سماعهم لمجموعة من التفاصيل الإيجابية حول الكفار الذين كانوا يمقتونهم ويخشونهم؛ وتم التعامل مع هذا الضيف كابن البلد. وقد لاحظ هذا الأخير بأن الخماسيين، وإن كانوا حريصين على شرف نسائهم، إلا أنهم أقل شراسة من أهالي بني زروال أو كتامة. فمخاطبة امرأة متزوجة يعتبر جنحة كالسرقة ويعاقب مرتكبوها بمائة ضربة بالعصا على عجزه؛ في حين تفقأ عين الزاني بالحديد الحامي في القبيلتين الأخريتين.

واستعمل الجوال قرية بني يسف، كقاعدة لانطلاق رحلاته، فمنها كان يتجول في كل أرجاء القبيلة بين غمارة شرقا وبني حسان شمالا وبني عروس وبني إيدر ورحونا ومصمودة وبني مسارة غربا و سوماذة وغزاوة وبني أحمد السراق جنوبا.

والاخماس هي قبيلة كبيرة موجودة بكتلة جبلية وغابوية. ويقدر طول مساحتها بثمانين كيلومتر وعرضها بخمسة وعشرين. ويشير غبار الذهب والفضة والحديد، المتناثر هنا

وهناك، إلى وجود مناجم لم يستغلها الأهالي. فهم يكتفون بالعناية ببساتين الخضر والفواكه وبزراعة القمح والشعير قرب الوديان الثلاثة الرئيسية المتواجدة بالقبيلة، وهي واد القلعة الذي ينبع بغمارة ويصب في واد الشاون؛ واد سيدي يسف المسمى أيضا واد الاخماس الذي يوجد منبعه بكتلة جبلية ناحية قرية تيسوكا، ثم واد الشاون وهو أهمها جميعا، وسمي كذلك لأنه يمر بجانب المدينة التي سنتحدث عنها بعد قليل. ويصعب إحصاء كل الوديان والمنابع المائية بهذه المنطقة الخصبة والمزروعة بشكل جيد. وتعتبر قمة جبل الشاون أعلى قمم جبالة، وهي تكسى بالثلوج التي لا تختفي إلا عند بروز أشعة شمس مارس. وتسمى هذه السلسلة الجبلية في الجانب الشمالي، بجبال الاخماس وتلتقي بجبال بني عروس وبني حسان.

<u>- مدن غير معروفة</u>:

تعرف المنطقة كثافة سكانية مذهلة. وتسمح لي المعلومات التي استقيتها من مصادر مختلفة، بتقدير عدد السكان بحوالي 250 ألف نسمة بالنسبة للقبيلة برمتها. وتستطيع هذه الأخيرة تعبئة 35 ألف رجل من المشاة، لذلك فهي تتميز باستقلاليتها ولا تعبر اهتماما لسلطان فاس الذي لا يفكر في مهاجمتها داخل جبالها.

وتنقسم الاخماس إلى ثمانية فروع وهي :"سبع قبايل" والشاون وبني دركول بالشمال، بني جافن وبني صلاح وبني تليل بالغرب، بني زرويل بالجنوب، وبني فلواط بالوسط.

وتتكاثر بها القرى والمدن؛ نعم المدن الحقيقية التي لم تظهر من قبل في أية خريطة ولا في أية وثيقة جغرافية! ومع ذلك، فهي تمتلئ حيوية ونشاطا وتقاوم السنين والقرون بصمت وبثبات، بحيث لم تتغير عاداتها الأبوية وما قبل التاريخية.

وإذا ما تركنا جانبا مدينة الشاون التي شوه اسمها من طرف الأروبيين، فإننا نرى بالشمال الغربي للقبيلة، مدينة تتضمن 1200 منزل على مدى عدة كيلومترات. وهي مدينة الخزانة العتيقة التي كانت مقرا للجامعة القديمة التي درس بها مؤسس الشاون مولاي علي بن راشد. وترقد هذه المدينة بهدوء تحت ظلال أشجار باسقة وتبدو مغطاة تحت رداء أخضر. كذلك كانت منذ عشرين أو ثلاثين قرنا وكذلك هي الآن، لا تبحث عن الشهرة بمساجدها التسعة ولا تفكر أبدا في منافسة وصيفتها الشاون، المعتدة بنفسها والمهيمنة سياسيا. وهناك مركز آخر

يثير الدهشة؛ ويتعلق الأمر بمدينة بني زيد التي تعتبر أكبر من الخزانة، بحيث تمنحها أقل التقديرات مبالغة، عدد 1500 منزل، أي ما يعادل 8 إلى 10 آلاف نسمة؛ وبذلك يكون عدد سكانها أكثر من عدد سكان الشاون !

وفضلا عن ذلك، يمكن تصنيف الشرافات وتنغايا في خانة المدن، علما بأن الأولى تتوفر على 800 منزل والثانية على 600 منزل.

إن هذه التجمعات السكنية القروية ببلاد السيبة لا تتوفر على وحدة المدن المغربية الخاضعة للنظام الإمبراطوري. فهي تنقسم إلى قرى متباعدة فيما بينها، تحتفظ بعلاقة حسن الجوار وباستقلاليتها الخاصة وبعاداتها وتقاليدها وصلحائها. لكن، عندما تنشب حرب هجومية أو دفاعية، فإنها تتحالف فيما بينها وتجتمع تحت راية واحدة وتمحي الاختلافات التي يتم الدفاع عنها بقوة وبمجهود وبتضحيات شبيهة بالنزعات الوطنية. ويأخذ كل قسم من أقسام القبيلة، اسم مسجده ويحافظ على زاويته وعلى جماعته وأساتذته وطلبته وعلى استقلاليته. وترجع سيادة القرية الرئيسية إلى ثلاثة عوامل وهي: 1) أقدميتها. 2) مسجدها الكبير الذي يتوفر وحده على صومعة؛ 3) شرف فرض اسمها على المجموعة برمتها، حينما يتعلق الأمر بالعلاقات بالخارج.

لكن هذا التفوق نظري وديني فقط. فلكل قرية مسجدها، ولكنها تتركه في يوم الجمعة، عندما يضطر الأهالي للذهاب إلى المسجد الكبير بغرض سماع خطبة هذا اليوم.

والشيء المثير، هو أن هذه القرى الكبيرة لا تطمح في أن تكون مدنا، على عكس قرانا الأروبية؛ فهي تأخذ بكل تواضع اسم "دشرة" [قرية]، معتبرة أن اسم "مدينة" لا معنى له حينما لا يكون مستحقا. والملاحظ أن الخليات الزراعية الشاسعة بالمغرب المستقل والمحرومة من الصناعة الكبرى والتجارة والسلطة المركزية، لا تعرف سوى أشغال الحقول. فلا يوجد بها نزل ولا مستشفى ولا أي مقر إداري. وتذكرنا هذه الحواضر القروية Cités compagnardes من خلال عاداتها وتسمياتها، بالعهد الأمازيغي القديم. وهناك ثمانية شيوخ بالنسبة للقبيلة برمتها، بمعدل شيخ لكل قسم. وهم تابعون للجماعة التي تعينهم أو تقيلهم حسب هواها.

وينتخب القايد من طرف الأهالي، لكن السلطان قد يؤكد أحيانا هذا التعيين ويرسل للرئيس الجديد ظهيرا تأكيديا، هو بالنسبة للقبيلة مجرد ورقة لا قيمة لها، لأنها لا تمنح أية سلطة لصاحبها. إن وظيفة القايد، هي بالأحرى مهمة شرفية، وهي لا تقتضي في المناطق المستقلة، أي عمل إداري. فالقايد الذي يختاره الأهالي والذي يوجد وسط شعب رافض لكل هيمنة أو سيطرة، هو شخصية سياسية، خاضعة بدورها للتقلبات السياسية. فهو خادم الجماعة التي مكنته من السلطة، وهو ينفذ أوامرها بأمانة. أكيد أن تأثيره يشترى بالهدايا، لكن يصعب عليه إخضاع الأهالي العنيدين. ففي هذا البلد السعيد، يجهل الناس بشكل مطلق ما ندعوه بالضرائب ورسوم الإيجار ورخصة القنص والضريبة على التجارة وعقود الازدياد والوفاة؛ وباختصار كل وثائقنا المكتبية.

الشـــــــاون

دخل محمد بن الطيب هذه المدينة المغربية يوم الاثنين، وهو يوم سوق الشاون؛ وكان اسم المدينة قد اختزل من طرف الكتاب العرب والنصارى. فهؤلاء يدعونها شفشاون أو شفشاوين Chefchaoun, Chefchaouen؛ و أولئك يسمونها شيشاون وشيشاوين Chechaoun, chéchaouen. ويرجع خطأ الطرفين إلى جهلهما باللغة الأمازيغية؛ وهو جهل مقصود لدى العرب الذين عبروا عن احتقارهم لهذه اللغة المحلية؛وجهل مخفي لدى الرحالة والكتاب المسيحيين، الذين نادرا ما يعترفون بكسلهم وعجزهم.إن الشاون Ech-chaoun كما ينطقها جبالة حاليا، هي جمع أمازيغي وتعني القرون، ومفردها هو ichch، تماما كما لدى الزواوة. فهل سميت هذه المدينة الجبلية بهذا الاسم، لأن رؤوس جبالها تشبه إلى حد ما قرون بعض الحيوانات المجترة؟ ويفسر بعض الشاونيين المتعلمين، وهم قلة، السبب في كتابة كلمة شفشاون بهذه الطريقة من طرف الكتاب المغاربة، مؤكدين بأن العائلة القوية لأولاد أشفشاو، اضطرت تحت تهديدات القوى الإسبانية بالأندلس، إلى مغادرة هذه الأخيرة قبل سقوط غرناطة بفترة قصيرة. ونزلت بالساحل الإفريقي وأخفت كنوزها بالمدينة التي أسسها مولاي علي بن راشد جنوب تطوان. وبرز اسم هؤلاء المهاجرين واشتهروا بالمدينة الجديدة، بفضل ثرواتهم وكثرة أبنائهم. وقد كان الناس يفتخرون بالقول:

- إننا من مدينة أولاد أشفشاو.

بعد ذلك، تم اختصار العبارة وأزيلت كلمة "أولاد"، ثم أضيفت نون الجمع لأشفشاو وحذفت منها الهمزة لتصبح "شفشاون". غير أن الاستعمال الدارج للكلمة أدى إلى إزالة الفاء، مما سمح بالحصول على الكلمة الحالية وهي الشاون.

والآن كيف يمكننا التأكد من هذه الحالة؟ هل ابتدعها العلماء لتبرير كتابتها بهذا الشكل في المخطوطات العربية؟ وهل عائلة أولاد أشفشاو متخيلة فقط؟ إنها تساؤلات موجهة لمؤرخي المستقبل، كي يجيبوا عنها.[3]

ويجب أن نقبل بحذر تأكيدات علماء الشاون المزعومين، لأنهم لا يعرفون بأن مؤسس مدينتهم هو علي بن موسى بن راشد وليس هو علي بن راشد، كما أخبروني بذلك عدة مرات. طبعا، فإن ابن خلدون لم يتحدث عن هذه المدينة التي لم تكن موجودة في عصره [القرن الرابع عشر الميلادي] وكانت أبحاثي ومراجعاتي لكتب المؤرخين العرب ستستمر بدون جدوى، لولا أنني وجدت في كتاب الاستقصا، ما أخرجني من هذه الورطة. فالمؤرخ المغربي الذي اعتمد كلية على كتابين عربيين، تحدث عن تأسيس مدينة شفشاون كما يسميها، بما يلي:[4]

"رياسة بني راشد من شرفاء العلم[5] بغمارة وبناءهم شفشاون وما يتبع ذلك. (قال في المثاني) اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة[6]؛ إذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر أواخر دولة بني وطاس.

(وقال في المرآة)، كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة[7]، وهي عدوة وادي شفشاون في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة، على يد الشريف الفقيه

[3] لقد تحدث مؤلف "تاريخ الموحدين"، منشورات دوزي، ص. 265، عن نهر يشبه اسمه، اسم العائلة الشاوية المذكورة، وهو واد شفشاوة بمنطقة حاحا؛ ويصب في المحيط الأطلسي ويجب البحث هنا عن أصل أشفشاو.

[4] انظر، كتاب الاستقصا، المجلد الثاني، ص. 161

[5] وهو جبل العلم، ببني عروس، دائرة جبالة.

[6] احتلها البرتغاليون بتاريخ 14 غشت 1415.

[7] تعني العدوة هنا، الضفة.

الصالح الناصح المجاهد أبو الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي واسمه الحسن ابن محمد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد السلام بن عبد الوهاب بن علال، ابن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش، ومات شهيدا قبل إتمام ما شرع فيه بتدبير النصارى دمرهم الله[8] مع أهل النفاق، إذ ذاك من أهل الخروب. وقد جاءهم في سبيل الجهاد، وبينما هو يتهجد من الله في مسجد هناك، إذ أضرموا عليه نارا فمات رضوان الله عليه. وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش، ابن عمه الأمير الجليل الفاضل الأصيل أبو الحسن علي بنموسى بن راشد بن علي بن سعيد بعد عبد الوهاب، إلى آخر النسب المتقدم، فشرع في اختطاطه مدينة شفشاون في العدوة الأخرى، فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته ونزل الناس بها، فبنوا وصارت في عداد المدن إلى أن توفي سنة سبع عشر وتسعمائة وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم". [9]

لقد قضى شارل دو فوكو Ch. De Foucauld يوما بالشاون، وكان ذلك بتاريخ 3 يوليوز 1883. ولم يتمكن من التجول في المدينة، لأنه ظل محبوسا ببيت في الملاح؛ ومع ذلك أدرج في مؤلفه صورة مطبوعة photo gravure لهذه المدينة. [10] وفي غشت 1888، أي قبل بضعة أشهر من انزوائه تماما داخل أحد الأديرة، عبر لي هذا الرحالة الذي افتقده العلم، عن الآلام التي عانى منها خلال تواجده بالمغرب متنكرا بلباس اليهود. فقد دفع الإيمان الديني والرغبة في الاستشهاد، هذه الشخصية النبيلة إلى القيام بسفر محفوف بالمخاطر، دون أن يعمق بما فيه الكفاية معرفته باللغة العربية الصعبة المراس. ولم يحدثني وهو يفارقني، عن سفره الآخر، عن السفر العظيم الذي يعلم به كمؤمن والذي سيقوم به بعد شهور معدودة إلى مدينة البابوات وإلى مدينة المسيح ليلج باب الدير حيث سيدفن الغبار الذي يسميه البشر مجدا. لقد تركت الأمسيتان اللتان قضيتهما معه بباريس لدي انطباعا عميقا لا ينسى. وأنا أبعث إليه داخل "القبر المقدس sépulcre" الذي أتمنى أن يكون حيا فيه، بخالص الذكريات وبسلامي

[8] نجد هذه الأمنية مكتوبة في كل مرة، بأقلام الكتاب المسلمين؛ ويمكن توجيه نفس المؤاخذة على مؤرخينا بالعصور الوسطى، الذين كانوا يكيلون الشتائم للإسلام ولأتباعه ولمؤسسه.

[9] تعني هذه العبارة بأن الكاتب غير متأكد من صحة الرواية.

[10] Vicomte Ch. De Foucauld, Reconnaissance au Maroc, p 7 à 9.

الأخوي. ومن جهته، فإن الدرويش شعر بالارتياح بمدينة الشاون. فقد كان بإمكانه التجوال كما يريد ورؤية وسماع وفهم كل شيء. وفي البداية حدد مقره الرسمي بزاوية سيدي يسف التليدي، وسط مجموعة من المتشردين والشحاذين مثله. ففي كل يوم، كانت هذه المجموعة تقوم بجولات لا تنتهي، عبر الأزقة الضيقة والوسخة للمدينة. وتشمل الشاون المبنية بسفح جبل يحمل نفس الاسم، ألف منزل وسبعة مساجد بصوامعها وسبعة حمامات. ولكل منزل تقريبا طابق أو طابقان، أما بالداخل فإن الأرضية تكون مزينة بالزليج ومغطاة – لدى الأغنياء ولدى الفقراء – بحصائر من الحلفة أو الأسل jonc . وتوجد بالمدينة منابع مائية عديدة محاطة ببناء إسمنتي؛ كما أن غديرا صغيرا ذا مياه صافية وعذبة، يقسم المدينة إلى قسمين متساويين. وتشكل ضاحية المدينة حزاما من بساتين الفواكه والخضر، حيث يزرع بالخصوص الفلفل والبصل والثوم واللفت والبطاطس والكرنب والجزر وتنتج أشجار الفواكه ثمارا مشهورة بجودتها في كل قبيلة الاخماس.

ويعتبر هذا الجزء من المغرب الذي ظل مجهولا لمدة طويلة، مركزا صناعيا حيث تصنع فيه الأسلحة بوفرة، كالبنادق والسيوف والسكاكين التي يبلغ طولها نصف متر والخناجر الرهيبة التي يحملها الشاونيون معهم باستمرار.

أما الحائكون فيصنعون الحايك المتقن والجلابة الثقيلة التي يشتريها الجبليون الأشداء القاطنون بالنواحي. وهناك تجارة هامة للجلد الذي تصنع منه "الزعبولة" الحمراء، وهي حافظة نقود بعدة جيوب؛ أوسع لكن أقصر من "الجبيرة" الجزائرية؛ وأيضا النعال وأغطية السروج والقرب outres المصنوعة أساسا من جلد التيس. ويباع في كل الدكاكين وعاء البارود المعروف لدى كل الشعوب البدائية؛ واليقطين اليابس الذي يزرع بكثرة في البساتين. ويشتغل التجار داخل ورشاتهم على الخشب الذي يتم جلبه من الغابات الكبيرة المجاورة. ولا حاجة لنا لإحصاء الدكاكين الصغيرة التي تباع فيها الفواكه والخضر والمواد الغذائية؛ والمطاعم البسيطة التي يقلى فيها السردين بالآلاف ويبعث إلى تطوان.

وحسب أهالي المدينة، فإن الشاون تعتبر من أقدم مدن المغرب وهي سابقة على الفتح العربي. ويمكننا الرد على هذا الإدعاء، بالرجوع إلى الوثيقة المذكورة من قبل. ومع ذلك، فإن رأي هؤلاء الأميين يستند على قاعدة، أقدمها هنا وأترك لعلماء الآثار في المستقبل

فرصة التأكد منها. ويتعلق الأمر بصخور كبيرة منقوشة، مأخوذة من أطلال قديمة، يعتبرها الشاونيون أطلالا رومانية. وتوجد هذه الصخور في كل مكان، بما في ذلك بالأزقة. ويعمل الأهالي المسلمون على وضع النقوش إلى أعلى، بشكل يسمح للمارة وللحيوانات بالدوس عليها بالأرجل وبالقوائم. ولهذا التدمير السخيف سبب معروف لدى الأهالي و تردده المخطوطات العربية، وهو الاعتقاد السائد بأنه في يوم ما سيحتل النصارى المدينة، لذلك فإن كل ما يرتبط بهؤلاء الكفار الملاعين، يعتبر ممقوتا؛ فحتى الأحجار التي يبدو أنها كانت ملكا لهم، في فترة ما، تتعرض للتدمير بسبب حقد وتعصب هذا الشعب.[11]

ويمنع على كل الأروبيين دخول الشاون، إذ يعتقد الأهالي بأن رؤية هؤلاء للبساتين الجميلة المحيطة بالمدينة وللمظهر الرائع لأبراجها ولصوامعها، ستشعل نار الرغبة في قلوب هؤلاء الكفرة، للعيش والبقاء حتى الموت في عاصمة الاخماس الجذابة. وفي الحقيقة، فهي جذابة بالنسبة لسكانها فقط، لأنها مجرد قرية كبيرة، بأزقة ضيقة ومحفورة ووسخة بشكل مقرف. وعندما يتخاصم الشاونيون فيما بينهم، فإنهم يتبادلون الشتيمة التالية وهي "الرومي"، وهم يعترفون خفية بأنهم قد ينحدرون من هؤلاء المحتلين القدامى. واليوم، فإنهم يتميزون بتعصب أعمى، يغذيه تواجد العديد من الشرفاء والكثير من أضرحة الأولياء الصالحين. ففي كل حي ويوجد ضريح وزاوية مليئة بالطلبة والرحالة والمشردين والمتسولين والمنتسبين إلى جماعات دينية إسلامية. ومن أبرز الصلحاء الذين تتوفر أضرحتهم على قبة فاخرة، نذكر سيدي أحمد الشاوني، سيدي عبد الله الهبطي الذي دشن في المغرب، استعمال الوقف في تلاوة القرآن، سيدي يسف التليدي الذي يوجد ضريحه بالزاوية التي تحمل نفس الاسم؛ مولاي راشد، سيد المدينة وسلطان المغرب ما بين 1664 و 1672[12] والذي يعتبره الشاونيون أعظم ولي في المغرب الأقصى برمته. وهؤلاء الناس الطيبون، وأقصد بهم

---

[11] وإليكم مثال آخر عن هذا التعصب الغريب. فمنذ حوالي عشرين سنة، تم استيراد شجر المشمش الياباني من الجزائر إلى المغرب. ولم يقبل الورعون المتعصبون bigots ثمار هذه الشجرة، لأنها لم تأت من مكان طاهر. ومع ذلك، فقد تعود عليها الناس و شرعوا في أكلها، لكن بنوع من الاشمئزاز. وتسمى الشجرة وفاكهتها "مشمشة".

[12] توفي هذا الأمير بمراكش ونقل جثمانه إلى فاس. انظر، الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 20. ويحكي السلاوي في خمس صفحات قبل ذلك، مستندا على رؤية بنشر المتاني، عن الكمين الذي نصبه راشد للثري اليهودي ابن مشعل.

العارفين بتاريخ البلد، لم يعيروا أي اهتمام لجريمة قتل الأخ التي ارتكبها هذا العاهل للاستيلاء على العرش.

وبالإضافة إلى زاوية سيدي يسف التليدي، هناك زاوية حمادشة، وهم دراويش يقفزون أثناء رقصهم ويعرفون بشعورهم المهملة والمتهدلة بغزارة فوق صدورهم؛ وزاوية عيساوة آكلي العقارب والأفاعي. إن مدينة الشاون تتمتع بالحرية. صحيح أنه يوجد على رأس إدارتها موظف مخزني يحمل لقب قايد، لكن المدينة لا تطيعه ولا تؤدي أية ضريبة، باستثناء بعض الهدايا التي تبعثها أغنى العائلات إلى عاهل فاس، عن طريق عامل تطوان. لكن السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كانت الأكياس المليئة بالهدايا مليئة بالثقوب؟! وعما إذا كان المال يتبخر في طريقه إلى القصر، لأنه بعد مروره بعدة أيادي يتقلص ويصبح ضئيلا بشكل مثير.

وقد التقيت مؤخرا بوهران، بشاوني وصل حديثا إلى البلد. ويؤكد شكله ما سبق أن لاحظته بخصوص العديد من مواطنيه، وأقصد بذلك، وجها متناسق القسمات ولحية سوداء جميلة وسحنة باهتة اللون، لكن ممتلئة وتشبه سحنات الرهبان المزابيين mozabites، وطولا متوسطا وعينين سوداوين وملامح دقيقة، تعبر عن خليط متناغم من الدم الأندلسي والعربي والأمازيغي. وإذا ما تمكن الأنثروبولوجيون من الاتفاق مع الفيلولوجيين والمؤرخين، فلربما تعرفنا يوما ما، على العرق الذي ينتمي إليه أهالي جبالة؛ ولكنني أتحفظ الآن في إعطاء رأي نهائي بهذا الخصوص، لأن مسألة أصلهم تبدو لي غامضة وصعبة.

وما أن تحدثت معه باللغة العربية، حتى تخلى هذا الشاوني عن حذره وتحفظه وبدأ ينصت لهذا الأجنبي الرومي – وهو أنا – الذي يستخدم كل إمكانياته للتحدث بالعربية الفصحى تارة وبالدارجة المستعملة في الجبال العالية للاخماس تارة أخرى؛ ويسرد معلومات تاريخية بخصوص تأسيس الشاون مستقاة من كتاب الاستقصا، ذلك المنجم الثمين؛ ويتحدث عن صلحاء المنطقة وعن العادات والتقاليد والمستقبل المقدر من طرح الله لبلده الجميل [المغرب]، غير المعروف بما فيه الكفاية والمحمي بحصن مزدوج يتشكل من اللغة العربية ومن الإيمان الصادق لسكانه.

وكان التأثير فوريا وعميقا وبنفس الدرجة التي مورس بها على عقل وروح صديقنا الرائع محمد بن الطيب. هكذا استسلم الرجل وبدأ يحكي عن كل ما رآه وعلمه، ملمحا بشكل ذكي

إلى السلط الوهمية لملك مراكش الصغير وإلى ارتشاء الموظفين ومتحدثا بتفصيل عن التجارة والصناعة وأيضا – وقد لا يصدق المرء ذلك – عن الفنون الجميلة بالشاون. أي نعم ! فما زال بتلك المدينة الجبلية المتواضعة، آخر ممثلي الهندسة والتشكيل الموريسكيين؛ وهم الفنانون المغاربة الوحيدون الذين يرتبطون مباشرة بالتقاليد الفنية للأساتذة الكبارالذين شيدوا القصر الشهير بغرناطة [ملحوظة المترجم: يقصد موليبراس قصر الحمراء]. ولربما تحتفظ مجلدات ضخمة، منذ مرحلة الفتح الإسلامي للأندلس، على منمنمات متنوعة وعلى زخارف فريدة وتفاصيل رائعة؛ ولربما كتبت على ظهر كل صفحة، بحروف من ذهب، التعليقات والتفسيرات والتوضيحات المتعلقة بالفن المفضل لدى العرب.

إن الرسامين المغاربة الذين فقدوا مجدهم، يكتفون حاليا بنقل بعض الرسوم من هذه الكتب الثمينة وإعادة رسمها على الخشب وليس على الجدران أو اللوحات. فما السبيل للحصول على هذه المخطوطات الجميلة؟ هل يتعين على المرء السفر إلى الشاون والتتلمذ على يد أحد هؤلاء الفنانين الذي يمكن نعته ب "رفائيل صاحب العمامة"؟ آه لو كان عمري عشرين عاما ولو لم أكن ملتزما بإنهاء كتابي حول المغرب، لكنت قد قمت بالمغامرة، حتى ولو اضطررت إلى خلط الألوان لعدة أسابيع وصباغة الصناديق والدواليب بدون رغبة ولا حماس، لكن من أجل الحصول على نسخة من الوصية الفنية لمهندسي "الحمراء" الرائعين.

إن مدينة الشاون محرومة من الإدارة والشرطة والجيش ومصالح توزيع الماء والطرق والجمارك والمحاكم؛ فكل واحد يحمي نفسه كما يشاء، بدءا بالقايد الذي يعيش كالمطارد، في حالة رعب وحذر دائمين؛ فما أن تقوم الفتنة حتى يركب حصانه المسرج باستمرار ويفر إلى تطوان؛ ولا يعود منها إلا بعد أن تهدأ النفوس ويقسم الأهالي بأنه لن يتعرض لمكروه.

وكنت متشوقا لمعرفة رد فعل الشاوني إزاء الصورة المطبوعة لشارل دو فوكو؛[13] ومن أول نظرة، تعرف على مدينته وقال:

- إذا انطلقنا من اليمين إلى اليسار، فسنرى صومعة جامع الأندلس وهي من أقدم مآثر المدينة. أما الصومعة الثانية فهي صومعة الجامع الكبير. وتظهر من بعيد، القصبة القديمة التي شيد جزء منها من طرف مؤسس الشاون نفسه. وهي شاسعة وبإمكانها أن تتسع لعشرة آلاف شخص.

---

[13] Cf. Ch. De Faucauld, Reconnaissance au Maroc, op, cit., p. 8 et 9.

لنمر الآن إلى الصومعة الموالية، إنها صومعة جامع السوق قرب باب المدينة، في المكان الذي يقام فيه سوق الإثنين. وأخيرا، فإن الصومعة الموجودة على اليسار، هي صومعة جامع سيدي بوخنشة. وهذا الولي صديق الطلبة حيث يسمح لهم بممارسة الغناء والموسيقى واللعب بضريحه. لكن إذا ما حاول بعض الأميين عزف الموسيقى بالقرب من المسجد، فإن وجناتهم ستنفجر على الفور. وقرب سيدي بوخنشة، تجري عين وافرة المياه تحمل نفس الاسم وتنحدر مياهها غير بعيد عن الضريح الرائع لمؤسس الشاون، مولاي علي بن راشد [وبالتحديد مولاي علي بن موسى، بن راشد. لكن كل ما ذكرته لا يشكل عشر المدينة].

وبعد أن قلب صفحة الكتاب ولم يجد شيئا، ابتسم بسخرية وفجأة بدأ يتكلم بسرعة فائقة، واضطررت لمسايرته، إلى أخذ النقط بالعربية كما اقتضت العادة في مثل هذه الظروف؛ وجمعت إثر ذلك معلومات هامة، قدمها لي هذا الرجل المتحمس للحديث عن مسقط رأسه. ومما جاء في حديثه:

- تشمل مدينة الشاون ستة مساجد أو أحياء [حومات]. ففي الغرب توجد حومة الخرازين التي بني بها مسجد سيدي بوخنشة. وبالشمال هناك حومة السويقة، حيث يوجد الجامع الكبير وملاح اليهود. وبالشمال الشرقي توجد حومة ريف الصبانين[14] التي تتكاثر بها المطاحن والبساتين. ويفصل واد تيسملال هذا الحي عن باقي الأحياء الأخرى. وبالشرق هناك حومة العنصور وبها ثلاث عيون رائعة ذات مياه مثلجة. وتمتاز أيضا بتوفرها على مسجد العنصور الذي كان مولاي عبد السلام، حسب بعض الروايات، يلقي فيه خطبه. وبالشرق توجد حومة الأندلس، وهي من أكبر الأحياء وأكثرها كثافة سكانية؛ وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: فهناك جامع الأندلس الذي تظهر صومعته على الصورة المطبوعة لشارل دو فوكو؛ ثم تأتي حومة السوق حيث يوجد الجامع الجديد، وهناك مسجد آخر بهذا الحي وهو الجامع القديم المبني خارج الأسوار، قرب السوق. وحسب الروايات، فإن هذا المسجد شيد من طرف سيدي يسف التليدي. ويخترق واد تيسملال الشاون من باب العنصور إلى باب السوق حيث يتبع مجراه خارج المدينة.

- علي شاقور، سيد الشاون الذي مازال حيا:

[14] يعطي الشاونيون معنيين لكلمة "ريف"؛ المعنى الأول هو جيش ومجموعة وفرقة، والثاني هو بلاد الريفيين.

تعتبر حومة السويقة من أهم الأحياء التجارية وأكثرها حركة، بسبب تواجد العديد من المتاجر بها. وهي تحظى إلى حد اليوم [يونيو 1897] برجل رائع؛ وهو شيخ مصنف في خانة الصلحاء. (15) ويبلغ عمر مولاي علي شاقور تسعين سنة تقريبا، وهو من حفدة مولاي عبد السلام. ولم يؤثر شبابه الطائش وكونه فيما مضى قاطع طريق، في التعظيم الذي يحظى به من لدن مواطنيه؛ بل على العكس، إن بشاعة المرحلة الأولى، ترفع من قيمة ذلك الذي كان يرعب أهالي منطقته. ففي

---

(15) نقرأ في الصفحة 57 من مؤلف: (M. Rinn, Les marabouts et les Khouan) ما يلي: "إن صفة الولي لا تنطبق إلا على الأموات؛ ولا يمكن لأحد أن يدعي حيازتها في حياته؛ ذلك أن تبجيل الأتباع للشخص هو الذي يمنحه هذا التشريف بعد مماته". وهذا خطأ كبير ! فهناك حاليا في المغرب، أولياء بالعشرات، مليئون حيوية وعافية؛ وهم يحظون بهذا التشريف الذي لا علاقة له بالآخرة. اذهبوا وقولوا لمولاي علي شاقور مثلا، بأنه ليس ولي الله؛ وستسمعون أشد اللعنات التي لم يسبق لآذانكم أن سمعتها. ثم ألا نتوفر هنا في دائرة وهران، على أولياء مسلمين متمتعين بصحة جيدة؟ إنني سأكتفي بالحديث عن أشهرهم، وهو الولي سيدي بوسيف الذي يتعين على عالم اجتماع وليس على روائي الاهتمام بسيرته الذاتية. وباختصار إليكم تاريخ هذا الولي: ظهر بوسيف ذو الأصول الأمازيغية، منذ مدة بمنطقة رمشي، بين تلمسان وبني مصاف؛ أو بني صاف كما هو مدون بمراجعنا الجغرافية. وكان وليا عاديا إلى أن أصبح مجذوبا فجأة. ولأنه أصبح من المقربين إلى الله، فقد خطرت له فكرة فريدة من نوعها، وهي الغطس في نهر تافنا والمكوث فيه سبع سنوات متتالية، لا يخرج منه ليلا ولا نهارا ولا يأكل ولا يشرب؛ وكانت مياه النهر تصل إلى ذقنه، كما يستقبل الأتباع الذين يريدون مده ببعض الطعام، باللعنات الفظيعة. وعندما انتهت السنوات السبع، حدث فيضان رهيب بالنهر، جر معه الرجل المسكين. وبينما كان المعجبون به يبحثون عن جثته لدفنها، جاءتهم أخبار من الساحل، تعلن عن وصوله إلى مصب تافنا بعد عبور نهري مضطرب. غير أن بوسيف سيلح على قضاء سبع سنوات أخرى بالمياه المالحة، محاذيا للأمواج المتوسطية عند مصب النهر. وبعد هذا الاستحمام الذي دام أربعة عشر سنة، اقتنع الرجل بضرورة مغادرة المياه ولجأ إلى كوخ صغير [نوالة]، غير بعيد عن الساحل.

ويعتبر سيدي بوسيف، البالغ من العمر حاليا [في يناير 1898] خمسة وسبعين سنة والذي يحلق فكره عاليا، بعيدا عن الأرض، من أبرز الأولياء بالنسبة لمسلمي وهران والحدود المغربية. ويزوره الأغنياء والفقراء بكوخه البسيط ، حاملين معهم الهدايا التي يرفضها وإن كان المقدم الذي يخدمه، يقبلها لشراء المواد الغذائية وأيضا التصدق بها على الشحاذين المتواجدين دوما بباب الكوخ المقدس. وأثناء صعود الزائرين إلى مكان الولي، يعلن هذا الأخير بنوع من التنبؤ المقرون بالهذيان، عن أسمائهم دون رؤيتهم ودون معرفتهم. وإذا ما كان هناك شيء رهيب متوقع لأحدهم، فإنه يصيح قائلا:

- لا؛ يجب ألا يقترب مني فلان، فأنا أعرف ما يريد، لكنه لن يحصل على شيء، هل يعتقد بأنني أملك سلطة تغيير ما هو مكتوب في السماء؟

ويستمر هكذا، معلنا عن مصائب رهيبة وعن مستقبل فظيع. آنذاك يسرع المقدم ويوقف الشخص ويطلب منه عدم التقدم والابتعاد عن هذا العراف المرعب الذي يمطره بوابل من اللعنات من داخل كوخه.

وهناك العديد من المسلمين الأذكياء جدا والمتحررين من المعتقدات المتعصبة ومن حرفية النصوص الذين يحاولون إقناعي بنوع من العناد، بأن تنبؤات بوسيف تتحقق دوما.

وما هو مؤكد، أن المستوطنين الفرنسيين وأهالي المنطقة، يلجؤون إليه عند وقوع نزاع بينهم. وإلى حد الآن، لم يشتك أحد من القرارات التي اتخذها هذا الولي من أجل الصلح والسلام الشامل ومن أجل مصلحة الشعبين الكبيرين، المنتصر والمهزوم، اللذين يتعين عليهما خدمة الأرض المعطاء لبلاد الأمازيغ القديمة.

يوم من الأيام، تعب من نهب المسافرين وذبحهم فألقى بكل أسلحته وأعلن توبته. بعد ذلك، لبس الأسمال وقام بسفر التوبة، متكئا على عصاه، حيث زار كل الزوايا والأضرحة التي وجدها في طريقه. وعند رجوعه إلى الشاون، تزوج وانعزل بمنزله الذي لم يغادره على مدى خمسين سنة متتالية ! وسمح له نصف قرن من التوبة، باكتساب التشريف والظفر بالاحترام اللا محدود الذي يكنه له الأهالي.

واليوم، فإنه يخرج مرة واحدة في الأسبوع، وتحديدا يوم الجمعة زوالا، لحضور صلاة وخطبة الجمعة بالمسجد الكبير. وأثناء مروره بالشوارع محتجب الوجه، يتبعه العديد من الأهالي الذين يريدون تقبيل أو على الأقل لمس ثيابه.

ومع ذلك، فإن هذا الشيخ القوي ليس وليا كئيبا، فهو يحب الألعاب والرقص والموسيقى؛ وقد أسس زاوية بمنزله، يلبي فيها رغباته الفنية، حيث يجلس فوق منصة ويستمع بانتشاء إلى الموسيقى التي يعزفها أتباعه. وبعد عزف أجمل المقطوعات يقوم الموسيقيون برقصات غير منتظمة، تذكر برقصات درقاوة إلى حد ما. وفي كل يوم خميس، يوزع علي شاقور اللحم على البؤساء الذين يأتون إلى مكان الصدقة وهم يعلمون مسبقا، بأن عجل أو عجلين وثمانية إلى عشرة خراف تطبخ في قدور الولي. ويتأسف الجميع على كون هذا الرجل العظيم لم يرزق بذرية، رغم ارتباطه بأفضل نساء الشاون؛ إلا أنه ظل محبطا بخصوص الحصول على أطفال من نسله. وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك، فإنه يبهر العلماء بملاحظاته الدقيقة والذكية. فتأثيره لا يقاوم، وهو من أعظم وأكثر الصلحاء احتراما. ومدينة الشاون مستعدة برمتها لطاعة أوامره. وهو ما تأكد عندما قدم سلطان المغرب مولاي الحسن وأقام معسكره بالواد الكبير بدار القوبع، غير بعيد عن المدينة. فقد طلب هذا السلطان بكل تواضع من مولاي علي شاقور، السماح له بزيارة أضرحة وأولياء الشاون الذين كان يخشى غضبهم على ما يبدو. وذهب الشيخ لزيارة العاهل بمعسكره وطمأنه ووعده بعدم تعرضه لأي مكروه من طرف هؤلاء الأولياء. وبالفعل، قام مولاي الحسن كأي شخص متواضع، وبدون حاشية، بزيارة الأضرحة وتوضأ في عيون العنصور الثلاث بعد أن شرب من مياهها المباركة. وعند مغادرته للشاون، اصطحب معه علي شاقور وأحاطه بكل الرعاية اللازمة وطلب منه مرافقته إلى عاصمة الجنوب. وقبل الشيخ الطلب وسافر مع

السلطان.وبمراكش، سيتوج السفر الذي كان رائعا، بكرامة من هذا الولي. فقد كان هذا الأخير يتحدث مع صديقه الملك بقاعة العرش و فجأة، نهض وهو الشيخ ذو الثمانين سنة وقد تشنجت ملامحه كإعلان عن أمر مهم وصاح مخاطبا السلطان:

- استدع ابنك عبد ا لعزيز.

وحضر الأمير الشاب على الفور، وتوجه نحو مولاي علي وقبل كتفه. فأمره هذا الأخير بوضع اللباس السلطاني وركوب الحصان. وفي مدة قصيرة، كان الشاب يرفل في ثياب السلطة ويجوب باحة القصر فوق حصان ذهبي اللون. وتقدم السلطان والولي باتجاهه، في ذات الوقت الذي خاطب فيه علي شاقور السلطان قائلا:

- اعترف به وليا للعهد.

فانحنى مولاي الحسن أمام ولده وردد ثلاث مرات العبارة المغربية التقليدية التي تتلى في حضرة السلاطين وهي: "الله يبارك في عمر سيدي، الله ينصر السلطان".

هكذا، لم يعد الابن البكر للسلطان مولاي أمحمد وليا للعهد؛ وهو يقضي الآن حياة مملة بالأروقة المظلمة لقصر الشريف بفاس. ونحن نتأسف على مصير هذا الأمير السيئ الحظ ثلاث مرات:

- أولا لأن عينه الوحيدة تجعله عرضة للسخرية.
- وثانيا لأنه يعلم بأن مواطنيه الجهلة، يتطيرون منه لكونه أعور !
- وثالثا وخصوصا، لأن الصلحاء طلبوا منه ببرود بأن يتخلى عن كل أمل في العرش، مضيفين بسخريتهم القاسية، بان الملك ليس من نصيب المرء ذي العين الواحدة cyclope الذي يتطير منه الجميع في أرض الإسلام.[16]

(16) وهذه مسألة مثيرة للجدل، لأنه لا يعرف هل فقد الابن البكر لمولاي الحسن، حقه في العرش بسبب عاهته كما يدعي عامة الشعب، أو كما يؤكد بعض المغاربة المتعلمين، بسبب بعض الأحداث الخطيرة الناجمة عن سلوكه العنيف والانفعالي الذي يتناقض تماما مع وداعة أخيه الأصغر، وهو السلطان الحالي مولاي عبد العزيز. غير أن هذه "الوداعة" تجلت سنة 1897 وبطريقة غير متوقعة، في إرسال عشرات الرؤوس المغربية المقطوعة التي أشرف السلطان الشاب بنفسه على تمليحها، لكي تظل في حالة جيدة وتوضع على الأعمدة الحديدية التي تزين الأبواب الرئيسية لمدن مملكته الرائعة. لكن أين توجد الحقيقة وسط دسائس البلاط المغربي؟ ويجب على القارئ أن يصحح الخطأ الذي سقطنا فيه من قبل، حينما اعتبرنا مولاي العباس أخا لمولاي عبد العزيز، لأنه عمه في الواقع. [ملحوظة المترجم: سبق أن انتبهنا إلى ذلك وصححناه في حينه].

فمولاي امحمد هو أخ السلطان، وجلوس هذا الأخير على العرش سنة 1894 لم يسمح لأخيه بممارسة أية وظيفة إدارية.

وبعد القيام بهذا الفعل السياسي الدنيء، خاطب علي شاقور السلطان بطريقة مقتضبة وغامضة، كما هو الشأن لدى كل المتنبئين، قائلا:

- لقد كانت مهمتي هي المساهمة في جلوسك وابنك على العرش؛ وبعدي هناك آخر.

والمقصود بذلك، ستموت قبلي وسأموت قبل عبد العزيز وبالتالي، سيأتي ولي صالح آخر لتنصيب وريث هذا الأخير.

وبالفعل، فقد تحقق الشطر الأول من نبوءة الولي بموت مولاي الحسن. أما الآن فالسؤال هو: من الذي سيتوفى في الأول؟ هل هو الشيخ ذو التسعين سنة أو السلطان ذو العشرين سنة؟

ولقد كان علي شاقور محظوظا، لأنه أصبح خالدا في حياته ! ورغم جهله، فإنه كان يصيب في أحكامه ويذهل أتباعه بسلوكه اللبق الذي لم يتغير على مدى أكثر من نصف قرن ! وباعتباره آخر حلقة في سلسلة طويلة من الصلحاء، فإن السؤال المطروح هو: ألن يدفعه طموحه إلى بلوغ نفس المجد الذي حققه مولاي عبد السلام؟

ومهما يكن، فقد استطاع أن يتجاوز باقي الأولياء وأصبح يستفيد من كل الشعائر المقامة على شرفهم؛ وباستثناء جده مولاي عبد السلام ببني عروس، فلا أحد يمكن أن يضاهيه بالمنطقة.

وعلى الرغم من كون الشاون موجودة بتراب الاخماس، إلا أنها لم تخضع أبدا لهذه القبيلة. ومع ذلك، إذا ما اتفق القرويون على خنق هذه المدينة المتكبرة ومحاصرتها، فإن أسوارها الهشة لن تصمد أمام هجومهم. وقد حاولوا مرارا السيطرة عليها، لكن تحركاتهم غير المنظمة وعمليات إطلاق النار العشوائية من بنادقهم القديمة، على أبواب المدينة وأسوارها، لا تؤدي إلا إلى فتح بعض الثقوب وتطاير بعض الأخشاب؛ وهو ما يظنه المهاجمون عملا بطوليا.

وحدث في إحدى الليالي، منذ حوالي عشرين سنة، أن بلغوا الأسوار وتمكن أكثرهم جرأة من تسلقها بواسطة السلالم. وفي تلك اللحظة، شرع حامي المدينة سيدي يسف التليدي في

إصدار زعيق فظيع شبيه بالنفير.(17)
وهرع السكان إلى الأسوار، مما أدى إلى تراجع المهاجمين الذين أرادوا العودة من حيث أتوا؛ لكن سيدي يسف المتدثر بكفنه الأبيض، أخذ يحرك السلالم مثل قشة تبن ورماها بعيدا، حيث قضى على متسلقيها وعلى من كانوا يحاصرون المدينة، من أسفل الأسوار. وهناك كرامات عديدة لهذا الولي العظيم يعرفها كل الشاونيين. فأصله من الاخماس وقد استقر به المقام بالشاون؛ وقبل موته عبر عن تشبثه بمسقط رأسه وبمقر إقامته قائلا:
- يا رب اجعل هذه المدينة حرة دوما وامنح للاخماسيين في نفس الوقت، الاستقلال والعلم.
ولحد الآن ما زالت دعواته مستجابة، ما دامت الشاون حرة وما دام الاخماسيون متعلمين ومحافظين على استقلالهم. وداخل العائلات الميسورة، تحفظ الفتيات القرآن، بل إن البعض منهن يدرسن الفقه والتفسير.
وبينما تنهمك المرأة الكتامية في الأشغال المرهقة، حيث تذهب إلى الغابة وترعى الماعز وتقوم بالبستنة ولا تهتم بهندامها، لأنها ترتدي دوما لباس الشغل الخشن وتمشي سافرة الوجه؛ فإن المرأة الاخماسية على العكس، تعيش بمنزلها كربة بيت رومانية، بحيث تشارك إخوتها في الدراسة وتهتم بهندامها وتخرج متحجبة وتطبخ أحيانا. وباستثناء بعض المناطق

(17) خلال شهر رمضان، يستعمل بالشاون وبكل المراكز المغربية الكبرى، بوق طوله متر تقريبا يسمى النفير. وتحدث هذه الآلة أصواتا قوية تسمع من بعيد. ومن المحتمل أن يكون الزعيق المنسوب لجثمان سيدي يسف التليدي صادرا عن نفير أحد الشاونيين الذي انتبه إلى عملية الهجوم على المدينة.

وأريد الآن، الحديث باقتضاب عن دور النفير بالمغرب. فالنفارون يعلنون من أعلى الصوامع، عن رؤية هلال رمضان، عبر أصوات آلتهم الصاخبة. وخلال الثلاثين يوما من الصيام، تسمع هذه الأصوات ثلاث ساعات قبل الفجر ومباشرة بعد ذلك، يمر شخص بطبل عبر أزقة المدينة، متبوعا برجل يحمل مصباحا وعصا يطرق بها كل الأبواب، لإيقاظ المؤمنين من نومهم. وهي إشارة إلى أن فترة آخر وجبة [وهي وجبة السحور]، قد حانت. وقبل الفجر بساعة، يتم النفخ من جديد في آلة النفير ولكن بشكل ضعيف، من سطح المسجد. وعندما لا تبقى سوى نصف ساعة على أداء صلاة الفجر، يسمع صوت النفير للمرة الأخيرة وهو ما يسمى ب "زعقة القطع". آنذاك يدوي صوت المدفع كإعلان عن إيقاف الأكل والشرب وسيظل النفير صامتا طوال اليوم إلى أن يأتي الليل، وبالتحديد ساعة بعد صلاة العشاء [ما بين التاسعة والعاشرة، بحسب الفصول]. وهذا النفخ المتأخر في آلة النفير هو بمثابة دعوة للمؤمنين، لإضافة صلاة الشفع على صلاة العشاء. ويتوفر كل مسجد أو حي، على نفيره وطبله والشخص الذي يحمل المصباح والعصا. ويقوم هؤلاء الأشخاص بمهمتهم بشكل تطوعي، لكنهم يسعون مباشرة بعد انتهاء رمضان، إلى جمع الصدقات المكونة من بعض المال والقمح والشعير والزبيب. وللإشارة فإن النفير لا يوجد في القرى الصغيرة.

بجبالة حيث توجد نساء متعلمات وبعض العائلات بفاس ومراكش وتافيلالت، التي تعلم بناتها؛ يمكن القول إن المغربية تعاني من الجهل طوال حياتها. فجيراننا بالغرب، لا يختلفون في شيء عن إخوانهم المسلمين بالجزائر؛ فهم يمقتون كل ما يمكن أن ينزع المرأة المسلمة من ظلمات الجهالة. وحينما تطرح عليهم أسئلة بهذا الخصوص، فإنهم يجيبونك بالمثل العربي الذي يفعم كل حججك وهو أن "تعليم النساء من فساد الدين".

- ملاح الشـــــــاون:

على طول الطريق التي تفصل واد ورغة عن الشاون، لم يلتق محمد بن الطيب بأي يهودي. واستنتج من جراء ذلك، بأن أبناء إسرائيل لم يكن مسموحا لهم بعبور المناطق التي سبق أن تعرفنا عليها.

ومع ذلك، فقد أكد لي بعض الغماريين والزرواليين القاطنين بوهران، بأنه من الممكن رؤية بعض اليهود بالعديد من القبائل الجبلية المستقلة ومن بينها، القبيلتين المذكورتين. وإذا لم يكن الدرويش قد التقى باليهود من قبل، فسيكون مقدرا عليه الآن، التعرف على الكثيرين منهم بالشاون. وأول أمر شغله عند وصوله إلى هذه المدينة، هو معرفة أين يوجد الملاح. وفي إحدى الأمسيات عثر عليه أثناء تجوله بحي بعيد عن وسط المدينة. وأثار انتباهه وجود سور عال، هو بمثابة حاجز يفصل الملاح عن المدينة الإسلامية. وكان جنديان مغربيان يحرسان البابين المقوسين اللذين يسمحان بدخول الحي اليهودي.وتبادل الدرويش الحديث معها، متظاهرا بالأسف على مهمتهما المتمثلة في حماية كائنات ممقوتة ليل نهار. فأجابه أحد الحراس بتذمر:

- المزعج في الأمر، هو ضرورة النوم كل ليلة في إحدى الحجرات الضيقة للباب المقوس.

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء؛ ولأن الدرويش شعر بالجوع، فقد دخل إلى الملاح، ونصحه الحارسان بالإسراع في الرجوع، لأن موعد إقفال الأبواب غير بعيد. فطمأنهما الجوال قائلا:

- سأدخل وأخرج بسرعة، فأنا أريد فقط التحدث مع يهودي أعرفه واسمه إيهودا قريات؛ وسأعود بعد ذلك.

وعرج محمد على أول حي بداخل الملاح. وكانت تنبعث منه رائحة كريهة، نظرا لتواجد الأزبال من كل نوع والتي يصبح فيها الجو خانقا بسبب عدم اتساع الحي الذي لا يتجاوز عرضه مترين على أكثر تقدير. وقد كان الملاح بكل تأكيد، أوسخ من المدينة الإسلامية، غير أن ابن الطيب الذي كانت مناخيره متعودة على روائح لا علاقة لها بطيب شبه الجزيرة العربية، كان يمشي وهو غير منزعج من الروائح النتنة المنبعثة من المكان، فاحصا اللباس الداكن لليهود وعباءتهم الطويلة وسراويلهم ونعالهم السوداء وسحنتهم الماكرة، التي تصبح ذليلة أمام المسلمين.

أما اليهوديات، فكن لا يغادرن الملاح أبدا ويقضين العمر كله داخل هذه البيوت الوضيعة؛ لذلك كان لونهن شاحبا كالشمع. وجميعهن سمينات ومترهلات، بحيث لا تختفي سمنتهن تحت قمصانهن الحمراء التي تبرز بالمقابل، البياض السقيم للأيادي و الوجوه .

وكان الأطفال يجرون نصف عراة؛ وقد ازداد خوفهم عندما رأوا الدرويش متجها نحوهم. ذلك أن الخوف من المسلم لدى هؤلاء البؤساء، يفوق كل تصور. ووجود الحارسين المخزنيين اللذين تحدثنا عنهما، هو لحماية الجالية اليهودية من ردود الأفعال المتعصبة، الصادرة عن المسلمين وخصوصا خلال شهر رمضان. ويرغب القروي الذي يقطن بالنواحي، في نهب الملاح، لولا خوفه من موظفي المخزن.

وكانت هذه أول مرة يتنكر فيها الدرويش في زي يهودي، باعتبار هذا التنكر هو الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من الحصول على الطعام ومن التغلب على التثاؤب الذي أصبح يزعجه. ولم يكن الأمر صعبا عليه، لأن وجهه الذي يذكر بوجه المسيح وشكله السامي Sémite يجعلانه شبيها باليهود.

وهناك أمر يعرفه رحالتنا، سيساهم في إنجاح تنكره؛ فقد قيل له إن أبناء اليهود بالشاون يختطفون أحيانا من طرف القرويين المسلمين بالقبائل المجاورة. طبعا فإن هؤلاء الأطفال سيعتنقون الإسلام طوعا أو كراهية. كما كان يعرف بأن بعض اليهود ارتدوا عن ديانتهم وأصبحوا مسلمين، كي لا يعاملوا بقسوة من طرف الأهالي المتعصبين بالمدن والقرى المغربية. وأخيرا، فإن الدرويش لم يكن أول مسلم يستعمل هذه الحيلة. ودون اللجوء إلى الكتب العربية التي يمكن أن أجد فيها أمثلة عديدة، فإنني أكتفي بسرد الواقعتين التاليتين اللتين

تتميزان بكونهما حديثتين. فمنذ بضع سنوات، قرر زنجي مسلم، عاطل عن العمل، استغلال ثقة الجالية اليهودية بمسكارة mascara والعيش على حسابهم. فاستقبل بحفاوة من طرف من طرفهم بعد اعتناقه لليهودية. وهناك حالة المسلم الوهراني الذي أراد تأكيد ما ورد في القرآن الكريم، بخصوص تحريف اليهود للحقائق[18] وعاش عشرين سنة وسط أتباع موسى، متظاهرا باعتناق ملتهم.

ويوجد بابان سميكان بأسوار ملاح الشاون؛ حيث تسمح الأولى بالنفاذ إلى المدينة الإسلامية وتنفتح الثانية على البادية. أما الجنديان اللذان يحرسان الملاح، فيتلقيان ثلاثين فرنكا من الجالية اليهودية. ويقتطع قايد الشاون كضريبة ثلاثة فرنكات بالنسبة لكل يهودي راشد، باستثناء النساء. ويمنع عن اليهود امتلاك المساكن، فالأرض هي ملك للسلطان والمنازل التي يبنى فوقها هي ملك للشريف المعظم أيضا؛ ولهذا يعتبر اليهودي بمثابة المكتري الدائم لمستبد فاس. وبداخل الملاح، تظل أبواب المنازل مفتوحة طوال النهار تقريبا. وتتنقل النساء بين المنازل أو تقمن بأشغال البيت أو تطبخن في باحة المنزل، مع إلقاء نظرة على المارة كلما سنحت الفرصة لذلك.

وتوقف محمد عند مسكن يبدو أنه أنظف من المساكن الأخرى. وكانت بعض اليهوديات جالسات أمام مواقدهن وهن يراقبن طبيخهن ويتجادلن فيما بينهن بشكل مثير. واجتاز عتبة الباب وهو يبتسم ببلاهة ووضع يده على قلبه متكلما بعربية على الطريقة اليهودية وملقيا التحية على الجميع وهو يتقدم في السير. ووقف أمام النسوة بهيئة الشحاذين الخانعة وتمتم قائلا:

- مساء الخير عليكم، كاين شي خبز ماناكل، أنا جيعان.

فسألته إحداهن برفق:

- منين أنتينا
- من دبدو

وكان يعلم بأن اليهود متواجدون بكثرة بتلك المنطقة.

---

(18) أنظر القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 98 وسورة المائدة، الآية 48.

ولأن مظهره لم يكن عدوانيا، فقد طرحن عليه العديد من الأسئلة بصوت مغرد ورخيم وخنين nasillard يميز لهجة يهود الشمال الغربي الإفريقي:

- هل أنت يهودي؟

فأجاب بمكر: نعم

- اقترب إذن، هل تخاف منا؟

- كلا، فأنا لا أخاف من إخوتي.

واستمر الحوار بشكله المميز، بحيث اضطر الدرويش لاستبدال السين بالشين والدال بالجيم والقاف بالهاء.[19] وقد خن صوته، ليبين لبنات صهيون، على أنه يهودي حقيقي. [20]

وجاءت الجارات اللواتي بلغهن الخبر بفضل الأطفال، وأحطن بالجوال وأمطرنه بالأسئلة من قبيل: كيف اضطر لتغيير ديانته؟ وهل عامله المسلمون بقسوة؟ وهل مازال في العمق، مؤمنا بالدين اليهودي؟ وكان الماكر يجيبهن جميعا، متهما المسلمين بكل الأعمال الدنيئة، لاعنا إياهم وداعيا من الله بأن يعاقبهم، لأنهم يضطهدون أفضل عرق في العالم. وكان التعاطف معه شاملا والفرحة عارمة. وشرعت النساء الأكثر حساسية في النحيب عند سماعهن لمآسي محمد المزعومة، لأنه كان يلعب دوره بإتقان. وسارعن إلى لمس يد ووجه هذا المرتد رغم أنفه وأجلسنه بغرفة فوق حصيرة من الحلفة وأطعمنه الكثير من السمك والبيض المقلي. ولم تنقطع زيارة اليهوديات؛ وكلما دخلت واحدة منهن بادرت إلى السؤال:

- هاجا إيهودي؟ [هل هذا يهودي؟]

ليجبها الجميع: إيه [نعم].

واتفقت الزائرات، على أن شكل وملامح ووقار الرجل، تشير إلى أصوله اليهودية. وفجأة دخل صاحب المنزل رفقة إسرائيليين آخرين، بعد أن أخبره أحدهم بقدوم الرحالة. وفي البداية أنصت بحذر إلى تفسيرات وزعيق الأطفال والنساء، مع متابعة حركات أخيه المزعوم

---

[19] مثلا الشلام بدلا السلام وعنجنا بدل عندنا وهلت بدل قلت وعليتشم بدل عليكم

[20] يرجع عدم إتقان يهود الشاون للعربية، إلى كونهم يتحدثون فيما بينهم بالإسبانية التي احتفظوا بها وظلوا يتداولونها فيما بينهم، منذ طردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية.

في الدين. بعد ذلك استنطق هذا الأخير مطولا؛ وكانت إجاباته الذكية كافية لإقناع رب المنزل ورفاقه الذين قالوا له:

- مرحبا بك ما دمت هنا في الشاون، ما تمشي لاين، ماكلتك وفراشك عنجنا.

ولكي يزيل أي أثر للشك لدى مضيفه، روى محمد قصة نسجها خياله من قبل، حول اعتناقه الإسلام، وقال بلهجة يهودية:

- إخواني، أنا من دبدو، وكان أبي تاجرا غنيا بهذه المدينة؛ وقد اصطحبني معه وأنا صغير السن إلى المقام حيث يتاجر، وفي تلك القرية سقط طريح الفراش. وعندما أحس بقرب نهايته، سلمني إلى عائلة عربية، ربتني وفق تقاليد الإسلام. لهذا، فباستثناء أصلي الذي أتذكره جيدا، فانا لا أعرف أي شيء عن اليهودية، ديانة أجدادي.

فرد عليه صاحب المنزل قائلا:

- ما عليك سنصحبك إلى الهجان[21] الذي سيسهر على تربيتك الدينية.

وعلى مدى يومين، توالت الولائم بالملاح، على شرف الابن الضال، الذي عاد أخيرا. وكان كل اليهود فرحين، لأنهم انتزعوا من المسلمين واحدا من ضحاياهم. وفي البداية، كان كل الذين يشاهدون الدرويش، لا يصدقون ما حدث له، لكن ما أن يلتقوا به، حتى تتبخر أحكامهم المسبقة، أمام وجهه الشاحب الذي يذكر كما قلنا بوجه المسيح. هكذا، وجد هؤلاء الماكرون والمحتالون والمنافقون بامتياز، أستاذهم في فن المخاتلة النادر لدى المسلمين، حيث أوهمهم بأنه يهودي، للعيش على حسابهم ولدراسة عاداتهم.

وقد تعلم أشياء كثيرة خلال تلك الأيام، إذ عاين السلطة الحقيقية لليهوديات على أزواجهن والتهتك المعمم والميل إلى الأطفال وزنا المحارم بين المرأة وزوج أختها وبين الرجل وزوجة أخيه، وشبقية الرجال والنساء والسكر الليلي حتى الثمالة بماء الحياة [ماحيا] واللعنات الموجهة إلى عيسى ومحمد [عليهما السلام]. ولكي لا يفتضح أمره، كان الرحالة يشاركهم في أعمالهم هاته، متسائلا إذا ما كان الله سيغفر له ذنوبه أم سيحاسبه على ما فعل.

وغذاة وصوله إلى الملاح، تم تقديمه إلى الحزان. وقد نجح في امتحانه الأول، حينما اعترف لهذا الأخير بأنه لا يعرف شيئا عن القوانين والطقوس العبرانية. ولأن الحزان كان منشغلا

[21] وهو الحزان المكلف بالدروس في المدرسة الإسرائيلية.

بحضور يهوديين، جاءا خصيصا من القدس لجمع تبرعات اليهود المغاربة من اجل إخوانهم بالمدينة المقدسة، فإنه أمر زائره بالانصراف، واعدا إياه بالاهتمام بتعليمه لاحقا. وعلق اليهودي المزعوم على الأمر في قرارة نفسه قائلا: هذا أحسن.

وشرع منذ تلك اللحظة في التجول داخل الملاح، متفحصا كل أمكنته، بما فيها الأكثر سرية. ويشمل ملاح الشاون سوقا دائما ومحلات تجارية ودكاكين لبيع العقاقير والمواد الغذائية ودكاكين الإسكافيين والحدادين وصانعي الأحذية والنساجين والخياطين والبقالين وأكواخ خشبية لبيع الفواكه والخضر، وكان الجميع يتعايش جنبا إلى جنب ويشتغل بجد.

ويعتبر الملاح برمته ورشة أو خلية كبيرة، يشتغل فيها كل واحد وينتج ويراكم الأموال. ويجد فيه المسلمون بضاعة أرخص مما يعرض في المدينة العربية؛ وطبعا فإن هذه التجارة المربحة لليهود تتم مع ألذ أعدائهم، أي المسلمين الذين يشترون منهم الحايك الجيد والجلابة المتقنة الصنع وكل الأثواب المصنوعة في الحي اليهودي أو المستوردة من تطوان. كما يشترون الأوراق والمداد والقطن والحرير والشموع، بل إن الإسكافيين الشاحبي الوجوه، هم الذين يصلحون أحذيتهم.

ولا يغادر الملاح باتجاه المدينة الإسلامية، سوى اليهودي الملزم بقضاء أشغاله هناك.[22] وهو يدخلها حافي القدمين ويمشي محاذيا للأسوار، متفاديا الالتقاء بالمتعصبين المسلمين.

ورغم كل هذه الاحتياطات، لابد وان يوجد شخص بليد لشتمه أو شخص متوحش ليشبعه ضربا. والملاحظ أن هؤلاء اليهود البؤساء لا يفكرون في مغادرة هذا البلد الذي يعانون فيه من التهميش، رغم كل التسهيلات المتوفرة لديهم، للذهاب إلى جهة أخرى. فاستعبادهم التاريخي، جعل منهم كائنات حقودة ومنعزلة وغير راغبة في الحرية ولا في المساواة اللتين لم تخطرا ببالها أبدا. ويعتبر ربح المال، خصوصا مال المسلمين وإخفاؤه في أماكن سرية، هو شكل من أشكال انتقام اليهود من كل ما يتعرضون له. كما أن احتفالاتهم يوم السبت، تنسيهم كل ما عانوه خلال أيام الأسبوع الأخرى.

---

[22] يوجد في الحي العربي، متجر كبير، يتضمن مختلف البضائع التي يبيعها اليهود للمسلمين أو على الأقل، لأولئك الذين لا يريدون الذهاب إلى الملاح النجس.

وفي اليوم الثالث من مقامه، غادر الدرويش الملاح لكي لا يعود إليه أبدا. فقد كان في حاجة إلى استنشاق الهواء النقي للبادية وإلى التخلص من القمل والبراغيث التي علقت به خلال تواجده بالملاح.

وقد أقسم بأغلظ الأيمان، وهو العارف بالساكنة المسلمة واليهودية، بأن القذارة متفشية في أتباع موسى أكثر مما هي متفشية في أتباع محمد. هكذا، قضى يومه متجولا عبر البساتين الرائعة لضاحية الشاون؛ وعند حلول المساء، دخل إلى المدينة وبحث في أحد مساجدها عن مكان يقيه برد ورطوبة الليل.

فمدينة الشاون الجبلية الموجودة على ارتفاع 620 مترا على سطح البحر[23] تعرف شتاء قارسا كما هو الشأن في قبيلة الاخماس برمتها.

وغالبا ما تتساقط الثلوج بها في شهري دجنبر ويناير. وبالممر الضيق الذي شيدت به المدينة، تهب العواصف وتبعد السحب الممطرة الآتية من المحيط الأطلسي أو من البحر الأبيض المتوسط.

ـ قطع الطريق والميولات الشهوانية:

في ظهيرة أحد أيام فبراير الكئيبة والباردة، غادر محمد المدينة الأمازيغية متكئا على عصاه ومتوجها إلى قرية القلعة المحاذية لغمارة. وكان مضطرا، وسط سلسلة الجبال، لإيقاف الفلاحين الذين يتفقدون مزروعاتهم ويحمونها من إتلاف الدواب؛ لكي يستفسرهم عن الطريق المؤدية إلى القرية. وكان في كل مرة، يعلن بأنه "ضيف ربي"، فيحصل على الطعام والشراب من مضيفه. ولم تكن الأمطار الغزيرة لتوقفه عن السير، فقد كان يستعجل الوصول وكانت المنطقة التي يعبرها تثير إعجابه. فالجبال والغابات تحيط به من كل جانب والأودية العميقة المزروعة بشكل جيد والدواوير التي تتوالى بدون انقطاع والتي تتوفر على جداول ومنابع مائية صافية، رسخت لديه القناعة بأنه لا يوجد بلد أفضل من المغرب؛ وقد ظل يكرر بحماس طفولي، المثل العربي الشهير: "الأرض طاوس والغرب كعالته".

[ملحوظة المترجم: وهو المثل الذي استهل به مولييراس، كتابه هذا، انظر المغرب المجهول، الجزء الأول، مذكور، ص. 14]

---

[23] Ch. De Foucauld, Reconnaissance au Maroc. Pages 9 et 419.

واستمر الجوال في سيره، حافي القدمين، حاملا قميصه على الكتف وكيس الكتب بيد والعصا بيد أخرى، مثل أي طالب بئيس. وعندما عبر غابة ذات أشجار عالية، اعترض طريقه رجلان يحملان بندقيتين مغربيتين طويلتين. ومن المرجح أنهما كانا يتبعانه منذ مدة، لأنهما أبانا عن عدم رضاهما عندما اقتربا منه وتبينا بأنه لا يملك الشيء الكثير؛ فخاطباه بغضب شديد:

- نزل الحوايج [انزع ثيابك].

ورد عليهما الرحالة بصوت حزين:

- أنا طالب.

فصرخ المجرمان في وجهه وصوبا فوهة البندقية تجاهه قائلين:

- ألم تقم بنزعها بعد؟

وبسرعة، وضع الحايك على الأرض ونزع جلابته ووضعها بجانبه مع كيس الكتب، وظل واقفا بقميص واحد، متمنيا في قرارة نفسه بألا يطلب منه الرجلان نزعه أيضا، خصوصا وأن الفصل بارد. وكما هي عادة قطاع الطرق المغاربة، فقد كان اللصان يقفان على بعد مسافة محددة من الجوال خشية أن يكون حاملا لخنجر أو لمسدس ويستعملهما عند اقترابهما منه. لكن الطالب لم يكن مسلحا وهذا أمر بديهي؛ وكان قميصه الذي تتلاعب به الرياح يبين عن ذلك. وبقي التأكد هل يحمل معه بعض النقود أم لا. هكذا، أمراه بنزع قميصه ففعل ورماه أمامه، مظهرا يديه الفارغتين وجسده العاري الذي يرتعد من البرد. وبعد أن فحصا الملابس، نهضا وخيبة الأمل بادية عليهما وامسكا بالدرويش وهما في ثورة الغضب، متسائلين هل يتعين قتله. وفجأة خاطبه أحدهما قائلا:

- يا ابن الكافر، لولا الخوف من الله لكنا قد ذبحناك في عين المكان، لأنك تجرأت ودخلت منطقة ليست هي منطقتك.

فأجابه الدرويش:

- لست أجنبيا، أنا خمسي.

واعتقد بأنه بذلك سيحرك مشاعر الرجلين، إلا أن رد فعلهما تمثل في حركة يستعملها سفهاء إفريقيا الشمالية، حيث يوجه الأصبع الأوسط إلى وجه الشخص، بشكل يكون فيه متصلبا وممتدا؛ وهذه شتيمة فظيعة وإهانة لا تغتفر ولا تزول إلا بإراقة الدماء.

وبعد أن حمل اللصان معهما لباس محمد خاطباه بالقول:

- قف وسر أمامنا، يا ابن الكافر.

ونفذ الدرويش أمرهما، ولأنه كان يمشي ببطئ على ما يبدو، فقد تلقى ضربات بعقب البندقيتين على جذعه، مرفوقة بصوت آمر يحثه على الجري. وبدت طريقته في العدو مثيرة ومضحكة؛ فقد كان محمد العاري كما ولدته أمه يقفز ويجري وسط النباتات العالية متبوعا بالرجلين اللذين كانا يدفعانه بيديهما أو ببندقيتيهما، حينما يبطئ الجري. ووصل الثلاثة إلى منحدر غابوي بعيد عن مساكن الأهالي. وفجأة، اختفى السافلان بقدرة قادر، حيث توجه أحدهما شمالا والآخر جنوبا.

وصاح الدرويش: "الحمد لله"، كتعبير عن ارتياحه ببقائه على قيد الحياة وبكونه لم يفقد سوى ملابسه وكتبه. وتابع الطريق صعودا باتجاه قرية القلعة التي بلغها مع حلول الظلام. ولم يفاجأ أي أحد عند رؤية رجل عار، فقد أصبح الأمر مألوفا لدى الأهالي بفعل تكراره. وعند باب المسجد، منح محمد جلابة لائقة، فلبسها ودخل بيت الله ثم تمدد فوق زربيته دون أن يتفوه بكلمة وانتظر بصبر طعام العشاء.

لقد كان من الأفضل عدم التشكي، كي لا يتم إحراج أعيان القرية الذين سيكونون مطالبين بمعاقبة بعض أهالي قريتهم أو أقاربهم. ولربما أدى ذلك إلى قتله، انتقاما من تشكيه. لذلك، كان السلوك الأمثل هو السكوت.

وبقي الجوال يوما واحدا بالقلعة، ثم تابع تجواله بالمنطقة، حيث كان يبيت كل ليلة في قرية من القرى، دارسا عاداتها وتقاليدها ومتفحصا منطقتها الخصبة بشكل كبير، كما يشهد الأهالي أنفسهم بذلك.

فالتربة الاخماسية مائلة إلى الحمرة وصلصالية grasse ومغطاة بسماد الحيوانات humus، لذلك يتم فلحها وزرعها بسهولة. وتنبت الأزهار فيها بكثرة وخصوصا زهرة المنثور giroflée والياسمين والورد والنعناع والزعتر ومرددوش أو مرقدوش marjolaine،

وتمتلئ الغابات بأشجار الغار lauriers، بل إن هناك غابات كاملة من هذا الشجر الذي حظي بأهمية خاصة في الأسطورة الإغريقية.

وتشكل البستنة إحدى الثروات الهامة لهذه المنطقة الغنية بالحياة، بحيث تشغل حقول الفلفل والطماطم مساحات شاسعة. وتكال لعرب الجنوب الذين يأتون لشرائها بالمد [عشرين لترا]. ولا يتجاوز سعر الدجاجة في السوق خمسين سنتيما والمعزة خمسة فرنكات والعجل الكبير أربعين فرنكا. كما تأتي القوافل محملة بالقمح والشعير اللذين لا يتم زرعهما في القبيلة، ليتركا المكان للخضراوات. وتسرح كل الحيوانات من بغال وأفراس وحمير وعجول بكل حرية في الغابة وبدون حراس. و لا توجد جياد في الاخماس، باستثناء بعض الخيول المخصصة للتوالد، مما يسمح للأهالي ببيع مهورها poulains لعرب السهول الجنوبية. وتحتل تربية النحل apiculture مكانة هامة بالمنطقة، لأن كل عائلة تحب العسل وتستهلكه بكثرة؛ لذلك فهي تتوفر على خمس أو ست خلايا مليئة بالنحل. وللأسف فإن هذه الكائنات الثمينة تمتص أحيانا رحيق بعض أزهار أساسنو arbousier، مما يجعل مذاق عسلها مرا. ويعتبر العسل البري أفضل عسل في المنطقة، لأن مذاقه منعش ورائحته زكية. واستمر الدرويش في تجواله، رغم المشاكل والمخاطر التي تعترضه والتي تعتبر أمرا حتميا بالنظر إلى طبيعة الحياة التي اختارها. ولكي لا أرهق ذهن أولئك الذين يتحملون قراءتي ولكي لا أتعب أنا أيضا، فإنني سأترك جانبا المغامرات العادية؛ وسأركز فقط على أكثرها أهمية، أي تلك التي تسمح في سطور بإبراز خصائص وعادات الشعوب المجهولة التي يتحرك بين ظهرانيها.

ورغم كل شيء، فأنا أعترف بأن حالات من الاشمئزاز والأسف في آن، تنتابني كلما عاينت ركام الفجور الذي يجب علي أن أعرضه على القارئ؛ وأنا أفهم الآن قرف المؤرخين الفلاسفة historiens-philosophes الذين ينتقدون بأقلامهم القاسية والمتشفية، بعض العادات التوراتية وكل الفظاعات المعروضة في الكتاب المقدس وضمن أرشيفات الشعب العبراني الصغير؛ وهي أرشيفات مثيرة للشفقة إلا أنها كادت أن تصبح وثائق الإنسانية برمتها ! إن سدوم Sodome لم تنته. فقد ظهرت في أماكن أخرى وتحديدا بمنطقة جبالة

الشاسعة، حيث يتجلى النشاط الجنسي الجنوني rut frénétique والعلاقة الجنسية غير الطبيعية لشعب هائج.

اقرؤوا الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر من سفر التكوين وراجعوا بجرأة تاريخ عنان Onan وثمار Thamar؛ وقارنوا بين الفظاعات الجسدية لهذه الفترة القديمة وما يقوم به الجبليون المعاصرون لنا؛ وستستنجون بأن الأمر يتعلق بنفس العرق المهووس بهذه المتع الدنيئة؛ إنه العرق السامي العربي، الذي يحمل تحت ثنايا قميصه، الخلاعة الفظيعة المنقولة إلى الأمازيغ المعربين. صحيح أن أمازيغ الريف، والبرابر وسوس [وهي مجموعات تتكلم تمازيغث] قد ظلوا إلى حد الساعة، في منأى عن تسرب ما هو سامي Sémitique، وصحيح أيضا أن ميولاتهم متوحشة[24]؛ لكن الرذيلة لم تبلغ بهم حد ممارسة الجنس السقراطي المنفرد [أي معاشرة الأطفال]. ونتمنى ألا يزاولوا أبدا هذه الممارسة الشنيعة وأن تعرف المناطق الأخرى التي أصابتها العدوى، الحب الحقيقي والوحيد والسليم والقوي وهو حب رفيقة الرجل الرائعة.

فبغرب المنطقة، غير بعيد عن الشاون، توجد قرية من 300 منزل، تدعى بنوع من السوقية "أسردون" أي البغل. والويل للطالب الأمرد الغريب الذي يزورها وحيدا ! لأنه سيصبح على الفور ضحية سفهاء "نادي الصحفة". فالطلبة لا تربطهم بالأميين أية علاقة، لذلك فهم يعاشرون في الحجرات الضيقة للمساجد، طلبة صغارا يقومون بكل الخدمات. ويتبادل المتعلمون والأميون سرقة الغلمان، خصوصا الجدد الذين يحتفظ بهم الطلبة الملتحون عند قدومهم إلى القرية لأول مرة. فيا لها من عادات دنيئة !وعندما سألت الدرويش: لماذا تعين عليه، وهو صاحب الخصال الحميدة، مسايرة الرذيلة الجبلية؟ أجابني ببساطة قائلا:

- يجب عليك في المغرب، أن تساير عادات الأهالي الذين ساقتك الصدف إليهم وإلا تعرضت للذبح. فأنا قمت، حسب الظروف، بتدخين الكيف ومعاشرة السفهاء وأصبحت يهوديا وعشت مع اللصوص والعاهرات. وتمكنت بفضل هذا الأسلوب من ولوج كل الأمكنة دون صعوبات. وأضاف بنبرة محتشمة:

- للضرورة أحكام !

---

[24] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 170.

وأنتم يا رجال الأخلاق الصارمين، أترك لكم حرية نقد نواقص هذا الرحالة العظيم وأتابع روايتي.

عند وصوله إلى أسردون، كان محمد مرفوقا وفق العادات الفظيعة المتبعة في المنطقة، بغلام لا يتعدي خمسة عشر سنة، التقى به في مكان ما. واستقبل الجوال وغلامه بحفاوة من طرف معلم المدرسة وباقي الطلبة المرحين. وكان سفهاء القرية قد راقبوه يوم وصوله، متبوعا بغلامه؛ وأثناء دخوله المسجد وإقامته فيه من أجل قضاء ليلته رفقة الغلام وطالب آخر ملتح من غمارة.

وعندما كان الجميع نياما، دخل سبعة أو ثمانية أشخاص فجأة إلى المسجد وأخرجوا الطلبة الثلاثة، مهددين إياهم بالقتل إن هم صرخوا. وعبروا بهدوء أحياء القرية الفارغة من المارة، وكان الطلبة في الأمام وأفراد العصابة من ورائهم، يدفعونهم بفوهات بنادقهم. وتوقف الجميع بمقبرة وسط الغابة وهناك تفرقوا. فقد أخذ مجرمان الطالب الغماري إلى أسفل المنحدر وقطعا رأسه. وأخذ مجرمان آخران تلميذ محمد واختفيا في الغابة. وبقي الدرويش برفقة ثلاثة أو أربعة من أفراد العصابة الذين خاطبوه قائلين:

- قل الشهادة يا ابن الكافر، فإنك ستموت.

ولم يفقد الأمازيغي الماكر رباطة جأشه في هذه اللحظة الحرجة. وكان يحمل معه ما قدره خمسة فرنكات من النقود المغربية. ومد المال للأشرار بملء يديه قائلا:

- خذوا المال ولا تقتلوني؛ فأنتم تعلمون أن القتلة لن يدخلوا الجنة أبدا.

ولحسن حظه، كان أحد هؤلاء الأوغاد يعرفه؛ حيث أخبر الآخرين بأن الأمر يتعلق بشخص لا أهمية له، مسالم ومجنون ومجذوب ومن أولياء الله. ومن المؤكد أن هذه الصفة الأخيرة هي التي أنقذت حياته. هكذا، نزعت عنه ملابسه وترك عاريا في المقبرة وهو يرتجف من البرد. وكانت الظلمة حالكة ولا تسمح لهذا البئيس بتلمس طريقه وسط الغابة. فبحث عن ملجأ يقيه البرد القارس وشر أولئك الأوغاد في حال عودتهم. ووجد قبرا قديما مهدما فاختبأ بداخله؛ ولم يمر وقت طويل حتى سمع أصواتا تقترب من مكانه واستطاع أن يلتقط الكلمات التالية:

- يا أبناء العاهرات، لماذا أطلقتم سراح ذلك الكافر؟ إنه سيشي بنا بكل تأكيد؛ وسنجلد على أفعالنا. هيا لنبحث عنه ! فلن يكون بعيدا.

ولم يتحرك محمد من داخل القبر وانكمش كي لا يراه أحد، رغم آلام الظهر التي تسببت فيها عظام الميت، المليئة بالنمل. وأحس بتلك الحشرات وهي تسرح فوق جسده وعلى وجهه وصدره وساقيه. ومن جديد، اقتربت الأصوات من مكانه ومر عنصران من العصابة بمحاذاة القبر وقال أحدهما للآخر:

- لقد نجا الكافر ! لكننا سنقبض عليه وسيؤدي الثمن.

ولم يقو الدرويش على التحمل أكثر، فقد أثر البرد والخوف وتواجده داخل قبر مليء بالنمل والدود وعظام الميت، على معنوياته، وفقد الوعي من جراء ذلك.

وعندما فتح عينيه كان الوقت فجرا. فخرج من القبر وهو يحس بالعياء وبالآلام في كل أنحاء جسمه المتجمد تقريبا؛ وعاد إلى القرية عاريا. ولما بلغها، كانت أشعة الشمس تغمر أعالي الأشجار. ولم يكن بإمكانه إخفاء ما حدث؛ وروى كل شيء للطلبة الآخرين، معلنا بأنه لم يتعرف على المعتدين ومطالبا بألا تتم متابعتهم، حتى لا ينتقموا منه.

وتظاهر أعيان القرية الذين أحرجهم قتل الطالب الغماري – وهو ما قد يثير ردود أفعال انتقامية من طرف قبيلة الضحية، المعروفة بقوتها – بتقصي الحقائق دون أن يصلوا إلى أية نتيجة طبعا.

وتلقى الدرويش ا لملابس من أحباس المسجد، ففرح بها وأعلن عن رضاه بما قدم له. وتم دفن جثمان الغماري خفية، كما طلب من الأهالي بألا يذكروا هذا الحدث المأساوي، خشية أن يصل ذلك إلى مسامع الغماريين فيطالبون بالثأر. أما الغلام مصدر كل هذه المأساة، فلم يظهر له أثر، لأنه بقي ببيت الصحفة. وسارع الدرويش إلى مغادرة قرية أسردون الملعونة واختفى، بينما كانت الرقصات الخليعة تمارس في بيت الصحفة؛ متوجها صوب قبيلة بني عروس.

القرى الرئيسية بالاخماس

قســم الهبطييــن[25]

- الشاون، 1200 منزل تقريبا، وتعبئ المدينة 4 آلاف من المشاة، وهي المركز السياسي والأدبي للاخماس.

- بني زيد وهي قرية كبيرة من 1500 منزل، وتشمل اثني عشر دوارا [أو مسجد] وهي:

1) جامع تاغنيث؛ 2) جامع المتيغ؛ 3) الجامع الكبير؛ 4) جامع الينبوز المسمى أيضا جامع العبيد؛ 5) جامع واصل؛ 6) جامع مغواها؛ 7) جامع الوذنين؛ 8) جامع الحرامين؛ 9) جامع العيادين؛ 10) جامع القلايين؛ 11) جامع الغزالين؛ 12) جامع عين الفلوح.

- ماڭو [قاطع الطريق]، التسمية أمازيغية؛ وهي مدينة من 600 إلى 700 منزل، على واد تيسملال؛ وتوجد بها حقول شاسعة من الفلفل.

- تيسوكا [عظم المرفق]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا.

- زاوية سيدي عبد الله الهبطي، 500 منزل، وهي زاوية مخصوصة للولي الذي يحمل نفس الاسم.

- مشكرلا، 50 منزلا.

- أمڭري [المنجل]، التسمية أمازيغية، 60 منزلا.

- سيدي بارسول، 40 منزلا.

- غاروزيم، 80 منزلا.

- العشايش، 200 منزلا.

---

[25] لا اعتراض على الإقرار بالتشابه بين هذه المقاطعة ومنطقة الهابط El Habet القديمة. انظر:

Histoire des berbères, tome 1, p. 86, tr. De Slane.

وعلي أن أضيف بأن الشعب المغربي يجهل تماما اسم ووجود هذه الدائرة القديمة التي لا نجد ذكرها إلا في الكتب دون تحديد دقيق. وإذا ما كانت هناك رغبة لإحياء اسمها القديم فيجب تعديل الكلمة التي اعتمدها المترجمون الأروبيون وكتابتها كما يلي: الهبط El Habt.

- دار أقوباء، 60 منزلا.

- دار أملال، 30 منزلا.

- إمهرشن [الصارخ]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا.

- تاوراغين [الصفر]، التسمية أمازيغية؛ وقد أفرغت هذه القرية من سكانها، بسبب نزاعات داخلية؛ فهاجروا جميعهم إلى الشاون.

- أسردون [البغل]، التسمية أمازيغية، 300 منزل.

قسم سبع قبائل

- الخزانة، 1200 منزل وتتكون من تسعة دواوير أو مساجد وهي:

1) الخزانة التي يوجد بها المسجد الكبير، حيث تلقى خطبة الجمعة؛ 2) جامع إتجاوين؛ 3)جامع الصيوحة؛ 4) جامع سيدي المحرر؛ 5) تلاسمتين [العين الباردة]؛ 6) جامع أولاد حبيس؛ 7) جامع أولاد مراقي؛ 8) جامع أولاد زنان؛ 9) جامع تيفوزار [المتصدع].

- بني زطاط، 200 منزل، وتنقسم إلى دوارين وهما: بوزطاط بمسجده الكبير وجامع بني قرطلي.

- معكاشة، 60 منزلا؛ وهي قرية قطاع الطرق.

- زرهون، 80 منزلا.

- الكواطيط، 200 منزلا وتنقسم إلى ثلاثة دواوير وهي:

1) الجامع الكبير؛ 2) جامع دار الأمان؛ 3) جامع الرميلي.

- تانغايا [القتل]، التسمية أمازيغية، وهي قرية كبيرة من 600 منزل وتشمل أربعة دواوير وهي:

1) تلنغايا بمسجدها الكبير؛ 2) جامع القرقازين؛ 3) جامع الهدارة؛ 4) الجامع الفوقي.

قسم بني داركول

- أميايث، 50 منزلا.

- تاينزا (البيع)، التسمية أمازيغية، 100 منزل.

- القب، 80 منزلا.
- تاسفت [البصقة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- أريغلان، 130 منزلا.
- تالا خالد، 60 منزلا.
- إشدادن، 90 منزلا
- الحرم، 100 منزل وتوجد بها زاوية مخصوصة للولي سيدي أحمد العالم.
- أعيدان، 40 منزلا.
- تازوكنان، 50 منزلا.

قسم بني جافن

- زاوية سيدي يسف التليدي، 300 منزل؛ وسيدي يسف هو حامي الشاون.
- بني عاصم، 50 منزلا.
- تاوريشت، 60 منزلا.

قسم بني فلواط

- الشرافات، قرب سوق الخميس؛ 600 منزل وتشمل ستة دواوير وهي:

1) الشرافات بجامعها الكبير؛ 2) جامع تالمسطين؛ 3) جامع حمداتي؛ 4) جامع القلة؛ 5) جامع الماذن؛ 6) جامع تاونات.

- بوحلة، 100 منزل.
- القلعة، 500 منزل، قرب الواد الذي يحمل نفس الاسم، وبجوار سوق الثلاثاء أيضا.
- الميزاب، 500 منزل.

قسم بني صالح

- امطرس [شكيمة خشبية]، التسمية أمازيغية.
- دوار العرب، 150 منزلا.

- البرقوق، 100 منزل
- ماوذين، 60 منزلا.
- تيليوان [المنابع]، التسمية أمازيغية، 80 منزلا.
- تامضيت، 120 منزلا.
- تامسلان [غابة الدردار]، التسمية أمازيغية، 90 منزلا.
- باننتير، 70 منزلا.
- برفدة، 100 منزل.

قسم بني زرويل

- غران قاضي، كلمة عربية، ينطقها عامة الناس ݣران قاضي. وتبدو لي لفظة غران جمعا لغرن التي تعني النسر أو سرطان القاضي. ويمكن أن تكون غران اسم فاعل أمازيغي مستمد من الكلمة العربية قراء. وتتألف القرية من ثلاثة دواوير وهي:

1) غران القاضي بمسجدها الكبير؛ 2) جامع حامد؛ 3) جامع القوبع. وبها 300 منزل تقريبا.

- بني عشير.
- بني إفتن.
- تاج الناصر وبها كل من الجامع الكبير وجامع العايلة، 150 منزلا.
- تيفروان [الأنابيب]، التسمية أمازيغية؛ وبها مسجدان وهما: الجامع الكبير وجامع عريغوت؛ 120 منزلا.
- بني حمد الله.
- أكراط
- الحرافات، 100 منزل ويوجد بها ضريح الولي سيدي محمد بن خدجو. ويحظى حفذته المقيمون بهذه القرية، باحترام كل الاخماسيين.
- سيدي محمد بن سعادة.
- الغيطون، 500 منزل.

قسم بني ثليل[26]

- بني جبارة، وهي مدينة تقريبا، مؤلفة من سبعة دواوير، لم أتمكن من معرفة أسمائها. وتقع بجبل بني اجبارة وبها 900 منزل وسوق كبير هو سوق الخميس والعديد من المدابغ.
- أغرم [القلعة]، التسمية أمازيغية، 200 منزل على الواد الكبير.
- العيون، 100 منزل.

القوى العسكرية، 35 ألف من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان 245 ألف نسمة؛ وتوجد الجبال والغابات في كل مكان؛ وبها مناجم الذهب والفظة والحديد، لكنها غير مشغلة.

ويعتبر واد تيسملال الذي يعبر الشاون، المجرى المائي الرئيسي للقبيلة. وهناك مئات من الدواوير من 10 إلى 200 منزل لم أتعرف عليها.

وتوجد بها حقول عديدة مزروعة بالشني [وهو قمح أبيض ينمو بكثرة وتبلغ سيقانه مترا وسبعين سنتمترا إلى مترين؛ وهي تغطي مساكن الأهالي].[27]

نبذة تاريخية عن الاخماس

قضيت ساعات طوالا في تصفح كتاب الاستقصا، هذا العمل الغزير بالمعلومات والذي يتميز مثل كل المؤلفات العربية بعدم توفره على فهرس. وقد وجدت في الأخير بعض المقاطع المتعلقة بالاخماس. ففي سنتي 1758 و 1759، حاول أبو شاقور الخمسي، وهو شخص طموح ويعتبر نفسه وليا، قيادة تمرد للمناطق الشمالية لجبالة. لكنه لم يفلح واعتقله السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي قضى على هذا التمرد؛ ثم قطع رأسه وأرسله إلى فاس ليكون عبرة للآخرين. بعد ذلك، عين الباشا العباسي عاملا على الاخماس وغمارة وأمره بالاقامة بالشاون. [أنظر الاستقصا؛ الجزء الرابع، ص. 94].

---

[26]يدعو الخمسيون أبناء هذا القسم، بنوع من السخرية، بني سيدار [أبناء القميص القصير]، لأنهم يلبسون أقمصة تغطي نصفهم الأعلى فقط وهو ما يسمح لهم بممارسة عملهم بممارسة عملهم كدباغين دون أن يتسخوا كثيرا.

[27] انظر دراستي حول بني إزگلين، وهران 1895، ص. 38؛ وإلى كلمة تاغردايت.

وفي سنة 1208 هجرية [1793 ميلادية]، تمردت الاخماس بقيادة أحد طلابها وهو محمد بن عبد السلام المعروف بزيطان. وبعث السلطان مولاي سليمان قايد الاخماس الرهيب الغنيمي لمطاردته. ورغم نصائح مساعديه، فإن هذا الأخير قاد حملة بجبال غزاوة، حيث أبيد جنوده عن آخرهم. وعاقبه السلطان على فشله بأن سلمه لأهالي الاخماس الذين كانوا يعانون من اضطهاده لهم. بعد ذلك، أخضع مولاي الطيب، أخ السلطان، القبائل الجبلية المتمردة وهي بني إيدر، بني كرفت والاخماس؛ حينئذ استسلم زيطان؛ وكان ذلك سنة 1794. وسارع السلطان بمنحه قيادة الاخماس، فقبلها في البداية، لكنه تخلى عنها فيما بعد وذهب إلى تطوان، حيث عاش سنواته الأخيرة معززا مكرما. ويحظى حفدته حاليا بالتبجيل من طرف أهالي الاخماس.

[انظر الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 133 و 136].

إضافة إلى المعلومات السابقة حول مدينة الشاون، أرى من المفيد تقديم هذه المعطيات التي وجدتها بكتاب الاستقصا وتحديدا بالجزء الثالث، ص. 19: "فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها. تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله، بناها بنو راشد من شرفاء العلم وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط. ولما توفي مختطها أبو الحسن علي بن موسى بن راشد، بقيت بيد أولاده يتولون رياستها.

قال في المرآة، ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن حاصرها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدي، بجيوش عمه السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله وصاحب شفشاون يومئذ، الأمير الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي الحسن بن موسى بن راشد. فلما اشتد عليه الحصار، خرج فيمن خرج إليه من أهله ووفده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون في مسلك وعر، صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثاني من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة وساروا إلى ترغة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور واستقر الأمير أبو عبد الله بالمدينة المنورة إلى أن مات بها رحمه الله".

قبيلة بني عروس

مولاي عبد السلام بن مشيش أقدس أولياء جبالة:

إن سيد دائرة جبالة وهو مولاي عبد السلام بن مشيش المبجل، يرقد حاليا في مثواه الأخير بأرض بني عروس المقدسة.

ويصعب وصف انبهار الأهالي الجبليين والمغاربة بكل أرجاء الامبراطورية، بهذا الولي وتقديسهم له. فزيارة قبره تدوم طوال السنة؛ وتشبه الأفواج التي تزوره، خصوصا في نصف شعبان[1] تلك التي تحج إلى مدينة "لورد Lourdes" بفرنسا أو إلى كنيسة القديس بطرس بروما [الفاتيكان].

ومن أعلى قمم جبال القبيلة و على أعلى هضبة بالجبل الذي يحمل اسم الولي، توجد شجرة سنديان محاطة بشباك حديدي، تمتد جذورها إلى القبر الذي يرقد فيه "نصف الإله" هذا. ومن هذا الموقع، يبدو المنظر ساحرا. ففي الشمال، تلوح طنجة والمضيق وسبتة وتطوان في الأفق؛ وبالشرق تبرز الشاون؛ وبالجنوب، تظهر أيضا في الأفق، مدن فاس ومكناس وصفرو. وكان الغرب [المغرب] برمته خاضعا للجبل الذي كان مولاي عبد السلام يطل من خلاله على منطقته الجبلية العزيزة التي سترفعه بعد موته، إلى صف الكائنات المقدسة من الدرجة الأولى، إلى حد تفضيله على مؤسس الديانة الإسلامية حيث يردد الأطفال في الكثير من الأحيان، هذا القول المدنس للمقدسات sacrilège وهو: **"مولاي عبد السلام هو اللي خلق الدنيا والدين والنبي الله يرحمه مسكين"**.

إن ديانة محمد (ص) لم تسلم هي أيضا من عمليات التفكيك الداخلي التي حاولت الديانات المنزلة الأخرى مقاومتها، لكن بدون جدوى. فقد عرفت تعدد الفرق وظهر في تاريخها خليفة فاطمي وهو الحاكم بأمر الله، الذي كان يقدس من طرف بعض أفراد الشعب كإله. وقد كان من الحتمي أن تتغلغل طقوس القديسين داخل هذه الديانة التوحيدية المتميزة ببساطتها وبصرامتها وبشاعريتها المحدودة بالمقارنة مع الخيال الجامح لعرق مهووس بالخرافات والعجائب والبطولات الخارقة.

[1] وأيضا يوم عرفات الموافق لتاسع ذي الحجة.

وشكل التقديس الذي أحيط به الرسول نفسه، من طرف أتباعه، بذور التعصب الذي سيقترن لاحقا بالصلحاء بعد موتهم؛ وسيتطور هذا التعصب إلى نوع من التمجيد المبالغ فيه لهؤلاء الصلحاء، من طرف الطبقات الجاهلة في الإسلام. ورغم أن طقوس الأولياء أثرت على التقديس الذي يحظى به ابن عبد الله، إلا أنها لم تنافس الشريعة التي جاء بها؛ بل على العكس، ستغذي لدى المسلمين، الإيمان الأعمى والتعصب اللامحدود والحقد الموجه ضد النصارى واليهود.

وتنظم الزيارات لقبر مولاي عبد السلام في كل مناطق المغرب، حيث يحج آلاف الرجال والنساء والأطفال بعصيهم وملابسهم البسيطة، كي لا يثيروا طمع القبائل التي يعبرونها؛ مفضلين المرور خلال رحلتهم بالقرب من القرى المعروفة بورعها ونزاهتها وكرمها، علما بأنهم يخفون المال تحت أسمالهم البالية، من أجل شراء الماعز والخراف والعجول التي ستذبح قرب ضريح الرجل العظيم.

وفي ذلك اليوم، سيشبع كل الحاضرين وسينالون رضى الله ورضى مولاي عبد السلام، خصوصا وأن بعض القطع النقدية، الذهبية والفضية، ستمنح للعائلات الشريفة المقيمة بالزاوية، غير بعيد عن شجرة السنديان المباركة والمحاطة بالشباك.

ولا يستطيع أحد تقدير الثروات المتراكمة هناك، منذ حوالي سبعة قرون. فهذا الشباك غير المتين، والذي تم إصلاحه مرات عديدة، يسمح من خلال ثقوبه بتسرب الأنفاس اللاهثة للزائرين ولآلاف القطع الذهبية والفضية المتساقطة، منذ ذلك اليوم المأساوي الذي سقط فيه الولي الجبلي العظيم صريع الموت.

ففي صبيحة سنة 1228 ميلادية، وقبل بزوغ الفجر، هوجم الولي الصالح الذي كان يعيش بقمة جبل العلم وقتل بوحشية من طرف أتباع المتنبي الكتامي محمد بن أبي الطواجين. فقد كان تواجد مولاي عبد السلام بنواحي غمارة، مزعجا لهذا الأخير وعائقا أمام الأهالي المترددين بالشمال، لمذهبه الجديد. ولذلك قرر التخلص من الولي بإرسال قتلة للقضاء عليه.

وبعد ارتكاب هؤلاء لجريمتهم، ضلوا الطريق لأن ضبابا كثيفا أثاره الظل المنتقم للشهيد، جعلهم يتيهون ويسقطون في هاوية رهيبة، حيث قضوا نحبهم جميعا.[2]

ودفن جثمان مولاي عبد السلام في مكان اغتياله حيث ظللت قبره شجرة سنديان صغيرة، ستصبح هي العلامة الوحيدة لمرقده.

وبالفعل، فقد عبر الولي عن رغبته في ألا يبنى له أي ضريح كيفما كان نوعه. ومصدر هذه الفكرة المتفردة، هو مقته العميق لكل ما هو مسيحي وحقده الذي سيستثمر بعد موته والذي نتوفر على نماذج منه في تاريخنا القروسطوي. وقد سمعه أتباعه مرات عديدة، يردد قائلا:

- لا أريد أي بناء فوق قبري؛ وبذلك لن يعلم النصارى مكانه ولن يقوم أحدهم بزيارته أو طلب معونتي أو تدنيس مرقدي.

وكان هذا الولي المبجل الذي عاصر الكارثة الرهيبة التي وقعت للمسلمين بالأندلس سنة 1212 ميلادية والمعروفة تحت اسم Las navas de tolosa، قد تنبأ بانهيار القوة الإسلامية بإسبانيا وتخوف من هجوم الأروبيين على بلده.

وتحتفظ الروايات الشعبية التي هي بمثابة تاريخ المستضعفين التي تناقلتها الأجيال العربية كإرث ثمين، ببعض تنبؤات هذا الرجل العظيم. وقد كانت تطوان محط اهتمامه، حيث كان يتخيل استيلاء الجيوش القشتالية على المدينة في المستقبل وإضاعها للمسلمين والتنكيل بهم. وهو ما عبر عنه بقوله: "الصبنيول يدخل تطاون ويربط الخيل في الجوامع ويجعلهم زبابيل ويهلكه الله ويخرج مذلول".

وهناك نبوءة أخرى رهيبة، تثير الخشية والحقد تجاه النصارى، بحيث جاء فيها: "الإفرنجي هو الفرنسيس، يسكن وزان والقصر ويبني المدينة في الخلوط ويجيب الماء من جبل الشاون".

ويعتقد الأهالي أن هذا الاجتياح اللعين سيتم في القرن الرابع عشر الهجري، وهو القرن الذي نعيش فيه الآن؛ وأمامنا 84 سنة أخرى قبل نهايته.

---

[2] انظر، كتاب الاستقصا، المجلد الأول، ص. 210. وقد ذكر المؤلف تاريخين مختلفين لوفاة مولاي عبد السلام وهما: 1225 و 1228. ويبدو التاريخ الثاني أقرب إلى الحقيقة، لأنه يتوافق مع بداية تمرد محمد بن أبي الطواجين؛ وهو ما ذكرناه أثناء حديثنا عن قبيلة كتامة.

فهل ستتحقق نبوءته؟

وهناك أساطير عديدة مقترنة بسيد منطقة جبالة، أستسمحكم بعرض البعض منها.

ـ ميلاد وكرامات مولاي عبد السلام:

في اللحظة التي ولد فيها الطفل بقرية لحصن، ظهر في نور الصباح سرب من النحل وتوجه صوب الجسد الناعم للوليد وحط فوقه، بحيث لم يعد يظهر منه أي شيء تحت هذه الحشرات السوداء ذات الأجنحة المرتعشة. وارتعب الأبوان اللذان اعتقدا بأن الابن سيلتهم من طرف هذه الأخيرة وظلا بعيدين عن طفلهما، خوفا من استثارة النحل. وفجأة ظهر بباب الغرفة، مولاي عبد القادر الجيلاني [الكيلاني] العظيم. (3)

فطمأن الأم وأبعد النحل بهدوء وقبل بخشوع عيني وجبهة وأذني الرضيع، ثم خاطب الحضور بهذه الكلمات المأثورة:

- إن مكاني لم يعد هنا، فقد ولد بالمغرب شخص أعظم مني؛ وهو هذا الطفل المسمى مولاي عبد السلام الذي سيكون مفخرة الإسلام والعالم.

قال ذلك وغادر المكان باتجاه الشرق، تاركا الغرب تحت سيادة منافسه السعيد ومكتفيا بمملكته الشرقية. ومنذ تلك اللحظة، بدأت الكرامات تتكرر وتروى في أغلب سير الصلحاء المسلمين hagiographies، بنفس الصيغة الرتيبة.

وأولى كرامات الولي، هي معرفته بالقرآن دونما حاجة إلى حفظه؛ فما أن فتح فمه للتهجي بالحروف الأولى حتى شرعت الآيات تتلى تباعا، دون توقف ولا خطأ، أمام ذهول الآباء وأصدقاء العائلة والأجانب الذين بدؤوا بتقديسه منذ تلك الفترة.

وكان مولاي عبد السلام آخر مولود ضمن عائلة كثيرة الأطفال. وعندما بلغ سن الخامسة عشر وتحديدا في يوم عرسه، أقبل بعض الجيران وطلبوا من والده سيدي مشيش الموقر، بأن يهبهم أحد أبنائه قائلين بحسرة:

---

(3) وهو الولي الشهير المولود بجيلان [كيلان] غرب بغداد سنة 1078م وتوفي سنة 1167]

- أيها الأب العظيم، إننا نؤدي ثمن ذنوبنا، فأراضينا لم تعد منتجة وأصابها الجذب منذ سنوات عديدة. ولكي نستعيد خصوبتها، يجب أن نجلب إليها أحد حفدة الرسول. فاسمح لأحد أبنائك بمرافقتنا وسيكون سيدنا وحامينا، كما سيجلب لنا الرحمة الإلهية.[4]

وتأثر الأب كثيرا، وإثر ذلك نادى على ابنه الأكبر وسأله:

- يا بني ما هو رد فعلك إزاء من أحسن إليك؟

فأجاب الشاب

- سأحسن إليه
- ومن أساء إليك؟
- سأسيء إليه بدوري.

فعلق الشيخ قائلا:

- حسن، إلي بابن آخر.

وكان الإخوة السبعة أو الثمانية يقدمون نفس الأجوبة على أسئلة أبيهم إلى أن جاء دور أصغرهم فسأله:

- وأنت يا عبد السلام، ما هو رد فعلك إزاء من أحسن إليك؟
- سأحسن إليه.
- ومن أساء إليك؟
- سأقابل إساءته بالخير. والله شاهد علي كلما أنه أسيء إلي، كلما صدر عني عمل خيري.

وأضاف مبتسما:

- بهذه الطريقة، سيحبني كل أعدائي وسيطيعونني.

وهذه كلمات عميقة ورائعة، يمتزج فيها حب الناس بالحسابات النفعية. فمنذ فجر حياته، رسم عبد السلام الخط الذي سيتبعه والذي لن يحيد عنه، معلنا عن شخصية الولي والسياسي الذكي والرجل ذي الأفكار النيرة.

إثر ذلك، خاطب الأب ضيوفه قائلا:

---

[4] تروى أسطورة مشابهة، بخصوص وصول الشرفاء الحسانيين والسعديين إلى المغرب.

- هذا هو الابن الذي يصلح لكم وسيرافقكم في الغد؛ ثم أضاف:

- نعطيكم بني عروس [أهديكم ابني العريس].

وهذا اللعب بالكلمات، هو الذي سيصبح فيما بعد اسما للجماعة المجاورة التي تعيش وسطها، طائفة من السفلة والأوغاد، قدمت من كل حذب وصوب. ففي فترة معينة، استقر هؤلاء الأنذال بغرب الاخماس، بالمنطقة التي سميت بني عروس. وكانوا يكسبون عيشهم من السرقة وارتكاب الجرائم الفظيعة؛ وكان يتوافد عليهم كل الأوغاد الذين لفظتهم المناطق المجاورة.

ولم يتردد عبد السلام لحظة، في قيادة هؤلاء اللصوص، وقد عقد العزم على أن يجعل منهم شعبا ورعا؛ وهو ما تأكد في المستقبل. وبعد إتمام حفل الزواج، رحل في الغد محاطا بأصدقائه الجدد مرفوقا بزوجته التي ترفل في ملابسها البيضاء المطرزة بخيوط الذهب والفضة. وكان يقود القافلة بنفسه؛ وقد وضع نصب عينيه، جبل العلم كهدف نهائي لرحلته. ذلك أن هذا الجبل كل يسحره ويثيره بشكل لا يقاوم؛ وفضلا عن المنظر الشامل الذي يقدمه من أعلى قمته، فإنه كان ملاذا رائعا وهادئا بالنسبة للزوجين الشابين، بغاباته ومسالكه الرائعة التي تسمح لهما باجتيازها بعيدا عن أعين الفضوليين. وبالنسبة لإنسان طموح مثل مولاي عبد السلام، فإن قمة جبل العلم ستكون المقام الأنسب ومنطلق مجده القادم؛ إنها بمعنى من المعاني، أول درجة في السلم العظيم الذي سيرفعه إلى أعالي السماء.

هكذا، ستصبح قبيلة بني عروس الجديدة، التي تحولت من الفسق المطلق إلى الورع التام، قبلة للزوار الذين سيصعدون الجبل للتبرك بمولاي عبد السلام. وكان الولي يستقبلهم بود ويتنبأ لهم بالمستقبل وينجز عدة كرامات أعفي القارئ من ذكرها. لكن ليسمح لي مع ذلك، بسرد كرامتين أساسيتين لهذا الرجل الصالح، تعكسان العقلية الماضية والحاضرة لشعب سريع التصديق وثابت في إيمانه، بحيث لن تنزع عنه القرون اللاحقة، إيمانه القوي، المتجذر في النفوس.

ففي ظهيرة أحد أيام دجنبر الباردة، صعد ثلاثة طلبة قادمين من تطوان، منحدر جبل العلم. وكان الولي الصالح ينتظرهم وسط الضباب، واستقبلهم ببساطته المعهودة وطيبوبته ولباقته الرائعة. وبعد قضائهم ثلاثة أيام بجواره، سألهم عن طلباتهم، فقال الأول:

- أريد "زردة" [وليمة].

وقال الثاني:

- أريد العلم.

وقال الثالث:

-أريد الثروة.

فرد عليهم مولاي عبد السلام قائلا:

- انهضوا يا أبنائي، فستلبى طلباتكم إن شاء الله؛ ورجع الثلاثة إلى تطوان. فأما الذي رغب في العلم، فقد تحققت رغبته في أقل من سنة، حيث أصبح من أكبر علماء عصره. وأما صاحب "الزردة"، فظل يتنقل بين المساجد و لا يتلقى لسوء حظه إلا القليل من الطعام. وبالنسبة لمحب الثروات، فقد مارس مختلف المهن الصعبة، معتقدا بان الولي سيأخذ مجهوداته بعين الاعتبار. وفي إحدى الأمسيات، اقترب منه شحاذ بأسمال بالية وسأله إن كان يرغب في العمل معه، فأجابه الآخر:

- نعم، أنا مستعد.

وحدد الرجلان موعدا في اليوم الموالي بالمسجد، قبل شروق الشمس. وفي الوقت المحدد وصل الشحاذ وأخبر الرجل بأنه سيعصب عينيه قبل أن يرافقه إلى منزله.وبأن العملية ستستمر بهذا الشكل يوميا، حيث سيأخذه من باب المسجد صباحا ويرجعه إلى نفس المكان مساء، وهو معصوب العينين طبعا.

وبعد الاتفاق على هذه الشروط، سار الرجلان عبر الأزقة المنعرجة إلى أن بلغا باب منزل، دخلاه بسهولة. وعندما اجتازا عتبة الباب، أزال الشحاذ العصابة عن عيني الرجل، اللتين أبصرتا مع النور الأول للصباح، حوضا كبيرا مليئا بالقطع الذهبية والفضية؛ وبالقرب منه تسعة تيوس سوداء تنظر إليه وتعطس وتضرب الأرض بقوائمها. وخاطب الشحاذ المزعوم الرجل المنذهل قائلا:

- عليك بأن تقوم بما يلي: ستدخل هذه التيوس التسعة إلى الحوض وستجبرها طول النهار على دعس هذه القطع الذهبية والفضية، لأنني أريد أن يظل كنزي الغالي دائم الحركة !

وأضاف هذا الشحاذ الغريب قائلا:

- لقد توفي الشخص الذي كان يشتغل قبلك، في الليلة قبل الماضية؛ وكان مكلفا على مدى عشر سنوات بتشغيل هذه الحيوانات ذات القرون، مستعملا سوطه لجعلها تمر فوق هذا الركام من الذهب والفضة. وإذا أديت عملك كما يجب، فستكون أنت من يعوضه.

كان هذا البخيل يخشى من رؤية قطعه النقدية وقد فقدت بريقها ولمعانها، لذلك كان يقضي الساعات وهو يتابع حركات الحيوانات التي تغوص قوائمها داخل الركام المعدني. وبدأت عملية الدعس، بحيث كان الرجل يجري حول الحوض مفرقعا سوطه فوق رؤوس التيوس التسعة. وكان الركض على أشده وبلا توقف، باستثناء ساعة الظهيرة التي يتوقف فيها الجميع لتناول وجبة الطعام المتواضعة التي يقدمها هذا الثري البخيل Harpagon.

واستمر هذا العمل الشاق مدة طويلة. وكان الرجل يتلقى عنه أجرا محترما كتعويض عما يبذله من مجهودات. غير أن الفكرة التي كانت تشغل باله، هي معرفة المنزل الذي يوجد به حوض الذهب والفضة. وقد استمر في مزاولة عمله رغم الإرهاق، طاردا من ذهنه الفكرة الرهيبة التي مفادها أن مشغله سيقضي عليه مثلما قضى على سابقه.

وفي يوم من الأيام، تفتق ذهنه عن فكرة مذهلة. فخلال غياب البخيل، أوقف التيوس وجلب قصبة طويلة وربط برأسها منديلا أحمر، ثم وضع القصبة خارج سور المنزل؛ وفرقع سوطه من جديد، معلنا عن بداية ركض الحيوانات عبر أمواج الذهب والفضة.

وفي الغد، اختبأ بقمة صومعة، مفضلا عدم الذهاب إلى العمل ومنتظرا الأشعة الأولى للشمس، للتعرف على المنزل. وعندما أشرقت الشمس على المدينة النائمة، تمكن الرجل من رؤية المنديل الأحمر مرفرفا وسط العديد من المنازل. وتمكن من ضبط مكان المنزل الذي اشتغل فيه بكد، ثم نزل من الصومعة وتوجه صوب المنزل متسائلا بقلق، عما إذا لم يكن البخيل قد اكتشف المنديل وأزاله من مكانه. غير أن شيئا من هذا لم يحدث، فقد ظلت القصبة ثابتة في موضعها وبقي المنديل يرفرف بقوة. وتأثر الرجل بالمشهد، ففي هذا المنزل بالذات، بدل مجهودات كبيرة، ولربما ستتحقق فيه أيضا نبوءة الولي العظيم.

وحدث أن مشغله مرض في ذلك المساء وقضى نحبه يومين بعد ذلك، دون أن يترك ورثة وراءه. وكما اقتضت العادة، أخذ القاضي باسم السلطة المحلية، مفاتيح المنزل دون تفتيشه؛ وتمكن صاحبنا من شرائه بثمن بخس.

هكذا، حصل الرجل السعيد على الكنز وشيد قصرا رائعا وتزوج بأربع نساء، هن من أجمل فتيات تطوان؛ ثم استدعى صديقه القديم، صاحب "الزردة" وخاطبه قائلا:

- يا عزيزي، لقد جاء موعد "زردتك". سترى بأن مولاي عبد السلام قد حقق ما وعدنا به معا.

وبالمنزل، كانت تنتظرهم مأدبة فاخرة. وشرع الصديق الجائع في التهام مختلف الأنواع المعروضة. وحينما امتلأ بطنه، توقف وحمد الله وتجشأ مرات عديدة.

وطلب منه مضيفه الاستمرار في الأكل، فأعاد الكرة من جديد، لكنه توقف بعد أن بلغ حد الاختناق. فألح عليه صاحب القصر بالزيادة في الأكل قائلا:

- كل، كل.

غير أن الضيف الذي لم يعد يقوى على الكلام حتى، أجابه بصعوبة:

- باركة علي [يكفيني].

عندئذ صاح المضيف بسخرية:

- لكم أنت ساذج ! ها قد انتهت "الزردة" ولن تتكرر. أما أنا فقد طلبت الثروة ويمكنني أن أستمتع كل يوم بأفخر الأطعمة. وعليك أن تعلم أيها الأبله، أننا إذا طلبنا شيئا من الله فيجب ألا يكون طلبا محدودا.

- موت مولاي عبد السلام وآخر كرامة من كراماته:

حسب الرواية الشعبية، فإن المتنبي بو الطواجين هو الذي ذبح بنفسه ولي جبالة العظيم.[5]

فقد تسلق هذا الملعون الجبل محاطا بعصابته وفاجأ أهل الزاوية الذين فروا مرتعبين. وبقي السيد وحيدا أمام قاتليه. وفي تلك اللحظة نزل ملاك من السماء وخاطب الولي:

- هل تريد مني أن أقضي عليهم؟ إن ربك يضعك أمام خيارين: فإما أن تموت شهيدا أو تعيش مدة أطول.

فأجاب الرجل الصالح وهو يبعد الرسول السماوي بهدوء:

- كلا، فما دامت ساعتي قد حانت، فإنني لن أؤخرها لحظة. ابتعد عن هذا المكان ليتقبل الله دمي المسفوح.

---

[5] تختلف الأسطورة بعض الشيء هنا، عن الرواية التاريخية كما عرضنا لها في الصفات السابقة.

وغطي الملاك وجهه كي لا يكون شاهدا على الجريمة الرهيبة وبقي مسافة قريبة من الولي مستعدا لنجدته إذا ما طلب منه ذلك.

لكن مولاي عبد السلام كان مستعدا للموت شهيدا. وكان غارقا في تأملاته وسبحته بيده. فهل كان يستعيد مرحلة طفولته؟ أم هل كان يتخيل الجزاء الذي وعدت به الكتب المقدسة، كل مطيع للباري عز وجل؟

وفي تلك اللحظة، مد بو الطواجين يده الآثمة على الضحية العظيمة؛ وحاول في البداية ذبحه بخنجره، وهو سلاح رهيب وحاد مثل الموسى، لكن الشفرة الحادة انزلقت فوق عنق الشهيد دون أن تجرحه. ولم يهتم القاتل بهذه الكرامة فأعاد الكرة من جديد، جاثما بكل قواه فوق الضحية لإدخال الأداة القاطعة في عنق الرجل الذي يمقته لأنه أحبط كل مساعيه النبوية المزعومة. لكن كل محاولاته باءت بالفشل ولم ينفع معها استعمال السيف والسكين. وأشفق مولاي عبد السلام على عجز بو الطواجين التعيس، فناوله سكينه الصغير قائلا:

- خذ واذبحني بهذه السكين، لأن أداتك لن تجرحني أبدا.

فأخذها بو الطواجين وغرزها عن آخرها في عنق الرجل الصالح. وفجأة عبرت الطبيعة برمتها عن ألمها، حيث احتجبت الشمس وانتشر الظلام في كل مكان، فوق الأرض والأشجار والصخور. وفر القاتل وجماعته متبوعين بالرعود والبروق والعواصف وتاهوا في الطريق إلى أن سقطوا في هاوية عميقة.

ومنذ تلك اللحظة الرهيبة أصبحت كل النباتات والأشجار وكل ما ينبت على منحدرات الجبل الشهير تنحني باتجاه القمة التي يرقد فيها جثمان هذا الرجل المعظم.

والغريب في الأمر، أن الجبليين المؤمنين يتخيلون، بل هم متيقنون من رؤية هذه المعجزة الخالدة ويؤكدون لي جميعهم ذلك قائلين:

- آه لو تمكنت من رؤية ما رأيناه، حيث تنحني كل نباتات جبل مولاي عبد السلام باتجاه قبره، من أشجار وأزهار، لكنت قد اندهشت أمام هذه المعجزة التي تشهد إلى آخر الزمن، على عظمة سيد جبالة وعلى روعة الإسلام !

أما حفدة بو الطواجين التعساء، فقد عزلوا في منطقة ببني حسان، حيث مازالوا إلى حد الساعة عرضة لاحتقار ولعنات ملايين المتعصبين. وهم فلاحون مسالمون، غير أنهم يؤدون

ثمن غلطة جدهم الذي تتفق الأسطورة والتاريخ على تقديمه كأرذل البشر وكملعون وكوحش دنيء ومتنبي وكافر. ورغم كل ادعاءات أعدائه، يجب علينا الإقرار بأن هذا المارق الصلب لم يكن شخصا عاديا، فقد تمكن من خلخلة مبادئ الشريعة الإسلامية في جزء كبير من المغرب الشمالي ومن إخضاع الأهالي الأشداء بالريف وجبالة لسلطته. ولم يفكر أي كاتب معاصر ومحايد ولا أي مفكر في المجال الفلسفي، في كتابة السيرة الذاتية لهذا الشخص "المجدد". وحتى لو كتب هذه السيرة، فهل كانت ستصل بين أيدينا؟ ألن يتم تدميرها كما حدث لكل الوثائق التي تستفز الإيمان الشديد للمسلمين المتعصبين؟

ولن يكفي لتر من المداد لتسجيل كل ادعاءات المغاربة المتعلقة بحفدة بو الطواجين السيئ الحظ. فقد اتهموا بأسوأ الرذائل ويشاع بأن لا واحدا منهم بقادر على صعود جبل مولاي عبد السلام. لماذا؟ لأن الصاعقة ستوقف كل من تجرأ منهم على الصعود. وأعتقد بأن هؤلاء المساكين يحجمون عن زيارة الولي الذي لم يكن يعزهم، مخافة أن ينالهم مكروه من أعدائهم الشرسين. وقال لي الجبلي الذي أخبرني بهذه التفاصيل:

- ستتعرف عليهم بسهولة، لأن ساقهم اليمنى إما أقصر أو أضخم من اليسرى؛ كما أن الذكور لا يتوفرون ولو على شعرة بأجسادهم وهم ذميمون ومشوهون difformes ووجههم أمرد وأصفر اللون وأعضاؤهم نحيلة. ومن الأفضل ألا تشاهد هذه المخلوقات المنفرة والنحيلة والمنبوذة، لأن لعنة مولاي عبد السلام مسلطة عليهم إلى الأبد.

وجوابي على هذا المتعصب الدموي الذي يقدس سيدا قاسيا وغيورا، هو أن لعنة السيد ستزول عن ضحايا هاته الخرافة البليدة عندما يظهر التسامح الديني في مملكة الشرفاء، هذا البلد الذي يعتبر حاليا معسكرا لكل أشكال الجهل والتعصب. وإذا كان كل المغاربة يقدسون عموما، مولاي عبد السلام فما هي الشعائر التي يقيمها الجبليون وبالخصوص سكان الشاون؟ فمنذ زمن طويل، يقيم هؤلاء على شرف سيدهم، مواكب يدعونها "زيارة سبعة رجال" ونقترح تسميتها زيارة الشاونيين الكبرى لقبور سبعة رجال؛ وهي تتم كل سنة، ثلاثة أيام بعد عيد المولد النبوي، حيث تكثر الحركة بالشاون وبداخل كل المنازل. ففي كل أسرة تقريبا، يوجد فرد على الأقل يتهيأ لمرافقة الموكب الضخم. ويطوف "البراح" بالأزقة صائحا:

- يا من بغى يعطي الزيارة لسبعة رجال [والمقصود بهم مولاي عبد السلام وأبوه وإخوته].

هكذا، تجوب وفود من الشباب أزقة المدينة لجمع تبرعات المحسنين من ملابس ونقود وحبوب؛ بعد ذلك، يقدم ما تم جمعه للهيئة المشرفة على العملية، التي تتكلف بشراء العجول المقرر ذبحها على شرف الولي، ويتراوح عددها ما بين 30 و 50 بحسب المبلغ الذي تم تحصيله.

وتشتهر الشاون بهذا الكرم وتفتخر به، وهي لا تقدم ببني عروس، منذ قرون، سوى الأضحيات ذات الحجم الضخم. ولم تفكر أبدا في الخراف أو النعاج؛ فهذه الحيوانات الصغيرة لا تصلح إلا للأولياء من الدرجة الثانية ! وبعد شراء العجول، يرسل كل مركز إلى الساحة الكبيرة المعروفة باسم "أوطا الحمام" تجريدته العسكرية بكامل عدتها؛ ويبلغ عددها ما بين ألفين وثلاثة آلاف رجل، يرافقون الموكب، ولا يقبل وجود النساء ضمن هذا الأخير.

وفجأة، تعلن الطلقات النارية انطلاق الموكب وتمتلئ أزقة الشاون وسطوحها بالمتفرجين الذين يتابعون المشهد. هكذا، يتقدم حاملو الرايات رافعين رؤوسهم وممسكين بعصي الأعلام المزينة بهلال ذهبي. وتوجد خلفهم جوقة تعزف بالمزامير وتدق الطبول وتحدث جلبة تسمع في أبعد المساكن وتوقظ العجزة والمرضى المتسمرين في أفرشتهم والمتأسفين على عدم تمكنهم من مشاركة الآخرين، متعة متابعة موسم الزيارة السنوية. ووراء الجوقة، تتحرك البغال المحملة بالخيام والبارود والرصاصات والملابس والزرابي والمؤونة؛ وبجانبها العجول التي سيتم ذبحها. وتأتي بعد ذلك حشود الزوار، المكونة من رجال أشداء مسلحين يشبهون مسيحيي هذه الأيام في شيء واحد، وهو تعصبهم الأعمى.

وفي المساء الأول، يعسكر الموكب بالعشايش، وهي قرية خماسية محاذية لبني جافن. وعند الصباح يصعد الجميع جبل مولاي عبد السلام ويتم تشكيل دائرة حول السور الذي هو بمثابة حاجز موضوع بقبر الولي المحبوب.

ويتدافع الزوار للمس أعمدة الحاجز الحديدي الشهير والنافذة الوحيدة التي تسمح برؤية قاعدة شجرة السنديان الممتدة جذورها داخل قبر الولي. وفجأة تسمع آلاف الطلقات النارية التي يرتج لها المكان ويصل صداها، حسب ما قيل لي، إلى طنجة والقصر الكبير والعرائش وأصيلا. وتستمر هذه الجلبة الرهيبة لأكثر من ساعتين، مما يجعل مرقد الولي محاطا بدخان كثيف. بعد ذلك، تقدم الهدايا لحفدة مولاي عبد السلام وهم الشرفاء المتواجدون بالزاوية لهذا

الغرض. وقد يهب لهم المحسنون ستة أو سبعة عجول، تذبح على الفورمن طرف هؤلاء الشرفاء في عين المكان. ويحيط بهم الشاونيون، منتظرين بشوق اللحظة التي ستمر فيها السكين على عنق الضحية، للتأكد عما إذا كان الدم سينضح بقوة؛ لأن القربان hostie لا يقبل من طرف الولي وبالتالي من طرف الإله، إلا إذا تدفق الدم بكثرة من الجرح، آنذاكؤيفرح صاحب العجل، معتقدا بانه سينال أجرا عظيما من جراء هذه العملية. وتشبه هذه الشعائر ما نراه عند اليهود، بل هي مستمدة منهم. فخلال هذه العملية المقرفة، لا يسمح بأكل لحم الضحية إلا لمن ذبحها ولأصدقائه الفقراء والأغنياء؛ اما من وهبها فلا يمكنه التذوق من لحمها، لأن رجال الدين أقنعوه بأنه لن ينال أجر إذا ما شاركهم في وليمتهم.

وغير بعيد عن القبر، تنصب الخيام التي لا تتجاوز عتبة ما يعرف بالحرم؛ وهو المكان المقدس المخصوص للولي. وخلال الليل، تقام الاحتفالات المختلفة من طلقات نارية ورقصات ومآدب وأنهار من الشاي تجري بالكؤوس والفناجين. ويستغل القائمون على الزاوية الفرصة، للظهور وسط المحتفلين، من أجل تدعيم المعتقدات الخرافية للزوار. لأنه لو ضعف معتقد هؤلاء البسطاء وزال تعصبهم، لتحل محله معرفة عقلية وذكية بمبادئ القرآن، لكان هؤلاء الشرفاء من أول الخاسرين.

لكن، لا يمكن للقرآن وحده أن يحل هذه المعضلة، لأنه يتضمن عناصر تم استغلالها من طرف المتعصبين. أفلا ينطوي مثل الكتب المقدسة الأخرى، على بذور تقديس الإنسان كتجسيد لحكمة إلهية؟

ألا يبدو خالق هذا الكون أحيانا، وكأنه يطالب بدم الأضحية، سواء كانت الضحية كائنا عاقلا أو حيوانا؟[6]

---

[6] انظر القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية2؛ سورة الحج، الآيتان 34 و 35، سورة البقرة الآيات 186، 187، 189، 212، 215؛ سورة النساء، الآية 76؛ سورة التوبة، الآيات 36، 38، 40، 52؛ سورة محمد، الآيات 5، 37، 39؛ سورة الفتح، الآية 25.

انظر أيضا، العهد القديم، أعداد، الفصل 15، الآيتان 3 و 35 الخ...

ملحوظة المترجم، هناك -أمران يجب التنبيه إليهما:

1) إن بعض الآيات التي يحيل عليها موليراس لا تتناسب مع سياق الموضوع ا لذي هو بصدده.

2) إن تأويل النص القرآني يخضع عنده لأحكام مسبقة، لعل من أبرزها كون هذا النص هو مجرد نسخ لما ورد في التوراة والإنجيل؛ لذلك يجب التعامل مع هذا التأويل بحذر.

وأنا أرى الدم متدفقا في كل مكان، داخل الديانات المنزلة الثلاث. فالنزاع كان هو منطلقها والتعطش للدماء كان أساس وجودها؛ وتاريخها مليئ بالسيوف وبالمحرقات. فيا أيها المتعصبون الممقوتون، ما هو السبب الرئيسي لغيظكم؟ ففي الكتابات اليهودية، يظهر أدوناي Adonaï كجزار بشع وكمتعطش للدماء لا يرتوي، حيث يشجع ويمارس بنفسه أفظع المجازر.[7] وقد أصيبت المسيحية، البنت البكر لليهودية، بدورها بالجنون؛ وتركت في التاريخ الآثار الدموية لفرقها المتناحرة ولحروبها الصليبية ولمحاكمها التفتيشية.

وقد كانت الديانة الإسلامية، البنت الأصغر لديانة موسى، متسامحة في البداية، لكنها اقتنعت فيما بعد بضرورة القضاء على معارضيها. وأعلن الجهاد سنة 624 ميلادية، بضعة أيام قبل غزوة بدر الكبرى، ودافع الرسول المحارب عن رسالته، حاملا سيفه بيده. ومنذ ذلك الحين، لم يعد سيف المسلم إلى غمده. هكذا، سيصدم في الغرب بسيوف رفاق شارل مارتل Ch. Martel ويتابع التدمير في أقصى العالم القديم، إلى حدود نهر الهندوس.[8]

واليوم، يبدو أن مرحلة الغزو الدموي قد انتهت، فهي تمر بفترة توقف وسكون، لكن علينا ألا نعتقد بأنها تحطمت. فهي ما زالت ترتعش ويمكن أن تنتصب مهددة من جديد، حالما تشرع الأمم المسيحية في الاهتمام بمسألة الشرق. وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها، فإن الأمم الإسلامية ترقص فرحا، عند إعلان آخر الانتصارات العثمانية. ويبين المسلمون الذين باستطاعتهم قراءة صحفنا، لإخوانهم في الدين، صور مسرح المعارك بين اليونانيين والأتراك وأجساد اليونانيين المثقوبة بالرصاص، مضيفين تعليقاتهم عليها. وهم ينتشون بمشهد الجنود العثمانيين وهم ينقضون على النصارى. فيا لجرأة هؤلاء المؤمنين ! أنظر إليهم وهم يتحركون بجيادهم ومدافعهم من أجل ارتكاب المزيد من المجازر.

كان الليل يمضي بسرعة بينما كان الرواة المتحلقون حول قبر مولاي عبد السلام، يحكون لسامعيهم المنتشين، قصصا عن الملحمة الإسلامية المؤثرة. وعند بزوغ الفجر، توضأ الجميع وأقاموا الصلاة للمرة الأخيرة بهذا المكان المقدس، قبل أن يتابعوا رحلتهم. وتم تحميل

---

[7] لكون المقام لا يسمح بذكر واحد من ألف، من الأهوال المذكورة في العهد القديم، فإنني أدعو القارئ لفتح هذا الكتاب في أية صفحة وقراءتها. ومن المؤكد أن النفوس الأكثر قساوة ستثور ضد هذه الفظائع التي يعتبرها ملايين الأشخاص الذين يعتقدون بأنهم متنورون، كحكمة صادرة عن جلاد أسمى.

[8] حركة محمد بن قاسم بالسند، سنة 711 ميلادية.

البغال من جديد ووضعها على رأس الموكب ووراءها العجول التي ظلت تخور طوال الليل، منزعجة بتغيير المكان ومستنشقة للهواء الممزوج برائحة الدماء؛ ومما زاد من انزعاجها، ضجيج الجوقة الذي لم يتوقف. ونزلت هذه الحيوانات المنحدر، هاربة من المكان الذي ذبحت فيه بعض العجول المرافقة لها.

لكن، لنترك أكثر الزوار خفة ونشاطا، يطاردون العجول الهاربة ولنحط الرحال مع أغلب أفراد الموكب بقرية تازغوت قرب منبع واد السطح. فهناك يوجد العديد من أضرحة أولياء الله وحفدة مولاي عبد السلام الشرفاء. ونذكر منها، ضريح سيدي مزوار، جد الشرفاء العلميين بوزان؛ زاوية وقبر سيدي علي بريسول الذي ينتمي إلى عائلة مبجلة من طرف الأهالي. ويقوم حفدة هذين الصالحين بذبح وأكل العجول المهداة إليهم مع باقي الهبات الأخرى.

وسيغادر الموكب تازغوت في اليوم الرابع، ليحط الرحال بسيدي موسى، حيث ستتم زيارة قبره وتقديم الأضحية لشرفاء الزاوية. وفي نفس اليوم، ستنظم زيارة لقرية سيدي مشيش حيث يرقد جثمان أب مولاي عبد السلام. وبعد الصلاة وذبح الأضاحي وتقديم الهدايا، ستتوجه الجموع إلى قرية سيدي سلام، جد الولي وستزور قبره قبل أن تتابع طريقها باتجاه سيدي هدي من أجل تناول طعام الغذاء والاستراحة. وهناك، سيقوم هداوة المرحون الذين يعلمون مسبقا بأن الزوار سيهبونهم عجلا أو عجلين، برقصات جنونية على أنغام موسيقى غريبة وسيسمحون لهؤلاء الزوار بمشاركتهم تدخين الكيف وأكل معجون الحشيش. وعند الثالثة بعد الظهر ستغادر الجماعة سيدي هدي لكي تصل قبل حلول الظلام، إلى قبر سيدي بوكير[9]، قرب قرية عين الحديد الكبيرة، حيث تنتظر مجموعة من الرجال والنساء والأطفال قدوم هؤلاء الشاونيين.

---

[9] سيدي بوكير هو جد مولاي عبد السلام لأبيه. وعند مراجعتي لكتاب الاستقصا، الجزء الأول، ص. 210، لاحظت باندهاش ما يلي: فإما أن هذا الكاتب المغربي قد اختلط عليه الأمر فاستعمل اسم بوكير بدل بوبكر؛ وإما أن الشعب قد أخطأ عندما سمى جد مولاي عبد السلام بهذا الاسم. فمن الذي على حق؟ ومن هو المخطئ؟ وهل اسم بوكير هو فقط تحويل لاسم بوبكر؟ إنه أمر ممكن، وفي جميع الأحوال، أقدم هنا شجرة نسب سيد جبالة كما وجدتها لدى مؤرخنا المغربي. فهو عبد السلام بن مشيش بن بوبكر بن علي بن حرمة بن عيسى، بن سلام بن مزوار [القديم بالأمازيغية] بن حيدرة واسمه الحقيقي علي بن محمد بن با دريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن الثاني le second بن الحسن [وأمه هي فاطمة بنت الرسول] بن علي بن أبي طالب.

وبالفعل سيصل هؤلاء إلى القرية، تسبقهم أعلامهم وأصوات المزامير والطبول وسيستقبلون بحفاوة من طرف الأهالي. وفي هذا المكان، سيمكث الموكب يومين أو ثلاثة أيام، تقام فيها الاحتفالات والألعاب البهلوانية والمعارك المتنوعة. ويشارك كل أهالي بني عروس تقريبا في هذا الحفل؛ بل إن القبائل المجاورة ستحضر للمساهمة في المسابقات والمعارك التي تتطلب المهارة والجرأة والخفة وهي مواصفات يستحسنها الجمهور بكثرة.

ويمكن بدون مبالغة، تقدير عدد المشاركين في هذا الحفل بحوالي 30 ألف شخص من كل الأعمار ومن الجنسين؛ وهو حفل استعراضي تجري فيه مسابقات الرماية والمسايفة والجري وينال المنتصرون فيه المجد، في حين تتلقى الأغلبية الفشل الذريع. ويتبارز الرجال بالسيوف بشكل عنيف وكأن بعضهم يسعى إلى إبادة البعض الآخر؛ وهذا شيء مغاير لما نعرفه عن المسايفة. ورغم أن القاعدة تقتضي عدم قتل الخصم، إلا أن المنهزم غالبا ما ينسحب من هذا اللعب الخطير وهو مثخن بالجراح. وعندما تسيل دماء بعض المتبارزين، تراهم يركضون باتجاه المنبع المائي المجاور حيث يغطسون فيه رؤوسهم المدماة؛ وتسمع بين صفوف المتفرجين كلمة: لاباس، لاباس.

وعلى بعد مائة خطوة من هذا المشهد، يتصارع التلاميذ والطلبة بالعصي، لكن بطريقة منظمة، بحيث لا توجه الضربات إلا لأماكن معينة بالجسد، تؤدي إصابتها إ لى شعور الشخص بآلام بليغة مع ذلك.

وبالتدريج، يبدأ الملل دبيبه وسط الحشود؛ ويقل اهتمام المتفرجين بصليل السيوف أو اصطدام العصي. آنذاك، يتم تقديم عرض آخر، أكثر إثارة. ففي تلك اللحظة تسمع طلقات نارية ويهرع الجمهور إلى مصدرها. وهناك بساحة فسيحة يوجد أحد الرماة البارعين، رافعا ذراعيه وممسكا بقطعة معدنية براقة بين أصابعه وصائحا في الحشود:

- من منكم يريد إمساك هذه القطعة النقدية، بين الإبهام والسبابة؟

فتتعالى الأصوات: أنا ! أنا !

ويقترب أصحابها من شيخ القبيلة متوسلين إليه لاختيار أحدهم. هكذا، سيبتعد الرجل الذي تم اختياره بعشرة أمتار وسيرفع ذراعيه دون خوف وسيمعن النظر في فوهة البندقية ا لمصوبة

على القطعة النقدية التي سيحاول إبرازها بين أصبعه قدر الإمكان. وتسمع الطلقة فتحمل معها القطعة التي تسقط بعيدا وتختفي في التراب.

وإليكم الآن، عملية الطلقة المزدوجة ! انظروا إلى هذا الرجل الممتد على بطنه والحامل لبندقية في كل يد. إنه سيطلق النار على برتقالتين موضوعتين فوق صخرة كبيرة. وهو يبدو الآن نائما، لكن صوت الشيخ سيوقظه فجأة، وسيطلق من وضعيته رصاصتين، ثم سينهض بعد ذلك وسيتأكد ما إذا كانت البرتقالتان ما تزالان في مكانهما؛ والحال أن أثرهما اختفى. ويصيح الجمهور فرحا بهذا الانتصار، كما تعزف الجوقة موسيقى صاخبة وتطلق النساء زغاريد حادة؛ اما البطل فإنه يستمتع بهذا المجد الذي حققه والذي سيظل مقترنا به دوما، حسب اعتقاده.

لكن، في حالة الفشل، فإن الرجل يقابل بالصفير والسخرية اللاذعة، فيضطر وقد تملكه الغيظ، إلى الاختفاء وسط ذويه، محاولا البحث عن مبررات مقنعة لهذا الفشل.

وفي سنة 1890، أنهى أحد الرماة البارعين الذي يمكن نعته بغيوم طيل جبالة Guillaume Tell، مسيرته المجيدة بقبيلته الأصلية، بني مساور، حيث كان يعتبر أستاذ الرماية بدون منازع. وكان معروفا بلقب بولخراص، لأنه كان لا يجد صعوبة في إزالة القطع النقدية المثبتة بخيط، بأذني أخيه الأكبر؛ وذلك بطلقات نارية من بندقيته. وتعتبر لعبة الكرة هي اللعبة المفضلة للطلبة؛ وتجري أمام جمهور من المتفرجين. وطبعا فإن الرجال والشباب المتعودين على هذه اللعبة، هم وحدهم القادرون على ممارستها أمام الجمهور الساخر؛ لأن الأخطاء تكون كثيرة أثناء اللعب. وإليكم بيان ذلك. تكون الكرة المملوءة بالصوف وبالخرق أو بالحلفة، محاطة بجلد ناعم وتخترقها إبرة كبيرة تتجاوز الدائرة من الجهتين بحوالي عشرين سنتمترا. وهذه الإبرة الرهيبة يمكنها إذا ما سقطت من علو معين أن تثقب الأيادي غير الماهرة والرؤوس الطائشة.

هكذا، تتكون فرقتان وتحدد القرعة الفرقة البادئة باللعب. وفي المكان الفارغ بين الفرقتين، يظهر لاعب بسروال قصير وبجذع عار ينتظر الكرة التي سيقذفها أحد رفاقه. وما أن ترتفع الكرة إلى أعلى متبعة مسارها باتجاهه، حتى يقوم بحركات بهلوانية، حيث يستلقي على الأرض ثم ينهض بسرعة؛ وعندما تكون الكرة في متناول يديه، فإنه ينزع عنها الإبرة

الكبيرة، دون إيقاف حركتها أو لمسها. وتسقط الكرة على الأرض، ثم ترتفع ثانية، وهي اللحظة التي يختارها اللاعب، كي يقذفها برجله في اتجاه رفاقه. ويلقفها هؤلاء، ثم يعيدون الإبرة إلى مكانها ويقذفونها صوب لاعب آخر وهكذا دواليك؛ إلى أن يتم ارتكاب الخطأ، فتنتقل الكرة إلى الفريق الخصم الذي سيصبح فاعلا بعد أن كان متفرجا.

وتقتضي العادة التي هي أقوى من القوانين، بألا يمارس الأميون هذه اللعبة. ولا يشعر هؤلاء بأي حرج جراء هذا التمييز البليد، لأنهم يكنون احتراما ساذجا لعلم الطالب المزعوم. وهم يكتفون بألعاب العصا والسيف والمبارزة بالأرجل [وتدعى الرحبة]. وهذه اللعبة الأخيرة خطيرة، لأنها تتمثل في ركل الخصم جهة الضلوع والظهر وخصوصا الرقبة. هكذا، يتكئ المصارع على الأرض بيديه ويرفع رجليه ويهاجما قفا خصمه. وغالبا ما يفقد المتبارون وعيهم في هذه المعارك الفظة التي يستمتع بها الجمهور.

ومن الطبيعي أن يبحث الدرويش عن الراحة عند وصوله سالما إلى زاوية مولاي عبد السلام، بعد المتاعب والحرمان والمخاطر التي واجهها. وقد انخرط وسط الزوار الذين وجد بينهم الاستقبال اللائق الذي يخصصه كل مسلم طيب لإخوانه البؤساء.

وسيلاحظ هنا أيضا بأن الورع ليس عدوا للشهوة concupissence، ذلك أن زاوية سيد جبالة ليست ملجأ للفضائل. وقد فوجئ محمد بالانحراف السائد في هذا المكان المقدس. صحيح أن "مقدمي" الزاوية الشرفاء، حفدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول، والذين يحملون في عروقهم دماء جدهم العظيم مولاي عبد السلام[10] يراقبون بعضهم بعضا ويمارسون سلوكا لا غبار عليه. لكنهم يتغاضون عن رذائل الطلبة، معترفين بعجزهم عن إزالة هذه الشرور والمفاسد الجبلية. وفضلا عن ذلك، فإن إسداء النصائح للجمهور ليس من اهتمام هؤلاء الشرفاء. فهم يعلمون بأن محاولتهم بهذا الخصوص، قد تؤدي إلى فقدان جزء لا يستهان به من الهبات التي تملأ صناديق الزاوية ومخازن حبوبها.

ـ الجغرافيا الاقتصادية والطبيعية:

---

[10] انظر شجرة نسب الولي، المذكورة في الصفحات السابقة.

وتوجد قبيلة بني عروس برمتها، بالكتل الصخرية لجبل مولاي عبد السلام وتحمل سلسلة الجبال المتجهة من الشمال إلى الجنوب، الاسم التاريخي لجبل العلم.[11] وهي تسمية معروفة لدى المتعلمين وحدهم، أما الشعب فيطلق عليه اسم جبل مولاي عبد السلام؛ ويحمل امتداده الشمالي اسم جبل لحصن[12]؛ في حين، يدعى امتداده الجنوبي جبل أفرنو[13].

وتعتبر شجرة السنديان التي يرقد تحتها الولي الشهير، هي مركز وأعلى نقطة بهذه القمة التي ترتبط من جهة بجبال بني حسان ؛ ومن جهة أخرى بجبال الاخماس. ويلتقي جبل بوهاشم المنبثق من كتلة جبل الحبيب بجبل مولاي عبد السلام. وداخل هذه الجبال العديدة تتكاثر العيون والأنهار والغابات في كل مكان. وهناك نهران أساسيان وهما: واد تاردان وهو رافد من روافد واد أصيلة؛ وواد حوزمر الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط، تحت اسم واد مارتيل قرب تطوان؛ وينبع النهران بجبل مولاي عبد السلام.

وتعرف قبيلة بني عروس كثافة سكانية كبيرة، بحيث تتقارب الدواوير المتواجدة بمحاذاة أو وسط الغابة، بشكل كبير. ويرتدي الرجال جلابة سوداء وسروالا قصيرا ويحيطون رأسهم العاري بجراب من الصوف أو الجلد، توضع فيه عند الاقتضاء، البندقية التي لا تفارقهم أبدا. ويعرف الكثير من أهالي القبيلة، القراءة والكتابة. أما أخلاقهم فليست فاضلة، لأنهم يشربون الخمر وماء الحياة الذي يشترى من يهود الشاون وتطوان؛ ويدخنون الكيف ويتناولون معجون الحشيشة، ويستنشقون [طابة] بشكل مبالغ فيه؛ وهم متهتكون إلى أقصى الحدود. ولا يرى سفهاؤهم ورعاتهم أي حرج في أكل لحم الخنزير.

وتباع بالأسواق الثلاث للقبيلة، عدة أصناف من الحيوانات وخصوصا الماعز والعجول والبغال. ويعرف الصوف الأسود المستورد من طنجة ومن قبيلة الفحاص، رواجا كبيرا. كما أن العسل الحلو والمر والقنب الذي تصنع منه الحبال والكيف وأيضا الخضراوات والقمح والشعير، تباع بكثرة وبأثمان بخسة. ولا ننسى الغلمان والعايلات الذين يباعون كالحيوانات لمحبي الملذات السهلة وللعزاب الذين يرغبون في ملأ بيت الصحفة المقيت،

---

[11] يعرف لدى الأهالي ب "الأعلام" بدل "العلم".

[12]وهو تحويل للكلمة العربية "الحصن".

[13] كلمة أمازيغية، تعني الشعلة.

حيث تقام عروض وحفلات خليعة orgies سبق أن قدمت فكرة عنها في الصفحات السابقة. وها أنذا أضطر للوقوف بقرف على نوع جديد من الخلاعة. فلا ترتعش أيها القلم، ولنخرج من هذه الورطة في أسرع وقت !

فكما هو معلوم تعتبر دائرة جبالة هي بلد الخلاعة والفجور المخجلين. فبعض النساء اللواتي يذهبن إلى الغابة لقطع الأشجار أو يشتغلن بالحقول، يمارسن سلوكا غريبا للانتقام من الرجال ومن منافسة الغلمان لهن. فما أن يظهر أمامهن فتى أمرد، بمكان منعزل لا يوجد به أحد، حتى ينقضضن عليه ويقدنه إلى مكان بعيد عن الأنظار ويسقطنه أرضا على ظهره، بغرض إرضاء رغباتهن الدنيئة. وسواء رغب في ذلك أو لم يرغب، فإن الفتى يكون مضطرا لتلبية شهوات هاته النسوة الهائجات furies. ومن الممكن أن يسقط الرجال الملتحون والطيبون في شباكهن. وإذا ما سيطر عليهم الخجل وعجزوا عن فعل أي شيء فإنهم يعاقبون بنتف لحيتهم. وتنتشر هذه العادة المريعة بقبائل بني حوزمر وبني عروس وبني حسان والاخماس.

إن مساحة بني عروس تبلغ عشرين كيلومترا طولا وعرضا؛ وهي محاطة بالقبائل المذكورة، من جميع الجهات [يمكن الرجوع بهذا الصدد، إلى الخريطة الموجودة كملحق عند نهاية الكتاب]. وتنقسم هذه القبيلة إلى خمسة أقسام، كما أن بإمكانها تعبئة 10 آلاف رجل من المشاة، مسلحين ببنادق مغربية مصنوعة بفاس وتاغازوت وتطوان. ويعيش أهالي بني عروس في أمان مع جيرانهم، لكن قد تقع بعض النزاعات الدموية أحيانا، بسبب الفتيات والفتيان الذين يسرقون بكثرة من هذه القرية أو تلك ومن هذه القبيلة أو من أخرى، حيث يتم إخفاؤهم بالأدغال أو بداخل الكهوف والغابات. وهو ما يؤدي إلى وقوع اغتيالات عديدة لا يعاقب مرتكبوها بطبيعة الحال.

- ليلة بيضاء:

في اول ليلة قضاها بتاردان الفوقي، وهي قرية كبيرة على الحدود مع بني إدر، شهد محمد بن الطيب وقوع جريمة مريعة. فقد استقدم الطلبة الأجانب المقيمون بالمسجد، غلاما في ملك رفاق لهم يقطنون بالقرية. وفي تلك الليلة، قدم الأمرد إلى الغرفة التي يتواجد بها الدرويش رفقة طالبين. وكان رحالتنا يغط في النوم، لأنه تعب كثيرا من المشي طوال الليل، عندما

سمع طرقا على الباب. ولم يفتح الطالبان الباب في البداية وظلا صامتين. لكن الطارق ناداهما من الخارج وأخبرهما بأنه ويريد قضاء بعض الوقت معهما. وما أن فتح أحد الطالبين الباب، حتى هجم أربعة رجال مسلحين على الغرفة وأمسك إثنان منهما بالغلام وأخرجاه، في حين هدد الإثنان الآخران، الطالبين المرعوبين. ورجع الرجلان، بعد أن وضعا الغلام في مكان آمن وأمرا محمدا ورفيقيه بمغادرة المكان وعبور القرية بصمت وإلا تعرضوا للقتل. ووصل الجميع إلى منزل مهجور وسط الحقول، حيث كانت شمعة تضيء إحدى الغرف التي ستقع فيها مجزرة رهيبة.

وجلس الأسرى القرفصاء، متكئين على الحائط، مطأطئي الرؤوس وهم يتلون آيات من القرآن الكريم لأنهم كانوا يعلمون بأن ساعة موتهم قد دقت. وخاطبهم المهاجمون بعنف، متهمين إياهم بأخطر التهم التي يمكن أن توجه في سدوم Sedome المغرب:

- لماذا سرقتم منا العايل؟ فقد أنفقنا الكثير من المال لشرائه والاعتناء به.

وتسمر الطالبان في مكانهما من الرعب، مدركين بأنهما سيقتلا لا محالة باعتبارهما أجنبيين؛ وتوسلا إلى المهاجمين وإلى الله لنجدتهما؛ أما محمد فقد تظاهر بالبلاهة وظل يبتسم ويحرك رأسه يمينا ويسارا، كي تتخذ ملامحه صبغة البلادة.

وبدأت المجزرة بالطالب الاخماسي المعروف لديهم، لأنه كان يقيم بتاردان منذ مدة. فقد انقض عليه رجلان وألقيا به أرضا وشلا حركته؛ وجاء ثالث فرفع ذقنه وذبحه؛ ثم اتجه نحو الطالب الثاني بسكينه الملطخة بالدماء ، لكن قبل الإقدام على جريمته، سأل الطالب الذي لم يكن معروفا:

- من أي بلد أتيت؟

فأجاب الآخر:

- من مسارة.

وكانت تلك الكلمة هي السبب في نجاته، لأن قبيلته البعيدة لم تكن في نزاع مع بني عروس، على عكس قبيلة الاخماس الدائمة الصراع معها. واستغل الدرويش الوضع هو أيضا، حيث أعطى اسم قبيلة أبعد من الأولى وأعلن بابتسامته البلهاء بأنه قادم من جنوب دائرة فاس.

فخاطبهما القاتل:

- أنتما محظوظان يا أبناء العاهرات.

ومسح سكينه بهدوء بلحية ضحيته ذات الوجه الشاحب، الفارغ من الدم. لكن وجب مع ذلك، تلقين هؤلاء الأجانب درسا كي لا يفكروا في العودة إلى تاردان. وكان الطقس باردا خارج المنزل والغابة شاسعة والظلمة حالكة. فقال أحد هؤلاء السفلة:

- لدي فكرة، لماذا لا نطلق سراح الرجلين في العراء، كما ولدتهما أمهما؟

وبالفعل، نزعت ملابسهما وأخرجا من المنزل وهما يتلقيان الضربات بأعقاب البنادق تارة، ويدفعان بفوهتها تارة أخرى، إلى أن وصل الجميع قرب منحدر وعر. وهناك تخلى أولئك الأوغاد عنهما وهددوهما بالقتل إن فكرا في العودة إلى القرية. واجتاز البئيسان الغابة وهما يقشعران من البرد في تلك الليلة المظلمة. وأخيرا، لاح ضوء في الأفق، سيدركان فيما بعد بأنه منبعث من بيت الصحفة. وبباب بيت الخلاعة هذا، روى الرجلان للماجنين المتواجدين بالبيت ما حدث لهما؛ فمنحهما شخص قوي البنية بعض الملابس وأغلق الباب أمامهما قائلا:

- ليلبس كل واحد منكما جلابة، وعليكما الذهاب إلى المسجد للمبيت رفقة الطلبة الأجانب الآخرين.

وعند الصباح، لاحظ محمد بأن قرية أفرنو الفوقي التي يوجد بها، قريبة جدا من تاردان، فقرر متابعة طريقه صوب الشمال. وبعد أن مر بمحاذاة العديد من القرى، تاركا زاوية مولاي عبد السلام عن يساره، دخل إلى قرية سيدي هدي.[14]

وأريد التوقف هنا، لفحص هذه الجماعة الإسلامية التي تكلمت عنها باقتصاد في مؤلفي "اكتشاف الريف"، وهو الجزء الأول من "المغرب المجهول"، ص. 161.

- زاوية سيدي هدي:

من بين كل الجماعات الدينية في العالم بأسره، تعتبر زاوية سيدي هدي، هي الوحيدة االتي تنظر إلى العفة والاعتدال كخصال متناقضة مع القوانين الإلهية والإنسانية. فما هو الهدف الذي كان يرومه سيد هداوة، بتأسيسه لجماعة الشحاذين أصحاب الكرامات، الذين لا يتوقفون

[14] تبدو لي الكلمة كصيغة أمر لفعل هدى أو بالأحرى أهدى [أي أعطى]. وهداوي، وجمعه هداوة، هو نعت مستعمل في العربية الدارجة للإشارة إلى أتباع سيدي هدي.

انظر ملاحظاتنا بالهامش رقم 7، ضمن قبيلة بني زروال.

عن التجوال؟ إن سيدي هدي المقتنع بأن الحكمة الإلهية لا تبتغي شقاء الإنسانية، كان يرفض التقشف والآلام الإرادية والصيام الذي يضعف الجسد والعقل؛ وكان بالمقابل، يفرض على أتباعه معاشرة الجنس الآخر والإفراط في المتع والراحة والتسول. كانت رغبته في أن يراهم سعداء على حساب الآخرين وأن يساهموا في إكثار النسل.

ومن الطبيعي أن يدفع هذا التفكير المتحرر من كل أخلاق ومن كل أحكام مسبقة إلى عدم التقيد بأية حدود. فقد لاحظ سيدي هدي بدون شك، بأن الرهبان والقساوسة المسيحيين الذين يحرمون أنفسهم من متعة ومسؤولية الزواج يساهمون بعملهم هذا في تدمير النوع الإنساني. وكان يدين أيضا الجماعات الدينية الإسلامية التي تتظاهر باحتقار العلاقات غير الشرعية والدعارة.

لكنهم جميعا، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، قساوسة او صلحاء أو حاخامات، يرغبون في تكنيز المال والثروات والتسلق في الدرجات الاجتماعية. وإذن، فإن شحاذيه سيستمتعون بالدنيا وبملذاتها دون أن يبذلوا أي جهد ودون أن يلبسوا قناع الفضلاء. سيطلقون العنان لشهواتهم وسيقبعون في الجهالة، حتى لا تراودهم فكرة قمع الملذات، كما سيتقبلون الأموال والهدايا بغرض تبذيرها؛ وسيستقبلون كل النساء والفتيات الضائعات اللواتي يهبن أجسادهن إليهم.

لقد بني أتباع هذا الولي ضريحا مربع الشكل وسط الغابة، قرب القرية التي تحمل اسمه وغير بعيد عن تاغزيرت. وحول المزار المتواضع، تتواجد هنا وهناك، البيوت الصغيرة والأكواخ والخيام والبيوت القصبية التي تشكل مركز هداوة وحيهم الرئيسي. وتستخدم مغارات الجبل المجاور كمكان لتربية الجديان والقطط. فالهداوي لا يفارق هاته الحيوانات ويصطحبها معه أينما حل وارتحل. ولأنه لا يستطيع إيواءها جميعا بكوخه أو خيمته، فإنه يحتفظ بأكثرها ترويضا، أي تلك التي تؤنسه بقفزاتها ولمساتها وشغبها. فهي تبيت معه وعند الصباح يطلق سراحها، بما في ذلك تلك المسجونة بالمغارات؛ ويعج الحي بهاته الحيوانات المختلفة الأشكال والألوان. لكن، ما أن يصبح الجدي تيسا أو معزة، فإنه يذبح على الفور ويلتهم عن آخره. و لا يخشى القط هذه النهاية المأساوية، لأن لحمه منفر. ولأن القطط تتكاثر بشكل كبير، فإنها ترحل إلى الغابة ولا تقترب من المساكن إلا عند وقت تقديم الطعام، حيث

تنزع بمخالبها اللقمة التي يريد الهداوي أكلها. ولأن هداوة متعودون على هذه العملية، فإنهم يميزون بين القطط الصديقة والعدوة. فبالقدر الذي يتعاملون فيه بطيبوبة مع الأولى، فإنهم ينهالون ضربا على الثانية، عندما تكون الفرصة مواتية.

وفي أحد الأيام، حصل محمد بن الطيب على دجاجة مشوية أهداها له أحد الهداويين، فذهب إلى الغابة قرب تاغزيرت لأكلها. وحينما كان يستمتع بوجبته، رأى قطا ضخما متجها نحوه، واعتقد بان الأمر يتعلق بأحد قطط سيدي هدي، لذلك لم يقم بأية حركة لإخافته. فاقترب الحيوان من الدرويش وبلمحة بصر نزع من يده بقايا الدجاجة؛ ولما حاول محمد استرجاع طعامه، غرز القط مخالبه في ذراعه؛ وبقفزة واحدة غاب عن الأنظار حاملا معه وجبته. فصاح الجريح:

- أتمنى لو كنت بالدهرة ! [15]

وقد عانى من جرح القط مدة أسبوع، تلقى فيه العلاج من طرف هداوة والمتمثل في وضع شعر الجدي المشرب بالزيت على الجرح.

إن زاوية هداوة معروفة في المغرب برمته، لكنني أجهل تاريخ تأسيسها والفترة التي عاش فيها مؤسسها. ولم تسعفني الأبحاث التي قمت بها داخل المؤلفات العربية والمسيحية؛ فحسب علمي، لم يشر أي مؤلف لسيدي هدي ولأتباعه.

وأنا أكتب هذه العبارات وكلي أسف على عدم توضيح هذه النقطة من التاريخ؛ قدم صديقي الشاوني قدم فجأة، حاملا معه بعض المعلومات حول سيرة سيدي هدي؛ وهي مستمدة من المصدر الذي تنبع منه كل الأساطير والحكايات، وأقصد بذلك الشعب. وتتشمن هذا الحكايات رغم كل شيء، جانبا من الحقيقة يتعين أخذه بعين الاعتبار.

وفي جمبع الأحوال، وإلى حين بروز العكس وما هو أفضل، ستسمح هذه المعلومات بتحديد الفترة التي عاش فيها هذا الولي المرح.

لقد كان سيدي هدي معاصرا لمولاي عبد السلام بن مشيش [القرن الثالث عشر الميلادي]؛ وهو من أسرة نبيلة، لكن فقيرة. وقضى فترة من حياته متنقلا من ضريح إلى آخر، حيث كان يبيت بالمساجد ويتلقى صدقات المحسنين؛ وكان لا يهتم بالنظافة ويدخن الكيف طوال النهار.

---

[15] يأكل أهالي الدهرة العرب، القطط الوحشية !

وعندما بلغ سن الثلاثين، تميز بسلوكاته الغريبة وأصبح مرفوقا بمجموعة من الشحاذين الوسخين الذين عينوه زعيما لهم.

وفي يوم من الأيام، استقبل هذا الولي الرحال من طرف مولاي عبد السلام الذي كان في أوج مجده. لكن الولي المبجل كان في حالة صحية يرثى لها، وهو ما لاحظه سيدي هدي. فقد كان جاحظ العينين ويتقيأ كل ما في أحشائه في وعاء نحاسي. وكان أتباعه يرون المشهد وهم منذهلون وعاجزون عن فعل أي شيء. وعندما هدأ الوضع بعض الشيء تناول سيدي هدي الوعاء وشرب محتوياته ! [16]

وعندما شعر بالتقيؤ من جديد ، سأل مولاي عبد السلام الذي لم يكن قد انتبه إلى أي شيء، أتباعه عن محتوى الوعاء، فأجابه الحاضرون:

- لقد شربه الهداوي وفر هاربا.

فصاح فيهم الولي:

- يابني عروس التعساء، ألا تعلمون بأنه حمل معه كل بركتي ولم يترك لكم شيئا؛ إنكم ستموتون جوعا إن لم تحضروه، هيا أسرعوا بالبحث عنه !

وفتش عنه الأتباع لكن بدون جدوى، فأخبروا سيدهم بالأمر. عندئذ انتصب مولاي عبد السلام واقفا ورأى سيدي هدي يجري بعيدا، فمد ذراعه باتجاهه، فتوقف الهارب فجأة في النقطة التي سيدفن فيها لاحقا والتي ما يزال قبره متواجدا بها. لقد شلت قدماه ولم يعد يقوى على الحركة إلى يوم مماته. ويعرف السهل الصغير الذي "صعق" فيه الرجل، باسم "وطا سيدي هدي"؛ ويجري به نهر صغير تحظى أسماكه بالتقديس. وعلى ضفتي النهر توجد أشجار الزيتون والتين والعنب، بموازاة مع مجرى هذا النهر الذي يدعى واد سيدي هدي. وقد اضطر الولي المشلول إلى الاهتمام بجماعته. هكذا، شيد مسجدا وزاوية وشرع يسدي النصائح للزوار بعد تدخين غليون الكيف.وبعد موته، أقيم بناء مربع على قبره هو بمثابة ضريح. ويسمح الباب المسيج الذي لا يفتح أبدا، برؤية القبر الذي يوجد بجانبه دوما، غليون ومسبحة. ويعتقد العامة بأن الولي يأتي أحيانا وهو متخف، لتلاوة بعض الآيات القرآنية

---

[16] لقد ابتلع حصة الأتباع التي تتضمنها المواد المنبعثة من بطن ولي الله ! وقد شاهدت جهلة، يشربون الماء الذي استخدمه بعض الورعين للتوضأ. وبعد شربهم للسائل القذر يصرخون فرحين :"فيه البركة !"

وتدخين الكيف فوق قبره ! والذكر المميز للزاوية هو: "بسم الله، بالله يا ربي، الحمد لله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله." ويردد الأتباع هذه العبارة مئات المرات وقد شكلوا دائرة، بشعر رأسهم المتناثر والزبد المحيط بفمهم؛ وهم يقرعون طبولا ضخمة.

هكذا، تستمر جذبتهم المرفوقة بالصراخ، إلى أن يسقطوا أرضا من فرط الإعياء؛ وحينئذ يعلن كل واحد عن رغباته، راجيا من الله تحقيقها.

وعلى العموم، فإن الطريقة الهداوية هي إما تعديل لمذهب قديم غير معروف لدينا، أو ابتكار ناتج عن حركة فلسفية، ساهمت أيضا في ميلاد المذهب الديني للمتنبي المسمى أبو الطواجين،[17] الذي كان سيدي هدي معاصرا له وقريبا منه. وللأسف، فإن أصحاب هذه الطريقة دمروا كل ما يسمح لنا بدراسة التطور المذهبي الذي عرفه جزء كبير من المغرب الشمالي في بداية القرن الثالث عشر الميلادي. وفي الإطار الحالي لمعارفنا، يستحب عدم الخوض في الموضوع.

وإذا ما سمح لي بصياغة فرضية متواضعة، حول الميولات الأولية للطريقة الهداوية، فإنني سأجازف بالقول إن مؤسسها المتواجد بين الصرامة المذهبية لمولاي عبد السلام وبدع بو الطواجين، قد حاول التوفيق بين الاتجاهين المتعارضين عبر التخفيف من صرامة الاتجاه الأول، وجعله متلائما مع مقتضيات المجتمع من جهة، وإبعاده من مخاطر تشيع يسعى لمحاربته مع أنه أقل عقلانية منه، من جهة أخرى.

إنني أتخيل هذه الأسماء الثلاثة الشهيرة [مولاي عبد السلام، بو الطواجين، سيدي هدي]، كثالوث متنافر ومنقسم، سعى كل طرف فيه لأن يكون هو السائد. ولربما كانت هناك محاولة من طرف سيدي هدي الطيب والمرح، للتقريب بين الرجلين الصارمين والعنيدين [عبد السلام وبو طواجين].

وكيفما كان أمر هؤلاء الرجال الثلاثة الذين أسسوا ما يمكن تسميته بالماسونية الإسلامية، فإن

---

[17] يعرف لدى المغاربة تحت اسم بوطواجن.

مولاي عبد السلام يظل مجهولا حاليا في المغرب كمؤسس لطريقة دينية[18]؛ فهو بالنسبة لجبالة، أعظم ولي وكفى؛ أما بو الطواجين فهو ممقوت لأنه ذبح هذا الولي الصالح. وبخصوص "ديوجين / هدي" الذي قضي على مشروعه في المهد، فإن جماعته المكونة من القذرين، قد أصبحت حية ومتكاثرة وعدوة للنظافة؛ وهو الشيء الذي رغب فيه منذ البداية؛ فيا له من مصير غريب للمجهود الإنساني ! ففي آخر المطاف انتصر الانسان الساخر !

لكن، لنترك مجال الافتراضات ولنفحص هداوة الحديثين كما يبدو لنا في فجر القرن العشرين. إن هؤلاء المتشردين البشعين يغادرون زاويتهم ببني عروس، في أغلب الأحيان، للتجول بجبالة وبمناطق مغربية أخرى، طالبين ا لصدقة ومعبرين صراحة عن رغبتهم في تلقي هدايا مكونة من الجديان والدجاج والبيض؛ وهي الأطعمة التي تقدم بالأضرحة وبمزارات الأولياء، التي يفضلها هؤلاء الأشخاص. فهناك يقيمون ليلا ونهارا، حيث يطبخون طعامهم ويدخنون الكيف ويتركون أجسادهم عرضة للأوساخ؛ وهم يعلمون بأن الورعين لابد وأن يزوروا وليهم المفضل، حاملين معهم طعامهم الذي سيهبون جزءا منه لهداوة.

وإذا ما وجد الهداوي ضريحا في طريقه، فإنه يقيم به ويجعله غرفة لنومه؛ وعندما يكون مرقد الولي مجرد قبر محاط بالأسوار وبدون سقف، فإنه يقضي لياليه تحت الأشجار أو بالمغارات القريبة. وقد يرتعب المرء عندما يلتقي هداويا بطرف الغابة أو بجانب المقبرة. فهو متسخ بشكل منفر ويلبس الأسمال دوما ويترك شعر رأسه الوسخ مسترسلا فوق كتفيه، ولحيته كثيفة مليئة مثل باقي جسمه بالطفيليات ذو نظرة شاردة وفظة؛ أما أظافر يديه ورجليه فهي طويلة جدا؛ وباختصار فإن هيئته عموما تثير الرعب. ويبدو الرجل خطيرا، لأنه يحمل

---

[18] يختلف الأمر في تونس، حيث يبدو أن الإخوان المتصوفة، ما زالوا يحملون اسم المشيشية أو السلامية، كذكرى لمولاي عبد السلام بن مشيش الذي كان من أتباع سيدي بومدين، الولي الصالح بالعباد قرب تلمسان. فقد كان هذا الأخير أول من جلب إلى المغرب الطرق الصوفية الحقيقية. وبعد وفاة أستاذه بومدين سنة 1197 أو 1198 م، أصبح عبد السلام بن مشيش رئيسا للطريقة الشاذلية. وهذه التسمية نابعة من لقب خليفة عبد السلام وتلميذه المفضل وهو تاج الدين أبو الحسن بن عطاء الله بن عبد الجبار، المولود بنواحي سبتة سنة 1197 أو 1198، انظر :

Rinn, Marabouts et khouan, p. 211 et suiv.

ويتضمن هذا الكتاب العديد من الأخطاء بخصوص أسماء الأعلام؛ وهو أمر غريب، لأن المؤلف استعان بمستعربين ماهرين.

معه حربة، هو على استعداد لغرسها ببطن أول نصراني او يهودي يلتقيه في طريقه. ويستهلك الكيف بشكل لا يوصف. فغليونه الطويل يصدر باستمرار، سحابا من الدخان؛ لذلك يظل مسطولا مثل كل مدخني هذه العشبة. ولا يكتفي بتدخين الكيف، بل يأكل معجون الحشيش ويملأ أنفه بالنشوق. وغالبا ما يشاهد في البوادي مرفوقا بجذيانه وقططه، باحثا عن المقابر والأضرحة. وهو يحمل كل متاعه فوق كتفه؛ ويتكون من كيسين من الدوم، يختلط فيهما الكيف بالنشوق والصحون المصنوعة من الطين والملاعق الخشبية الكبيرة والخبز والبيض واللحم والملح وبقط أو قطين يتابعان الطريق بأعينهما من ثقب الكيس. وفي بعض الأحيان، يسافر الهداوي مع مجموعة من الرفاق وحينها يتسول باسم الزاوية ويحمل ما جمعه على ظهر بغل أو حمار. وعند وصوله إلى المقبرة أو مرقد الولي يوقد الهداوي المسطول النار ويطبخ طعامه ويصنع بعض الحلوى التي يوزعها على زائري الضريح مقابل صدقة.

ويعتبر هذا الرجل خطيرا لثلاثة أسباب:

فتعصبه مبالغ فيه وقد يتحول شروده إلى جنون كما أن ميله إلى السرقة يمكن أن يدفع به إلى ارتكاب الجرائم بنوع من اللامبالاة.

ورغم أن المسلمين الاخرين يتحملون هؤلاء الشحاذين الذين يخافونهم بعض الشيء، إلا أانهم يحتقرونهم في العمق لأنهم جهلة وأفظاظ في غالبيتهم. وهم يغضون الطرف عن رذائلهم بسبب حقدهم الشديد على النصارى واليهود.

ويحكى أنه خلال حصار تطوان سنة 1860، هاجم مائة هداوي تقريبا، معسكر الاسبانيين وارتكبوا مجزرة رهيبة، حيث كانوا يبقرون بطون أعدائهم بحرابهم ويتقدمون إلى الأمام قاتلين ومقتولين؛ وكأنهم ذئاب مسعورة.

وكانوا يرفعون حرابهم وهم نصف عراة ويصرخون مرددين شعار زاويتهم وهو: "راحنا ميتين، ميتين". وطبعا فقد قتلوا جميعهم تقريبا، باستثناء اثنين أو ثلاثة من بينهم، استطاعوا اجتياز المعسكر كله.

ومن المؤكد أن الهداوي يعتبر نفسه ميتا. فالكيف وتعليمات رؤساء الطريقة تقنعه بأنه لم يعد منتميا إلى عالم الأحياء. وهي قناعة راسخة، تذكره بوجوده السابق الذي يتحدث عنه باشمئزاز، محروما من سحر اللحظة الراهنة وخصوصا من النشوق والكيف.

ذلك هو انطباعه عن تلك المرحلة الأولى من شبابه، عندما كان يشتغل ليكسب قوته وقبل أن ينخرط في جماعة الحشاشين والكسالى المنحطين.

لنعد الان إلى قرية سيدي هدي، لإلقاء نظرة أخيرة على مركز هذه الكائنات الطفيلية. فالزاوية هي عبارة عن مسكن مثل باقي المساكن. ويترأسها شخص كسول يدعى المقدم، سنتعرف بعد قليل على مهامه.

إن أهم مورد لهذه الجماعة، ولربما كان هو موردها الوحيد، يتمثل في حقل مساحته مائة هكتار تقريبا، وهبه لها أحد المحسنين "كتحبيس".[19]

لكن، عليكم ألا تظنوا بأن هداوة يجهدون أنفسهم في فلاحة الأرض. فحسب ما يذكر الأهالي، لم يسبق أبدا لهؤلاء الطفيليين أن قاموا بأي عمل، باستثناء طبخ طعامهم، حيث كانوا يجبرون على إنجازه لتلبية نهمهم. فقد كان الخماسون الذين يقتطعون خمس المحصول الزراعي، هم الذين يفلحون الأرض ويزرعونها بالفول والبازلاء والعدس التي يرغب أتباع سيدي هدي في أكلها بجنون؛ ذلك أن الحصة المتبقية لهم [أربعة أخماس]تلتهم بسرعة، في انتظار محصول السنة الموالية.

ويقوم "مقدم" الزاوية بوظيفتين رئيسيتين وهما:

الحفاظ على السلم والوئام بين رفاقه الأفظاظ؛ وترأس الاحتفالات اليومية المقامة داخل الزاوية. فطوال النهار والليل، تصدح أصوات الطبول والمزامير داخل مقر إقامة هؤلاء الأتباع. ولأن الأمريتعلق بهداوة، فإن الضجيج الذي يحدثونه لا يطاق؛ غير ان أعضاء الجماعة ينصتون إلى الموسيقى الصاخبة وهم يدخنون الكيف ويستنشقون تبغ "طابة" ويداعبون قططهم أو يخيطون أسمالهم بخيوط من الدوم. إن هذه الموسيقى الغريبة التي لا تخضع لأي إيقاع ولا أي انسجام ولا علاقة لها بالنغمات الموسيقية المعروفة، تسحر هؤلاء

---

[19] وجدت في المعجم الكبير لفيروز أبادي، تعريفا متميزا وموجزا وواضحا ودقيقا لهذه اللفظة الواردة في الفقه الإسلامي؛ وهو كما يلي: "تحبيس الشيء أن يبقى أصله ويجعل ثمره في سبيل الله".

الحشاشين وتثير بهجتهم وصراخهم، بحيث أن آذان البدو انفسهم لن تتحملها أكثر من خمس دقائق وإلا أصيبت بالصمم.

ويمكن للمرء أن يدخل الزاوية ويختلط بهداوة، شريطة أن يكون مسلما. فهم لا يعيرون اهتماما لأي أحد وينظرون إلى الحاضرين بعيون شاردة ولا يستفزهم سوى وجود الكافر، وهم على استعداد لطعنه بحرابهم إذا ما تيقنوا من عدم تعرضهم للعقاب.

وتقبل الجماعة أتباعا من الجنس الآخر. لكن ما هي نوعية هؤلاء الأتباع؟ إن الأمر يتعلق بفتيات ونساء منحرفات وبمتسولات وبما يمكن ان ندعوه سقط أو فضلة المجتمع. فهؤلاء النسوة يقصدن الزاوية ويصبحن رفيقات لهداوة. وطبعا فإن هؤلاء العزاب يستقبلون بحفاوة جماعة النساء هاته. ونحن نتصور رد فعل مؤسس الزاوية وإعلانه التالي:

- إذا كانت النسوة المسلمات ينفرن منا ولا يردن معاشرتنا، فعلينا إقامة نظام تعدد الأزواج . polyandrie

هكذا، يمحي الجانب المفسد واللا أخلاقي لمذهبه أمام ضرورة المعاشرة الجنسية. فهو يريد في العمق تأسيس ديانة المتعة؛ والاحتجاج بكل قواه على الصرامة المقترنة بالإسلام؛ وتعبئة جيش من الشهوانيين والكسالى والجهلة الذين لا يستطيعون ولا يعرفون ولا يريدون فعل أي شيء. فالصلاة والصيام والوضوء وأشكال التعبد الأخرى تعتبر ثانوية بالنسبة لهذه الجماعة الغريبة. ويكفي الاختلاط بأعضائها ومحاكاتهم، ليصبح المرء هداويا مثلهم. إن هذه المحاولة الفظة لهدم الإسلام ستؤول إلى الفشل حتما. فرغم أن مؤسسها ركز على الأهواء والرغبات الجسدية، إلا أن عدد أتباعه لم يتغير.[20]

والمثير في الأمر، ان هؤلاء الأتباع مستعدون للموت في سبيل الإسلام الذي يفترض أنهم يحاربونه رغما عنهم. وهذا دليل قاطع على أن مذهب الرسول العربي يشكل بالنسبة لكل المسلمين أوثق رباط.

ويعتبر المغرب هو موطن هداوة الحقيقي والوحيد. لكن من الممكن أن نجد بعضا منهم، ممن هاجر إلى مصر أو سوريا؛ وهناك من حج إلى بيت الله بمكة وعاد إلى بلده. ويعبر الحجاج الجزائر أحيانا للتوجه إلى المدينة المقدسة، لكنهم لا يقيمون كثيرا في مستعمرتنا كي لا

[20] إن العدد الإجمالي لهداوة لم يبلغ على الأرجح خمسة آلاف رجل.

يواجهوا النصارى؛ وخصوصا لأن صرامة الإدارة الفرنسية تقتضي حصولهم على رخصة للمرور بالبلاد.
هكذا، نرى بأن بني عروس يتميزون بامتلاك ضريحين لوليين شهيرين وهما مولاي عبد السلام وسيدي هدي، لذلك فإن تعصب أهالي هذه القبيلة في المجال الديني، يتسم بالصرامة. وإذا ما غامر يهودي أو نصراني في أرجاء القبيلة، فإنهما سيقطعان إربا. ويتعرض المسلمون الأجانب أنفسهم للنهب، إذا كانوا مسافرين لوحدهم. ولهذا يتعين مرافقة القوافل التي تزور قبر مولاي عبد السلام، للحصول على بعض الأمان، أو يجب أن يتحول المرئ إلى هداوي. وأعتقد بأن هذا التنكر هو أفضل جواز مرور. ولأن ابن الطيب كان متسولا، فإنه لم يلجأ إلى هذه الحيلة التي يستخدمها مع ذلك في ظروف أخرى عصيبة. هكذا، قضى عدة أيام رفقة هداوة بزاوية سيدي هدي، مقلدا إياهم ومدخنا الكيف دون ان يبتلع دخانه ومتظاهرا بالانتشاء. ولم يكن هناك داع بالنسبة إليه للانخراط في الجماعة، لذلك لم يصبح هداويا في تلك السنة واكتفى بدراسة أعضاء هذه الجماعة وملاحظتهم دون اشمئزاز؛ ولكن أيضا دون حماس، عاقدا العزم على تذوق هذه الحياة اللا مبالية يوما ما.

- الإحسان في الإسلام:

فجأة اختفى الدرويش وترك الزاوية وبني عروس متجها صوب الجنوب، دون تحديد للمكان المقصود. وبقرية لبطوط الواقعة بقبيلة غزاوة، ألح عليه الطلبة في البقاء معهم حتى نصف شعبان[21] وهي فترة الزيارات الكبرى لجبل مولاي عبد السلام.
واتخذ وجهة الشمال من جديد، قاصدا الجبل الشهير أملا في الاستمتاع بالمآدب على حساب زوار المكان. ولم يشعر بتعب يومين أو ثلاثة أيام من السفر، لأنه كان متعودا على ذلك. وكانت ملابسه رثة لأنه ترك أفضلها عند أستاذه بلبطوط، كما كان يمشي عاري الرأس، كي لا يتسخ طربوشه الفاسي الجديد الذي خبأه بكيس صغير، وضع فيه أيضا عشرين او خمسة وعشرين سنتيما مغربية.
واجتاز قبيلة الاخماس الكبيرة في يومين، حيث كان يتناول طعامه ويبيت بمساجد القرى الكثيرة التي يعبرها. وفي مساء اليوم الثاني، وصل ناحية قرية لحصن ببني عروس. وكان

---

[21] يعرف هذا التاريخ بجبالة، تحت اسم "النسخة"

المسجد الموجود خارج القرية فارغا، لأن الطلبة سبق أن غادروه في الصباح، متجهين إلى جبل مولاي عبد السلام.

ولم يعلن الدرويش عن وجوده، خوفا من هجوم الأوغاد عليه؛ لذلك دخل المسجد متسللا ونام فيه دون أكل. وفي الصباح الباكر، عبر الغابة الكبيرة التي تمتد من قرية لحصن إلى قمة الجبل الذي يرقد فيه سيد جبالة. وكان يشعر بجوع شديد، عنددما التقى في منعرج أحد المسالك، بحوالي عشرين من الطلبة الجالسين تحت الأشجار وهم يتناولون الخبز والزيتون؛ فجلس معهم ببساطة ومد يده إلى الطعام.

إنني لا أعرف ما إذا كان فقراء المغرب يتعاطفون فيما بينهم اكثر مما هو الحال بالنسبة لفقراء البلدان الأخرى؛ وما إذا كان الرأسماليون المغاربة أكثر عطفا من أصحاب الملايين بالبلدان المتحضرة؛ وكيفما كان الحال، فإن ما هو مؤكد، أن أحدا لم يمت جوعا في هذه المنطقة المتفردة التي يعتبرها دبلوماسيونا وجغرافيونا وكرا للمتوحشين. فجيراننا بالغرب تمكنوا، دون التعبير عن ذلك كتابة ودون إراقة للدماء وبطريقة بسيطة، من تحقيق النموذج المجتمعي الذي يحلم به الاقتصاديون ومحبو الإنسانية Philanthropes في كل الأزمنة والأمكنة. فإن طريق الإحسان والصدقة وفعل الخير، استطاعوا حل المشكل الرئيسي المتعلق بخير أكبر عدد من الناس.

لذلك، فإن العاملين وذوي الاحتياج والعاطلين الذين يتلقون الصدقات من المحسنين، لم يفكروا أبدا في ارتكاب حماقة تدمير الملكية الفردية التي ينتظرون منها، على العكس، التخفيف من بؤسهم. فما يأملونه وما يعتبرونه أمرا مؤكدا، هو ان الثروات والأموال، ستساعدهم في حياتهم دون إكراه ولا تهديد، لأن القرآن الكريم أمر بذلك.[22]

---

[22] إن الالتزام الصارم بالشريعة الإسلامية، يؤكد حقيقة لا تحظى بالاهتمام كثيرا لدى أوساطنا المرتابة؛ وهي أن الإنسان الذي يخاف الله يكون أكثر استعدادا لفعل الخير، من ذلك الذي لا يخاف سوى الدركي. لنعترف بأهمية القرآن بهذا الخصوص. فرغم تحفظاتنا على بعض ما ورد فيه، إلا أن هذا الكتاب يظل رائعا، خصوصا فيما يتعلق بالأخوة بين المسلمين؛ لكن وللأسف بين المسلمين وحدهم.

ملحوظة المترجم: مرة أخرى نشير إلى أن معرفة موليراس بالقرآن الكريم تظل محدودة؛ وكمثال على ذلك، عدم إدراكه للأبعاد الكونية لأحكامه إلى جانب خصوصية تشريعاته

فمن هو المؤمن القادر رغم بخله، على تقبل اللعنات المتضمنة في إحدى السور المكية الأكثر تهديدا ووعيدا؟ وهي السورة التي حاولت ترجمتها بأمانة، مع الاعتراف مسبقا بعجز ترجمتي عن إبراز جمالية وقوة النص القرآني. وإليكم السورة [سورة الماعون]: "بسم الله الرحمن الرحيم، أرايت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون".

ويجب أن نرى كيف يبادر الرأسمالي المغربي بأمانة إلى أداء الزكاة التي يوزعها بنفسه على الفقراء دون تدخل الدولة ! لأن ضميره وربه، هما الحكمان الوحيدان على أعماله.

لذلك، فإن الإحسان الدائم إلى البؤساء واستضافة الغريب، فقيرا كان أو غنيا، مريضا أو سليما، يجعلان من مراكز الضيافة والمستشفيات والجمعيات الإحسانية بعالمنا الحديث، ضرورة أساسية وهامة بنفس أهمية الصراع الطبقي الذي يهدد أوروبا العجوز. وللأسف، فإن هذه المؤسسة الخيرية الجميلة بالمغرب، يتم إفسادها ولا تحقق مراميها بسبب اللا أمن شبه المطلق بالبلد.

هكذا، وبعد أن ملأ بطنه بالخبز والزيتون، فوجئ محمدا بأمر لم يخطر بباله؛ فقد قام طالب وأخذ منه الكيس وفتحه، ثم أخذ الطربوش ووضعه فوق رأسه والسنتيمات التي أضافها إلى حافظة نقوده. ولما حاول الدرويش الاحتجاج، اكتفى الآخر بمخاطبته وهو يشير إلى الوجهة التي يتعين عليه اتخاذها قائلا:

- اذهب إلى حال سبيلك وإلا أشبعناك ضربا !

ولم يفكر أي واحد من الطلبة في الدفاع عنه، لذلك اضطر إلى الابتعاد عنهم. وعلى بعد خمس مائة قدم، التقاه أربعة رجال بلحي بيضاء وهو يتأسف على حاله، فسألوه:

- مالك تدمدم هكذا؟

فأجابهم:

- في بلدكم هذا، يمنعون الناس من زيارة الولي.

- هل سرق منك شيء؟

- نعم

- كيف؟ وبالقرب من مولاي عبد السلام؟ عليك بمرافقتنا وسنجبر ابن الكافر على أن يرد لك ما سرق منك !

لكن الدرويش لم يثق بهم وأكد لهم بانه لا ضرورة للإزعاج وبانه يتصدق بطربوشه على الطالب السارق، في سبيل الله. حينئذ تقدم منه أحد الشيوخ بعينين براقتين من الطمع وخاطبه قائلا:

- هل بقي لديك شيء تتصدق به؟

فرد عليه رفاقه:

- هيا ! احترم نفسك ودع الرجل وشأنه.

ودخل الرجال الأربعة الغابة، تاركين ابن الطيب وحده. وقد تابع هذا الأخير طريقه دون مشاكل إلى أن بلغ قمة جبل السيد المعظم واندمج مع مجموعة الزوار المتواجدين هناك.

القرى الرئيسية ببني عروس

قسم لحصن

- لحصن، وهي تحويل للفظة الحصن، بلدة مولاي عبد السلام وبها 500 منزل.
- سيدي موسى، 200 منزل وبها زاوية محترمة.
- سيدي سلام، 100 منزل، بها زاوية تحمل نفس الاسم.
- الخزانة، 100 منزل
- سيدي مشيش، أب الولي مولاي عبد السلام، 100 منزل.
- سيدي هدي، 50 منزلا.
- عين حديد، 500 منزل.
- سيدي بوكير، وتوجد بها زاوية شهيرة

قسم بوهاشم

- زاوية مولاي عبد السلام، 100 منزل.
- تاغزوت [الصخرة الصغيرة]، التسمية أمازيغية، 300 منزل على واد السطح.

- دار مولاي اليزيد، 100 منزل.
- السكان، 100 منزل
- تايذا [الصنوبر]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا.

قسم أفرنو [الشعلة]،

التسمية أمازيغية

- أفرنو الفوقي، 300 منزل.
- أفرنو السفلي، 300 منزل.

قسم تاردان [من يقوم بالحبك]

التسمية أمازيغية

- تاردان الفوقي، 300 منزل، على الواد الذي يحمل نفس الاسم.
- تاردان السفلي، 300 منزل، على واد تاردان أيضا.

القوى العسكرية: 10 آلاف جندي من المشاة، مسلحين ببنادق مغربية ؛ العدد المحتمل للسكان: 70 ألف نسمة. وتوجد جبال شاهقة وغابوية في كل مكان. ويزعم أغلب أهالي بني عروس بأنهم حفدة الشريف الإدريسي مولاي عبد السلام سيد جبالة المحبوب؛ ولربما كانوا كذلك.

وتتميز المنطقة بجمالها وبكثرة مياها وغاباتها كما ينتشر فيها التعليم القرآني بكثرة لدى الرجال والنساء؛ وبالتالي يوجد القليل من الأميين لكن الكثير من المتعصبين. وهناك حوالي سبعين قرية موزعة على مساحة القبيلة.

نبذة تاريخية عن بني عروس

كل الوقائع التاريخية المتعلقة ببني عروس، حدثت بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش. فلم يسبق لي أن رأ يت اسم هذه القبيلة واردا في الكتب العربية. هكذا، حل اسم ولي جبالة العظيم، محل موطنه الذي بقي في الظل، مما يجعل من الصعوبة إيجاد قبيلة بني عروس الميكروسكوبية وسط شبكة التاريخ، فالأمر شبيه بالبحث عن إبرة وسط ركام التبن.

قبيلة بني حوزمر

ينحدر واد بني حوزمر من الجانب الشمالي لجبل مولاي عبد السلام حيث يوجد منبعه ويأخذ مجراه من الجنوب نحو الشمال، شاقا طريقه بين الجبال الشاهقة المكسوة بنباتات غزيرة. وتوجد بضفافه المليئة بأشجار الزيتون والأشجار الغابوية الأخرى، العديد من القرى. هكذا، يتبع النهر مجراه إلى أن يصب في البحر الأبيض المتوسط، شرق تطوان، حيث يأخذ اسم واد مارتيل الوافر المياه والذي لا يمكن عبوره إلا بواسطة القوارب او سباحة. وكلما تقدم من جهة الشمال، كلما أصبحت الجبال أقل علوا وتوحشا. ومن بني عروس إلى جيرانهم بني حوزمر تبدو بعض التغييرات على مستوى المنطقة. فهذه القبيلة الأخيرة تتوفر على بعض القمم العالية في حدودها الجنوبية، لكن تتمة جبل مولاي عبد السلام ستمتد إلى الساحل المتوسطي على شكل جبال أقل علوا ولا علاقة لها بهيبة الجبل الذي انبثقت منه.

إن أهالي بني حوزمر يعيشون أساسا من قنص الطرائد والطيور الكثيرة بالمنطقة التي تتوفر أيضا على الخنازير وبنات آوى والضباع والثعالب. وتخضع القبيلة لقائد مقيم بتطوان؛ وكان يدعى سنة 1895؛ وكان يدعى القايد السلاوي. ويوجد السوق الرئيسي للمنطقة برمتها، بتطوان طبعا، حيث يبيع فيه بني حوزمر البنادق والبارود والرصاصات التي يصنعونها بأنفسهم. واللغة المتداولة هي العربية المتأثرة بالأمازيغية التي كان الأهالي يتكلمونها فيما مضى. ويتميز الرجال بطول قامتهم وتناسب أعضائهم، كما أن النساء يتسمن بملامح متناسقة وجميلة جدا.

وللأسف، فإن أخلاق الرجال تظل منحطة، كما هو الشان في أي مكان. بالمقابل، تتميز المرأة بطيبوبتها مقارنة بسيدها؛ وتشتغل بالحقول، حيث تزرع وتحصد وتحطب وتبحث عن الماء وتذهب إلى تطوان لبيع العشب الطري والخشب والتين. وتقطع المسافات راجلة ومعها دوابها؛ اما الزوج المرافق لها، فيكون راكبا على بغل أو حمار وهو يدخن غلايين الكيف ويغني ويمرح فوق دابته التي يلكزها بساقيه.

وحسب التحديد المخزني، فإن قبيلة بني حوزمر تخضع للدائرة العسكرية لتطوان مع بني معدان وحوز تيطاون وواد ودراس وبني مساور. وباستثناء الحوز، فإن هذه القبائل تتمتع في الواقع، باستقلالية شبه مطلقة ولا تهتم كثيرا بالإدارة المخزنية. وتحاط بني حوزمر

بمجموعة من القبائل وهي بني معدان على اليمين وحوز تيطاون على اليسار من ناحية الشمال. إلا أنها تمتد جنوبا على مساحة كبيرة وبجوارها شرقا كل من بني سعيد وبني حسان وجنوبا بني عروس وغربا ودراس والحوز.

ويبلغ طول القبيلة ثلاثين كيلومترا تقريبا وعرضها حوالي اثنتي عشر كيلو مترا. وتوجد غابات كثيرة في جهتها الجنوبية، حيث ترتفع قمم جبالها ويتكاثر سكانها.

وقد عبر الدرويش الذي كان متوجها إلى تطوان، بني حوزمر سريعا دون اكتشاف القبيلة بعمق. حيث أقام يوما واحدا بالهجار، وهي قرية من 100 منزل مشيدة عند ملتقى واد الليط وواد مرتيل. بعد ذلك، استقر أسبوعا بمسجد قرية كتمان، المسماة أيضا سيدي علي الريفي؛ قبل أن يدخل تطوان التي سيزورها مرات عديدة خصوصا في رحلته الأخيرة سنة 1895. وفي تلك السنة احتفل بعيد الأضحى في هذه المدينة.[1]

تيـــــــــطاون

إن مدينة تطوان معروفة لدى العرب تحت اسم تيطاون، ويدعوها الريفيون بتيطاوين. وتحكي الأسطورة التي لا تبتعد كثيرا عن الحقيقة التاريخية بأنه قبل تأسيس المدينة، كان يوجد مركز أمازيغي في المكان الذي ستبنى فيه لاحقا، لمراقبة تحركات النصارى ومنعهم من النزول بالشاطئ. وكان الحراس لا يرتاحون الليل بأكمله، تلافيا لحدوث تسلل من طرف العدو. لذلك كانوا كل صباح يخاطبون رفاقهم البديلين قائلين:

Nensa nesmk’k’ouls tit’t’a ouin enner

[لقد قضينا الليل فاتحين أعيننا].

وتعني الكلمة الأمازيغية تيطاوين، العيون، ولأنها تكررت عدة مرات، فقد فرضت نفسها على الحراس المؤقتين للمركز. وفيما بعد، قام أمير مغربي بوضع أسس المدينة الحالية وسماها طبعا، تيطاوين التي أصبحت هي تيطاون لدى العرب وتطوان لدى النصارى.

[1] وهذه معلومة جديدة، يجب إضافتها إلى الجدول الذي وضعناه في الجزء الأول من كتابنا هذا، ص. 48، حول الأماكن التي احتفل فيها محمد بن الطيب بعيد الأضحى.

وحسب الأسطورة دائما، فإن عدة فرق من الجان الطيبين ساهمت في بناء المدينة الجديدة مستعملة مواد مثل المالج truelle والرصاص. إن تيطاوين تعني بتمازيغت العيون أو المنابع؛ ومن حقنا رفض الرواية الشعبية والإقرار بأن المدينة سميت تيطاوين بسبب وفرة المياه التي تسقي ضاحيتها. وستجدون عند نهاية حديثنا عن بني حوزمر، نبذة تاريخية عن تطوان؛ وهي موثقة بشكل جيد وغير مسبوقة؛ وقد تطلب مني ذلك مجهودا ووقتا كبيرين؛ وإن كان القارئ لا يهمه سماع هذا الأمر ربما. وأنا أدين كثيرا لكتاب الاستقصا. فهذا المؤلف المغربي كان مفيدا بالنسبة لي. وكلما تقدمت في عملي، كلما أصبح ضروريا وأساسيا. وأنا أتأسف لكونه جد مختصر !

والآن، هل تريدون التجول بالمدينة رفقة الدرويش؟

يجب عليكم ألا ترفضوا الدعوة إذا ما أردتم معرفة بعض المعلومات عنها. ولا تقلدوا إخوانكم الأروبيين الذين يلحون على معرفة المغرب، دون تعلم اللغة العربية؛ لذلك تبدو مؤلفاتهم سطحية. فهم لا يتحدثون إلا عن أنفسهم وعن مشاعرهم، ولإضفاء بعض التنويع على خطابهم، فإنهم يضفون عليه مسحة محلية، حيث ينبهرون أمام غروب الشمس وينتشون عند رؤية طاقية حمراء أو حقل شاسع من الزهور، ويملؤون مئات الصفحات لرواية أشياء سخيفة ومغلوطة.

ادرسوا الهندسة دون أن يكون لديكم مفهوم دقيق حول الامتداد؛ وادرسوا الجيولوجيا دون معرفة تركيب المواد التي تشكل الغطاء المتين للكرة الأرضية؛ وادرسوا الفلك دون رياضيات ودون منظار، فلربما حققتم بعض النتائج المقبولة؛ لكن لا تحاولوا أبدا فحص سيكولوجيا المسلم، دون التمكن من لغته ودون القيام بدراسات أدبية معمقة، من أجل كسب عقله وقلبه.

لنكن إذن مسلمين لبعض الوقت ولنلبس أسمال أحد أتباع الرسول العربي ولنتبع مرشدنا الفريد؛ فالموضوع يستحق كل هذا العناء.

تتوزع منازل تيطاون، من الشرق إلى الغرب، على جنبات جبل يواجه البحر الأبيض المتوسط ويبعد عنه بحوالي خمسة إلى ستة كيلومترات. وعندما نصعد قمة الجبل المسماة الطلعة، تبدو لنا المدينة بمنازلها البيضاء التي تتميز بنظافة غير مألوفة بالمغرب. ويمكننا

تقسيم السكان إلى أربعة أصناف: فهناك موريسك اسبانيا والمهاجرون الجزائريون والمغاربة واليهود. وللعربية الدارجة المتداولة بالمدينة طابع خاص، حيث يتم استبدال الراء بالعين والقاف بالهاء والشين بالسين. هكدا يمكنكم سماع جملة من قبيل: "دابة يهولك / سغي الحوت دلبحر " [دابا يقولك / اشري الحوت ذلبحر].

ويرجع هذا التحوير اللغوي طبعا، إلى وجود عدد كبير من اليهود التطوانيين وإلى الموريسكيين الأندلسيين الذين جلبوا معهم، بعد مقامهم الطويل بإسبانيا، صيغا خاطئة وتعابير قشتالية عربت بشكل سيء. فبأفواه سادة إسبانيا القدماء، فقدت غين بدو الحجاز تصويتها الحلقي وأصبحت تتميز بالكاد عن الهمزة. ويسمى التطوانيون المنبع "لقنة" والمرأة "الثقة" وسوق الحبوب "القاعة" والمنديل "المنبيتش" والمطبخ "الكوتشينة" والموقد "الفران" والمفتي "المحتب". أما اليهود فيدعون نقابتهم "الحاخة" والكتاب الذي يدرسونه "الفلا". وبإمكان الباحثين في أصل الكلمات بذل مجهودات كبيرة، مستعينين بالنظارات عند الحاجة، لمعرفة معاني هذه الكلمات المتفردة.

والآن، لنرافق الدرويش في الأزقة الضيقة لهذه المدينة المغربية؛ ولنتجول فيها كمسلمين وليس كنصارى أو يهود، لأن ذلك سيسمح لنا بكشف العديد من الأسرار. وأول شيء نلاحظه، هو العدد الكبير للمساجد وخمسة حمامات والكثير من المطاحن على الغدير. وهناك قيسارية شبيهة بتلك الموجودة بفاس، حيث نرى فيها تجارا أنيقين، يلبسون جلابيب من الجوخ الأسود أو الأزرق البحري، ذات رونق لائق بالأشخاص الميسورين.

فهل ترغبون في القطن المصنوع أو الخام أو المنسوج أو في الحرير الموصلي mousseline أو الأجواخ او الأنواع الأخرى للحرير أو الأحزمة الجميلة أو المخمل velours او الأثواب ذات الألوان الزاهية والراقية؟

فما عليكم إلا أن تطلبوها من هؤلاء التجار وسيقدمونها لكم بأثمان أقل من أثمانها بأروبا. وباستثناء الحرير الذي يجلبه التجار من ليون Lyon، فإن أغلب البضائع مستوردة من إنجلترا وألمانيا. وتحتكر بريطانيا العظمى تجارة الأثواب القطنية والسكر والشاي والشموع.

ولأن الدرويش في عجلة من أمره، فإنه لن يتركنا طويلا أمام الوجوه الشاحبة للتجار الأندلسيين، بشخصيتهم الوقورة ووقفتهم الساكنة بجانب ركام الصوف والأجواخ؛ بل سيذهب

بنا بعيدا عن هذا المكان. وها نحن نخترق الأزقة الضيقة والوسخة والمتعرجة، حيث توجد بائعات الهوى اللواتي يوقفن المارة ويمسكنهم من أطراف جلابيبهم ويدعونهم للدخول إلى بيوتهن. وتعتبر هذه الجرأة الصادرة عن مسلمات يمارسن الدعارة، بأرض يزعم بانها مقدسة، أمرا مدهشا؛ خصوصا وأن هذا الوضع معروف لدى كل المغاربة الذين لقبوا تيطاون "قحبة المدن ". وهي أيضا مدينة الاحتفالات حيث يغني الناس ويرقصون وحيث تحظى الموسيقى باهتمام كبير. ففي كل الأمسيات، تقيم العائلات المسلمة واليهودية، حفلات موسيقية تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل. وتوزع خلالها كؤوس الشاي والحلويات والأشربة المثلجة Sorbets والكعك، الموضوعة فوق أطباق فضية أو نحاسية، بشكل يسمح للماكرين من اكتشاف قوارير ماء الحياة وسط ركام الحلويات.

ويتم ولوج تيطاون عبر أربعة أبواب وهي:

1) باب المقابر غربا؛ 2) باب سيدي السعيدي غربا أيضا؛ 3) باب العقلة شمالا؛ 4) باب التوتة شرقا.

وخارج باب المقابر، توجد أرض مسيجة [حوش]، يرقد بها جثمان سيدي المندري. وهناك بالقرب من باب العقلة، حي إسباني صغير. وتوجد المصلى خارج باب التوتة، وهي عبارة عن مكان لا بناء فيه، يأتيه المسلمون من أهالي وجنود وسلطات محلية، لأداء صلاة العيد، مسبوقين بجوقة من ا لعازفين الذين يقرعون الطبول وينفخون في المزامير [الغيطة].

وأخيرا، توجد تحت باب سيدي السعيدي، بناية صغيرة فوقها قبة، وهناك يرقد جثمان سيد المدينة الولي الصالح سيدي السعيدي، الذي تنسب له الأسطورة العديد من الكرامات، لعل من أشهرها تلك الكرامة التي حققها بعد موته وهي كالآتي: في سنة 1860، وبعد أن سيطر الإسبان على المدينة، فرضوا إغلاق أبوابها في كل مساء. فهل كان شبح الولي ينهض ليلا، للقيام بأفعاله الرهيبة؟ لا أحد يعلم. كل ما في الأمر، هو أن الدوريات القشتالية كانت تجد كل صباح قبل الفجر، جثث العديد من جنودها ملقاة قرب الأبواب المفتوحة. ولأن النصارىلم يلقوا القبض على الجاني فقد ثار غضبهم وتوجهوا في أحد الأيام إلى ضريح سيدي السعيدي من أجل تخريب قبره. وفجأة سمع دوي رهيب وصعق كل الجنود الإسبان داخل قبة الولي !!

وبساحة كبيرة تسمى الفدان، أمام القنصلية الإسبانية، يقام سوق هام يومي الأربعاء والأحد. ويوجد الملاح غرب هذا السوق؛ أما دار المخزن المجاورة للقنصلية، فتطل على الساحة المذكورة.

لنتابع اكتشافنا كمؤمنين ولنتعرف الآن على الزوايا. فهناك ست زوايا بالمدينة تنتمي ثلاثة منها إلى الطريقة الدرقاوية وهي: زاوية درقاوة وزاوية الحراق وزاوية ابن عجيبة. [2]

وكان ابن عجيبة ما يزال على قيد الحياة سنة 1895؛ ورغم تقدمه في السن، فإنه لم يتوف إلى حد الساعة، على ما يبدو، إلى درجة اكتسابه الولاية في حياته. وهو من حفدة مولاي عبد السلام بن مشيش، كما أن جده سيدي أحمد بن عجبية هو أيضا ولي صالح مدفون بقرية الزميج، بقبيلة الأ نجرة.

أما الزوايا الثلاث الأخرى فهي: زاوية السويقة وتعتبر مكان التقاء المحتاجين مع رئيسهم "المقدم"؛ زاوية سيدي عبد السلام بن ريسون وهو من حفدة مولاي عبد السلام أيضا؛ وزاوية بني مزوق. ويبدو أن نسل هذا الأخير كان كثير العدد وتميز بالأخلاق الفاضلة. فهناك مرزوق مدفون بتطوان وآخر بأصيلة وثالث بفاس ورابع بتلمسان، قرب الجامع الكبير وسوق الخضر وخامس بسوق الأحد ببني زيات [قبيلة غمارة]؛ كما أن حفدة هذا الولي هم قياد بغمارة، عن طريق الوراثة.

أما المساجد فهي كثيرة ويتجاوز عددها الثلاثين وتعتبر ثمانية من بينها، من المساجد الكبرى التي تلقى فيها خطبة الجمعة وهي:

1) الجامع الكبير؛ 2) جامع سيدي علي بن ريسون [وينطقها التطوانيون تارة بالريسول وتارة ابن ريسون]؛ 3) جامع القصبة؛ 4) جامع العيون؛ 7) جامع الوقاش، ويتعلق الأمر بشخصية مذكورة في الكتب التاريخية [نظر نبذتنا التاريخية عن تطوان سنة 1727، في الصفحات اللاحقة]؛ 8) جامع السويقة.

وصلحاء المدينة مشهورون وأنا أذكر هنا أكثرهم تبجيلا وهم: سيدي علي بن ريسون، سيدي عبد السلام بن ريسون ابن الأول، سيدي السعيدي، سيدي المندري، سيدي عبد القادر الفخار،

---

[2] يدعى ابن عجيبة أيضا سيدي علي بركة، أما الحراق فقد كان شاعرا جيدا على ما يروى.

سيدي عبد الله الحاج، سيدي الناجي، سيدي علي الفحال، سيدي علي بن مسعود، سيدي صلاح.

وتقترن بكل واحد منهم عدة أساطير. فيا لها من ثروة بالنسبة للباحثين في سيرة الصلحاء. ولأن موضوعي شاسع جدا، فإنني لن أقف على بعض التفاصيل الدينية التي تظل مع ذلك، مفيدة بالنسبة للمؤرخ. لنتجول الآن بشوارع المدينة وهي خمسة:

1) حومة العيون التي يسكنها الريفيون.
2) حومة المطامر التي لجأ إليها الجزائريون.
3) حومة الطلعة ويسكنها الجبليون.
4) حومة الساقية الجديدة ويسكنها الجزائريون أيضا.
5) حومة العقلة ويوجد بها الملاح وبعض المساكن التي يقطنها المسلمون من مختلف القبائل .

وبالنسبة للنصارى وأعضاء المخزن، فإنهم يقيمون حول الساحة المجاورة للقنصلية الإسبانية.

وباستثناء إسبانيا التي عينت نائبا للقنصل من جنسية إسبانية، فإن القوى الأجنبية لا تمثل في تطوان إلا بأعوان قنصليين، يهود أو مسلمين. ولا حاجة للقول إن هؤلاء الأشخاص الذين تم اختيارهم من بين الطبقات الفقيرة للمجتمع والذين يتوفرون على مستوى تعليمي لا يتجاوز الابتدائي، ليس لهم أي تأثير على الأهالي الذين يعتبرونهم مجرد "شواش" [أعوان] ويدعونهم باحتقار "خدام النصارى".

وخلال سفره الأول، من سنة 1872 إلى سنة 1875، رغب الدرويش في الحصول على جواز سفر للذهاب إلى سبتة، فقصد نائب القنصل. وقد استقبله ترجمان بالقنصلية، وهو تطواني مسلم. وحصل محمد على جوازه بسرعة، لأنه قدم نفسه كتركي؛ ولاحظ بأن ذلك العون يفعل ما يريد ويوجه الدبلوماسي المسيحي الذي يعتبره مستشارا لا غنى عنه.

- الدرويش والقايد المهاجر:

يشيد الكثيرون وعن حق، بتحضر سكان تطوان. لكن، تحت لباقتهم الرفيعة، تختفي أفكار وعادات وتوجهات سياسية، هي بمثابة لغز بالنسبة للأجانب الذين يحاولون التعرف على أسرار هؤلاء المدينيين الماكرين.

إن الزوار الأوروبيين المجبرين على رؤية الأشياء من خارج، يظلون بعيدين عن المجتمع الإسلامي ولا يحملون معهم بعد السفر، سوى رسم تخطيطي غير دقيق، عن الأزقة والمنازل؛ وهو تصور محدود، قد يرضي محبي الصور؛ لكنه غير مفيد بالنسبة للعقول النيرة الراغبة في تعميق معلوماتها.

لذلك، لم يرغب محمد بن الطيب في محاكاة هؤلاء الزوار. فما دام مسلحا بمفتاحه الذهبي المزدوج، وأقصد بذلك معرفته باللغتين العربية والأمازيغية، فإنه يخترق كل الحواجز. وهو يجد دوما مبررات مقنعة، حيث يتحدث مع كل واحد بلغة موطنه ويشارك الأهالي معتقداتهم وميولاتهم، فهو متواضع مع البؤساء لأنه فقير مثلهم، ومتواضع أيضا مع الأغنياء والعظماء الذين كان في مستوى ذكائهم، إن لم نقل أذكى منهم.

وقد جعلته غريزته الرائعة، يختار أولا الذهاب إلى حي الريفيين؛ فهؤلاء الرجال البدائيون الأقل مكرا من المسلمين العرب، هم الذين سيطلعونه على أسرار الحياة التطوانية. من جهة أخرى، فإن الجبليين ليسوا صعب المراس، إذ يكفي تدخين الكيف برفقتهم ومشاركتهم دعاباتهم المملة وحفظ القرآن عن ظهر قلب مثلهم، لكي يستقبل من طرف عائلاتهم.

وكان الموريسكيون بالمدينة يصطحبونه معهم إلى منازلهم للاستماع إلى حكاياته وبالخصوص لأنهم يشاهدونه تارة برفقة المعوزين وتارة برفقة الشخصيات المخزنية النافذة. وكان من الطبيعي أن يمطره الكبار والصغار بالأسئلة حول المغرب وحول الأوضاع السياسية والدينية بكل جهات المملكة. ولم يكن الجوال الذي يمكن نعته بالموسوعة الحية والمتنقلة، يبخل عليهم بالمعلومات، لذلك كان يحظى بعنايتهم.

وبما أنه كان يعلم مدى الحقد الذي يكنه المغاربة للإسبان القلائل المقيمين بتطوان، فقد كان يدعي أمام هؤلاء بأنه من رعايا الباب العالي [العثماني]؛ وكان الجميع يثق به بسبب مظهره الفقير وملامحه الوديعة والمشرقة.

إنني لا أجد مسلما مثل الدرويش، قادرا على مرافقة كل الفئات الاجتماعية وحاملا في ذاكرته ملاحظات دقيقة وعميقة، هي بمثابة كنوز يهبها دون أية رغبة في الربح المادي أو المجد، لأول شخص تمكن من معرفة قيمته وفهمه. فهذا الأمازيغي ذو الملامح الشبيهة بالمسيح، يخالف كل العادات والقوانين والحدود التي حاول الملاحظون السطحيون إقرارها بخصوص عقلية المسلمين، على اختلاف أعراقهم. فهو الوحيد الذي تمكن من ولوج عائلات إخوانه في الإسلام، متحدثا بكل حرية مع النساء، بحضور أزواجهن وإخوانهن أو بغير حضورهم؛ لأن الجميع يعتبره "مسلوبا" ومجذوبا ومبروكا، لذلك حظي بالاحترام. وقد شاهدت نسوة عربيات من كل الأعمار والمستويات يوقفنه بشوارع وهران ويطلبن منه دعوات الخير دون معرفة مسبقة به، لأن مظهره كان هو مظهر الأتقياء الورعين.

وكمتدين ملهم، فقد كان يلبي طلبهن، لأنه كان يحتفظ دوما ببعض الأحجية المستعملة من طرف المسلمين. ورأيت بدوا قدموا إلى وهران لقضاء أغراضهم، منذهلين بعد لقائهم بالدرويش صدفة ومتأثرين بهيئة هذا الجوال الخالد ومتلهفين لتقبيل يده التي يضعون فيها قطعة فضية متوسلين دعواته.

وعندما يلاحظ ابتسامتي على هذا المشهد، فإنه يخاطبني بعد ذهاب هؤلاء البدو، بنبرة ضاحكة قائلا:

- الجهل ما عنده حد.

وقد ضبطته مرات عديدة وهو يتحدث وسط حلقة من المسلمات المصغيات إليه واللواتي يتلقفن ما يقوله بخشوع، مقتنعات بأن الرجل ولي صالح يحظى ببركة إلهية. وإذا ما شك أحد في شهادتي، فما عليه إلا أن يتيقن منها عبر تجوله بوهران الإسلامية وبكل مدن الجزائر والمغرب التي عرف بها محمد؛ آنذاك سيقدم حجة بينة إلى "قديسينا المعاصرين" الذين يتخيلون بانهم يعرفون العرب لمجرد أن الصدفة جعلتهم مجاورين لهم أو أسمى منهم.

ومنذ بضع سنوات وتحديدا سنة 1889، كان للدرويش خلال مقامه بتيطاون، حديث مثير مع أحد الموظفين الكبار بالمدينة.

فقد كان رحالتنا موجودا بجامع الكرمة [شجرة التين] حيث انتهى من تلاوة سورة الملك. وككل مؤمن يدخل بيت الله، بادر رجل وقور الهيئة بملابس أنيقة، بالسلام. فرد عليه محمد بأدب وبدأ الحوار بين الرجلين اللذين كانا جالسين جنبا إلى جنب.

- التطواني: من أي بلد أنت؟
- الدرويش: من الجزائر.
- أخبرني عن بلدك وقل لي كيف تتم إدارته؟
- مازال البلد مسلما، فالإدارة النصرانية، الصارمة والحكيمة، تسمح للجميع بالعيش في أمان.
- لقد سمعت بذلك من قبل. ويقال إن النظام مستتب في البلاد، كما أن الإسلام مزدهر بها. ويتميز الجزائريون بوداعتهم وصرامتهم وكرههم للكذب. وللأسف لا يمكنني قول نفس الشيء بالنسبة للمغاربة. لكن، قل لي، لماذا لم يأت الأتراك ولا الفرنسيون إلى هنا؟
- ليس من مصلحة الأتراك المجيء إلى المغرب. أما بالنسبة للفرنسيين، فإنهم في الحقيقة، يطمعون في هذا البلد، لكن تثبيت استعمارهم للجزائر يشغلهم كلية.
- من جهتي، لا أرى مانعا من استيلاء هؤلاء النصارى على الغرب [المغرب]. فلربما ساهموا في النهوض بهذا البلد الخاضع للمخزن وللقياد. ولهذا السبب، نرى بأن نصف ساكنة تيطاون من المسلمين واليهود يخضعون لحماية القنصليات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.

ورفع الرجل بصره إلى السماء وقال:

- يا ربي، اجعل هذا البلد محكوما من طرف رجال عادلين، أجانب أو من الأهالي، فالأمر لا يهم !

إثر ذلك، قام الرجل وقد حل الظلام، وهمس في أذن مخاطبه قائلا:

- أنا قايد المدينة، وإذا ما علمت يوما بوصول الجيش الفرنسي، فسأكون أول من يدخله إلى ساحة المدينة.

وبعد عشر دقائق من مغادرته المسجد، قدم زنجي قوي البنية واقترب من الدرويش قائلا:

- سيدي يطلبك.

فقال الدرويش في قرارة نفسه وهو يتبع الزنجي:

- يا لحظي هذا المساء.

ووصل الرجلان أمام منزل كبير وجميل، له باب رائعة ومتينة، مزينة بمسامير غليظة وبقطع حديدية في جوانبها. وأدخل الجوال إلى ساحة المنزل المبلطة أرضا بالزليج. وفي وسطها نافورة، تنساب منها المياه إلى أعلى وتسقط كمطر خفيف على حوض من الآجر ذي لون قرميدي. وتحيط بالساحة أعمدة من الرخام، تدعم الغرف الفوقية والأعمدة الموجودة بالطابق الأول. وتتميز الأدراج المبلطة بلمعانها، وهي مضاءة بمصابيح متعددة الألوان وكأنها قوس قزح.

ولا وجود لأية امرأة ولا لأي طفل، فقد كان صمت القبور مخيما على هذا المنزل الملكي.

طبعا، فقد أعطى السيد أوامره لحريمه وأبنائه وعبيده، بالإنزواء في بعض الغرف تحسبا لوصول زائره الغريب. وهذه الفكرة دفعت الدرويش إلى الابتسام؛ حيث وعد نفسه بملاقاة أهل الدار فيما بعد. وبالطابق الثاني، ارتفعت قبة فوق السطح، لتغطي غرفة دائرية مظلمة إلى حد ما؛ وتدعى هذه الغرفة "سراية"؛ وبها استقبل القايد ضيفه.

وكانت بالباب زنجية بادرت بفتحه عندما سمعت وقع خطوات الدرويش؛ وعندما اقترب منها قبلت رأسه وقالت كلمة واحدة وهي:

- زد [تفضل].

وبداخل الغرفة الكبيرة، كان صاحب المنزل ممددا على فراش وثير، محاطا بأغطية من الحرير وواضعا تحت رأسه وقدميه العديد من الوسائد، بحيث يبدو جذعه مخفيا وسط الفراش. وكانت شمعة كبيرة مشتعلة بالقرب منه. وبدون أن يتحرك من موضعه، خاطب الزائر قائلا: "اجلس". فجلس محمد القرفصاء بكل بساطة، فوق زربية مغربية رائعة من الصوف وذات رسوم وألوان متنوعة متناسقة. وبدأ الحوار من جديد:

- الدرويش: ما اسمك أيها القايد؟
- القايد: ألم يسبق لك أن سمعت باسمي؟
- أبدا.

- أنا محمد السلاوي، قايد بني حوزمر؛ وعائلتي من أصل جزائري، مثل أولاد بريشة وأولاد الصفار. فهذه العائلات الثلاث، هاجرت إلى المغرب عند بداية الحملة الفرنسية على الجزائر؛ وتفرقت بمدن تيطاون، طنجة وفاس. ويحظى جميع أفرادها بالاحترام كمنفيين مسلمين اختاروا المنفى كي لا يواجهوا الكافر.

لكن، لاشيء يربطنا ببلد تسود فيه الفوضى وقانون الأقوى؛ لذلك لم نعارض استيلاء الإسبان على تيطاون، بل على العكس، ساعدناهم في ذلك، معتقدين بأنهم سيعترفون لنا بهذه الخدمات. لكننا أخطأنا في ذلك ! فغداة دخول الجنود القشتاليين، عومل جميع المسلمين دون تميز كالحيوانات، من طرف هذا الشعب الجاهل والفظ. وكيفما كان الحال، فقد كان يستحيل التواصل معهم. فليس هناك إسباني واحد يجيد التكلم بالعربية أو الأمازيغية؛ ويتعين الاستعانة باليهود للقيام بالترجمة؛ ويعلم الله مدى أمانة ترجماتهم. ولحسن الحظ، فإن الاحتلال الأجنبي لم يدم طويلا، لكنه تطلب أداء ضريبة الحرب التي سددت على مدى سنوات، مما أثقل كاهلنا. وقد استغلت الحكومة الشريفة هذا الوضع الكارثي، لإقامة الجمارك وتعيين جباة الضرائب واحتكار بيع "طابة" و "الكيف" واستغلال سكان الساحل الخاضعين لها طبعا.

إن الاجتياح القشتالي ترك لدينا ذكريات رهيبة، وقد أصبحنا من جرائه نمقت الإسبان والسلطة المغربية معا. فمن سيكون مخلصنا الآن؟ هل هو الفرنسي أم الإنجليزي؟

وحوالي التاسعة ليلا، قدمت الزنجية عددا كبيرا من الأطباق، بلغ عددها عشرين تقريبا، مما أذهل الدرويش. ووضعت مائدة واطئة قرب الفراش؛ وشرع الرجلان في الأكل، بحيث كان الجوال جالسا فوق الزربية والقايد فوق السرير. وكذواق ذكي، كان محمد يأكل من كل الأطعمة، مبررا ذلك، بالرغبة في معرفة مهارة الطباخة.

وشرب الشاي الإنجليزي الذي قدم بعد العشاء على صينية نحاسية، منقوشة برسوم وأحرف عربية. وكانت الكؤوس التي يسكب فيها الشاي مذهبة من الخارج. ونادى القايد على ابنه الصغير، وهو طفل في العاشرة من عمره، ليقوم بمهمة الساقي échanson؛ ولم تكن هذه المهمة مريحة، لأن الرجلين شربا إلى وقت متأخر من الليل، وكما اقتضت العادة المغربية، كمية هائلة من الشاي. وقضى الدرويش السعيد عشرين يوما في هذا القصر الصغير، مستمتعا بالأكل والشرب والنوم المريح. ولكي تظل شهيته مفتوحة، فإنه كان يقوم بجولات

ممتعة بالمدينة وبضواحيها. وكان يحب على الخصوص، التجول بالبساتين المحيطة بالمدينة؛ حيث كانت أشجار البرتقال والفواكه الأخرى، تقدم له ما يحتاجه لطعام الغذاء. وعند حلول الظلام، كان يعود إلى منزل صديقه الذي لم يتغير حسن ضيافته لحظة واحدة.

وبتيطاون، أصبحت تروج شائعات حول انتشار واسع للقوى الشريفةالتي كلف قايد طنجة ابن عبد الصادق الريفي بقيادتها بنفسه على مشارف واد بوصفيحة الذي يوجد مصبه غرب تطوان ومنبعه بجبل الحبيب، قبالة جبل مولاي عبد السلام.

وعندما تمركزت القوات العسكرية بالمنطقة، قام السلطان مولاي الحسن على رأس حاشيته، بزيارة مدينة تيطاون المحببة لديه بشكل كبير.

- معسكر مغربي:

كانت الرغبة في معاينة الجيش المغربي عن قرب، سببا في تخلي الجوال عن متع الدار الكبيرة. وقد اعترف في قرارة نفسه بأنه أصبح خاملا داخل أسوار المدينة وأصبحت رئتاه محتاجتين إلى الهواء الطلق ورجلاه إلى الفضاءات الرحبة.

وببساطته المعهودة، أعلن في أحد الأيام للقايد، عزمه مغادرة البلدة ابتداء من فجر الغد. وبالفعل ودعه في الموعد المحدد، بعد أن تلقى منه نقودا كثيرة؛ وتابع طريقه إلى أن بلغ قرية المنزل حيث يجتمع عسكر السلطان.

وقد أرسلت بعض القبائل الجبلية التابعة للمنطقة العسكرية بطنجة، تجريدتها في حين لم تعر بعض القبائل الأخرى للأمر اهتماما. هكذا وصلت قبائل بني مساور وبني إدر وودراس وجبل الحبيب والأنجرة. بالمقابل، فإن قبائل الفحاص والغربية والخلوط، الخاضعة للمخزن بالقوة، تحركت ببطء وأرسلت تجريدتها عبر مجموعات صغيرة، تلبية للطلب اللبق لصاحب الجلالة الشريف.

ولم يسبق للجوال أن رأى مثل هذا الحشد من البشر الذي يمكن أن يبلغ عدده 30 ألف رجل، منهم الفرسان وخصوصا فرسان المخزن وأكثرهم من الجبليين المشاة. وكانت كل مجموعة ترتدي الملابس المعبرة عن وضعيتها. وكما اختلفت الملابس، اختلفت الأسلحة أيضا؛ فهناك البنادق ذات الطلقات المتكررة من آخر طراز والسيوف القديمة وبعض المدافع الحديثة التي وضعت عرباتها بالقرب من مدافع هاون mortiers إسبانية قديمة.

وكانت الفوضى العارمة والرهيبة سائدة في المعسكر، حيث كان الجنود ورؤساؤهم يسرقون بعضهم بعضا ويتبادلون الشتائم ويهدد بعضهم بعضا، بسبب دجاجات أو خراف مسروقة.

وكان الجميع مستعدا للدخول في معارك طاحنة، سواء بين أقسام القبائل أو بين القبائل نفسها؛ وذلك تحت النظرات المرتبكة لقائد المعسكر عبد الصادق، العاجز عن فعل أي شيء والذي كان يخاطب الحضور وهو يرتجف.

لقد كان الجميع ينهب خيرات المنطقة على بعد عشرة أميال من المعسكر، لذلك فإن الخزينة الملكية لم تكن تنفق على هؤلاء المعسكرين أي شيء. وهذا هو السبب في هروب الأهالي وحملهم لأمتعتهم ولماشيتهم بعيدا عن نهب العساكر. وقد شعر محمد نفسه بالرعب، فاختفى من المعسكر ولجأ إلى الغابة من جديد، تاركا أهالي قرية المنزل المرتعبين؛ ومبتعدا عن هذه الفوضى الرهيبة، حيث كاد أن يلقي حتفه على يد جنود الشريف.

في ظل هذه الظروف، كان مولاي الحسن يتقدم على مهل، وسط موكبه الفخم الذي انطلق من فاس. وبهيبة شبيهة بهيبة كاهن بوذي bonze، كان السلطان بزيه البراق، يقطع المسافات فوق جواده، غارقا في تأملاته، دون أن يتساءل يوما عن الخسارة التي تلحق بالأهالي التعساء عند مرور موكبه.

ففي كل صباح، يهيأ للمائدة الملكية وحدها عشرون خروفا مشويا، يلمسها العاهل بالكاد وبنوع من الاستعلاء. أما بالنسبة للأتباع ولحاشية الملك وجنوده، فقد كانت مئات العجول تكفي بالكاد. أضف إلى ذلك، إفراغ مطامير الحبوب والتهام كل المواشي. لكن السلطان لم تكن تهمه كل هذه التفاصيل، لأنه كان منتشيا بمجده وكان يتقدم باتجاه مدينة تيطاون العزيزة عليه والتي سيدخلها بشكل رسمي، يوم الأربعاء ثامن محرم سنة 1307 هجرية [الموافق لسنة 1889 ميلادية] وهذا التاريخ وارد في كتاب الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 275، السطر العاشر.

ـ عادات تطوانية:

لنرجع خمسة عشر أو ستة عشر سنة إلى الوراء، وتحديدا إلى سنتي 1874 و 1875، حينما كان محمد متواجدا بملاح تيطاون، ساعيا إلى الاحتيال على بعض اليهود وإلى خداعهم من أجل الظفر بشيء من الطعام وبقطع نقدية إن أمكن. لكنه وجد هذه المرة من هم أكثر منه

مكرا. فاليهود التطوانيون المتحضرون إلى حد ما، كانوا جد حذرين، وكان العديد منهم قد زاروا أروبا والجزائر، لذلك لم يكونوا مستعدين للسقوط في الفخاخ الساذجة للجوال. ورغم تكراره لقصة اختطافه وهو صغير من ملاح فاس، من طرف مسلمين قساة أرغموه تحت التهديد بالسكين على معانقة الإسلام، فإن كل هذه الأكاذيب والحيل كانت تقابل بارتياب معاند. لهذا، اضطر إلى استعمال وسائل أكثر تأثيرا. فقد صرح لهم بأنه يقرأ الطالع؛ لأنه لا يوجد مسلم أو يهودي إفريقي لا يثق في "خط الرمل" و "خط الزناتي"، ثقة عمياء.[3]

هكذا، حمل ابن الطيب معه منديلا مليئا بالرمل وبدأ تجواله داخل الملاح، سائلا اليهوديات سواء كن مسنات أو صغيرات؛ جميلات أو دميمات، إذا ما كن يرغبن في قراءة طالعهن. وحقق صاحبنا من جراء ذلك نجاحا باهرا. فقد تحلق حوله الرجال والنساء والأطفال؛ وهناك من دعاه إلى منزله. وعندما تكون الغرف ضيقة، فإنه يمارس عمله بباحة المنزل في ضوء النهار، حيث يبسط منديله على الأرض ويرسم خطوطا كابالية [رمزية] على الرمل. وبنبرة ملهمة يخاطب زبونه أو زبونته قائلا:

- هل تريد معرفة طالعك وما سيطرأ عليه من تغيير؟ انظر، إن المستقبل يبدو مشرقا من جهة وبئيسا من جهة أخرى.

بعد ذلك، يلقي على الشخص أسئلة دقيقة، يتعرف من خلالها على ماضيه وما يرغب فيه. وذلك هو معنى "خط الرمل" إجمالا. أما بالنسبة "لخط الزناتي"، فيتطلب وقتا أطول لعرض نظامه، وأعترف وأنا محرج، بجهلي لهذا النظام. وحسب المعلومات العامة التي استقيتها؛ فإنه على ما يبدو يرتكز على قراءة النجوم [التنجيم]. ويتعين بهذا الخصوص، القيام بدراسة جادة ومفيدة؛ إذ أن "خط الزناتي" الذي يعود إلى عشرات القرون الماضية والذي مازال يمارس لدى الشعوب السامية، يرتبط بمذاهب وطرائق الكهانة divination عند

---

[3] يعني خط الرمل، قراءة الطالع انطلاقا من الخطوط الهندسية المرسومة على الرمل؛ أما الخط الزناتي فهو قراءة الطالع من خلال النجوم. انظر، مقدمة ابن خلدون، ترجمة دوسلان.

الكلدانيين.[4]

بهذه الطريقة إذن، استطاع محمد ولوج دور الملاح وأصبح صديقا لأولئك الذين يتداولون فيما بينهم القسم الشهير:"بربي شمعون".

وعندا إقامته بتيطاون للمرة الثانية، التقى رحالتنا بمديني مسلم كان يستدعيه إلى منزله. وفي صبيحة أحد الأيام، بقي محمد بالمنزل رفقة زوجة مضيفه، وهي امرأة سمراء قصيرة القامة وجميلة إلى حد ما، لكنها منحرفة حتى النخاع. ودار الحوار بينهما كما يلي:

- المضيفة: هل معك نقود؟
- الدرويش: ليست معي.

عندئذ قامت المرأة وأغلقت باب فناء الدار وخاطبته قائلة:

- سأفتش ملابسك

وأجابها محمد الذي لم يتحرك من فوق الزربية.

- فتشني.

وبالفعل، قامت بتفتيشه بعناية فائقة، إلى أن اكتشفت قطعتين من النقود، من فئة مائة سنتيم، كانتا مخبأتين تحت فرشة نعلي الجوال. ولم تعر اهتماما لكنزه الحقيقي وهو كتاب "دليل الخيرات" لسيدي أحمد بن سليمان الجزولي المراكشي، وهو دعوات في مدح الرسول(ص).[5]

وخاطبته التطوانية، بعد أن أظهرت له القطعتين النقديتين قائلة:

- والان، انا رهن إشارتك؛ وإذا ما رفضت، فإنني سأحتفظ بالنقود كسلف للغد؛ وأعدك بانني سأردها لك. وأمسكت بطرف جلابته وحاولت جره داخل غرفة مظلمة، لكنه تخلص منها

---

[4] بخصوص فن التنجيم القديم، يمكن الرجوع إلى المؤلفات التالية:

- Fabricius, Bibliotheca, graeca, Lib. III, cap. XXL
- Sayse, The astromony and astrology of the Babylonians.
- Maury, La magie et l'astrologie dans l'antiquité et le moyen-âge.
- Le Normant, la divination et la science des présages chez les chaldéens.
- Bouché-Leclercq, Histoire de la divations dans l'intiquité.

[5] ورد اسم هذا الولي وعنوان مؤلفه بشكل مختلف في كتاب الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 161، السطر 17، حيث جاء فيه: "أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات".

بحركة عنيفة وفر باتجاه الباب محاولا فتحها. ولما فشل في ذلك، قدمت المرأة واستخدمت أساليب معقدة لكي تفتحها وما أن وضع الرحالة رجليه بالخارج حتى أغلقتها وراءه.

ما الذي قالته لزوجها عند رجوعه؟ من المؤكد أنها أخبرته على طريقتها بالقطعتين النقديتين؛ وإذن أليس من المؤكد أن محمدا كان يخفي بالإضافة إلى هذه العشرة فرنكات، مبلغا أكبر؟ لذلك، بحث عن المضيف من جديد ووجده حوالي السادسة مساء بمقهى يملكه جزائري؛ وبادره بنبرة معاتبة لا تخلو من ود:

- كيف؛ أنت موجود هنا؟ لقد كنت أبحث عنك منذ الزوال، هيا معي إلى المنزل، فإننا هيأنا عشاءا لذيذ.

فأجابه الدرويش الذي أحس بوجود خطة ماكرة، لكنه لم يستطع مقاومة الرغبة في حضور المأدبة:

- اسبقني وسأتبعك

وعندما خرج التطواني، اقترب محمد من صاحب المقهى ومد له كتاب دليل الخيرات الذي يعتبره كنزه الوحيد ومصدر رزقه، لأن أي كتاب عربي يثير اهتمام الجهال الراغبين في الحصول على أحجبة؛ وخاطبه بصوت منخفض قائلا:

- احتفظ لي بهذا الكتاب، فهو أمانة عندك.

وخرج من المقهى فرحا وهو يفكر في المقلب الذي سيصنعه لمضيفه في حالة ما إذا رغب هذا الأخير في سرقته. فالغنيمة التي كانت تنتظر مضيفه الطماع كانت منحصرة في جلابة رديئة وحايك مرقع ونعلين قديمين. ولحق بالمديني وسارا معا إلى أن بلغا المنزل، حيث كان ينتظرهما بالفعل عشاء فاخر. وشاركتهما المرأة الشابة الطعام وكانت تخدم كل واحد منهما بالتناوب وتقول بدلال، إن سيدي محمد لا يأكل بما فيه الكفاية وتدفعه إلى ملأ بطنه بالطعام. وشعر الأمازيغي الذكي بالحيلة، لكنه استجاب لحسن الضيافة متسائلا كيف ستؤول الأمور. وبعد تناول العشاء خاطبه المضيف قائلا:

- ستقام حفلة بالبستان هذا المساء وستتخللها الأغاني والموسيقى بحضور الغلمان.

فأجاب الدرويش:

- فيها خير.[6]

وخرج الرجلان تاركين المرأة وحدها في المنزل. وكانت الليلة مظلمة، بحيث كانت النجوم تظهر وتختفي وراء السحب التي تدفعها الرياح. وكانت علامات العاصفة بادية بفعل قوة الرياح التي تهب من كل جهات الأزقة الوسخة والضيقة للمدينة.

وبلغ الرجلان بساتين الضاحية. وأحس الدرويش بظلال تتعقبهما، فأدرك على الفور بأن الأمر يتعلق بشركاء المضيف الذي كان لطيفا معه أثناء تناول العشاء. وفي الواقع، فإن الدرويش يكون نمرا صعب المراس في واضحة النهار، بأسماله وطريقته في المشي ووجهه المشرق. لكنه يفقد كل هذه المزايا في الظلام، بل يبدو أقل صلابة. وكان يفكر في هذه الأمور، عندما اقترب منه أربعة أشخاص حاملين بنادقهم على أكتافهم. وشعر محمد بالخطر فسأل رفيقه عنهم، غير أن الرجل ادعى عدم معرفته بهم قائلا:

- وما أدراني، لربما كانوا متوجهين إلى مكان الحفل هم أيضا.

وفضل الدرويش السكوت، متوقعا كل المصائب ومستعدا للتخلي عن كل ملابسه إذا ما طلب منه ذلك، وأصبح منشغلا بمسألة أخرى، وهي إبعاد أغصان الأشجار عن وجهه حتى لا تصاب عيناه. وظل يمشي في الظلام وهو يخشى تلقي ضربة غادرة من ورائه. ووصل الرجلان إلى طريق منحدر جهة البحر، تتكاثر فيه الأشجار إلى درجة حجب الرؤية على بعد قدمين. وتوقف التطواني وخاطب الدرويش قائلا:

- يا عزيزي، أريد أن أتبول. انتظرني هنا ولا ترافق أولئك الرجال، فسيسلبونك كل ما تملكه.

واختفى في الظلام مباشرة بعد ذلك تاركا الجوال وحده، لا يدري ماذا سيفعل. وقرر الرجال الأربعة أخيرا مخاطبته، حيث قال له أقربهم مسافة إليه:

- هيا لنذهب جميعا، لماذا توقفت؟

وشرع الدرويش في الصراخ: واهدا ! واهدا ! [أتركني ! أتركني]؛ عندئذ أمسكت به يد ودفعته بعنف وزمجر صاحبها قائلا:

- إن خوفك دليل على أن لديك نقودا.

---

[6] تعني هذه الصيغة، في الأمر خير، وهي تقابل الصيغة الفرنسية oui, parfaitement, c’est bien

وأكد الآخرون بصوت واحد:

- نعم، نعم؛ فهذا "اللون" [مثل هذا الشخص]، يتوفر على النقود بكل تأكيد؛ ألقه أرضا إذن.

وشرعوا في تفتيشه، مدخلين أصابعهم في فمه وشرجه، باحثين عن قطع النقود؛ ولما لم يجدوا شيئا ثار غضبهم وصاح أكثرهم عدوانية:

- إن ابن الكافر يكذب علينا. هاتوا السكين لكي أقطع رأسه !

وأمسك رجلان بمحمد الملقى على ظهره، في حين وضع الثالث ركبته على صدره والسكين على عنقه. وفكر الدرويش في تلك اللحظة بأن هؤلاء يريدون تخويفه كي يعترف لهم أين يوجد كنزه. وكان يعلم بأن المغاربة يشفقون على الأشخاص الذين لا يجدون لديهم نقودا، أملا في اعترافهم بالمخبأ الذي يطمع فيه سارقوهم؛ في حين أنهم يذبحون حاملي النقود، كي لا يتابعونهم فيما بعد. غير أن سكوت وصبر الرحالة، أغاظ أولئك اللصوص، وسأله الرجل الجاثم بركبته على صدره للمرة الثالثة، وهو يضغط على عنقه بسكينه:

- قل لي، أين توجد النقود؟ وإلا فإنك لن تفرح أبدا بضوء الشمس.

فقال الدرويش وقد خارت قواه:

- اتركوني وسأخبركم بمكانها يا أصدقائي، لأنكم إذا قتلتموني فلن تربحوا شيئا ولن تعرفوا أين خبأت هذه النقود.

وعندما تخلص من قبضتهم، أخبرهم بأنه دس خمس مائة فرنك من فئة مائة سنتيم، بقبة سيدي عبد السلام بالريسول؛ وأضاف قائلا:

- إذا لم تصدقوني، فليذهب إثنان منكم لجلب المال وليظل اثنان معي هنا، من أجل الحراسة.

وطبعا، فقد كذب عليهم الدرويش. لكن، كانت تلك أسلم طريقة لربح الوقت وانتظار بزوغ الفجر لتلقي مساعدة بعض البستانيين أو المارة المتوجهين إلى المدينة. وفضلا عن ذلك فقد كان يعلم بأن زاوية سيدي عبد السلام تغلق أبوابها طوال الليل؛ وبذلك سيكون لديه الوقت الكافي للتخلص من حراسه.

ورسم الأوغاد الأربعة فجأة خطة أخرى بعد أن أدركوا بأنه ليس باستطاعتهم الاحتفاظ برهينتهم مدة طويلة وإلا تعرضوا للخطر؛ فخاطبوا الدرويش قائلين:

- بما اننا نعرف أين خبأة نقودك، فنحن لم نعد محتاجين إليك. إذهب رأسا إلى بني سعيد؛ وإذا ما التقينا بك مرة أخرى بتيطاون، فسيكون مصيرك الذبح !

وتابع محمد طريقه محاطا بأفراد العصابة؛ وكانت السحب تتسارع من الشرق متجهة صوب الجنوب بفعل الرياح القوية. وعلى اليسار، كانت أمواج البحر الأبيض المتوسط تنكسر على الشاطئ. فسأل الدرويش جلاديه:

- هل ستظلون ورائي مدة طويلة؟

وكان الأوغاد أنفسهم غير مطمئنين، لأنهم أدركوا بأنهم بداخل تراب بني سعيد. لذلك دفعوا الدرويش بأعقاب بنادقهم قائلين:

- إذا رجعت مرة أخرى إلى تيطاون، فإن أباك القران، لن يفرح بابنه أبدا.

وعادوا أدراجهم بسرعة. وكانت نظرات محمد تتابعهم وهم يبتعدون عن منطقة بني سعيد التي لم يجرؤوا على البقاء بها.

وبعد مرور ساعة، شاهد بعض التجار الذين كانوا يحملون معهم لحما لبيعه بتيطاون، رجلا ممددا فوق الأرض؛ لقد كان نائما بوجه مكشوف وفم مفتوح وكأنه فوق أفضل سرير من النوع الفرنسي أو الإنجليزي. وخاطبه أحدهم وهو يلكزه بعصاه:

- هيه، انهض أيها الطالب !

ففتح الدرويش عينيه وسأله دون أن يتحرك من مكانه:

- من أنتم؟

فأجابه رجل قوي البنية، راكبا فوق حمار صغير:

- يا إلاهي، يبدو انك لم تسمع ببني سعيد من قبل.

فأصدر الجوال أنينا وقال:

- إنني أشعر بالعياء ولا أستطيع النهوض. هلا أركبتني فوق دابتك لوجه الله؟

فتقدم الرجل نحوه ملبيا طلبه؛ هكذا ركب الدرويش وراءه وانطلق الموكب الصغير ببطء وبدون انتظام حيث تعالت الأصوات المتكررة الصادرة عن راكبي الدواب: "هر، مالك؟"[7]

---

[7] هر، عبارة عن أمر، كي تتحرك الدابة. و"مالك"؟ هي بمثابة تساؤل يعني: ماذا حدث لك؟ وضمنيا، لماذا لا تتحرك؟

وبتيطاون، ظهر محمد في كل الأمكنة، خصوصا وسط الحشود المجتمعة بسوق الفدان؛ وهو على يقين بأن جلاديه لن يجرؤوا على مناوءته. ولما لم يلتق بهم في أي مكان، ذهب إلى زاوية سيدي بالريسول، للتأكد ما إذا كان أولئك الأوغاد قد أتوا فعلا إليها. وأخبره المؤذن بأن شخصين جاءا عند الفجر وفتشا في كل الجنبات والأركان وتحت الحصائر؛ ولما أعياهما البحث غادرا الزاوية دون إقامة الصلاة. واختتم المؤذن روايته قائلا:

- أستنتج بأنهما كانا من زوار الزاوية.

وأجابه الدرويش الذي كان على علم بالورع المزعوم لمثل هؤلاء الزوار:

- بلا شك، بلا شك.

غير أنه لم يتقدم بالشكوى ضد أي أحد؛ لأن المشتكى بهم سينتقمون لأنفسهم آجلا أم عاجلا؛ ولأنه كان يدرك بأن العدالة بالمملكة الشريفة لا تقوم بمتابعة الجاني، إلا إذا تلقت قطعا نقدية ذهبية.

وبقي محمد بضعة أيام بتيطاون، حيث كان يتناول الطعام بالمسجد أو لدى بعض المحسنين الذين يستضيفونه بمنازلهم.

وكان ذلك في زمن الرخاء، إذ كان ثمن الخبزة خمسة سنتيمات ونصف كيلو من اللحم بعشرة سنتيمات والخروف بستة فرنكات والعجل بخمسة وثلاثين فرنكا والدجاجة الكبيرة بسبع أواق [جمع أوقية] أي خمسة وعشرين سنتيما؛ وعشرة بيضات بقرش. أما اليوم فقد زادت الأثمنة وحل الغلاء محل الرخاء، مثلما هو الشأن في طنجة.

- هل من الممكن أن تزدهر تجارة المغرب؟ وهل يتعين عليها تحقيق ذلك؟

يجب الإقرار بأن المسلمين يحبون التجارة كثيرا، لكن يتعين الاعتراف أيضا بأنهم لا يجيدون ممارستها. ففي المغرب مثلا، تعتبر التجارة فنا محاطا بالأسرار وعلما خفيا بين يدي بعض الرجال الذين يستعملونه دون إفشاء سرهم.

وإذا ما قارنتم بين المغربي من جهة والإنجليزي واليهودي والألماني والفرنسي من جهة أخرى، فستلاحظون تفوق النشاط التجاري لهؤلاء؛ ولربما فكرتم بنوع من الشاعرية بمغرب مليء بالسكك الحديدية وبدخان المصانع، بأفرانها الضخمة التي يسمع دوي آلاتها العديدة

والحركات المنتظمة للمكابس الفولاذية الشبيهة بدقات القلب ! لكنه قلب حديدي لوحوش حديثة اسمها المصانع.

وبدل التبادل والإنتاج الغزيرين المهيمنين بالعالمين الجديد والقديم [أمريكا وأروبا]، ما الذي نراه في إمبراطورية الشرفاء؟

إن الجواب سهل. فالمغرب يظل بلدا ما قبل تاريخي بامتياز؛ إنه بلد "الشماسين" و "شاربي الشمس"، كما يقول العرب؛ وموطن العاطلين والبسطاء، حيث يكتفي المرء بحفنة من الفول وبثمار الصبار وبأسمال بالية، يتم ارتداؤها بشموخ ووقار يذكر بسلوك أتباع الرسول (ص).

والسؤال المطروح الآن، هو معرفة ما إذا كان الجمود المزعوم للشعوب الإسلامية حقيقيا؛ وما إذا كان المجتمع الإسلامي منغلقا وساكنا وغير متطور، وكأنه محكوم بقدر محتوم.

فهل يتعلق الأمر بإنكار للحاجيات أم بإنكار للتقدم؛ وأي من هذين الموقفين يمكن تبنيه؟

لا هذا ولا ذاك. كما أننا نرفض كلا من النزعة الإقصائية المزعومة للروحانيين المسلمين والنزعة الإقصائية العاطفية لسوسيولوجيينا الجزائريين المرموقين.

فلننظر إلى المسألة بدقة. إن الشموس والكواكب المتناثرة في المساء والتي إذا ما قارناها بوكر النمل الذي نعيش فيه، تعتبر مثل قبة عظيمة أمام ذبابة. فهذه الأفلاك تولد وتعيش وتموت وتبعث من جديد وتتحول في كل ثانية من ثواني الزمن الخالد في هذا العالم اللا متناهي.

فهل يمكن للمجتمع الإسلامي أن يدعي الخلود والكمال والثبات؟ ألن يخالف القانون الكوني للتكون والتحلل؟

إنكم تضعون له حدودا وتحبسونه داخل غطاء زجاجي بقولكم:

- إنه لن يزول ولن يتحول ولن يتطور ولن يتقدم ولن تكون له نهاية. فيا له من أمل مجنون، ذلك المتمثل في مقاومة قانون الكون الذي تتشكل كواكبه وذراته وأدواته المستعملة باستمرار !

أوليس من البديهي الإقرار بأن الكون خاضع لنفس القوانين ولا يمكن أن يستثنى منها أحد. لن نتوقف كثيرا عند هذه المسألة وعلينا أن ننظر إلى المستقبل بثقة وأن نقر بأن الإسلام لا

يشكل استثناء عن القاعدة؛ فسيضطر رغما عنه، بعد سنوات، إلى ولوج الحركة التجارية الدولية، لكي ينخرط فيما بعد، في معمعة الأفكار.

لكنكم قد تتساءلون: وماذا عن السعادة التي تجلبها السيادة الأبوية وما هو مآلها في ظل تحول المغرب إلى ورشة كبيرة؟

وجوابي هو أن الروح الكئيبة وغير النافعة والكسولة والمنعزلة قد تجد ملاذا لها في إحدى الغابات، لكن العامل المفيد والنزيه سيؤسس عائلة محترمة. وهل نرغب في شيء آخر بالنسبة للإنسانية المجيدة؟

ـ هل يمكن اعتماد الإحصائيات الرسمية كمؤشر لازدهار التجارة بالمغرب؟

طبعا لا؛ فإلى جانب النقط الخفية التي لا تشير إليها، فهي تستثني أغلب مناطق البلد التي لم يسبق لقدم الرومي أن وطئتها. وهنا نسترجع مثال الذبابة والقبة العظيمة. فنحن نتعرف على بعض تفاصيل الحشرة وهذا أمر مهم، لكن ألا تكتسي القبة نفس الأهمية؟ هكذا يتم التغاضي قصدا عن الموارد الغنية الموجودة بجوارنا بذريعة أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، جلب معلومات دقيقة حول العلاقات التجارية ببلاد السيبة الشاسعة. لكن أليس باستطاعة الحكومة كمجموعة قوية، أن تقوم بما قام به بكل تواضع، مؤلف "المغرب المجهول"؟ علما بأن حظوظ نجاحها ستكون أوفر. وإذن، عليكم أن تبعثوا بطلبتكم ورحالتكم المسلمين، إلى الأراضي المجهولة لجيراننا بالغرب وستلاحظون الحصاد الغني من المعلومات التي سيتم جلبها.

ـ تجارة بلاد الأمازيغ في ا لعصر الوسيط:

إن لمحة عامة حول التجارة الداخلية والخارجية لمستعمرات قرطاج وروما الإفريقية، تسمح لنا إذا ما حاولنا رسمها، بالتعرف على الازدهار المتنامي للفروع التجارية ببلاد الأمازيغ [البرابر] وما عانته المنطقة الممتدة من طرابلس إلى المحيط الأطلسي، من صراعات دموية منذ الفتح الإسلامي إلى أن تحققت في ربوعها- تهدئة دينية وسياسية، بفضل أحد القادة الأشداء، وهو عبد المومن، مؤسس الإمبراطورية الموحدية في القرن الثاني عشر الميلادي.

في تلك الفترة، كانت بلاد الأمازيغ بما فيها المغرب، منفتحة على النشاط التجاري المسيحي بحوض البحر الأبيض المتوسط. وضمن هذا الصراع السلمي lutte pacifique، يعتبر

الإيطاليون متفوقين علينا. فمدن جنوة Gènes وبيزة Pise والبندقية Venise، كانت مرتبطة بعلاقات دائمة مع إفريقيا الشمالية. ولأن إسبانيا كانت منشغلة بحرب استعادة أراضيها فإنها تركت المجال أمام البلدان اللاتينية الأخرى؛ وخصوصا فرنسا التي دخلت المشهد التجاري، في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، بفضل شعوب ساحلها المتوسطي وتحديدا، ساكنة البروفانس Provence. وفي سنة 1138 قامت مرسيليا Marseille وبإشراف جنوة القوية، بتوقيع معاهدة تجارية تنظم بمقتضاها العلاقات القائمة مع المغرب. وقد حقق بحاروها تقدما هائلا في هذا المجال، إلى درجة أن الملك الإنجليزي ريتشارد Richard استأجر المراكب سنة 1190 وسلحها في المدينة الفينيقية القديمة. اقرؤوا ماس لاتري Mas Latrie بعناية وستتعرفون من خلال الصفحات الرائعة لمؤلفه، على الحياة المجهولة لمغاربة بلاد الأمازيغ، التي لم تقدر حق قدرها. وهذا المثال الرائع للتضامن بين شعوب متنافسة في كل من مرسيليا Marseille وآرل Arles ومنبوليي Montpellier ونيم Nimes وسان جيل Saint-Gilles وناربون Narbonne والبلديات الإيطالية ومدينة برشلونة Barcelone، حيث نسقت فيها بينها لتنظيم تجارتها الخارجية. أفلا يعتبر ذلك أول شرارة للأخوة الكونية التي بدأت تلمع في الليل البهيم للقرون الوسطى؟

لقد عمل تجار تلك الفترة كفلاسفة حقيقيين، على إزالة الحواجز البليدة التي أقامتها الديانات بين البشر. وبرزت في هذا الإطار، عائلة فرنسية كاد اسمها أن يختفي، لأنها قامت بأعمال خيرة؛ فلو كانت قد ارتكبت المجازر لكان اسمها لامعا في التاريخ. وإليكم ما كتبه مؤلف "علاقات إفريقيا الشمالية وتجارتها مع البلدان المسيحية في العصر الوسيط".[8]

- تشير المعاهدات والشهادات المتوفرة إلى أن تجارة مرسيليا كانت مزدهرة منذ الحروب الصليبية؛ وبأن مراكبها كانت تجوب أغلب الموانئ الكبرى للبحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة [سنة 1255 ميلادية]. وسمح اكتشاف دفتر حسابات عائلة تجارية من مرسيليا في القرن الثالث عشر الميلادي، بإضافة صفحة ثمينة إلى هذه التجارة. [9]

---

[8] Mas Latrie, p. 155

[9] Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen âge, par L. Blancard, in-8, t. 1er , Marseille, 1884.

- إن نشر السيد بلانكار Blancard لهذه الوثيقة، أزاح الغطاء عن تفاصيل بعض العمليات التجارية التي لم تذكرها المعاهدات ومكن من معرفة طبيعتها وقيمتها.

- صحيح أن عائلة ماندويل Manduel المرسيلية، لم تؤثر في مسار التاريخ، فقد كانت علاقاتها التجارية البحرية وثرواتها، بنفس حجم ثروات عائلات من البندقية وجنوة وفلورانسا؛ لكن كارثة أصابتها بالإفلاس، عقابا لها عن التدخل في الشؤون السياسية والتآمر ضد شارل دانجوCharles D'Anjou. ومع ذلك، يمكن الإقرار بأن عائلة ماندويل كانت من أشهر عائلات مرسيليا وإن لم تكن الوحيدة؛ فإلى جانب مراكبها الموجودة بالحوض الفينيقي القديم، كانت هناك مراكب ومنشآت تجارية لمستغلي السفن armateurs وللبنكيين. وتسمح معرفة نشاط هذه العائلة، بإبراز شساعة وتنوع التجارة بمرسيليا، أواسط القرن الثالث عشر. فقد كان لعائلة ماندويل مراسلون في موانئ المتوسط. وتشير سجلاتها بالخصوص، إلى علاقات تجارية مستمرة مع تابولي Naples وجزر الباليار Baléares، حيث كانوا يملكون أراضي شاسعة وعكا وقبرص والإسكندرية وتونس وبجاية وتلمسان ووهران وسبتة. ويوجد بهذه المدينة الأخيرة فندق مخصوص لأهالي مرسيليا والبروفانس.[10]

وبالشمال، كانت العائلة تقيم علاقات تجارية مع انجلترا، حيث كانت تصدر إليها السكر والشبة alun والتوابل. أما فرنسا، فكان مستخدموها يحضرون بانتظام إلى معارض شمبانيا Champagne ولاندي سان دوني Lendit de Saint Denis ؛ إضافة إلى الأسواق القريبة بنيم وأفنيون ومنبوليي حيث كانت العائلة حاضرة باستمرار.

وكانت البضائع تنقل بواسطة الدواب وبدون استعمال العربات. والملاحظ أن عصب تجارة هذه العائلة، كان يتمثل في المعاملات البنكية والمبادلات النقدية والسلفات والاتجار في النقود والمعادن الثمينة. وكانت تتاجر أيضا في الأجواخ والمنسوجات والخيوط والحرير والقطن وشبة حلب والجلود والمرجان والفضة والحديد والقصدير والتوابل؛ وأحيانا في العبيد؛ هكذا، فإن عائشة الزنجية المسلمة، يمكن ان تباع لزبون من مرسيليا بثمانية جنيهات واثني عشر

[10] Actum in Septa, in fondico marcillienci / 1236, p. 108.

دينارا وهو ما يعادل واحدا وتسعين فرنكا، كقيمة ثابتة حسب بلانكار [وهذا تقدير ضعيف في اعتقادنا]، أي أربع مائة فرنك كقيمة نسبية.

وبالمنشآت التجارية للعائلة، تعرض كل أنواع الأجواخ مثل الأجواخ الرمادية لأفينيون Avignon والخضراء لكامبري Cambris وأجواخ دواي Douai وأراس Arras وسان كنتان دولوفييST Quentin de Louviers والأجواخ الخضراء والزرقاء والبيضاء لشالون Châlon وأثواب باريس الصوفية والمخططة والأثواب الزرقاء لمنطقة البروفانس وخيوط بورغون Bourgogne ومنسوجات ألمانيا والأثواب الحريرية لسيفين Cevennes.

أما بتونس وبجاية، فكانت تستورد على الخصوص التوابل والملح وأجواخ فرنسا والجلود المدبوغة وكرات القطن وأيضا القطن المصنوع والمنسوجات وحرير أراس Arras والمنتوجات الحريرية لسيفين؛ وبسبتة كانت تستورد الأجواخ والخمور والدقيق وخيوط بورغون والقطن والجوخ الخفيف وعود الند والمرجان والخشب المصنوع والتوابل الكثيرة.

ولا يهم، إن كانت إيطاليا هي المسيطرة على هذه التجارة، لأن البندقية وفلورانسا كانتا بمثابة ملكتين سائدتين على البحر. فمن البحيرات الشاطئية للأدرياتيك Adriatique، كانت تنطلق مئات المراكب الشراعية نحو كل الاتجاهات. وكانت مصر تقدم للبندقية بضائع الهند والصين وشبه الجزيرة العربية؛ أما قبرص فكانت تزودها بالقطن والقمح والسكر؛ وكانت آسيا الصغرى وقسطنطينية، ومنطقة البليبونيز Péléponèse باليونان، تبعث إليها بمنتوجات حلب ودمشق وفارس وآسيا العليا. أما المغرب، فكان يزودها بالملح والقمح والشمع والصوف والجلود.

وبالمقابل، وبغض النظر عن المعادن والأجواخ والمنسوجات، فقد كانت تفرغ بشواطئ موريطانيا ومصر، كميات كبيرة من المصنوعات الزجاجية الصغيرة verroteries لتوزع داخل إفريقيا؛ وكميات أقل من الأواني المعدنية Quincaillerie والمنتوجات الخشبية المحلية؛ كما كانت تحمل إلى الشرق برمته البضائع المصنعة التي يأتي بها عملاؤها الأجانب من كل مكان، ويملؤون بها متاجرها ومحلاتها التي كانت عبارة عن سوق عالمية دائمة، تعرض بها منتوجات الشرق والغرب". ويضيف ماس لاتري قائلا: "إليكم اللوحة التي رسمها حاكم البندقية توماس موسنيغو T.Mocénigo أمام أعضاء مجلس الشيوخ،

وهو على فراش الموت، ضمن خطاب يعكس رضى رئيس دولة قوية ومزدهرة. ومما جاء في هذا الخطاب: "الحمد لله، لقد انخفض الدين العمومي في عهدنا إلى أربعة ملايين؛ وقمنا بسك مليون قطعة ذهبية ومائتي ألف قطعة فضية في السنة. ولديكم بالبحر ثلاثة آلاف مركب صغير، على ظهرها سبعة عشر ألف بحار؛ وخمسة وأربعون سفينة شراعية بأحد عشر ألف بحار. وتشغل مرافئنا ستة عشر ألف عامل من صناع السفن أو النجارين المكلفين بصناعة السفن الحربية. وانتم تحملون معكم عبر العالم عشرة ملايين قطعة نقدية من البضائع، مقابل خمسمائة ألف بالنسبة لسوريا ومصر. ويرسل إليكم تجار فلورانسا ستة عشر ألف قطعة من الجوخ، تقومون بتصديرها إلى كل من بوي Pouille وصقلية وبلاد الأمازيغ وسوريا وقبرص ورودس Rhodes ومصر ورومانيا وكاندي Candie وموري Morée وإستري Istrie. بالمقابل، فهم يشترون منكم كل أسبوع ما مقداره سبعة ألف قطعة ذهبية من صوف فرنسا وكتلونيا وهولندا وبلجيكا وأيضا الحبوب والحرير والذهب وخيوط الفضة والشمع والسكر والحليب. وتمنحكم البلدان الأخرى نفس الأرباح الطائلة، إلى درجة أن مداخيل استئجار السفن nolis وحدها، تصل إلى مليوني قطعة ذهبية والأرباح المستخلصة من التصدير والاستيراد إلى مليونين أيضا. فعليكم متابعة هذه الطريق وستكونون دوما أسياد الجميع."[11]

ورغم المجهودات المشكورة للويس الحادي عشر، فإن التجارة الفرنسية بإفريقيا بدأت تتضاءل تدريجيا. ففي بداية القرن الخامس عشر، أصاب المنشآت التجارية الفرنسية الأكثر نشاطا، جمود كبير استفاد منه الكتلانيون وخصوصا الإيطاليون الذين استقروا بموانئنا وأصبحوا يقومون بمعاملات تجارية أفضل وأكثر منا.

وحدث الانهيار بالنسبة للجميع، مع قيام النظام التركي [العثماني] الذي كان هدفه الوحيد، هو تحويل بلاد الأمازيغ إلى شعب من القراصنة؛ وكان ذلك في القرن السادس عشر الميلادي.

فيا لها من ليلة طويلة ! حيث أباد المسيحيون والمسلمون بعضهم بعضا، بعنف بليد، من أجل إرضاء دينهم. واليوم، عندما بدأت هذه الغيوم تنقشع، ها نحن نرى قارة من أكثر القارات

[11] Mas Laterie, Commerce de l'Afrique septentrionale, p. 464.

إستنارة وقوة، وقد أصبحت – بعدما كانت ترتعب من وكر القراصنة – تغار ببلادة من القوة التي حددت لنفسها مهمة القضاء على القرصنة الهمجية !

إن احتلال الجزائر من طرف فرنسا، يعتبر من بين اللحظات الكبرى في التاريخ. وستبقى سنة 1830، خصوصا بالنسبة لشعوب إفريقيا الشمالية، هي السنة والحقبة التي تحمل في طياتها البذور الخصبة للحريات وللأخوة التي كانت بعيدة المنال. [ملحوظة المترجم: إن دفاع موليراس عن الاستعمار الفرنسي كحامل لمشعل الحضارة واضح؛ فعباراته لا تحتاج إلى بيان. انظر بهذا الخصوص، تقديمنا للجزء الأول من المغرب المجهول].

- تجارة المغرب الخارجية سنة 1894:

لنقفز فوق السنوات، بالرغم من اندهاش أولئك الذين يعتقدون أننا سنقف مطولا على المعاملات التجارية للقرون الماضية؛ ولنبدأ بسنة 1894.

وقد فرض علي هذا التاريخ من طرف الإحصائيات الحديثة التي حصلت عليها مؤخرا. وتشكل هذه الإحصائيات جزءا من وثيقة حول العلاقات التجارية لدبلوماسيي وقناصلة فرنسا[12]. وهي كراسة صغيرة من ثلاثين صفحة، عنوانها "تجارة المغرب"، وتعتبر مهمة بالنسبة لكل راغب في مراجعتها وتتضمن معطيات مثيرة، كما أن ثمنها رمزي وهو عشرون سنتيما.

وأعتقد بأنه يجب توزيعها مجانا بفرنسا وإلزام تجارنا الكبار باقتنائها، حتى يدركوا بأنفسهم ما يتعين فعله وما هو نوع الصراع الذي يجب خوضه بالمغرب في مجال التجارة. وعلينا أن نحتاط كثيرا، فالسوق المغربية تنفلت من بين أيدينا تدريجيا؛ ذلك أن ألمانيا وبلجيكا تنافسان السكر الفرنسي وانجلترا نزعت منا تجارة الشموع. وإليكم الانتقادات والنصائح الواردة في الكراسة المذكورة:[13]

---

[12] Annexe au moniteur officiel du commerce, 4, rue du Bouloi, Paris.

وتصدر هذه الكراسة مرة في السنة. وأنا أشكر السيد بومبار مدير القنصليات بوزارة الشؤون الخارجية الذي لفت انتباهي إليها.

[13] Le commerce du Maroc, annexe au moniteur officiel du commerce du 26 mars 1896, n°339.

وإلى حد كتابة هذه السطور، أي في 20 فبراير 1898، لم تصدر بعد أعداد دورية" العلاقات العامة Les rapports généraux" لسنوات 1895، 1896 و 1897.

"إن تجارة فرنسا بالمغرب التي كانت مستقرة نسبيا منذ سنوات 1890، 1891 و 1892، عرفت تراجعا ملموسا خلال سنتي 1893 و 1894. ولا يعتبر الأمر مفاجئا بالنسبة لسنة 1894، حيث أدت الفوضى الناتجة عن موت مولاي الحسن، إلى عدم توفر الأمان بخصوص المعاملات التجارية وإلى تراجع هام في المبادلات مع المغرب بشكل عام، مما أدى إلى وقوع خسائر مالية لإنجلترا ولقوى أخرى، شبيهة بتلك التي لحقت بنا. لكن من جهة، لا يمكن إرجاع النقص الملاحظ سنة 1893 على مستوى تجارة فرنسا إلى هذه الأسباب؛ ومن جهة أخرى، نستطيع الإقرار بأن بعض التجار تمكنوا سنة 1894 نفسها، من المناورة في بعض الحالات، بحيث استغلوا هذه الظروف، رغم كونها غير مشجعة.

لذلك، وجب علينا أن نراقب بجدية سوق معاملاتنا بالمغرب. فالتراجع الذي نتأسف عليه ليس مهما بشكل كبير؛ وما زالت فرنسا تلعب دورا أساسيا، ما دامت تحتل المرتبة الثانية بعد أنجلترا، لكن بعيدا عن إسبانيا وألمانيا اللتين تحتلان المرتبتين الثالثة والرابعة.

لكن الاتجاه المشار إليه هنا، يبدو مزعجا؛ ومن مصلحة رجال الصناعة والتجارة الفرنسيين، الصراع بفعالية أكثر مما مضى، لمواجهة منافسة تتقدم بخطى متسارعة".

وفي الصفحة 20 من الكراسة، نجد ما يلي: "وفضلا عن ذلك، فإن الأجانب وخصوصا الألمان، أكثر جرأة من الفرنسيين في إنشاء مراكز تجارية جديدة وإرسال ممثليهم في كل أرجاء البلد؛ والبحث عن منافذ لبضائعهم؛ وهو ما ينجحون غالبا في تحقيقه.

ونود الإشارة إلى شيء آخر، وهو أن التجار الأجانب يبدون مرونة أكبر من مرونتنا لتلبية الرغبات والأذواق الغريبة للأهالي ولا يرون أي حرج في تغيير طرق معاملاتهم. فالمغاربة يطلبون أثوابا واسعة حينا وضيقة حينا آخر؛ وشموعا ضخمة وطويلة تارة ودقيقة وقصيرة تارة أخرى، كما يريدونها مغلفة بشكل مغاير عن المرة السابقة.

ويقبل بعض التجار هذه المطالب دون إبداء أية ملاحظة. أما تجارنا الذين يثقون في جودة منتوجهم، فلا يقبلون هذه الممارسات؛ وبذلك يستحوذ منافسوهم على الزبناء.

وهناك مسألتان هامتان، تمكن منافسونا الأجانب عبرها من تحقيق مكتسبات هائلة، وهما مسألة الأثمان المنخفضة ومسألة السلف. بالنسبة للثمن ولشكل البضائع، فإن الصانع

الفرنسي يرفض التنازل، لأنه يعتبر منتوجه ذا جودة عالية. طبعا، فإن هذه الجودة معترف بها بالمغرب وخارجه. لكن المغربي يرغب أساسا في اقتناء البضائع بأثمنة رخيصة؛ فمسألة الثمن تحظى لديه بالأولوية.

إن التاجر المغربي الذي يشتري الجوخ والسكرالفرنسيين من أجل استعماله الخاص، لا يقدم لزبونه سوى الثوب الألماني والسكر البلجيكي، لأنه يعلم بأن بضاعتنا لن تباع بسبب غلاء ثمنها. فمن اللازم على المنتجين الفرنسيين أن يهتموا بالجودة وأيضا بالأسعار المنخفضة.

فقد أدى تخفيض الأسعار إلى انتقال السوق الهامة للشموع التي كانت في ملكنا، إلى الإنجليز؛ كما أثر سلبا على تجارة الصوف لدينا.

واليوم، فإن هناك حملة ضد إنتاجنا من السكر؛ ورغم أن احتكارنا لهذه السوق لم يتأثر كثيرا، إلا أن الألمان والبلجيكيين، خلقوا منافذ لبضاعتهم على حسابنا. وإذا ما تطورت تجارتهم في هذا الاتجاه، فسيكون بمثابة فشل كارثي لتجارتنا بالمغرب.

وأخيرا، فإن التسديد عبر دفوعات يلعب دورا هاما في التعامل مع الأهالي؛ وقد كان منافسونا أكثر مخاطرة في هذا الباب. فالمؤسسات التجارية الألمانية أجرأ من مؤسساتنا، لأنها تحصل على مستحقات أثوابها خلال أربعة أشهر؛ وسارت المؤسسات السويسرية على نهجها، بحيث مددت الأجل إلى ستة أشهر. وبخصوص السكر فإن المنتجين المرسيليين، يجبرون الزبناء على دفع الحساب كاملا؛ اما باقي المنافسين فيقترحون تسديد الدين على مدى ثلاثة أو ستة أو تسعة أشهر، وإذا ما عجز الزبون عن أداء الدين في الوقت المحدد فإنه يحصل على تمديد لستة أشهر أخرى، بفائدة 6%.

وباختصار، فإن عملاءنا يعتبرون بأن التجارة الفرنسية بالمغرب يمكنها أن تتطور بدل أن تتراجع، إذا ما أخذ تجارنا بعين الاعتبار، كل الملاحظات السالفة.

ويجب أن يتحدد هدف مواطنينا، في الحفاظ على سوق السكر وفتح أسواق أخرى بخصوص الشموع والمنتوجات الصوفية والقطنية.

فبإمكانهم تحقيق ذلك، إذا ما كانوا أكثر نشاطا ولطفا."

جدول متعلق بتجارة الموانئ المغربية
مع البلدان الأجنبية خلال سنة 1894

البلد	الصادرات	الواردات	المجموع
بريطانيا العظمى	10805400 فرنك	18755075 ف	29560484 ف
فرنسا	6225305 ف	11398050 ف	17623355 ف
إسبانيا	7652399 ف	971415 ف	8623814 ف
ألمانيا	2199735 ف	3369370 ف	5569105 ف
بلجيكا	2600 ف	1460995 ف	1463595 ف
مصر	1276220 ف	x	1276220 ف
البرتغال	764567 ف	x	764567 ف
إيطاليا	333552 ف	69640 ف	403192 ف
السويد	x	118175 ف	118175 ف
هولندا	x	64215 ف	64125 ف
الولايات المتحدة	25520 ف	x	25550 ف
طرابلس	9540 ف	x	9540 ف
اليونان	3990 ف	x	3990 ف
النمسا هنغاريا	240 ف	x	240 ف
آخر	x	66825 ف	66825 ف
المجموع	29299107 ف	36273760 ف	65579867 ف

التجارة عبر الحدود الجزائرية والمدن المغربية المحتلة من طرف إسبانيا :

إن الجدول السابق ناقص. فهو يتضمن ثغرتين على الأقل وهما : النظر إلى تجارة فرنسا من خلال حدودها الوهرانية فقط؛ وإلى تجارة إسبانيا من خلال المدن المغربية التي احتلتها. وإذا ما صدقنا كراسا يوجد بين يدي[14]، فإن سوق للا مغنية وسوق دبدو، يبيعان لوحدهم سنويا، ما قدره عشرة ملايين فرنك، هي قيمة الخراف والصوف والوبر والجلود التي يتم جلبها من القبائل المغربية المجاورة. وما قدره خمسة أو ستة ملايين فرنك، هي قيمة البضائع الأروبية التي يزود بها التجار نامور Nemours وللا مغنية ودبدو وتلمسان[15]؛ وهو ما مجموعه خمسة عشر مليون فرنك، تضاف إلى رقم المعاملات التجارية الفرنسية – المغربية.

من جهتها، فإن المدن المحتلة من طرف إسبانيا، يمكنها أن تحقق بالمغرب رقم معاملات تصل قيمته إلى مليون وخمس مائة ألف فرنك سنويا.

وفي هذه الحالة ستنقلب الادوار، بحيث لن تحتل فرنسا المرتبة الثانية بل الأولى؛ وستبتعد عن انجلترا بما قدره ثلاثة ملايين فرنك.

وإذا ما قبلنا هذه التعديلات، فسيصبح الجدول على الشكل التالي :

فرنسا بمجموع	32623355 فرنك في السنة
بريطانيا العظمى بمجموع	29560484 فرنك في السنة
إسبانيا بمجموع	10123814 فرنك في السنة

طبعا، فإن هذا الجدول ليس دقيقا بالكامل. صحيح أنه يتضمن معطيات مضبوطة بخصوص التجارة الخارجية المغربية. لكن رقم معاملات التجارة الداخلية التي تعتبر أكثر أهمية، يظل مجهولا. وحتى التهريب الذي يمارس بنشاط على الحدود البرية والبحرية، لا يخضع لأي تقييم؛ إنه شبيه بلغز أبي الهول الذي لا يمكن حله. ويمكن القول، إن المغرب هو ذلك اللغز العميق وذلك البلد الغريب الذي مازال ينتظر أوديب Œdipe الذي سيفك هذا اللغز.

وكلما بلغنا مدينة أو ميناء مغربيا وسمحت لنا الإحصائيات الرسمية بتنوير القارئ حول الجغرافيا الاقتصادية للبلد، كلما رأينا من الواجب إعطاء كل التوضيحات الممكنة.

(14) Le Maroc, étude commerciale et agricole, par Wolf Rom, in- 12, Paris, 1893, 56 pages.

(15) لماذا لم يتم ذكر وجدة ؟

فلنبدأ الآن بالحركة التجارية بتطوان سنة 1894: إن الحركة التجارية بهذه المدينة لم تعد مهمة في السنين الأخيرة؛ بحيث لم تبلغ المبادلات التجارية سنة 1894 سوى 1214250 فرنك بالنسبة للاستيراد و 203450 فرنك بالنسبة للتصدير. وقد كانت فيما قبل متفوقة ثم مساوية للحركة التجارية بطنجة؛ ولكنها تراجعت بعد ذلك، بسبب نقص في وسائل التواصل. ويشمل التصدير كلا من الفلين والشمع والعظام والجلود والدجاج؛ أما الاستيراد فيشمل السكر والقهوة والشاي والدقيق والشموع والسميد والتوابل وأثواب الحرير والقطن والأجواخ.

وإذا ما راجعنا مجددا الملاحة البحرية، فإننا سنعتقد لأول وهلة بأن هذه التجارة محتكرة من طرف انجلترا وحدها، ما دامت تمر كلية عبر جبل طارق. وفي الواقع، فإن النقص الذي نشكو منه ليس مطلقا، لأن عددا كبيرا من البضائع يستورد من مرسيليا أو يصدر إليها. لكن، من المؤكد ان تجارتنا تراجعت بتطوان أكثر من أي مكان آخر. وفضلا عن غياب وسائل التواصل المطلوبة، فإن تخفيض الأسعار من طرف الألمان والإنجليز، أثر سلبا عليها. فشموع وقطن انجلترا وسكر وأجواخ ألمانيا، تسعى إلى الحلول محل منتوجاتنا. [16]

لقد كانت فرنسا منذ حوالي اثني عشرة سنة، تحتل المرتبة الثالثة. طبعا هذا لا يتناسب مع قوتها، لكنها كانت ثالثة على أية حال. فهل ينطبق نفس الأمر على ألمانيا التي لم تكن مدرجة في الجدول الموالي؟ ألم تحتل مكان فرنسا ولربما أيضا، مكان إسبانيا المسكينة المتأثرة بحروبهافي كل من كوبا والفليبين؟

[16] Le commerce du Maroc, annexe au moniteur officiel du commerce, 26 mars, 1896, Paris.

حركة ميناء تطوان سنة 1886 [17]

السنة / البلد	الواردات	الصادرات	المجموع
1886			
بريطانيا العظمى	1126600 فرنك	152325 ف	1278925 ف
إسبانيا	17500 ف	106250 ف	123750 ف
فرنسا	47675 ف	46150 ف	93825 ف
1887			
بريطانيا العظمى	1243875 ف	232975 ف	1476850 ف
إسبانيا	46700 ف	74375 ف	121075 ف
فرنسا	17300 ف	17600 ف	34900 ف

القرى الرئيسية ببني حوزمر :

- تيطاون [المدينة]، 25 ألف نسمة، من بينهم 5 إلى 6 آلاف يهودي؛ ويمكنها تعبئة 3 ألف رجل من المشاة .
- كيثان، 300 منزل، قرب واد مرتيل
- الحجر، 100 منزل على واد مرتيل

القوى العسكرية باستثناء تطوان، 3 ألف جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 42 ألف نسمة بما في ذلك ساكنة تطوان؛ التعليم نادر الانتشار، باستثناء تطوان التي تمتلئ الزوايا الموجودة بها بالطلبة؛ المنطقة غابوية وجبلية.

وهناك العديد من القرى التي لم أتمكن من ضبط أسمائها.

نبذة تاريخية عن تطوان [بني حوزمر]

إن التاريخ القديم لتطوان مذكور في هذا المقطع لبلين Pline:

« Flumen tamuda navigabrite, quondam et oppidum » [Hist.nat.V.2]

---

[17] Bians Conis, Carte commerciale du Maroc, 1891, Paris.

و Flumen Tamuda هو واد مارتيل المذكور من طرف بطليموس Ptolémée، أما تامودا فهي كلمة ليبية، مشتقة من تامدا بمعنى السبخة marais. وفي زمن بلين [القرن الأول الميلادي]، لم تعد oppidum Tamuda موجودة. هكذا، فعندما وضع المغاربة اثنى عشر قرنا بعد ذلك، أسس مدينتهم على موقع الحاضرة القديمة، لم يكن أحد يعلم بأن تامودا القديمة التي اختفت آثارها، ستحيا من جديد تحت اسم أمازيغي.[18]

إن الأسطورة التي ساهمت في تخليد وقائع لا أهمية لها، قد اختفت هي أيضا في هذا القبر المظلم ولم يبق أي شيء عن هذا المركز القديم باستثناء عبارة الجغرافي الروماني الشهير؛ إلى أن وضع السلطان المريني أبو ثابت عامر بن عبد الله، الأسس الأولى لتطوان في القرن الثالث عشر الميلادي، على المرتفعات التي بنيت فوقها تامودا القديمة. وقد وجدت معلومات هامة حول تطوان الحديثة ضمن الأحداث غير المنتظمة المحكية بكتاب الاستقصا؛ وإليكم النص الأصلي :

"وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبة تطاوين[19] ؛ تم أمر السلطان[20] باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة.

هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون؛ واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة. وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في خمس وثمانين وستمائة وذلك لأول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بنى السلطان أبو ثابت هذا المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة. وكان بناؤها خفيفا شبه القرية عدا قصبتها، فإن بناءها كان محكما وثيقا. واستمرت هذه المدينة عامرة إلى صدر المائة التسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة، حسبما يأتي الخبر عن ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى. قالوا ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها في لسان البربر العين ووين وهي كناية عن المخاطب نحويا فلان وما

---

[18] أنظر العمل الرائع لتيسو Tissot وعنوانه :

-Recherche sur la goégraphie comparée de la Maurétanie Tingitane, Paris, 1877.

[19] الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 43 السطر 25

[20] وهو السلطان المريني أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق.

أشبه ذلك. [21] قالوا والسبب في تسميتها بذلك، أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة مفاجأة العدو، فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين أي فلان افتح عينيك، لأن عادة الحارس أن يقول ذلك، فصار هذا اللفظ عليها. ويظهر أن هذا من كلام العامة ولا أصل له[22] وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والإضافة مقلوبة كما هي في لسان بعض الامم العجمية، فإنه لا مستند له والله أعلم.[23]

وفي هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضا، فزعم منويل في تاريخه أن قراصين مسلمين من أهل تطاوين وغيرهم، كانت تغير على سواحل إسبانيا وتغنم مراكبها، ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمان مائة هجرية، بعث الطاغية الريكي الثالث شكوادزة لغزو تطاوين ومراكبها، فانتهت إلى وادي مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التي به، ثم نزلت عساكر الأصبنيول وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة، ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي كما سيأتي.[24]

---

[21] وهذا خطأ لأن "وين" تشير إلى جمع المؤنث في اللغة الأمازيغية، أنظر : V. Hanoteau, Grammaire kabyle, p. 32 et 35

وانظر أيضا ما ذكرته من قبل بخصوص المعنى المزدوج لكلمة تيطاوين وهو المعنى الوحيد المقبول، ويمكن الرجوع إلى R.Basset, la Zenatia du Mzab et la Zenatia de l'Ouarsenis in-8, Paris 1893 et 1875. وتحديدا إلى كلمة عين في المعجم الفرنسي- الأمازيغي.

[22] ولم لا ؟ فهذه الأسطورة ظلت متداولة وحافظ عليها مدة طويلة. فماذا سيبقى لم إذا ما أزلتم الروايات الشعبية عن التاريخ ؟ سيبقى هيكل عظمي مهدد بالتفكك إذا ما نزعتم عنه مادته التقليدية.

[23] الاستقصا، الجزء الثاني ص. 46، السطر 25 وما يليه.

[24] نفسه، ص. 146 السطر 24 وما يليه.

بناء مدينة تطاوين :

قال منويل[25]، لما استولى الأصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى المغرب فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين، ولما نزلوا به لم يقدموا شيئا إلى الوفادة على سلطان

---

[25] Le Père Manuel Pablo Castellanos, Descripcion historica de Marruecos y breve resena de sus dinanstias, in 12, 336 pages, santiago, 1878.

ما كنت لأهتم كثيرا بهذا الملخص الصغير لولا ذكره من طرف مؤلف الاستقصا في الجزء الثاني، الصفحة 142، السطر 96 وما يليه؛ فقد برر السلاوي رجوعه إلى مؤلف مانويل باولو كما يسميه قائلا : "لقد أخذت عنه معلومات لا توجد في أي كتاب آخر. ورغم أنه يراكم الغث والسميk، الصحيح والخاطئ إلا أن القارئ الذكي يمكن أن يميز بين أحجاره ولآلئه وبين ثماره الجيدة والرديئة".

وفعلا، فقد اعتمد أحمد بن خالد الناصري السلاوي على مؤلف نصراني لا يعرف العربية. لكن يا له من مؤلف ! إنه كاهن متطرف في وطنيته ومتعصب مثل أي راهب قروسطوي. ونادرا ما يحدث هذا الامر لدى الكتاب المسلمين. لذلك يجب الإشارة إليه كإحدى غرائب هذا العصر. لأنه من غير المقبول لدى الشعوب الإسلامية ان يثق عقل مشبع بالتعاليم الإسلامية بعقل مشبع بالتعاليم الكاثوليكية. وقد قيل لي إنه رغم تعصب السلاوي، فإنه كان يستأنس بالكتب التاريخية المتعلقة بالمغرب. طبعا فقد كان ينتقي منها ما يروق له، تاركا ما يشكل خطرا على عقيدته وما يمس بهيبة السلاطين المغاربة. وكموظف سابق لدى الحكومة الشريفة، يعيش مطمئنا بسلا على مرمى حجر من قصر السلطان، فإنه لن يجرأ على الحديث في كتاب الاستقصا عن أمور تمس بهيبة أجداد الشاب مولاي عبد العزيز بن الحسن. ويظل السؤال المطروح هو لماذا ظل خطابه تقريظيا ؟

أما الآن، لنر كيف استشهد في نصه بالمعلومات المستمدة من مؤلف الكاهن الإسباني. وسيلاحظ القارئ لأول وهلة كيف أن استشهاداته تجاوزت إطار الترجمة وإليكم النص الأصلي :

« Cuando los reyes catolicos conquistazor à Granada despues de un cerco de nuevo meses, ponienco fin com esta conquista à una guerra de ochocientos años, muchos granadinos pasaro à Marruecos desembarcando en Rio Martin. La princera diligencia de los emigrados fué dirigirse al sultan de Fez en demanda de hospitalidad y de terreno donde edificor una ciudad, que les protegiera contra las revoltosos tribus del Rif. No solo accedio gustoso el sultan à peticion, si que tambien les señalo por jefe y gobiernador à sidi el mandri, valeroso capitan que despues de haber defendido à sus reyes en Granada, paso al Magreb can el ultimo rey Abu Abdallah (Boabdil). Este capitan ordeno in mediatamente que se levantaran los muros de la nueva ciuadad en el punto mismo donde antes estaba tagath. Las murallas, pues, fueron las primera obras que hicieron las granadinos, y en el centro de su ciruito edificaron una gran mezquita can un alto minarete tachonado de menudos y vistosos azulejos.

[مقتطف من مؤلف مانويل المذكور، ص. 23]

فاس محمد الشيخ الوطاسي، فأجل مقدمهم ورحب بهم فقالوا إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبني فيه بلدا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف. فأجابهم إلى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن علي المنظري وكان رجلا شجاعا من كبار جند ابن الأحمر وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن، ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا. ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه، رجع بهم إلى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم، فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته، ثم أخذ في جهاد البرتغال بسبتة وبلاد الهبط إلى ان أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في إتمام ما بقي عليه من بناء تطاوين. واتصلت الحرب بينهم وبين برتغال سبتة كاتصالها بين أهل أزمور وبرتغال الجديدة؛ وقوله إن بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقوله أهل تطاوين من أن تاريخ بناءها رمز تفاحة[26] . وأن ذلك كان بإعانة الشريف أبي الحسن علي بن راشد؛ فيظهر والله أعلم أن أبا الحسن المنظري كان قد قدم من الأندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة[27] موافق الرمز المذكور والله أعلم[28]".

وباختصار، فما بين سنتي 1308 و 1400 م، ستكبر تطوان وستصبح مركزا لمقاومة النصارى ومعقلا للقرصان. وقد ظلت خالية منذ حوالي قرن من الزمان بعد تدميرها في بداية القرن الخامس عشر. وفي القرن الموالي، تم إعمارها وأصبحت مرفأ القراصنة المسلمين.

- سنة 948هـ (1541م) تزوج السلطان أبو العباس احمد الوطاسي بتطوان، حيث أقام حفلا بهيجا، بنت الأمير أبي الحسن علي بن موسى بن راشد مؤسس الشاون [الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 177، السطر الثامن وما يليه].
- سنة 1563 م، لم يتحدث مؤلف الاستقصا عن دخول الأسطول الحربي الإسباني إلى واد مرتيل حيث أغرق سفن المسلمين.

---

[26] إذا ما أضفنا الصوامت، بما في ذلك التاء المربوطة التي تحسب مثل التاء المبسوطة، فإننا نحصل على مجموع 889 وهي السنة الهجرية الموافقة لسنة 1484 أو 1485 ميلادية. والتفاحة هي مجرد رمز. أنظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 50 حول الأبجدية العربية وقيمتها العددية.

[27] سلمت غرناطة إلى الملك فردينان بتاريخ 6 يناير 1492.

[28] الاستقصا، الجزء الثاني، مذكور، ص. 162.

- سنة 1022 هـ [1613م] تم احتلال تطوان من طرف الشيخ ابن المنصور [الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 106].
- سنة 1027 [1617 أو 1618م]، تم حصار تطوان من طرف جنود السلطان عبد الله بن الشيخ [الاستقصا، الجزء الثالث، ص 121 و 122].
- سنة 1032 [1623 م]، تمردت تطوان على سلطة عبد الله بن الشيخ. وتزعم هذا التمرد المقدم أبو العباس أحمد النقسيس [الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 122].
- سنة 1078هـ [1667م]، ذهب السلطان مولاي راشد بن الشريف بنفسه إلى تطوان، حيث ألقى القبض على سيد المدينة أحمد النقسيس وعدد من الموالين وعاد به إلى فاس حيث أودعه السجن [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 17].
- سنة 1139 هـ [1727م]، قام القايد الشهير لطنجة أحمد بن علي الريفي العدو اللدود لباشا تطوان أبي حفص عمرو الوقاش، بالاستيلاء على المدينة بشكل مباغث. وبعد مرور المفاجأة، واجه التطوانيون بقيادة أبي حفص، المحتلين وألحقوا بالقايد أحمد هزيمة نكراء، كاد أن يفقد فيها حياته. وبعد هذا الانتصار، أصبح أبو حفص حاكما مستقلا على تطوان، ولم يعد الأهالي الأمازيغ بالمغرب الشمالي، يعترفون بالسلطان الفاسي والجبان، أبي العباس أحمد بن إسماعيل الذهبي [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 55 و 56].
- سنة 1151هـ [1738م]، ستفاجأ تطوان المستقلة والمتمردة مرة أخرى بهجوم قايد طنجة أحمد بن علي الريفي، حيث نهبت المدينة وخربت أسوارها وتم ذبح 800 من أعيانها وفرضت على الباقين ضريبة الحرب. وسيعلن المنتصر الذي كان يعمل لحسابه الخاص وإلى حد ما لحساب السلطان المستهدي بن إسماعيل، نفسه عاملا على تطوان، كما سيشيد دار العمارة [مقر السلطة المحلية] التي مازالت موجودة إلى حد الآن [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 70].
- سنة 1158 هـ [1745م]، بايع القايد أحمد بن علي الريفي، السلطان زين العابدين بن إسماعيل وقدمت طنجة وتطوان والفحص وجزء كبير من جبالة، بيعتها للسلطان الجديد [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 72].

- سنة 1204 هـ [1789م] بويع الأمير يزيد بن محمد، سلطانا بزاوية مولاي عبد السلام ثم بتطوان. وكمكافأة للأهالي سمح لجنوده بنهب ممتلكات يهود المدينة [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 124].
- سنة 1798 م، توقف أسطول نيلسون مدة طويلة بخليج تطوان قبل معركة بوكير.
- سنة 1236 هـ [1821م]، غادر إبراهيم بن اليزيد المطالب بالعرش، مدينة فاس التي بويع فيها سلطانا. وكان بدون موارد ولا عساكر، فضلا عن تمرده على السلطان الشرعي مولاي سليمان. ومن بين كل مدن جبالة، كانت تطوان هي الوحيدة التي اعترفت بالمتمرد وفتحت له أبوابها؛ وتم نهب خزينة الدولة ومحلات المدينة ومخزن السلاح والحي اليهودي. ومات المطالب بالعرش، بعد خمسة وأربعين يوما من وصوله إلى تطوان، حيث كان في حالة صحية يرثى لها [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 160 و 161].
- في نفس السنة، بايعت تطوان المتمردة السلطان سعيد بن اليزيد، أخ إبراهيم. وما أن علم سعيد وحلفاؤه بمجيء السلطان الشرعي مولاي سليمان بن محمد إلى القصر الكبير، حتى غادروا تطوان وتوجهوا إلى فاس.

وحوصرت تطوان من طرف القائد العسكري للسلطان وهو القايد حمان السريدي؛ وقاومت بشجاعة هذا الحصار. فأرسل السلطان تعزيزات عسكرية بلغ تعدادها 200 فارس تحت إمرة قائد الفرسان، الحاج إبراهيم بن رزوق؛ وقد عسكر الجنود بواد مارتيل ومنعوا التطوانيين من بلوغ الميناء [الاستقصا، الجزء الرابع، الصفحات. 161، 162، 163].

استيلاء الإسبان على تطوان:

بتاريخ 22 أكتوبر 1859، أعلنت إسبانيا الحرب على المغرب. وكانت هذه الدولة المسيحية تسعى إلى الانتقام من اغتيال عميلها القنصلي بالجديدة، اليهودي فيكتور دارمون V. Darmon، كما كانت تريد وضع حد للهجمات المتكررة للأهالي على الثغور المغربية المحتلة بالساحل المتوسطي.

وقد استقبل إعلان الحرب على العدو التاريخي في شبه الجزيرة الإيبيرية، بالهتافات التي تدعو إلى محاربة المغربي المسلم guerra al moro. وكانت الحملة الإسبانية تشمل أربع فرق عسكرية بما مجموعه 35 ألف رجل و 74 مدفعا و 200 حصان تحت قيادة أو دونيل O'Donnel.

وما بين 19 نوفمبر و 15 دجنبر، نزل الجنود بسبتة ومنها اتجهوا إلى تطوان. وقد واجهوا مقاومة عنيدة من طرف الأهالي أثناء تحركهم. وفي الأخير، انهزم المغاربة بتاريخ 4 فبراير 1860، في معركة تطوان الشهيرة؛ ودخلت الجيوش القشتالية، المدينة في ذلك اليوم الذي رثاه الشعراء المغاربة. وتتضمن بنود الصلح المصادق عليها بين الطرفين بتاريخ 26 أبريل 1860، تسعة فصول وهي:

- الفصل الأول: التنازل لإسبانيا عن منطقة خارج سبتة إلى حدود واد أنجرة.
- الفصل الثاني: التنازل لإسبانيا عن منطقة كافية لإقامة مركز للصيد Santa Cruz de Mar Pequeña.
- الفصل الثالث: يجب على الشريف أن يصادق في أقرب الآجال على الاتفاقية المتعلقة بكل من مليليةPeñon de velez والحسيمة، التي وقعها المتفاوضون الإسبان والمغاربة بتطوان في 24 غشت 1859.
- الفصل الرابع: سيؤدي المغرب 400 مليون ريال [100 مليون فرنك] كتعويض عن خسائر الحرب.
- الفصل الخامس: تظل تطوان وضواحيها خاضعة لسلطة إسبانيا إلى أن يؤدى التعويض كاملا.
- الفصل السادس: ستسمح المعاهدة التجارية لإسبانيا، حاضرا ومستقبلا، بان تحظى بأفضل امتياز مقارنة مع باقي الدول.
- الفصل السابع: يمكن لممثل إسبانيا بالمغرب أن يقيم بفاس أو بأي مكان يراه مناسبا للقيام بمهمته.
- الفصل الثامن: سيسمح الشريف بقيام مركز للمبشرين بفاس، كما هو الأمر بطنجة.

- الفصل التاسع: سيحرر مفوضون عن الطرفين بتطوان، في أجل لا يتعدى ثلاثين يوما، الفصول النهائية لمعاهدة السلم.

[أنظر بهذا الخصوص:

- Godard, Histoire du Maroc, tome 2, p. 638 et suiv et aussi, Manuel, Descripcion historica de Marruecos, p. 285 et suiv.]

وبتاريخ 2 ماي 1862، أرجعت إسبانيا تطوان إلى المغرب؛ لكن كان على السلطان أداء 100 مليون فرنك للقوة المسيحية على مدى عشرين سنة. وخلال هذه المدة، ستتوفر إسبانيا على مراقبين لها في جميع نقط الجمارك المغربية.

هذه هي الرواية المسيحية، فلننظر الآن إلى الرواية الإسلامية. لقد خصص كتاب الاستقصا حوالي عشر صفحات لأحداث تطوان [الجزء الرابع، الصفحات من 213 إلى 222].

أولا، سيحدد مؤلف الكتاب السبب التالي لقيام الحرب، مؤكدا على أن مسيحيي سبتة ومسلمي الأنجرة، كانوا يراقبون بعضهم بعضا من وراء براريك خشبية بالنسبة للسبتيين ومن وراء أكواخ من الأسل jonc بالنسبة لأهالي الأنجرة. وفي أواخر عهد مولاي عبد الرحمن [رحمه الله]، بنى مسيحيو سبتة على الحدود، منزلا بالحجر والملاط mortier ووضعوا فوقه علما هو رمز المستبد الذي يحكمهم والمسمى عندهم Couronna.[29]

فذهب أهالي الانجرة إلى عين المكان وخاطبوا خصومهم قائلين:

- يجب أن تهدموا هذا المسكن؛ فشكل بنائه يخالف العادة المتفق عليها؛ فأنتم مطالبون باتباع العادة القديمة المتمثلة في إقامة براريك خشبية.

وأمام رفض المسيحيين، هاجم أهالي الانجرة المنزل وأخذوا العلم الإسباني ولطخوه بالبراز وقتلوا العديد من الإسبانيين، ثم حاصروا حامية سبتة واستمروا في مهاجمتها إلى ان بلغوا الأسوار. [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 213] أما بخصوص اغتيال دارمون وحصار الريفيين المستمر للإسبان في الثغور المحتلة والإسبانيين السبعة الذين اختطفوا من مليلية من طرف القلعيين سنة 1858 وأعمال السلب والنهب التي تعرضت لها السفن الإسبانية على السواحل المغربية، فإن شيئا من ذلك لم يذكر في صفحات المؤلف المسلم.

من جهة أخرى، فإن هذا الأخير قدم رقما متواضعا بخصوص الجيش الإسباني، حيث حدد عدده في 20 ألفا. وقد جانب الحقيقة فيما بعد [الجزء الرابع، ص. 214، السطر 32]، حينما اعتبر بأن

[29] وهو الشعار الملكي والعسكري أيضا.

الإسبان أبانوا عن جهلهم لفنون الحرب وعن عدم استماتتهم أمام الهجومات والضربات. والحال أن العالم بأكمله يعلم بأن الإسبان يتسمون بالجرأة وأنهم أبلوا البلاء الحسن خلال الحملة الدموية على تطوان.

[ملحوظة المترجم : نشير مرة أخرى إلى مفارقة هذا الخطاب، فاحتلال المدن الآمنة وتشريد أهلها، فضلا عن القتل والنهب ينم عن الجرأة والبلاء الحسن !].

وأخيرا، فإن غياب الانضباط والروح الوطنية لدى المغاربة، أدى إلى انتصار أودونيل [أردنيل كما يسميه الناصري] وإلى رفع العلم القشتالي فوق المدينة المبجلة. وقد عبر الشاعر المغربي أفيلال بألم عن هذا الوضع، من خلال الأبيات الشعرية التالية :

فالدين يبكي بالدمــع	بحكيه صوب الغمامه
على مساجد أضحت	تبـــاع فيهـــا المدامـه
كم من ضريح ولـــى	تلوح منــه الكــرامـه
علـق فيـــه رهيــب	صليبـــه ولجــــامـــه

سيلاحظ أحمد بن خالد بلباقة، على أن البيت الأخير بالخصوص، يتضمن بعض المبالغة، مؤكدا بأن أودونيل لم يستول إلا على أربعة أضرحة وهي :

1 -ضريح سيدي السعيدي الذي استخدم لجمع البارود والأسلحة التي غنمت من المسلمين

2 -ضريح سيدي عبد الله البقال الذي تحول إلى كنيسة

3 -جامع الباشا الذي أصبح مخزنا للمواد الغذائية

4 -جامع القصبة الذي استخدم كمخزن للأسحلة.

وسيضيف الناصري بأن أودونيل تعامل مع المسلمين بلباقة واحترام. أما بخصوص نتائج الحرب الإسبانية المغربية، فسيشير إلى أن حملة تطوان قد نالت من هيبة المغرب؛ فلم يسبق لخسارة بهذا الحجم أن أصابت الإسلام.

وبعد هذه الكارثة بحث أهالي المغرب بكثرة عن حماية القوى الأوروبية لهم. وأنا أتذكر هنا الحوار الذي دار بين قائد تطوان والدرويش وأتساءل : أما زالت عناصر الثورة والتمرد، التي اختمرت مدة طويلة في نفوس التطوانيين، قائمة إلى حد الآن ؟

قبيلتا بني سعيد وبني معدان

توجد القبيلتان معا شرق تطوان. وقد عبر الدرويش سريعا بني معدان، وهي قبيلة صغيرة موجودة بسهل لا تتعدى مساحته، طولا وعرضا، سبعة أو ثمانية كيلومترات. وتحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، كما أنها مليئة بشجيرات الدوم والحلفة. لكن تبدو هنا وهناك حقول الشعير والفول والكيف. ويكسب الأهالي الفقراء قوتهم من صناعة حصائر الأسل والحلفة ويقضون الساعات الطوال في فتل حبال الدوم؛ كما أنهم يتوفرون على منشآت للملح salines الذي يحملونه إلى قواربهم ويبيعونه بالريف. [1]

ويمارس الكثير منهم مهنة الصيد وصناعة المواقد والفحم. كما توجد بالقبيلة بساتين الخضر والفواكه، وهي تمتد على طول الساحل المنحدر والساخن. ويتكلم الجميع العربية. وبخصوص اللباس، فإن الرجال يرتدون الجلابة، أما النساء فيضعن قبعة كبيرة على رؤوسهن ويرتدين ملابس صوفية قصيرة، لا تتجاوز الركبتين ويقمن بالأعمال الفلاحية؛ والمنزلية بأذرع عارية. والعديد منهن يسافرن إلى تطوان للاشتغال بدور اللهو.ويشكل واد بني معدان، خليجا صغيرا عند مصبه، يسمى مرسى بني معدان.

أما قبيلة بني سعيد، فهي أكبر من الأولى بحوالي الضعف. وهي تشغل مساحة 15 كيلومتر من الشرق إلى الغرب و 10 كيلومترات من الشمال إلى الجنوب وتمتد على الساحل بشكل مستقيم، باستثناء تجويفين رسمهما غديران وهما واد مسا وواد أزرزا. وهنا تصبح المنطقة جبلية وغابوية. وقرب الشاطئ توجد تلال مكسوة بالخضرة. وعلى جنبات قرية أزرزا وفوق تلالها، توجد أشجار الفاكهة والزيتون. وهناك، بمرسى مسا وأزرزا، مرفآن ترسو بهما مراكب الأهالي الصيادين والقراصنة في آن. من جانب آخر، فإن الغدير الموجود بواد لاو والذي سنتحدث عنه لاحقا، يفصل بني سعيد عن غمارة. وباختصار، فإن المنطقة جميلة وغنية بمياهها الجارية وبساتينها وأشجار الفاكهة المتواجدة بها وخصوصا أشجار التين والعنب. وتختفي القرى داخل الغابات ووراء الصخور، بحيث لا يمكن رؤيتها من طرف

---

[1] ينزلون على الخصوص بيزانين [قلعية] وبمرس ورك؛ وهي تقع على بعد 15 كيلومتر غرب مليلية. وانا لم أذكر ورك في ا لجزء الأول من هذا الكتاب، لأن الدرويش نسي الحديث عنها. وتتوفر مرسى ورك على زاوية تنتسب إلى الشرفاء الأدارسة.

المراكب المبحرة، غير بعيد عن الساحل. وبسبب الاجتياحات البرتغالية والإسبانية للمغرب، أصبح أهالي المنطقة حذرين ومستعدين في كل وقت وحين لمواجهة أعدائهم النصارى.

وحول المنازل توجد حقول صغيرة مزروعة بالقمح والشعير؛ لكن البستنة تفضل على كل الزراعات الأخرى. أما الملابس وأسلحة وعادات الرجال فهي شبيهة بما نجده في باقي مناطق جبالة. ولا تتحجب المرأة، وهي تعمل بكد، فتزرع وتحصد، في حين يمارس الزوج متعة القنص والصيد والدراسات الشرعية.

وبخصوص الحصاد، فهو يتم بطريقة متميزة، إذ تتعاون النساء فيما بينهن، عن طريق "التويزة"، حيث يجتمعن بأعداد كبيرة ويكتسحن الحقل ثم ينزعن سنابل القمح دونما استعانة بالمناجل؛ في حين تجمع الفتيات حزما كبيرة من السنابل ليضعنها تحت حوافر الدواب التي ترعى بجوانب القرية قبالة الأهالي. وبجنوب القبيلة، توجد مناجم الكبريت والزنك التي لا يستغلها أي أحد. وقد حاول أهالي بني سعيد مرارا تزوير النقود. ففي عهد مولاي الحسن أب السلطان الحالي، عملوا على ترويج "فلوس flous" مزورة بشكل مفضوح فاكتشف أمرهم بسرعة. ولأنهم لا يحظون بغنى وقوة القبائل الجبلية المتحالفة فيما بينها، فإن أهالي بني سعيد وبني معدان، يخضعون لجشع البلاط الشريف ويجبرون على دفع الضرائب لعامل مدينة تطوان، بفعل قربهم منها.

وهم خشنون في سلوكهم مثل أهالي حوزمر، لذلك فإن طبعهم الشرس يجعل التجوال بأراضيهم محفوفا بالمخاطر.

وفي أحد الأيام عند الغروب، لجأ محمد بن الطيب إلى مسجد قرية أزرزا ببني سعيد، قادما من غمارة. واستخدم العبارة البسيطة والمألوفة وهي : "ضيف ربي"، معتقدا بأنه سيستقبل بحفاوة كما اقتضت العادة. وكم كانت دهشته عندما سمع الرد التالي للطلبة:

- لا نريدك بيننا، لأنك غماري. لكن اسمع نصيحتنا واهرب قبل أن يراك أهل القرية فيقتلوك. وكان الدرويش يعلم بأنهم صادقون في قولهم. فالاغتيالات والسرقات والاجتياحات المتكررة للغماريين بأراضي بني سعيد، جعلت أهالي هذه القبيلة يكنون حقدا شديدا تجاه جيرانهم الأقوياء بالشرق. واتخذ محمد قرارا سريعا. فما دام الطلبة قد رفضوا استقباله بالمسجد، فما عليه إلا أن يلجأ إلى منزل من المنازل ويطلب "الأمان" وإلا قتل بالشارع؛

فالجبليون يمنحون "الأمان" للغريب اللاجئ بمنزل أحدهم. وقصد حيا مليئا بالأزبال، تقل فيه الحركة ووقف بباب أحد المنازل، مطأطيء الرأس تحت قلنسوته آملا في أن يعطف عليه رب البيت ويسمح له بالدخول. وعندما خرج صاحب الدار مسلحا ببندقيته، فاجأه جلوس الرجل بالباب، لابسا جلابة غمارية أي لباسا يرمز إلى أعدائه. فصوب بندقيته جهة الدرويش وأطلق النار عليه، لكنه لم يصبه بسبب تسرعه؛ ومع ذلك، اصطدمت الرصاصات بالحائط المجاور وخلفت ثقوبا بملابس الجوال الذي بادر مباشرة بعد إطلاق النار إلى القول:

- إنني خمسي، فلماذا تطلق علي النار ؟

- انت كذاب لأنك من غمارة.

ولم يطل الحديث بين الرجلين، فقد هرع أهالي القرية إلى عين المكان عند سماع طلقات البندقية صائحين:

- واشنا هذا؟ [ما هذا؟]

فأجابهم صاحب المنزل صارخا:

- لقد جاء هذا الغماري إلى باب منزلي.

ورد عليه الدرويش:

- كلا، فأنا خمسي.

وطالبه الأهالي بأن يثبت أصله الخمسي المزعوم؛ وهو ما قام به لمعرفته الجيدة بهذه القبيلة. واستطاع درسه المختصر في الجغرافيا وأيضا هيئته كمجذوب، إقناع هؤلاء المتوحشين المستعدين لقتله. وظهر من بينهم رجل رزين وتكلم بحكمة قائلا:

- اتركوه، لا تقتلوه. فإذا كان ينتمي حقا إلى قبيلة الاخماس، فلماذا ستعاملونه معاملة سيئة؟ أما إذا كان من غمارة، فما علينا إلا أن نستقبله كطالب احتراما للقرآن الكريم.

وطبعا، فإن لفظة الاستقبال هنا، تعني عدم الحكم عليه بالموت.هكذا، نصح هذا الخطيب الذي أثر في جماعته، الدرويش بمغادرة القرية على وجه السرعة وأضاف قائلا:

- سيرجع الرعاة بعد قليل من الحقول، وإذا ما رأوك، فسيستحيل علينا تخليصك من بين أيديهم. واضطر المسكين إلى مغادرة القرية ليلا، واتبع مجرى واد أزرزا، كي لا يتيه وسط

الظلام، كما ظل يراقب الساحل الذي سيسمح له بمعرفة طريق عودته إلى غمارة. وعند مصب الواد، انحرف الجوال يمينا باتجاه القبيلة الكبيرة التي سنكتشفها بعد قليل.

وكان واد لاو كثير المياه بسبب التساقطات المطرية الأخيرة؛ لذلك توقف الرحالة وجلس على ضفته، عاقدا العزم على قضاء الليل هناك، بدل المغامرة باجتيازه. لكن لم يغمض له جفن تلك الليلة، تحسبا لمطاردة رعاة أزرزا له. وعند الفجر، لاحظ بعض المراكب عند مصب الواد. فوقف وأشار نحوها بكلتي يديه؛ ولأن الجوال لم يكن يعرف بلدتهم، فقد أخبرهم بانه من الاخماس وبان أهالي أزرزا كادوا ان يقتلوه، معتقدين بانه غماري. فصاح رب القارب مستدعيا الدرويش إلى الركوب :

- انظروا إلى أبناء العاهرات ببني سعيد ! ها هم قد أصبحوا رجالا، ما داموا قد قرروا قتل واحد من أهالينا !

لقد كان هؤلاء الصيادون من غمارة إذن ! وقبل أن ينزلوه بالضفة الأخرى من النهر، قدموا له النصيحة التالية :

- عليك أن تسير بمحاذاة البحر، دون الابتعاد عنه إلى ان تصل إلى قرية قاع سرس. وإذا ما ابتعدت عن الشاطئ، فسيلقى عليك القبض ويسلب منك كل ما تملكه. أما إذا تابعت طريقك بجانب البحر فستلتقي بالعديد من الناس وخصوصا بالصيادين؛ لأن اللصوص قليلون هناك، بالمقابل يوجد الكثير منهم بالداخل وهم لا يحترمون أحدا.

القرى الرئيسية ببني سعيد وبني معدان :

- أولاد البقال، 100 منزل، على واد مسا.
- مسا [المساء]، 50 منزلا، على الواد الذي يحمل نفس الاسم.
- القلعة، 100 منزل، على واد أزرزا.
- الدشيرة، قرب مصب واد مسا، 50 منزلا.
- إفران علي [مغارة علي]، التسمية امازيغية-عربية قبالة الدشيرة، 50 منزلا.
- القوى العسكرية لبني سعيد: ألف رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 7 آلاف نسمة.
- القوى العسكرية لبني معدان، 500 رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان، 3500 نسمة.

قبيلة غمارة [المكتملـــة]

ـ التسمية أمازيغية ـ [1]

تركنا الدرويش في طريقه نحو قاع سرس، حيث دخل للمرة الثانية إلى قبيلة غمارة التي لا يعرف عنها إلا الشيء القليل وبالتحديد، بعض القرى على التخوم الغربية. ووصل إلى قاع سرس بدون مشاكل، علما بأن بعض اللصوص كانوا قد اعترضوا طريقه، أثناء ولوجه الأراضي الغمارية للمرة الأولى وتركوه شبه عار على شاطئ البحر. وكانت رحلته الاولى هاته مليئة بالأحداث المثيرة. فقد كان مجبرا على عبور الغدير الموجود بواد لاو والذي تكثر مياهه عند المصب. ولسوء حظه لم ير أي قارب، إلا انه لاحظ بالضفة الأخرى رجالا، يبدو عليهم من ملابسهم الخفيفة انهم صيادون.

فأشاروا إليه بأيديهم ونادوه بأصوات عالية؛ فما كان منه إلا أن صاح فيهم بدوره :

ـ احملوني إلى الضفة الأخرى، لوجه الله.

فنزل اثنان منهم وسبحا باتجاهه؛ ودون أن ينبسا بكلمة، لأنهما اعتبراه مجذوبا، أخذا ملابسه ووضعاها فوق الرأس، ثم أمسك كل واحد منهما بيده ودخل الثلاثة إلى الغدير صائحين : بسم الله.

وبعد ثلاث أو أربعة خطوات، فقدوا جميعهم توازنهم. وكادا الدرويش ان يغرق لولا أن الرجلين المحسنين رفعاه بقبضتهما المتينة. وأخذ الدرويش نفسا عميقا وتساءل بقلق كيف سيواجه أمواج البحر التي تتوالى بانتظام على مصب الغدير. ولحسن حظه لم يكن هذا الأخير عميقا، رغم مرور موجتين أو ثلاث موجات فوق رأس صاحبنا. وعند بلوغه الضفة الأخرى، جفف أعضاءه المبللة بأشعة الشمس ثم لبس ثيابه. وكان منظره البريء نسبيا، سببا في تعاطف الصيادين الذين تحلقوا حوله وناولوه طعاما مكونا من الخبز وجبن الماعز، قائلين:

---

[1] من السهل إعطاء أصل عربي لكلمة غمارة. أفلا يشمل القاموس، هذا المحيط اللامحدود، كل ما نريد معرفته ؟ لكن يجب التذكير مع ذلك بأن غمارة هي قبيلة أمازيغية وبأن اسمها الحالي كان موجودا قبل غزو جيوش عقبة وأن الجذر الأمازيغي ermer مازال مستعملا إلى حد الآن من طرف الريفيين. ويجمع المثال التالي في نفس الجملة، الأصول المشتقة من قبيلتين مشهورتين بالمغرب الأقصى وهما غمارة وصنهاجة، حيث يخاطب الأمازيغ المغاربة الذين يتظاهرون بالشبع قائلين : Ermer, our tecenhij cha [أكمل، لا تترك شيئا]. انظر في الصفحات الموالية قبيلة صنهاجة الوطا.

- تناول هذا الطعام. نحن صيادون من بني سعيد، وكان من الممكن أن نرافقك بعيدا لو لم نكن في نزاع مع غمارة. خذ حذرك في الطريق فلربما اعتبروك واحدا منا؛ وهم يسلبون ويقتلون عابري السبيل. فمنذ بضع سنوات، اجتاح هؤلاء اللصوص قريتنا [أزرزا] وأبادوا أكثر من 150 شخصا.

وسألهم الدرويش: ما اسم قرية هؤلاء اللصوص ؟

فأجابوه : قاع سرس.

واكتفى بالقول : حسنا.

ثم توجه نحو الشرق بمحاذاة الأجراف falaises وعلى بعد كيلومترات من قاع سرس أوقفه خمسة رجال يرتدون جلاليب سوداء ويضعون حول رؤوسهم حبالا صغيرة من شعر الجمال وبيد كل واحد منهم بندقية وسألوه :

- من أية بلدة أنت ؟

فأجابهم الدرويش

- أنا تطواني.

فعلق أحدهم قائلا :

- هذا جيد، فقد كنا نقول فيما بيننا، كم سنكون محظوظين لو سقط تطواني بين أيدينا.

وخطرت الجوال فكرة غريبة فقال :

- أنا من بني سعيد.

وانتظر تأثير هذه العبارة الممقوتة على الغماريين. وفجأة سمع طقطقة البنادق التي وجهت إلى صدره على بعد خمسين سنتيمترا؛ فبادر صائحا :

لست من بني سعيد، فقد ذهبت إلى هذه القبيلة للدراسة فقط.

ولقد أدى ثمن هذه الخدعة غاليا؛ حيث اقترب منه أحد أفراد هذه العصابة وأخذ حفنة من الرمل وقذفها على وجهه؛ فسقط على الأرض وهو يفرك عينيه. وبينما هو منشغل بهذه العملية قام اللصوص بتجريده من ثيابه وأخذوا كيسه المليء بالكتب ولم يتركوا له سوى قميص ممزق وكيس صغير من جلد التيس يحتوي على خبز وزبدة. وقبل مغادرته للمكان، طلبوا منه الصفح عنهم، مخافة أن يشي بهم؛ ونبهوه إلى أنهم لم يعنفوه وقالوا :

- ما تخبرشي علينا [لا تبلغ عنا]

فأجابهم الدرويش :

-لا، لا تخافوا فلن أشي بكم.

قال ذلك وهو منشغل بفرك عينيه. وغاب الرجال وراء الصخور، فيما تابع محمد طريقه بجانب البحر وعند وصوله إلى قاع سرس، دخل إلى أحد مساجدها. وأثار منظر قميصه الممزق الفضوليين فأجابهم ببساطة وبإيجاز :

- قشطوني [لقد سلبوني كل ما عندي].

وقدمت له على الفور ملابس أخرى وقضى الليل مع باقي الطلبة. وفي الصباح الباكر، كلفت الجماعة مناديا طاف بالقرية صائحا :

-من سلب الطالب أمتعته بالبارحة ؟

وتقدم رجل إلى المسجد وأدلى أمام أعضاء الجماعة بالشهادة التالية :

-إنه فلان وفلان إلخ ... وقد كانوا متربصين جهة الغرب.

وعندما استدعي اللصوص الخمسة، أنكروا فعلتهم بوقاحة، لكنهم أجبروا على القسم. فارتبكوا وتلعثموا واضطروا إلى إرجاع ملابس الدرويش أمام ضحكات الجمهور. وبقي الجوال شهرا كاملا بقاع سرس، ثم غادر القرية لاكتشاف أراضي غمارة الشاسعة.

نظرة عـــامة على غمـــارة :

حبت الطبيعة هذه القبيلة، على طول الساحل، بستة خلجان صغيرة شكلتها مصبات ستة مجاري للمياه. ويدعى الخليج هنا " المرسى"، حيث ترسو فيه مراكب وقوارب البحارة من الأهالي.

وأولى مرسى من جهة الغرب، هي قاع سرس، هذه القرية الكبيرة المأهولة بساكنة لا دين ولا ملة لها، لأنها متعودة على السلب والقتل.

وتعتبر تريغة، ثاني أهم مرسى جهة الغرب أيضا؛ وغالبا ما تعرف باسم مدينة تريغة؛ وهي توجد على بعد عشرين كيلومترا شرق قاع سرس ويفصلها واد تريغة إلى قسمين. ومن بين التسعة وتسعين وليا الموجودين بها، يعتبر سيدي أحمد الغزالي من أشهرهم. فهو سيد المدينة الذي يتم اللجوء إليه في كل المناسبات. وتوجد بهذه المدينة صخرة كبيرة لها تاريخ بالمنطقة،

وتدعى حجرة لا إلاه إلا الله محمد رسول الله. وقد بني فوقها مزار صغير. وحسب الرواية المحلية، فإن هذه الصخرة التي توجد قاعدتها بقعر البحر، تمتد إلى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط، جهة غرناطة وتشكل هلالا بالتمام والكمال، وهو رمز الإمبراطورية العثمانية المبجل من طرف أغلب المسلمين. هكذا، فإن قرن الهلال الموجود بتريغة، نقش عليه نصف عبارة الشهادة أي " لا إلاه إلا الله"؛ أما النصف الثاني وهو " محمد رسول الله"، فقد نقش على القرن الآخر للهلال والذي يبرز على الأرض الإسبانية.

وسنكون أمام كتلة صخرية ضخمة Monotithe على شاكلة منجل يحمل في تجويفه ثقل البالوعة المتوسطية. ويمكن ان نلاحظ بقايا مركز بحري للحراسة sémaphore قرب المزار، فوق صخرة تريغة. وتسمح بعض الأدراج التي قدت بالصخرة، ببلوغ هذه القمة الغريبة التي كانت فيما مضى، على ما يبدو، موقع حراسة يتبادل القرصان المسلمون من خلاله الإشارات عند اقتراب سفن العدو.

واليوم، فإن ساكنة تريغة تمارس الصيد بسكينة في مياه الخليج الصغير المليء بالأسماك. ويعتقد الأهالي بأن بركة التسعة وتسعين وليا تجعل الأسماك متوفرة على مدى السنة. وسنتحدث لاحقا، في النبذة التاريخية حول غمارة، عن الدور التاريخي الذي لعبته كل من تريغة والمدن البحرية الغمارية الأخرى.

وهناك مدينة تاريخية أخرى وتدعى تغيساس، وهي مدينة رائعة، من المنظور المغربي طبعا؛ لأنها عبارة عن ميناء على بعد عشرين كيلومترا شرق تريغة وهي موجودة بمصب غدير مهم وهو واد تغيساس. وبهذه المدينة وضواحيها، هناك بساتين الخضر والفواكه التي تمنح المكان خضرة ممتعة. وقد اشتهر برتقال تغيساس بجودته في المنطقة كلها.

وبشرق هذه المدينة توجد إمطير، وهي قرية كبيرة مبنية عند مصب الواد الذي يحمل اسمها. أما بشرق هذه القرية، فتظهر مدينة صغيرة على مصب غدير يحمل أيضا اسمها، وهي طريسة.

وترتفع وسط الغدير، بالمكان الذي تلتقي فيه مياهه بمياه البحر الأبيض المتسوط، جزيرة صغيرة بني فوقها مزار بقبةهي قبة سيدي العطار. وهناك بالجزيرة الصغيرة، أربعة أوخمسة مدافع قديمة بكراتها الحديدية، هجرت منذ سنوات ويدعوها الأهالي ب"البرقي".

ولم يفكر أحد في استعمال هذه الآليات القديمة الصدئة في معظمها. ويتميز واد طريسة بأشجاره الكبيرة التي تظلل مجراه السفلي.

وتوجد مرسى أورنكا في أقصى شرق الساحل الغماري، قرب الحدود الريفية، حيث يصب واد أورنكا في البحر المتوسط. ولا توجد أية قرية بهذا المكان، باستثناء قبة صغيرة بمزار سيدي يحيى الورداني وهو ولي ريفي من قرية وردانية بقبيلة بني سعيد الريفية. وهذه القرية غير مذكورة في الجزء الأول من هذا الكتاب، لأن ابن الطيب لم يزرها إلا في رحلته الأخيرة سنة 1895. وفوق مزار سيدي يحيى الورداني، قرب مصب واد أورنكا، يرتفع جرف عمودي، به مغارة على شكل غرفة كبيرة. يعتقد الأهالي بأن ابنة نبي الله نوح مدفونة به، لذلك يسمون المغارة، زاوية بنت سيدنا نوح .

وبالضفة اليمنى لمصب واد أورنكا، تتقدم صخرة داخل البحر لتشق مياهه ب "أنيابها" الغرانيتية وتأخذ شكل هرم متوج بثلاث كرات حجرية تشبه رؤوس البشر، قدت منذ عهود ما قبل التاريخ. وتدعى هذه الرؤوس بالجبهة. وفي هذا المكان، تكون امواج البحر هادئة باستمرار. لذلك، فإن المغاربة أصحاب المراكب يرتعبون من هذه الجهة التي يتفادون الإبحار بها. وهناك أساطير كثيرة ورهيبة، تروى عن هذا المكان. وهو ما يفسر كيف أن البحارة وراكبي السفن يعلنون الشهادة عند اقترابهم من رأس الجبهة Cap d’El Jebha. ورغم قوة الدعوات البشرية، فإنها تتبدد وسط صخب الأمواج العاتية التي تجعل صفحة البحر بيضاء بالزبد. ويفسر البحارة المسلمون هيجان البحر الدائم بهذا المكان، بوجود نهر جارف وسط البحر، يلقي منذ قرون بمياهه القوية على الجبهة. ورغم أن هذا الموضع هو مكان غرق المراكب بامتياز، إلا أن الدرويش كان يمر بجانبه مرارا وتكرارا دون خوف. فالأمواج المتلاحقة التي تنكسر بالساحل لا تثير قلقه؛ وامام صخب البحر وتشكي رفاقه، كان يتلو الآية الكريمة: "هو الذي يسيركم في البر والبحر كيف يشاء".

ويكتسي واد أورنكا أهمية خاصة، لأنه يشكل الحدود الطبيعية بين غمارة ومثيوة، أي بين جبالة والريف. وتجدر الإشارة إلى أن المجرى الكامل لهذا النهر الصغير وجانب كبير من ضفته اليمنى، ينتميان إلى التراب الغماري.

وتوجد بخريطة هذه القبيلة قرى بحرية أخرى، مأهولة بالسكان بهذا القدر أو ذاك. وهي ليست عبارة عن موانئ [مراسي]، لذلك يمكن تصنيفها في خانة مدن وقرى مختلف القبائل الغمارية، الموجودة على ساحل البحر.

التقسيم الترابي لغمارة:

لولا المعلومات الثمينة للدرويش، ما كنا سنعرف بأن هذه القبيلة الكبيرة تتألف في الواقع من عشر قبائل متحالفة، معروفة في البلد تحت اسم غمارة.

لنتبع الآن الخطوات المنهجية التالية، بالإشارة أولا إلى القبائل البحرية وبعدها إلى القبائل الوسطى والجنوبية.

فعلى الساحل من جهة الغرب نجد، 1) قاع سرس، 2) بني زيات، 3) بني بوزرع، 4) بني جرير، 5) بني سميح.

وهناك قبيلتان بالوسط وهما: بني سلمان وبني منصور أما قبائل الجنوب فهي:1) بني زدجل، 2) بني خالد، 3) بني رزين.

توجد إذن خمس قبائل على الساحل وقبيلتان بالوسط وثلاث قبائل بالجنوب، تشكل جميعها عشر قبائل، سنتعرف عليها تباعا، حسب زيارة رحالتنا لها.

ويرجع توزيع غمارة إلى عشرة أقسام، إلى سببين هما:

1) المساحة الشاسعة لتراب غمارة.
2) اجتماع العديد من القبائل التي تعتبر نفسها من أصل غماري، في منطقة محددة بالمغرب.

ويحتاج هذا السبب الثاني إلى توضيحات مفصلة.

- إثنوغرافيا مغربية:

مازال الجبليون إلى حد الآن، يقسمون أهالي دائرتهم إلى عنصرين متميزين وهما: غمارة وصنهاجة. وهم يميلون إلى توسيع دائرة هذا التقسيم لتشمل ليس فقط قبائل الإمبراطورية الشريفة، بل العالم بأسره ! وطبعا فإن المغاربية الآخرين يحملون نفس الأفكار.

وعلى الرغم من تحفظنا الحذر بخصوص الذكريات الشعبية لأمة لا يعود تاريخها المضبوط إلا لمرحلة الفتح الإسلامي، فإننا لا نرفض باحتقارهذه الأسطورة الإثنولوجية والغريبة

والهامة المنبثقة على ما يبدو من الشعب الأمازيغي ذاته؛ هذا الشعب النشيط الذي تجاهله القدماء والذي بدأ الباحثون يهتمون به بالكاد؛ علما بأن المؤرخ سالوست Saluste القريب من هذا الشعب، لم ير فيه سوى قطيعا وضيعا.[2] وهو يؤكد على حقيقة أنه من السهل شتم أمة، بدل العمل على معرفتها بشكل جيد.

من جهتهم، فإن عظماء المسيحية الإفريقية، أمثال سيبريانCyprien و أو بطاط Optat وأوريل Aurele وأوغستين Augustin، لم يقدموا لنا أي معلومات حول هؤلاء الأهالي الذين كانوا يعيشون وسطهم، مثلما نعيش حاليا وسط أحفادهم بطريقة لا مبالية.

ولم يفدنا الراهب الشهير هيبون Hippone سوى بمعلومة هامة وهزيلة حول أمازيغ عصره حينما قال:

« In Africa, barbaras gentes in una lingua plurimas novimous ».

ولا يجب أخذ هذه العبارة في حرفيتها، حتى ولو اقتصرنا على المنظور الفيزيولوجي المحض.

وبالفعل، فإن علينا افتراض أن لغة هؤلاء البربر قد انقسمت قبل القرن الخامس الميلادي بكثير، إلى لهجات عديدة متباعدة بعضها عن بعض وبهذا القدر أو ذاك.

قلنا إن الجبليين وباقي المغاربة العرب والأمازيغ، يعتقدون بأنهم ينحدرون من جدين سينتشر نسلهما، عبر قبيلتين وهما غمارة وصنهاجة. ووفق هذا المنظور، ستكون كل قبيلة مغربية مرتبطة بأحد هذين الجدين.

في هذا الإطار، تم وضع شجرة النسب بعناية فائقة من أجل إقناع العامة وعلماء الإسلام المزعومين بصحة هذا النسب. لكن، يجب علينا نحن المتعلمين، المتحررين تماما من الروح المذهبية والعرقية، فحص هذه الوثائق المتفردة بالسلاح العقلاني الصارم. وتتفق

---

[2] إن هذا المنتحل الوقح الذي لم يكلف نفسه عناء تعلم لغة الأمازيغ القدامى وملاحظة عاداتهم، قال في حقهم هذا الكلام الفظ:

« Quis cibus erat, at que humi pabulum uti pecoribus » (Bell. Jugurth, chap. XVIII).

فلو كان قد اتهمهم بأكل لحوم البشر anthropophagie، لكنا قبلنا منه ذلك. لكن قوله إنهم كانوا يرعون حشائش الحقول ! يعتبر ابتكارا بليدا !

الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا و الفيلولوجيا مع التاريخ، لدحض هذه الإدعاءات المتعلقة بالأصل المزدوج للإنسانية، حتى ولو اقتصر الأمر على المغرب الأقصى وحده.
بعد هذه التحفظات، يمكننا افتراض أن الكثرة العددية والهيمنة السياسية القديمة للعناصر الصنهاجية والغمارية، قد أنتجت هذه الإثنولوجيا المغربية المثيرة.
وسنعالج لاحقا، في النبذة التاريخية حول غمارة، أهمية هذه القبيلة من الناحية التاريخية المحض. وهي تستحق منا هذا العناء، لأنها عاشت منذ الفتح العربي الذي قاده عقبة إلى يومنا هذا، في حالة ثورة دائمة، متحدية بدون هوادة السلاطين المتعاقبين على عرش المغرب، حيث كانت تواجه بحزم الجيوش المخزنية التي تسعى لاجتياح أراضيها؛ وإن كان الحنين يشدها إلى الأسرة الحاكمة الإدريسية، التي كانت من أكبر حماتها. وقد ظلت القبيلة إلى اليوم، محافظة على استقلالها. والأن، كيف نقدم للقارئ وصفا واضحا وبسيطا لقبيلة غمارة الكبيرة؟ ألن نكون ملزمين بتقسيم أراضيها مثلما انقسمت بنفسها إلى عشر قبائل؟ فلنفتح الخريطة ولنبدأ باكتشاف هذه المنطقة الشاسعة بالساحل، انطلاقا من الغرب.

قـــاع ســــرس

إن هذه ا لقبيلة تبدو مثلثة الشكل وهي مليئة بالمنازل وبحقول الشعير والفول، كما تعتبر بلاد أشجار التين. ويربو عدد قراها التي لم أتمكن من معرفة أسمائها على الثلاثين؛ وهي مظللة بهذه الأشجار النافعة للمساكين. ويشكل غدير واد لاو الذي غطس فيه الدرويش مرات عديدة، الحد الغربي لقاع سرس، جهة بني سعيد. ويعتبر هذا الغدير من أهم المجاري المائية بغمارة، بسبب منسوب مياهه المرتفع حيث يتضخم مجراه السفلي بفعل المد، على مسافة محددة داخل أراضي القبيلة. ولأن المغاربة نسوا لفظتي المد والجزر، فإنهم يستعملون فقط كلمة "الملو" [الامتلاء] للإشارة إلى ما يعرف بالتماوج.

إن قاع سرس متشبثة كثيرا بحريتها مثل القبائل الغمارية الأخرى. ورغم الروابط التي توحدها بهذه الأخيرة، إلا أنها تتنازع معها في كثير من الأحيان، بسبب السرقات وقطع الطرق التي تحصل بترابها. طبعا، فإن القبائل الأخرى تتنازع فيما بينها أيضا؛ لكن عندما يتعلق الأمر بمواجهة أجنبي، فإنها تتحالف فيما بينها للقضاء على كل من تجرأ على مهاجمتها.

ويحظى أهالي قاع سرس بسمعة سيئة، فهم قطاع طرق ومشاكسون ولصوص وأوغاد، لا يقبلون النصيحة، ويتربصون لضحيتهم طوال النهار بين الأشجار وخلف الصخور. وفي الليل، وعلى عكس عادة قطاع الطرق، فإنهم يقضون سهرات خليعة ببيت الصحفة، حيث يخضع الغلمان لرغبات هؤلاء المتوحشين، المتهتكة. ويبلغ حبهم للمال حدا لا يوصف؛ والويل للأجنبي الذي يتجول في قبيلتهم؛ فإنه يسلب عند مخرج كل قرية؛ وإذا ما حاول الدفاع عن نفسه، فسيقتل مثل كلب.

وفي الواقع، فإن كل الغماريين يتشابهون بهذا الخصوص؛ وباستثناء بعض الأفراد الفضلاء والنادرين، فإننا يمكننا الإقرار بأن المجرمين الكالبريين Calabrais قديسون بالمقارنة مع هؤلاء الأوغاد. وتؤكد المغامرة التالية للدرويش، على أن جيران قاع سرس من جهة الشرق، لا يختلفون عنهم في شيء.

ففي أحد الأيام، غادر محمد بن الطيب قرية تريغة بقبيلة بني زيات، حيث كان يقيم بصفة رسمية، متوجها إلى قاع سرس، استجابة لدعوة طلبة القرية من أجل المشاركة في "وعدة"

[حفل إحساني]، أقيمت على شرف صلحاء المنطقة. واستقبل الرحالة بالجامع الكبير لقاع سرس، حيث قضى الليلة. ويبدو أن الحفل لم يرقه، لذلك غادر القرية في اليوم الموالي وسار لوحده كالعادة، على الطريق المؤدية إلى تريغة. وكان قد أخفى بعناية، بعض القطع النقدية داخل فطيرتين من الشعير. فاللصوص المغاربة يتميزون بخاصية مثيرة، فهم يسلبون الأجنبي أمتعته ويتركونه عاريا في أغلب الأحيان، لكنهم لا يأخذون منه خبزه؛ بل يمنحونه قطعة خبز إذا لم تكن متوفرة لديه.

وكان محمد يعرف منذ زمان هذه العادة الغريبة والمحمودة، لذلك فقد كان مطمئنا على مصير نقوده. هكذا، انطلق عند شروق الشمس، باتجاه تريغة التي وصلها بدون مشاكل؛ وتوجه على الفور إلى ضريح الولي الشهير سيدي أحمد الغزالي. وهناك خبأ الفطيرتين تحت الحصير واستعملهما كوسادة للنوم. وعند استيقاظه، شارك الطلبة وجبتهم من الطعام دون أن يلمس الفطيرتين. وبعد تناول الغذاء تهيأ الطلبة للوضوء والصلاة. وغسل الرحالة يديه بسرعة ثم اختفى من تريغة، راجعا إلى مكان الوعدة ومصمما في قرارة نفسه على الظهور من جديد بقاع سرس؛ أما الصلاة، فبإمكانه أداءها في طريقه. وكان محمد قد شعر بالندم على مغادرته للقرية التي أقيم بها الحفل الإنساني؛ وكان سلوكه محرجا بالنسبة لأصدقائه الطلبة. وإذا ما كانت وجبة البارحة هزيلة، فإن ذلك لا يعني أنها ستكون كذلك في اليوم الموالي. لذلك، قرر الرجوع إلى الحفل وإصلاح غلطة الصباح. وبعد ساعة من المشي، تذكر الفطيرتين اللتين تركهما تحت حصيرة الضريح. فرجع مرة أخرى إلى تريغة؛ وحينما بلغ مشارفها، اعترض طريقه رجل مسلح ببندقية وخاطبه بلهجة قوية:

- اوقف [قف].

ثم وجه فوهة بندقيته باتجاه الضحية قائلا:

- انزع ملابسك وإلا أسقطت أمك [نطيح يماك].

وهي شتيمة يبرز من خلالها احتقار الرجل لضحيته ولأمه معا.

وأمام تهديد اللص وفظاظته، نزع محمد جلابته الوحيدة وبقي بقميصه. فأخذها الرجل واقترب منه، ثم طرح عليه السؤال المألوف:

- أين خبأت النقود؟

- ليس لدي نقود.

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- إلى تريغة.

وما أن نطق باسم القرية حتى تلقى ضربة بعقب البندقية ألقته أرضا؛ وصاح فيه اللص:

- إرجع إلى أمك ولا تعد أبدا إلى تريغة.

وظل محمد ممددا على الأرض، متظاهرا بالإغماء. أما السافل فقد اختفى وراء الصخور، حاملا معه الجلابة. وتمتد هذه الصخور على طول الساحل، ما بين قاع سرس وتريغة، وهي مليئة بالطيور الجارحة. وبعد أن تيقن من ابتعاد اللص، قام الرحالة وتابع طريقه باتجاه تريغة، إلى أن وصلها فدخل إلى ضريح سيدي أحمد الغزالي وذهب رأسا إلى المكان الذي خبأ فيه الفطيرتين، ولما رفع الحصيرة لم يجد شيئا !

وفهم ما حصل؛ فبعد مغادرته للقرية وجد اللص الفطيرتين، ولما شرع في قضمهما، اكتشف وجود النقود بها، فقال في قرارة نفسه: "من المؤكد أن هذا الغريب الذي أخفى نقوده بالفطيرة، يحمل معه الآن أموالا كثيرة، فعلي أن أطارد هذا القران.[3] ونحن نعلم تتمة الحكاية.

وعندما رآه أهالي تريغة بقميصه فقط، سألوه عن الشخص الذي سلبه ثيابه. فروى لهم الاعتداء الذي تعرض له. وبادر أحد سكان القرية إلى القول، منتهزا الفرصة للانتقام من غريم له:

- لقد رأيت فلانا يحمل بندقيته ويسير في هذا الاتجاه.

وأرسلت الجماعة في طلب المتهم، غير أن المبعوث رجع وأخبر أعضائها بأن فلانا ذهب إلى القنص على حد تعبير نساء الدار وأضاف ضاحكا:

- إن فكرة الذهاب إلى القنص خدعة ذكية !

فخاطب شيخ الجماعة الدرويش قائلا:

- اڭلس [اجلس] [4] وابق معنا حتى يعود الرجل.

---

[3] تعني هذه الكلمة الدارجة، الزوج المخدوع والقواد وأيضا الشخص الذي لا يؤدي صلواته في موعدها ويجمعها في وقت واحد. ويمكن تأكيد هذا المعنى من خلال فعل "قرن". وهناك كلمتان خليعتان وفيهما إسفاف، تستعملان كثيرا في المغرب وهما: "عطاي" و "منيوك"؛ لكن الحشمة تفرض علي ترجمتها ب empalé و entubé .

[4] في كل مناطق جبالة، تتحول جيم "اجلس" إلى ڭاف.

واستقر محمد بزاوية سيدي أحمد الغزالي إلى حين عودة اللص في الليل. فاستدعته الجماعة وشرع أعضاؤها في استنطاقه أمام الدرويش. وقال له الشيخ ببساطة:

- عليك بإرجاع حاجيات الطالب وإلا ستنال مائة جلدة بالعصا.

وأنكر الرجل فعلته وصرخ أمام الجميع بأنه لم يسرق أي أحد. ولأن الوضع فبقي على حاله دون تغيير، فقد أمر الشيخ مساعديه بصوت حازم:

- طيحوه [القوا به أرضا].

وبلمح البصر، تم إسقاط الرجل على بطنه ورفعت جلابته وكشف ردفه؛ ولما أدرك الرجل بأن العصا ستهوى عليه صاح قائلا:

- أطلقوا سراحي وسأحضر لكم الملابس.

وبالفعل، رجع إلى منزله وأحضر الجلابة والنقود بدون الفطيرتين. وقال اللص النذل وهو يشير إلى الجوال:

- إن هذا الأجنبي جبان Capon. فحينما رآني حاملا بندقيتي، نزع جلابته على الفور ومنحني إياها بمذلة قائلا: "إنني أهديها لك يا صديقي العزيز؛ فمن الأفضل أن تأخذها أنت بدل غيرك".[5] وقد أعتقد أنني من أهالي قاع سرس وبأنني سأعيد له جلابته بمسجد هذه القرية.

وهذا الأسلوب الدفاعي لا يخلو من مكر. فغالبا ما كان الرحالة يترك ملابسه ونقوده لدى فرد من أهالي القرية التي يتوجه إليها. لكنه لم يرد مجادلة اللص ودخل المسجد حيث لبس جلابته. وفي الصباح، وبينما هو جالس بباب ضريح سيدي أحمد الغزالي، إذا بغريمه أقبل اتجاهه ممسكا لحيته بيده اليمنى؛ وتعني هذه الإشارة لدى القتلة المغاربة: سأقتلك مهما كان الثمن.

ورد عليه الجوال صارخا:

- نعم، إذا ما وقعت بين يديك مرة اخرى.

واشتكى إلى الجماعة تهديدات اللص، مضيفا بأنه لا يجرؤ على مغادرة تريغة، لأن هذا الرجل سيذبحه خارج حدودها، بكل تأكيد.

---

[5] بالفعل، فقد كان الدرويش غالبا ما يستخدم هذا الأسلوب، كي لا يتعرض للقتل أو الضرب.

فقال له أحد أعضاء الجماعة وهو من أكثرهم تأثيرا:

- يمكنك الذهاب بدون خوف؛ وسنحجزه بالقرية عند مغادرتك لها.

ومباشرة، تم تعيين رجل لاصطحابه، وكان قوي البنية ومسلحا ببندقية. هكذا، انطلق باتجاه قاع سرس؛ وفي منتصف الطريق توقف الرجلان عند هضبة تبدو من خلالها هذه القرية، فقال الرجل لمحمد:

- اذهب، سأظل أراقبك من هنا.

وتابع الدرويش طريقه وحده، مسرع الخطوات؛ وكان يستدير كل مرة للتأكد من وجود حارسه بنفس المكان. وعند بلوغه قاع سرس، أدار رأسه للمرة الأخيرة، فشاهد نقطة سوداء في الأفق، تشير إلى أن الرجل لم يتحرك من مكانه. وعلى طول الساحل بين قاع سرس وتريغة، هناك سلسلة من الأجراف العالية والتلال الشديدة الانحدار، التي تجعل هذه الأماكن خطيرة، سواء بالنسبة للسفن أو بالنسبة للمسافرين برا. ويختفي أهالي المنطقة وراء الصخور، لسلب العابرين الذين يسلكون طريقهم بين تطوان وغمارة. فأغلب القبائل البحرية الموجودة شرق تطوان، ملزمة بعبور تراب قاع سرس للتبضع بسوق المدينة.

وما تتحمله من مهانة avanie بسبب عصابات هذه القرية، يفوق الوصف. وإلى حد الساعة، فإن الحقد الدفين تجاه وكر اللصوص والقتلة هذا، لم يفجر بسبب غياب التحالف بين الأهالي المتضررين؛ لكن العاصفة قريبة ولن نفاجأ يوما إذا ما وقفت كل الأقسام الغمارية كرجل واحد لمواجهة أسماك القرش البرية هاته بقاع سرس والقضاء على أفرادها عن آخرهم.

إن السلطان على علم بهذه الوضعية، لكن لا تأثير لديه على أهالي غمارة. فهو يكتفي بإعطاء الوعود المعسولة لرؤساء القبائل الذين يشتكون إليه من شرور هذه القبيلة. ولأن أفرادها متيقنون من إفلاتهم من العقاب، فإنهم يتمادون في أعمالهم الجريئة. وعندما تتم متابعتهم، فإنهم يجيبون بلهجة واثقة:

- كل ما يجري فوق أرضنا هو في ملكنا؛ وكل ما نجده على أراضي الغير، هو في ملكنا أيضا.

ومع ذلك، فهم يعترفون لمحمد بأن تحالف الغماريين يثير تخوفهم. ففي كل سنة تتعاهد القبائل الأخرى على سحق هؤلاء الأوغاد ليصبحوا عبرة للآخرين. ولإبعاد هذا الغزو الرهيب

المرتقب، فإن شيوخ قاع سرس يقضون الليالي الطوال وهم يقرؤون اللطيف، معتقدين أن تلاوة "يا لطيف" عشرين ألف مرة، ستبعد عنهم العاصفة المنتظرة، وتحسب الوحدات والعشرات بالمسبحة والمئات بحبات الفول. وعندما يعلن أحدهم فرحا: "هيا يا رفاق ! فإن الكيس قد امتلأ بمائتي فولة" يرفع المرتلون الجلسة ويذهبون إلى النوم.

وقد كانت قاع سرس، سببا مباشرا في الحرب التي نشبت منذ عشر سنوات، بين غمارة وقبيلة بني سعيد فحوالي سنة 1886 توجهت نساء قاع سرس وحدهن إلى سوق بني سعيد لبيع الدجاج والبيض. وأثناء رجوعهن اعترضت طريقهن عصابة من قطاع الطرق السعيديين. وبعد أن قضى أفرادها حاجتهم من النساء، سلبوا منهن أموالهن. وعندما علم أهالي قاع سرس بهذه الفظاعات، هاجموا قبيلة بني سعيد، لكن أهالي هذه الأخيرة تحالفوا فيما بينهم وألحقوا هزيمة نكراء بالمعتدين عليهم. عندئذ طلبت قاع سرس المساعدة من غمارة، وتم ذبح أعداد كبيرة من الخراف والعجول بسوق القبيلة اكبيرة. ولم تتردد غمارة في مد يد المساعدة، لأن الأمر يتعلق بالانتقام مما حصل لإحدى أخواتها. وتعالت الاحتجاجات بغضب بكامل تراب غمارة؛ كيف حصل أن قبيلة قاع سرس الصغيرة، تعرضت للإعتداء والتقتيل من طرف هؤلاء الكلاب الصنهاجيين ببني سعيد ! وكانت المجزرة رهيبة. فقد اجتاحت القبيلة الكبيرة جارتها الغربية، حيث أحرقت ونهبت القرى واغتصبت الفتيات والنساء وغنمت المواشي والحبوب واستعبدت الغلمان والفتيات اللواتي تم استغلالهن للمتعة وفي أعمال الحقول.

وكان لهذه المشاهد الوحشية صدى في كل مناطق جبالة. وتلقى السلطان بلامبالاة تامة، خبر اقتتال قبيلتين من قبائل مملكته، بضراوة لا مثيل لها.

قبيلة بني زياث

تقع شرق قاع سرس وتحتل المرتبة الأولى بين القبائل البحرية لغمارة من حيث المساحة. ويجري بها غديران، الأول هو واد تغيساس الذي يتوفر على منسوب قوي من المياه وهو ينبع من الجبال الجنوبية لغمارة، غير بعيد عن قرية تمايلت ويجري عبر أعالي جبل وهو جبل تزران، ليخترق فيما بعد، أراضي بني سلمان ثم بني زياث، حيث يحول إسمه بشكل غريب، من واد بني زياث إلى واد بني هليل ليصب في البحر الأبيض المتوسط عند حدود بني بوزرع، تحت اسم واد تغيساس. ولا يدعى بهذا الاسم إلا عند أهالي إمرزدين. وتظل مياهه وافرة حتى في فصل الصيف وهي تكفي لتشغيل رحى الطواحين العديدة الموجودة على ضفافه. وفي فصل الشتاء، تكون مياهه هائجة مما يستدعي استعمال القوارب لعبوره، على بعد ثلاثة او أربعة كيلومترات من مصبه، حيث يشكل مرفأ مستعملا من طرف أهالي قرية تغيساس الكبيرة ويقدر طول مجراه بثلاثين ميلا تقريبا.

أما واد تريغة الذي يخترق أيضا بني زياث، فهو أقل أهمية؛ ويجري عبر أراضي غنية يزخر باطنها بالذهب aurifères، وكما هو الشأن بالنسبة لكل المناطق التي يعبرها، فإن ضفافه مليئة بالقرى التي تعتبر أهمها قرية تريغة، الموجودة بالطرف الآخر من مجراه، حيث تشكل ميناء صغيرا على البحر الأبيض المتوسط.

هنا أيضا تتقدم الجبال نحو البحر، تتوسطها وهاد ووديان، مزروعة بشكل سيء. والمورد الفلاحي الرئيسي لبني زياث يتمثل في بساتين مليئة بأشجار التين والعنب. وبين إمزردين وأزرار، يوجد أكبر سوق بغمارة وهو سوق الأحد. وتباع فيه منتوجات المنطقة المكونة من كميات كبيرة من الفواكه والماعز والعجول والقمح والشعير والفول والنشوق والكيف والأثواب والجلود المستوردة من طنجة وتطوان.

وقد كانت أزرار، وهي قرية من 500 منزل، مقرا دائما لقايد غمارة، وهو إداري لا سلطة له، مثلما هو الشأن بالنسبة للعديدين أمثاله بالمغرب. وهذا الموظف الذي يحظى بدرجة عامل، لا يهتم إلا بشيء واحد وأساسي، ألا وهو الحفاظ على سلامته.

ويدرس أغلب اهالي بني زياث القرآن الكريم، لكن هذه الدراسات ليست تأويلية، كما هو الأمر في أروبا العالمة التي سمحت تاويلاتها للنصوص المقدسة، باكتشافات رائعة؛ بل هل

دراسات قائمة على الذاكرة mnémotechniques وعلى حفظ نص يظل بالنسبة لهؤلاء المتعصبين لغزا مقدسا وغير مفهوم.

ولأن أغلب الأهالي يتكونون من الطلبة الكسالى، فإنهم نسوا عاداتهم الحربية وعوضوها باللهو واللعب ومتع الجسد. لذلك، فإنهم بالرغم من العدد الكبير لجنودهم المشاة، فإنهم كانوا يهزمون في الغالب من طرف جيرانهم بالشرق؛ وهم أهالي بني زرع، القبيلة الأمازيغية الصغيرة المتميزة بطاقة وبنشاط لا نظير لهما.

ويعتبر أهالي بني زياث أنفسهم، حفدة الموريسكيين الأندلسيين. وما يؤكد هذا الإدعاء، هو سلوكهم المتراخي والمخنث والأكثر ميولا إلى السلوكات المدينية. وبهذه القبيلة أكثر من غيرها، تنظم جولات الطلبة المعروفة ب "النزاهة".

- النزاهـــة:

عند اقتراب العطلة، يجتمع الطلبة على شكل فرق من 50 إلى 100 فرد من نفس القرية؛ ويصطحبون معهم راقصين وطبالين وعازفين على الغيطة وقارئين للنذور [دعاية] ومغنيين. ويتلقى هؤلاء الفنانون تعويضا متفقا عليه مسبقا.

والآن، لنتبع خطوات هذه المجموعة التي غادرت قريتها. إنها تسير بدون نظام، حيث يتنقل كل واحد من هذه الفرقة إلى تلك. وعند الاقتراب من إحدى القرى، تتشكل المجموعة على هيئة طابور يقوده الموسيقيون. فعلى بعد مائة متر تقريبا، يسمع صخب الآلات الموسيقية، من قرع للطبول ونفخ في الغيطة، ويتسارع أهالي القرية للقاء الوافدين المرحين ويرحبون بهم ويصطحبونهم إلى المسجد. وبعد فترة استراحة يتشكل الطابور من جديد ويتجول بالقرية، متوقفا عند باب كل منزل، حيث تعزف الموسيقى ويؤدي الغلامان رقصاتهما، فتتوزع الإكراميات والهدايا من طرف أصحاب المنزل، على شكل ملابس ونقود وعجول وماعز وفواكه وخضر وبيض ودجاج الخ... وذلك بحسب المستوى المادي لرب البيت.

وطبعا، فإن هذه الهدايا تستقبل بالشكر والمديح.

وعند حلول المساء، يعود الطلبة إلى المسجد للنوم، وهناك تنتظرهم كل أنواع الأطعمة التي سترضي أكثر الأشخاص نهما. وبعد أداء صلاة العشاء جماعة، يتناول الطلبة الطعام بأيديهم. وما أن تدق الساعة التاسعة ليلا، حتى يأتي أهالي القرية، باستثناء النساء طبعا، للمشاركة في

الحفل. عندئذ تتكون فرقة موسيقية من كل الطلبة الذين يجيدون العزف على إحدى الآلات الموسيقية المتوفرة، كالطبل والمندولين ذات الوترين والكمان والطبلة والمزمار؛ وتشرع الفرقة في عزف أحسن الألحان الجبلية، في حين يقوم الغلمان برقصات خليعة. ويظل المتفرجون مشدودين لهذه العروض ومستمتعين بها. وتملأ في نفس الآن، أكواب الشاي طوال الليل ويتصاعد دخان الكيف بكثافة، فيدوخ الحاضرون وقد يختنقون لولا أن الأطفال ينهضون بين الفينة والأخرى، لفتح باب الغرفة.

وفجاة يتوقف الرقص والغناء ويصدح صوتان بالدعوات الطيبة للجموع الحاضرة ولكرماء القرية ومع كل دعوة وكل صلاة على النبي وعلى آله وصحبه، تعزف الفرقة نفس اللحن المميز. وتتلى بالمناسبة أشعار في مدح العلماء والمجاهدين وأمداح نبوية وحكايات وأساطير رائعة حول أحداث خلت؛ تتخللها عروض موسيقية راقصة. ويفاجئ الفجر هؤلاء الناس المرحين، فيعلن أحد الأشخاص ذلك؛ حينها يخرج الجميع من الغرفة للوضوء، ثم يعودون إلى المسجد لأداء الصلاة فوق الحصير الذي كان شاهدا طوال الليل، على الحفل الذي لا يخلو من تهتك.

وبعد أداء صلاة الفجر، يكون الطلبة دائرة ويقرؤون حزبا قرآنيا، ثم تعطى الكلمة لقارئي النذور الذين يتوجهون بدعوات الخير لأهالي القرية؛ وبعد ذلك، تخرج المجموعة من المسجد وتتوجه إلى قرية أخرى.

وقد جرت العادة أن يستقبل طلاب القرى التي يزورها رفاقهم الجوالون بحفاوة، على شرط أن يعرفوهم كأشخاص أو يعرفون قبيلتهم؛ وعند حدوث العكس، فإنهم يتعاملون معهم بحذر وخوف، بسبب العادة السيئة لدى الطلبة الجبليين والمتمثلة في سرقة غلمان الآخرين.

ويتعين خلال الجولة، قراءة القرآن مرتين في اليوم، على شرف مولاي عبد السلام بن مشيش العظيم. وحتى لا يتعب القارئ، تم ابتكار طريقة ذكية، حيث توزع آيات القرآن على الطلبة الجوالين، فيقرأ كل واحد حصته؛ وبذلك يقرأ كتاب الله في ظرف نصف ساعة، مرة في الصباح وأخرى في المساء.

ولأنه من الضروري أن يسود شيء من النظام داخل قافلة هؤلاء الطلبة وأن تضبط حساباتها، فإنه يتم انتخاب "مقدم" بالإجماع، كي يسير شؤون المجموعة، يساعده أمين للمال

مكلف بجمع حصيلة المبيعات من الهدايا الممنوحة. وكما هو معلوم، فإن المانحين يشترون الماعز والدجاج والملابس؛ وباختصار كل ما وهبوه للطلبة. ولهذا النظام مزايا عديدة، فهو يخلص الجوالين من متاعب جر القطيع ونقل الحبوب والفواكه والخضر التي يجب حملها والمرور بها في طريق جبلية وعرة. وتحسبا للقاء قطاع الطرق، يحمل الطلبة معهم بعض البنادق والمسدسات.

كما تقضي العادة بألا تستهلك الهدايا خلال هذه الجولة. ومن الناحية العملية فإن "نزاهة" [جولة إحسانية] مدتها ثلاثون يوما مثلا، يمكنها أن تدر على كل طالب خمسة عشر فرنكا، إضافة إلى التغذية المجانية التي تقدر بحوالي خمسة عشر سنتيما في اليوم. هكذا، تلاحظون بأن الربح الناتج عن هذه الجولات الطويلة والمتعبة، غير مهم من المنظور الأروبي، لكنه ذو قيمة من المنظور المغربي والإسلامي.

ومعروف عن بني زياث أنهم مولعون ب "النزاهة" وغالبا ما تراهم في مختلف القبائل الغمارية، ينتقلون من قرية إلى أخرى؛ وقد تصل بهم الجرأة إلى حد بلوغ بعض القرى الريفية، لكن دون الابتعاد كثيرا عن حدود موطنهم. فمن طنجة إلى تازة ومن فاس إلى الريف، تعرف "النزاهة" وتمارس كثيرا. ومن المحتمل أن يلتقي دبلوماسيون وسياح أروبيون وهم في طريقهم من طنجة إلى فاس، جماعات من المتسولين المتعلمين، دون أن يتساءلوا أو يدركوا ما المقصود من تحركهم؟

- مخزن محروس بشكل جيد:

استقر محمد بن الطيب بقرية أزرار ببني هليل الكبرى، جنوب غرب سوق الأحد. وكان ينزل بالمسجد مع باقي الطلبة الأجانب ويتابع الدروس بطريقة غير منتظمة، حيث كان يتغيب خمسة أو ستة أيام على التوالي، لاكتشاف بني زياث. وعند رجوعه من كل جولة، كان يبدو بئيسا ورث الثياب؛ ولأنه لم يكن يهتم بالنظافة، فإنه كان يبلغ حدا من القذارة إلى درجة أن الطلبة الفقراء مثله والمتعودين على العيش في البؤس، كانوا يتهكمون من حالته ومن أسماله الممزقة.

وفي أحد الأيام، خاطبه المعلم الذي لاحظ هذا الوضع، بلهجة حازمة قائلا:

- ما نبغي شي تبقى هكذا بالوسخ، نحب النقاوة.

وانا أعرف بالتجربة أن الدرويش لن يعير أي اهتمام لهذه الملاحظة. فأسماله القذرة بشكل منفر، تمنحه امتيازا مضاعفا، فمن جهة، يمكنه التجول دون خوف، ومن جهة أخرى يمكنه الحصول على صدقات المحسنين.

لكن المكر الإنساني يظل حاضرا في مثل هذه المواقف. فقد قرر الدرويش الذي لاحظ بأن سخرية رفاقه تتزايد يوما بعد يوم، الذهاب إلى سوق الأحد، حيث اشترى جلابتين جديدتين بعشرة فرنكات للواحدة، وقميصا بنفس الثمن وزوجا من النعال بمائة سنتيم. وكان قد حصل على هذه النقود كهبة من عامل غمارة الشهير ابن مرزوق، المقيم بأزرار كما قلنا من قبل.

وبعد تسوقه، ذهب محمد إلى مكان بعيد وارتدى ملابسه الجديدة، ثم قفل راجعا إلى القرية، حاملا معه أسماله القديمة التي يمكن أن تنفعه في جولاته الاكتشافية المقبلة. وكان للتحول الجذري الطارئ عليه، تأثير كبير على الأهالي مثلما كان متوقعا. فالشخص المنفر في ا البارحة، أصبح اليوم حسن الهيئة، بفضل ملابسه الجديدة.

لكن أسماله لم تفقد أهميتها، فقد كان يلبسها كلما تجول بالجبل؛ وبفضلها استطاع بكل طمأنينة، زيارة مناجم الذهب جنوب إمزردين عند منعطف واد تريغة، غير بعيد عن دوار الهوتة.

ولاحظ وجود هذا المعدن الثمين أيضا، على طول الضفة اليسرى لواد تريغة، من منبعه إلى قرية بني بختي، شمال أزرار الصغير.

ويشير الدرويش بهذا الصدد، إلى أن بلاد غمارة برمتها تتوفر على مناجم غنية؛ وهو ما أكده له العديد من المغاربة الذين زاروا هذه المنطقة. وتصلح تربة بني زياث لغرس أشجار التين والعنب، كما أن الماعز والعجول تجد مراعي خصبة في الغابات الشاسعة لهذه المنطقة الجبلية. وأساس تغذية الأهالي هو البيصار [الفول المكسر concassé بالشعير].

وتخرج المرأة سافرة، كما أن سلوكها مستقيم مثل كل الجبليات عموما. فالنساء لسن منحرفات مثل الرجال الذين تعميهم رغباتهم الشاذة.

وبجلدات حيث كان متواجدا، أخبر الدرويش في أحد الأيام بتنظيم "نزاهة" بقرية أزرار، من أجل جمع التبرعات من بني سلمان. ولأنه كان يعرف سلبيات السفر جماعة، فإنه لم يلتحق بالقافلة وقرر الذهاب لوحده ومغادرة بني زياث التي استقر فيها طويلا. هكذا، صعد مجرى

واد تغيزاس الذي تجري مياهه وسط ضفاف مخضرة تا رة وقاحلة تارة أخرى، لكنها شديدة الإنحدار في غالب الأحيان، وهو ما يميز الأنهار الغمارية عموما.

وعند وصوله إلى أزرار، لم يكلم أحدا ودس ثيابه الأنيقة في كيس، ثم لجأ إلى فقيه القرية سي ابن أحمد، وهو الشخص الوحيد الذي يثق فيه؛ ومد له الكيس، قائلا بنوع من الغموض:

- خذ هذه الأمانة. فإذا رجعت فإنني سأستردها؛ وإذا لم أعد، فيمكنك استعمالها بكل طيبة خاطر.

وغادر قرية أزرار بأسماله البالية، ولم يعد إليها أبدا. وفي سنة 1894 بوهران، أي بعد عشرين سنة من هذه الواقعة، أخبر أحد الغماريين الدرويش بأن الفقيه ابن أحمد المسكين لم يتصرف في الجلابتين والقميص بسبب حسد أهالي قريته الذين كان يكررون على مسامعه دوما الخطاب التالي:

- حافظ على ملابس الطالب، فمن واجبك عدم ارتدائها أو إعارتها إلى أي كان !

قبيلة بني سلمان

كان الخريف على الأبواب وكان المناخ جميلا، بحيث تبدو الجبال الوسطى والجنوبية لغمارة في أبهى منظرها. لكن الأمر الذي كان يفتن الدرويش هو أنواع الفواكه والعسل والزبدة التي يملأ بها بطنه مع تمتعه بجمال الطبيعة. وبصعوده مجرى واد بني زياث، وصل إلى تراب بني سلمان وتحديدا إلى بودقيق السفلي، وهي قرية من 100 منزل، متواجدة فوق تربة تحتوي على الحديد ferrugineux، على طول الضفة اليسرى للنهر. وعرج على اليمين لزيارة مناجم الرصاص بكل من إخريفن والقلعة. وبهذه القرية الأخيرة، أثار انتباهه اسم معروف لديه؛ فعلى بعد كيلومترات إلى الجنوب، يوجد دوار اسمه أزفون. وبسرعة استحضر الجوال النشيط منطقته البعيدة الواقعة بإقليم الگرگور[6] التي لم يعد يعرها اهتماما كبيرا، بعد ثلاثة وعشرين سنة من الابتعاد عنها !

وكان يسمع في شبابه اسم أزفون الذي حوله الفرنسيون إلى اسم: ميناء جيدون Port Geydon.[7]

لكن أزفون بني سلمان ليست مركزا ثقافيا مهما، فهي قرية منعزلة وسط الجبال، يتسم أهاليها بالفظاظة والقسوة ويقتاتون مما يجدونه بالغابات المجاورة لهم. وعندما حل الجوال بالمسجد، قدم له البلوط والتوت الوحشي والجوز واللوز. وفي الغد، كان حظه من نفس الأطعمة. فقرر مغادرة القرية إلى مكان آخر يلتقي فيه الطلبة ولا يكون الطعام منحصرا في ما تقدمه أشجار الغابة.

وقد أعجب بأمزاورو، وهي مركز بني سلمان الرئيسي. وكان الطلبة يعيشون هناك من صدقات المحسنين بالقرية. غير أن رغبته في التنقل، حتمت عليه مغادرة البلدة إلى جهات أخرى، حيث كان يستقبل دوما بحفاوة.

---

[6] ولد محمد بن الطيب، حوالي سنة 1855 بقرية القلعة الوقاسية، قسم بني وجهان، قبيلة بني شبانة، جماعة گرگورا، محافظة قسطنطينة، دائرة بجاية. وهو ينتمي إلى عائلة أمازيغية قديمة، تدعي انتسابها إلى الولي سيدي عيسى بن أحمد، المدفون بقرية القلعة؛ وهو من أصل فاسي على ما يبدو.

[7] وهو مركز استيطاني فرنسي على الساحل الجزائري بين دليس وبجاية.

وأزفون كلمة أمازيغية تعني زهرة الأفراح Glaïeul. انظر كتابي : "أساطير القبايل الكبرى"، الجزء الأول، ص. 327.

- استغلال السلطان الأكحل [الأسود] لمناجم غمارة:

تقع قبيلة بني سلمان وسط غمارة، إلى جانب قبيلة بني منصور. وهي تمتد على مساحة غير مستوية، مليئة بالمنحدرات. وهي بلدة أشجار الفاكهة والماعز والعجول وخلايا النحل. وتنشط بها تجارة العسل والزبدة والحيوانات. وتكفي نظرة سريعة على الخريطة لإدراك غنى المنطقة بمناجم الرصاص والحديد والنحاس. وقد اشتهر الأهالي باستغلالهم لهذه المناجم. غير أن تنقيبهم لا يتجاوز الطبقات السطحية للأرض؛ ويتوقفون عند اصطدامهم بالصخور. ويفاجأ المرء بوجود آثار عميقة لمناجم قديمة أغلقت مع مرور الزمن. ويتفق الأهالي على القول، إنها استغلت في الماضي من طرف السلطان الأكحل. وهذا الأخير ليس شخصية أسطورية؛ فقد اكتشفت مؤخرا، وأنا أتصفح كتاب الاستقصا، اسم هذا الرجل الذي منحه الأهالي هذا اللقب.

فبعد أن أكد الناصري بأن أشهر سلطان مريني، كان هو أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، أضاف قائلا: "ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية".[8]

---

[8] انظر، كتاب الاستقصا، الجزء الثاني، مذكور، ص. 57 السطر 17 وما يليه، وانظر أيضا، المغرب المجهول ، الجزء الأول، مذكور، ص. 57، حيث تمت الإشارة إلى السلطان الأكحل، مع وضع علامة استفهام حوله. وعند إصدار هذا الجزء الأول، لم أكن متيقنا من هوية هذا السلطان الغريب الذي مازال المغاربة يلقبونه بالسلطان الأكحل، دون الإشارة إلى تاريخ تقلده العرش ولا في أية فترة كان موجودا ولا إلى إسمه الحقيقي.

ومن جهتهم، فإن أهالي دائرة وهران، مازالوا يتذكرون أميرا مغربيا يدعونه السلطان الأكحل وينسبون إليه تأسيس مدينة المنصورة، قرب تلمسان. ويقرون بأن السلطان الأكحل كان قويا وكان يسيطر على البلدان المغاربية الثلاثة؛ مضيفين بأن هذا القائد العسكري الكبير، جاء من أقصى مملكته بالمغرب، لمعاقبة أهالي تلمسان. وكان عدد جيوشه كبيرا، بحيث اضطر إلى بناء مدينة المنصورة قرب أسوار تلمسان في ليلة واحدة، بالجير والرمال التي كان يحملها الجنود بمزودتهم ! وتضيف الرواية إلى أن صفائح كل الجياد كانت من ذهب !

غير أن الحكاية الأسطورية أخطأت. وإليكم ما يقوله التاريخ: إن مؤسس المنصورة قرب تلمسان هو السلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق؛ وكان قد حاصر تلمسان لمدة مائة شهر تقريبا [ثمان سنوات وسبعة أيام بالضبط]، ما بين 6 ماي 1299 و 13 ماي 1307 ميلادية، وهو اليوم الذي لقي فيه حتفه، فرفع الحصار عن المدينة.

وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ، حاصر السلطان الأكحل تلمسان واستولى عليها في الأول من ماي سنة 1337.

أنظر بهذا الخصوص، ابن خلدون، تاريخ البربر، الجزء الرابع، الصفحات 141، 162 و 223 من الترجمة الفرنسية.

لقد كان أبو الحسن أسود البشرة وكان أيضا غازيا كبيرا، وأقصد بذلك من أكبر مرتكبي المجازر في التاريخ. فعلى مدى عشرين سنة من الحروب الدائمة من 1331 إلى 1351 ميلادية، لم يهتم بالمصالح المادية والمعنوية لرعاياه؛ وبذلك فإن تاريخه يظل شبيها بتاريخ السلاطين الآخرين الذين تعاقبوا على المغرب.

- عادات الأهالي ومساكنهم:

يا لحظ بني سلمان ! فهم يعيشون وسط غاباتهم، كما كان يفعل أجدادهم، بعيدا عن أبهة البلاطات وجشع عملاء المخزن. وتتوفر جبالهم الغابوية بالخصوص، على أشجار السنديان والزان والمران والصنوبر والأرز.

ويقسم واد بني زياث المنطقة إلى قسمين، مشكلا وديانا غنية تتدفق فيها مياه صافية وعذبة، ترتوي منها الطيور وبنات آوى. ويتميز الطقس بقساوته، لكنه صحي. ويسقط الكثير من الثلج فوق قمم الجبال خلال فصل الشتاء؛ وفي الصيف، يكون الطقس معتدلا وأقل برودة مما هو عليه، بأعالي الجبال الجنوبية لبني خالد. وتتم كل الأشغال الزراعية بواسطة المعاول نظرا لتموج الأراضي. أما داخل الأسر، فيصنع هلام العنب [الصامت][9] والخمر والخل. ولا تتطلب الكروم أية عناية خاصة، فهي تتسلق الأشجار الكبيرة، محملة بعناقيدها، مانحة ظلالها وثمارها. وباختصار، فإن أهالي بني سلمان يتغلبون على الجوع بقليل من العمل ويقضون وقتهم في دراسة القرآن، لذلك فإن أغلبهم يجيد القراءة والكتابة.

وحيث يقل التعليم، نجد سيادة السلوكات المنحرفة سواء وسط المتعلمين أو الجهال. ففي منطقة جبالة لا أحد يخجل من الممارسة الجنسية عن طريق الدبر، وهذا سلوك شاذ ومنحرف. فالماجن المغربي متعلق بهذه الممارسة البشعة ويحتقر كثيرا عملية الاستمناء أو مص العضو الجنسي، هاتين الجائحتين والبليتين اللتين أصابتا بلداننا المتحضرة. [10]

---

[9] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص .62.

[10] إن المسلم 'الإفريقي يمقت الاستمناء بشدة، لأنه لقن منذ صغره، على أن من يمارس هذه الرذيلة المخزية وكأنما يمارس السفاح بحق أمه.

ولكي يشمئز الجميع من هذا النوع من المجون، يقال عن المرء الذي يستمني، إنه ينكح أمه. وهذه عبارة دارجة تشير إلى العملية المذكورة.

لننتهز فرصة مرورنا بهذه القبيلة الجبلية الهامة، من أجل إعطاء فكرة عن السكن بغمارة. فعلى العموم، تكون المنازل واطئة ومتينة البنيان، بطابق أرضي فقط، مع بعض الاستثناءات النادرة. ويغطى السقفان المائلان بالقرميد وأحيانا بالفلين؛ كما يتعين أن تكون الأعمدة التي يرتكز عليها السقف متينة، حتى تصمد أمام قوة الرياح وثقل الثلوج. وتبنى الجدران السميكة وغير المتساوية بخليط من الملاط المكون من الجير وروث البقر والطين.

وبالساحل، يتوفر كل منزل على سطح، أما بالجبال العالية، فإن السقف يكون منحدرا كي ينزلق الثلج من فوقه بسهولة.

ويشمل منزل الفقير غرفتين أو ثلاث غرف يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، حيث ينامون فوق الحصائر القديمة، وأحيانا على التبن.

أما بالنسبة للأسر الغنية، فإن المنزل يكون شاسعا ويشمل ما بين خمس وعشر غرف بسيطة لكن نظيفة ومتوفرة على ما هو ضروري، عكس غرف الفقراء.

وفي المناطق التي يكثر فيها شجر السنديان، يتم التخلي عن الحصائر؛ والنوم داحل أسرة من الفلين أسطوانية الشكل. و لا يوجد لدى هؤلاء الأهالي المستقرين، اختلاط بين الجنسين كما هو الشأن بالنسبة للرحل الذين يعيشون وسط الخيام. فحينما يكبر الذكور، تخصص لهم غرف بعيدة عن الإناث. ويحتفظ الزوج والزوجة بغرفة خاصة بهما، تظل مغلقة دوما؛ وغالبا ما تكون هي أفضل غرفة بالمنزل.

قبيلة بني منصور

توجد وسط غمارة من الجهة الشرقية، حيث يمتد الركن الشرقي للقبيلة حتى الحدود الريفية. وهناك نهران كبيران يسقيان المنطقة ويمران بمحاذاة العديد من مناجم الحديد، وهما واد اmطير وواد تريغة. وكما في القبيلة السابقة، نجد نفس المزروعات ونفس الجبال الشاهقة والبرد القارس خلال فصل الشتاء. وتشكل الغابات الشاسعة جزءا هاما من ثروات المنطقة؛ ومن أهم أشجارها: شجر البلوط والسنديان والسرو والكرز الوحشي. أما الأودية، فتمتلئ بأشجار الفواكه وخصوصا شجر التين.

إن الغابات المغربية هي ملك عمومي ولا تخضع لأي تشريع خاص ولا لأي تدبير إداري. ويمكن لكل واحد أن يقطع أو يحرق أو يقتلع الأشجار دون أن يتابع من أية جهة. فما نسميه عندنا بالجرائم الغابوية لا وجود لها هناك، لأن الجميع يتمتع بحرية مطلقة بهذا الخصوص. وكم ستكون دهشة هؤلاء البدائيين، إذا ما أتى شخص وقور برتبته العسكرية فوق كتفه وتحدث معهم عن مسائل الملكية والأشغال والاستعمال، مع التأكيد على الغابات التي يملكها الخواص وعلى التخييم بها وشرائها واستصلاح أراضيها للزراعة وتقسيمها وتنظيم مراعيها وكرائها وتطهير الأنهار وحفر الخنادق تلافيا للحرائق واستيراد وتصدير الخشب والأمكنة المحجوزة للقنص الخ... بمعنى أن يسرد عليهم كل مقتضيات قانون الغابة لدينا؛ هذا القانون الذي يرعب أهالي الجزائر حاليا.

ولا يتميز طعام بني منصور عما هو مألوف في باقي القبائل، فهو يتكون من البيصار ومن الشعير والأرغال[11] والذرة التي تطحن وتخلط بالماء وتصنع منها كرات تؤكل باليد. ويكتفي الأهالي بتهييء خبزهم مرة في الشهر؛ وعند اليوم الخامس عشر، يصبح الخبز صلبا، فيتم تليينه بوضعه داخل رماد ساخن أو بماء كثير الغليان؛ ويسمى في هذه العملية الأخيرة "توردة" وهي أكلة بسيطة بدون ملح ولا بهار وتعتبر أقل تغذية مما يطعمه برجوازيو أوروبا لكلابهم. [**ملحوظة المترجم**: لا تخفى على القارئ النظرة الاحتقارية للأهالي؛ وحتى لو افترضنا أن كلاب البورجوازيين الأوروبيين تحظى بعناية فائقة، فهل من اللائق مقارنة طعام الأهالي بطعامها؟].

(11) انظر، المغرب المجهول، مذكور، الصفحات 61، 66 و 68.

والملاحظ أن الجهة الشرقية لبني منصور، مازالت تتكلم اللغة الأمازيغية، فهل يرجع ذلك، إلى قربها من الريف؟ وكيفما كان الحال، فإن هذه اللغة تتراجع بالتدريج داخل هذه المنطقة؛ ويمكن أن نتنبأ بحلول العربية مكانها في المائة سنة المقبلة. وتحظى الموسيقى بأهمية خاصة بالقبيلة؛ ومن بين أكثر الآلات الموسيقية استعمالا نذكر: الناي القصبي والغيطة والطبل.

- الزوايا وصلحاء الإسلام:

إن أتباع الطريقة الدرقاوية ببني منصور كثيرو العدد. ويوجد مقر شيخهم بتوجكان، وهي قرية كبيرة من 500 منزل، تقع في الزاوية الشمالية للقبيلة، قرب الحدود المشتركة بين بني سلمان وبني بوزرع وبني گُرير. ولا يظن أحدا، بأن لأفراد هذه الطائفة تأثيرا على إخوانهم. فالمسلم المتعصب ليس في حاجة إلى الانخراط في الزاوية لكي يكره غير المسلمين.

وخلال مقامه بتوجكان، ربط الدرويش علاقة صداقة مع شيخ الزاوية الحاج الصديق بن عبد المومن، وهو رجل ذكي غير متعصب، يقرض الشعر أحيانا بالدارجة المغربية، قاطعاالصلة مع المتعالمين الذين يعتقدون بأن الشعر الحقيقي يجب أن يكون محاكاة للأشعار الجاهلية الصعبة وغير المفهومة. [12] ولا يرى الحاج الصديق أي حرج في كتابة شعره بالدارجة المفهومة من طرف الجميع. غير أن شهرته الأدبية والمحلية لا تساوي شيئا أمام شهرة أعظم وهي كونه ابن الولي الصالح عبد المومن، المتوفى منذ حوالي أربعين سنة.

وقد توزع أبناؤه على العديد من الزوايا، ولم يجدوا أية صعوبة في ترؤسها؛ لذلك امتلأت قبيلة بني منصور بالصلحاء. كما يمكن أن نجد عددا كبيرا منهم لدى بني خالد [غمارة] وبني زناسن [الريف]. وهناك فرع لهذه الزاوية بمسيردة، دائرة مغنية [إقليم وهران]؛ ويوجد قبر الولي عبد المومن ببضار، وهي قرية صغيرة بقبيلة مسيردة.

وإذا ما توفر الوقت والقدرة للاهتمام مستقبلا بصلحاء المغرب، فسأبين كيف أن المغاربة كانوا ومازالوا، يمنحون بسهولة لقب ولي لصلحائهم، سواء في حياتهم أو مباشرة بعد مماتهم.

---

[12] إن الأدباء العرب القدامى غير قادرين على فهم هذه الأشعار دون الاستعانة بالمعجم والشروح. وأنا أضحك من كل قلبي عندما أسمع أجنبيا غبيا ووقحا، وهو يؤكد بأن قراءة المعلقات ليست صعبة بالنسبة إليه !

وكما هو معلوم، فإن المسيحيين قد وضعوا حدا لألقاب القداسة منذ القرن الثالث عشر، انطلاقا من المبدأ الكاثوليكي الصريح:

"Sine papae licentia non licet aliquem venerari pro sancto"

وتزامن هذا التنظيم البابوي مع بداية نهاية العصر الذهبي للتعصب الديني بأروبا.

وأنتم أيها الشعراء ويا أيها المتنبؤون، أخبرونا متى ستظهر العلامات الأولى للتسامح، حتى نتمكن من مباركة مثل هذا الحدث لدى جيراننا المتعصبين بالغرب ولدى كل مسلمي العالم؟

إن خطوات الأنوار والتقدم الفلسفي ثقيلة؛ ومع ذلك، لدي الأمل بأنهما سيتحققان في العشرين قرنا القادمة وسينيران العالم بأسره وكل أولئك الذين مازالت أعينهم مغمضة وآذانهم مسدودة بعناد أمام الحقائق الخالدة والحس السليم والعقل؛ أولئك الذين لا يفكرون ذاتيا ويحتاجون إلى تقديس الكتب والانخراط في المذاهب والفرق بشكل علني أو سري. آنذاك لن تسود المعتقدات وستعوضها الفضائل، بحيث لن يكون الناس في حاجة إلى الاقتتال بسبب أوهام سخيفة.

- قطع الطريق بغمارة:

إن أهالي بني منصور قطاع طرق ورعون. فهم يسلبون الأجانب أمتعتهم لكن بلباقة ! حيث يحلفون بإيمانهم بأن نيتهم حسنة وبأن مصاعب الزمن هي التي تدفعهم إلى القيام بهذا العمل الشاق. وتساعدهم جغرافية منطقتهم على ممارسة مثل هذا السلوك، حيث يختبئ قطاع الطرق بالمغارات والأدغال وبالمنحدرات وفوق الأشجار ووراء الصخور؛ والويل لمن يمر أمامهم ! في أحد الأيام، وتحديدا الأربعاء الذي يصادف عطلة الطلبة الغماريين، بقي محمد بن الطيب بمسجد توجكان مع رفيق له، من بني سلمان. وكان الطلبة الآخرون، وجميعهم من توجكان، قد قرروا زيارة أصدقائهم بالقرى المجاورة. فاتفق الدرويش مع صديقه على الذهاب إلى "المدينة" وهي قرية من 100 منزل تقع جنوب بني منصور. وبعد أن لبسا جلابتيهما الجديدتين غادرا توجكان وقد تسلح كل واحد منهما بمسدس وحمل زعبولته [كيسه] المصنوعة من الجلد الأحمر. وكانا يسيران باطمئنان في واد مشجر، عندما سمعا النداء التالي: "يا عامر". وكان النداء المتكرر صادرا عن شخص واقف بتلة وراءهما، فشعر الطالبان بالخوف لأنهما أدركا أن الرجل ينادي على رفاقه، لذلك أسرعا الخطو. وفجاة اعترض طريقهما ثلاثة رجال قساة الملامح، مسلحين بالبنادق.

وأريد الإشارة مرة أخرى وأخيرة إلى الطريقة التي يستخدمها قطاع الطرق الجبليون لإيقاف المارة. فهم يختارون مكانين عاليين يطلان على الطريق. ويكمن ثلاثة أو أربعة رجال في هذه الطريق، في حين يقوم شريك لهم بالحراسة من أعلى التلة. وعندما يرى مسافرين عزل وغير مسلحين، فإنه يصيح: "يا عامر". وهذه الكلمة ذات فأل حسن، فهي تعني بأن كل شيء على ما يرام وأنه من الممكن الهجوم دون خوف. أما إذا صاح الحارس: "ياخاوي"، فإنه يعني لا توقفوهم، فهم كثرة وهناك أناس قادمون.

وكان الدرويش على علم بعادات هؤلاء اللصوص، لذلك فهم المقصود من كلمة يا عامر. وفي انتظار مواجهة قطاع الطرق، تظاهر بالغباء. ووقف الأشرار بوسط الطريق صائحين: انزعوا ملابسكم.

فاستجاب الطالبان للأمر ووضعا ملابسهما على الأرض وفوقها المسدسين اللذين لم يصلحا لأي شيء. عندئذ تقدم اللصوص وفتشوهما بعناية، رافعين القميصين إلى أعلى. ولما لم يجدوا شيئا، سألوا الرجلين:

- من أي بلد أنتم؟
- من توجكان.
- أنتما تكذبان فلستما من توجكان.

أثناء الحوار، كان أحد هؤلاء الأوغاد يجمع الملابس ويضعها داخل حايك. وعندما انتهى من عمله قال لشركائه:

- هيا، ألم تقيدوهما بعد؟

وبالفعل قيدت أيديهما وراء ظهريهما واقتيدا إلى مكان عميق وموحش بالغابة وتركا هناك وأمرا بألا يتحركا قبل حلول الظلام.

وكان ذلك بمثابة احتياط من طرف قطاع الطرق، لأنه إذا ترك الطالبان أحرارا، فإنهما سيتبعان المعتدين وسيطلبان النجدة من الرعاة المتواجدين بأماكن عدة بالجبل.

هكذا، وبعد انقضاء فترة طويلة على ذهاب اللصوص، عاد الطالبان إلى جانب الطريق. وعند المساء وجدهما الرعاة جالسين، ينتظران بصبر من سيفك قيدهما. وبعد أن فك وثاقهما، قصدا قرية "المدينة"، حيث كان أعضاء الجماعة متواجدين بالمسجد، يناقشون أحداث اليوم والمحاصيل والمواشي، مع بعض النميمة طبعا. وعندما رأوا الطالبين بالقميص فقط، صاحوا بصوت واحد: من قام بسرقتكما؟

فأجاب رفيق محمد بجرأة:

- إنهم من أهالي بلدتكم.

ولقد كان على حق. فالاعتداء تم بالقرب من "المدينة"، لذلك كان من شبه المؤكد أنه دبر من طرف أوغاد تلك القرية. وبأمر من الجماعة استدعى المنادي في الليل كل الرجال الأصحاء، إلى المسجد. ومر المشتكيان أمامهم واحدا واحدا، على ضوء مصباح زيتي، متأملين كل الوجوه، إلى أن تعرفا على غلام وسيده. ولم يتأخر هذان السفيهان في الاعتراف بأنهما شاركا فعلا في الاعتداء وأن شركاءهما في الجريمة رفضا إعطاء الغلام حصته. وأضاف الرجل قائلا:

- انتظروا، سأحضر الجلابة والمسدس؛ وهي حصتي من العملية. لكن أولئك الأوغاد سيؤدون ثمن ما فعلون بالعايل.

وعندما رجع، وضع الملابس وسط الدائرة التي شكلها أعضاء الجماعة. ولما سئل عن مكان شريكيه أجاب:

- لقد ذهبا إلى سوق الأحد ببني زياث لبيع مسروقاتهما. وفرح الدرويش في قرارة نفسه من الصدفة السارة التي مكنته من استرجاع جلابته؛ وبالمقابل استرجع رفيقه المسدس.

وارتدى محمد جلابته في حين ظل رفيقه يحدق في المسدس وهو لا يدري ماذا سيفعل به. وبعد نقاش صاخب قال أعضاء الجماعة للطالبين:

- انتظرا عودة الملعونين وسنجبرهما على إرجاع ما سرقاه منكما؛ وإذا لم يتم ذلك، فسنطلب من الله أن يعوضكما بما هو أفضل.

وتخيل الدرويش عودة الوغدين من السوق واكتفاءهما بالقول:

- لقد بعنا أسمالكم بخمسة أو ستة قروش، وهي لكم إن رغبتم فيها.

لذلك ألح على صديقه بضرورة مغادرة القرية فجرا وقال له هامسا:

- يجب الاحتياط من هذين المجرمين، فإذا علما بأننا موجودان بالقرية، فسينتقمان منا !

واقتنع الصديق بما قاله الدرويش؛ وعند الفجر غادرا القرية مرفوقين بدعوات أعضاء الجماعة ومشكورين من طرف عائلتي اللصين بعد أن اعتبر الطالبان بأن ما تبقى من المسروقات هدية منهما؛ ثم تابعا طريقهما إلى توجكان التي بلغاها بدون مشاكل.

قبيلة بني بوزرع

هل ترون هذه القبيلة المتواجدة بين بني زياث وبني سلمان وبني كًرير والبحر؟ إنها جديرة بالاهتمام لعدة أسباب. أولا، لأنها ليست من أصل غماري؛ وثانيا لأنها مازالت إلى يومنا هذا تستعمل اللغة الأمازيغية وترفض بعناد الحديث بالعربية. وعلى الرغم من كون الدراسات القرآنية تحظى بالأهمية لدى الأهالي، إلا أن القليل منهم يعرف لغة الضاد. فالرجال والنساء والأطفال يتداولون لغة أمازيغية مختلفة عن تلك التي نعرف؛ وقريبة جدا من تامازيغث بني بونصر وبني سيداث، هاتين القبيلتين الصنهاجيتين بالريف. [13]

وتبين بعض الأمثلة، الاختلاف الحاصل بين لغتهم المحلية وتلك التي درسها المهتمون باللغة الأمازيغية. فالرجل هو سولا والمرأة سينعا والولد أحلولوم والبنت تحلولومت والبرنوص أزنار وأنت كين. [14]

- آخر الأمازيغيين بغمارة:

كيف وجدت هذه الجماعة الصنهاجية وضمن أية ظروف، داخل المركز الغماري الكبير؟

سؤال ليس له جواب، مثل العديد من الأسئلة حول التاريخ الغامض لشعوب إفريقيا الشمالية. [15]

لقد حاولت غمارة التي تعربت كلية تقريبا منذ مدة، أن تخضع وتدمج القبيلة الجريئة الصغيرة، لكن دون جدوى؛ بحيث فقدت من جراء ذلك، عددا كبيرا من قواتها ومالها وأفضل مقاتليها. ولم يبق لها من الحروب الماضية سوى ذكرى مريرة حول هزائمها وشعورها الحاد بأن هذا الشعب الصغير، الشبيه بالقنفذ، سيبرز أشواكه من جديد، إذا ما حاولت قوة أجنبية الاعتداء عليه.

إن قبيلة بني زرع محمية شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، حيث لا تخشى سوى الغزو المسيحي؛ وشرقا بواد امطير الذي يفصلها عن بني كًرير. لكن حدودها الجنوبية والغربية غير محمية بما فيه الكفاية، رغم وجود جبال عالية قد تساعدها على إيقاف هجمات العدو.

---

[13] انظر، المغرب المجهول، الجزء الأول، مذكور، الصفحات من 61 إلى 69.

[14] نفس المرجع السابق ص. 98. وانظر بالخصوص الكلمات المستعملة من طرف قبيلتي بقيوة وبني ورياغل.

[15] انظر فيما بعد، النبذة التاريخية حول غمارة، ابتداء من سنة 828 م.

هكذا، توجد بالحدود الجنوبية مع بني سلمان، مجموعة من القرى المعلقة فوق القمم الجبلية والمستعدة لصد أي عدوان؛ وهو ما ينطبق أيضا على القرى العديدة بالحدود الغربية.
وتبقى هناك قبيلة غمارية وحيدة متشبثة بحقدها الراسخ تجاه بني بوزرع، علما بأنها تهزم كل مرة من طرف هذه القبيلة الصنهاجية الشجاعة، ويتعلق الأمر ببني زياث، هذه القبيلة المتهورة التي تكبر جارتها بست مرات ولكنها أيضا أقلها بأس بستة أضعاف. وإليكم الدليل على ذلك: خلال سنة 1890، وبعد معارك دامية انهزمت فيها بني زياث، تمكنت قبيلة بوزرع من الاستيلاء على منطقة تشمل منعطف واد بني هليل [أو واد تغيزاس] من الهوتة على حدود بني سلمان إلى ميناء تغيزاس.
وفي صيف 1895، لاحظ محمد بن الطيب عندما كان يعبر غمارة للمرة الثانية، بأن المنطقة التي استولت عليها قبيلة بني بوزرع مازالت تحت سيطرتها، باستثناء القرى الآهلة بالسكان. فقد حصل اتفاق بين القبيلتين، تلافيا للاغتيالات التي تحدث يوميا، بأن يظل أهالي بني زياث بالقرى التي ضمتها بني بوزرع إليها؛ بالمقابل، ستحتفظ هذه الأخيرة، بالحقول وبساتين الخضر وبالأراضي الغنية بمناجم الذهب.
وقد مكن هذا الإلحاق الجديد الذي تم بحد السيف، من مضاعفة مساحة بني بوزرع التي أصبحت مساوية لمساحة بني سميح. فهل ستحتفظ بهذه الأراضي على الدوام؟ هل بإمكانها أن تصد باستمرار، هجومات جيرانها الأقوياء المتكالبين عليها لأنها لم تتعرب بعد؟ إن هذه الاعتبارات هي التي جعلتني أتردد في رسم حدود بني بوزرع حتى واد تغيزاس. من جهة أخرى، فأنا أدرك السهولة التي تتغير بها الحدود بين القبائل. وأحيانا لا تساهم الأسلحة في هذا التغيير، بل يمكن للمال والدسائس ولتدخلات الصلحاء، أن تغير خريطة البلد بشكل كبير؛ أما الباقي، فيتم عن طريق الإدماج الذي يعتبر عنصرا هاما في تذويب القوميات، وهو المصير الذي ينتظر بني بوزرع، مثله في ذلك، مثل مصير إمبراطوريات عريقة، اختفت إلى الأبد ولم يبق منها أي أثر.
لكن، إذا اختفى الإسم، فإن العرق يظل قائما بقوة وشموخ. وبالفعل، فمن النادر أن يتمكن السيف من إبادة أعضاء نفس العائلة فبالأحرى جماعة بأهمية قبيلة أو مدينة، مهما كانت وحشية المعتدين.

فأثناء تدمير قرطاج بالفظاعة التي نعرفها، استطاع المستوطنون البونيقيون Colons puniques النجاة بالمئات من بطش الفرق الأجنبية légions؛ ولجؤوا بالبوادي والقرى والمراكز الأمازيغية التي كانت موجودة آنذاك؛ وحافظوا على لغة وطنهم التي ظلوا يتكلمون بها، حتى القرن الخامس الميلادي، أي بعد مرور أكثر من خمسة قرون على وفاة المدمر القاسي لمدينة هاني بعل Hannibal.[16]

إن تشتت العائلات والقبائل والأوطان، لا يعني بالضرورة نهايتها. ففي هذه الأرض الإفريقية التي نلتقي فيها بحفدة القرطاجيين والرومان واليونانيين والوندال والأمازيغ والأتراك، لا نستطيع تمييزهم عن العرب الذين رسخوا عاداتهم ودينهم ولغتهم.

وفي أقل من قرنين، سيتم اجتياح المناطق الأمازيغية الجزائرية التي قاومت المد العربي إلى حد الان. فلماذا ساهمنا، انطلاقا من جهلنا بالأعراق، في هذا الاختلاط الشقي، حيث عينا على القبايل رؤساء عربا وأجبرنا الأهالي على استعمال لغة الضاد في مراسلاتهم، مع كيلنا المديح للأصالة وللشهامة المزعومتين، لهؤلاء الشرقيين الذين استطاعوا فعلا دمج الآخرين، رغم إخفاقاتهم على المستوى الإداري؟

لماذا لا نقوم، أثناء اختيارنا لمديري مستعمراتنا بالتأكد من مدى توفر هؤلاء الموظفين السامين على معلومات تاريخية ولغوية حول المناطق التي كان لهم الحظ في تدبير شؤونها؟

فلو كان لدينا عمال وإداريون مدنيون وعسكريون أكثر تكوينا وأقدر على التواصل مباشرة مع الأهالي، دون وساطة خارجية، مستلهمين الماضي للتعامل مع أناس لم يتغيروا منذ قرون، لكنا قد تجنبنا الكثير من الارتباك والمصاريف وإراقة الدماء.

إن أهالي بني بوزرع ظلوا إلى حد الآن أمازيغيين. وهم أناس مجدون ويدرسون جيدا، وتراهم يتركون الدراسة لعمل الفأس أو المجداف، لأن هناك من يذهب إلى الحقول من أجل زرع أو حصد الذرة والفول؛ وهناك من يركب قاربه ويدخل البحر ليعود في المساء محملا بالأسماك. وأهم صناعة اشتهر بها الأهالي، هي صناعة النقود الذهبية والفضية، بواسطة قوالب مخصوصة لهذا الغرض. فالمادة الأولية توجد بالقبيلة؛ والقوالب المعدنية تصنع من

---

[16] Cf. St Augustin , Epist. CV III ad macrobiam ; St Augustin, operum t. 2, p. 314 et aussi Fournel, Les Berbères, t. 1er, p. 64 et 216, n° 4.

طرف عمال مهرة؛ لذلك، فإن النقود تكون شبيهة بالنقود السلطانية؛ ويجب أن يكون المرء خبيرا للتمييز بين هاته وتلك.

وما يؤكد على جودة إتقانها وهو تداولها بكل غمارة إلى جانب نقود السلطان. وهناك من يقر بأفضليتها لتضمنها مقدارا أكبر من الذهب أو الفضة. وفي جميع الأحوال، لا يمكن اعتبارها نقودا رديئة، ما دامت تنافس النقود الشريفة.

ـ الصناعة المعدنية:

إن هذه المنطقة الصغيرة المليئة بالتلال التي تصبح أكثر علوا كلما ابتعدنا عن البحر، تعتبر قبيلة الباحثين عن الذهب. فهذا المعدن المقدس، يوجد في كل مكان؛ في الوديان والتلال وحتى في أزقة القرى المبنية فوق مناجم قديمة لم تستغل إلا بشكل سطحي. ومعلوم أن الوسائل الحديثة لاستغلال المعادن الذهبية والفضية، غير معروفة بالمغرب؛ ولم تحقق الصناعة المعدنية بهذا البلد أي تقدم، منذ مئات السنين؛ ولربما كان هناك تأخر بالمقارنة مع الماضي. فمن أدرانا بأن الأمازيغ الماسوزوليين Massosyliens في عهد القرطاجيين كانوا أكثر تقدما في مجال الصناعة المعدنية من الأمازيغ الحاليين؟

إن الطبقة الجيولوجية لغمارة الشاسعة، هذا المعبر الجبلي المستقبلي لإفريقيا الشمالية، تحتاج إلى دراسة دقيقة. فمناجم الذهب التي مستها معاول الأهالي بالكاد، تحتفظ بثرواتها لكل من سيحتل هذا البلد الغني.

وبقرية أدارن الجميلة، حيث استقر الجوال بشكل رسمي؛ كان يشعر بالتعب من جراء النفخ في النار لإذابة هذا المعدن الثمين. وكان ينظر بسخرية إلى صديقه العزيز سي عبد الفضيل قايد بني بوزرع الذي كان يقوم بمحاولات عديدة لفصل الذهب والفضة عن باقي المعادن الملتصقة بهما، لكن بدون جدوى، إلى أن أعياه الإجهاد. وقد توفي هذا القايد سنة 1895.

وكانت أول زيارة قام بها محمد بن الطيب لبني بوزرع بمثابة حدث؛ إذ كان عبد الفضيل منهمكا في تجاربه الخيميائية al chimiste معتقدا أنه سيبتكر شيئا جديدا. وكان مهتاجا بمطبخه، يذكي النار ويتصبب عرقا وسط مواقده المشتعلة باستمرار. وكان الدرويش وهو في عنفوان سن العشرين، شريكا أمينا له. واقتصرت مهمته على النفخ في النار حتى تتطاير شرارتها بعيدا. ولم يقو على الاستمرار، حيث أحس بلا جدوى العمل المرهق الذي يقوم به؛

وقد تأثر بالحكايات الرهيبة التي يرويها الأهالي حول مصير أولئك الذين تمكنوا من استخلاص الذهب.

هكذا، توقف عن هذه المحاولات الخطيرة، وإن كان سيعيد الكرة من جديد في ظروف أخرى.

وهو اليوم مقتنع بأن المغاربة لن يصلوا إلى نتائج مرضية، اعتمادا على قدورهم وقوالبهم الغريبة وأدواتهم الأخرى التي لا تقل غرابة والتي قد تثير سخرية وشفقة أهالي الأوطان المتنورة القديمة. فالرتابة المؤدية إلى الارتخاء؛ والإيمان العميق بتدخل قوى خارقة تكشف للأهالي عن الأسرار التي اجتهدت أعراق أخرى مجدة خلال قرون لمعرفتها، يجعلان هؤلاء الأهالي غير مدركين لقيمة الثروات الموجودة بباطن أراضيهم وغير مستعجلين للبحث عن حلول للمشاكل التي ستواجهها الأجيال القادمة.

- إشارات الحياد:

لا تظنوا بأن ابن الطيب كان يكتشف ويفحص كل قبيلة بعمق، قبل الانتقال إلى قبيلة أخرى. فأحيانا ما كانت الظروف تجبره على تغيير مساره. وعلى الرغم من كونه أقل الناس خضوعا للإكراهات الاجتماعية والسياسية، إلا أنه كان يواجه في بعض الأحيان حواجز تمنعه من بلوغ مقاصده. هكذا، عندما أراد زيارة بني بوزرع لأول مرة وجد نفسه بين نارين، جنوب غلدث بمنعطف واد تغيزاس.

فقد كانت طلقات البنادق التي تصم أذنيه، إشارة إلى أنه وقع فجأة وسط ساحة معركة. وبالفعل، فقد كان أهالي بني زياث وبني بوزرع يتقاتلون فيما بينهم ذلك اليوم. وصرخ الجوال برعب:

- يا بني عمي، من فضلكم، أوقفوا هذه الألعاب حتى أتمكن من المرور !

وطبعا، لم يهتم أحدا بصراخه وبدا وكأن الرصاصات متجهة إليه وحده دون غيره. وفجأة تذكر الإشارة التي ستنقذ حياته. هكذا، نزع جلابته بسرعة وبدأ يديرها حول رأسه بنشاط زاد الرعب من قوته.

وبقدرة قادر، غيرت الراصاصات وجهتها وتقدم الدرويش بمنطقة هادئة نسبيا، وهو يقوم بالحركة الدائرية فوق رأسه، إلى أن بلغ مضيقا جبليا، اختبأ به حتى انتهت التراشقات

النارية. وكانت تلك هي الطريقة المستعملة من طرف الأجانب، لتفادي الخطر في الريف وجبالة، عندما يتواجدون لسوء حظهم وسط فريقين متقاتلين.

وهناك وسيلة أخرى لتجنب الموت والإشارة إلى عدم الانتماء لأي طرف من الطرفين المتحاربين، وتتمثل في إشعال نار قوية، شريطة التوفر على أعواد الثقاب وعلى عشب يابس؛ و إذا لم يكن ذلك متوفرا، فيستحب استخدام الجلابة والقميص وتحريكهما بشكل دائري فوق الرأس. وقد ينصح بإشعال النار أثناء الليل، لكن الخطر في ذلك، هو توجيه طلقات المتحاربين صوبها؛ ولهذا يستحسن عدم اللجوء إلى هذه الوسيلة.

وبإمكان الشرفاء والصلحاء أن يخترقوا صفوف المتقاتلين، على ظهر جواد أو بغل لإيقاف المعركة بين الطرفين. وبالفعل، يتوقف إطلاق النار، لأنه لا أحد من بين هؤلاء المتحاربين يريد ارتكاب جريمة قتل في حق حفيد الرسول وحبيب الله، ولو بشكل لا إرادي.

قبيلـــة بني ڭريـــــر

إن المشي متعب وخطير على الأجراف المحاذية للساحل الغماري. فمن شرم امطير إلى خليج تاغيسة، يمتلئ الشاطئ بالصخور الشديدة الانحدار التي تعرض فيها محمد بن الطيب للسقوط المؤلم أكثر من مرة.

وقد تمكن بفعل التجربة من معرفة أوقات المد والجزر في هذه النقطة من البحر الأبيض المتوسط؛ هذه "البحيرة" الكبيرة التي سماها المغاربة بنوع من الاستخفاف، البحر الميت، مقابل المحيط الأطلسي الذي سمي بالبحر الحي.

وكان الدرويش جائعا؛ وتابع السير إلى أن وصل إلى رأس promontoire، هو بمثابة شبه جزيرة تربطها بالبر صخرة طويلة. وهناك جمع بعض المحار وأكله بنهم، للتغلب على جوعه. وعندما أراد الرجوع، لاحظ بأن البرزخ الذي غطته المياه لم يعد موجودا. وبالصبر الرائع للمسلمين، تمدد فوق الصخرة وانتظر بأناة تراجع المياه. وبعد ساعات من الانتظار، تمكن أخيرا من الرجوع إلى البر وتابع سيره باتجاه مدينة تاغيسة القديمة، الموجودة بمصب واد يحمل نفس الاسم.

هكذا، حط الرحال ببني ڭرير، وهي قبيلة بحرية بغمارة، محاطة شمالا بالمتوسط وغربا بواد امطير الذي يفصلها عن بني بوزرع وشرقا بواد تاغيسة الذي يفصلها كحد طبيعي عن بني سميح وجنوبا بسلسلة جبلية، هي جبال بني ڭرير التي تواجه منحدراتها الجنوبية المليئة بالدواوير، قبيلة بني منصور.

- معلمون متجولون:

لا يوجد في القبيلة أي أمي، فجميع الأهالي متعلمون. بالمقابل، لا يوجد مزارع ولا حطاب ولا راع. فباستثناء الصيد والقنص، وهما نشاطان للترفيه عن النفس أكثر من كونهما مهنتين، فإن أهالي بني ڭرير لا يزاولون أية مهنة. لذلك، فإن النساء هن اللواتي يقمن بكل شيء، حيث يزرعن ويحصدن ويرعين الماشية، فضلا عن تحمل أعباء المنزل. أما الرجل فيقضي يومه في التسكع flâne ويدخل المسجد مرارا للثرثرة وقتل الوقت؛ وأحيانا ما يغادر القرية ببندقيته وشباكه، كمحاولة لكسر رتابة حياته. وفيما بعد، يقرر مغادرة مسقط رأسه إلى

أمكنة أخرى، وهو لا يدري إن كان سيعود يوما أم لا. هكذا، سيتجول بين القبائل كمدرس يعلم الأطفال الأبجدية والقرآن، مقابل أجرة بسيطة وحصوله على الغذاء والمبيت بالمساجد.
وبعد مرور عشر سنوات على الأقل، يكون قد جمع بعض المال؛ فيرجع إلى قريته عازما على الزواج. عندئذ ستتكلف زوجته بكل شيء؛ ولن يكون في حاجة إلى القيام بأي عمل، بما في ذلك تعليم القرآن للأطفال.
إن عادة التجوال لدى أهالي بني گرير ومعلميهم الغماريين، تجعلهم يبتعدون عن موطنهم الأصلي، دون أمل في العودة. وأنا أعرف الكثير منهم بوهران، ممن استقروا منذ سنوات بقرية الأهالي، حيث فتحوا مدارس للتعليم ونجحوا في مهمتهم. وهناك من تجرأ وهاجر إلي شرق الجزائر وإلى تونس ومصر وحتى سوريا. ونظرا لارتباطهم بزوجات وبعلاقات جديدة ولصعوبة الرجوع، فإنهم يقطعون الصلة ببلدهم.
- التجارة والصناعة:
يعتبر ميناء تاغيسة مركز نشاط تجاري مع كل من تطوان وقبيلة قلعية الريفية. ويتم التنقل بحرا بواسطة مراكب شراعية لا تبعد كثيرا عن الساحل. وتصدر تاغيسة فولها إلى قلعية التي تقايضها بالملح. أما المعاملات التجارية مع تطوان فهي مختلفة. فالمدينة المغربية القديمة، ترسل إلى بني گرير كل أنواع الملابس والأثواب، مقابل خشب النجارة والألواح والجوز واللوز والصامت [هلام العنب].
وتستغل الغابات الجبلية الكثيفة بشكل فظيع، حيث تقطع أجمل الأشجار بدون نظام، من أجل ربح المال فقط وترسل الروافد poutres الضخمة إلى مدينة تطوان بواسطة المراكب كما قلنا. أما الأراضي التي أصبحت عارية، فتزرع بالشعير والفول والعدس. وتباع هذه المحاصيل يوم الثلاثاء بسوق تاغيسة. وهناك سوق أخرى بقرية بني حمدون، جنوب القبيلة لكنهما معا غير ذي أهمية.
وعلى العموم، فإن تطوان هي التي تحتكر تجارة المنطقة؛ ولا تترك إلا القليل لباقي الأسواق. وهناك أمر نريد الإشارة إليه، وهو أنه من الصعب أن نجد في كل أسواق غمارة بائعا للحم، لأن الأسر مكتفية ذاتيا وتذبح الحيوان الذي تريد أكله بمنازلها. ويتوفر تراب بني گرير على عيون وأنهار وافرة المياه. لذلك، فإن كل المنازل تحاط ببساتين تزرع فيها الخضراوات

والذرة. وغني عن البيان، أن أصحابنا الطلبة يتركون العناية بها لزوجاتهم. فحمل المعول يعني خيانة المصالح العليا للعلم ! ويكفيهم اللهو والجولات الإحسانية [النزاهة] والرحلات الشهرية التي تقام فيها المآدب والرقصات، فتلك هي انشغالات هؤلاء السادة العظماء !

قبيلة بني سميح

بعد ان ترك قرية تيغسوان وراءه، دخل الدرويش أراضي بني سميح في اللحظة التي كانت فيها الرياح تهب بعنف. ففي هذه الجبال الغابوية التي تسقط بها الثلوج كثيرا خلال فصل الشتاء، يمكن للمرء أن يتيه بسهولة. فلا توجد طرق ولا مسالك لتوجيه المرء داخل الأدغال الكثيفة. وتسمح آثار عبور القناصين الذين يندسون داخل الأحراج الكثيفة والشائكة دون صعوبة، للأهالي باجتياز المكان، لكن ذلك يظل غير كاف. وهذه الرياضة العنيفة لم تكن تروق للجوال، لذلك كان يلجأ إلى مسالك ملتوية لتفادي الأدغال. ولحسن الحظ، فإن الدواوير توجد بكثرة في الغابة. وكانت تاغزوت أول قرية من قرى بني سميح، لجأ إليها الرحالة لتفادي الأمطار الوشيكة السقوط، فقد كانت السماء ملبدة بالغيوم القادمة من الشمال نحو الجنوب. ويبدو التناقض جليا بين النباتات الكثيفة بالجبال الجنوبية والمنطقة القاحلة بالجزء الشمالي للقبيلة الذي يمتد حتى البحر.

إن هذه الأرض البائرة والبحرية، المليئة بالصخور السوداء الكئيبة والعارية، وكأنها نتاج لزلزال رهيب، تدعى الصحراء من طرف الأهالي. وبدل المزروعات، انتشرت هنا وهناك، نباتات الديس والحلفة على مساحات شاسعة لا تحدها سوى أمواج المتوسط.

وإذا ما راجعتم الخريطة، فستعتقدون بأن مناجم الذهب الموجودة بالمنطقة بكثرة، ستفيد الأهالي. لكن للأسف، فإن بني سميح لا يتقنون الصناعة المعدنية، مثل إخوانهم بالغرب والجنوب. فهم يعيشون في البؤس بجوار كنوزهم غير المستغلة، حيث يقتصرون على صنع بعض النقود التي تصرف بالأسواق المجاورة. إننا نوجد الآن في القسم الثاني من غمارة، المحاذي للريف، حيث تتداول اللغة المازيغية. أما في باقي الجهات، فيتم التواصل بعربية ممزوجة بتمازيغث. وتسود الأمية أهالي هذه القبيلة، الذين تشبه عاداتهم تلك الموجودة بالريف. فهم يتوفرون على نفس المزاج العكر والقساوة واحتقار الأجنبي، سواء كان مسلما أو يهوديا أو نصرانيا. ولا أحد يزور هذه القبيلة التي لا توجد بها مدارس قرآنية وحيث لا يحظى التعليم بأي اهتمام. وحتى طلبتها القلائل الذين يمكن ملاقاتهم، يتميزون بانعزالهم وحذرهم الشديد وعدم ترحيبهم بالطلبة الآتين من مناطق بعيدة.

غير أن الدرويش المحمي بأسماله والعارف للغة الأمازيغية لم يكن قلقا بخصوص استقبال الأهالي للغرباء. فقد كان يجوب الحقول طوال اليوم، دون توقف؛ ولأن البرد كان قارسا تلك السنة، فقد كان يفضل حظائر البقر للنوم فيها، على المساجد التي ترتعد فيها فرائصه من البرد. فهناك، كان يمتد فوق الحلفة قرب العجول التي تدفئه بأنفاسها. وكان ذلك بمثابة تمرين على ما سيحصل له خمسة عشر سنة فيما بعد، لدى جبليي الريف.

ووصل أخيرا إلى قرية تازروت، على الحدود الريفية بعد أن تابع طريقه بجنوب القبيلة. وكما كانت دهشته عند رؤية منازلها المعلقة ! فقد كان كل مسكن جاثما فوق تلة، وبين تلة واخرى توجد هوة عميقة، لذلك وضعت قناطر خشبية بين التلال، لتسهيل التواصل بين السكان. وحتى لا يسقط الأطفال في المنحدرات، فإن الأمهات يربطن أياديهم بأبواب المنازل، بواسطة الحبال ويتركن لفلذات أكبادهن بضعة أمتار للعب، على بعد مسافة من الهوة طبعا.

إن قبيلة بني سميح التي تشكل الحدود الشرقية لغمارة، محاطة شمالا بالبحر وجنوبا ببني منصور وبني رزين وغربا ببني ݣرير وشرقا بقبيلة مثيوة الريفية الذي يفصلها عنها نهر مهم وهو واد أورنغا.

وتابع محمد طريقه دون استعجال، منطلقا من جنوب القبيلة؛ متمعنا في طبيعتها، حيث تكثر الأشجار الرائعة في الجنوب وينتفي أي أثر لها في الشمال.

- هوس الأهالي بالصلحاء:

بزاوية سيدي محمد البوهالي، كان هناك أمر جديد في انتظار الدرويش. فقد كان يوجد بهذه القرية شيخ في الثمانين من عمره، أبيض اللحية، لكنه نشيط وطويل وقوي. كان الرجل أبله، لكنه معروف بورعه؛ وكان يسمى، بدون سوء نية، سيدي البوهالي. وإلى جانب بلاهته التي أدت إلى تبجيله من طرف الأهالي، انضاف مجد الانتماء إلى سلالة أولاد البقال الشهيرة .

ومعلوم أن الذكاء لم يسكن دوما أجسام العمالقة. غير أن السلوكات الغريبة للرجل، والتي قد لا تقبل في المجتمعات المتحضرة، كانت تعتبر أفعالا مباركة من طرف الأهالي. فهل أدرك هذا الشيخ التكريم الذي حظي به في حياته، بحيث تم تغيير اسم القرية التي ولد فيها؟

وبالفعل، فإن زاوية الشرفاء، وهو اسمها القديم، أصبحت تعرف اليوم بزاوية سيدي البوهالي. وها قد انضاف ولي آخر جديد إلى قائمة الأولياء، لكن أي ولي ! فهو لم يحظ فقط بالتبجيل قبل مماته، بل كان سببا في تغيير اسم القرية.

والحال أن التغييرات الدائمة في التسمية، تقلق المؤرخين والجغرافيين. وقد حاولت البحث عن أسماء أعلام تاريخية اختفت من ذاكرة المغاربة، لكن بدون جدوى. وعلى سبيل المثال ما هو مصير "حجرة النسر"، هذه القلعة المنيعة التي بناها الأدارسة؟ وما هي تسميتها الحالية التي تغطي مجد الاسم الأول؟ إن كل الرحالة بمن فيهم ابن الطيب، الذين استشرتهم بهذا الخصوص، أكدوا لي عدم معرفتهم ب "حجرة النسر" هاته.[17] وعندما استقبل الدرويش من طرف البوهالي الغريب الأطوار، بقامته الفارعة في الطول، ظل يجالسه الساعات الطوال للتأكد عما إذا كان يتظاهر بالجنون، أم أنه كان مجنونا بالفعل. واقتنع في الأخير بأن الرجل مجنون.

ومن غرائبه، أنه كان يهيء طعاما خاصا به، مكونا من العسل والنخالة والزبدة والسميد والشعر والطين؛ ويلتهم هذا الخليط الفظيع بلذة. وكانت متعته الكبرى، هي الدخول فجأة إلى أحد المنازل والمطالبة بإحضار المواد المذكورة لتهييء طعامه المفضل. وبعد أن يصنع الخليط البغيض، يجبر أهل البيت مشاركته في الأكل حتى آخر لقمة. ويقبل هؤلاء مطلبه، احتراما له وبالخصوص خوفا من لعناته. عندئذ يبدو الانشراح على وجهه ويتمتم بكلمات غير مفهومة، يعتقدها أهل الدار دعوات مباركة؛ ثم يمتد تحت أشعة الشمس وقد انتفخ بطنه ويشرع في التجشؤ والقرقرة borborygmes، نظرا لصعوبة هضم ذلك الطعام. وعادة ما كان يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع وكان المتعلمون والأميون معا، يبذلون جهدهم لإيجاد معنى لكلامه المتقطع الذي يستقبل بإجلال ويتم تداوله بين الأهالي ويحفظ عن ظهر قلب. وعلى ما يبدو، فإن دعواته المباركة ولعناته، كانت تتحقق كلية. ويحكي الأهالي عن بعض الأفعال الخارقة الصادرة عنه، مثل تحوله إلى أسد ثم استعادته لهيئته البشرية.

---

[17] رغم اختلاف المؤرخين العرب حول مكان هذه القلعة الشهيرة، إلا أن العلامة دوسلان De Slane يعتقد بأن "حجرة النسر" توجد بإحدى قمم جبل الحبيب. انظر:

Histoire des Berbères, trad. Fr. t. 1er , p. 84.

وعندما عاين الدرويش اهتمام الطلبة والصلحاء أنفسهم والنساء والأطفال والمتعلمين بهذا الشخص وتقديسهم له، انساق معهم قائلا:

- إنه رجل بريئ وولي الله؛ وهو يحمل معه البركة لأنه لا يحب ولا يكره أحدا.

وقد حاول التقرب مرارا من هذا المجنون، إلا أنه تخلى عن رغبته بعدما لاحظ أن المسكين لا يعرف حتى المقربين إليه، بما في ذلك زوجته وابنه الصغير. وفي المرة الأخيرة التي التقى فيها الدرويش بسيدي البوهالي، كان عمر هذا الأخير ثمانين سنة. وقد عاش ستة عشر سنة أخرى وتوفي سنة 1891. وكان محمد متواجدا بالريف في ذلك التاريخ. وقد علم بأن الأهالي أقاموا له جنازة ضخمة. وأصبحت القبة التي بنيت فوق قبره، مزارا للمسافرين وملتقى للزوار الذين يأتون من النواحي. كما أن أخاه سيدي عبد الرحمن، عين سنة 1897 "مقدما" على الزاوية الجديدة. وورث ابنه الذي أصبح رجلا الآن، التقدير الذي كان يحظى به أبوه، دون أن يرث بلاهته؛ وهو يتلقى الهدايا [الزيارات] التي يجلبها متعصبو المنطقة معهم إلى الزاوية.

- الأطعمة ومعالجة السعار:

يتوفر أهالي بني سميح على بنادق مصنوعة بتاغزوت [الريف] غير أنهم أصبحوا يفضلون مؤخرا البنادق الإسبانية التي يشترونها من ريفيي الساحل. ويبدو فقرهم واضحا للعيان من خلال أسمالهم البالية والمرقعة ونعالهم المصنوعة من الحلفة ورؤوسهم المكشوفة. وهم أميون ومتوحشون وأفظاظ ولا يتميزون بذكاء خارق، كما أنهم يقضون معظم وقتهم في سلب ونهب القرى والمسافرين العزل. ولأن الطرائد توجد بكثرة في بلدتهم، فإنهم يقتاتون من الأرانب البرية والحجل وأحيانا الخنازير وبنات آوى المتوفرة بأعداد كبيرة. ورغم تعاليم القرآن فإن الرعاة يقتاتون في بعض الأحيان بلحوم الحيوانات التي حرم لحمها. وهم لا يهتمون بالمبادلات التجارية، ما دامت الطبيعة قد وهبتهم ما هو ضروري للعيش، لذلك لا يوجد ولو سوق واحد بالقبيلة. ويستقدم الأهالي الملح الخام والحلفة المتواجدة في كل مكان ويصنعون بارودهم بأيديهم. ويشكل الفول والشعير طعامهم الرئيسي، كما يمكنهم بفضل الماعز والعجول التي يملكونها، تناول اللحم مع الفول.

وكان الدرويش يستمتع بما يثيره من رعب لدى نساء القبيلة عندما يلتقين به. وهن متحجبات مثل مسلمات تلمسان ويتميزن بقساوة لا توصف. وفي الحقول، ينزعن الحجاب والحايك ويحتفظن بالقميص المسدود بالوسط ويبدأن بالاشتغال بأذرعهن العارية، ممسكات بالفأس أو بمقبض المحراث.

وكما قلنا، فإن الرحالة يثير خوفهن عندما يمر أمامهن خلال جولاته التي لا تنتهي. لكن، ما أن يكتشفن بأنه مجذوب، حتى يتوسلن بركته ويقدمن له جزءا من طعامهن؛ وهو عبارة عن خبز الشعير الذي تم لفه داخل خرقة بالية.

وبالمناطق الغابوية والباردة للقبيلة، أي بالجنوب، ترعى الماعز والأبقار ويزيد وزنها، نظرا لتوفر الكلأ على مدى السنة. وتستخدم ربات البيوت حليب هذه الماشية لصنع الزبدة بكثرة، كما أن لكل منزل خلية نحل يستغل عسلها. وتجدر الإشارة إلى أن الدجاج الذي لا يتم بيعه، لعدم وجود أي سوق بالقبيلة، يتواجد بكثرة في كل مكان وحتى في المساجد التي يخضع دجاجها لنظام "الحبوس". وتتم حماية هذه الطيور من أنياب بنات آوى وفئران الجبل، بسياج يفصل الحظيرة عن الغابة. ولا حاجة إلى التأكيد على أن الأكلة اليومية المقدمة للضيوف لا تتغير، وهي مكونة من طبيخ الدجاج والبيض.

إن أغلب المساجد الغمارية مبنية وسط القرى في أماكن غير مأهولة، أي بعيدا عن المنازل. فبما أن بيت الله هو مكان التقاء الرجال، فإن موقعه يوجد في هذا المكان المحدد، حتى لا يتم إحراج النساء أثناء غدوهن ورواحهن. وتوجد المقابر على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات من القرى، وغالبا ما تكون وسط الغابة، حيث يدفن الموتى إما بالأحراج أو تحت الأشجار. وتوضع حجرتان كبيرتان، واحدة جهة الرأس والأخرى جهة الأرجل للإشارة إلى مكان القبر. وتتم زيارة الميت يوم الجمعة، من طرف الأطفال والنساء، حيث يجتمع هؤلاء للترحم عليه وللثرثرة أيضا.

وهنا، كما في كل المناطق، تتجول الكلاب بحرية في القرى التي تعرف أهلها؛ وتتميز بشراستها وخطورتها بسبب جوعها، كما هو الشأن بالنسبة للكلاب الريفية. [18] وليسلم المرء

---

[18] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 137.

من عضاتها، يجب عليه أن يظل واقفا، بعيدا عن المساكن وأن ينادي على واحد من الأهالي الذي يفرقها برميها بالحجر.

وهناك حالات قليلة للسعر بين كلاب جبالة. وعندما يتعرض شخص لعضة كلب مسعور، فإنه يعالج بالطريقة التالية: يتم قتل الكلب وتؤخذ حفنة من زغبه وتحرق. بعد ذلك، يوضع الرماد الساخن على جرح الشخص الذي يتعين عليه أكل الثوم غير المطبوخ على مدى عشرة أيام. وإذا ما صدقنا تأكيدات المغاربة، فإنه هذا العلاج الوقائي prophylarique الذي يجهله العالم الكبير باستور Pasteur، يتوج دائما بالنجاح !

- منجم الذهب:

بمسجد زدمث حيث كان الأهالي يمدون الدرويش بوجبته اليومية من الدجاج والبيض، كان بعضهم يستغل الفرصة لاستدعائه إلى منزله، للعمل سويا من أجل استخلاص الذهب قائلا:

- تعال معي إلى المنزل؛ فستعيش بين ظهرانينا وستأكل معنا وسندلك على المناجم التي يوجد بها الذهب بكثرة.

وكان الدرويش على علم بالمخاطر المحدقة بمثل هذه العمليات ويدرك بأن الطالب الذي يستطيع استخلاص شيء من الذهب الخالص، بعد جهد جهيد، يتم قتله ما أن يحاول التوقف عن عمله التعديني المرهق. ومع ذلك، استطاع قروي ماكر إقناعه بإمكانية الحصول على ثروة كبيرة داخل منجم للذهب قرب زدمث، يعرفه وحده ويوجد به هذا المعدن الثمين بوفرة.

ورغم حذره، استجاب لغواية الذهب. وفي الليل، ترك أفضل ملابسه عند المعلم ولبس أسماله وحمل حقيبته، ثم توجه للعشاء ولقضاء الليلة عند صديقه الجديد. وعند الفجر، أيقظه مضيفه قائلا:

- انهض يا سيدي الطالب، فعلينا أخذ الطريق كي أريك مكان منجم الذهب. وغادر الرجلان القرية؛ وبعد نصف ساعة من المشي، توقف القروي وأسقط بندقيته أرضا وقال ببساطة: "هنا".

وكانت الأشعة الأولى للشمس تنعكس على قطع مذهبة قرب الرجلين. وانحنى الدرويش وقد انبهر بصره وتعرف على المعدن الثمين المتواجد داخل طبقات الأحجار. وسأله مرشده قائلا:

- هل تأكدت منه الآن؟

فأجابه محمد:

- نعم، لقد تأكدت.

وأردف الرجل قائلا:

- إنه المنجم الذي تحدثت لك عنه. سنعود إلى المنزل وسنبدأ في العمل، حيث سأكون مساعدا لك وسنقتسم الأرباح فيما بعد . لكن يجب أن يعلم كل واحد منا الآخر، بما يعرفه.

ولأن الجوال كان يوجد بمفرده مع هذا السافل، فإنه أعلن عن مباركته لهذا الاتفاق. أما في العمق، فقد شعر بالندم على انخراطه في مغامرة غير محمودة العواقب؛ لذلك أصبح همه الوحيد، هو التخلص من براثن مضيفه. وعادا إلى المنزل وهما مرحان، وكان القروي الذي تخيل بابتهاج على أنه سيصبح ثريا، يمسك بيد الدرويش طوال الطريق، كعلامة على صداقة متينة؛ وقال له بهذا الخصوص:

- اسمع، سنكون شركاء في كل شيء؛ ثم لماذا لا تتزوج إحدى أخواتي؟

فأجابه محمد وهو مذعور ومندهش من هذا الاقتراح الغير منتظر:

- نعم، بكل تأكيد، على الرحب والسعة.

وعندما دخلا المنزل ورأى الدرويش صاحبه وهو يقفل الأبواب بإحكام، انتابه غضب شديد وقال مخاطبا نفسه:

- لكم أنا بليد، لقد أقحمت نفسي داخل مصيدة !

وخرج المضيف إلى البهو للقاء أخيه، بعد أن ترك ضيفه في غرفة من غرف الدار. وشرع الرجلان في الحديث تحت كوة الغرفة التي يوجد بها الضيف؛ وسمع هذا الأخير الذي كان يتبع حديثهما، كلمات رهيبة، بحيث كرر صاحب المنزل العبارة التالية:

- نعم، نعم، أتفق معك؛ سنقتله لكن بعد أن نشغله ونتعلم أسراره.

هكذا، سيتم إرهاقه بالعمل وقتله فيما بعد !

وفكر لحظة في النهوض والتجرؤ على الخروج من وكر الأوغاد هذا؛ لكن ضيفه ظهر فجأة بباب الغرفة وربت على كتفه. وتم قضاء ما تبقى من اليوم في الحديث وملأ البطن بالدجاج والبيض المسلوق والزبيب.

وفي الصباح، دخل المضيف إلى غرفة الجوال، فوجده ممددا واعتقد من صوت شخيره بأنه يغط في نوم عميق. وفي الحقيقة، لم يكن صاحبنا الماكر نائما، فخلال الليل رسم خطة بسيطة، ستكون بساطتها هي الضمان لنجاحها. وانتظر الرجل ساعة أخرى، قبل استيقاظ محمد الذي فرك عينيه وأبدى دهشته لرؤية مضيفه بجانبه، فخاطبه قائلا:

- أهذا أنت؟ لقد رأيت الليلة حلما جميلا ! حيث كانت هذه الغرفة مليئة بالذهب.

وأضاف وهو يجلس فجأة:

- لكن أين هي أدواتي؟ وكيف يمكنني جلبها؟ لقد أخفيتها بنواحي تازمورث. لهذا، استسمحك في الذهاب للإتيان بها وسأرجع قبل حلول المساء.

وقبل الآخر طلب الدرويش ورافقه إلى باب المنزل وألح عليه بالرجوع ، مهددا إياه بالانتقام إذا لم يف بوعده.

وما أن غادر المنزل، حتى انطلق بسرعة عبر أزقة القرية وتمكن من الوصول إلى تازمورث في ظرف عشرين دقيقة وهنا أيضا لم يقاوم الدرويش شراهته وقبل دعوة شيخ قصير القامة إلى منزله. وفي الصباح، أخبر مضيفه بأنه ينوي العودة إلى زدمث، لأخذ ملابسه التي تركها أمانة عند المعلم وزيارة قبيلة بني رزين. وظهرت علامات الطمع على أعين مضيفه القصير الذي ألح على مرافقته ليدله على الطريق. فقال الدرويش في قرارة نفسه:

- ها هو ذا شخص آخر، يعتقد أنني أحمل معي بعض المال.

ولأنه لم يكن يحمل معه أي شيء، باستثناء أسماله البالية، فقد قبل مرافقته دون خوف. وفضلا عن ذلك، أو ليس من الأحسن أن يسلب من طرف هذا الرجل الضعيف البنية الذي لا يستطيع أن يؤذيه، بدل التعرض للقتل أو للضرب من طرف أجانب قساة؟

وشجعته هذه الفكرة على اصطحاب القزم الذي كان يمسك بهراوة غليضة. وبعد مائة خطوة تقريبا، لاحظ الجوال أن مرشده المزعوم يسعى إلى تضليله داخل الغابة. وفي مكان مظلم بهذه الأخيرة، توقف الرجل الذي لم يكلمه في الطريق وخاطبه قائلا:

- قل لي أيها العالم، ماذا تخفي بهذه المحفظة الموجودة تحت جلابتك؟

طبعا لم يكن الدرويش يحمل معه نقودا؛ وكانت ذريعة الرجل بليدة؛ لذلك هز كتفيه وأجابه قائلا:

- لا توجد عندي أية محفظة.

فرد الرجل القصير:

- بلى، لديك محفظة، دعني أفتش عنها.

فقال الدرويش بهدوء:

- فتش

وبالفعل، قام القزم بتفتيشه بعناية، ولما لم يجد شيئا زفر بغضب وقرر إنهاء مهمته مخافة أن يراه احد. ومع ذلك، نزع عن الجوال قميصه الأقل اتساخا وترك له الأسمال الممزقة، وابتعد عنه وغاب وراء الأشجار، دون أن يضيف أية كلمة.

هكذا، تركه محمد المسالم يفعل ما يريد دون أن يحرك ساكنا. ولعل طيبوبة هذا الرجل المتميز هي التي خلصته مئات المرات من الموت، وسط أكثر الشعوب قساوة وتعصبا في العالم. لقد كان نموذجا مثيرا للصبر وللاستسلام وللطيبوبة. خذوا مثلا، بطلا شهيرا ومقاتلا صلبا وابعثوه إلى القبائل المستقلة بالمملكة الشريفة، فماذا سيكون مآله؟ سيلقى عليه القبض وسيقتل وسيلتهم الجحيم المغربي آخر زر بسراويله؛ ولن تعلموا شيئا عن هذه الضحية البئيسة للتعصب المغربي.

وبينما كان العجوز يجري صوب قريته، كان الدرويش التائه وسط الغابة، يبحث عن طريقه. ولم يكن الأمر سهلا وسط الأدغال والأشجار الباسقة.

لذلك، استعمل خطة أثبت فعاليتها في مثل هذه الظروف. فقد ظل يدور حول نقطة مركزية، مع توسيع الدائرة تدريجيا، إلى أن بلغ مسلكا، مكنه من الوصول إلى زدمت ومسجدها الآمن. وظل بالقرية بعضا من الوقت، إلى أن استرجع ملابسه من المعلم، ثم غادرها برفقة مجموعة من الأشخاص المتوجهين إلى قبيلة بني رزين.

قبيلـــة بني رزيـــن

غادر الرفاق زدمث متوجهين نحو الجنوب وتاركين قرية تازروت الحدودية على شمالهم. وتابعوا السير بالمنطقة المتموجة التي يخترقها واد أورنغا، وهو نهر صغير وهام، يحد إقليمين مختلفين وهما: الريف وجبالة. وعند الحدود الشرقية لبني رزين، توجد العديد من القرى ومن بينها قرية بني مراق التي تضم أكثر من 500 منزل. وهناك توقف محمد مع بعض الطلبة، بعد مسيرة متعبة في الجبال الغابوية والوديان والوهاد، حيث تركوا وراءهم مسافرين آخرين، حل بعضهم بالسحورية والبعض الآخر بياديثن.

وبمقر إقامته ببني مراق، خطط محمد لاكتشاف المناطق المجاورة، من قرى وحقول وجبال، مسجلا كل ما يلاحظه في ذاكرته الرائعة. وكان يجوب البادية مشيا على الأقدام، بدون سلام، حيث كان يزور كل القرى، متفاديا أنياب الكلاب وشر البشر. وفي هذا الجزء الشمالي من بني رزين الذي يحده واد أورنغا، تحتل حقول الشعير والفول والقمح، الأماكن التي لم تشغلها الغابات ولا مناجم الرصاص المتواجدة بكثرة. وهناك منبع ماء يجري بالمنطقة يسمى عين تازقة، وهو اسم القرية التي ينبع منها؛ وقد بنى الأهالي حولها صهريجا تجري منه المياه الصافية من الجنوب إلى الشمال، عبر التلال والجبال، إلى أن تمتزج بمياه واد أورنغا عند حدود بني سميح. ولأن المنابع المائية كثيرة بجنوب القبيلة، فقد كانت حقول الذرة والعدس تسقى بواسطتها. ويندهش المرء لرؤية أشجار اللوز والتين الوحشي الكثيرة العدد والتي تحيط بالقرية. وتنضج الكروم بكثرة أيضا، بحيث يتميز عنبها بجودة عالية، شبيهة بكروم القبايل الكبرى.

ومن أهم الأشجار المتواجدة بالغابة، هناك شجر الأرز والصنوبر والسنديان والسرو. وبداخل الغابات تعيش الفهود والخنازير وبنات آوى والقردة؛ وهي الحيوانات الرهيبة بغمارة.

ولا نجد أثرا للخراف، لكن هناك بالمقابل، أعداد كبيرة من الماعز والعجول. وما دام الأهالي يعيشون قرب الغابة، فإنهم يمارسون النجارة، حيث يصنعون الألواح والأبواب والصناديق والمغازل fuseaux. ويستخدم واد أورنغا الذي يمكن عبوره بالمراكب من أعلى تازروت إلى مصبه وذلك لنقل الخشب المصنوع. وفي الأماكن غير العميقة من النهر، ينقل الرجال

خشبهم بأيديهم في ظروف صعبة جدا، ثم يعبرون مسالك جد ملتوية إلى أن يصلوا إلى خليج الجبهة، حيث تنقل المراكب القطع الخشبية إلى تطوان وقلعية.

وعند نهاية شهر دجنبر، تظهر الثلوج على قمم بني رزين ولكنها تذوب بسرعة تحت أشعة شمس فبراير. ويمكن أن نستنتج من جراء ذلك، أن علو هذه القمم لا يقل عن 1500 متر.

إن هذا المغرب السعيد الذي يحتل موقعا جغرافيا رائعا بين بحرين، يحظى بمناخ خلاب. فساحله المتوسطي الذي يمتد من مضيق جبل طارق إلى الحدود الوهرانية، أقل سخونة من الساحل الجزائري. أما النسائم القادمة من المحيط الأطلسي، فإنها تهب بجبالة والريف في عز الصيف، قبل أن تصل إلى نامور ووهران، محملة بالبرودة والرطوبة.[19] وعندما تصل إلى الشرق، فإنها تسخن وتصبح رياحا سمائمية simoun عند اختراقها للسهول الجافة لشلف ومتيدجا.

وباعتبار أهالي بني رزين جيران الريفيين، فإنهم يتميزون بالجرأة وبالتأهب المستمر لمواجهة كل الأخطار وهم يقتنون كل ما يحتاجون إليه من الأسلحة، من قبيلة تاغزوت غير البعيدة عنهم والتي تعتبر مصنع الأسلحة بالمنطقة الأمازيغية بالشمال المغربي.[20]

لكنهم أصبحوا في السنين الأخيرة، يتجهون إلى باديس القديمة Peñon de velez، حيث يشترون بنادق ذات طلقات متكررة. ولن يمر قرن من الزمان حتى يتمكن رعايا صاحب الجلالة الشريف من التسلح كلية تقريبا من أوروبا، بفضل عمليات التهريب والبيع السري للأسلحة؛ وهي العمليات التي تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

---

[19] من بين كل المراكز البحرية الجزائرية والتونسية وباستثناء نامور، تبدو وهران هي المنطقة التي يكون فيها فصل الصيف أقل قسوة وأكثر تحملا. فموقع المدينة المتجه نحو الشمال؛ والرياح التي تهب يوميا من البحر؛ وقربها من المحيط ووضعيتها على ضفاف الممر المائي الإسباني – الإفريقي، كل ذلك يفسر المناخ الصيفي الرائع لعاصمة البلاد الوهرانية. وهناك بعض الجهلة او المعاندين الذين يؤكدون العكس. وخير مثال على ذلك هذه الشهادة الخاطئة لروكلي Reclus، الذي يقول فيها: "إننا غالبا ما نستنشق بوهران هواء ساخنا مليئا بالغبار. وتحتاج هذه المدينة إلى مصحة لمعالجة الأمراض التنفسية sanatoire، حتى نستطيع التنفس فيها بحرية" [Georg. Univ. T. 11, p.523]. وهناك تفسيران لهذا الموقف: فإما أن هذا الجغرافي الفصيح زار وهران، أثناء هبوب رياح الشرقي، وإما أنه سجل هذه المعلومة الخاطئة، انطلاقا مما نقله إليه شخص لا يعرف أداة تسمى مقياس الحرارة !

[20] انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 57؛ وانظر أيضا، بخصوص تهريب الأسلحة، ص. 121 و 122.

ورغم مزاجهم العكر، فإن أهالي بني رزين يقدرون العلم أو ما يعتبر علما في المغرب؛ ونقصد بذلك، الدراسات القرآنية؛ لذلك كانوا أكثر تعلما واجتهادا من بني سميح، جيرانهم بالشمال.

وهم تجار متجولون مثل القبايليين، حيث يبيعون المغزل والجوز واللوز والعقاقير بالقبائل الأخرى وتحديدا بكتامة وبني خالد. وباختصار، فإنهم يعتمدون على الغابة كثيرا، فهي مورد بالنسبة إليهم. وقد اشتهروا في المنطقة كلها باختصاصهم في مجال الصباغة، إذ يستعملون مادة مستخلصة من جذور الصنوبر، تعطي لونا برتقاليا. ومن جذور شجر البلوط يستخلصون مادة بلون أحمر قان. لهذا لا يمكن أن ننعت بالمتوحشين، أناسا يستخرجون من النباتات ستة ألوان مختلفة؛ ولا بالأميين أشخاصا استعملوا جناس القلب anagramme للتلميح إلى الألوان معتمدين على كلمتي كصح وزخم [تنطقان كصحين وزخمين]. ومفتاح الكلمة الأولى هو كالتالي: يشير الكاف إلى الأسود [الأكحل] والصاد إلى الأصفر والحاء إلى الأحمر. أما مفتاح الكلمة الثانية فهو كالآتي: يشير الزاين إلى الأزرق والخاء إلى الأخضر والميم إلى مختلف الألوان.

إن الرجال يسيرون برؤوس مكشوفة، وتصل ضفائر شعرهم إلى نصف الظهر؛ وهم يرتدون جلابة سوداء. أما النساء فيفضلن الأثواب الفاقعة والمتعددة الألوان. ومن ناحية البنية الجسدية، فإن هناك تشابها كبيرا بين بني رزين وجيرانهم بالريف، إلى حد أن الريفيين وبدون معرفة كتب التاريخ، يعبرون بأن أصول هذه القبيلة أمازيغية ويؤكدون بأن أهاليها أقرباء لهم. ومن ناحية العادات والأعراف لا يوجد أي اختلاف أيضا، فهم جميعا يتبعون نفس نمط الحياة؛ ولديهم نفس العادات ونفس الخشونة والقسوة في ممارساتهم. ولا تقتصر هذه الملاحظات على بني رزين، بل تنطبق على غمارة برمتها وتمتد لتشمل أكبر عدد من القبائل المغربية. ويظل السؤال المحرج المتعلق بالأعراق مطروحا على الدوام، حيث يقلق المؤرخ والجغرافي اللذين يريدان الحديث عن بلاد الأمازيغ القديمة. ولربما ستتبنى القبائل الجبلية المحاذية للريف التي تعرب نصفها، بشكل نهائي وفي مستقبل قريب، لغة الضاد،؛ ولن تقبل الحديث عن أصلها الأمازيغي. وسيثبت لها باحثون مهرة في الأنساب، بأنها منحدرة من محارب حجازي أو عراقي؛ وطبعا ستحاول هذه القبائل بدورها تعريب الريف

وإقناع أهاليه بدونية لغتهم وعادات أجدادهم. وهذا عمل شاق، لكنه سيحقق نتائجه المرجوة مع مرور الزمن.

ولنفترض الآن أن المغرب تم إلحاقه بقوة من القوى الأروبية؛ فمما لا شك فيه أن تعريب كل الأهالي الأمازيغ بالإمبراطورية سيتحقق بسرعة. وستكون الدولة المسيطرة هي أول من سيحقق هذا التغيير مثلما فعلنا بالجزائر، انطلاقا من جهلنا المطلق بإثنوغرافيا وتاريخ البلدان الأمازيغية.

إن طلبة بني رزين يقلدون الطلبة الغماريين الآخرين المتمكنين من اللغة العربية. فهم يتجولون كثيرا مثلهم ويقدمون ما يملكونه من معارف محدودة، لأهالي المناطق النائية. ويعود أكثرهم إلى البلد، لكن بعضهم يغادره بدون رجعة.

في صيف 1895، وأثناء مروره بقرية بني مراق، التقى محمد بن الطيب بطالب قديم من أبناء المنطقة يدعى المرابط. ورغم أن هذا الأخير لم يسبق له أن درس الفقه، إلا أن الجميع كان يناديه وفق العادة المغربية بالفقيه المرابط. وكان الرجل جوالا كبيرا، قضى ثلاثين سنة في اكتشاف أماكن، ليست لدينا نحن الأروبيين عنها، أية فكرة. وقد استقبل هذا الجوال الدرويش بالكلمات التالية:

- مرحبا بك أيها الجوال الكبير، أعتقد بأنك لم تسافر بمقدار ما سافرت.

فتساءل محمد:

- كيف ذلك؟

- لأنني تجولت بالبرابر والصحراء.

ورغم تواضعه المعروف، فإن رحالتنا شعر باستفزاز مخاطبه الذي لم ير سوى إقليمين من هذه الامبراطورية الشاسعة. لذلك سرد عليه جانبا فقط من اكتشافاته.

فذهل الرجل وصاح:

- لو لم أكن قد تزوجت مؤخرا، لكنت قد تبعتك بكل سرور !

ولم يضف أية كلمة، لأنه شعر بتفوق هذا الجوال العجيب. وأحيانا ما يستخدم بعض الأشخاص المتحمسين لروايات محمد بن الطيب، نفس المبرر. فكل واحد منهم يرغب في

دراسة الأرض والبشر والسفر بأسمال بالية، لكن لا أحد يحقق ذلك، متعللا خلف الأطفال الذين يجبرونه على البقاء بداره.

إن جبال بني رزين الواقعة شمال النتوءات الموازية لجبل غمارة والشديدة الانحدار، تأخذ وجهة البحر، وهو ما يظهر من خلال تتبع مجاري المياه التي تزحف عند قاعدتها.

وتوجد العديد من القرى في المنعرجات الجبلية والغابوية. وكما هو الشأن بالنسبة لتازروت، فإن قرية تازقة قد شيدت فوق صخور غرانيتية، تم الربط بينها بسلالم خشبية متحركة، تطقطق تحت أرجل المارة.

قبيلة بني زدجل

يتعين علينا الآن، عبور غمارة برمتها، من الشرق إلى الغرب، مقتفين خطوات مرشدنا. فبعد أن انطلق من تامريغت جنوب بني رزين، اجتاز من جديد بني منصور وبني سلمان، متوجها صوب قبيلة بني زدجل. وكان عليه الاختياربين ثلاث قرى وهي: أسغون، أدلدال والقلعة. وأرتاح أولا بأسغون على أمل زيارة كل جهات القبيلة. ونحن نتأسف لكون رحالتنا المدهش، ليس في نفس الوقت جيولوجيا ولا عالما طبيعيا؛ فقد كان بإمكانه القيام بملاحظات مذهلة والإتيان بمعلومات غنية حول الثروات المعدنية والغابوية والحيوانية للمنطقة المتوحشة التي سيقوم باكتشافها. لكنه سيجيبنا على الفور قائلا: "ليس هناك إنسان كامل في هذا العالم".

وتوجد قبيلة بني زدجل وسط جبال شاهقة، ما دامت الثلوج تسقط على قممها ابتداء من شهر نوفمبر ولا تذوب إلا في أواخر شهر مارس؛ وقليلة هي المناطق التي تشبهها روعة ورعبا. فالمنحدرات والأودية والمغارات المليئة بالحيوانات الزاعقة، مثل القردة وبنات آوى والثعالب والخنازير، سترعب الصحراوي أو إنسان السهول، لو حصل أن وجد نفسه وسط هذه الطبيعة العظيمة.

على مستوى آخر، فإن نساء القبيلة يجهدن أنفسهن في زرع الحقول، لأنهن ملزمات بقلب الأرض بواسطة الفؤوس. وبفعل رتابة العمل وعدم تنويع الأطعمة، فإنهن لم يفكرن أبدا في التخلي عن زراعة الفول والعدس، لفائدة مزروعات أخرى. وقد جعلتهن قساوة العمل، غير عابئات بمتع الحياة. أما الرجال، وأغلبهم طلبة، فيقضون أوقاتهم بالمساجد، ممددين على الحصائر أو مستمتعين بالقنص، مستعينين ببنادقهم وبحيوان ابن مقرض [النمس] furet، وهم يمتنعون عن رعي أغنى ثروة حيوانية في المنطقة، ونقصد الماعز والعجول؛ ويتركون هذه المهمة لفتيات صغيرات يهرولن حافيات، قرب منحدرات خطيرة. ولكن لنعترف مع ذلك بكون الرجل يمتهن الخياطة وحبك الصوف؛ وهي مهنته أيضا خارج القبيلة، إضافة إلى تعليمه الصبيان الأبجدية. [21] وهو يصنع أيضا البارود والرصاصات، بفضل مناجم الرصاص الموجودة بكثرة بالقبيلة. ويتميز رجال ونساء هذه الأخيرة بقامة متوسطة، لكن أعضاءهم متناسقة وقوية وغليظة بعض الشيء.

---

[21] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 150.

- المفعول السحري "للبلايدور" belladone [نبتة سامة]:

تقدم أشجار البلوط والأرز والجوز للأهالي أطعمة سهلة الاقتناء. وحسب ما هو رائج في القبيلة، فإن البلايدور [atrope belladone]، لا تنبت في أية منطقة أخرى من مناطق المغرب. وهذه النبتة السامة مفيدة حسب المتعلمين المغاربة لاعتبارين إثنين:

فهي تمنح الذاكرة لمن فقدها والعقل لمن لم يعد يملكه. وإليكم الطريقة المتبعة من طرف بني زدجل وباقي أهالي الإمبراطورية، في تناول البلايدور بكميات كبيرة، دون أن يحصل لهم تسمم. فهم يختارون دجاجة؛ ويفضلون عليها أحيانا الديك القوي والجريء، حيث يربطونه بعيدا عن الدواجن الخرى ويطعمونه نبتة البلايدور وحدها، على مدى أسبوع. وعندما يتساقط ريش الحيوان بفعل السم، يذبح ثم يطبخ بالزبدة.

ويجب على الطالب الضعيف الذاكرة أو الذي غاب عقله، ان يأكل الديك خلال ثلاث وجبات غذائية وأن يلتحف بالأغطية ويظل ممددا خلال ثلاثة أيام. بعد ذلك، ينهض من مكانه ويحس بالتحول الطارئ عليه. فالشخص ذو العقل المحدود سيصبح ذكيا وتعود ذاكرته قوية. ويقبل العلماء المغاربة هذا المفعول السحري للبلايدور على الدماغ، وهو ما يسهل رواج هذه النبتة في كل ربوع المغرب، حيث يساوي ثمنها فرنكين للرطل بطنجة، وفرنكا بتطوان وثلاثة فرنكات بوجدة، ويزداد سعر النبتة كلما ابتعدنا عن غمارة.

وخلال فترة العلاج، يشعر المرضى بالأعراض التالية: التعب التام والدوخة والهلوسة وحالات الإغماء في اليوم الأول، ثم يحصل لهم بعض التعب مع تحسن تدريجي في اليوم الثاني والنقاهة في اليوم الثالث وأخيرا التحسن التام في اليوم الرابع. وقد يصل الأمر ببعض الطلبة إلى التهام ثلاث أو أربع حبات من نبتة البلايدور مع الشاي الساخن. ويقوم طلبة منطقة وهران المقتنعين بفعالية هذا السم، بمحاكاة إخوانهم بالغرب ويلتهمون حبات البلايدور دون اللجوء إلى الدواجن.

وفضلا عن تسممهم بالبلايدور، فإن أهالي بني زدجل، يدخنون الكيف و "طابة" بكثرة. وهم يخصصون لهاتين العشبتين بقعا شاسعة في حقولهم، إلى جانب البصل والفلفل والحمص؛ ويعتنون بها بشكل كبير ويبذلون كل جهدهم لحمايتها من فناطيس الخنازير groins التي تدمر المحاصيل الزراعية وترعب الفلاحين.

ومن الناحية الإدارية، تخضع القبيلة لثلاثة قياد. وعادة ما يبعث هؤلاء الرؤساء كل ثلاث أو أربع سنوات إلى فاس، هدايا هزيلة القيمة، هي عبارة عن ضرائب محصلة كامتنان للتسمية التي حضوا بها من طرف السلطان. وباستثناء ذلك، فإنهم لا يفعلون شيئا يذكر. وإذا ما سولت لهم أنفسهم الخوض في قضايا الإجرام والحق العام، فإنهم سرعان ما يسقطون تحت رصاص الذين لهم مصلحة في زوالهم.

وبخصوص التجارة، فهي منعدمة في هذه المنطقة التي لا تبعد كثيرا عن مدينة الشاون؛ وتصنع بها الجلابة السوداء القصيرة التي تصل إلى حد الركبتين، أما البنادق فتشترى من تاغزوت أو من ريفيي الساحل.

- تحالـــــف القبائـــــل:

عند اقتراب فصل الشتاء، غادر محمد البلدة، في يوم غائم، متوجها إلى بني زياث وتحديدا إلى أزغار بني هليل، حيث احتفل أصدقاؤه القدامى من الطلبة بعودته. وأزغار هي قرية كبيرة من 500 منزل، مبنية بشكل غير منظم على الضفة اليمنى من نهر تغيزاس. ويمتلئ الوادي بالدواوير، لأن المناخ فيه ألطف مما هو عليه الأمر بالقمم المثلجة للجبال الجنوبية لغمارة.

وبسوق الأحد عاين الرحالة مشهدا مؤثرا. فقد أقدم حوالي عشرة أشخاص، حاملين بنادقهم على أكتافهم، على ذبح ثور أسود ضخم. واتجهوا وسط السوق معلنين عن ذبيحتهم، دون أن يعيروا اهتماما للحيوان المسكين الذي يتخبط في دمائه. وتوجهت الحشود إلى المكان الذي ذبح فيه الثور وتحلق الجميع حول الأشخاص العشرة؛ وهم من بني زدجل الذين أخبروا الحاضرين بأن قبيلتهم تعرضت لهجوم غادر من طرف قبيلة الاخماس التي قتلت حوالي ثلاثين رجلا وجنت غنائم كثيرة وأسرت العديد من النساء والغلمان. فصاحت الحشود:

- سننتقم لكم.

ومباشرة بعد ذلك، صرخ المنادي بأعلى صوته قائلا:

- اسمعوا يا أهالي بني زياث، موعدنا بالسوق في الشهر المقبل. وسنتحرك جميعا لمواجهة الاخماس.

وشعر بني زدجل بالرضى، فغادروا السوق. وما أن غابوا عن الأنظار حتى هرعت مجموعة من هداوة ومن الطلبة الأجانب بالسكاكين والسيوف على الثور المذبوح؛ وشرع كل واحد يقتطع منه أكبر جزء ممكن. وظهر وسط الجمع هداويان يحملان فأسين وشرعا في كسر عظام الحيوان بضربات مرعبة. هكذا، حمل كل واحد حصته من اللحم الذي ما زال ساخنا والذي سيلتهم في تلك الليلة بالذات. وأريد الآن، الحديث عن الكيفية التي يستخدمها الجبليون ليطلبوا مساعدة أهالي قبيلتهم وأيضا القبائل الصديقة، عندما يريدون الانتقام لأنفسهم أو دفع عدو غاز خارج أراضيهم. ففي كل سوق، تذبح أضحية حسب إمكانية الطالبين للمساعدة؛ فقد يكون عجلا أو عنزة أو معزة أو خروفا. وتسمى الأضحية ب"العار"، ويستخدم لحمها لإشباع بطون أهالي القبيلة التي تم التوسل إليها.

وعادة ما تترك الأضحية في المكان الذي ذبحت فيه، وبإمكان أي واحد أن يقتطع منها ما يشاء. وقد رأينا كيف عمل الطلبة الأجانب وأتباع سيدي هدي، على أخذ كل شيء.

هكذا، وبعد عملية الذبح، يرسل مبعوث إلى العدو ليخبره بتاريخ ومكان اللقاء، مع تحديد أجل مقبول، حتى يتسنى للقبيلة المعنية بدورها طلب مساعدة حلفائها. ويمتد الأجل من أسبوعين بالنسبة للقبائل الصغيرة، إلى ثلاثة أسابيع أو شهر بالنسبة للقبائل الكبيرة. والهدف من وراء ذلك، هو السماح لعساكر كل أقسام القبيلة بالتجمع والذهاب إلى ساحة المعركة؛ وهو مكان عار قرب حدود القبائل المتنازعة. وقبل ثلاثة أيام من موعد المعركة، تشعل النيران بالجبال الغمارية، حيث يبرز ضوءها الرهيب في الليل ودخانها الكثيف في النهار. وتلك هي الإشارة على أن الحرب قادمة. ورغم اشمئزازه من الاقتتال، فإن الرحالة الفضولي سيرافق بني زياث، راغبا في معاينة المعركة كمتفرج فقط ومتمنيا ألا ترتكب فيها المجازر.

وانطلقت الطوابير، يقودها حاملو الأعلام المطرزة بخيوط ذهبية وفضية، وعلى رؤوس رافعة الأعلام، كرات نحاسية كبيرة. وكانت الموسيقى الصاخبة تعزف بواسطة المزامير والطبول ويصل صداها إلى أماكن بعيدة، تؤدي إلى تجمهر ما بقي من الأهالي، أي الأطفال والنساء والشيوخ والمعوقين. ويصرخ الجميع متمنيا إبادة العدو.

ومن أزغار إلى حدود بني زدجل كانت المسيرة عبارة عن احتفال دائم؛ وكان الأهالي يستضيفون المقاتلين بحفاوة. وفي كل مساء، كانت تقام المآدب وتعزف الموسيقى ويرقص الغلمان على نغماتها.

وأخيرا، وصل الطابور إلى أسغون، حيث كان من المنتظر وصول عساكر الأقسام البعيدة. وعندما اجتمع كل الحلفاء، انطلقوا في اليوم الموعود إلى حدود الاخماس. وبدأت المعركة في واد كبير بين العيون وبين زراولو. وكان القتال ملحميا وإن لم يكن خاضعا لأي نظام ولا انضباط ولا استراتيجية. ومن الصباح إلى المساء كانت البنادق تطلق نيرانها لتصيب مائتي مقاتل أو ثلاث مائة من الجانبين. وفي المساء، شعر الغماريون بقرب هزيمتهم فانسحبوا تاركين المكان للخمسيين الذين استغلوا الوضع فهاجموا بني زدجل مرة أخرى وأحرقوا الدواوير واختطفوا العايلات والغلمان وقتلوا الرجال الأصحاء تاركين فقط الطلبة الأجانب الذين سمحوا لهم بمغادرة المكان عراة، داعين إياهم بسخرية إلى محاولة استرجاع ملابسهم إذا ما كانت لديهم الجرأة.

- معاهدة الصلح:

بعد هذه الخسارة أعلنت غمارة رضوخها. وعين وفد مكون من أعيان القبيلة، لزيارة معسكر الاخماس. وتم ذبح ثور بصمت، امام أعين المنتصرين. وكان ذلك بمثابة اعتراف بالهزيمة، وهو سلوك تقوم به كل قبيلة جبلية في مثل هذا الموقف.

بعد ذلك، انسحب العدو إلى أراضيه وتداول أعيانه فوق تلة قرب الحدود، فيما يجب اتخاذه، في انتظار تدخل الشرفاء؛ لأن العادة في المغرب، تقتضي بأن تنتهي الحرب بتدخل حفدة الرسول (ص). فهؤلاء الأشخاص المحترمون هم دبلوماسيون لبقون، وغالبا ما ينجحون في إيقاف المنتصر عند حده وفي التخفيف من آلام المنهزم.

طبعا، فهم ينتفعون من عملية التفاوض، ولا أحد يعلم من الذي يستفيد أكثر من الحرب، هل الأهالي المنتصرون أم الشرفاء المبجلون. وبرزت مشاكل كثيرة عند مناقشة شروط معاهدة الصلح. فقد كان الخمسيون المنتشون بانتصارهم يطالبون بتعويضات باهظة. واضطر الشرفاء إلى التنقل بين المعسكرين حوالي عشرين مرة لنقل المقترحات والمقترحات المضادة، إلى أن بلغ منهم التعب كل مبلغ. وعندما يئسوا من إقناع الطرفين، استعملوا الحجة

الرادعة الأخيرة وهي تهديدهما باللعنة. وبسرعة رضخ المعسكران للشروط التي أملاها هؤلاء الشرفاء.

هكذا، اكتفى الخمسيون باسترجاع المواشي التي سرقت منهم في الحرب الأخيرة، مع الاحتفاظ بغنيمة الأمس؛ وأعادوا الأسرى من عايلات وغلمان؛ مقابل بعض رؤوس الماشية. من جهتهم، فإن الغماريين استرجعوا جزءا كبيرا من الحيوانات التي سرقت منهم خلال فترة السلم. وافترق الطرفان ورجع كل واحد إلى مسكنه.

غير أن هذا الاتفاق الأعرج لم يرض أي أحد، رغم تدخل الحكماء. فالخمسيون لم يستسيغوا إرجاع المواشي، لأنهم اعتبروها جزءا من غنيمة الانتصار. بالمقابل، فإن الغماريين شعروا بالحيف وبالمهانة. وسيعملون بكل تأكيد على "غسل العار"، عندما تكون الفرصة مواتية؛ ثم سيأتي دور الاخماس للانتقام وهكذا دواليك، إلى آخر الزمن.

قبيلة بني خالــــــد

ها قد وصلنا الآن إلى إحدى أكبر القبائل الغمارية الموجودة بأقصى الجنوب والمتوفرة على أعلى القمم المطلة على الساحل بجبالة. وعلى سبيل المثال، فإن جبل تزران لا تضاهيه في العلو سوى الجبال الكتامية بالجنوب. وبإمكان الأروبيين المبحرين على مسافة قريبة من الساحل، أن يشاهدوا قمته؛ وهي تظل مكسوة بالثلوج ما بين شهري دجنبر ومارس. ولا يتوفر جبل غمارة الذي يقطع بني خالد من الشرق إلى الغرب، على قمم شبيهة بتلك الموجودة بتزران، لكنهما يشتملان على غابات من أشجار الأرز والسنديان، مترامية الأطراف فوق المنحدرات الجنوبية، كما توجد به جهة الشمال أشجار البلوط والفستق والصنوبر والدردار والخروع والعرعر. وهذه المنطقة مليئة بالجداول والأنهار التي ينبع أغلبها من الجبال المتواجدة بجنوب القبيلة. ويوجد الماء في كل مكان، بحيث تراه جاريا تحت رجليك؛ وتنتشر المياه الفضية للشلالات عبر المروج المليئة بالأزهار التي لم تمتد إليها الأيادي، لتجعلها داخل المزهريات.

وتختفي القرى داخل الخضرة وتحت ظلال الأشجار الضخمة. وعلى جنباتها تمتد حقول الشعير والعدس والذرة والبطاطس والكيف و "طابة". وأغلب المساكن مبنية على جنبات الجداول وبالأودية. أما الدواوير الموجودة في قعر الهاوية فنادرا ما تصل إليها أشعة الشمس. وفي فصل الشتاء، يشتد البرد وتجمد الأنهار وتختفي المنازل تحت الثلج، وتبدو الطبيعة ميتة، كما هو الحال بالنسبة للمناخ القارس بكل من سيفين Cevennes والقوج Vosges بفرنسا. ونظرا لاعتدال الطقس في فصل الصيف، فإن الأهالي يلبسون الجلابة الصوفية. ونحن نجد أنفسنا هنا بعيدين عن المناطق الاستوائية ذات المناخ الحار والخانق.

وتكثر الحيوانات بالمنطقة، وخصوصا منها بنات آوى والثعالب والجرذان والسناجب والضباع والقرود والخنازير وبعض الفهود التي تسمع أصواتها من أعماق الغابات الجنوبية. أما الطرائد المتنوعة، فهي متوفرة بكثرة وتتلف المزروعات لأنها لا تتعرض للقنص. وأحيانا ما كان الدرويش يسمع شكاوي النساء وهن يصرخن:

- يا إلاهي، من سيخلصنا من هذه الحجول والأرانب. فاليوم وحده التهمت جزءا كبيرا من خضرواتنا.

وهناك عادة مثيرة لذى سكان الدواوير التي يحاصرها الثلج في فصل الشتاء. فخلال هذا الفصل يضطر الأهالي للبقاء في منازلهم، بسبب البرد الشديد وتواجد الثلوج بكثرة؛ ويشعلون نارا عظيمة بالغرفة الرئيسية للدار. وتكلف الفتيات – كما كانت تفعل عذراوات المعابد الرومانية القديمة vestales- بالعناية بهذه النار ليل نهار.

هكذا، تجتمع الأسرة للأكل والشرب والثرثرة والنوم في الغرفة، إلى أن تمر فترة البرد القارس. ونظرا لعدم وجود مدخنة، تترك الباب مفتوحة جزئيا، لكي لا يختنق الجميع بالدخان. وقد تعود الرجال والنساء والأطفال على هذا الوضع وإن كانت ملابسهم الضاربة إلى الصفرة والمحترقة بعض الشيء، تميزهم عن غيرهم وتعرضهم لسخرية أهالي الساحل. فعندما يراهم هؤلاء المتأنقون المزعومون، بملابسهم غير النظيفة، يصرخون عاليا:

- انظروا، ها قد وصل القردة وبنات آوى.

ولكن السخرية لا تتجاوز هذا الحد، لأن المعروف عن بني خالد قساوتهم وصلابتهم وشجاعتهم. فرأسهم العاري المحاط بحبال مصنوعة من وبر الجمل وجلابتهم السوداء القصيرة وبندقيتهم المحمولة فوق الكتف وخنجرهم المشدود إلى وسطهم وقامتهم الفارعة في الطول وأياديهم الخشنة، تجعل كل من يسعى إلى السخرية منهم، يضرب ألف حساب قبل الإقدام على ذلك.

ويملك بني خالد قطعانا كبيرة من الماعز والعجول؛ وعندما يشتد البرد، تودع هذه الحيوانات في الحظيرة وتقدم إليها أوراق الشجر اليابسة والبلوط. وأساس تغدية الأهالي هو البلوط أيضا؛ ويؤكل مع الزبيب والتين والجوز واللوز وهلام العنب؛ كما يتم استهلاك العسل بكثرة. وتوجد خلايا النحل تحت الأخشاب وأحيانا على الأرض أو معلقة بالأشجار. وإذا ما كان النحل يدافع عن عسله ضد بنات آوى وباقي الحيوانات التي تستلذ هذه المادة، فإن الحيوان الأكثر ذكاء، ونقصد به الإنسان هو الوحيد الذي يستطيع إفراغ الخلية متفاديا اللسعات. فهو يلف جسمه بقماش ويوقد نارا يطرد دخانها النحل عن الخلية ويدوخه؛ ولا يتجرأ إلا القليل منه على الاقتراب من المعتدي.

وبخصوص العادات، فهي شبيهة بتلك الموجودة بالقبائل الكبرى المتهتكة. ففي كل قرية يوجد بيت الصحفة، حيث يستجيب الغلمان والعايلات لرغبات زائريه. وبالرغم من هذه السلوكات

الفاسدة، فإن بني خالد يتميزون بفضيلة الجرأة والشجاعة وبقوة وصبر لا نظير لهما. وبسبب ولوعهم بالحرب، فإنهم يتدربون باستمرار على الرماية ويستغلون كل المناسبات لفرقعة البارود faire parler la poudre.[22] وتمارس هذه الهواية في مناسبات الأعراس والأعياد الدينية وزيارة قبور الأولياء. ويتوج الفائز بارتداء جلابة سوداء، كدليل على إحرازه على الجائزة الأولى في الرماية؛ ويتقدم وسط موكب متجه نحو الضريح، محفوفا بالأصدقاء وتسبقه أنغام المزامير والطبول. ويتحرك موكب الرجال صفا واحدا مثل العساكر، برؤوس مرتفعة وبنادق فوق الأكتاف. ولكل قرية فرقتها من الرماة، يترأسها "مقدم"، يشرف على تدريب أعضائها وتعليمهم فنون الحرب.

ويرتدي "المقدم" أيضا، جلابة سوداء مزينة بخصلات pompons بيضاء من الحرير. ويميز هذا اللباس كل الرماة المهرة بمنطقة جبالة.

وما أن يبلغ الطفل سن الثامنة، حتى يتعلم استعمال الهراوة [يعبر عنها في الجزائر بلفظة "المطرق" matraque].

وقد سبق لي أن وصفت لعبة الكرة التي تمارس أيضا ببني خالد. ومن بين الألعاب الأخرى غير المؤذية لدى هذه القبيلة وباقي القبائل الجبلية الأخرى نجد لعبة الضامة jeu de dames التي تشكل رقعتها من ورقه الصبار الغليظة التي نظفت من الأشواك، حيث ترسم الخانات بالسكين ويختار اللاعبان بين الأحجار البيضاء والسوداء كقطع.

ويعرف الأطفال لعبة "القريد"، وهي شبيهة بلعبة الدومينو؛ لكن الدرويش لم يقدم عنها معلومات وافية. والواضح أن الرجال يقضون وقتا طويلا في ممارسة هذه اللعبة التي تتشكل قطعها من عظام صغيرة. أما الرهان فعادة ما يكون عبارة عن أرنب أو حجل أو أرنب بري lièvre. ولا مجال للحديث هنا عن النقود، لأنها شبه منعدمة رغم وجود مناجم الذهب والفضة بالقبيلة. وعلي أن أشير، ضمن سلسلة الألعاب هاته، إلى التراشق بكريات الثلج، بين الطلبة والأطفال، خلال موسم تساقط الثلوج.

---

[22] لا تعني عبارة la poudre a parlé، بأن البارود تكلم؛ بل تشير إلى أن هناك فرقعة للبارود أو تبادلا لإطلاق النار. ورغم ميلنا إلى الاعتقاد بأن اللغة العربية مجازية بشكل كبير، إلا اننا أضفنا صورة بلاغية أخرى، قد تجهلها هذه اللغة، ولربما ليست في حاجة إليها. بقي أن نتساءل: هل ستستسيغ اللغة الفرنسية هذه الاستعارة؟

وتتم المعاملات التجارية بسوقين متواجدين ببني خالد، حيث يباع الكيف و "طابة" والزبيب وخصوصا الجوز؛ لأن هذه القبيلة مشهورة مثل قبيلة كتامة، بأشجار الجوز. ويحتفظ بمحصول هذه الفاكهة، بسلال توضع بمخازن في الطابق الأول؛ وعندما يقل المحصول في السنوات العجاف، يباع المخزون بأثمان باهظة. وهناك من المضاربين من يحتفظ بهذه السلال مدة سنتين، منتظرين الفرصة المناسبة لترويج بضاعتهم؛ وهم يعلمون بأن الأجانب القادمين من طنجة أو فاس، سيشترونها أجلا أم عاجلا. غير أن الأهالي البدائيين، لا يعرفون للأسف، بأنه من الممكن استخلاص الزيت من الجوز. ويندهش بعض الغماريين حينما أؤكد لهم، إمكانية استثمار هذه الفاكهة المتواجدة بكثرة في بلدهم الجميل، لمثل هذا الغرض.

أما بخصوص العمل اليومي، فإن المرأة تحظى طبعا بنصيب الأسد. فهي تحرث وتقلب الأرض وتزرع وتحطب وتسقي، في الوقت الذي يكون فيه سيدها ومولاها seigneur et maître مسافرا في أغلب الأوقات، كبائع متجول. وقد يبتعد كثيرا عن قريته ليقايض المغازل والجوز واللوز وجدور شجر اللوز بالقمح والصوف. ويشاهد في بادية فاس وبالبرابر Braber، متنقلا بين الدواوير.

ومن جهتهم، فإن الطلبة الملتحين يمارسون مهنة مدرسين متجولين. فهم يتركون قراهم،حاملين لوحة ونسخة من القرآن الكريم؛ ويأكلون ويبيتون بالمساجد إ لى أن يحصلوا في إحدى القرى على وظيفة معلم. عندئذ، يتلقون 200 فرنك مقابل عملهم، إضافة إلى الملبس والمأكل والإقامة. ومن الممكن أن يتضاعف مدخولهم بفعل ممارستهم للخياطة التي يتقنها الغماريون.

وباختصار، فإننا لم نجد إلى حد الآن ولن نجد أبدا في إمبراطورية الشرفاء الشاسعة، الفقر المقيت الموجود عندنا في أروبا. ففي كل مكان بالمغرب، بل ومن المحيط إلى المنطقة الليبية، لا مكان للجوع، هذه الآفة الموجودة ببلداننا المتحضرة، إذ يتم التغلب عليه بفضل الصدقات وخصوصا بفضل التين الوحشي. فمن هو هذا الرجل العظيم والخير الذي غرس أول شجرة صبار في شمال إفريقيا؟ فهو يستحق، وخاصة في زمن الركود هذا، أن يوضع له تمثال من الرخام، ليس في كل دوار، لأن الأمر سيكون مدعاة للسخرية من طرف الأهالي؛ ولكن في إحدى الساحات العمومية بعاصمة ممتلكاتنا الإفريقية.

على مستوى آخر، ينتخب أهالي بني خالد بأنفسهم القياد الأربعة، بمعدل واحد لكل قسم. وتظل تبعية هؤلاء القياد للسلطان شكلية وإسمية فقط. فقبيلة غمارة الكبيرة مستقلة تماما. طبعا، فهي ترسل بعض الهدايا للشريف، كل سنتين أو ثلاث سنوات، لكن علينا ألا نخلط بين هذه الهدايا وما ندعوه عندنا بالضرائب المنتظمة؛ فهي مجرد هبات تقدم لأمير المؤمنين المغاربة وحفيد الرسول (ص)، لا أقل ولا أكثر.

إن قبيلة بني خالد هي من أقوى وأكبر القبائل الغمارية؛ ولا يمكن أن تقهر وسط جبالها، من طرف عساكر السلطان الذين يرسلون إلى المناطق الجبلية رغما عنهم. وقبل بلوغ هذه القبيلة، يجب عليهم اجتياز أراضي أخرى مستقلة، لن يستقبلوا فيها بحفاوة.

فحتى لو افترضنا أن هذه الجيوش تجاوزت كل الصعاب، فإنها ستواجه من طرف 9 ألاف من جنود بني خالد المشاة. وبينما يصطدم هؤلاء الجبليون الأشاوس مع قوات العدو تهرع فرق أخرى من المناطق المجاورة والصديقة، لمد يد المساعدة إليهم. هكذا، سيكون المصير الحتمي للقوات المخزنية المحاصرة بالوهاد والمنحدرات هو الهزيمة النكراء.

ويجب توقع حدوث مثل هذه المصادمات مرات عديدة؛ لكن لنترك هذا الأمر ولنتبع خطوات رحالتنا الذي وضع قدميه بقبيلة بني خالد. فقد غادر بني زدجل مباشرة بعد هزيمتهم أمام الاخماس وعبر تراب بني خالد لأول مرة، من الغرب إلى الشرق، متوقفا ببعض الدواوير للتعرف على أهاليها.

- عشـــاء قاتـــل:

اضطر الدرويش إلى قطع تجواله بأمزرا، بسبب بعض الأحداث الغريبة. فقد حاصرت خمس أو ست قرى هذا الوكر المليئ باللصوص وأعلنت بأنها لن ترفع حصارها إلا إذا استرجعت حيواناتها وفواكهها التي سرقت منها. وقاوم أهالي أمزرا بقوة ولم يسمحوا لمحاصريهم بولوج القرية. فاشتد غضب هؤلاء وعاثوا فسادا في الحقول والبساتين. وبينما كانت هذه الأعمال الوحشية تمارس بجنبات القرية، كان محمد والطلبة الأجانب الآخرون يقتصرون في المسجد الذي يقيمون به، على بضع حبات من البلوط المشوي الذي يمنح إليهم بتقتير، تحسبا لحدوث مجاعة.

وفي اليوم الرابع من الحصار، سمعت طلقات نارية كثيفة، تم على إثرها تفريق المهاجمين كغبار هزته ريح عاصفية. والسبب، هو قدوم فرقة من بني رزين، لمساعدة أصدقائهم بأمزرا. ورافق الدرويش المنتصرين إلى مساكنهم بتامريغيت، حيث ذبحت الماعز والعجول التي سلبت من العدو وطبخت في مئات من القدور وأقيمت مآدب فاخرة مازال بعض المشاركين فيها يتذكرونها.

لكن الرحالة لم يطق البقاء في تلك القرية، لأنه كان يرغب في اكتشاف قبيلة بني خالد برمتها. وعندما عم الهدوء المكان، غادر تامريغت قاصدا إصفارن. وفي الطريق التقى بطالب زروالي كان قاصدا نفس الوجهة. وكان الرجل في الثلاثين من عمره، حذرا مثل كل المغاربة، بحيث لم يخبر الجوال باسمه ولا بما يفعله ولا بما تحتويه محفظته. وطبعا، فإن الدرويش لم يقدم له أية معلومة عن شخصه واكتفى بالحديث معه عن أمور تافهة، تهم الطقس والمحاصيل وإمكانية وجود مكان للإقامة والأكل بمسجد إصفارن، إلى أن بلغا القرية قبل حلول الظلام.

وبعد وصولهما بقليل، حل بعض السفلة الأجانب بالقرية واتصلوا بأعضاء جماعة إصفارن كانوا يثرثرون فوق تلة؛ وقالوا لهم:

- إننا نبحث عن معلم زروالي هرب من قريتنا بعد أن سرق ألف فرنك.

فأجابهم أعضاء الجماعة باقتضاب:

- لم نر أي أحد.

وعاد أولئك الأوغاد أدراجهم خائبين. غير أن قصة هذا المعلم الزروالي الذي لجأ إلى إصفارن ومعه قدر كبير من المال، آثار اهتمام عضوين من الجماعة وهما شقيقان. فاتفقا بإشارة منهما على معرفة الأمر من قريب. وبالفعل، ذهبا إلى المسجد، حيث وجدا الدرويش وصديقه وسط الطلبة فسألاهما:

- من أية بلدة أنتما؟

فأجاب المعلم

- من بني زروال.

ولم يشعر محمد بالخطر، فاكتفى بالصمت. وفي الغد، ظهر الشقيقان بالمسجد واستدعيا الطالبان لقضاء الليلة عندهما. وكان محمد قد نسي تماما حادث البارحة. وتم الاتفاق على الالتقاء بباب المسجد بعد صلاة المغرب. وعند حلول الظلام، اصطحب الأخوان معهما كل من المعلم والجوال. وكان الليل حالكا بدون نجوم والمنازل متباعدة بحوالي مائة متر فيما بينها، كما هو الشأن في كل القرى الغمارية؛ وهو ما يفسر انعزال منزل المضيفين وسط الغابة. وأثناء اجتياز الغابة، كان محمد يدفع صديقه بمرفقيه، لكن هذا الأخير لم يفهم إشارة الخطر هاته.

وهمس الدرويش في أذنيه بالكلمات التالية:

- هادوا ماشيين يقتلونا وخلاص.

وكانت هذه الجملة وحدها تلخص الوضعية. فارتعب الزروالي وشعر بالخطأ الذي تم ارتكابه بمرافقة الرجلين. وكان المنزل المحاط بالأشجار والمنعزل تماما، يشبه مأوى متوحشا. واستقبل الضيفان من طرف شخص ثالث كان واقفا بالباب، فاتحا ذراعيه ومتحدثا بلهجة ودية معسولة، مفادها أن السعادة والرخاء والبركات قد حلت ببيته مع أقدام ضيفيه العظيمين. وجلس الجميع داخل غرفة كبيرة، فوق دوائر خشبية مصنوعة من الفلين، تستعمل في غياب الزرابي. وكان العشاء مكونا من دجاجة مطبوخة وبيض مسلوق وشيء من الزبيب؛ وهذا كرم كبير بالنسبة لأهالي بلدة فقيرة. ورغم الغياب الكلي للنساء، فقد استمر الجميع في الحديث. وكان المعلم أقل حذرا من الدرويش؛ وظل يتلو على مسامع الحاضرين آيات من القرآن الكريم؛ وهو زاده المعرفي الوحيد. أما محمد، فانشغل بالأكل، مع ممارسة عادته المألوفة، وهي شم أي لقمة يريد أكلها. وبعد العشاء بدأ الاستنطاق:

- إذن أنتما من بني زروال.

فأجاب المعلم:

- نعم

- من أية قرية؟

وانتبه الزروالي، لكن بعد فوات الأوان، إلى المخاطرة التي زج نفسه فيها. فظل يجادل في أمور تافهة، متفاديا ذكر اسم قريته، مخافة أن يكون بين مضيفيه وأهالي هذه الأخيرة حساب قديم يستدعي الانتقام.

وفي الأخير، خاطب الإخوة الثلاثة الدرويش قائلين:

- وأنت، قل الحقيقة ولا تكذب؛ ما هي بلدتك؟

فتحرر الرحالة من عبء جاثم فوق صدره، عندما أخبرهم بأنه أتى من بلاد بعيدة وتحديدا من قبيلة صنهاجة؛ ثم أضاف قائلا:

- لقد زرت بني زروال كطالب.

وتبين للسفلة من هو الشخص المعني، فضلا عن أنهم تعرفوا على هذا الزروالي من خلال لباسه وهيئته ولهجته؛ واقتنعوا بأنه هو الذي يحمل النقود معه. وأثناء شرب الشاي وقف أحد الإخوة الثلاثة، حاملا بندقيته وتوجه صوب الدرويش، ثم وضع يده تحت ذقنه وأخذ يرسل إشارات نحوه، غامزا بعينيه تارة، ومصدرا سعالا خفيفا أو باصقا على طرف جلابته تارة أخرى، لأنه لا يستحب البصق على أرضية الغرفة بالمغرب. وباختصار، حاول إثارة انتباه الأمازيغي الماكر. ولما لم تجد كل هذه المحاولات نفعا، خاطبه قائلا:

- سيدي الطالب، اخرج معي، فلدي شيء أريد إخبارك إياه.

فرد عليه الدرويش:

- لن أخرج، فالظلام حالك بالخارج.

- هيا بنا، لا تخف.

وألح عليه الرجل بالخروج، مؤكدا بأن الأمر يتعلق بمعلومة تهمهما معا. لكن الضيف رفض بشكل قاطع مغادرة الغرفة. عندئذ أمسكه المضيف من يديه وحاول جره إلى الخارج. وتمدد محمد على ظهره مقاوما ولم يصدر أية كلمة ولا أية حركة أمام محاولة الآخر سحبه نحو الباب. وتدخل أخواه قائلين:

- هيا، اترك هذا البئيس.

لكن الرجل لم يتوقف عن سحبه، لأنه لم يكن راغبا في أن يحضر الدرويش عملية القتل التي ستتم بعد قليل؛ وتابع جره متلفظا بأفظع الشتائم. ولم يفطن محمد إلى النية المسالمة للرجل تجاهه لذلك أصر على عدم الخروج وتشنجت عضلاته وتشبث بأي شيء وقعت عليه يده.

وفي الأخير، تمكن الطالب الضعيف من إرهاق الجبلي القوي. وبقي ممددا على الأرض وهو يدير رأسه يمينا وشمالا ويتبسم بطريقة بلهاء، مع الانتباه إلى كل ما يحدث حوله. ومن جهته، فإن المعلم ظل مشدوها ومرتعبا مما حدث. واقترب منه الأخوان المسلحان، بمسدسين، حيث سدد الأول فوهة مسدسه صوب الخاصرة اليمنى للزروالي وقام الثاني بنفس الشيء صوب الخاصرة اليسرى فوق الملابس، للتخفيف من صوت الطلقات النارية.ودوت طلقتان في نفس الوقت، خر المعلم على إثرهما صريعا. فانقض عليه الإخوة الثلاثة وفتشوه بعناية إلى أن اكتشفوا موضع النقود. بعد ذلك، توجه أحد هؤلاء الأشرار نحو محمد ووضع فوهة بندقيته على صدره لتخويفه وقال مخاطبا أخويه:

- يجب أن نقتله هو أيضا.

فتوسل إليه الآخران قائلين:

- كلا، كلا، اترك هذا البئيس؛ إنه وسخ ومليئ بالبراغيث والقمل.

وفهم الدرويش من هذا المزاح المرعب plaisanterie macabre بأن هؤلاء الأوغاد يريدون ترهيبه فقط، كي لا يفكر في العودة ثانية إلى القرية. وظل الرجل الذي حاول سحبه إلى الخارج من قبل، يخيفه بسلاحه ويمرغه في دماء الزروالي الذي فارق الحياة. وعندما تعب من هذا اللعب الوحشي قال له:

- قم يا ابن الكافر !

فنهض الرحالة بسرعة وتوجه نحو الباب بغية الهروب من هذا المنزل المرعب. وتدخل الأخوان الآخران قائلين:

- هيا، ابتعد عن هذا المسكين، فهو لن يرجع أبدا إلى إصفارن بكل تأكيد، وعليك أن تطلق سراحه.

وصرخ الرجل مفتعلا الغضب:

- إن هذا الخنزير يكذب، فهو سيرجع إلى القرية وسيشي بنا.

فرد أخواه:

- إننا نضمن عدم عودته.

هكذا، تم إخبار الدرويش بأن حياته ستكون في مأمن، شريطة ألا يظهر ثانية بالقرية. فأقسم لهم محمد بأنه سيلتزم بكل ما أمر به؛ وخرج مرفوقا باثنين من الإخوة الثلاثة. وبالخارج، كانت الظلمة حالكة، فقطع المجرمون الغابة لكي يصلوا في أسرع وقت، خارج مدار إصفارن. وتوقفوا عند نقطة محددة وشرعوا في تمثيل مسرحية جديدة، مؤكدين للدرويش أن في طرده خيرا لأن أهالي القرية سيقتلوه، إن هم وجدوه في الصباح قرب ديارهم. وأعلنوا عن عدائهم لبني زروال، بعد ارتكابهم لجريمة القتل ثم أضافوا قائلين:

- لا تعد إلى البلدة، فنحن لم نقم بإيذائك لأنك رجل مسكين. اصمت إذن واذهب إلى حال سبيلك !

ورجعوا من حيث أتوا؛ وقبل أن يختفوا نهائيا عن الأنظار، خاطبوه قائلين:

- دابا سامحنا.

ووجد الدرويش نفسه وسط الغابة والظلمة الحالكة؛ وكان يخشى قطاع الطرق والحيوانات المتوحشة، فما العمل؟ وكانت بالقرب منه شجرة سنديان ضخمة، تسلقها بعد مجهود جبار وجلس فوق غصن متين وحزم نفسه بعمامته [رزته] وظل ينتظر طلوع الفجر دون أن يغمض له جفن.

وساهمت برودة الليل في تشنج عضلاته، لذلك وجد صعوبة في النزول. وما أن وطئت قدماه الأرض، حتى توجه مباشرة إلى تامروث، متفاديا إصفارن. وكان يمشي حافي القدمين فوق أرض صخرية تارة ومليئة بالأعشاب وبرك الماء المثلج تارة أخرى؛ وقطع المسافات وهو ما يزال مرتعبا.

ووصل إلى تامروث وهو يعرج. وبالمسجد كان الطلبة متحلقين حول نار مشتعلة. ودون أن يتحدث مع أي أحد، جلس الجوال بجانب الطلبة ومد رجليه المجروحتين والمجمدتين باتجاه النار. وأثارت جلابته الملطخة بالدماء، فضول الجميع فسئل من أين أتى وما الذي حدث له. فكان جوابه:

- جيت من هنا واها.

وهذه عبارة سحرية ترضي كل المغاربة. ومن تامروث انتقل صاحبنا مرة ثانية إلى أمزرا، حيث يوجد أصدقاؤه الطلبة المرحون الذين يكثرون من تدخين الكيف و شم "النشوق". وكانت إقامته بهذه القرية مناسبة لاكتشاف غمارة وبني خالد بعمق.

- جولات الشرفاء وجمعهم للهبات:

بتاغزوث وبني سيداث [الريف]، يوجد العديد من الشرفاء الذين يعود أصلهم إلى الشريف الإدريسي سيدي محمد أخمريش. ولا يكتفي هؤلاء السادة باستغلال إيمان الريفيين، بل يقومون بجولات لجمع الصدقات بالقبائل المجاورة ، بكل من الدهرة وجبالة. وكان أحد أحفاد الرسول (ص) وهو "مقدم" زاوية الخمالشة[23] يقوم بجولة ببني خالد، حيث كان يجمع الهبات ويستقبل بحفاوة في كل مكان؛ ويبارك المحسنين ويلعن البخلاء القلائل الذين لم يعطوه أي شيء.

ووصل هذا الصالح إلى أمزرا، يومين بعد وصول الدرويش إليها. وكان الاستقبال المخصص له عظيما، لأن الأهالي الأميين كانوا منتشين بمقدمه وكانوا يقبلون يديه ورجليه؛ أما هو فكان يتركهم يفعلون ، لاقتناعه بأن ذلك من واجبهم.

وبعد ان خف حماس الأهالي، توجه الرحالة صوب الرجل الصالح وانحنى أمامه، ليس اقتناعا ببركته، بل للاستفادة من المأكولات الشهية التي تقدم لحفيد الرسول (ص). وكان الشريف جالسا فوق زربية من الصوف الجيد، وسط ا لمسجد، محاطا بأعيان القرية. وكان عمره يناهز الخمسين وله لحية جميلة، سوداء مع بعض الشعيرات الفضية؛ كما كان يرتدي ثلاث أو أربع جلابات بيضاء كالثلج، مصنوعة بالمهارة والأناقة المعروفتين بالمغرب.

وبمقر إقامته، كان الرجال يدخلون مصطحبين معهم أبناءهم، للتبرك بالشريف الذي يسأل كل واحد منهم:

- ماذا تتمنى؟

وعادة ما يكون الجواب واحدا بالنسبة للجميع وهو:

- أتمنى أن يحفظ كتاب الله وأن يصبح عالما.

---

[23] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 60 و 69.

عندها يدعو السيد الطفل، للاقتراب منه ويكون هذا الأخير على علم بما سيقع، فيفتح فمه ليتلقى بصقة الشريف. وسيعلن هذا الأخير فور ذلك:

- يقرا إن شاء الله.

وبينما يبتلع الصغير المسكين بنشوة عميقة، الريق المقدس، يضع الأب هديته بأحد الأكياس الموضوعة قرب الشريف.

وعند ذهاب كل الزوار، تقدم الجوال وقبل رأس الرجل الصالح كما اقتضت العادة. وسأل هذا الأخير مريده وهو يشير إلى صاحبنا:

- من أين أتى هذا الرجل؟

فأجابه أحدهم:

- درويش واها.

وهنا، خاطب الرجل الصالح محمدا، قائلا:

- تعل، اجلس إلى جانبي.

فانصاع الدرويش للأمر، وعندئذ بدأت سلسلة من الأسئلة والأجوبة، اقتنع الشريف من خلالها بأنه يوجد تحت الأسمال البالية لمخاطبه، إنسان ذكي بشكل كبير. وبدأ الحوار بالعربية التي لا يتقنها الشريف الريفي مثلما يتقن تمازيغت لغته الأم. وكم كانت دهشته عندما أجابه محمد بهذه اللغة، فصرخ بحبور:

- لن تفارقني خلال جولتي بغمارة، وستقيم عندي بمنزلي بعد ذلك، لأنني لم ألتق من قبل، برجل يمتلك نفس تجربتك في السفر؛ ثم همس في أذنه قائلا:

- خصوصا وسط هؤلاء الجهال.

فأجابه الدرويش ببساطة وهو يجلس بجوار هذا الصديق الجديد:

- فيها خير.

وفي الصباح، وجد الرجلان بغلين مسرجين ينتظرانهما بباب المسجد . وشعر الدرويش بأنه سيسافر لأول مرة كشريف. غير أن هذه الرحلة ذات النفحة المقدسة ستقنعه بأنه من الأفضل السفر في المغرب بشكل بئيس، بدل الأبهة والاحتفالية.

هكذا، غادرت القافلة الصغيرة أمزرا مع شروق الشمس، يتقدمها الشريف، ومن ورائه محمد ويتبعهما الخدام الثلاثة على الأقدام، حاملين بنادقهم على أكتافهم. وفي الدواوير الغنية، يسمح لهؤلاء الخدام باقتناء بعض الدواب، وغالبا ما يحاولون إقناع أصحابها بالتنازل عنها لفائدتهم؛ لأنهم سينالون من جراء ذلك، رضى وبركة الشريف. وتقتصر أشغال هؤلاء الخدام على أمور بسيطة؛ فهم يسخنون الماء لوضوء سيدهم ويعتنون بالدواب ويوزعون الطعام على الأتباع الذين جاؤوا بالهدية [الزيارة] ويهيئون شاي السيد ويسهرون على أمنه وسلامته.

لقد كان كل شيء يشير إلى أن السفر سيكون مريحا. وأصبح الدرويش الراكب فوق بغلته الرمادية المسرجة والنشيطة، أكثر ورعا من الشريف نفسه؛ حيث كان يؤدي الصلاة في وقتها ولا يتوقف عن ذكر الله ورسوله. وفضلا عن ذلك، فقد كان يدرس شخصية رفيقه بعمق، محاولا مجاراته في كل أعماله ومقتنعا بأن الاحتفالات المستمرة والمآدب الممتعة، هي بمثابة تعويض عن ساعات الضغط المعنوي والتعب. لذلك، سمح لنفسه بالاستفادة مما يقدمه الأهالي المنتشون من هبات، كتعبير عن تقديسهم للولي الصالح. ويا له من حماس صادر عن هذه الجماهير المستقبلة للسيد ! فعلى بعد خمس مائة خطوة من القرية، تشرع المزامير والطبول في إصدار نغماتها وتجذب بذلك، الحشود التي تهرع لاستقبال الموكب والتملي بطلعة حفيد الرسول (ص) الذي يحمل في دمه جزءا من قدسية هذا الأخير.

ويتقدم الأعيان بخنوع وقد طأطأوا رؤوسهم إجلالا لمقدم الشريف، مكتفين بلمس ثيابه تبركا. وفي القرى الكبيرة، يستقبل الأغنياء هذا السيد بمنازلهم؛ أما بالقرى الصغيرة، فإن الأهالي الذين لا يمتلكون مسكنا لائقا بعظمة الرجل، يزينون غرفة بالمسجد ويملؤونها بالزرابي التي سيتمدد فوقها الولي الصالح، بعيدا عن أعين الفضوليين. وبباب المسجد، تذبح العجول والماعز والدواجن التي وهبها الأغنياء. أما الفقراء فيقدمون أطباقا من الكسكس والخضر والفواكه ومشتقات الحليب. هكذا، تشعل النيران لتهيئ وجبة ضخمة سيتم تناولها جماعيا، تحت إشراف الرجل الصالح وفي غياب تام للنساء.

وقبل مغادرته للقرية، تتقاطر الهبات بحسب إمكانية كل واحد؛ وهي تشمل النقود والذهب والحبوب والزبيب والزبدة والعسل والماعز والعجول. وعندما يصل الشريف إلى حدود

الريف، على مقربة من زاويته، فإنه يرسل إليها كل الهبات التي توصل بها، أما عندما تكون المسافة بعيدة، فإن خدمه يبيعونها لأولئك الذين قدموها. ويقبل أصحاب الهبات على شرائها، مقتنعين بأنها ستجلب لهم الخير العميم، ما دام الولي قد أرجعها إليهم، بعد أن أودعها بركته.

وفي كل مكان، كان الشريف يقدم الدرويش كحفيد من حفدة الرسول، لكن من تلك الفئة الفقيرة التي لا يعرفها أحد. وكانت تلك مناسبة لمحمد كي يستمتع بمزايا هذا اللقب الجديد، حيث كان يسمح للحشود الهائجة بتقبيل يديه بورع. غير أن ما كان يدهش الجميع، هو أسماله البالية ورفضه ارتداء الجلابيب الأنيقة المهداة إليه. فمسألة التخلي عن هذه الأسمال التي أنقذت حياته عدة مرات، لم تكن واردة تماما !

هكذا، تمت زيارة كل تراب بني خالد، من تيلوطاف إلى إغمات ودروتان؛ وفي كل مرة، كانت الهدايا تتقاطر مقابل دعوات الشريف.

بعد ذلك، جاء دور بني زدجل وبني سلمان وبني زياث وقاع سرس وبني بوزرع وبني ݣرير وبني سميح وبني منصور وبني رزين.

وبتاغونا، وهي قرية ببني خالد، غير بعيدة عن بني سيداث، أرسل الشريف ما تبقى من الهدايا المكونة من العجول والماعز والبغال المحملة بالحبوب؛ واحتفظ بكمية صغيرة من الذهب والفضة، لأن القطع المعدنية الثمينة، لم تكن متوفرة كثيرا بغمارة، خلال تلك السنة.

وأخيرا اجتاز الموكب المقدس حدود بني خالد ودخل إلى التراب الكتامي، بغرض جمع الهدايا، كما كان الشأن في غمارة.

وعلى بعد مئات الأمتار عن وحشيات، وهي قرية صغيرة من 100 منزل، تابع الخدام الثلاثة والشريف والدرويش طريقهم بطمأنينة بواد مليئ بالأشجار وسط جبل كتامة، الذي يعتبر من أعلى وأصعب جبال المنطقة. وكانت الطريق المرسومة محاطة بالخضرة الوافرة وكأنها نفق محفور وسط الأعشاب.

وفجأة توقفت بغلة الشريف أمام خمس بنادق موجهة نحوها؛ وحصل نفس الشيء لبغلة الدرويش الذي كان يستمتع بجلسة مريحة فوق البردعة. وعند رؤيته لقطاع الطرق خاطب نفسه، مداريا ابتسامة غريبة:

- ما توقعت حصل. فيا أيتها الأسمال، هل سيجدي نفعك هذه المرة؟

وبينما هو غارق في تأملاته، سمع صوت اللصوص السفلة وهم يصرخون:

- انزلوا ! انزلوا !

وحاول الشريف الذي ظل هادئا، التأثير فيهم قائلا:

- إننا شرفاء من حفدة أخمريش، فكيف تتجرؤون على القيام بجريمة الاعتداء على أحفاد الرسول؟

فأجابه رئيس العصابة:

- هيا، إنكم تكذبون، فأنتم مجرد سيداثيين؛ ونحن لم يسبق لنا أن التقينا بأي شريف هنا.

وأدرك الصالح بأن هيبته الدينية لم تنفع، لذلك ترجل عن بغلته وكذلك فعل محمد؛ فصاح اللصوص:

- والآن، ابتعدوا واتركوا البغال.

وابتعد الشريف الذي كان شاحب الوجه، خوفا على نفسه؛ في حين ظل الدرويش الذي لا يملك شيئا لا يخاف من أي شيء، واقفا في مكانه، منتظرا ماذا سيجري.

أما الخدم الذين أصابهم الهلع منذ بداية الاعتداء، فلم يحركوا ساكنا؛ وكان بإمكانهم استعمال سلاحهم لكن الخوف جمد أطرافهم. وعندما اقترب منهم قطاع الطرق، سلموا لهم البنادق مثل الأطفال.

ولأن الدرويش كان متيقنا من أنه لن يصاب بأذى فقد تظاهر بالغضب الشديد وصرخ فيهم قائلا:

- يا أولاد الحرام؛ ألا تخافون ربكم؟ إنكم تسرقون حفيد الرسول وسيلعنكم الله يا أولاد الكلاب !

ولم ينفعه صراخه، لأنه لا أحد اهتم بهذا المتسول الطفيلي والأحمق. وقام فردان من العصابة بتفتيش الشريف وتكفل الأفراد الثلاثة بالخدم. أما الدرويش فظل يدور حول هؤلاء الرجال ويتكلم بهدوء، عسى أن يرق قلب اللصوص وحتى يشعر الشريف بأن هناك من يقف إلى جانبه، وقال في الأخير:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان الرجل الصالح يحتفظ بكيس صغير مليء بالنقود التي جمعها خلال جولته، فسلب منه على الفور. وبعد أن وضعت الغنيمة على ظهر البغال، قادها أربعة من أفراد العصابة، في حين بقي الخامس على بعد عشرين مترا من المعتدى عليهم، مهددا إياهم بإطلاق الرصاص على أول من يصرخ أو يحاول الهرب. وبعد أن تأكد من وصول شركائه إلى مكان آمن، اختفى في الغابة.

وتنهد حفيد الرسول بعمق وقال:

- الحمد لله، فعلى الأقل تركنا هؤلاء السفلة على قيد الحياة.

وشعر محمد بأن مرافقة الشريف أصبحت تثير المشاكل، فقرر الانفصال عنه فورا؛ لذلك خاطبه قائلا:

- إنني سأذهب إلى القرية الموجودة أسفل الوادي؛ أما أنتم فاذهبوا إلى وحشيات لأن الأهالي يعرفونكم وسيستقبلونكم بحفاوة.

وحاول الشريف إقناع الرحالة بالبقاء معه، لكن دون جدوى. وبالفعل فقد همس هذا الأخير في قرارة نفسه قائلا:

- لماذا أعرض نفسي للخطر مع هؤلاء المنافقين المتعجرفين؟ إن أسمالي هي التي يمكنها أن تحميني؛ وإذا ما أراد أحد سلبها مني، فإنني سأهديها له فورا.

وافترق الرجلان؛ وكان الشريف غير راض على ما حصل، عكس الدرويش الذي فرح باستعادة حريته. وسيعلم فيما بعد، بأن الشريف استطاع بعد الحادث بيوم، استعادة البغال والبنادق المسروقة، بفضل تدخل أعضاء جماعة الوحشيات؛ اما الكيس المليء بالنقود، فلم يظهر له أي أثر.

لن نغادر غمارة دون الحديث عن عادة محمودة لدى بعض العائلات الغنية والمتمثلة في تعليم بناتها؛ صحيح أن هذا التعليم يقتصر على حفظ القرآن، لكنه يشكل بداية مهمة، أفضل بكثير من الجهل الرهيب الذي يخضع له آلاف الرجال والنساء بالإمبراطورية الشريفة.

وتوجد بعض المدارس المختلطة التي تدرس بها معلمات؛ ويقال إن بعض أرباب الأسر لا يترددون في إرسال بناتهم إلى المساجد للدراسة بجانب الأولاد. لكن، ما أن يصلن إلى سن المراهقة، حتى يمنع عنهن مغادرة المنزل، حيث يتابعن دراستهن تحت إشراف الأخ أو الأب أو الأم.

لكن هذه الوقائع تشكل استثناء يؤكد القاعدة المتمثلة في الرتابة المعيقة لكل تنوير.

القرى الرئيسية بقاع سرس

الكلمة مشتقة من قاع [كل] وسرس [وهي كلمة أمازيغية] وتعني [حط]. وتفسر الرواية المحلية وجود هذه الكلمة الغريبة كما يلي: كان لصوص هذه القبيلة يتكلمون الأمازيغية وبدؤوا بالكاد يتهجون العربية. وعندما كانوا يقطعون الطريق على العابرين، كانوا يصرخون فيهم:

- قاع سرس [الكل حط] أي ضع أرضا كل ما لديك.
- قاع سرس، 500 منزل، ميناء بحري بمصب النهر الموجود بواد لاو.
- بني محمد، 100 منزل؛ بالجنوب الغربي للقبيلة
- القوى العسكرية: 2500 جندي من المشاة، عدد السكان المحتمل: 17500 نسمة، وهناك حوالي 40 قرية متفرقة في كل الاتجاهات.

القرى الرئيسية ببني زياث

إن الثاء [بثلاث نقط] الموجودة بكلمة زياث، تعني أنها تمزغت بعد ان كانت في الأصل هي زيات أو زياد.

- سيدي أحمد الغزالي، على الضفة اليسرى وقرب مصب واد تارغا، وهي قرية من 100 منزل، وتشكل في الحقيقة جزءا من تارغا التي يفصلها عنها الواد المذكور. وتوجد بها زاوية مخصوصة لسيدي أحمد الغزالي.
- تارغا [الحريق]، التسمية امازيغية، 500 منزل؛ ويدعوها الأهالي مرسى أو مدينة تارغا؛ وتوجد بها مآثر تاريخية سنتحدث عنها لاحقا.
- إغيل سنوس [هضبة النزل]، التسمية امازيغية، بمعنى المكان الذي سنقضي فيه الليل [سنوس Snous هي الصيغة المتعدية factitive "الإنس ens"؛ وهي كلمة أمازيغية تعني قضى الليل]، 100 منزل، قرب الساحل.
- الشرفا، 20 منزلا، على البحر الأبيض المتوسط.
- تغيزاس، مدينة تاريخية، 500 منزل، على مصب النهر الذي يحمل نفس الاسم. وتغيزاس كلمة أمازيغية تعني الملامسات. وحسب الرواية المحلية، فإن مصدر التسمية يرجع إلى كون

الأهالي القدامى اللواطيين كانوا يلمسون أذرع الغلمان من تحت كم الجلابة؛ ومن هنا جاء التعبير الأمازيغي ath igousis [يلمس ذراعه]؛ انظر النبذة التاريخية لاحقا.

- غلدت]البركة أو الكَّلتة بالعربية الدارجة]، 500 منزل، على الضفة اليسرى لواد تغيزاس.

- إمزرضن [سيلان]، التسمية أمازيغية؛ وتقابلها إمنيارن [تفريغ] بتمازيغث الريف، 300 منزل على الضفة اليسرى لواد تغيزاس المعروف في هذه المنطقة باسم واد بني هليل.

- سوق الأحد، وهو أهم سوق في غمارة برمتها ويوجد على الضفة اليسرى لواد تغيزاس، شرق إمزرضن. وقد اقتضت عادة قديمة أن يترك كل بائع عشر بضاعته، كيفما كان نوعها لحراس قبة سيدي أحمد الفيلالي؛ وهي القبة الوحيدة بالسوق. من جهته فإن الحارس مطالب بإيواء كل زوار الضريح وهم كثيرون.

- أزغار بني هليل [سهل بني هليل][24] وهي قرية كبيرة من 500 منزل وتوجد بسهل شاسع على الضفة اليمنى لواد بني هليل؛ وتدعى أزغار بني هليل، لكي لا يتم خلطها مع أزغار الصغير.

- بني مرزوق، دوار من 50 منزلا على الضفة اليسرى لواد بني هليل.

- الهوتة، دوار من 10 منازل ويوجد بأرض منحنية على الضفة اليمنى لواد بني هليل، وهناك مناجم للذهب جهة الشمال.

- القليعة، قرب البحر، 100 منزل.

- أزغار الصغير، 100 منزل، على الضفة اليسرى لواد تارغا، وهي بلدة التين، وغالبا ما تدعى ازغار بني بختي نظرا لقربها من هذه القرية.

- بني بختي [وانا أترجم بختي ب Veinard، أي المحظوظ. وهذا هو معنى كلمة بخت على الأقل لدى الجزائريين والمغاربة]. وهي قرية من 300 منزل على الضفة اليسرى لواد بني بختي الذي يأخذ اسم واد تارغا أسفل أزغار الصغير. ويدعي أهالي القرية بأنهم ينحدرون من جد بنفس الإسم، من قبيلة البخاتة الواقعة بين بوزيكو وأولاد عمور وبني يعلا بالدهرة؛

---

[24] انظر كتابي: Légendes de le Grande Kabylie, T.1er , p. 231 وهليل في الدارجة المغربية، مرادفة لمؤذن، مع فارق كون هذا الأخير ينادي المؤمنين للصلاة خلال النهار، في حين ان الهليل يناديهم خلال الليل. وهلل هي ترديد صيغة لا إله إلا الله.

ملحوظة المترجم: كلمة مهلل أكثر تداولا من كلمة هليل.

وتوجد مناجم الذهب جنوب شرق القرية. وهناك حوالي 40 قرية متفرقة هنا وهناك، خصوصا قرب النهرين.

القوى العسكرية، 6 آلاف جندي من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 42 ألف نسمة.

القرى الرئيسية ببني سلمان

- بودقيق السفلي، 100 منزل، على الضفة اليسرى لواد بني زياث وتوجد بها مناجم الحديد.
- بودقيق الفوقي، على الضفة اليمنى لواد بني زياث؛ توجدا بها مناجم الحديد أيضا.
- إخريفن [التين]، التسمية أمازيغية وعربية، 100 منزل، توجد بها مناجم الرصاص.
- القلعة، 100 منزل.
- الزيتونات، 50 منزلا.
- أزفون [زهرة الأفراح]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- أمزاورو [الأولى]، التسمية أمازيغية، 100 منزل على واد بني زياث.
- أومطيل [المدفون]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، توجد بها أشجار التين والكروم.
- القوى العسكرية: 3 ألف جندي من المشاة، العدد المحتمل للسكان، 21 ألف نسمة؛ وهناك حوالي 30 قرية لم أتمكن من معرفة اسمها.

القرى الرئيسية ببني منصور

- توجقان [الغابة]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد امطير عند حدود بني گرير. وبها غابة شاسعة، تصنع من أشجارها العوارض المسماة بالأمازيغية أجكو.[25] وتوجد بها زاوية سيدي عبد المومن التي تحظى بزيارات دائمة.
- تامايلت [المظللة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل على واد امطير.

---

(25) هناك مثل قبايلي يقول:

Our ouminer ara ajgou ad ikker g oumagraman

لا أعتقد بأن العارضة تصنع من النبتة المسماة عشبة الذبابة i oula ciscosa انظر كتابي:

- Légendes de la Grande Kabylie, tome 1er, p. 410, in – 8, Paris, 1896.

- تارزت [الانكسار]، التسمية أمازيغية، 500 منزل وتوجد بها مناجم الحديد.
- آيث روهاش، 100 منزل.
- الخميس، 100 منزل، توجد بها مناجم الحديد.
- بني أكتا [أبناء القرد] التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل.
- المدينة، 100 منزل، قرب سوق الثلاثاء.
- سيدي مسعود، 100 منزل على واد امطير ويوجد بشمالها منجم للرصاص.
- أفران أعمان[26] [فرز أعمان]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- القوى العسكرية، 2000 جندي من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 14 ألف نسمة؛ وهناك حوالي 20 قرية غير معروفة.

القرى الرئيسية ببني بوزرع

هذه القبيلة من أصل صنهاجي؛ ويربط الغماريون اسم أهاليها الشجعان بأدائهم الجزية لغمارة. لكن الأمور تغيرت اليوم؛ فبني بوزرع ينتصرون دوما على جيرانهم ويرفضون التخلي عن لغتهم الأمازيغية المحلية ويفتخرون بكونهم صنهاجيين وسط الغماريين.[27]

- تاندمان [المغفلة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، على جانب البحر، وبها الكثير من أشجار البرتقال.
- إعرابن [العرب]، التسمية عربية و أمازيغية؛ وهي قرية بحرية كبيرة، 500 منزل.

---

[26] وهي التسمية الممنوحة بتامازيغث لزهرة يصنع منها الحبر.

[27] سألت الدرويش يوما، عما إذا كان بنو بوزرع يمارسون عملية ثقب الجمجمة التي تحدث عنها بروكا Broca في مؤلفه:

- Mémoire sur la trépanation du crâne et les amulettes crâniennes à l'époque néolithique, Paris, 1877.

وأيضا غوبلي دالفييلا Goblet d'Alviella في مؤلفه:

- L'idée de Dieu d'après l'Anthropologie et l'Histoire, Paris et Bruxelles, 1892

فأجابني بأنه لم يسمع أبدا بهذه العادة الرهيبة؛ واندهش من كون أجداده الأمازيغيين وأغلب بدائيي أمريكا وأروبا كانوا يخضعون لهذه العملية لأهداف دينية لا نعرفها. وقد قيل لي، إن أمازيغ الأوراس مازالوا يمارسون هذه العملية الجراحية بنجاح؛ لكنني لن أتجرأ على إرجاع هذا الفن إلى أجدادهم في العصر الحجري الجديد Néolitique.

- إدارن [الدواوير]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، وتسمى أيضا مرسى امطير، لأنها توجد قرب مصب هذا النهر الصغير.

- مرسى امطير، تستخدم كميناء لإدارن وبها منزلان.

- تازة [الممر]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، توجد بنواحيها مناجم الذهب.

- إمطيقان [الأقوياء]، التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل؛ توجد بها مناجم الذهب أيضا.

- سيدي أحمد الفيلالي؛ هناك زاوية مخصوصة لهذا الولي.

- إناراي [المتنورة]، التسمية عربية وأمازيغية، وقد سميت كذلك لأنها منورة بشكل مضاعف:

1) بسبب العدد الكبير من طلبتها.

2) بسبب تواجد الولي الصالح سيدي أحمد الفيلالي بها والذي يرقد جثمانه بضريح يؤمه الزوار طوال السنة.

- تاغدا ولا [جلد العجل]، التسمية أمازيغية، 100 منزل. ويروى أن أهالي هذه القرية كانوا متعودين على زيارة سيدي أحمد الفيلالي قبل موته وذبح العجول على شرفه. وفي أحد الأيام، أكلوا العجل كله ولم يتركوا سوى القرون والعظام. ولكي يثبت لهم الولي كرامته وقداسته، خاطب بقايا العجل قائلا: "نوض" [انهض]. فنهض العجل حيا وكأنه لم يذبح ولم يلتهم من قبل !

- حلاوة، 500 منزل، توجد بنواحيها مناجم الذهب.

- أسيقان [الجداول]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا.

وهناك حوالي 20 قرية لم أتعرف عليها.

- القوى العسكرية: 2500 جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 15 ألف نسمة.

القرى الرئيسية ببني گُرير

[من قرير أي المنتعش او المتسلي]

- تاغسا [الهيكل العظمي]، التسمية أمازيغية؛ ميناء بحري، 500 منزل، بمصب نهر يحمل نفس الاسم. وعلى شاطئ البحر غربا، توجد زاوية سيدي العطار.

- خنوبة، 100 منزل، معقل الشرفاء. ويقال إن سيدي الغماري الذي توجد عدة زوايا مخصوصة له بتونس وليبيا، ولد بخنوبة.

- خلالة [حايك صوفي منسوج بمشط حديدي]، 500 منزل، غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد امطير.

- أزغار [السهل الكبير]، التسمية أمازيغية، 100 منزل ؛ وتوجد بها مناجم الذهب.

- أرغال [اسم شجرة، انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 61].

- تامايلت [المظللة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.

- تازلث [معدن الكحل أو النحر] ويتم تشغيل منجم الكحل لتلبية الحاجيات التجميلية للنساء فقط.

- أمالو [المنحدر، المظلل]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، توجد بها مناجم الكحل.

- بني حمدون، 100 منزل، قرب الضفة اليسرى لواد تاغسا.

- تيغسوان [الهياكل العظمية]، التسمية أمازيغية، على الضفة اليسرى لواد تاغسا بالحدود الجنوبية للقبيلة.

- الأربعاء، 100 منزل.

- القوى العسكرية: ألفان من الجنود المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 14 ألف نسمة، وهناك 30 قرية لم أتعرف عليها.

القرى الرئيسية ببني سميح

إذا ما صدقنا الروايات المتداولة بالمنطقة، فإن هذه القبيلة نعتت بهذا الإسم، لأنها "سمحت" في العادات الغمارية [أي تخلت عنها] وتبنت عادات وتقاليد الريف. وهناك العديد من النصوص المسجوعة والأمثال الساخرة من المقلدين ومن المنطقة التي يريدون تقليدها. وإليكم نموذجا من هذه النصوص الغمارية ذات السخرية اللاذعة:

بني سميح سمحو في قاعدة غمارة وتبعو قاعدة الريف.

لأن غمارة كلها طالب وشريف.

أما بني سميح غير المكحلة والرديف.

يقولو الناس يا لطيف

من بلاد ا لريف.

سوى المحكلة والرديف والبارود والخفيف

والدق لازليف [الرأس]

قل الريف من سخط ربي وما سلم منهم إلا القليل.[28]

ولا توجد بالقبيلة أية قرية على الساحل؛ بالمقابل هناك زاويتان وهما مقام سيدي يحيى الورداني وزاوية بنت سيدنا نوح، يزورهما الأهالي باستمرار. أما بخصوص مرسى الجبهة، فهي عبارة عن خليج صغير شكله مصب واد أورنغا.

- أزغار[29]، 50 منزلا، على الضفة اليسرى لواد تاغسا، توجد بها مناجم الذهب.

- عين الذهب، 100 منزل، غنية بمناجم الذهب.

- زاوية سيدي محمد البوهالي، 100منزل.

- تاغزوت، 100 منزل، توجد بها مناجم الذهب.

- تازمورت [شجرة الزيتون]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا، بها مناجم الذهب أيضا.

- زدمث [الحزمة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب واد أورنغا.

- تازروث، 100 منزل، بأقصى جنوب القبيلة.وتوجد حوالي 30 قبيلة متفرقة هنا وهناك.

- القوى العسكرية: 3 آلاف من الجنود المشاة؛ العدد المحتمل للسكان 21 أ لف نسمة.

القرى الرئيسية ببني رزين

- الصحاورية، 100 منزل، محاذية للريف ويوجد بها منجم للرصاص.

- إعديثن [الحاسبون]، التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل، بين واد أورنغا والحدود الريفية.

- بني مراق، 500 منزل، يوجد بها منجم للرصاص.

---

[28] هذه الشتائم ذات النعرة القبلية، ستغيظ الريفيين طبعا وستعمق الهوة التي تفصلهم عن القبائل العربية وستزيدهم تشبثا بأصولهم.

[29] سبق أن حددنا مدلول هذه الكلمة.

- أقيا [الرفض]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.

- تيفوكيوان [المفروكات]، التسمية عربية و أمازيغية، 100 منزل.

- بوخالد، 50 منزلا.

- تامريغت [المتمرغة]، التسمية عربية وأمازيغية؛ ويوجد بها سوق الخميس الهام ومنجم للذهب.

- بوبكنيض [المكرش]، التسمية عربية و أمازيغية، 100 منزل.

- تازقا [السطح]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، بها منجم هام للرصاص. وتحمل كل من تامريغت وبو بكنيض وتازقا، اسم بني قاسم، ويعتبر قاسم هو جدها المشترك.

- القوى العسكرية: 1500 جندي من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 10500 نسمة. ولم يتذكر الدرويش اسم 20 قرية تقريبا.

القرى الرئيسية ببني زدجل

- القلعة، 500 منزل، وتشمل خمسة دواوير، وغالبا ما يتبضع أهاليها بسوق الشاون الغير بعيد عنهم؛ ويوجد بها منجم للذهب.

- أدلدال [المتردد]، التسمية عربية وأمازيغية، 500 منزل؛ وتشمل خمسة دواوير.

- أسغون [الحبل]، التسمية أمازيغية، تتألف من خمسة دواوير وبها منجم للذهب.

- سوق الثلاثاء، ويقصده كل أهالي المنطقة. وهناك حوالي 30 قرية غير معروفة والعديد من مناجم الذهب والفضة.

- القوى العسكرية: 3 آلاف من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 21 ألف نسمة.

القرى الرئيسية ببني خالد.

- بني حسين، 500 منزل وتشمل خمسة دواوير.

- سوق الثلاثاء، وبه منجم للرصاص.

- تيزلفان [الأوراق المنتشرة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل. ويختص طلبة هذه القرية بقراءة الطالع.

- تامايلت، 100 منزل، قرب منبع واد بني زياث.

- تاسلنت [الدردار]، التسمية أمازيغية، 100 منزل وتكثر بها أشجار الدردار.

- بني حسون، قرية كبيرةمن 500 منزل، على حدود بني سلمان.

- بني زراولو [أبناء الحول]، التسمية عربية وأمازيغية، 500 منزل.

- تافراوت [الجناح الصغير أو الورقة الصغيرة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل. وتوجد بمدخل ممر جبلي يحمل نفس الإسم، بين غمارة وبني زروال. وتتكون تافراوت من قريتين وهما: تافراوت الغمارية وتافراوت الزروالية [توجد الأولى بأراضي غمارة والثانية بأراضي بني زروال]. إن تافراوت تتحكم في الممر الوحيد والملائم الذي يربط غمارة ببني زروال؛ ويوجد بالشمال الغربي لهذا الممر، منجم للذهب.

- بني حمدون، 100 منزل، على الضفة اليمنى لواد امطير.

- سوق الخميس، وهو أكبر المراكز التجارية ببني خالد ويوجد موقعه وسط القبيلة، على المنحدر الجنوبي لجبل غمارة، قرب واد امطير.

- الدباغين، 100 منزل، غير بعيد عن منبع واد امطير، على الحدود الجنوبية لغمارة. ويزعم البعض أن هذا اللقب اقترن بالأهالي، لأنهم كانوا فيما مضى يقومون بدبغ جلود الخنازير ويصنعون منها مآزر كبيرة [طبانطا او طبانتا] تغطي صدورهم وبطونهم وسيقانهم وتصل إلى الركبة. وكانوا يقطعون الأدغال والغابات بهذه المآزر التي تحمي جلابيبهم من العليق والأغصان والأشواك. وقد انتقلت هذه الموضة إلى الغماريين الآخرين ساكني الغابات الذين يرتدون مآزر مصنوعة من جلود الماعز ويرفضون تلك المصنوعة من جلود الخنازير [الحلاليف] لأن ذلك يتناقض مع مبادئهم الدينية.

- تيغسوان ، 100 منزل؛ وهي قرية وسط الجبال، تتميز بشتاء بارد جدا.

- داروتان [السميك]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، وتوجد بها زاوية سيدي محمد حمون. وكنت قد كتبت خطأ، في الجزء الأول من كتاب "المغرب المجهول"، ص. 66، بان تزدميث تسمى أيضا، دروتان.

- إغماط [قعر] التسمية أمازيغية؛ وهي قرية من 100 منزل، توجد وسط وهاد متوحشة وتغطى بالثلوج في فصل الشتاء.

- تيلوطاف [المثلجة]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، وهي قرية الطلبة، قرب منبع واد أورنغا. وترتبط المنازل فيما بينها بألواح موضوعة فوق الوهاد التي تفصل بينها.

- تاموروث [عشرة]، التسمية أمازيغية، 500 منزل، وينبع واد تاموروث داخل القرية.

- تاغونا [الغناء]، التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل، في أقصى شرق وجنوب بني خالد.

- إصفارن [الصفر]، التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل.

- سوق الإثنين؛ لا يعرف حركة كبيرة ويوجد به منجم للذهب، على الضفة اليسرى لواد أورنغا.

- أشداد [العنيف]، التسمية عربية وأمازيغية، 500 منزل، على واد أورنغا، قرب الحدود مع بني رزين. وهناك حوالي 40 قرية، مجهولة الاسم.

- القوى العسكرية، 9 آلاف من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 63 ألف نسمة.

مجموع سكان غمارة

يمكن لقبيلة غمارة أن تعبئ ما بين 30 ألف و 35 ألف مقاتل، مما يعطينا رقما تقريبيا لعدد السكان يناهز 235 ألف نسمة. ومن بين كل القبائل الجبلية فإن الاخماس هي الوحيدة التي تتجاوز غمارة من حيث عدد السكان والمقاتلين، لكن هذه الأخيرة، تحتل المرتبة الولى من حيث شساعة ترابها؛ ولا تضاهيها أية قبيلة أخرى بهذا الخصوص.

الأنـهار والجبـــــال

- واد أورنغا [الواد الفريد]، عن الكلمة الأمازيغية our inga [لايتجاوز]. وقد حدد أنطونان Antonan في "دليله" منطقة كوبكلا Cobucla بشرم الصيادين الموجود بخرائطنا الأروبية والمدعو في البلد برأس الجبهة. ويصب واد أورنغا في هذا الشرم.

- واد تاغسا [واد الهيكل العظمي]، التسمية أمازيغية ويصب في شرم الحور peuplier، المثبت بخرائطنا، هناك حيث حدد "الدليل" وبطليموس Toenia Longa.

- واد امطير، لم يذكره القدماء حسب علمي.

- واد تغيزاس [واد الملامسة] التسمية أمازيغية. ولا أدري هل تم الخلط بين وادتاغسا وواد تغيزاس؛ وعما إذا لم يكن من الأفضل تحديد مكان شرم الحور بمصب هذا النهر الأخير.
- واد تارغا [واد ا لحريق]، التسمية أمازيغية ولا أرى أثرا لدى القدماء.
- واد لاو، ينطقها الأهالي تارة واد لاو؛ وتارة واد وادلاو. وتتألف كلمة واد لاو من اللفظة العربية واد التي تمزغت؛ ومن اللفظة الأمازيغية لاو [النهر]. وهذه اللفظة الأخيرة ليبية ذكرها بلين Pline بعد تحويرها، حيث تحدث عن لود loud، وهو النهر الموجود بين واد مرتيل flumen tamuda وواد ملوية Malvana. وحسب هذا المؤلف اللاتيني، فإن الأنهار الثلاثة قابلة للملاحة navigables. وقد سبق لي أن قلت إن واد لاو هو أهم مجرى مائي بغمارة ؛ ولا يمكن قطعه عند المصب إلا بواسطة مركب أو سباحة. ونظرا لأن السكان الأوائل لم يكونوا رحالين ولا يعرفون أي نهر آخر سوى نهرهم، فقد سموه "لاو" أي النصر بامتياز.
وفيما بعد، سماه العرب واد لاو، وأصبحت الكلمتان على لسان الأمازيغ المهزومين الذين لم يتعلموا بعد لغة المنتصرين، كلمة واحدة وهي واد لاو.
وعندما تمكنوا من اللغة، لاحظوا بأن لفظة واد لاو التي تشير إلى النهر، يجب أن تكون مسبوقة باللفظة العربية واد، فسموه واد واد لاو. وهكدا أصبحت اللفظة الأخيرة تحمل دلالة النهر أو الغدير. وأنا أرغب في التعرف على فرضية أكثر واقعية وعلمية من فرضيتي.

- حركة دينية بزعامة المتنبي الغماري

حاء – ميم [حم]

لو استطاع واد لاو الكلام، لروى لنا قصة قبيلة بني رهفو الموجودة على ضفافه والتي أعطت رجلين متميزين وهما حاء – ميم وعاصم بن جميل اللزجومي.
فعندما أعلن الرسول العربي بأنه لا نبي بعده، حدد للإسلام دائرة لا يمكن لأحد تجاوزها. لكن في قلب المغرب، أرض ردود الأفعال العنيفة داخل أدغال ومنحدرات غمارة وعلى ضفاف واد لاو، سيظهر متنبي يحمل اسما رمزيا وهو حاء – ميم وسيتحدى الإعجاز القرآني، حيث سيأتي بقرآنه باللغة الأمازيغية السائدة آنذاك بالساحل المتوسطي.

[**ملحوظة المترجم**: نعلم بان هذين الحرفين (حم)، يشكلان افتتاحية للعديد من السور القرآنيةوهي : سورة غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية والأحقاف؛ وهي جميعها مكية].

وكان التحول مذهلا، فالأهالي الجبليون القساة، الذين لا يفهمون العربية، تلقوا كلماته "المقدسة" برحابة صدر. وما شجعهم على ذلك، هو الطابع المتسامح وغير المتشدد لتعاليمه. فقد ألغى الحج والوضوء تماما واختزل الصلوات الخمس في صلاتين وشهر الصوم في عشرين يوما وأجاز أكل لحم انثى الخنزير Truie.[30] بالإضافة إلى تعديلات أخرى لم يتحدث عنها الكتاب المسلمون.

وقد أثار هذا البرنامج، كما يشهد على ذلك ابن خلدون وصاحب كتاب القرطاس، حماس الأهالي الذين جاءهم الإسلام على صهوة جواد. وهذا التطور الديني الهام لم يحظ باهتمام المؤرخين الأرثودوكسيين، فأكثرهم إسهابا لم يخصص أكثر من ثلاثين سطرا للحدث. [31]

لكن كم من المتنبين والمتنبيات والسحرة والعرافين ستتضمنهم عائلة المتنبي الغماري؟ !

فقد كان أبوه متنبيا أيضا، لأنه كان من اللازم على كل معتنق للدين الجديد أن يقول:

- أومن بحاء – ميم وبأبيه بوخالف النبي.

وكانت عمته "التالية" متنبية واخته "دبو" عرافة، يتم استشارتها خلال فترات الحرب والجفاف وحتى ابنه عيسى، كان يعتبر متنبيا صغيرا. وقد شوهد بعد النهاية المأساوية لأبيه، وسط الغماريين الذين كانوا يعاملونه بإجلال؛ كما شوهد ببلاط الناصر.

---

[30] لأن القرآن الذي أتى به الرسول (ص)، لم يمنع حسب حاء – ميم، سوى الخنزير الذكر.

[31] **ملحوظة المترجم** : يشير موليبراس إلى أعمال ابن خلدون والبكري وابن أبي زرع المترجمة إلى الفرنسية، لذلك سنذكرها كما وردت في النص. أما كتاب الاستقصا لخالد الناصري فقد رجع إليه في الأصل كما هو معلوم :

- El Bakri, El massalik oual mamalik, p. 100, ligne 1 à 4, journal asiatique, T. XIII, p. 165, série, 1859.

- Ibn Khaldoun, Histoire des berbères, tr. Fr. t. II, p. 143 et 144.

- Ibn Adzari, Baïan, T. I, p. 198, ligne 8 à 13.

- Ibn Abi Zara, Al K'irtas, p. 135 à 137 de la tr. Française.

وللأسف فأنا لا أتوفر على النسخة العربية للقرطاس، لكي أتمكن من مراقبة و مراجعة ترجمة بوميي Beaumier.

- الاستقصا، الجزء الأول، حيث نقل الناصري باختصار وبتصرف، روايتي ابن أبي زرع وابن خلدون حول حاء – ميم.

ولو كان حاء – ميم يتوفر على ذكاء ومعارف فولتير Voltaire أو أوغست كونت A. Comte أو سبنسر Spencer لما حاول محاكاة رسول مكة العظيم ولما شرع الصوم ثلاث أيام في الأسبوع؛ وهي أيام الإثنين والخميس والجمعة. [32] ولما فكر في تقليص شهر الصيام والمطالبة بكفارة باهضة وهي ثلاثة ثيران بالنسبة للخميس وثورين بالنسبة للاثنين. ونحن نتحدث هنا عن الكفارة المقترنة بسبب من الأسباب؛ لأن خرق الصيام بشكل متعمد، يؤدي إلى عقوبات أشد قد تصل إلى الموت.

وهناك بدع أخرى غير مفهومة صادرة عن هذا المتنبي الأمازيغي. فقد كان يمنع أكل البيض ورؤوس الحيوانات. غير أن الجانب الأخلاقي الأساسي لدعوته والذي نعرفه على الأقل، هو طلب المغفرة من الله تعالى. لقد أعلن حاء – ميم النبوة سنة 313 هـ [929 م] وحقق نجاحا باهرا في السنتين المواليتين. لكن سيلقى حتفه مباشرة بعد ذلك في معركته ضد المصامدة.[33]

وحسب الرواية الشعبية، فإن دعوة حاء – ميم لم تتجاوز تراب منطقته. وسيجد كل من عاصم بن جميل وبو الطواجين فيما بعد، الطريق ممهدة للدفاع عن المعتقدات الجديدة، وسط الغماريين، ضد الإسلام الأرثودوكسي.

واليوم، فإن هذه القبيلة الكبيرة الغارقة في دراساتها الإسلامية لم تعد تذكر مارقيها القدامى.[34]

---

[32] حسب كتاب الاستقصا، الجزء الأول، الصفحة 84، السطر الثالث، فإن الصوم في يومي الاثنين والخميس، كان يتوقف عند منتصف النهار.

[33] هناك فارق زمني وبعض الاختلافات بين ابن خلدون وابن أبي زرع، بخصوص ظهور وموت حاء – ميم.

[34] لربما تذكرتهم لتلعنهم بعد ذلك. فقبر "دبو" أخت حاء-ميم مغطى بالحجارة التي يلقيها المارة فوقه. وقد وضعت عليه صخور كبيرة، هي بمثابة مزارات للنساء اللواتي يرغبن في أن يصبحن عرافات أو ساحرات.

وبعد مرور ألف سنة على وفاة هذه المتنبية المزعومة فإنها مازالت تعتبر سيدة المغربيات اللواتي يمارسن أعمال الشعوذة والسحر؛ وهذا انتصار لها بالمقارنة مع مصير أخيها البئيس.

ويحكي لي بعض المغاربة بان قبر "دبو" يوجد ببني حسان [جبالة] وبأن عائلة حاء – ميم تنتمي إلى هذه القبيلة. ويبدو أن الجميع نسي القرآن المزعوم الذي أتى به حاء – ميم. لكن الغماريين يؤكدون بالمقابل بأن بو الطواجين أتى بقرآن أمازيغي وبدأوا يتلون مقاطع منه. والملاحظ أن الكلمات المبهمة التي يتضمنها قد صيغت من طرف فقهاء عرب بغرض السخرية من هذا الكتاب الذي أحرقت آخر نسخة منه منذ مدة طويلة. وأستشهد هنا بمقطع مزعوم لقرآن بو الطواجين جاء فيه : "فاعلم أن السابقين والسابقات برنليقو كنليقو فرحاقيلو شبرنقيلو فرسقيلو تاوفريلو ناورائلو طرفائلو نرنائقو لزرائقو".

ومقابل الظواهر الدينية المتنوعة التي هزت جنبات قبيلة غمارة، انبهر الأهالي بكل حرف من كتاب الله الذي تقدسه كل شعوب العالم الإسلامي.

وليسمح لي ربي بأن أقول، إن عمله المنظم فرض نفسه على الجميع، لأن كل الديانات، بما فيها اليهودية والإسلامية والمسيحية، هي مجرد مراحل متتالية للتطور الروحي للانسانية التي تسير باستمرار نحو التقدم.

ونعود الآن إلى حديثنا عن جبال غمارة والتي نذكر منها بالخصوص، جبل تازران [المنظر الجميل]، ويدعى أيضا جبل الكواكب، لأن قممه العالية تبدو قريبة من النجوم. وتظل الثلوج بهذه القمم حتى مقدم الصيف، وهو ما يعني أنها تتجاوز علو ألفي متر. وتنبع أغلب الأنهار الغمارية من هذا الجبل، كما تهب ريح عاصفية من المحيط الأطلسي، على المنحدرات الغربية، فتميل الأشجار جهة الشرق طبعا. ويعتقد الأهالي بأنها تركع باتجاه مكة، مدينة المسلمين المقدسة. وقد سمعت بعض المغاربة ينطقون تيزران بدل تازران. ويشير القرطاس في الصفحة 296 من الترجمة الفرنسية إلى جبل تيزران الموجود ببلاد غمارة.

كما يقدم كتاب الاستقصا، الجزء الأول، ص . 160، نفس المعلومة ونفس الكلمة "تيزران" التي تشير بطبيعة الحال، إلى جبل تازران الحالي.

[انظر في ما يلي، النبذة التاريخية عن غمارة وتحديدا سنتي 1165 و 1166 الميلاديتين].

نبذة تاريخية عن غمارة

بالنسبة للجغرافيين الأروبيين، فإن أصول غمارة القديمة كانت أمازيغية بكل تأكيد. وفي 63 هـ [682 – 683 م]، تمكن القائد الشهير عقبة بن نافع، في طار حملته الكبيرة على المغرب، من الدخول إلى سبتة وبعدها إلى المناطق الغمارية المأهولة بالساكنة الأمازيغية، حيث بلغ جنوبها. وكيفما كان الأمر، فإن هذا القائد العربي وجد القبيلة الغمارية فوق التراب الذي مازالت تقيم به إلى حد الآن. غير أن حدودها كانت أكثر امتدادا مما هي عليه الآن، حسب ما يقر الإدريسي والبكري. فبالنسبة لهذا الأخير، كانت الحدود الغمارية تمتد جهة

الشرق حتى سهل النكور وبالضبط، حتى المدينة القديمة التي تحمل نفس الاسم والتي كانت تقابل حجرة النكور الريفية المعروفة لدى الاسبان باسم الحسيمة. [35]

وبالغرب تحد غمارة "بكروشات" الواقعة غرب نهر إليان.[36] ويحدد ابن خلدون مساحة أوسع لغمارة، تناهز خمسة أيام مشي من جميع الجهات، أي من البحر الأبيض المتوسط إلى القصر الكبير ومن طنجة إلى باديس. ويتميز أهاليها بالبسالة والشدة، مثل أهالي كتامة وصنهاجة ومصمودة، الذين يعتبرون من أهم أمازيغيي الغرب [المغرب] الأقصى.

كما أن أقسامها كانت تتشكل من القبائل التالية وهي:

بني حامد، مثيوة، بني نال، أرساوا، بني أزروال، مجاقسا وغيرها من القبائل التي طواها النسيان.

ويبدو أن هؤلاء الجبليين الشجعان والكثيري العدد، كانوا يخضعون لجوليان Julien، هذه الشخصية المنافقة التي استطاعت أن تمهد الطريق للجيوش الإسلامية، نحو المغرب وإسبانيا، بتوجيه عساكر عقبة في المرحلة الأولى، نحو القبائل الجنوبية للمغرب الأقصى؛ وتسهيل عملية استيلاء جيوش موسى بن نصير على شبه الجزيرة الإيبيرية في المرحلة الثانية.[37]

ومن سنة 682 م إلى سنة 1898م، ظلت غمارة وفية لأسرة حاكمة واحدة، هي أسرة الأدارسة. وكان اختيارها هذا ناتجا عن قناعة، لأنها رأت فيه خضوعا للسلطة الإلهية في شخص أفراد العائلة الشريفة.

- في سنتي 705 و 706 م، هزم موسى بن نصير الغماريين وحاصر مدينة سبتة.

- سنة 789م، أصبح إدريس بن عبد الله، حفيد الرسول، ملكا على المغرب الأقصى. وستكون قبيلة غمارة من أول المدعمين له وستظل كذلك، حتى نهاية عهد الأدارسة.

---

[35] انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 101 و 109.

[36] هل هو تحريف لاسم قاع سر؟

[37] Cf. Fournel, Les Berbères, tome 1er, Paris, 1875, pp. 170 à 246.

Voir aussi, Dozy, Recherche sur l’histoire de la litterature de l’Espagne pendant le moyen âge, 3ème édition, tome 1èr p. 57et suiv, ainsi que son histoire des musulmans d’Espagne, T. 2, P. 31 et 32.

- سنة 828م، ترك إدريس الثاني لابنه محمد امبراطورية شاسعة، تشمل المغرب الأقصى وتمتد إلى "المينا" جهة الشرق. وقد اتبع محمد نصيحة جدته، فاقتسم المملكة مع إخوته الثمانية.

هكذا، سيسود أخوه عمر على جزء من جبالة وتحديدا على تغيزاس وتارغا والقبائل الصنهاجية والغمارية الأخرى المتواجدة بينهما.

ومن بين المجموعات الصنهاجية القديمة، فإن قبيلة بني بوزرع هي الوحيدة التي ظلت قائمة بغمارة إلى حد الآن. ولربما كانت هي المجموعة الصنهاجية الوحيدة في تلك المنطقة، لأن المسافة بين تيغيزاس وتارغا لم تكن تتجاوز بضع كيلو مترات.

- سنة 921، انتزع ميسلا، القائد العسكري الذي بعثه الخليفة الفاطمي عبيد الله، السلطة من يد الأدارسة، بفاس. وفي نفس السنة، أعاد الأمير الإدريسي، الحسن بن محمد بن الحسن بن ادريس الملقب بالحجام السلطة إلى الأدارسة بالمدينة ذاتها.

- سنة 925 م أزيح الحجام عن العرش من طرف موسى بن أبي العافية الذي استولى على فاس وطرد الأدارسة من مناطق الغرب. "وأبعدوا إلى أن بلغوا قلعة حجرة النسور"[38] ومنها انتقلوا

---

[38] أكد لي رحالة مغربي اسمه الحاج محمد بن عجيبة، وهو طالب جبلي، عمره خمسة وخمسون سنة؛ تجول في كل مناطق المغرب وله ذاكرة شبيهة بذاكرة الدرويش وهو معروف بوهران التي زارها سنة 1898، بانه رأى القلعة الإدريسية الشهيرة المعروفة بحجرة النسور. وقد طلبت منه تحديد الموقع الجغرافي لهذه القلعة القديمة، فكتب لي ما يلي:

"حجرة النسور يعني حجر النسر الذي تكلم عليه ابن خلدون وسائر المؤلفين، مازال الآن في حوز جنان مجبر بين البرانس والدسول وصنهاجة وهي بينهم على رأس جرف عالي يميل للحمورة وهي مخربة، ما بقي فيها سوى الحجر. وكان في السنين الماضية نحو مائة سنة، يسكنها رجل إدريسي اسمه سيدي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن زين العابدين بن ادريس. وكان بنى دار وهذه الدار دابة خربة. ويسمو ذلك الجبل حجرة النسور وفيه قطعان الطريق بزاف والسلام".

بقي أن نعرف هل كان هذا الرجل صادقا في قوله؟ وقد انتهزت الفرصة لمساءلة محمد بن عجيبة حول جبالة والريف، فسرد على مسامعي بدقة كبيرة، وكأنه يراجع خريطة المنطقتين، أهم القرى والأولياء والجبال والأنهار التي سبق أن دونت أسماءها في مفكرتي. وبين لي هذا البحث الذي قمت به في غياب الدرويش الذي كان متواجدا حينها بشرق الجزائر؛ صدقه وصراحته.

وقد اندهش الطالب الجبلي الكبير السن، عندما صححت له بعض المعلومات الخاطئة؛ وعندما رأى بأنني أعرف مثله مناطق عديدة من البلد الذي تجول في ربوعه مدة ثلاثين سنة، حيث كان يقول لي مفتخرا: "ما خليتشي شعبة في الغرب". وهو قول مبالغ فيه، لكنه يعني بالنسبة لهذا الرحالة بأنه قام باكتشاف جبالة والريف، إما كفقيه "مشارط" أو كطالب، فإنه كان يعرف بعض الكلمات الأمازيغية ، بل كان بإمكانه التخاطب بتمازيغث إلى حد ما.

وقد اندهشت لهذا الأمر، لأنها كانت المرة الأولى في حياتي، التي ألتقي فيها عربيا تنازل وتعلم شيئا من الأمازيغية.

وإلى جانب عدة مزايا أخرى، فقد كان هذا الرحالة يتوفر على عيب كبير وهو تعصبه الذي لا مثيله له. فضلا عن أنه لم يكن في مستوى ذكاء ودقة ملاحظة الدرويش، بحيث يمكن اعتباره مجرد ظل له.

وهناك ملاحظة أخيرة، فقد ادعى محمد بن عجيبة، بأن جده تعرف في شبابه على سيدي هدي الذي كان في قمة مجده. وإذا ما صحت هذه المعلومة فسيكون مؤسس زاوية هداوة قد عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

إلى جبال غمارة ومناطق الريف. وظل الغماريون أوفياء لهم وأبانوا عن الاستماتة في دعمهم والدفاع عن قضيتهم؛ مما حذا بالأدارسة إلى تأسيس مملكة جديدة بهذه المنطقة. وقد تقاسموا أجزائها، حيث حصل بني محمد على القسم الأكبر وحصل أبناء عمر على تغيزاس والنكور والريف. انظر ترجمة دوسلان لمؤلف ابن خلدون [Ibn Khaldoun, Hist, des Berbères, Tome 2,, p. 146].

- في سنتي 975 و 976 م، طرد الحسن من الأندلس؛ لأن الاعتناء به وبأسرته كان مكلفا بالنسبة للخليفة الأموي الحكم، فنزل بمصر ويسر الخليفة الفاطمي العزيز، عودته إلى المغرب حيث استقبل بحماس من طرف الأهالي الأمازيغيين [القرطاس، ص. 128] غير أنه سيهزم من طرف القوات الأموية وسيستسلم لها كي لا يقتل. لكن الوزير الأموي موسى بن أبي عامر لم يصادق على الاستسلام؛ فاقتيد الأسير إلى قرطبة حيث تم قتله. [القرطاس وابن خلدون]. هكذا انتهى حكم الأدارسة الذي دام قرابة قرنين من الزمان [من 789 إلى 975م].
وسيتمكن هؤلاء من الحكم فيما بعد، تحت حماية بني حمود وسادوا على طنجة وسبتة وبعض المناطق الغمارية التي ظلت وفية لهم.[39]

- سنة 1078م، احتل يوسف بن تاشفين غمارة التي ظلت وفية للأدارسة واستولى على قلعة الودان. فهل ستكون هي داروتان التي سبق أن تحدثنا عنا؟

- سنة 1083 م انهار حكم الحموديين الأدارسة وقبلت غمارة الخضوع للمرابطين.

- في سنتي 1165 و 1166 م، قاد سبع بن منرفض الذي دعاه مترجم "القرطاس" يوسف بن منقفذ، ثورة ضد هيمنة الموحدين على جبل تازران بقبيلة غمارة. وانضمت إليه كل أقسام هذه الأخيرة، كما انتشرت الثورة عند جيرانها الصنهاجيين وتم إرسال القائد الموحدي أبي حفص الهنطاطي لإخمادها؛ لكنها على العكس من ذلك، امتدت بشكل خطير، مما دفع السلطان يوسف بن عبد المومن إلى الانتقال شخصيا إلى ساحة المعارك.

[39] ابن خلدون، الجزء الثاني من الترجمة الفرنسية المذكورة، ص152. ومن بين الأمازيغيين الذين عبروا المضيق إلى الأندلس للخدمة تحت راية الأمويين، نجد حفيدين لعمر ابن إدريس وهما علي والقاسم. وكان أبوهما هو حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عمر بن إدريس. [نفس المرجع، ص .153].

وتم القضاء على الثائرين بعنف وقطع رأس سبع وإرساله إلى فاس. بعد ذلك، عين أخوه السلطان، أبو علي الحسن، عاملا على سبتة وغمارة.

- سنة 1228 م، تمرد المتنبي محمد بن أبي الطواجين بجبالة، وقد هزم وقتل على ضفاف واد لاو.

- سنة 1236م، أرسل السلطان الراشد وزيره مدعما بالعساكر، لجلب الضرائب من قبيلة غمارة.

- سنة 1270م، احتل السلطان المريني أبو يوسف، غمارة التي انحازت إلى ابني عمه موسى ومحمد. واضطر هذان الأخيران إلى الاستسلام بعد أن تحصنا في قلعة الودان.

- سنة 1275م، ساهمت غمارة في حملة المسلمين ضد الاسبان والتي قادها أبو يوسف لمناصرة أمير غرناطة محمد الذي كان وضعه ميؤوسا منه.

- سنة 1304م، ساندت غمارة تمرد عثمان بن أبي العلا، على السلطان المريني أبي يعقوب.

- سنة 1308م، لجأ كل المعارضين المرينيين من داخل العائلة الملكية إلى غمارة، معقل التمرد، لمساندة عثمان بن أبي العلا. وأرسل السلطان المريني أبو ثابت قائدا عسكريا لملاحقتهم، لكنه فشل في مهمته؛ ثم أرسل من فاس قائدا آخر، هو عبد الحق بن عثمان، مدعما بالمليشيا النصرانية فهزم بدوره.

عند ذلك، توجه أبو ثابت شخصيا إلى غمارة، على رأس جيوشه؛ واستولى على قلعتي الودان ودمنات ثم وضع أسس مدينة تطوان، لكي تكون مأوى ومخزنا لأسلحة جيشه الذي حاصر سبتة، حيث كان يتواجد المتمرد عثمان ومناصروه.

وخلف أبو ربيعة سليمان أخاه أبا ثابت وقام برفع الحصار عن سبتة. لكن عثمان فاجأه بالهجوم مما اضطره إلى التحصن بقلعة الودان والانطلاق منها فيما بعد، للقضاء على المتمردين. وقد هرب عثمان إلى الأندلس.

- سنة 1359م، أعلنت غمارة ولاءها للطامح في العرش، المسمى أبو سالم، وهو أخ السلطان أبي عنان، وقامت بتتويجه سلطانا؛ وكان ابن خلدون، مؤرخ البربر، كاتبا خاصا لهذا الأخير.

- سنة 1384 م، دعمت غمارة أيضا، طامحا في العرش اسمه الحسن. وتلقت الجيوش التي أرسلت ضد هؤلاء المتمردين الدائمين ، هزيمة نكراء؛ غير أن وزير السلطان الواثق، أوقع الحسن في كمين ونفاه إلى الأندلس مكبلا .

- سنة 1397م، هجر أهالي تغيزاس مقر سكناهم، للتخلص من طغيان العامل فارح ابن المهدي [الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 146].

- سنة 1481م، خرب حاكم سبتة، فرديناند دومنيث Ferdinand de Menesez، تارغا.

- سنة 1533م، خرب ألفارو دوباصان A. de Baçan تارغا أيضا. وقد أعاد الشريف عبد الله بناءها سنة 1560م وحصنها.

- سنة 1585م، لجأ رجل من العامة، يدعى الحاج قرقوش إلى الجبال الغمارية، وأعلن عن نفسه أميرا للمؤمنين؛ غير أنه لم يتمتع كثيرا بإمارته، حيث ألقي عليه القبض وقتل.

- سنة 1758م، ظهر خمسي مثل قراقوش ويدعى أبو الصخور؛ وقد أثر في الغماريين ودعاهم إلى الثورة على السلطان سيدي محمد بن عبد الله. فقاد هذا الأخير حملة عسكرية على المنطقة، هزم فيها الأهالي وأدخلهم تحت طاعته مرة أخرى وقتل المتمرد الذي حلم بالسلطة.

- في سنتي 1765 و 1766 م، قاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حملة عسكرية على الساحل المتوسطي ومر بتطوان وغمارة. وقد تحدث صاحب الاستقصا عن ذلك، في الجزء الرابع، ص 101، السطر 25 قائلا:

"أخضع العاهل المنطقة برمتها لسلطته، ثم عاد عن طريق تازة" غير أن الزياني، من جهته، بالغ في وصف الحدث [الصفحة 77 من النسخة العربية والصفحة 142 من ترجمة هوداس الفرنسية] حيث قال: "وتمت إبادة كل هذه القبائل".

وعلى ما يبدو، فإن غمارة لم تتعرض للإبادة، ما دامت قد تمردت من جديد، بعد مرور بضع سنوات على "إبادتها" المزعومة.

- سنة 1792م، قام زيطان بثورة في الجبال الغمارية وبجبالة عموما. ونجح مدة ثلاث سنوات، في دحر هجومات الفرق المخزنية ولإيقاف زيطان الرهيب عند حده، عينه السلطان قايدا على الاخماس وأكرمه بالهدايا والأموال.

- في سنتي 1890 و 1891م، قاد الحسن بن محمد أب السلطان الحالي، حملة على غمارة. وتمكن من عبور جبال المنطقة وإذلال كبرياء أهاليها [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 275، السطران 8 و 9].

وعلمنا مؤخرا، بان فصائل من الجيوش المخزنية هاجمت مرة اخرى، هذه القبيلة الكبيرة والمتمردة باستمرار. [40]

ولا أتذكر أني قرأت بأن أهالي غمارة كانوا مسيحيين قبل الفتح الإسلامي لمنطقتهم. وهذا افتراض خاطئ لا يستند على أي أساس تاريخي. ومن جهته فإن ماص لاتري Mas Latrie، لم يشر في مؤلفه الرائع [41] إلى وجود مناجم المعدن بغمارة، أثناء حديثة عن بلدان إفريقيا الشمالية. وتؤكد هذه الثغرة مدى حرص الغماريين على إخفاء ثرواتهم المعدنية.

---

[40] إن حفدة المولى إدريس كثيرون بغمارة، وبكل المناطق الشمالية بالمغرب. وقد أعلنوا تخليهم عن كل طموح سلطوي او سياسي ونذروا أنفسهم لطاعة الله وهم يتمتعون بنفوذ ديني كبير، بسبب أصلهم الشريف.

[41] Commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations Chrétiennes au moyen âge, Paris, in – 12, 1886.

قبيلـــــة البرانـــــص

بعد أن غادر الدرويش غمارة، دخل أراضي الريف وبقي هناك بعض الوقت، ثم عرج على الجنوب الريفي لتطأ قدماه جبالة مرة أخرى وتحديدا قبيلة البرانص. وقد انبهر الرحالة بقرية سيدي أحمد الزروق، الموجودة على رأس تلة والتي يقسمها غدير إلى قسمين محاطين بأشجار البرتقال والزيتون والعنب والرمان. لذلك قرر المكوث فيها بضعة أيام وأقام بالمسجد رفقة خمسين طالبا أجنبيا، حيث كانت تحسن ضيافتهم.

ولم يكن المسجد هو الذي يثير الزوار، بالرغم من صومعته الجميلة، بل كانت زاوية سيدي أحمد الزروق الشهيرة، هي التي تحظى بتبجيل الحشود، خصوصا وأنها كانت تحتوي على أمتعة الولي، في حين أن الأضرحة المتواجدة في مناطق كثيرة خارج المغرب والتي تحيى فيها ذكراه، خصوصا ببني إيدل [مركز أقبو، الجزائر] وبليبيا الخ.. لم يكن فيها شيء من ذخائره.[1]

تقع البرانص في الركن en coignure الشرقي لجبالة بين الجبال الريفية وسهول الدهرة وفاس. وهي مغطاة بالأدغال، لكن ليس بحجم غابات الريف.

وتتقلص التلال من الشمال إلى الجنوب، بحيث تلتقي في نقطة محددة مع الأراضي المنخفضة لأولاد بكار وللحياينة. وتكثر بها شجيرات الدوم والصبار، وهو ما يسمح للأهالي بزرع حقول شاسعة بالقمح والشعير. وحول المساكن المنحنية والمغطاة بالدوم، يتم زرع الخضراوات والفول أساسا، لكن الثروة الكبيرة للقبيلة توجد تحت الأرض، في الهضاب الكلسية [تافزة] التي تسمح باستخلاص الجير الجيد الذي يصدر إلى تازة.

وبسوق الاثنين، تباع كل منتوجات المنطقة، مثل الشعير والقمح والزبيب والفواكه والدجاج والمواشي. وتتجول النساء بداخله سافرات، في حين يتجول الرجال بأسلحتهم التي تشمل البنادق التاغزوتية والخناجر والسيوف؛ والتي تستعمل للهجوم أو للدفاع عن النفس، لأن في هذه المنطقة كما في ا لريف، تسود الفوضى وتعرض حياة الانسان للخطر باستمرار.

---

[1] يخطيء البرانص بهذا الخصوص، فوليهم مدفون بليبيا. انظر فيما بعد، النبذة التاريخية عن البرانص وتحديدا سنة 1493م.

وبالرغم من كون العادات بهذه القبيلة ليست طهرانية تماما، إلا أنها لم تبلغ حد التهتك الملاحظ بالمناطق الجبلية الأخرى. فالقبيلة ورعة، إن لم نقل متعصبة؛ وهي غير مرحة وتقدر أولياءها بشكل كبير؛ كما تقتصر على الدراسات القرآنية التي لم تتغير على مدى قرون عديدة. وتسود الأفكار الخرافية بشكل كبير وسط الأهالي، مثل الإيمان بالسحر وقراءة الطالع وبيض الدجاج الفاسد الذي يحيي على ما يبدو الرجولة الميتة؛ وآلاف الخزعبلات المتفاوتة في غرابتها والتي تبين إلى أي حد وصل تخلف هؤلاء الأهالي. فيا لسوء حظ هذه القبيلة الأمازيغية التي تعربت كلية والتي لم يفدها تبني لغة وعادات ومذهب المنتصرين في شيء. والظاهر أنها اشتهرت في هذا الركن المعزول بالمغرب ببلادتها. وتحكي الألسن الخبيثة عن ابن القبيلة الذي ذاع صيت غباوته والذي ذهب إلى السوق واضعا ريشة ديك بعمامته. وإليكم الحكاية:

- الغبي صاحب ريشة الديك:

خاطب الغبي نفسه قائلا، بعد أن وضع الريشة فوق عمامته:

- بهذه الطريقة، لن أتيه وسط الحشود، وسأجد نفسي دائما.

وبعد أن ربط عجله بجانب العجول الأخرى ، تجول وسط القرويين. ورآه أحد السفلة وقال:

- هذه ضحية ساقها القدر إلي.

ووضع هو أيضا ريشة ديك فوق رأسه ووقف أمام الغبي. فاندهش هذا الأخير، معتقدا بانه والوغد، نفس الشخص؛ فخاطبه ظانا بانه يخاطب نفسه:

- يا ودي أنا أنت

فأجابه الآخر:

- نعم، أنا أنت.

وتساءل الغبي البريء:

- هل ربطت عجلي مع العجول الأخرى؟

فأجاب السافل:

- لقد ربطت عجلي مع العجول الأخرى.

ورجع بعد ذلك على عقبيه واندس وسط الحشود. وبإمكاننا أن نخمن أين ذهب. فقد سارع إلى العجل وحل رباطه، ثم باعه. وبعد ساعة من التجوال، تذكر الغبي عجله فذهب لأخذه، لكنه لم يجده؛ وبدأ يصرخ بكل قواه:

- أنا، أنا، أنا.

وعندما سأله الناس لماذا يصرخ بهذا الشكل، أجابهم:

- قبل قليل كنت هنا، والآن لم أجد نفسي. وأنا أنادي على نفسي لكي أجدها أو لكي أعرف ما الذي حصل لعجلي.

وكان اللص الذي أزال ريشة الديك طبعا، واقفا بجانب المتهكمين؛ وكان يضحك ملء شدقيه من غباوة الرجل.

وعاد هذا الأخير إلى منزله وهو يردد طوال الطريق، الله ينعل أنا، أنا اللي كان مهني ومشا يفتش على البلا.

وبعودتنا إلى البرانص، نشير إلى توفرها على العيون والجداول الكثيرة. وسنتحدث فيما بعد عن واد مكناسة الذي يقطعها انطلاقا من منبعه بالحدود الشرقية لقسم الزرارقة.

وقد عبر الدرويش البرانص من كل الجهات، لكنه لم يفكر أبدا في كتابة بعض الملاحظات حول تجاربه في الحياة؛ ومن الطبيعي أن تشوب ذاكرته بعض النواقص. لكن، من منا سيجرؤ على مؤاخذته؟

لذلك سنمر إلى القبيلة الموالية، مكتفيين بالمعلومات الهزيلة التي قدمها لنا.

القرى الرئيسية بالبرانص

قسم الزرارقة

- وييد بن علي، 50 منزلا، على الضفة اليسرى لواد مكناسة الذي يسمى في هذه المنطقة وييد بن علي.
- أسول [الصرخة]، التسمية عربية وأمازيغية، 100 منزل.
- سيدي أحمد الزروق، 300 منزل.
- القوى العسكرية: 3 آلاف من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 21 ألف نسمة.

نبــذة تاريخية عن البرانص

هذه القبيلة هي من بقايا عائلتين كبيرتين، شكلتا القومية الأمازيغية وهما البطر والبرانص. ويقول ابن خلدون في الجزء الأول من تاريخه [ص. 275 من الترجمة الفرنسية]، إنه خلال الفتح الإسلامي كانت كل القبائل المنحدرة من البرانص، تسكن بإقليم طرابلس وبجزء من تراب باركا المجاور له.

في أية فترة غادر البرانص الشرق للإقامة بالمغرب الأقصى؟ إن التاريخ لا يمدنا بأية معلومة حول هذه المسألة.

- سنة 1493م، توفي الولي أبو العباس أحمد البرنوصي المعروف باسم الزروق بمسراطا [ليبيا] (الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 151، السطر 35). وسيدي أحمد الزروق هو مؤسس الطريقة الزروقية، كفرع من فروع الشاذلية.

[انظر بهذا الخصوص مؤلف Rinn, Marabouts et Khouan, p. 39 et 270 . ويجب الاحتياط من الأخطاء المطبعية المتعلقة بالتسلسل الزمني في الصفحتين 269 و 270.]

- سنة 1525، ساندت قبيلة البرانص الناصر بن الغالب بالله الذي تمرد على عمه السلطان أبي العباس المنصور. [الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 72، السطر 15].

قبيلـــة أولاد بكـــار

سنودع الآن الجبال المخضرة بالوسط والشمال. فهنا لا توجد سوى التلال العارية، القبيحة والمتكلسة بفعل أشعة الشمس الحارقة. وبقمم هذه التلال، توجد دواوير بئيسة تتعرض باستمرار لغزوات هوارة الدهرة. ولسوء الحظ، فإن الأرض الجذباء لا تنتج شيئا تقريبا. لذلك تعين تجزيء بعض القطع الأرضية الصغيرة بسهل الفحامة الشاسع، لزرع حقول الشعير بجوار المزارع الكبرى لغياثة ومكناسة وهوارة.

وبجنوب الفحامة، تبدو قفار تفراطا، حيث لا تنمو المزروعات نظرا لندرة الأمطار في فصل الشتاء؛ ولا ترى العين سوى بعض الأعشاب والشجيرات وخصوصا شجيرات التوت الوحشي المتواجدة بكثرة في هذه الأراضي المنخفضة والمقفرة.

ـ واد سبو وروافده الرئيسية:

يعبر واد البرانص أولاد بكار؛ وعند خروجه من القبيلة يلتقي بواد مسون الآتي من هوارة. وهنا يصبح مجرى هذا الأخير قويا، فيخترق تراب مكناسة التي يأخذ اسمها ثم يمر بتازة حيث يصبح اسمه واد تازة؛ ويجري بعد ذلك ما بين غياثة والحياينة، ليتحول إلى واد يناون عند التقائه بواد بوزملان وواد بني وراين.

وعند حدود شراڭة، يلتقي بواد سبو[1] هذا النهر العظيم الذي يتلقى وسط قبيلة شراڭة مياه واد اللبن القادمة من الدسول.

ويلتقي واد ورغة الهام أيضا بواد سبو، عند مدخل أولاد عيسى. بعد ذلك، يخترق هذا الأخير قبائل الغرب وبني حسان ليأخذ اسم واد مهدية. وسيحتفظ بهذه التسمية حتى وصوله إلى هذه المدينة، حيث يصب في المحيط الأطلسي.

لنعد الآن إلى أولاد بكار. فهذه القبيلة العربية توجد وراء الجبال الشرقية لجبالة قرب قبائل الدهرة التي يشتهر أهاليها بقطع الطريق. وهناك ثلاث قرى معروفة وهي: قرية سيدي يعقوب، التي تمتلئ زاويتها بالطلبة البؤساء وقرية أولاد سيدي الشيخ، هذا الولي الذي تحيط

---

[1] تارة أكتب Çbou (صبو) وتارة أخرى Sbou(سبو) لأن المغاربة على ما يبدو لي غير متفقين على طريقة نطق الكلمة.

به المساكن؛ وقرية الكدية ذات المساكن العشرة. ويقتات الأهالي الفقراء بالخرشف أو القنارية الوحشية ويصطادون الجرابيع والغزلان التي تجوب ربوع الفحامة وتافراطا.
ولا تكفي الأعداد القليلة من الجمال والعجول والخرفان لإشباع بطون هؤلاء البؤساء. لذلك، فهم يبحثون باستمرار عن الحلزون والجراد الصحراوي الذي يتم شيه والتهامه بلذة وكأنه منة سماوية mane céleste. أما الكلاب، فهي أسوأ ما يوجد في المنطقة. فنظرا لجوعها الدائم، فهي تشتم رائحة الفارس الغريب وجواده من بعيد وتهاجم أرجل هذا الأخير حتى يسقط أرضا وتقوم بافتراسه. ويفتخر البدو بهذه الجرأة ويقولون ضاحكين:
- انظروا إلى قوة كلابنا.
وهناك عادة فريدة لدى الأهالي؛ فحينما تلد الكلبة، يحرقون حواجب الجراء يوم الأحد قائلين: "كحلناك نهار الأحد ما تعقل أحد".

- عبر سهوب الدهرة:

في ظهيرة أحد الأيام، كاد الرحالة أن يقطع إربا من طرف مجموعة من الكلاب، عند ضواحي قرية أولاد سيدي يعقوب. واضطر البئيس المرعوب إلى الاختباء وسط حقل مزروع بالشعير، به فزاعات مليئة بالقش تتخذ هيئة بشرية برأس حمار، لتخويف العصافير. ورغم ذلك، تبعته الكلاب وشرعت في تمزيق جلابته. ولحسن حظه ظهر راع ممتطيا حصانا وحاملا بندقيته؛ فخلصه من أنياب ذلك القطيع الهائج وسأله بالمناسبة، هل يحمل معه نقودا؟ وحينما أجابه محمد بالنفي، قام بتفتيشه، فوجد سبعة أو ثمانية سنتيمات من العملة المغربية وورقة مكتوبة، اعتقد ذلك الفظ بأنها تتضمن رموزا سحرية لاكتشاف الكنوز. فخاطب الدرويش قائلا:
- سترافقني إلى مسكني، لأنه يوجد بدوارنا كنز مخفي منذ عهد بني مرين. سنبحث عليه خلال الليل وسأعطيك نصفه إذا ما وجدناه.
ولما أخبره الدرويش بانه لا يعرف كيفية اكتشاف الكنوز، ضربه الراعي بالعصا على رأسه، قائلا إنه في حاجة ماسة إلى المال وأضاف بانه لا يقبل بأن يكون عرضة للسخرية.
فقرر محمد التخلص من ذلك الرجل الهائج وخاطبه قائلا:
- إذا أعطيتني الورقة، فإنني سأجد الكنز الذي تحدثت عنه.

فركب الراعي حصانه وكلف راعيا آخر بالاعتناء بقطيعه وأردف الدرويش وراءه، ثم قصدا وجهة مجهولة. وكان هذا الأخير يسأله بين الفينة والأخرى، هل مازالت المسافة بعيدة؟ فكان الراعي يجيبه دون أن يتوقف:

- وصلنا، وصلنا.

لقد كانت الانطلاقة حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال واستمر قطع المسافات فوق صهوة الحصان حتى الفجر. وكان الرجلان قد قطعا جزءا كبيرا من سهل الفحامة مارين بسرعة على الدواوير المتواجدة هنا وهناك ومتفادين شجيرات التوت الوحشي الشائكة. وعند شروق الشمس وصلا إلى قصبة مسون وسط قبيلة هوارة. وقضى الرحالة اليوم كله، في ضيافة الراعي، بعد سفره المتعب.

وفي الصباح، طلب من رفيقه إحضار بعض العقاقير الضرورية لعمليات "التعزيم"؛ ثم خرج الرجلان معا. وعند مدخل أحد الأحياء، التقى الدرويش بقاضي هوارة، سي علي بن المختار، صديقه القديم الذي دعاه إلى منزله بدون مقدمات. وظل الراعي مشدوها ومتسمرا في مكانه، غير قادر على الكلام. وكان من الممكن ان يواجه الأسوأ، لو وشى به محمد لقايد هوارة علي الأحمر الذي التقى به بمنزل القاضي.

وبعد فترة، رجع محمد إلى أولاد بكار؛ ونظرا لكون أهالي القبيلة لا يرحبون بالطلبة، فإنه غادرها صوب هوارة الأحلاف [الدهرة]، حيث اشتغل كمعلم "مشارط"، مقابل الأكل والمبيت بمدرسة الدوار وأجرة قدرها 250 فرنكا في السنة. لكنه لم يطق المكوث طويلا، فرافق قافلة من التجار الورعين القاصدين مكناسة لبيع الصوف والزبدة والمتوجهين بعد ذلك إلى زاوية سيدي علي بن داوود بقبيلة مرنيسة لشراء التين والزبيب، قبل العودة إلى ديارهم.

وكانت القافلة تتحرك نهارا وتخيم في الليل. وبعد أن قطعت سهل هوارة، تذكر محمد وهو بتراب أولاد بكار، نعليه اللذين نسيهما في المحطة الأخيرة من السفر. فرجع إلى ذلك المكان، لكنه لم يجد سوى شجيرات التوت الوحشي؛ وتعرض للسرقة من طرف قطاع طرق بكاريين، غير بعيد عن مكناسة. والتحق بالقافلة وهو شبه عار، فمنح ملابس أخرى وتم توديعه عند مدخل مكناسة التي سيغادرها في يوم شتوي، بعد أن قضى بها يومين. وفاجأه الظلام وسط سهل أولاد بكار، قبيلة قطاع الطرق؛ ولحسن حظه، رأى سقف منزل من بعيد،

فتوجه صوبه ووقف بباب الدار وهناك، كان رجل وامرأة يتناولان حساء سميد الشعير [الدشيش] وبينهم نار مشتعلة. فخاطبهما الدرويش بصوت ضعيف قائلا :

- ضيف ربي

وكان الرد فوريا :

مرحبا بك.

وبينما فرشت المرأة حصيرة من الحلفة، تمدد عليها محمد، قام الرجل وذبح دجاجة كتعبير عن حسن الضيافة.

عملية ابتزاز وإخفاء للمسروقات :

بعد العشاء، انزوى محمد في ركن بالغرفة، بينما نام الزوجان في الركن الآخر. وطوال الليل، سمع الرحالة دقات بالباب ووقع حوافر حيوانات يتم إخفاؤها بالمغاور المجاورة وخروج الرجل مرات متتالية؛ وقد أثاره ذلك فلم يغمض له جفن.

وفي الصباح استفسر مضيفه حول ما حدث، فأجابه السافل صراحة :

-يا عزيزي أنا " كمان" [أخفي المسروقات] وأنا معروف بالمنطقة. فمن تازة إلى فاس، يأتي شركائي بمسروقاتهم وبدوري أقدمها لشركاء آخرين، مهمتهم هي بيع المواشي المسروقة بالأسواق البعيدة. وأحتفظ من جراء ذلك، بنصف المبالغ المحصلة. فأنا رئيس العصابة، وعندما أريد سلب أو قتل أحد ما، حتى ولو كان بالمدينة، فإنني أكلف فردا من عصابتي للقيام بذلك. وفسر له طريقته المنظمة في ابتزاز الآخرين وتعرف بالبشارة وهي فدية يؤديها مالك الحيوان المسروقة لبشار أتاه ببشارة اكتشاف مكان الحيوان المختفي. ووصل به الأمر إلى مدح هذا الاستعمال في البلدان الإسلامية، معتبرا بأن من يتعرض للسرقة، لا يخسر سوى نصف ما سرق منه !

ولأن مخاطبه رجل مسكين ووديع، فإنه أسر له بحقائق أخرى قائلا :

-إن المرأة التي تعيش معي، كانت مومسا بفاس وتبعتني إلى هنا. وقد جئت في الوقت المناسب، فعليك حراستها أثناء غيابي، لأنها تريد الهروب وحذاري إذا قمت بمغازلتها.

وقد امتعض الدرويش من تبجح مضيفه متسائلا عن أهداف هذا الشخص المريب. وفي المساء أسرت له المرأة بالحقيقة. فأثناء وجود عشيقها بالخارج، قالت للرحالة :

- لنهرب معا إلى تازة وهناك يمكنك أن تتزوجني فقد قتل هذا الرجل عشرة من حراسي؛ وهو يقوم بذلك عندما يشك في ارتباط أحدهم بي.

فأجاب محمد ببساطة :

- طيب

وعندما دخل الرجل الذي يخفي المسروقات، خاطبه محمد هامسا في أذنيه :

-ياعزيزي، قدمني إلى شركائك، فإنني سأصنع لهم أحجبة تجعلهم يختفون عن الأعين، أنذاك يمكنهم أن يضاعفوا المسروقات دون خوف. ولأن السافل كان يؤمن بالخرافات، فقد انطلت عليه الحيلة؛ فاستصحب معه الدرويش إلى بني فراسن بالدسول. وهناك نجح صاحبنا في التخلص من مضيفه واختفى وسط الحشود.

القرى الرئيسية بأولاد بكار

-الكدية، 100 منزل

- زاولة أولاد سيدي الشيخ، 10 منزل

- أولاد سيدي يعقوب، 50 منزلا

وهناك العديد من القرى الأخرى.

-القوى العسكرية: 800 فارس؛ العدد المحتمل للسكان : 5600 نسمة.

قبيلـــة مرنيســـــة

تتوفر مرنيسة الواقعة بالحدود الشرقية لجبالة والمتاخمة للريف الجنوبي، على جبال غير شاهقة وغابوية ومليئة بالبساتين. ويأتي إليها عرب الدهرة الرحل، باحثين عن الفواكه التي أنتجتها هذه الأراضي الخصبة، وخصوصا التين والسفرجل والعنب والرمان والتفاح، حيث يقايضونها في سوق الخميس قرب تافراوت، بصوف خرافهم. وتوجد بالسوق أيضا، العجول والماعز التي يشترونها لتقديمها كقرابين لأولياء المنطقة. وعلى بعد 500 متر من السوق، هناك مكان مخصوص للتاجرات المرنيسيات اللواتي لا يتعاملن إلا مع النساء، لأنه يمنع على الرجال دخول ذلك المكان.

وتبيع النساء الدجاج والبيض والصوف المغزول والديوك المخصية Coqs chapponés. أما الأسعار فهي رخيصة بشكل لا يصدق. فالدجاجة تباع بعشرة أو عشرين سنتيما؛ وتباع اثنتي عشرة بيضة بقرش. ولا يأتي الباعة اليهود المتجولون إلى سوق الخميس، مثلما لا يأتون إلى صنهاجة لذلك يتداول الأهالي فيما بينهم هذه القولة:

-مرنيسة مبروكة منين ما طعنوهاشي اليهود، باقي عليها ستر الله وقاس فيهم الخير.

الملابس والأطعمة :

إن ملابس الرجال هي الملابس الوطنية للجبليين، فالرجل يرتدي جلابة سوداء قصيرة ويسير عاري الرأس وينتعل "البلغة" " الفاسية ويحمل البندقية التاغزوتية.

أما النساء فهن غير محجبات ويقمن بزراعة الحقول والبساتين ويشاركن الرجال في الأعمال الشاقة. وسلوك الأهالي أخلاقي لا غبار عليه بشكل عام؛ لأنهم مجدون في عملهم بسبب قربهم من الريفيين ولأن لهم أصل أمازيغي مشترك، تم نسيانه مع مرور الزمن. وقرى مرنيسة كبيرة وكثيرة، كما أن منازلها مبنية بشكل جيد، وهي لا تتعدى الطابق الأرضي؛ ويسكنها خياطون مهرة، يجيدون صنع الحايك والجلابة الخفيفة، في حين تصنع الملابس الصوفية الثقيلة، شمال المنطقة بسبب البرد.

ويسمح اعتدال الطقس جنوب الجبال الكتامية والغمارية بنمو أشجار الزيتون على طول منطقة جبالة الجنوبية. ومن مرنيسة إلى وزان، توجد غابات كاملة من هذه الشجرة الثمينة،

بحيث تحتل مساحات شاسعة. وسنرى كيف أن قساوة وهفوات البشر، تؤدي إلى إتلاف ملكة الأشجار هاته التي تستغرق مدة طويلة كي تنمو.

ولأن الزيت رخيصة الثمن، فإن الأهالي لا يهتمون بالسمن الجيد الذي يجلبه الرحل معهم داخل الجرات، بعد أن يجوبوا السهوب الحارقة للدهرة. وسبق لي أن قلت إن الكسكس المصنوع من دقيق القمح نادر لدى القبائل الأمازيغية التي تعربت بشمال المغرب. وباستثناء العائلات الميسورة التي يشكل اللحم المطبوخ غذاءها الأساسي، فإن البيصار هو الأكلة الوطنية لدى الجبليين المغاربة. وهو عبارة عن طعام يتكون من سميد الشعير المخلوط بالفول المسلوق بالماء والذي يضاف إليه الثوم والزيت.

إن كسكس القمح والشعير، غير المعروف بالشرق، هو الأكلة المفضلة لدى مسلمي إفريقيا الشمالية. وقد شكل على الأرجح، الغذاء الأساسي لأمازيغيي ما قبل التاريخ، وأخذ العرب الذين فتحوا البلد، عنهم هذه الأكلة اللذيذة والصحية التي تعتبر نموذجا لفن الطبخ.

وبمرنيسة، يهيأ زيتون المائدة بشكل أصيل، حيث يتم شقه ووضعه داخل إناء ويمزج بقطع الليمون، ثم يسكب عليه الماء والزيت ويستعمل في كل الأطعمة المتميزة بالبلد. وغالبا ما يؤكل وحده بالخبز؛ لكن أي خبز هذا ! فهو صلب مثل فطيرة الجندي. وهذا أمر طبيعي، إذ لا يخبز إلا مرة في الشهر، بحيث يوضع العجين المدور داخل فرن صغير ودائري من الطين، لا يتجاوز طوله وحجمه مترا ونصف.

لقد كانت أول محطة بالنسبة لمحمد بن الطيب في أرض مرنيسة الخصبة، هي قرية سيدي علي بن داوود بقسم أولاد إبراهيم. وحط رحاله بضريح هذا الولي الذي يحظى بزيارات مستمرة للأهالي، من مختلف المناطق الجبلية. وتذبح فيه حوالي عشرة عجول، دون أن نحصي الماعز والدجاج.

ويعتبر هذا الولي قطبا وأصله من الرباط، حيث يوجد حفدته وهم أولاد سيدي داوود، بالحي المسمى لعلو. من جهة أخرى، فهو الذي يحمي سوق الخميس ببركته، لذلك يقتطع الطلبة جزءا من البضائع التي تباع بالسوق. ويستجيب التجار فورا لهذه العملية خوفا من سخط الولي؛ بل إنهم يضيفون المزيد على القدر المطلوب. وهو ما يفسر أهمية هؤلاء الطلبة داخل

السوق، حيث لا يكتفون بهذا العمل الغريب، بل يمارسون لعبة الكرة ويتغاضون عن تواجد هداوة الذين يتجولون جماعات في كل المناطق الغنية والخصبة.

ويمارس فقراء وأميو القبيلة التجارة المتنقلة؛ وكباعة متجولين بمناطق عرب الدهرة فإنهم يحملون على أكتافهم أو على ظهور دوابهم، الفواكه اليابسة المتنوعة أو المغازل التي يقايضونها بالقمح والصوف؛ لأن بلدتهم الغنية بالماعز والعجول، لا تتوفر، كما هو الشأن بالنسبة لأغلبية المناطق الجبلية، إلا على عدد ضئيل من الخراف.

زيارة الأماكن المقدسة :

سبق ان تطرقنا للجولات الإحسانية [النزاهة] التي تتم في كل مكان تقريبا. ويتعين أن نقول بضع كلمات عن الحج إلى مكة ومناسكه. فالأغنياء باستطاعتهم الحج، بما يتوفرون عليه من أموال، لكن الفقراء لا يمكنهم القيام بسفر طويل ومكلف دون مساعدة الآخرين.

ولتجاوز هذه الصعوبة، تم اتباع نفس طريقة الطلبة المعروفة بالنزاهة. هكذا يتفق الأشخاص الراغبون في الحج على الالتحاق في يوم معلوم، بمكان محدد؛ ويستصحبون معهم جوقة موسيقية وداعيا فصيحا؛ ويبدؤون تجوالهم، حاملين أعلام أحد الأضرحة الشهيرة ومتوقفين عند كل قرية، حيث يقيمون الحفلات ويتلقون مقابل ذلك، صدقات وهدايا الأهالي، إلى أن يتمكنوا من جمع الأموال الضرورية لتطبيق الركن الخامس من أركان الإسلام. وبهذه الطريقة، تنقل السفن الإنجليزية كل سنة، مجموعة كبيرة من المؤمنين المتوجهين إلى السواحل البعيدة، بشبه الجزيرة العربية.

أما الزيارات المحلية فهي عديدة وتشكل إلى حد ما، تعويضا عن الحج إلى مكة المكرمة. وقد لاحظت بأن لكل منطقة طقوسها الخاصة المتعلقة بأوليائها؛ وتتبعت ذلك بانتظام في كل قبيلة، حتى لا أتيه وسط العدد اللامتناهي من الاولياء والصلحاء والسادة والشرفاء والمتعصبين الآخرين الذين تعج بهم ساحة هذا "الضريح العظيم" الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء؛ ومن الجزائر إلى المحيط الأطلسي.

وفي خريف كل سنة، يتم الإعلان في أسواق جبالة، عن زيارة الأولياء والأضرحة، قبل أيام من الموسم. وتنطلق جماعات كبيرة من 200 إلى 300 شخص، رجالا ونساء وأطفالا، متجهة صوب جبل مولاي عبد السلام [بني عروس] أو صوب ضريح مولاي بوشتى

بفشتالة. ويأتي الموكب الرئيسي من الجنوب الشرقي، لزيارة ولي مرنيسة سيدي علي بن داوود.

ويرتدي كل الزوار ملابس رثة، وهم غير مسلحين إلا من عصا يتكؤون عليها؛ ويحملون معهم بعض المال لشراء المواشي التي سيتم ذبحها في عين المكان. لكن، عندما يكون الضريح داخل القبيلة أو بجوارها ولا يكون هناك أي خطر لهجوم محتمل، يأتي الناس بشكل احتفالي، مرتدين أحسن ملابسهم ومصطحبين معهم الأجواق الموسيقية والرايات ومطلقين عيارات نارية وحاملين معهم المواشي التي ستقدم كقرابين.

كيف أصبح سالم الخلاسي عبدا :

معلوم أن الجبليين لا يقتنون العبيد إلا نادرا، لكن إذا سمحت الظروف باقتناء واحد مجانا، فإنهم يتهافتون على ذلك.

ففي قرية بوهدي، كان للدرويش تلميذ وصديق خلاسي يدعى سالم. وكان طالبا مجدا وذا بنية قوية، بحيث كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويؤدب كل من سولت له نفسه الاعتداء عليه. لكن الرغبة في السفر ستكون وبالا عليه. فقد أراد محاكاة معلمه والتجول معه في العديد من المناطق والعيش على حسابه.

وفي يوم من الأيام، غادر الجوالان قرية بوهدي واتجها صوب سوق الخميس للالتقاء ببعض الأشخاص القاصدين إلى قبيلة أخرى. واعترض طريقهما خمسة لصوص، تم اختطفوا مرافقه سالم رغم صراخ محمد والتظاهر بأن هذا الاخير عبده. لكن الأوغاد الخمسة تهيؤوا لتقييد الدرويش بشجرة كي يهدأ، حينها أقسم أمامهم بحق سيدي علي بن داوود على أن الخلاسي ليس عبدا في ملكه وأنه لا يهمه ما سيقع له. ورغم هذا السلوك غير النبيل، فقد اضطر إلى إعطائهم كل ما يملك أي ملابسه ولوحته وكتبه؛ وتابع إثر ذلك، طريقه باتجاه سوق الخميس وهو شبه عار. وعند وصوله إلى السوق، أثار انتباهه وجود سالم البئيس وسط المواشي؛ وكان أحد قطاع الطرق الخمسة يمسك بيده مناديا.

- يا من بغى يشري العبد.

وفعلا اشتراه صنهاجي بمبلغ 125 فرنكا.

وبعد مرور ثلاث سنوات التقى الدرويش بعين مديونة، شخصا مرحا، سلم عليه بحفاوة قائلا:

-آش خبارك يا سي محمد ؟

ولم يعرف محمد مخاطبه الذي ذكره بأنه سالم وأردف معاتبا :

-كيف لم تعرفني ؟ لقد كنا معا بمرنيسة.

وأخبره بأن سيده الصنهاجي ترك له الاختيار بين أمرين، عندما علم بأنه طالب؛ فإما أن يشتغل أو يتابع دراسته. فاختار الخلاسي الدراسة طبعا. وختم قائلا :

-يتلخص كل عملي في إشعال مصباح سيدي وجلب الماء من العين.

القرى الرئيسية بمرنيسة [المشوشون] – التسمية أمازيغية

- قسم تافراوت –

- تافراوت [الجناح الصغير]، التسمية أمازيغية، 500 منزل؛ وبها "جامعة" صغيرة. وخلال تواجد محمد بن الطيب بها، كان هناك عالم كبير، يسمى الفقيه ابن الطاهر، يدرس بها الفقه والنحو.

قسم الخميس

- الدلم [أو السنديان]، 500 منزل على واد ورغة.
- سوق الخميس.

قسم سيدي علي بن داوود

- بوهدي، 400 منزل
- سيدي علي بن داوود، 100 منزل. ولا يجب أن نخلط بينه وبين ولي بنفس الإسم بأولاد إبراهيم.
- خندق أسلان [خندق المخطوبين]، التسمية عربية وأمازيغية، 500 منزل.

قسم أولاد إبراهيم

- سيدي علي بن داوود، 300 منزل؛ وهو سيد مرنيسة العظيم ويحظى بزيارات عديدة[1]. وتأتي النساء يوم الجمعة، وهو يوم السوق، لزيارة الضريح.

[1] توفي سيد مرنيسة أبو الحسن علي بن داوود المرنيسي سنة 1025 هـ [1616م]. أنظر كتاب صفوة الأنفاس لمحمد الصغير بن محمد بن عبد الله الإفراني المراكشي؛ المطبعة الحجرية بفاس؛ ويشمل الكتاب أكثر من 294 صفحة.

- فرتون [الزنى]، 20 منزلا، بالقرب من قبة الولي سيدي مسعود.

وهناك عدة قرى أخرى لم يتم التعرف عليها.

- القوى العسكرية : 4 آلاف رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 28 ألف نسمة.

نبذة تاريخية عن مرنيسة

هي فرع من قبيلة أمازيغية كبيرة بليبيا، تسمى نفزاوة. وقد ذكرت مرنيسة سنة 91 هجرية، باعتبارها مجاورة لتراب النكور [ابن خلدون، تاريخ البربر، الجزء الأول، ص. 171 والجزء الثاني، ص. 137 من الترجمة الفرنسية].

غير أن هذا المؤرخ الشهير الغارق في معلوماته الإثنوغرافية الكثيرة، نسي هذا المعطى الجغرافي الهام، الذي مازال صحيحا إلى يومنا هذا، حيث عبر في الجزء الأول من كتابه المذكور، ص. 230 عن فكرة مدهشة، مفادها أننا لا نعرف لمرنيسة مستقرا وان ذريتهم تعيش متفرقة بين القبائل العربية الإفريقية.

قبيلة بني ونجل

وهي قبيلة غمارية صغيرة، متواجدة وسط القبائل الصنهاجية المعادية لها؛ لذلك فهي تدافع عن استقلالها بحزم الضعفاء اليائسين والمهزومين. وبقرية الهجار، عاين الدرويش مشهدا مؤثرا. فقد كانت أشجار الزيتون محروقة ومقطوعة بشكل شنيع؛ وكان الفاعلون هم أهالي اولاد بوسلامة الذين تمكنوا بمساعدة القبائل الصنهاجية الأخرى، من هزم بني ونجل وإحراق كل شيء في طريقهم وخصوصا أشجار الزيتون؛ معبرين عن وحشيتهم وقساوتهم غير المسؤولة.

وأمام حرب الإبادة هاته، قام أهالي بني وليد ومرنيسة للدفاع عن إخوانهم الغماريين [بني ونجل]. ومن جهتهم، فإن الصنهاجيين ببني أحمد وبني بوشيبث وفناسة، دخلوا المعركة لأخذ الثأر من هزائم سابقة ولوضع حد نهائي لهذا النزاع الدائم. وكانت النتيجة هي التدمير والمجازر في كل مكان، خصوصا بقرية الدلم المرنيسية، حيث فاجأ الصنهاجيون حوالي 100 فرد من بني ونجل داخل المسجد وأبادوهم عن آخرهم. ولم يقف الغماريون مكتوفي الأيدي أمام هذه المجازر، فقد قاموا بحرق حوالي 20شخصا من أولاد بوسلامة داخل قريتهم و 30 آخرين بقرية مجاورة؛ ودمروا قرى أخرى، مثل باب الحيط والعيون. وفي الأخير، استولوا على تراب أولاد بوسلامة برمته. ومنذ ذلك الحين، ظل أبناء هذه القبائل، لاجئين بالقبائل المجاورة، منتظرين الفرصة لطرد الغزاة من أرضهم.

إن أرض بني ونجل جبلية وهي مسقية بشكل جيد ومليئة ببساتين الخضر والفواكه. وأهالي هذه القبيلة موسيقيون [يعزفون على الطبل والمزمار] ويدخنون الكيف بشراهة، كما يأكلون معجون الحشيش. وهم متهتكون وشجعان في نفس الوقت ويحملون معهم بنادق صوانية fusils a silex مصنوعة بتاغزوت. ونظرا لقربهم من صنهاجة فإنهم يتميزون بالمزاج العكر والطبيعة الشريرة لهذا العرق؛ في حين أن الغماريين عموما، متميزون بطيبوبتهم وإن كانوا غير مهذبين في بعض الأمور. ويتدرب أطفال بني ونجل على الألعاب الحربية، حيث نراهم في قرية أيانتور مثلا، يصنعون بنادق خشبية، بفوهات من قصب، ثم يحشونها بشيء من البارود ويشعلونها بأعواد الثقاب.

القرى الرئيسية ببني ونجل [أبناء القصر]

– التسمية عربية وأمازيغية –

- الشرفا، 10 منزال
- الهجار، 50 منزلا
- أيا نتور [الجبهة]، التسمية أمازيغية. وتوجد هذه القرى جميعها على واد ورغة القليل المياه في هذه الناحية.

وهناك حوالي عشرين قرية أخرى غير معروفة.

- القوى العسكرية : 500 جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 3500 نسمة.

نبذة تاريخية عن بني ونجل

هل هناك أصل مشترك بين الونجز، وهي قبيلة أمازيغية منحدرة من تيدغاست وكانت تقيم قديما في الأوراس وبين بني ونجل المغاربة كما أشار إلى ذلك ابن خلدون ؟

إن أسماء الأعلام الأمازيغية، غالبا ما تم تحريفها في نصوص ابن خلدون؛ ومن المحتمل أن يكون الناسخون قد كتبوا حرف الزين بدل حرف اللام؛ وهو الاختلاف الوحيد بين الكلمتين.

قبائل بني بوشيبث وأولاد بوسلامة وبني أحمد

وتوجد جميعها داخل الادغال وبالجبال الشاهقة. وبسبب برودة الطقس، تشعل النار في المواقد، من شهر نوفمبر إلى شهر أبريل. وتتجمد الجداول خلال فصل الشتاء، كما تظل الثلوج فوق القمم، لأشهر عديدة؛ وبذلك تعتبر من أعلى قمم جبالة. ونجد بها غابات رائعة، تشمل أشجار الأرز والسنديان والفلين والدردار، غير المستغلة.وبأعالي هذه الجبال ومنحدراتها، تتكاثر قرى ودواوير معلقة بشكل يصعب تصديقه. لكن قد نعثر أحيانا على مركز وسط واد معتدل المناخ، أو على ضفة نهر تحيط به البساتين وحقول الفول والعدس. ولأن هذه القبائل الثلاث قريبة من الريف الجنوبي، فإنها ما زالت تحافظ على العادات الأمازيغية غير المتهتكة. وقد يختلط الامر على مسافر أصم وأبكم؛ ويعتقد بانها قبائل ريفية؛ فهي تشبهها في كل شيء، باستثناء اللغة التي هي خليط من العربية وتمازيغث.[1]

فتهتك جبالة غير معروف لدى هؤلاء الجبليين الأشداء، المنشغلين طوال اليوم بالعناية ببساتينهم ورعي الماعز بالمنحدرات، حاملين بنادقهم ومستعدين لإطلاق النار كلما استلزم الأمر ذلك.

وتشتغل النساء باستمرار، فهن يحكن الملابس الصوفية وخصوصا الجلابيب الغليظة والخشنة التي تدفيء الجسم في هذه المناطق التي ينتشر فيها الضباب بكثرة. أما المنازل فهي واطئة وضخمة ومغطاة من وفوق بالديس والفلين. وأحيانا ما يهوى السقف تحت ثقل الثلوج. ولا تتوفر الشموع ولا الزيوت كثيرا لدى الأهالي، لذلك يتعين البحث عنها بعيدا رغم مخاطر الطريق. ويتم إشعال النار طوال اليوم، مما يمنح بعض الضوء داخل المساكن؛ ولهذا كانت الغابات عبارة عن مستودع دائم للحطب وعن مخزن غني للجوز وللتين.

ولا يفكر الأهالي ذوو العادات الخشنة في النظافة. وترتدي القرويات ذوات البنية المتينة الحايك ويظهرن سافرات الوجوه بأذرع وسيقان عارية. وهن يشبهن أخواتهن الريفيات في جرأتهن، حيث يستخدمن البنادق بمهارة، عندما تتعرض قطعان ماشيتهن لهجوم بنات آوى والضباع.

إن هذه القبائل المتواجدة بالمنحدر الجنوبي لجبل كتامة، وهو على الأرجح أعلى جبل بالمغرب الشمالي، تعرف بان هناك بفاس شخص يدعى السلطان، لكن هل يعلم هذا الاخير بوجودها ؟ لا نعتقد ذلك ! وكيفما كان الحال، فإنها لا تؤدي أية ضريبة ولا تخضع لأية سلطة مخزنية.

---

[1] غالبا ما يعوض حرف الهاء حرف القاف. مثلا، هلت مقابل قلت. وهذه الخاصية اللهجية تمتد من قبيلة البرانص إلى مزياث على مسافة تتجاوز 150 كيلومترا.

وبدشرة بني عياش، فوجيء الأهالي صبيحة أحد الأيام، بمقدم طالب يرتدي ملابس أنيقة من الصوف الأبيض؛ إنه محمد الذي قدم من صنهاجة الوطا، متبخترا في ثيابه الفاخرة التي منحه إياها بعض المحسنين. واستضافته عائلة أولاد فتاح، المشهورة بقطع الطريق وارتكاب الجرائم. ولم يكتشف الرحالة خطأه إلا بعد ان دخل منزل العائلة. فقد كان الأطفال والرجال والنساء يحملقون في ملابسه ويجسونها قائلين إنها أفضل ما رأوه في قريتهم.

ومرة أخرى، نجا الدرويش من الموت، بأن ترك لدى "مضيفيه" أغلب ملابسه، مع وعد بأن يأتي لهم بمبلغ 500 فرنك تركها بالناضور [متيوة]. هكذا، سيرافقه أصدقاؤه المزعومون الذين سلبوه ما عنده، إلى حدود مثيوة. وبما أن هذه الاخيرة كانت في نزاع مع قبيلة بني بوشيبث، وكان محمد على علم سابق بالأمر، فإن أولئك الأوغاد لم يجرؤوا على الذهاب بعيدا وخاطبوه قائلين :

- إننا ننتظرك هناك.

وأشاروا إلى منحدر غابوي.

فأجابهم الرحالة :

-انتظروا لحظة وسأعود إليكم.

وتوجه صوب الناضور بقميصه الوحيد فوق ظهره. وما زال أولاد فتاح ينتظرون رجوعه !

القرى الرئيسية ببني بوشيبث

- تابرانت، وهي قرية كبيرة من ألف منزل.
- تامايلت، 100 منزل وبها منجم للفضة غير مستغل.
- القلعة، 100 منزل
- بني عياش، 100 منزل
- تيفلواس [المعدن]، التسمية أمازيغية؛ وتنطق أحيانا تيفرواس؛ 100 منزل؛توجد بها مناجم الذهب والفضة.

القرى الرئيسية بأولاد بوسلامة

- تارغا [القناة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل
- العيون، 100 منزل.
- تانبوزيت، 300 منزل

- باب الحيط والصف، 500 منزل.

القرى الرئيسية ببني أحمد

لكي لا يتم الخلط بينهم وبين بني أحمد السراق، فإنهم يسمون بني أحمد ديال بني بوشيبث.

قسم وطيل

- وطيل [برعم شجرة التين]، التسمية أمازيغية، 500 منزل.
- بني زنوبة، 100 منزل، يوجد بها منجم للرصاص.

قسم العقبة

- سوق الأربعاء، 100 منزل.
- الحوز، 200 منزل.
- زاوية سيدي امحمد، 50 منزلا.
- زاوية الخمالشة[2]. وهناك زاويتان متقاربتان تحملان نفس الإسم. وتوجد هذه الزوايا الثلاث على واد ورغة.

قسم جبل الأرز

- العقبة، 100 منزل؛ ويوجد بها منجم للحديد.
- الأرز، 100 منزل.

وتوجد زاويتان خمليشيتان بحوالي 50 منزلا لكل منهما. وهناك ايضا مناجم الحديد.

قسم راس ورغا

- زاوية الخمالشا، 50 منزلا.

وتعبيء كل قبيلة 800 جندي من المشاة، أما العدد المحتمل للسكان فهو : 16800 نسمة. وهناك العديد من القرى غير المعروفة.

[2] بنيت هذه الزاوية على شرف سيدي محمد أخمريش. وجمع هذه الكلمة الأخيرة هو أخمالشة او خمالشة. والكلمة امازيغية، وهي تعني من يسهر الليل للتعبد، أي للقيام بالصلاة طبعا.

قبيلة فنـــاســة

هي قبيلة مجاورة لمتيوة وبني وليد ومرنيسة، لكنها صغيرة جدا بالمقارنة معها، بحيث لا تتجاوز مساحتها خمسة إلى ستة كيلومترات من كل الجهات. ويمكن تفسير بقاء القبائل المغربية الصغيرة وحفاظها على استقلالها النسبي بالحماية التي تحظى بها من طرف القبائل الكبرى ذات الأصل المشترك. هكذا، سيكون بإمكان فناسة الصنهاجية أن تواجه أعداء أقوى منها، بفضل مساعدة أخواتها من صنهاجة. وهي محظوظة، لأنها لا تتوفر على القمم العالية لبني أحمد وأولاد بوسلامة؛ فتلالها غير مرتفعة وهي مزروعة بشكل جيد ومغطاة بأشجار الزيتون والعنب. ومن الموارد الأساسية للسكان، نجد صناعة الصابون الأسود وتربية النحل. وبقرية الزرافيين، يتواجد الشرفاء الوزانيون بكثرة؛ وهم يواجهون منافسة قوية من طرف الشرفاء الخمالشا بالريف، الذين يتلقون أكثر الهدايا [الزيارات]. فالشرفاء الريفيون المبجلون ينالون أفضل ما تقدمه فناسة وصنهاجة وبني وليد وذلك تحت أعين الوزانيين. ومع ذلك، فقد نجح شريف وزاني في التأثير بشكل كبير على المنطقة.

سيدي المكي الوزاني، شريف وقاطع طريق :

لقد أسس هذا اللص النبيل زاوية على بعد أمتار من الزرافيين سماها باسمه، رغم أنه ما يزال على قيد الحياة. وكما يتبين من اسمه، فهو يرتبط بقرابة دموية مع شريف وزان؛ لكنه ظل يمارس قطع الطريق المربح بالنسبة إليه. وسنكون بعيدين عن الحقيقة إذا ما حصرنا عدد الضحايا الذين ذبحوا بالأيادي " المبجلة" لهذا السافل، في خمسين فردا.

ففي كل يوم، يطوف كالوحش بالغابة، في انتظار المارة الذين يقتلهم أو يسلبهم متاعهم بدون شفقة. وإذا جازف بعض الرعاة المتهورين من بني ونجل أو أولاد بوسلامة أو بني بوشيباث، بالدخول إلى أراضيه، فإنه يقتلهم ويستولي على قطعانهم ثم يبيعها فيما بعد. وعندما تكررت هذه العمليات أصبح صيت الرجل ذائعا عند فناسة. واليوم، فإنه يعتبر بطلا بدون منازع وصاحب السلطة المهاب الجانب. ولم يعرف محمد بن الطيب من هو الشخص الذي أخبر المكي الوزاني بأنه يحمل معه نقودا وهو البئيس بامتياز. وقد حاول بعض شركاء الشريف اجتذابه إلى الزاوية، لكنه لم يستجب لاقتراحاتهم وظل يتفادى الالتقاء بسيد الزاوية.

وفي سوق الثلاثاء لبني وليد، وبينما كان الدرويش يتجول مع بعض الطلبة الزواويين [فناسة]، إذا بشيخ يوقفه سائلا :

- هيه أيها الطالب، من أي بلد جئت ؟

فأجابه الدرويش :

- من هنا واها.

فاستعطفه الرجل قائلا :

- هيا معي إلى منزلي وستحصل على كل شيء، على المسكن والملبس والمأكل والشراب وكل ما تتمناه، لوجه الله. لقد قيل لي إنك طالب وأنا أتوفر على كتاب لم أتمكن من فهمه وأريدك أن تفسره لي.

وكان منظر هذا الوغد ببندقيته فوق كتفه وجلابته السوداء القصيرة وحزامه الجلدي ذي اللون البني والخناجر والمسدسات المحيطة بخاصرته، يوحي بخطورته. وفكر الرحالة قائلا بصوت منخفض :

- إن هذا الفناسي يريد إخراجي من السوق لسلبي أمتعتي.

وخاطب الرجل بصوت عال قائلا :

- من أنت ؟

فأجابه الآخر :

- إنني معروف هنا واسمي سيدي المكي الوزاني.

وبعد أن تعرف الدرويش على هوية مخاطبه وعده بزيارته عند المساء. وقرر الهروب بعيدا عن الزاوية وسيدها؛ لكن ما ان افترق مع الشيخ، حتى أحاط به جواسيس هذا الأخير وظلوا يتبعون خطواته. ولما شعر باستحالة الفرار، ذهب إلى مكان معزول، موهما أولئك الوشاه، بأنه سيقضي حاجته. واستغل وضعه، فلف منديلا يحتوي على قطع ذهبية، حول ساقه، ثم قام واتجه صوبهم طالبا منهم إرشاده إلى الزاوية فرافقوه إليها.

وتتكون زاوية المكي من بنايتين كبيرتين، أسوارهما عالية لمواجهة أي حصار؛ وتوجد بينهما ساحة واسعة محاطة بالأسوار أيضا؛ وبها العديد من المواشي وركام من السماد. وكان الشريف يعيش في هاتين البنايتين مع أربعة من أبنائه المتزوجين، المشرفين على أتباع

الزاوية الذين يقيمون بها على حساب السيد. وعندما وصل الدرويش، لقي ترحيبا كبيرا. وبالغرفة التي أقام بها، قدمت له أطعمة متنوعة مكونة من لحم الدجاج والعجل.

وبعد ذلك، ظهر المكي وحده وطلب من الرحالة البقاء عنده شهرا على الأقل. فأجابه محمد بأنه يقبل بكل فرح هذه الدعوة الطيبة. وكان يفكر في أنجع طريقة للفرار خلال الليل. فبادره الشيخ بالقول، دون مقدمات :

اعطني كل ما لديك من كتب وملابس ونقود كي أحفظها لك كأمانة في صندوقي.

وأضاف متهكما :

- إنني اعرف بأن لديك أمتعة مهمة !

فاستعطفه الرحالة قائلا :

- اصبر علي بعض الوقت وعند المساء سألبي رغبتك. وكان أبناء الشيخ واقفين بالباب، ينتظرون كالكلاب الشرسة، إشارة من أبيهم. فخاطبهم هذا الأخير بقوله :

- راقبوا هذا الرجل جيدا، كي لا يفر خلال الليل. لقد أرسله الله لنا، كفريسة سهلة.

وفكر الجوال هامسا :

- لقد انتهى أمري.

لكنه لم ييأس كلية، فقد خطرت بباله حيلة، من الممكن أن تخلصه من براثن الشريف الوزاني؛ لذلك خاطبه قائلا :

- سيدي المكي، إنني املك 120 دورو [600 فرنك] وأحمل معي عشرين منها [100 فرنك]، أما المائة الأخرى فقد تركتها بقبيلة بني ونجل. خذ الآن المائة فرنك واطلب من احد أبنائك بأن يرافقني إلى حيث خبأت المبلغ المذكور [500 فرنك/ 100 دورو] وسآتيك به لتستفيد منه الزاوية. فرد عليه الشيخ بسرعة :
- جيد، اعطني أولا العشرين دورو [100 فرنك].

فنزع محمد جلابته وفك المنديل الذي لفه حول ساقه ومده للمكي. وعند رؤية هذا الأخير للذهب، فرح كثيرا وصاح بأعلى صوته :

- لنذبح شاة من أجل العشاء.

وعند غروب شمس اليوم الموالي، أراد الشيخ إرسال اثنين من أبنائه رفقة محمد، لكن هذا الأخير أقنعه بأن واحدا يكفي، لكي لا يثير انتباه أهالي بني ونجل الذين كان الشريف في نزاع معهم. وكانت تلك هي الحيلة الثابتة للدرويش؛ فقد كان يدعو سالبي أمتعته لمرافقته إلى تراب أعدائهم؛ وكانت العملية تكلل دوما بالنجاح.

وعند حلول الظلام، غادر محمد وأحد أبناء الشريف القرية راكبين على ظهر بغلة. وعند حدود بني ونجل ترجل محمد وهمس في أذن حارسه :

- سأنزل هنا؛ انتظرني فلن أتأخر كثيرا.

وابتعد تائها في الظلام وسط البادية، دون ان يجرأ على الاقتراب من الدواوير، مخافة أن تنهشه كلابها أو يتلقى رصاصة. واختبأ بمكان منحدر مليء بشجيرات الصبار، إلى أن طلعت الشمس. عندئذ لجأ إلى قرية الهجار وأقام عدة أيام بأحد مساجدها.

وإلى اليوم، سيكون سيد الزاوية الرهيب قد بلغ الثمانين سنة وما زال محتفظا بصلابته وشراسته. وهناك سببان وجيهان، يبرران مباركة فناسة لأعماله الإجرامية وهما :

1 -إن اهالي القبيلة يخافون منه.

2 -إنهم لا يستفيدون فقط من غزاوته، بل يجدون فيه مدافعا صلبا عنهم ضد أعدائهم.

وتعتبر قرية باب الحيط بأولاد بوسلامة، من أكثر القرى تعرضا لغارات هذا اللص النبيل.

وفي سنة 1895، علم محمد أثناء مروره لآخر مرة بالبلدة، بالميتة المأساوية لابن المكي البكر. فقد لقي هذا اللص المبتدئ الذي كان مفخرة أبيه، حتفه في إحدى غاراته الليلية على أراضي باب الحيط. أما رب العائلة الوزانية فما زال على قيد الحياة، يزرع الرعب حوله ويحظى بتبجيل أهالي فناسة الذين يعتبرونه وليا عظيما قل نظيره. هكذا، ينحني الطمع والجنون والجبن والسخافة الإنسانية، أمام كل ما هو حقير وبليد في العالم؛ وأقصد بذلك القوة الشرسة.

وهذه حقيقة سائدة في كل الاوطان والأمكنة.

القرى الرئيسية بفناسة [مالكو الأبقار]

– التسمية أمازيغية –

- زواوا، 100 منزل.
- الزرافيين، 50 منزلا.
- زاوية سيدي المكي، منزلان.

وهناك حوالي 20 قرية غير معروفة.

- القوى العسكرية : 500 جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 3500 نسمة.

قبيلة بني وليــد

إننا نقترب من جنوب جبالة، حيث تتحول الجبال إلى تلال مخضرة، مليئة بشتى أنواع أشجار الفاكهة وخصوصا شجر الزيتون. ويشتغل أغلب السكان بالبستنة، وهم نشيطون وأذكياء جدا. وقد حفروا القنوات لسقي بساتينهم منذ زمن طويل، وزرعوا الشعير والقمح في الأراضي البور.

إن القرى متعددة بهذه القبيلة وتوجد جميعها قرب المنابع المائية، كما تحاط بالخضرة والأزهار التي نذكر من أهمها، الياسمين والورد والمنثور giroflée والنعناع و" اللويزة" والريحان.

وأنا لا أفهم طبيعة البشر، إذ يبدو وكأن جمال وغنى الطبيعة يساهمان في انحطاطها بدل سموها. وبالفعل، فقد لاحظنا كيف أن اهالي أجمل المناطق المغربية ينساقون وراء ملذات الجسد ويستسلمون للتهتك والخلاعة. ولا يشكل سكان بني وليد استثناء لهذه القاعدة. فبيت الصحفة الاكثر انحطاطا من بيوت الدعارة بالبلدان المتحضرة، يجدد يوميا نزلاءه وزبناءه. وعلى مستوى السلطة، يعتبر القائد ممثلا للسلطان، لكنه مستقل في الحقيقة ولايهتم إلا بشيء واحد وهو إرضاء أعضاء الجماعة الذين يخضع لهم.

وقرب الزيامة، يوجد سوق الثلاثاء الكبير. وتباع به الحبوب والأسلحة والملابس والشاي والسكر والشموع. ويتسوق التجار أساسا من فاس التي تبعد عن القبيلة بيومين مشيا.

لكن الأهالي يتسوقون أيضا من مليلية، حيث يشترون الأسلحة ذات الطلقات السريعة والسكر والشموع. وهم يعبرون الريف رفقة "الزطاط"؛ ونادرا ما يواجهون المشاكل.

وتحظى زيوت بني وليد بسمعة طيبة في أسواق الريف ومثيوة [جبالة] أو صنهاجة. أما في البرابر، فتفضل عليها زيوت غياثة وبني يازمة؛ ويتم بفاس الإقبال بكثرة على زيوت زرهون.

وبالقرب من قرية الزيامة، أقام الأهالي زاوية للطبيب العربي [والفيلسوف] ابن رشد، الذي يعرف في بني وليد تحت اسم راشد. وعلى ما يبدو، فإن هذا الشارح العظيم لأرسطو، قد عبر هذه المنطقة، مادامت الرواية الشعبية تنسب إليه تأسيس " وعدة" سنوية بالزيامة في عيد المولد النبوي.

وقد تكون زيارة ابن رشد لبني وليد صحيحة لأنه من المعروف أن فيلسوف قرطبة الشهير أتى ثلاث مرات إلى المغرب وتوجه بالخصوص إلى مراكش. وكانت أول مرة في سنة 1153 م، عندما كلفه السلطان المغربي بمراجعة تنظيم التعليم العمومي وفي المرة الثانية سنة 1182 بصفته طبيبا للسلطان يوسف؛ وفي المرة الأخيرة وتحديدا سنة 1198، توفي بعاصمة المغرب الأقصى.

[ملحوظة المترجم، صحيح أن ابن رشد حظي بدعم الموحدين ما بين سنتي 1182 و 1193 وهي الفترة التي قدم فيها شروحاته للنصوص الأرسطية واجتهاداته الفلسفية، فيما يخص علاقة الحكمة بالشريعة. لكن من المعروف أيضا، أنه تعرض للنكبة سنة 1195 وللنفي أيضا قبل أن يعاد له الاعتبار مرة أخرى ويعود إلى مراكش حيث توفي في 10 دجنبر 1198. ونشير بأن الدارسين لسيرة وفكر ابن رشد، لم يتحدثوا عن مساهمته في مراجعة تنظيم التعليم ولا حتى عن مقامه ببني وليد، كما أكد موليبراس].

القرى الرئيسية ببني وليد

- القلعة، 500 منزل
- عين الحمرا، 100 منزل
- الميزاب، 300 منزل
- زاوية سيدي راشد، 100 منزل
- الزيامة، 300 منزل؛ وعلى واد ورغة يوجد سوق الثلاثاء.
- امطرفية، 100 منزل
- وهناك حوالي 40 قرية غير معروفة.
- القوى العسكرية : 4 آلاف من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 18 ألف نسمة.

قبيلــة مثيوة

وهي قبيلة كبيرة ذات أصل غماري وتبلغ مساحتها 20 كيلومترا من الشمال إلى الجنوب و 40 كيلومترا من الشرق إلى الغرب؛ كما انها تنقسم إلى ثلاث مناطق أساسية وهي : السهل، المنطقة الوسطى والجبال؛ وتسمى تباعا مثيوة الوطا، مثيوة الوسط ومتيوة الجبل.

ويمتد السهل من الغرب، بين مثيوة وبني زروال وجزء من بني وليد. وهو ليس سهلا أفقيا ولا مستويا، بل هو عبارة عن تلال تتوسطها وديان شاسعة. وهذا المكان خصب وغني، حيث تكثر فيه أشجار الزيتون والبرتقال والتين التي تنمو الذرة تحتها.

أما المنطقة الوسطى، فهي بلد القمح والشعير والعدس والبازلاء وأشجار الزيتون؛ وهي توجد بالمناطق العالية القريبة من الريف. وتتوفر مثيوة الجبلية من جهتها، على منحدرين بجبل تيفلواس الذي يمتد شرقا ليلتقي بالجبال الريفية؛ وغربا حيث يأخذ اسم جبل كتامة ويلتقي بالجبال الغمارية الأخرى. وخلال فصل الشتاء، تطل قمم هذه الجبال مغطاة بالثلوج؛ أما في الأسفل، فتوجد كروم جيدة وأشجار التين الأبيض المعروف في المنطقة بالمثيوي. والتي تتكاثر بجبل تيفلواس.

وفي الواقع، فإن كل أنواع الطقس تتواجد في هذه المنطقة، حيث يكون البرد شديدا بالقمم الشاهقة والمناخ معتدلا بالوسط وحارا بالجنوب الغربي. وتعتبر مثيوة محظوظة بما تتوفر عليه من غابات ومزروعات؛ ولذلك فإنها تقوم، بإيعاز من جيرانها الكتاميين، بزرع الكيف و"طابة" اللذين تصدرهما بواسطة تجارها المتجولين، إلى أبعد الأسواق.

ويعتبر الدرويش هذا الجزء من جبالة، جنة أرضية eldorado، لا يوجد فيها الذهب فحسب، وهذا أمر لايهم حكيمنا، بل كل أنواع المأكولات الطيبة. وحينما يحدثني عن الأطعمة اللذيذة التي تناولها في تلك الربوع، مثل الفطائر والقطائف والقنيدلات[1] والحلويات المتنوعة والكعك الممزوج باللوز والجوز والزبيب، فإن لعابه يسيل.

---

[1] القنيدلات هي حلويات لذيذة ذات شكل مضلع polygonale شبيه بالمصابيح العربية. وإليكم الوصفة : خذوا نصف كيلو من اللوز وأزيلوا قشرته؛ اسحقوه مع نصف كيلو من السكر؛ واسكبوا فوقه الماء الممزوج بأزهار البرتقال، أضيفوا إليه ثمان بيضات، إلى ان يصبح الخليط متماسكا. بعد ذلك، اعجنوا الدقيق المخلوط بالماء وادعكوه بواسطة مدمك واقطعوه على شكل دوائر ثم ضعوا داخل كل دائرة ملعقة من خليط اللوز واغلقوها من كل جانب وادخلوها الفرن مدة ربع ساعة. وأعتقد بأن العجين الذي غطى خليط اللوز هو تحصين له، لذلك يكون صلبا عند إخراج القنيدلات من الفرن. ومن الأفضل إزالته ووضع خليط اللوز مباشرة في الفرن مثل المعكرونية.

وفضلا عن اللحوم، تستهلك أسماك الأنهار والبحار. فبواسطة الصنارة، يتم اصطياد السمك بالأنهار الرئيسية وهي : واد إمرزاين ، واد تامديث، واد مشكور وواد بني بربر الذي يتحول اسمه إلى واد الناضور، عندما يصل إلى أراضي بني وليد. أما أسماك البحر، فتصل إلى غمارة مع "الحمار" وهو لا يفسد أثناء الطريق، لأنه يملح عند اصطياده بالبحر الأبيض المتوسط.

إن مثيوة الواقعة قرب المجموعات الصنهاجية قد تبنت العادات المدينية شبه المتحضرة. وبدل أن تكون قراها مشتتة هنا وهناك، فإنها تشكل مراكز مكتملة بأزقتها وساحاتها المنظمة بالنسبة لبلد لا يعرف تطهير النفايات. وتخرج النساء متحجبات، وهن يمشين بسرعة كبيرة ويسمعن صوت أساورهن وخلاخلهن الفضية، أثناء زيارتهن للقبور، متلفعات بالحايك الأبيض ومتبوعات بفلذات أكبادهن من الأولاد والبنات.

ويجد الأولاد متعة كبيرة في اصطياد الفراشات المتكاثرة بالمقبرة؛ مصدقين رواية شائعة مفادها أن سحق فراشة فوق الشفتين والخدين والأماكن الحميمية من الجسم، يسمح بنمو شعر اللحية والشارب والأماكن الداخلية للجسد؛ لذلك يقفون الساعات الطوال مختفين وراء الأشجار للقيام بهذه العملية المنفرة.

ورغم هذا المظهر الحضاري الخادع، فإن الأجنبي المقيم مدة طويلة بهذه الربوع، سيكتشف بأن القبيلة تعيش فوضى عارمة وتحمل نفس الغرائز والأهواء القديمة، المنتشرة في المناطق المغربية الأخرى، فضلا عن تحقيق أفظع رغباتها دونما خوف من أحد. وبهذا المقتضى، فرضت سيطرتها على بني أحمد وتمكنت من إخضاع قبيلة تاغزوت الريفية. ومنذ حوالي عشرين سنة، دخل أهالي بني بوشيبث البؤساء في حرب ضد مثيوة. ورغم أن قوتهم كانت تضاهي قوة هذه الأخيرة، فإنهم انهزموا واضطروا إلى التخلي لأعدائهم عن جبل تيفلواس وخمس قرى كبيرة، من بينها تابرانت وتمايلت وأزغار. وغالبا ما تتم هذه الإلحاقات بالمغرب، ومن الممكن أن تفقد القبيلة المنتصرة من قبل، ما سبق أن استولت عليه. لكن في بعض الأحيان، ييأس المهزومون ويفوضون أمرهم للقدر ويتحالفون مع المنتصر مقدمين المبرر التالي :

- خوتنا ما عونوناشي.

عـــــذاب المنــجل :

بقرية مولاي بوشتى الخمار، عاين محمد أمرا رهيبا. فقد ألقي القبض في منتصف الليل، على خمسة لصوص من قبيلة صنهاجة المعادية. واجتمع أعضاء الجماعة وأعلنوا بغبطة، حكمهم الفظيع وهو "التكحال" والمقصود به إفقاء العينين.

وفي الغد، ظهر المذنبون مقيدي الأيدي. وتلقى الجلاد "مقدم التكحال" الأمر بإحماء المنجل فوق النار، للقيام بمهمته الشنيعة. وبعد ان وضع آلته بالموقد الحامي منذ مدة صاح أمام الجميع :

- راني موجد [إنني مستعد].

وألقي كل واحد من المحكوم عليهم أرضا وقد شد وثاقه، كي لا يقوم بأية حركة. وبيد ثانية أدخل "المقدم" الحديد الحامي بعين الضحية وضغط فوقها بقوة؛ فسمع صراخ فظيع لم يعره الجلاد أي اهتمام؛ وأدخل الآلة الحديدة في العين الأخرى. وبعد الانتهاء من تعذيب هؤلاء البؤساء الخمسة، أرسلت الجماعة الخطاب التالي إلى قبيلة صنهاجة :

-ياصنهاجا ! رواحو لخوتكم راحنا عورناهم.

وانتقل مائة مقاتل صنهاجي إلى قبيلة مزيات التي كانت على صلة جيدة بمثيوة؛ وطلبوا من أهاليها التوسط لدى هذه الأخيرة، وإرجاع العميان الخمسة إلى قبيلتهم. وكانت عودتهم عبارة عن مأساة داخل القبيلة، وقد أقسم إخوانهم بالثأر لهم. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الحرب بين مثيوة وصنهاجة.

حمــال خائن وشهادة زور :

حمل الدرويش معه من بني وليد، ملابس أنيقة أهداها له أحد أغنياء القبيلة. وبإمرزاين شعر بأن جميع الأهالي يحدقون في ملابسه، فقرر مغادرة القرية فورا. وطلب من مياوم ريفي، أرمل وفقير، حمل متاعه إلى مشكور، وهي قرية كبيرة تبعد بحوالي ثلاثة أرباع الساعة عن إمرزاين. وكان ثمن السخرة "مدا" [عشرين لتر]ا من التين المجفف، سيتوصل به الحمال، حال وصوله إلى المكان المحدد. ووضع الريفي الرزمة على كتفيه وتشمل الملابس الأنيقة للدرويش وكتبه وألواحه ونعليه. وبينما كان الرجلان يجتازان الحي الرئيسي بالقرية، إذا ببعض الأشخاص الجالسين بباب منزل ينادون على الحمال ويطلبون منه الاقتراب منهم.

فاستجاب لهم، في حين استمر محمد في مشيه. بعد ذلك، التحق المياوم بالرحالة الذي سأله عن سبب مناداة أولئك الرجال عليه. فشعر الأمازيغي بالحرج ولم يجبه. لكن عندما ألح عليه محمد في السؤال قال له :

- لقد طلبوا مني بأن أعتني بك لأنك درويش وبألا أتركك تحمل شيئا لأنك غير قادر على ذلك.

ففكر محمد وخاطب نفسه هامسا :

- حسنا، لقد اتفقوا على سلبي متاعي.

وكان الفصل شتاء والأرض المليئة بقطع الجليد تؤلم أرجل الدرويش، بينما كان الحمال الذي لم يسبق له أن وضع نعلين برجليه، يمشي مثل أرنب وسط الأحجار. وقطعا البساتين بدون مشاكل؛ وكانا بين الفينة والأخرى، يلتقيان بعض المزارعين ويلقيان عليهم عبارة : " السلام عليكم". لكن، عند حدود تراب إمرزاين، كان عليهما اجتياز واد مليء بأشجار الزيتون. فصرخ الريفي في وجه الدرويش :

- خف، خف [أسرع، أسرع]، إن المكان موحش وخطير، ومن الممكن ان نتعرض للهجوم.

وفهم الرحالة ماذا يعنيه هذا الكلام، لذلك لم يسرع الخطى وانتظر بهدوئه المعهود ماذا سيحدث. وبعد قطعهما لمائة متر بالوادي، اعترض طريقهما خمسة رجال ببنادقهم وصاحوا فيهما :

- تـــوقفـــا.

فنفذ الريفي أمرهم وطلب من رفيقه القيام بالمثل. لكن الدرويش حاول الهرب حتى لا تنزع عنه ملابسه إلا أن يدا خشنة جرته بقوة وألقته أرضا، بعد أن تلقى حفنة من التراب على وجهه. وبسرعة، تم تفتيشه؛ ولما لم يجد اللصوص نقودا، نزعوا عنه ملابسه، تاركين فقط قميصا رثا وجلابة مثقوبة من كل الجهات. وتظاهروا بتعنيف الريفي وبإلقائه أرضا وضربه؛ ثم أخذوا منه الرزمة.

وبعد ذهابهم، ظل هذا الأخير ينوح ويذرف دموع التماسيح، موجها اللوم للدرويش الذي لم يسرع في خطوه؛ ويشتكي من الآلام الداخلية التي أصابته خلال المعركة. ورغم توسل

الرحالة من أجل أن يتابعا طريقهما إلى مشكور، فإن الحمال أصر على العودة إلى قريته، معللا ذلك، بكون أهالي مشكور من القتلة وهو لا يريد أن يقع بين أيديهم؛ وقصد مباشرة بعد ذلك، وجهة إمرزاين.

أما الدرويش فقرر متابعة طريقه وحيدا. وعند مغادرته للوادي وهو شبه عار، التقى به المزارعون الذين سألوه، لماذا لم يستغث عندما اعترض اللصوص طريقه ؟ فأجابهم قائلا :

-إنكم تعلمون بأنني لو كنت قد تفوهت بكلمة واحدة لكان مصيري القتل.

وتأثر المزارعون لحالته، فحملوا بنادقهم وتوجهوا إلى غابة الزيتون وفتشوها برفقة الدرويش؛ ولما لم يجدوا شيئا قالوا له :

- لم يبق أمامك سوى أمرواحد، وهو الذهاب إلى مشكور والتشكي للجماعة.

وكانت هذه القرية الكبيرة المكونة من 500 منزل، شبيهة بمدينة صغيرة. وكان الرجال والنساء والأطفال منهمكين بأشغالهم أمام بيوتهم. وبالمسجد وجد الدرويش أعضاء الجماعة بكاملهم؛ وكانوا قد قاموا للتو، بعزل القايد وتعيين آخر مكانه. وكان المعنيان حاضرين معا بحيث كان كل واحد يدافع عن موقفه ويعد الأهالي الحاضرين بتحقيق الخير العميم للقرية.

بعد ذلك، تم الاهتمام بقضية الدرويش الذي أوضح، بعد سيل الأسئلة الموجهة إليه، بأنه تعرض للسرقة، من طرف أشخاص من إمرزاين في غابة الزيتون الموجودة بأراضي مشكور. وكان المقصود من هذا التحديد، إثارة نعرة مخاطبيه، وهو ما نجح في تحقيقه، لأن التهديدات واللعنات صدرت من كل جانب، وعبر الحاضرون عن سخطهم قائلين :

- هكذا إذن، تجرأ أهالي إمرزاين على مهاجمة العابرين بأراضينا ! طيب، ابق هنا وسنرى ماذا سيقع. وعلى الفور، طلب الأعضاء البارزون بالجماعة من القايد، العمل على إرجاع الأمتعة المسروقة إلى صاحبها وإلا سيتم إعلان الحرب على القرية المجاورة.

فأرسل القايد رجلين يحملان إنذار الجماعة إلى أهالي هذه الأخيرة. وعاد الرجلان بعد عدة ساعات وأخبرا القايد بأن شيخ القرية اقترح، باتفاق مع الجماعة، بأن يأتي المشتكي إلى إمرزاين ليدلهم على المذنبين الذين سيجلدون وسيسجنون. فاستجاب الرحالة لهذا الاقتراح وتوجه إلى القرية التي وصلها عند غروب الشمس؛ وقد استضافه شيخها للمبيت عنده.

وفي الصباح، تمت المناداة على كل الرجال الأصحاء، فاصطفوا بباب المسجد. لكن الدرويش لم يتمكن من معرفة المعتدين عليه، لأن حالته النفسية أثناء الاعتداء، لم تكن تسمح له بالتفرس في وجوههم، إلا أنه كان يحتفظ بأسماء خمسة من الأوغاد، سمع عضوين من جماعة مشكور يتحدثان عنهم. لذلك، أعلن عن الأسماء الخمسة، لكن الشيخ احتج عليه بشدة قائلا :

- لا، لا. نحن لا نتبع هذه الطريقة؛ وعليك أن تدلنا بنفسك على اللصوص، فهل عرفتهم ؟

وأجابه الدرويش :

-طبعا لا ؛ فقد كانوا مقنعين، كما هي عادة قطاع الطرق المغاربة.

وبعد المداولة، اتفق أعضاء الجماعة على أن يجلد الرجال الخمسة، بسبب سمعتهم السيئة بالقرية مائة جلدة حتى يعترفوا بذنبهم.

ونودي على الريفي الذي ألقي أرضا على بطنه وتم تثبيت ساقيه ورأسه وتفريق ذراعيه وستر سوأتيه بقميص فقط؛ فلم يحرك الرجل ساكنا.عندئذ رفع الشيخ هراوته ونزل بها على سوأتي الأمازيغي الذي تحرك مثل سمكة دون أن تصدر عنه أية آهة. لكن الضربة الثانية جعلته يصرخ؛ وعندما تلقى الضربة الثالثة صرخ بقوة جعلت الدرويش يرأف لحاله، فهمس في قرارة نفسه :

- سيموت هذا الرجل قبل انتهاء الضربة المائة؛ وسيلقى الآخرون نفس المصير دون أن يعترفوا. أما أنا فسأقتل في اليومين المواليين على أكثر تقدير.

لذلك، طلب من الشيخ إيقاف الجلد وخاطبه قائلا :

- أيها الشيخ، إنني سأسامح هؤلاء الرجال، شريطة أن يقسموا بأنهم لم يسلبوا مني أمتعتي، فذلك كل ما أطلبه منهم.

واقترح عليهم القسم بضريح ولي القرية المبجل، سيدي علي الوافي. وذهب الجميع إلى الضريح، يتقدمهم الدرويش والشيخ وأعضاء الجماعة؛ وكان الحديث يدور طبعا، حول تفاصيل السرقة التي حصلت في الوادي. وأول من دخل إلى الضريح هو الحمال، الذي ظل يدمدم بكلمات غير مفهومة، غالبا ما يستعملها شهود الزور المؤمنون بالخرافات. وأنا أنقل

هنا هذه العبارة الغريبة التي تتكرر أكثر من ألف مرة في اليوم، في ربوع الإمبراطورية المغربية وهي :

- ياهذا الولي، نحلف لك باطل، لكن ما تضرني شي وندير لك الوعدة.

بعد ذلك، أقسم الحمال بصوت عال، مستعملا عبارتين قابلتين لكل التأويلات وهما :

-الحق بهذا الوالي؛ حق هذا الوالي.

وكانت نهاية المسرحية معروفة مسبقا؛ فقد أنكر الرجال الخمسة والحمال بوقاحة، قيامهم بالسرقة وبذلك حرموا الدرويش من أمتعته وأعضاء الجماعة من اقتسام قيمة الذعيرة فيما بينهم.

وعبر محمد عن رضاه، معلنا رغبته في الاستقرار نهائيا بإمرزاين. وفي مساء اليوم الثالث، غادر القرية بعد أن لاحظ بأن عيونا كثيرة تراقبه. وأسرع الخطى للوصول إلى قرية القلعة .

القرى الرئيسية بمثيوة [2]

قســم بني غفر

- قلعة بني غفر، 500 منزل؛ يوجد بها سوق الاثنين ومناجم الحديد بواد تمديث.

-إبزارن [المتسخون]، التسمية أمازيغية، 500 منزل؛ توجد مناجم الذهب بالمنحدر الغربي لجبل تفلواس.

-قلعة بني وانذر[3] ، 300 منزل، يوجد بها سوق الاثنين.

قســم بنـــي بــربــر

- قلعة بني بربر، 300 منزل؛ يوجد بها سوق الخميس ومناجم الذهب.
- اشتوم [الجذور المتبقية]، التسمية أمازيغية، قرب غابات السنديان. ومنازلها معلقة بالقمم، لذلك تربط الأطفال بأبواب هذه المنازل تلافيا لسقوطهم في المنحدرات.
- القلعة 300 منزل.
- ناورطا [القمة]، التسمية أمازيغية، 300 منزل.

[2] تكتب بنفس الشكل وتحمل نفس معنى "مثيوة" الريفية ويبدو أن للقبيلتين أصلا مشتركا تم نسيانه اليوم. أنظر، المغرب المجهول، مذكور، ص.70 وما يليها.

[3] وانذر [شبكة الصيادين]، تارتشا [شبكة التبن] تاحلفت [شبكة لقنص الطريدة]، عن تمازيغث الريف.

قســـم مثيــوة الــوطـا

- الناضور، 300 منزل، على واد يحمل نفس الاسم.
- زبوجة الوسط وتسمى ايضا الدريوة، 100 منزل، ويوجد بها الكثير من الأولياء، كما تعسكر فيها جيوش المخزن أحيانا.

قـــــسم مـــشكــور

- مشكور، 500 منزل وتتألف من أربعة دواوير متفرقة.
- تاغونا [الكبيرة]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- إمراغدن [المتمرغون]، التسمية أمازيغية وعربية، 500 منزل؛ وتتألف من أربعة دواوير.

قـــــسم إمـــرزايـــن

- إمــرزاين [المسحوقون]، التسمية أمازيغية، 500 منزل.
- قلعة الساحل، 500 منزل.
- عين الحمرا، 50 منزلا.
- الميزاب، 100 منزل، على واد سرا.

قـــــسم بـــاب مــحرز

- باب محرز، 500 منزل.
- مولاي بوشتى، 100 منزل. ومازالت هذه القرية تحمل اسمها القديم وهو الرطبة. لكن هذه الكلمة تقادمت، لذلك كانت هناك رغبة في إعطاء القرية إسما أكثر شهرة واحتراما؛ وقد اتفق الجميع على اختيار اسم الولي المعظم لفـشتالة.
- بورضول [الشنيع]، التسمية عربية وأمازيغية، 200 منزل؛ وتوجد بها غابات الزيتون.
- الثلاثاء، 50 منزلا؛ وهو سوق مهم.

وهناك حوالي 100 قرية غير معروفة.

- القوى العسكرية : 10 آلاف جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 70 ألف نسمة. وهي قبيلة قوية، لا تخشى كتامة ولا بني زروال.

قـــبيلة مــزيــاث

يشير اسم القبيلة الذي تمزغ، إلى أننا نوجد ببلد الزيت وشجرة الزيتون والأراضي الخصبة التي أصبحت خاضعة للمخزن، بفعل وضعيتها الجغرافية. فهي محاذية لدائرة فاس ولا تحيط بها جبال تقيها هجمات العدو، لذلك كان من الطبيعي ان تستولي عليها الجيوش المخزنية؛ فضلا عن أن سهلها المخضر والمغطى بالأشجار، يعتبر فريسة سهلة امام الجشع الضريبي. وبالجنوب، تصطدم القبيلة بأسلحة الصنهاجيين الذين تخلوا عنها رغم القرابة الدموية؛ وتركوها كصمام أمان بينهم وبين عساكر الشريف.

وتوجد الغابات الكثيرة بشمال القبيلة وتتوفر على أشجار الفستق والآس والزير [أو أزير] والزان[1] والعرعاع والخروع؛ وبالجنوب على حدود الحياينة تنبت شجيرة السعتر الرائعة.

كما يشغل البشنيخ nenuphaur bleu مساحة شاسعة ويكثر بالأودية المغربية الواقعة بالسهول؛ بحيث تمتد مساحته من نهر ورغة إلى نهر أم الربيع. ويعتقد المغاربة بأنه سبب لتواجد ملايير البعوض المزعج بضوضائه و بعضاته.

وتزرع مزياث الشعير والقمح والفول، كما تتوفر على الجياد والخراف والماعز والعجول. وبين أشجار الزيتون توجد كروم العنب. وقرى القبيلة مأهولة بالسكان الذين يزورون فاس كثيرا، لقربها من منطقتهم. ويشترون هناك، الملابس والشاي والسكر والشموع والبنادق القصيرة والثقيلة. وقد تأثروا بالعاصمة وأخذوا عنها بعض المزايا وأيضا بعض النقائص؛ مثل الأدب واللباقة والتهتك المبالغ فيه. ويعزف كل الأهالي على مختلف الآلات الموسيقية، من مزمار وطبل وكمان وعود. وهم ينظمون "النزاهات" ويصطحبون معهم الأجواق الموسيقية التي سبق الحديث عنها من قبل. ولست في حاجة إلى ذكر حفلات الخلاعة؛ وأنا أستسمح القارئ على عدم الخوض فيها بتفصيل. وهذا التهتك لا يمنع مع ذلك، وجود التعصب الديني. فليس هناك دوار بدون مسجد ولا مقبرة بدون ولي. وسيد القبيلة هو الولي

---

[1] توجد هذه الشجرة أيضا بالريف. وقد وصلت إلى وهران مؤخرا نماذج رائعة منها، عبر الحدود المغربية. ويفكر التاجر الفرنسي الذي جلبها في استيرادها عن طريق البر، لأن القبائل الريفية في اعتقاده، لن تنهب حمولة هذا الخشب الأخضر الذي تعتبره قليل الأهمية. ولأن تصدير الخشب ممنوع بالمغرب فإنه من الحكمة والأمانة أخذ ترخيص من السلطان لكي يسمح بدخول هذه الثروة الغابوية المهملة من طرف جيراننا بالغرب [المغرب]، عبر الحدود الوهرانية.

الصالح سيدي بوزيد الذي سميت إحدى القرى باسمه، وهي تتوفر على 300 منزل. ويحظى هذا الولي باحترام شديد، كما أن زيارة ضريحه تتم يوم السبت وهو يوم السوق الأسبوعي. وهناك ثلاثة أنهار تسقي القبيلة وهي : نهر ورغة وواد سرا وواد المزيز بالشمال.

نهـــر ورغـــــــة :

هناك ثلاثة أو أربعة مجاري بالريف تحمل اسم ورغة؛ ويوجد أهمها بقبيلة زرقت.[2] فالمجرى المائي الصغير يتحرك من منبعه، ليتعرج في عمق الأودية بين الجبال الشاهقة؛ ويدخل أراضي بني بشير [الريف]، لتنضاف إليه مياه بعض الوديان، ثم يخترق مرنيسة. وهناك، تكثر مياهه بفضل بعض الروافد، لكنه لا يمتلىء إلا في أمكنة محددة وخلال فصل الشتاء فقط.

وبعد أن يسقي فناسة، يصل إلى بني وليد حيث تقل سرعته، لأنه يجري بالسهل. وبهذه القبيلة تنضاف إليه بعض الروافد وتصبح مياهه صافية وباردة ويبلغ عرضه ثلاثين مترا. عندئذ يلج تراب صنهاجة الوطا ومزياث ويزداد منسوب مياهه بفعل الجداول المنضافة إليه ويتقلص عرضه بسبب الجبال لكنه يظل عميقا وجارفا.

وعند خروجه من مزياث، ينضاف إليه واد سرا، وهو نهر صغير غير عميق ولا يتجاوز عرضه عشرة أمتار. عند ذلك، يجري بالحياينة [دائرة فاس] ولن يغادر السهل، فتتسع مساحته ويصبح أقل خطورة بحيث يمكن اجتيازه في أماكن معروفة بالبلدة، حتى عند فترات الأمطار القوية.

وفي فصل الصيف يتم قطعه في كل مكان تقريبا، عبر القفز فوق أحجاره. هكذا سيظهر نهر ورغة من جديد بالحياينة وبني زروال، حيث سيلتقي بواد المزيز. وهنا يصبح متعرجا؛ فتارة يمر بمنطقة جبالة وتارة أخرى بدائرة فاس ولكنه يظل دائما بالحياينة. وبقبيلة بني ورياگل [جبالة] ينضاف إليه واد أوذور. أما بين بني ورياگل وشراگة [دائرة فاس]، فإن الروافد الآتية من بني مسارة وبني مزگلدة [جبالة] تلتقي مع ورغة، حاملة معها، خصوصا في فصل الشتاء، كمية كبيرة من المياه، مما يستدعي استعمال القوارب لاجتيازه. ويغادرنا النهر

---

[2] انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 90 وأيضا خريطة الريف الغربي. ويمكن لاكتشاف علمي دقيق للبلد، أن يوضح لنا المجرى العلوي لورغة.

في هذه المنطقة مخترقا الجنوب ومبتعدا نهائيا عن جبالة. ووسط شراگة، سيأخذ وجهة الغرب، مارا عبر أولاد عيسى [دائرة فاس]، حيث تستعمل القوارب لاجتيازه. وعند الحدود الغربية لهذه القبيلة يلتقي بنهر سبو الذي يشبهه تماما والذي سيضيف إليه مياهه الوسخة والموحلة. هكذا، تظل مياه ورغة صافية إلى حين التقائها بمياه واد المزيز؛ لأن الروافد الجبلية للنهر تتميز بصفائها، أما مياه الواد التي تجري بالسهل فتحمل معها طين الروافد السهلية الأخرى؛ قبل أن تصب في نهر سبو، ذي المياه الصفراء والمليئة بالطمي.

مـــواد التجميل والنظافـــة :

بقبيلة مزياث وقرب سيدي بوزيد، تحفر النساء الأرض بالفأس لاستخلاص الكحل وبيعه بالأسواق. واستعماله معروف لدى الجميع، فهو خليط من الكبريت والمعاد الأخرى[3]؛ ويستخرج لتخضيب الأشفار والحواجب، كما أنه يمنح العينين جاذبية خاصة. ولا يستعمل أبدا من طرف الرجال الذين يحترمون أنفسهم؛ أما الغلمان ومن سار في ركبهم، فإنهم يبدون وكأنهم يحملون نظارات فوق أعينهم من فرط استعماله.[4]

وهناك مادة تجميلية أخرى منتشرة في العالم الإسلامي وهي الحناء Lawsonia inermis. وتزرع هذه العشبة في الجزائر والمغرب، إلى جانب الخضراوات؛ وتحظى بعناية خاصة. وعندما تجف اوراقها، تطحن وتخلط بالماء الساخن فتصبح عبارة عن عجينة ذي لون أصفر مائل إلى البرتقالي [ملحوظة المترجم : يكون لون العجين مائل إلى الاخضرار كما هو معلوم].

ويستخدمها الأهالي للتجميل وللتطبيب، فهي العشبة النموذجية التي تستفيذ منها الحيوانات كالجياد والكلاب السلوقية Levriers وحتى الأشجار. ويستعملها الرجال في مناسبات محددة، أما النساء فإنهن يفرطن في استخدامها.

ولم يسبق لي أن رأيت امرأة، دون أن ألاحظ اللون الاحمر البرتقالي للحناء، بشعرها ويدها ورجليها. وكدرويش، فإن ابن الطيب كان يساير هذه العادة دون حرج؛ فكثيرا ما كان يزورني وقد امتلأت عيناه بالكحل ويديه بالحناء وكأنه سرطان بحر برتقالي. ولا تغير

[3] يؤكد بعض الكتاب ان الكحل خليط من الكبريت والرصاص.

[4] هناك صعوبة في نطق الكلمة، إذ لا ندري هل ننطقها كحل أو كحول.

ملاحظاتي بهذا الخصوص شيئا من سلوكه الغريب، بل إنه يبرر ذلك مستشهدا بالمثل العربي الشهير : "الحناء تراب الجنة".

وعندما يصبح شعر الرأس واللحية أبيض، يقوم المسلم الإفريقي الشمالي يستر بداية الشيخوخة، بصباغة سوداء مكونة من الجوزة والكبريت الممزوج بالرصاص والنحاس وزيت الزيتون.

وقد رأيت فقهاء وعلماء محترمين، استعادوا شبابهم بفضل هذه الصباغة. لكن آخرين أكثر وقارا، يرفضون هذه العملية، متهكمين من هؤلاء الرجال الذين يريدون إخفاء عمرهم الحقيقي، حيث يظهرون لحيتهم البيضاء بافتخار قائلين :

-صباغة ربي أفضل من صباغة العبد.

ويزيل الرجال والنساء شعر الأعضاء الداخلية باستعمال مرهم مكون من الجير الحي chaux vive والرهج orpiment والصابون الأخضر. وهذا الخليط خطير على الجسد، لذلك يتعين إزالته بعد فترة قصيرة من وضعه. وتحتفظ المرأة بشعر رأسها دون أن تقصه، أما الرجل فيحلقه عن آخره؛ وغالبا ما يترك خصلة طويلة تسمى الگّطاية، وسط الرأس، فيما يشبه شكل قص الشعر tonsure عند الرهبان المسيحيين.

ويتم تشذيب شعر اللحية بالخدين وتحت الشارب، لكنه يحلق تحت الدقن، اما الشارب فيقص على مستوى الشفة العليا.

ولا يشبه الوشم في شيء، ما هو متبع لدى قروينا وعمالنا [بالجزائر]؛ وإن كان يتضمن الكثير من الزخارف، غير أنه لا يحتوي على أية صورة بشرية.

وغالبا ما تخضع الأذرع لابداعات الواشمين، حيث ترسم كل أشكال العالم النباتي من أوراق وسنابل وشجيرات وأزهار، وتمتزج فيها بينها في لون أزرق منفر بالنسبة لمن يراه لأول مرة.

إن النساء هن الراغبات أكثر في وشم جسدهن وهن يتحملن الجلسات الطويلة والمؤلمة التي تقوم فيها الواشمة بوخز جلودهن، مستعملة الموسى والإبر. وترسم أيضا بعض الأشكال على الجبهة والصدغ والوجنتين. وقد اقتضت العادة رسم صليب صغير على جبهة الفتيات. ولا علاقة لذلك، على عكس ما يدعي بعض الكتاب الأروبيين، بأصل مسيحي. فالأميات

اللواتي يرسمن هذا الشكل أو اللواتي يحملنه، لا يدركن معناه من جهة أخرى، فإن الجميع يعرف قيمة الوضوء في الإسلام. فبفضل هذا الفرض القرآني، يمكن القول إن المسلمين ومهما اختلفت درجتهم، يتوفرون على جسم أنظف من جسم المتبعين لديانات أخرى. فاتساخ المسلمين الفقراء ظاهري، ويتجلى في الملابس التي لا تنظف. لكنني أعرف بالمقابل، الكثير من المسلمين، أمازيغيين وعربا، لا يصلون إلا نادرا؛ ويعتبرون أنفسهم غير مقيدين بالوضوء الذي يحظى بأهمية كبيرة لدى المتعصبين. وأنا أعلم أيضا، بأن التيمم يبعد الكثيرين عن الماء الذي هم في حاجة إليه. وعلى الرغم من لباسه البئيس فإن إنسان إفريقيا الشمالية ليس أوسخ من إنسان أروبا. فبعض المسيحيين الذين يكرهون الماء، لم يستحموا ولو مرة في حياتهم؛ في حين أن الفقير المسلم يغتسل بالحمام، كلما سمحت له الإمكانيات بذلك. وهو يرغب في تكرار هذه العملية كل مرة. أما في البداية، فلا يجد الرجل أدنى حرج في الاغتسال بالمنابع، دونما اهتمام برأي السكان الذين يرتوون منها.

العـــــــــادات :

لمزياث عادة متميزة؛ فبإمكان الفتيات البالغات nubiles، الخروج والتجول بدون حجاب وتبادل الحديث مع الرجال ومشاركتهم ألعابهم. ونادرا ما تحدث غواية إحداهن أو اغتصابها. لكن، ما أن يتزوجن حتى يصبحن ربات بيوت محصنات، لا تظهر منهن سوى عين سوداء براقة، تحت الألبسة القطنية البيضاء. لكن النساء الأرامل، قد يستجبن لنداء الجسد رغم تحجبهن؛ ويكن مضطرات أحيانا للذهاب إلى قرية أخرى، عند قريبة أو صديقة، لوضع ثمرة فاحشتهن. ولحسن الحظ، فإن هذه السلوكات الفاضحة تشكل استثناء، لأن أغلب النساء محترمات ومجدات.

ويظل الرجل في آخر المطاف، هو الذي يحظى بالمرتبة الأولى في التهتك والكسل. هكذا ففي مزياث، يقضي الطلبة وأرباب الأسر والعزاب الأميون، القسط الأكبر من الليل في السهرات التي يستمتعون فيها بالموسيقى وبرقصات الغلمان والعايلات.

القـــرى الـرئيسيــة بمزياث [مكان الزيوت] – التسمية عربية وأمازيغية –

- سيدي بوزيد، 300 منزل
- العزايب، 400 منزل

- قلعة مزياث، 500 منزل؛ وتوجد قريتان بنفس الاسم، الأولى على واد سرا، 500 منزل والثانية بالغرب، 300 منزل.

وهناك حوالي 50 قرية متفرقة.

- القوى العسكرية : 3 آلاف جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 21 ألف نسمة.

وأنا لا أجرؤ، من الناحية التاريخية والجغرافية، على مماثلة مزياث بقبيلة مزاتا الأمازيغية [انظر، ابن خلدون، مذكور، الجزء الأول والثاني من الترجمة الفرنسية].

قبيـــلة رغيــوة

وهي الجارة الشرقية لمزياث ويبلغ طول حدودها مع دائرة فاس، حوالي عشر كيلومترات. وتعتبر رغيوة من بين سبع أو ثمان قبائل صغيرة، مجبرة على دفع الضرائب للمخزن وعلى الخضوع لهيمنة القبائل القوية المحيطة بها. ورغم ضعفها النسبي، فهي تقاوم حسب الإمكان اجتياح العساكر المخزنية، فأرضها غير جبلية وهي غنية بأشجار الزيتون والبرتقال ومليئة بالمنابع المائية، نظرا لوجود جزئها الجنوبي على الضفة اليمنى لنهر ورغة. وكما هو الشأن في مزياث، فإن النساء يصنعن القراميد والأدوات المنزلية من الطين الجيد.

وتبدو القرى شاسعة، لأن كل منزل يشكل في حد ذاته ضيعة منعزلة، بساحتها وحظيرتها والبستان المحيط بها ومخزنها الموجود بالطابق الأول. والمدخل الرئيسي للمنزل، هو عبارة عن ممر توجد به مقاعد اسمنتية، يجلس فوقها رب الأسرة مع أصدقائه وضيوفه لتبادل الحديث. وتنفتح أبواب الغرف على الساحة التي تقضي بها النساء الساعات الطوال، في طحن القمح والشعير، الضروريين للتغذية اليومية، بمطاحن حجرية. ويطهين الطعام بمواقد مغطاة من فوق، حتى يسهل استعمالها في الصيف كما في الشتاء. ولا يستدخم الفرن إلا مرتين في الشهر على أكثر تقدير. فبعد اليوم العاشر تصبح خبزة الشعير مثل صخرة ويتم تليينها بخلطها بالمرق، للحصول على الأكلة الجبلية المعروفة بالمنطقة. وهناك العديد من المساجد التي تستخدم أيضا كمدارس. وأغلب الرجال يمارسون مهنة الخياطة أو العزف.

القـــرى الـرئيـــسة بــرغـيوة

قســـم بــاب وانذر

- باب وانذر، 500 منزل، قرب نهر ورغة.
- تازوذا [الطبق الصغير]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.
- أحجيون [الحجاج]، التسمية عربية وأمازيغية، 200 منزل؛ وهي مقسمة إلى قريتين على ضفاف واد ورغة.

قســـــم الــرملـة

- الرملة، 500 منزل.

وهناك حوالي عشرين قرية متفرقة.

- القوى العسكرية : 1500 جندي من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 10500 نسمة.

نـــبذة تاريخية عن رغــيوة

هي فرع من أورية، القبيلة الأمازيغية المنحدرة من البرانص وبالتالي فهي على صلة قرابة بالبرانص وصنهاجة الحاليين. [ابن خلدون، الجزء 1، ص. 286 من الترجمة الفرنسية، رغيوة].

قبيـــــلة صـــنهـاجة الـــوطـــا

يقول مؤرخ الأمازيغ الكبير ابن خلدون الذي ترجم دوسلان آراءه بطريقة جيدة [الجزء الثاني، ص. 1]، إن صنهاجة هي إحدى أكبر القبائل البربرية من حيث العدد ومازالت تشكل أغلب سكان المغرب. ففي كل جبل وكل سهل بهذا البلد، يوجد الأهالي الصنهاجيون، إلى درجة أن البعض يعتقد بأن صنهاجة تشكل ثلث العرق الأمازيغي.

وما تمت ملاحظته في القرن الرابع عشر الميلادي، مازال قائما إلى يومنا هذا. فصنهاجة وغمارة تستطيعان الافتخار بأنهما القبيلتان الأم بالمغرب الأقصى برمته. وما دمت قد عالجت هذا الموضوع أثناء حديثي عن قبيلة غمارة، فإنني لا أرى ضرورة في التوقف عند مبالغة بعض المغاربة المحدثين الذين يختزلون الإنسانية كلها في صنهاجة وغمارة ! وتنقسم صنهاجة الوطا إلى ستة أقسام، يعبئ كل واحد منها ألفي جندي من المشاة. ونظرا لمحاذاتها لدائرة فائرة فاس والحياينة، فإنها تجد نفسها في حاجة إلى الفرسان لمواجهة جحافل اللصوص الجنوبيين. وأسلحة الأهالي مغربية بالأساس ويتم شراؤها من فاس. هكذا، يستعمل محاربوها البندقية القديمة ذات الصوان والمقبض الواسع والتي لا تتعدى طلقتها مسافة خمس مائة متر.

كما توجد لديهم بعض المدافع القديمة التي جلبت من العاصمة لحماية بعض القرى. وتعتبر صنهاجة ورشا كبيرا لصناعة خشب البنادق؛ وهو ما أدى إلى تسميتها "صنهاجة السراير".

وهي قبيلة جبلية بالأساس، خصوصا في جزئها الشمالي. وتحاط بالقبائل الصغرى المنحدرة منها، لذلك فهي لا تخشى الحياينة ولا غياثة. فبمجرد هجوم هؤلاء السفلة عليها، تحرك حلفاءها، مما يدفع الغزاة إلى التراجع أمام الحشود الصنهاجية العظيمة.

وبالشمال، يوجد قسم بوعادل وسط جبال غابوية ومسقية بشكل جيد. ويحاط كل مسكن ببساتين الخضر والفواكه؛ وهنا أيضا تهيمن أشجار الزيتون وتكثر المطاحن لاستخلاص الزيت، مما يدل على وفرة الزيتون والمياه.

أما عن أشجار الرمان، فحدث ولا حرج؛ وكذلك الشأن بالنسبة لعود الند والصبار والدفلى Laurier-rose، فهي توجد في كل مكان، ولا يفكر أي أحد من الأهالي في شراء أو بيع

الرمان والتين الوحشي. لذلك، فإن بإمكان أي أجنبي أن يقطف ما طاب له من الفواكه دون أن يعاتبه أحد، لكن شريطة ألا يكون مرتديا لملابس فاخرة.

ويمكن اختصار الوضع الحالي للقبيلة في ثلاثة أمور وهي: الغنى والوفرة والمتع المتنوعة. وهي تتوفر على سوق الاثنين الذي يأتي إليه الأهالي للاستمتاع ولشراء الشاي والسكر والملابس الجميلة المخصوصة للأعياد.

وكلما كان هناك تعايش بين الطلبة، كلما توقعنا تفشي الحب السقراطي ! فهناك شيء شبيه بالهوس الجنسي المتجلي عبر ظاهرة اللواط.

ويوجد قسم بني قرة بواد فسيح، مليء بالدواوير المحاطة بأشجار الفواكه المتنوعة مثل أشجار الزيتون والبرتقال والسفرجل والليمون والموز؛ كما توجد الخضراوات بوفرة.

ولأن الحقول المزروعةوالبساتين تحتل مساحة البادية برمتها، فإنه لا توجد أماكن لرعي الماشية، مما يجبر الأهالي على علفها بالحظائر الموجودة داخل المنازل.

ويمارس الرجال مهنة الخياطة والحياكة، لذلك فهم يصنعون ملابسهم بأنفسهم؛ وهي تتكون من سراويل قصيرة وجلابة سوداء. أما النساء فيلبسن الحايك الأبيض ويخرجن محجبات.

بخصوص قسم عين مديونة، فهو يجمع بين السهل والجبل ويتمتع بالوفرة مثل الأقسام الأخرى؛ ومنازله متميزة بسطوحها. كما يوجد بقرية عين مديونة منبع مائي غزير، تفجر بباحة المسجد؛ ومياهه صافية ومليئة بالأسماك. وقد استغلت هذه المياه بطريقة ذكية لسقي الضواحي بواسطة قنوات الري، لكن حذاري من التعرض للأسماك، فهي مقدسة !

ويحكى أن أحد الصلحاء ضرب الأرض بعصاه فتفجرت العين؛ ولم يكتف بذلك، بل منحها امتيازا آخر وهو أن تكون باردة في الصيف ودافئة في ا لشتاء.[1]

ويمتلئ سوق الأربعاء بعين مديونة بالتجار والزبناء، لذلك تعرض فيه شتى أنواع البضائع والمنتوجات، مثل القمح والزبيب والملابس والصوف والأسلحة والزرابي والمواشي واللحوم والبيض والدجاج والسمك النيء والسمك المقلي والفطائر بأرخص الأثمان. فالقمح يساوي فرنكين ونصف للقنطار ويباع الخروف بسبعة فرنكات والعجل بثلاثين فرنكا والدجاجة

---

[1] إن البدو ليسوا هم وحدهم، من يعتقد بأن حرارة مياه العين ترتفع في فصل الشتاء اكثر من فصل الصيف. فالقرويون الفرنسيون يحملون نفس الرأي.

السمينة بأربعة أو خمسة قروش أما الشخص الراغب في الطريدة، فما عليه إلا أن يصطادها على بعد خطوتين من قريته.

وتشبه عين مديونة، مدينة صغيرة. ففي كل حي يوجد دكان ومطاعم شعبية تقدم وجبات بسنتيمين وخانات تستقبل الزائر وفرسه.

ويتجول الأهالي في قريتهم، حاملين بنادقهم وسيوفهم التي تصل إلى أسفل الساق. ويعتقد، القرويون القادمون من الخارج والمسحلون أيضا، بأن من واجبهم إلقاء فتات الخبز بالعين، لإطعام السمك.

ومن جهته، فإن الدرويش أعجب بالأجواء الاحتفالية بهذه القرية الصنهاجية، فمكث بها مدة طويلة. وقد أكد لي بأن هذه المنطقة هي من بين مناطق جبالة الأخرى، التي يتم فيها الاستمتاع أكثر. ففيها دون غيرها، يخرج الناس للتنزه بالغابة مرفوقين بالأجواق الموسيقية وبالعايلات والغلمان الذين يرقصون في مقدمة المواكب. وتنتقل هذه الأخيرة من قرية إلى أخرى، حيث تستقبل بالحفاوة أينما حلت؛ وتبدأ الاحتفالات من جديد.

وبخصوص قسمي الجنوب وهما: بني سلمان وسيدي داوود فإنهما يوجدان بالسهل على سفح جبل صنهاجة، قبالة الحياينة. وهذا لا يمنع من توفر قراهما على نفس البساتين الموجودة بالأقسام الشمالية. وباختصار، فإن صنهاجة الوطا برمتها، بلدة رائعة وخصبة، ببساتينها المليئة بالخضراوات وأشجار الفواكه وبجداولها الأربعة وهي: واد عين مديونة وواد بني قرة بالشمال، واد بني سلمان ورافده واد بوكنانة بالجنوب.

العادات والتقاليد:

نظرا لوجودهم بجوار عرب الحياينة، فإن أهالي بني سلمان وسيدي داوود، يتصفون بالكذب والنهب. ففي أحد الأيام، كان محمد متوجها صوب قبيلة هوارة الحجر برفقة طالب صنهاجي، عندما التحق بهما عند حدود بني سلمان، رجل تقطعت أنفاسه من كثرة الجري. وما أن وصل إلى مكانهما حتى صوب البندقية نحوهما وصرخ فيهما :

- لوح الكسوة.

ونزع الحايك عن الرحالة، ثم لبسه مباشرة وأضاف قائلا :

- زيد فالطريق دابا.

فاحتج محمد قـــائلا :

- كيف أذهب بدون الحايك الذي أخذته مني ؟

فرجع الرجل خطوتين إلى الوراء وسدد بندقيته صوب الرجلين وقال :

- إذا لم تغربا عن وجهي، فإنني أقسم بأن أقتلكما.

وكان من اللازم الإذعان للأمر؛ وتابع الطالبان طريقهما تحت مراقبة اللص. وبعد مسافة كيلومتر، استدارا فتبين لهما أن الرجل اختفى. عندها عادا أدراجهما؛ وفي الطريق التقيا ببعض المزارعين الذين سألوهما عن سبب رجوعهما ؟ وهل سلبهما أحد أمتعتهما ؟

فأجاب الدرويش:

- نعم، قرب هذا المنحدر.

فعقب أحد الرجال :

- كان عليكما أن تصرخا، عندها كنا سنهب لنجدتكما.

ورد الطالبان :

- لو كنا فتحنا فمنا بكلمة، لكان الرجل قد قتلنا.

وقال كبيرهم في السن :

يا بني، أستطيع الآن أن أصارحكما؛ فقد تبعكما الرجل من هذه القرية الموجودة بالوادي؛ وهو فلان الذي رأيناه جميعا. وأنصحكما برفع شكوى إلى الجماعة التي يتواجد أعضاؤها بالمسجد.

فتوجه الرفيقان إلى القرية؛ وما أن دخلا المسجد حتى رحب بهما الطلبة وقدموا لهما وجبة التريد. ولكي يثير انتباه الجميع، أخذ محمد الطبق وسكب محتواه في الممر المائي. فاندهش جميع الطلبة وغضبوا بشدة؛ إذ كيف يعقل أن يلقى طعام الله بهذا الشكل؛ وصرخوا قائلين :

-ما الذي دهاك لرمي التريد ؟

ففسر لهم الدرويش سبب فعلته وأخبرهم بأنه وصديقه تعرضا للسرقة من طرف فلان. وكان هذا الشخص معروفا لدى الجميع كأحد السفلة الأشرار بالقرية. فتمت المانداداة عليه؛ وعندما سألة أعضاء الجماعة عن فعلته، أجابهم قائـــــــــلا :

- في الليلة الماضية، استضفت هذين الطالبين للمبيت عندي. وفي الصباح خرجا من بيتي وحملا نقودي معهما. فغضبت بشدة ونزعت منهما الحايك؛ ولولا خوفي من الله لكنت قتلتهما.

فسأل أحد أعضاء الجماعة الطالبين:

- هل ما يقوله صحيح؟

وكانت الإجابة:

- كلا، هذا كذب. فنحن لم نأخذ منه أي؛ على العكس فهو الذي سلبنا الحايك.

فرد اللص:

- إذن عليكما أن تؤديا القسم أمام الملأ بأنكما لم تسرقاني.

وأتى فقيه بنسخة من القرآن الكريم، فوضع الطالبان يدهما عليه وأديا القسم. وبسرعة، نزع الرجل الحايك وقذف به صوب وجه محمد ثم اختفى، معبرا عن غيظه الشديد.

وقال أفراد الجماعة للطالبين:

- روحوا دابا بالسلامة.

وغادرا القرية. وفي نفس المكان السابق تقريبا، اعترض طريقهما أحد أقارب اللص وكان قوي البنية ويحمل بندقية بكتفيه وهراوة بيده. ودون أن ينبس بكلمة، نزع الحايك من يد الدرويش بعنف قائلا:

- والآن، إذا ما سولت لكما نفسكما التشكي مرة ثانية إلى الجماعة، فإنني أقسم بأنكما لن تتذوقا الرغيف من بعد أبدا [عمركم لا كليتو مطحونة الرحى].

إن صنهاجة مشهورة بعلمها، فهي متمكنة من الأمور الشرعية والميتافيزيقية والنحوية والفقهية. ومركزها العلمي الأكثر شهرة هو أولاد أزم، هذه القرية الكبيرة التي يتناغم في إطارها حب الموسيقى مع الأدب الرفيع.

لكنني أعتقد بأن الموسيقى تقتصر على المزج بين آلتين وهما المزمار والطبل.

أما العلم الصنهاجي، فيستند على معارف قديمة ومتجاوزة؛ إذ ما هي هذه الميتافيزيقا وهذا المعتقد والنحو والتشريع؟

إنها مجرد انعكاسات باهتة لمذهب أرسطو ولحواشي فقهية وتكرار لما ورد في الألفية وفي سيدي خليل، مع التزام صارم بالمبادئ القرآنية.

وعلى عكس الكسالى القابعين بالمسجد، فإن العامة يقومون رغم رذائلهم، بكل الأعمال؛ حيث يمارسون البستنة والزراعة في الحقول والخياطة والحدادة والحياكة وصنع الحبر. وتتميز المرأة بجدية أكثر من الرجل، فهي تعمل بالحقل وتحطب وتأتي بالماء من المنابع وتصنع الصابون بمزج الجير والرماد والزيت؛ كما تصنع القراميد التي تغطي سقوف بعض المنازل.

وعند المساء، تتكون تحت سماء مكللة بالنجوم، مجموعات بالأزقة والساحات وتحت الأشجار ويهيأ الشاي ويقضي الناس أوقاتهم في الثرثرة والضحك وفي الاستماع إلى الموسيقى ومشاهدة رقصات العايلات والغلمان.

وتمتلئ الأضرحة والمساجد وأماكن اللهو بالأهالي. مثلا، يجتمع العلماء والمتأنقون، فيما بينهم بعيدا عن عامة الناس. ومن جهة أخرى، فإن لكل قرية تخصصها. فبني قرة هي مركز اللهو والدراسات الإسلامية؛ وأولاد أزم هي منبت العلماء؛ وبوعادل هي عاصمة الحائكين؛ وعين مديونة هي مركز التجارة والشعر؛ وبوكتانة هي موطن الفرسان والخياطين وبني سلمان هي عاصمة اللصوص وقطاع الطرق.

وتمارس "النزاهة" بشكل كبير في القبيلة، حيث يتجول الطلبة في ربوعها إلى حدود غياثة ودائرة فاس، متفادين الالتقاء بالحياينة والدسول، بسبب العداوة القائمة بين الطرفين. وتعتبر منطقة هوارة الحجر سببا في الحقد المتبادل بين الدسول والحياينة وصنهاجة، لأن كل طرف يريد ضمها إليه.

ويتميز الصنهاجي بقامة متوسطة وبنية قوية ويترك بقمة رأسه المحلوق، خصلة من ال شعر تصل إلى أعلى الظهر [الكطاية]. ومن الصعب رؤية النساء، فهن محجبات ويسرعن الخطو عند مشاهدتهن لأجنبي. ولهن مكان مخصوص بسوق الأربعاء بعين مديونة، حيث يمنع على الرجال الدخول إليه.

ويأتي الحياينة وشراگة، وهم تابعون لدائرة فاس، إلى هذا السوق. وهنا يبرز الاختلاف بين هؤلاء وبين الجبليين سواء على مستوى اللباس [جلابة بونداف والحايك] أو على مستوى شعر الرأس الذي يغطي الصدغين.

والملاحظ أن كل الأجانب الذين تعرضوا للسرقة من طرف لصوص بني سلمان، يأتون إلى هذا السوق الأسبوعي، لأنهم متأكدون من الالتقاء بسارقيهم؛ وعندها تحدث المواجهات والمبارزات الدامية.

من جانب آخر، فإن مجد صنهاجة لم يغب تماما عن ذاكرة الشعب؛ فغالبا ما تسمع العبارة التالية:

- كنا ملوك في المغرب.

وتمتد صنهاجة القديمة على مساحة شاسعة، من دائرة قسطنطينة إلى المغرب. وقد استقر حفدة الصنهاجيين بالشرق في أومال بتلمسان وبندروما. وتدعي الرواية الشعبية أن أجدادهم قدموا من صنهاجة المغربية وأنهم غادروا موطنهم بسبب مطاردة أحد الغزاة لهم، وهو السلطان ابن علي الذي لا نعرف عنه شيئا. وببلدة صفرو [البرابر] توجد قرية باسم صنهاجة، كما أن أعدادا كبيرة من الصنهاجيين تقيم بمراكش؛ وأخيرا فإن أهالي عين مديونة والمناطق المجاورة لها، متأكدون بأن مؤلف النحو العربي المعروف بالجرومية، هو من صنهاجة الوطا؛ وخير دليل على ذلك وجود قبة الجرومية بالقبيلة.

وإذا ما كان الأمر صحيحا، فإن الطلبة البؤساء الذين يحاولون حفظ مؤلف العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي، سيشعرون بنوع من الفخر عندما يعرفون بأن هذا العالم النحوي المفضل لديهم، قد ولد بصنهاجة الوطا. وإن كنت أشك في ذلك، لأن قبة الجرومية هي مجرد قبة ولا تعني مسقط رأس الجرومي. وبجبل صنهاجة، على مسافة يوم من قبة الجرومية، يبدو قبر بنت الأمير الصنهاجي؛ هذه الأميرة المعشوقة التي سمحت للمنشدين الصنهاجيين، بالتغني بقصتها. وسأكتفي بنقل بعض الأبيات من القصيدة الشهيرة التي يصف فيها عاشق الأميرة، لواعج حبه ومعاناته؛ وهو ما عودنا عليه الشعراء منذ زمن طويل.

- **قصيدة بنت الأمير الصنهاجي:**

أصابني مرض الهوا ☆ ولم نجد له دوا ☆ إلا فؤادي قد كوى

من حب الريم المغناجي(2)

بهاؤها حسن جميل ☆ ولم نر لها مثيل ☆ في ذا الزمان إلا القليل

في جيلنا ما يجي

تبارك الله تعالى ☆ سبحانه عز وجل ☆ خلقت في الأرض غزال

في مشيتها تترهوج

ثمرة النخل الباسق ☆ وتسقى من ماء دافق ☆ الخد أحمر كالعقيق

يغوي كضي الأرنج

جعفر وخالد والنبي ☆ أحمد وداوود يا ربي ☆ تغفر لأمي وأبي

مولاي وعدك وفضلك نرتجي

حتما نموت والحياة ☆ تكون بعد الممات ☆ من لا جرب زهو البنات

يمشي عنا ولا يجي.

خفت يخالطني الهبال ☆ وأنا ذنوبي كالجبال ☆ دمعي على خدي زلال

ودافق وهابط يخرج

دبر وشاور واشطوحك ☆ اسم كلام ابن ناشط ☆ الحوت في بحر المحيط

يقسم بطون الأمواج

[...]

ريم لقيته يا غلام ☆ لها عيون كالسهام ☆ تضوي ككوكب في الظلام

حين استوت في الأبراج

قد لها أيا غلام ☆ تشفي المرض بالكلام ☆ ولو كانت ببيت الحرام

تسلب عقول الحجاج

كلمتها بين الحيطان ☆ قالت لي نعم يا أخي فلان ☆ ما ننساك طول الزمان

وعدك وفضلك نرتجي

---

(2) تنتهي ا لقافية ب "جي".

[...]

هدو علي بالحديد ☆ أحرارهم مع العبيد ☆ قالوا اقتلوا هذا الوليد

وقتلوني وأنا صغير

يا غلام ابن الحمام ☆ اتوني باثنين زعام ☆ يمشيوا معي في الظلام

حتى نراها ونجي

لقد استمتع مؤلف القصيدة بتتبع ترتيب الأبجدية العربية؛ حيث بدأ البيت الأول بحرف الألف والثاني بحرف الباء الخ.. حتى انتهى بحرف الياء.

ومثل هذه الألعاب اللغوية تسحر الطلبة الذين يعجبهم التحذلق بواسطة الحروف، كما كان الشأن عندنا في فترة الحذلقة اللغوية وادعاء المعرفة.

كان العاشقان أبناء عمومة وكان "المغنجي" وحبيبته فاطمة[3] يذهبان سويا إلى المحاضرة [المدرسة الابتدائية] ويقرآن في نفس اللوحة. وعندما انتبه المعلم إلى حميمية العلاقة بينهما، أجبر كل واحد منهما على قراءة جهة من جهتي اللوحة فعملا ثقبا بها وبدآ يتأملان بعضهما بعضا. فذهب الوشاة عند أب "المغنجي" الذي كان أخا للأمير ووزيرا له وقالوا له:

- إن ابنك لا يدرس، بل يقضي وقته في الغناء.

وجاء الوزير إلى المدرسة؛ وكان الطفل ينشد قصيدته عند حرف التاء ويتهيأ لحرف الجيم، عندما رأى أباه، ففتر حماسه وقرر استبدال البيت.

ولهذا السبب طلب من الله تعالى في البيت الخامس، بأن يغفر لأمه ولأبيه باسم الرسول والصلحاء. ففرح الوزير ورجع راضيا وخاطب الجميع قائلا:

- لقد كان يدعو لنا بالغفران.

وجاء يوم فوجئ فيه العاشقان وهما في وضعية مريبة. فما كان من الأبوين القاسيين إلا أن ذبحا الطفلين، معتقدين بأنهما يطبقان التعاليم الدينية. وبالتربة الطرية التي دفن بها العاشقان نمت شجرتان، ستلتقي أغصانهما فيما بعد، كرمز للحب الخالد وكإحتجاج على الهمجية،

[3] مثل أغلب الشعراء العرب، دس مؤلف القصيدة اسمه وسط بيتين وهما: البيت الثاني عشر [حرف السين] والبيت الرابع والعشرون [حرف ا لميم]؛ وذكر اسم حبيبته في هذا البيت الأخير وهو : فاطمة.

الممارسة باسم الدين. وحسب رواية أخرى، فبعد قتل الطفلين، أحرق الأبوان الجثتين بمحرقتين منفصلتين، لكن الدخان المتصاعد منهما، التقى في الجو وظل معلقا لمدة زمنية طويلة.

وكان من المفيد معرفة الشخوص التاريخية التي تلمح إليها القصيدة الصنهاجية، لكن الدرويش الذي يجهل تاريخها عرضها علي كما حفظها قائلا:

- بخصوص الباقي، تدبر أمرك.

ولأنني لا أتوفر على الخيط الموجه fil d'Ariane فقد فضلت عدم الخوض في هذه المغامرة المثيرة.

أقسام القبائل الصنهاجية

إن "صنهاجة" لفظة إثنية عامة تنطبق دون تمييز على القبائل الصنهاجية بجنوب شرق جبالة. وعند التمييز بينها، يتم تقسيمها إلى ثلاث عائلات كبرى وهي:

1) صنهاجة الحق التي تشمل بني أحمد وبني شيبث وأولاد بوسلامة.

2) صنهاجة النبق[4] التي تتضمن فناسة وبورضاو وصنهاجة الغدو.

3) صنهاجة الطبق[5] وتشمل صنهاجة الوطا ورغيوة ومزياث.

ومساحة هذه القبائل مجتمعة، تعادل مساحة غمارة تقريبا؛ وهي تحيط بقبيلة بني ونجل الغمارية وتسعى إلى ضمها؛ ولعل هذا ما يفسر الحرب الدائمة بين هذين العرقين.

وقد سميت إحدى هذه المجموعات الثلاث صنهاجة الطبق، لأن القبائل التي تتضمنها يصنع الكثير من هذه السلال الدائرية من الدوم. ويدعي بعض متعصبي هذه القبائل بأن سبب هذه التسمية يعود إلى كرم أهاليها الذين يستقبلون الأجنبي بأطباق الأطعمة والفواكه.

ولا ننسى بأن هذه القبائل التسع تعتبر نفسها ذات قرابة دموية، لذلك فهي تتحالف فيما بينها في حالة الهجوم أو الدفاع عن النفس. وهو ما يفسر قدرتها على مواجهة المخزن والحياينة وغياثة الذين يحسبون ألف حساب قبل التجرؤ على مهاجمتها.

---

[4] وتسمى أيضا صنهاجة الوسط.

[5] وهي سلة دائرية الشكل، مصنوعة من الدوم؛ ويوجد مثلها في الجزائر، من الحلفة أو الدوم.

القرى الرئيسية بصنهاجة الوطا[6]

قسم بني قرة

- بني قرة، 300 منزل.

- أولاد أزم، 500 منزل. وتنقسم إلى خمسة دواوير يسكنها حفدة ا لشريف سيدي يحيى اليزمي الذي يحظى ضريحه بزيارات كثيرة.

- تازروت، 200 منزل، على واد بني قرة.

- سيدي عبد الله، 100 منزل، على نفس الواد.

قسم بوعادل

- بوعادل، 300 منزل، يوجد بها سوق الاثنين.

قسم بوكنانة

- بوكنانة، 300 منزل. وقد عوض الأهالي صناعة أغماد النبال القديمة بصناعة بارود البنادق.

قسم سيدي داوود

- سيدي داوود، 300 منزل.

قسم بني سلمان

- الواد، 500 منزل، يوجد بها سوق الإثنين.

وهناك نحو خمسين قرية غير معروفة.

- القوى العسكرية: 12 ألف رجل من بينهم ألفي فارس، العدد المحتمل للسكان، 84 ألف نسمة.

نبدة تاريخية عن صنهاجة

حسب أبرز الباحثين في علم السلالات، فإن صنهاجة ترتبط بإحدى العائلتين الأمازيغيتين الكبيرتين وهي عائلة البرانص. وكانت في البداية عبارة عن قبيلة ممتدة الأطراف، تتضمن ثلاثين فرعا، توزعت بقاياها في عصر ابن خلدون، على منطقة تمتد من إفريقية إلى المحيط

[6] كلمة صنهاجة أمازيغية وتعني المتخلية أو التاركة.

الأطلسي. وكانت الجزائر ومدية متضمنتان في بلاد صنهاجة. وسأترك جانبا الجماعات الشرقية، مقتصرا فقط على قريباتها الجبلية المتواجدة بالغرب [المغرب] الأقصى.

إن الحديث عن تاريخ صنهاجة، هو حديث عن قرون عديدة من تاريخ المغرب وعن أبطال الأسرة الصنهاجية الحاكمة، وأقصد بذلك المرابطين؛ وعن أبناء هذه الأسرة الذين أسسوا ممالك عديدة بإفريقيا والأندلس.

ولحسن الحظ، فإن دوري سيقتصر على الاهتمام بالأسرة الثالثة من الصنهاجيين، أي بالقبائل المغربية التي مازالت تقيم إلى يومنا هذا، كما كان الأمر في عصر ابن خلدون، بالمنطقة التي نكتشفها الان بمعية الدرويش. ويذكر ابن خلدون [الجزء الأول، ص. 194 من الترجمة العربية] مجموعة من العائلات المنتمية إلى قبائل صنهاجة التي امتزجت بالمجموعات الغمارية بالمغرب الأقصى. ولم يتغير الوضع منذ تلك الفترة، إذ يبدو أن هذين العنصرين المتنافسين محكوم عليهما بالانصهار. فصنهاجة تمتص باستمرار بقايا الغماريين المتواجدين بجانبها، وينطبق نفس الأمر على غمارة بالنسبة لبقايا الصنهاجيين الواقعين بدائرة نفوذها.

ومن الناحية الجغرافية، فإن المجموعات الصنهاجية بجبالة، تقيم بنفس المناطق التي كانت متواجدة بها في القرن الرابع عشر. وهذه الجماعات منغلقة على ذاتها ولم تلعب أي دور سياسي؛ وتفادت التنقلات الإرادية أو الغير الإرادية التي قامت بها قبائل شهيرة في الماضي.

وقد حافظت على تقاليدها وعزلتها، كما كانت في عصر الموحدين. ويعتقد المرء، بأنه يقرأ صفحة من تاريخها المعاصر وهو يراجع ما قاله ابن خلدون منذ خمسة قرون بصددها. فقد اعتبر هذا المؤرخ العظيم بأننا نجد في القسم الذي يفصل سلسلة الأطلس عن سلسلة جبال الريف، وهو القسم المحاذي للبحر الأبيض المتوسط والمأهول من طرف الغماريين، بعض القبائل الصنهاجية المقيمة بالتلال والوديان والسهول. ويسكن أهاليها منازل مبنية بالحجر والطين. ونذكر من بينها، فشتالة، المشتا، بني ورياگل، بني حميد، بني مزگلدة، بني عمران، بني دركول، بني ورتز، ملوانا وبني أوعمود. ويقيم جميع هؤلاء الأهالي بأراضي ورغة وأمرغو.[7]

---

[7] ابن خلدون الجزء الثاني، ص. 123 من الترجمة الفرنسية. ويوجد جبل أمرغو بقبيلة فشتالة، حيث دفن به الولي مولاي بوشتى. وقد سجلت كل الأسماء المعروفة، المشار إليها في الفهرس، تاركا تلك التي اختفت من خريطة المغرب، بسبب غياب المعلومات الكافية أو بسبب تقلبات الزمن التي أدت إلى اندثارها ونسيانها.

وأريد أن أضيف كلمة أخيرة بخصوص القبائل الصنهاجية بجبالة. فأهاليها مازالوا يمارسون الزراعة وخياطة الحايك والجلابة، لكنهم نسوا تماما اللقب الذي كان يطلق عليهم إلى حدود قيام الدولة السعدية بالمغرب وهو صنهاجة الباز. [انظر، ابن خلدون، الجزء الثاني، ص. 123 من ا لترجمة الفرنسية].

ويروي صاحب الاستقصا [الجزء الثاني ، ص. 88، السطر 11] قصة غريبة حول عين ماء صنهاجية، خرج منها الدم في أحد أيام محرم من سنة 723 هـ [1323 م] من الساعة الرابعة بعد الزوال إلى منتصف الليل.

وكانت هذه السنة رهيبة بكل المقاييس، فقد كان شتاؤها قارسا، تساقطت فيه الأمطار والثلوج بكثرة ولم يجد الأهالي حطبا للتدفئة، إلى درجة أن ثمن هذا الحطب كان يباع في مدينة فاس بدرهمين للرطل.

قبيلة هوارة الحجر

لا جدوى من متابعة جوالنا العظيم خطوة خطوة وقرية قرية على الخريطة. فهو يتنقل كيفما اقتضت الظروف ويقيم أسابيع وشهورا بالقبائل التي تعجبه ويتجول كما يحلو له، دون هدف محدد.

ومع ذلك، انبثقت من هذا الترحال العجيب والفريد في المجال الجغرافي، إضاءات ومعارف ستفيد أجيال المستقبل بكل تأكيد. فهو يمشي على الأقدام ببطء، زارعا البذور التي ستحصد فيما بعد. ويا للفرق الشاسع، بين هذه الطريقة البسيطة والبدائية والسرعة المذهلة لقطاراتنا ولبواخرنا. وقد قرأت مؤخرا عن سفر على متن قطارنا من باريس إلى اليابان عبر سبيريا، حاملا في أحشائه السائح الذي لا يرى سوى دخان القاطرة الناتج عن احتراق الفحم، والأشجار والحقول التي تمر بسرعة وراء النوافذ "والأشباح" المتدثرة بمعاطف من جلود الغنم. وهللت الأكاديمية الفرنسية لهذا الإنجاز وسارعت بدورها إلى وضع تاج فوق رأس هذه النجمة السيارة.

وفي الحقيقة، فإن المرء يرغب في عدم مسايرة هذه الأخيرة والنزول عند أول محطة وتركها تقطع المسافة لوحدها. ففي آخر المطاف، ما الذي يتبقى من هذه السرعة الجنونية؟ مجرد رياح داخل رئتي هذه القذيفة، لا أقل ولا أكثر !

إن أول قرية دخلها محمد بن الطيب في التراب الهواري، هي قرية عساسة المحاذية للحياينة. وتم الاحتفاء به من طرف الطلبة الذين شاركهم تلاوة القرآن المألوفة. وبعد خمسة أيام، غادر رفاقه باتجاه قرية أخرى، متبعا طريقته الخاصة في الاختفاء والظهور، دون ان يخبر أي أحد.

وها هو الآن يعبر الأراضي السهلية لهوارة، متفحصا المزروعات من قمح وذرة ومتفاديا أشواك شجيرات النبق jujubier sauvage، التي تعلق بجلابته والتي تغطي أوراقها الخضراء السهول الجنوبية. وهوارة الحجر قبيلة صغيرة لا تتعدى مساحتها 15 كيلومترا من كل الاتجاهات. وهي محاطة شمالا بجيرانها الصنهاجيين الأقوياء وجنوبا بالحياينة وشرقا بالدسول. ولا يستطيع فرسانها الخمس مائة ولا جنودها المشاة الخمس مائة أيضا،

مواجهة هذه القبائل المذكورة التي لا هم لها سوى ابتلاع "الذبابة" الهوارية. واليوم، فإن الدسول هم المسيطرون عليها، بعد أبعدوا مؤقتا منافسيهم الأقوياء.

ويتميز أهالي هوارة بفظاظتهم وبجهلهم، باستثناء قرية عساسة التي يوجد بها مسجد كبير وبعض المدارس القرآنية. وهم يمارسون حياة الكسل والاختلاس المميزة للشعوب الرعوية. فبلدتهم فقيرة وتقل فيها المياه؛ لذلك كانوا شبه رحل؛ يأكلون الكسكس ويقطعون الطريق.

وبالجنوب، تبدو هوارة الحجر كسهل شاسع، لكنه ملتهب في الصيف. ومع ذلك، فإن أراضيه تصلح لزراعة الحبوب. ومن جهة صنهاجة، أي بالشمال، تبدو بقايا الجبال عبارة عن صخور كبيرة، تعود إليها تسمية القبيلة [هوارة الحجر]. ويعتبر الطقس بهذه المنطقة معتدلا والرياح الصحراوية أقل سخونة مما هي عليه في الجنوب. وتساهم أمطار الشتاء في نمو الأعشاب التي ترعى بها المواشي؛ بل إن الأهالي المحرومين من الخضر، يستهلكون نبات الحماض oseille والخرشوف والقراص [الحريق] ortie. ولديهم عادة غريبة، ففي اول يوم من فصل الربيع يلتهمون نبتة الدرياس Thapsia garganica الممزوجة بالكسكس، مدعين أن من يأكل هذا الخليط في ذلك اليوم، لن يصاب بأي مرض خلال السنة، بما في ذلك الخوف من الماء hydrophobie !

ولا ننسى أيضا، بأننا نتواجد بالمناطق المتاخمة لدائرة فاس، حيث يتفشى داء الكلب؛ ويفسر أهالي السهول هذا الداء بقولهم:

- اعلم يا سيدي، بأن هناك نوع من الطيوريسمم زقه النبات؛ وإذا ما أكل كلب هذا النبات فإنه يصاب حتما بالسعر !

وعند بلوغ تخوم السهل القاسي، يمكن للمرء أن يستمتع في شهري ماي ويونيو بحقول القمح والشعير، حيث تتجاوز السنابل طول الرجل؛ ويتم استعمال سيقانها لتغطية سقوف المنازل. وهذه الحقول شاسعة وهي محاطة بشجيرات النبق التي تمنع أشواكها المواشي من التهام التبن.

وإذا ما كان أهالي جبالة بالشمال، يحمون أكوام التبن بتغطيتها بالديس والدوم وحزمها بشكل جيد وإحاطتها بالأشجار؛ فإن أهالي الجنوب يطبقون الطريقة المستعملة بسهول دائرة فاس، حيث تترك أكوام التبن مكشوفة أمام تقلبات الأحوال الجوية التي تظل مع ذلك، أقل ضررا

مما هو عليه الأمر في المناطق الجبلية. وهناك مختصون في جمع التبن وتكديسه بشكل لا يسمح للأمطار باختراقه. وهو ما يذكرنا بطريقة جمع الأعلاف التي كانت تقوم بها الجيوش الأروبية فيما مضى.

وغير بعيد عن هذه الأكوام، تحفر الأرض لتخزين الحبوب، وهو ما يدعى بالمطمور [جمع مطامير]؛وحينما تكون هناك عدة مطامير فإنها تسمى "المرس" [جمع أمراس]. ويعين حارس لكل "مرس" وهو رجل فقير، يربي الدواجن ويطعمها من الحبوب المتواجدة بكثرة؛ ويتلقى مقابل حراسته، حصة من الشعير والقمح يتم الاتفاق عليها مسبقا. ويظل هذا الحارس يقظا طوال الليل، صحبة كلاب ضخمةذات شعر بني؛ وهي عدوانية وتظل تنبح من المساء إلى الصباح دون كلل؛ لأن هناك العديد من اللصوص الذين يرغبون في نهب مخازن الحبوب .

وهناك علاقة قرابة بين هوارة الحجر وهوارة تفراطا[1] الذين يدعون بانهم منحدرون من هوارة سوس؛ وهي قبيلة شاسعة تقع ب الجبال الموجودة بين أكادير وتارودانت.

ويرجع أصل الولي الصالح سيدي الهواري المدفون بفكيك إلى هوارة سوس. وهو جد العديد من الأولياء الذين نذكر من أشهرهم؛ سيدي أحمد الهواري بمدينة وهران وسيدي محمد الهواري بأنجاد [الدهرة المغربية] وسيدي الهواري الذي يوجد ضريحه ما بين عين الصفرا والبيوض [دائرة وهران أيضا].

القرى الرئيسية بهوارة الحجر

هوارة كلمة أمازيغية وتعني شامخ. وتجدر الإشارة إلى أن الواو تم تشديدها في اللغة العربية وهو ما لا يمكن نقله إلى اللغة الفرنسية.

قسم بني محمد

- الحجر، 100 منزل، قرب منبع واد هوارة.

[1] وتسمى أيضا هوارة الأحلاف [الدهرة المغربية].

قسم بني عبد الله

- أولاد علي، 100 منزل

قسم أمساس

- أمساس [الأحجار المشحوذة]، التسمية أمازيغية، 200 منزل.
- القصور، 50 منزلا.
- الزرارقة، 100 منزل؛ وتسمى هذه القرى الثلاث هوارة الوطا.
- القوى العسكرية: 500 جندي من المشاة و 500 فارس.

العدد المحتمل للسكان: 7 ألاف نسمة.

وتوجد حوالي 15 قرية غير معروفة.

نبذة تاريخية عن هوارة الحجر

هي فرع من القبيلة الأمازيغية الكبيرة، هوارة طرابلس. وقد برزت المجموعة الهوارية بالمغرب الأقصى تاريخيا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، من خلال تمرد هوارة سوس على الإمبراطورية الموحدية.

وتعتبر هوارة الحجر الصغير محظوظة، لأنه لم يدون تاريخها.

قبيلة الدســـــول

ما أن بزغ الفجر حتى تابع محمد رحلته، تاركا وراءه قرية أمساس، إلى أن بلغ تراب الدسول. وبعد مروره بعدة قرى صغيرة، وصل عند غروب الشمس إلى عين إنڨوشت، وهي قرية كبيرة توجد وسط القبيلة واستقر طبعا في المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة. وفي الصباح، استمتع بمشاهدة العين النابعة وسط القرية والمسماة عين انڨوشت التي سنوضح معناها لاحقا. وبعد بضعة أيام من الاستراحة، قرر القيام بجولته الاستكشافية عبر ربوع القبيلة.

إن الدسول هي قبيلة كبيرة، تمتد من الشرق إلى الغرب، من هوارة الحجر إلى تراب مكناسة [دائرة فاس] وأولاد بكار والبرانص، أي من الحياينة [دائرة فاس] إلى مرنيسة وصنهاجة الغدو وصنهاجة الوطا على مسافة ثلاثين كيلومترا.

ولا توجد بها جبال شاهقة، بل تلال غابوية فقط، تكثر بها شجيرات الصبار والدوم وأيضا أشجار الفستق. وبالأراضي المنخفضة بالجنوب وخصوصا بالسهل الكبير لعين ݣَوطار، تمتد حقول القمح والذرة البيضاء والفول، على مساحات شاسعة؛ في حين لا نرى بالجبال الشمالية سوى أشجار الزيتون والتين والعنب وبساتين الفواكه الأخرى.

وتسقى المنطقة بالعديد من المنابع، كما يوجد بها نهران مهمان وهما: واد بني امحمد المسمى واد اللبن عند تخوم الحياينة؛ وواد مشكور الذي يأتي من صنهاجة ويصب في واد اللبن عند دخوله إلى دائرة فاس. ودواوير القبيلة صغيرة جدا، بحيث يتراوح عدد منازلها بين 10 و 100؛ وتبنى هذه المنازل بالحجارة والطين، كما توجد بها ردهات مغطاة بالقصب والدوم. ويحتوي كل دوار على مسجد ومدرسة ابتدائية، يعلم فيها المدرس القرآن على مدى سنوات، كي تظل أدمغة المتعلمين المسلمين، خاضعة على الدوام لتعاليمه المقدسة.

وتتألف الدسول، هذه القبيلة القوية، من خمسة أقسام، يعبئ كل واحد منها 1600 عسكري، نصفهم من المشاة والنصف الاخر من الفرسان. لذلك، تحظى القبيلة باحترام جيرانها بالجنوب وهم الحياينة وغياثة.

ولا حاجة للحديث عن السلوك الأخلاقي للأهالي، فهم لصوص وقتلة، وبإمكانهم قتل أجنبي من أجل أمتعته وأحيانا من أجل قميصه. وهم يشكلون مع أهالي غياثة، سدا أمام ممر بتازة

يدعوه المغاربة "فم الغرب". وبالرغم من كون السلطان يقيم معسكره في الكثير من الأحيان بأراضي الدسول، إلا أن الجرائم لا تقل؛ فالجيوش المخزنية التي يفترض فيها مراقبة الأهالي، تمارس قطع الطريق مثلهم.

وفيما مضى كان أهالي الدسول أقوى مما هم عليه الآن، وكانوا يسودون على البرانص ومكناسة وتازة. أما اليوم فقد بقي لهم، فضلا عن التفوق المعنوي على البرانص، نصف تراب مكناسة وهوارة الحجر التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا والتي لم تعوض فقدانهم لتازة التي أصبحت تحت سيطرة غياثة.

ولا تخفى على أحد، أهمية الدسول كقبيلة حدودية، فهي قادرة لوحدها بأقصى جنوب – شرق جبالة، على مواجهة جماعة الغزاة من الحياينة وغياثة.

لكن، وجبت الإشارة إلى أنها تتلقى الدعم من حلفائها وأتباعها وتحديدا من البرانص وأولاد بكار وهوارة الحجر.

وقد ساهم احتكاك القبيلة بعرب الدهرة ودائرة فاس، في تغيير عاداتها وتقاليدها، بحيث لم تعد مختلفة عن هؤلاء. فهي تتكلم نفس لغتهم وتتناول نفس الأطعمة وخصوصا الكسكس وتحمل نفس الأسلحة وتضع نفس القبعة الكبيرة. وكجبليين، فإن أهالي الدسول لا يلبسون البرنوص ويكتفون بالحايك والجلابة؛ أما النساء فهن متحجبات وربات بيوت جيدات؛ وهن يساعدن الرجال في خياطة الملابس وصنع القفف الكبيرة والقبعات وحصائر الدوم. لكن الجنس الخشن يحتفظ بصناعة البنادق.

وقد اشتهر أهالي الدسول منذ زمن طويل بممارسة قطع الطريق وبشراستهم؛ وهي شهرة لا يحسدون عليها.

وغالبا ما يتحاشى المسافرون المرور قرب حدودهم. فالأجانب، بما في ذلك عساكر المخزن القليلو العدد يخشون هذه المنطقة الخطيرة.[1]

---

[1] مما يدل على غياب الأمن بالطريق الرابطة بين وجدة وعاصمة الإمبراطورية الشريفة، أن عامل وجدة كان مضطرا لأخذ المركب من نامور إلى طنجة، ليتوجه بعدها إلى فاس محاطا بحراسه.

وإليكم التلغراف الرهيب الذي نشرته الجرائد الجزائرية بتاريخ 20 نوفمبر 1897 والذي جاء فيه ما يلي:

وصل اليوم إلى نامور، عامل وجدة محاطا بحراسه. وعلى ما يبدو، فإن هذا الموظف السامي استجاب لدعوة السلطان. وسيأخذ المركب يوم الاثنين إلى طنجة بمعية مرافقيه".

كما أن الحمار [ساعي البريد المخزني]، يتفاداها أيضا، فهو يمر عبر مكناسة وتازة، ما بين الحياينة وغياثة؛ ويتابع طريقه بأراضي الحياينة، مبتعدا بكيلومترات عن لصوص الدسول المرعبين. أما التجار والقوافل العادية وكل اولئك الذين تضطرهم الظروف للمرور بالقرب منهم، فغالبا ما يتعرضون للهجوم من طرف هؤلاء الأوغاد.

ولا يتوصل السلطان ببعض الضرائب من الدسول، إلا بعد أن تغزوهم عساكره سنويا؛ علما بأنه يطالب بمستحقات سابقة لم تلتزم القبيلة بأدائها. والأمر الخطير بالنسبة للدسول الرهيبين، هو أنهم لا يحترمون أحدا. فحتى الشرفاء أنفسهم تنهب أمتعتهم وكأنهم يهود، إذا ما سولت لهم أنفسهم التجول بأراضي هذه القبيلة، التي يمكن فقط للطالب الفقير وللمعلم الباحث عن عمل زيارتها دون خوف . إن الدسولي شرير ومرعب، تتناقض فظاظته المعادية للهو والمتعة، مع الطبيعة المرحة لأهالي جبالة الآخرين. وعلى طول الطريق بين وجدة والرباط حيث من المفروض أن تنشط المبادلات التجارية لا تسمع سوى اللعنات على الدسول قطاع الطرق.

وبالفعل، نادرا ما تجد أجنبيا لم يسقط في شباك هؤلاء الأوغاد المستعدين دوما لنهب المارة ولضرب كل من يحمل بضاعة أو نقودا، بالرصاص أو بالسكين. ولا يستطيع القياد البئيسون تغيير هذا الوضع؛ وكل ما يفعلونه عندما تأتي جيوش المخزن إلى المنطقة، هو جمع بعض الضرائب الهزيلة؛ وما أن تعود الجيوش إلى ثكناتها، حتى يتحصن هؤلاء القياد في مساكنهم ويتركون لكل واحد حرية النهب والسرقة والقتل حسب هواه.

فهذا البلد الجميل يسحر أبناءه غير المروضين، ولأنه غني، فهو يكفي لسد حاجياتهم؛ ذلك أن كل النعم موجودة به ونذكر منها الحبوب والعجول والغنم والماعز والجياد والفواكه. ونشير أيضا، إلى أن الدسولي الذي يقترف جرائم عديدة لا يفكر في مغادرة موطنه، حتى لا يكون عرضة لانتقام ضحاياه. إن أهالي الدسول الذين لم يحظوا بتربية حسنة والذين علموا أبناءهم الزراعة وقطع الطريق، لا يعيرون أي اهتمام للتعليم، ما داموا لا يتوفرون على مؤسسات تعليمية ذات مستوى محترم ولا على الكثير من الطلبة. ومن الناحية الدينية، فهم غير ورعين ولا يصلون ولا يتوضؤون؛ ومع ذلك، فهم يحافظون على ركن أساسي في الإسلام، وهو صوم رمضان. والويل لمن خرق قاعدة الصيام أمامهم. ويعتبر سوق مكناسة أهم سوق

بالقبيلة ويفتح أبوابه كل يوم أربعاء خارج القرية التي تتوفر على حصنين، لكل واحد منهما أسواره الخاصة به؛ بغرض مراقبة الأجانب الذين ينوون ممارسة النهب والسرقة. وتتم بهذا السوق، أهم المبادلات التجارية على مستوى المغرب الشمالي؛ ويمتد موقعه على مساحة كبيرة تشغل ضفاف النهر الذي يجري تحت أسوار الحصنين. وهناك، يجتمع أيضا عرب الدهرة المغاربة لبيع وشراء الأغنام والجياد والبغال والجمال والصوف والبنادق الخ..

وتخضع مكناسة الفوقانية لهيمنة الدسول، في حين تخضع مكناسة التحتانية لسيطرة غياثة. وفيما مضى كان المكناسيون يشكلون قبيلة كبيرة من الرحل. ونظرا لتعرضهم المستمر لاعتداءات غياثة وهوارة الأحلاف والدسول، فإنهم شيدوا الحصنين المذكورين أملا في التخلص من المعتدين. وقد نجحوا في ذلك إلى حد ما، حيث أصبح نصفهم محميا من طرف غياثة والنصف الآخر محميا من طرف الدسول.

وعندما يكون هؤلاء في حالة سلم مع غياثة، وهو أمر نادر، فإنهم يأتون إلى سوق تازة الذي لا يفصلهم عنه سوى ممر تازة الذي يبلغ عرضه 10 كيلومترات. وقد شيدت مدينة تازة فوق هذا الممر المميز بالمغرب الأقصى لأنه يؤدي إلى حوض سبو ويكشف عن قلب المغرب أمام الغزاة القادمين من الشرق.

لكن ضعف الجيوش المخزنية، جعل هذه المدينة البئيسة عرضة لعنف غياثة اليومي. فهي لا تتوفر على مدافع وليس بها حاميات عسكرية حقيقية؛ لأنه من الصعب تسمية ثكنتين أو ثلاث ثكنات يوجد بها عشرات الجنود الذين ترتعد فرائسهم خوفا على أنفسهم؛ بالحاميات العسكرية. والحال، أن بإمكان كتيبة أروبية واحدة، السيطرة بسهولة على تازة. ومع ذلك فإن هذه المدينة تحتل موقعا رائعا، سواء من الناحية الاستراتيجية أو من الناحيتين الجغرافية والتجارية. فهي تجثم على علو 710 متر فوق صخرة يصعب النفاذ إليها من أية جهة، باستثناء الجهة الجنوبية الشرقية التي تلتقي فيها بجبل غياثة. فلو كانت تازة بيد سلطة ذكية، لأصبحت هي جبل طارق البري للمغرب. فعلى سطحها، يمكن ان تمتد السكة الحديدية التي ستربط بين المغرب الأقصى ومستعمرتنا الجزائرية؛ وتحت مراقبة مدافعها، ستتحرك قوافل التجار المسالمين، القادمين من فاس ووجدة أو العائدين إليهما. ذلك هو ممر المستقبل وجسر

التواصل الوحيد والطريق الرئيسية التي ستسمح يوما ما، بالتقاء الشعبين المتواجدين على حدود كل من الجزائر والمغرب.

إنني أتحدث الآن عن إقليم، سيكون موضوع عمل في المستقبل. فقد اعتبرت بأنه من الأفضل إدراج تازة ضمن دائرة البرابر، نظرا لخضوعها لغياثة وتبعيتها للأطلس المتوسط، على الجانب الآخر من سلاسل جبالة.

ومع ذلك، لم أتمالك نفسي، وأنا أتواجد بالقرب منها، من الحديث عن "فم المغرب"، هذا المضيق البري الهام الذي يمكن أن تمر منه في المستقبل،القوافل التجارية والسياح والجغرافيون والمفكرون ذوو الرؤية البعيدة.

وفي فصل الصيف، يصبح طقس الدسول، خصوصا في المناطق السفلية، غير صحي، حيث تنتشر الحمى ويكثر ضحاياها في الدواوير التي لم يتمكن أهلها من الصعود إلى الهضاب؛ وعندئذ يكثر دفن الموتى وتمتلئ القبور.

- عادات وتقاليد جنائزية:

ما دام هذا الموضوع المحزن قد عرض نفسه بتلقائية تحت قلمي، فإنني سأعالجه دون ادعاء استنفاذه ، فكل ما أستطيع فعله هو ملامسته.

فمن المعروف أن جبليي الجنوب، رجالا ونساءا، وخصوصا النساء، يزورون مقابر ذويهم يوم الجمعة. وبالشمال، يخصص يومان لهذه الزيارات الورعة وهما الاثنين والجمعة. وتذهب النساء جماعات متبوعات بأطفالهن، وقد حملن معهن أطباقا مليئة بالطعام، توضع فوق قبر المرحوم.

ويأتي الطلبة في ذلك اليوم إلى المقبرة، لأن رائحة الطعام تجلبهم. هكذا، يقومون أولا بزيارة قبر الولي المدفون هناك، إذ لن تجد في كل إفريقيا الشمالية، وخصوصا بالمغرب، مقبرة بدون وليها. ويا لسعادة الميت الذي سيظل بجوار ولي الله صاحب الكرامات، إلى يوم البعث. وسواء تعلق الأمر بحاجز حجري [حوش] أو بضريح مزين بأجواخ مطرزة بخيوط الذهب والفضة، فإن الطلبة يتحلقون حول قبر الولي ويشرعون في تلاوة سورة الفتح والتي مطلعها: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا". وبعد قراءتهم للآيات التسع وعشرين من هذه السورة، يتفرق الطلبة وسط القبور في انتظار المناداة عليهم.

وبالفعل، فإن النساء يطلبن منهم تلاوة بعض الآيات القرآنية، ترحما على روح فقيد قديم أو حديث العهد؛ فيستجيبون مبتسمين وقد تفتحت شهيتهم لرؤية الطعام. هكذا، يتحلقون حول القبر ويشرعون في تلاوة سورة الفتح محركين رؤوسهم يمينا وشمالا؛ وعند ختم السورة، يقدم لهم الطعام وبضع سنتيمات. أما حينما تكون النساء مستعجلات للعودة إلى بيوتهن، فإنهن يتركن الطعام وبعض النقود فوق القبور ويغادرن المكان. واول طالب يمر من هناك، يأكل الطعام ويأخذ النقود، ثم يقرأ بسرعة ما تيسر من الذكر الحكيم على قبر المرحوم. وبقبر الولي، توجد دوما أطباق الطعام وبعض القطع النقدية. وهو ما يفسر إسراع الطلبة بزيارة مكانه المقدس أولا.

وعندما توافي المنية شخصا داخل بيته، يجتمع الطلبة بمنزله ويبدؤون بتلاوة سورة طه، وهي مليئة بالأحداث التوراتية، المتعلقة بموسى وفرعون وآدم وحواء.

وهذه النزعة الأخروية eschatologie الإسلامية الحسية والإنسانية بشكل كبير، لم تأت بأي جديد، من خلال آياتها المؤثرة. فنحن نوجد من جرائها أمام نهاية العالم. فهل تسمعون النفير المنادي بهذه النهاية التي ستحول العالم إلى مقبرة شامخة؟

ولا يبدو أي حزن ولا أي حداد ولا أي نحيب بمنزل الفقيد. فالنساء اللواتي يجهلن طريقة الندب الممارسة بالجزائر، يزغردن على العكس من ذلك.

وفي جميع الأحوال، فإن جثة الميت لا تبقى كثيرا بالمنزل، حيث يتم إخراجها للدفن بعد ساعات من الوفاة. هكذا، إذا توفي الشخص قبل الفجر، فإن الجنازة تقام في الظهر، وإذا ما توفي في الصباح، فإنها تقام في العصر؛ أما إذا وافته المنية في الليل، فإنه يدفن في الصباح، بعد السهر على الميت ليلا، حيث يتلو الطلبة بالتناوب، سورتي الفتح وطه مع التوقف بين الفينة والأخرى، لتناول الأطعمة المقدمة إليهم.

هكذا، وبعد أن يسلم الشخص روحه إلى خالقه، تنزع عنه ملابسه ويتم غسله وتكفينه وتركه ممددا فوق حصيرة مع توجيه رأسه صوب مكة. وعند إعلان الخبر الأليم، يتوافد أقرباء وأصدقاء الفقيد إلى المنزل، ويقتربون من جثته ويقبلون وجنته أو جبهته دون إبداء أي شعور بالحزن. فقد اقتضت العادة ألا يعبر المرء عن ألمه بالصراخ المألوف لدى مسلمي الجزائر

وتونس. فالجبرية المغربية المدفوعة إلى أقصى الحدود، هي بمثابة درع فلسفي تتحطم فوقه كل الآلام المادية والمعنوية. فالرجال يواسون بعضهم بعضا بهدوء قائلين:
- لا تبكوا، فإن الميت بلغ أجله كما سنبلغه نحن.
أو ليس الموت أمرا حتميا؟ فقد قال تعالى ما معناه أن الأجل حينما ينقضي، فهو لا يتأخر ولا يتقدم مقدار ثانية. وكل نفس ذائقة الموت.
وما أن يشيع خبر موت أحدهم، حتى تتوافد الحشود إلى منزله؛ فمن الناس من يأتي لتقديم العزاء بصدق، ومنهم من لا يهمه سوى ملء بطنه على حساب عائلة المرحوم. فهناك عادة مكلفة لأسرة الفقيد وتتمثل في إطعام الزوار خلال أربعين يوما وليلة. وأشدد على هذه الأخيرة، لأن شهية هؤلاء الزوار تنفتح في الليل أكثر من النهار؛ أثناء الاستماع إلى مناقب المرحوم. ومعروف عن جبالة، إقامتهم لمآدب ضخمة في مثل هذه المناسبات الأليمة. فهم يذبحون بدون حساب العجول والخراف والماعز ويهيؤون أطعمة مكونة من اللحم والمشويات والحساء والخبز والفاكهة؛ في حين لا يقدم مغاربة السهول والبرابر، سوى وجبة مأتمية من الكسكس المرفوق بقطع اللحم.
و لايبدأ الأكل إلا عند العودة من المقبرة. ويستغل الزوار القادمون من أماكن بعيدة، الوضع للبقاء أربعة أو خمسة أيام. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن العادة تقتضي من أسرة الفقيد، إرسال أطباق الطعام إلى متسولي القرية يوميا. لذلك، فكثيرا ما يذوب جزء من ميراث المرحوم في البطون التي لا تشبع أبدا.
ويشتكي المسلمون المتعلمون في السر، من هذه العادة السخيفة. لكنهم لا يجهرون بموقفهم، حتى لا ينعتهم المتعصبون بصفة "رومي" أو كافر؛ ولهذا فهم لا يستطيعون إزالة هذه العادة ويقبلون هيمنتها السخيفة بنوع من الاشمئزاز.
وكما هو معلوم، فإن المسلمين يغسلون موتاهم. ويقوم بهذا العمل المنفر، غسالون وغسالات، يحترفون هذه المهنة. وبعد غسل الميت بالماء الفاتر، يرش عليه ماء الورد والكافور والمسك، ثم يلف في كفن ويمدد فوق لوح خشبي، قبل نقله إلى مثواه الأخير.
وعلى رأس الموكب، ينشد الطلبة قصيدة البردة الشهيرة في مدح الرسول (ص). وعند الانتهاء من كل بيت، يصيح المستمعون بصوت واحد:

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

- عمليات الدفن بالشاون:

عندما توافي المنية شخصا بأحد أحياء المدينة، يقوم الجناز[2] بجولة عبر أزقتها صائحا:

- فلان ابن فلان توفي والجنازة ديالو في الوقت الفلاني.

ويأتي الطلبة والفقهاء الراغبون في نيل أجر دنيوي وأخروي، إلى منزل الميت قبل دفنه بساعة أو ساعتين. ويتحلقون حوله تحت رئاسة إمام مسجد الحي، ثم يشرعون في تلاوة قصيدة البردة. بعد ذلك، يكلف الإمام كل طالب بتلاوة حزب من الأحزاب الستين للقرآن، بحيث يمكن إنهاؤه في ظرف وجيز، إذا كان هناك ستون طالبا. وعندما تنتهي هذه العملية يصفق الإمام بيديه، فينهض الجميع ويحمل بعض الأميين النعش على أكتافهم ويتبعهم الطلبة وهم يرددون: "لا إلاه إلا الله، محمد رسول الله".

ويكرر الجميع هذه العبارة حتى بلوغ المقبرة، عندئذ يقوم الإمام بوضع الجثمان على حافة القبر وينادي المؤذن بصوت مرتفع:

- صلاة الجنازة يرحكمك الله[3]

ثم يضيف: جنازة رجل،[4] أو بحسب الحالات : جنازة امرأة أو صبي أو صبية.

[ملحوظة المترجم: من المعلوم أن صلاة الجنازة لا تقام، عندما يتعلق الأمر بالصبيان].

بعد ذلك، يقوم الطلبة بتلاوة سورتي "يس" و "الملك". وسواء كان اليوم ممطرا أو كثير الرياح أو حارا أو باردا، فإن الجميع يظل واقفا إلى أن يقوم حفار القبور [القبابون]، بموارا‌ة الفقيد الثرى، بمعية فؤوسهم ومعاويلهم.

وقبل مغادرة المكان، يتلفظ كل واحد بالدعوة التالية:

- الله يتوب عليه ويغفر ليه إن شاء الله.

---

[2] وهو الذي يعلن عن وفاة الشخص وعن يوم وساعة دفنه. ويلاحظ الاختصاصيون بأن هناك استعمالا لحرفي الجيم والگاف عند النطق بالكلمة في الدارجة الجبلية.

[3] المثير في هذه العبارة، هو أن تاء كلمة "الجنازة" تنطق مفتوحة، وسيدرك أي مستعرب عادي الخطأ، لأن التاء يجب أن تكون مكسورة.

[4] نفس الملاحظة السابقة، فاللام يجب أن تكون مكسورة وليست مرفوعة.

وينفض الجمع عن المقبرة، فمن الناس من يرجع إلى داره ومنهم من يذهب إلى منزل المتوفى، لتناول طعام الجنازة المكون من الكسكس واللحم. وفي كل صباح، على مدى أسبوع، يذهب الطلبة إلى القبر لتلاوة سورتي "يس" و "الملك".

وفي اليوم الثامن، يحضر أقارب الفقيد ويوزعون عليهم بعض الأطعمة والنقود. وهي لحظة ممتعة بالنسبة لهؤلاء الطلبة الذين يلتهمون الطعام بصمت، إذا كان هناك حضور لأهل الميت، وبثرثرة وجلبة إذا كانوا وحدهم بالمقبرة.

ومعلوم أن يوم الجمعة هو اليوم المقدس لدى المسلمين؛ وهو اليوم الوحيد الذي يحمل فيه نعش الميت إلى المسجد للصلاة عليه قبل دفنه. ويجب ان يحظى المرء بالموت ما بين الخميس زوالا والجمعة زوالا أيضا لكي تتم الصلاة على جثمانه من طرف إمام المسجد وباقي المصلين. [ملحوظة المترجم: لا يعلم موليبيراس بأن الصلاة على الميت تتم في كل يوم وليس خصيصا يوم الجمعة !] وهناك معلومة أخرى، تجب الإشارة إليها، وهي تتعلق بثمن المقابر في المغرب. فما هو ثمن تلك البقعة التي سيوضع فيها الميت إلى الأبد؟ ولا حتى سنتيم و احد. وإليكم السبب: كل المقابر الإسلامية خاضعة للحبوس، بمعنى أن ملاك الأراضي التي توجد بها المقابر، وهبوها لوجه الله. لذلك، فإن عظام الموتى لا يتم نقلها أو رميها في مقابر جماعية، كما هو الشأن عندنا، بل تظل راقدة باطمئنان في اماكنها. وعندما تمتلئ المقبرة، يقوم المزارعون المجاورون لها، بمنح قطعة من أرضهم بكل أريحية، لتمديد مساحتها.

وإذا لم يصدر قانون خاص بهذه المسألة، فإنه يمكن لأي رياضي بأن يقدر عدد القرون اللازمة، لكي تصبح هناك مقبرة واحدة لا متناهية الأطراف في المملكة الشريفة. مثلا، في الشاون هذه المدينة الصغيرة والحديثة العهد، يوجد أكثر من عشرين مقبرة خارج أبوابها وتشغل حوالي أربعين هكتارا. وأقتصر هنا على ذكر أهمها وعددها سبعة وهي: مقبرة مولاي علي بن راشد، مقبرة مولاي عبد الرحمن الشريف، مزارة مولاي عبد السلام[5]، مقبرة فوق السوق، مقبرة جنان القايد، مقبرة سيدي عبد الحميد، مقبرة سيدي أحمد الوافي.

---

[5] لاحظوا التمييز الحاصل على مستوى الألفاظ: فبالنسبة لمولاي عبد السلام، هذا الولي العظيم، استعمل لفظ مزارة كمكان مقدس يقصد للتبرك، وبالنسبة للصالحين الآخرين تم الاكتفاء بلفظ مقبرة.

وهناك ملاحظة أخيرة، وهي أن المرضى يختارون المقبرة التي يريدون أن يدفنوا بها؛ وعادة ما يتم تحقيق رغبتهم.

لنترك الشاون الآن ولنتحدث عن جبالة عموما. إن النساء لا يمشين وراء نعش الميت، فهن يبقين بالمنزل لتهييء الوجبة المأتمية. وكما سبقت الإشارة، فإن الأميين يتناوبون على حمل النعش فوق أكتافهم؛ لكن حينما يكون الموكب طويلا والطريق ضيقة، فإن الأشخاص المتواجدين في الصفوف الأخيرة، لا يستطيعون اختراق الحشد لحمل الجثمان بدورهم، لذلك فإنهم ينشغلون بأحاديث تهم مشاكلهم الشخصية، كما هو الشأن في جنازات النصارى واليهود.

وكما قلنا أيضا، فعند وصول النعش إلى المقبرة، يوضع الجثمان على حافة القبر ويشرع الطلبة في تلاوة سورة "يس" ثم يتم إنزاله داخل القبر إما بالأيادي مباشرة أو بالاستعانة بحايك يستخدم كحبل؛ ويوضع بنجاح داخل الحفرة التي لا يتعدى عمقها ما بين 80 سنتيمترا ومتر. وما أن يختفي الجثمان تحت اللحد، حتى يقوم حفار القبور بملء القبر بالتراب، وخلال هذه العملية يتلو الطلبة سورة "يس" و "الملك" ولا يتوقفون عن التلاوة إلا بعد تسوية القبر. عندئذ يقدم وريث الفقيد لمقدم الطلبة قدرا ماليا يتراوح ما بين 5 و 20 قرشا لكل طالب؛ وذلك حسب ما تسمح به إمكانياته. ولا يقدم المال إلا للطلبة الذين يحسنون تلاوة القرآن؛ ويتراوح عددهم، بحسب سكان القرية وثروة المتوفى. فهو يبلغ في المتوسط 10 طلاب ويصل إلى 30 أو 40 وحتى 100 طالب، عندما يتعلق الأمر برجل صالح؛ وينزل إلى 5 أو 6 طلاب بالنسبة للجنازات المتواضعة.

بعد ذلك، ترجع الجموع إلى منزل الفقيد لتناول الوجبة المأتمية. وفي البداية يسود صمت القبور، فلا تسمع سوى صوت المضغ، وبعد فترة، يتم تبادل الأحاديث، بل تسمع أصوات الضحك أيضا. وإذا ما تفحصنا الحاضرين فسنلاحظ بأنهم يتشكلون من المجموعات التالية:

1) هناك الورثة الذين يترقبون بشوق، الحصة المخصصة لهم من الميراث.

2) هناك الطفيليون الذين يأتون لملء بطونهم فقط.

3) أما أغلب الحاضرين، فيتكونون من الأصدقاء والأقارب البعيدين الذين كانت لهم مشاكل مع ا لفقيد والذين ارتاحوا لموته، مرددين في قرارة أنفسهم، المثل العربي

القديم "البحر عليه" وهي عبارة شبيهة بعبارتنا الفرنسية: que le diable l'emporte [ليذهب إلى الجحيم].

إن ما يميز جبالة هو هذا الجانب المرح خلال الجنازة، وهو ما لا نراه في الأقاليم المغربية الأخرى. فعند البرابر مثلا، يسود العويل وتلطم النساء خدودهن وينوح الرجال ويلقون التراب على وجوههم؛ كما تقوم امرأة عجوز بذكر مناقب المتوفى. ويرغب الجبليون في دفن موتاهم بعيدا عن القرية، داخل غابة إن أمكن وتحت ظل الأشجار الباسقة.

وبالمدن، عادة ما توجد المقابر خارج أبوابها. وهناك تلة صغيرة تعلن عن وجود القبر وبطرفيها يوجد "شاهدان" وهما لوحان من الرخام بالنسبة للأغنياء ومن الحجر أو الخشب بالنسبة للفقراء، كتب على أحدهما: "توفي إلى رحمة الله، فلان ابن فلان"، مع تحديد تاريخ الوفاة.

من جهتهم، فإن القرويين لا يهتمون كثيرا بهذه الشواهد ويضعون أحجارا دون أن يكتبوا عليها شيئا. وتبتعد مقابر اليهود عن مقابر المسلمين؛ كما يمكن التعرف عليها من خلال شواهدها الضخمة المليئة بالكتابة العبرية. ويكتفي فقراء اليهود ببعض الحجار أو ببلاطة مطلية بالجير. ووسط المقبرة توجد دوما "ميعارة" وهي قبة صغيرة يرقد تحتها جثمان حاخام مقدس [ربي Rebbi]. ونعتقد بأنه من المفيد الآن، معرفة مآل جثث المحاربين الذين قتلوا في ساحات المعركة. فبعد معارك دامية، يضطر الطرفان إلى توقيع معاهدة صلح؛ عندئذ يأتي كل طرف للتعرف على موتاه الذين يتم دفنهم بالقرية إذا كانت قريبة. أما إذا كانت بعيدة، فإنهم يدفنون في عين المكان، بعد الصلاة عليهم.

لكن، حينما تكون الحرب قائمة بين قبيلتين من عرقين مختلفين وتكرهان بعضهما بعضا منذ قرون، فإن الفظائع ترتكب في حق القتلى. فالمنتصر يشوه جثة العدو بشكل مريع؛ حيث يتركها عارية في الخلاء بعد قطع العضو التناسلي والزج به في فم القتيل. وتنضاف إلى هذه الفظائع، عمليات قطع الأوصال والإحراق.[6]

وفي غالب الأحيان، لا يجرؤ المهزومون على نقل موتاهم، فتتحلل الجثث في العراء وتسمم الجو برائحتها النتنة على بعد ميلين على الأقل.

---

[6] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 169، الهامش 53.

وفي إحدى الليالي، بينما كان الدرويش يتجول بقبيلة مرنيسة، باغته ظلام الليل، فبحث لنفسه عن حفرة يقضي بها ليلته. ولم يستطع النوم بسبب الروائح التي كانت تنبعث من المكان. وعندما اقترب الفجر، تمكن من النوم، لكن انتابته عدةكوابيس. فتارة كان قطاع ال طرق يخنقون أنفاسه، وتارة كانوا يلقون به من أعلى الجبل، فاستيقظ مذعورا بعد أن رأى في حلمه جماعة تطلق عليه الرصاص وقال: "إن هذا المكان لا يصلح للنوم بتاتا". واختار مكانا أبعد؛ وفجأة اصطدمت رجله بشيء مكور، يسمع بداخله صوت الأحجار. فالتقط ذلك الشيء الكروي وفحصه جيدا وشمه، عندها أدرك بأن الأمر يتعلق برأس آدمي، فرماه بعيدا وفر هاربا، لكنه وجد نفسه وسط حقل مليئ بالأضلع وبالهياكل العظمية والجماجم، فاضطر للدوس عليها قبل الوصول إلى الغابة؛ وهناك جلس تحت شجرة منتظرا شروق الشمس ومسلطا نظراته الزائغة على الحقل الرهيب. بعد ذلك، تابع طريقه إلى أن وصل إلى نهر ورغة؛ وهناك روى لأهل البلدة قصته، فأجابوه دون تأثر:

- لقد أبيد مئات الصنهاجيين والغماريين بذلك المكان. وكان من الصعب حفر مقبرة جماعية لكل القتلى، فتركوا بدون دفن، وقد مر على هذا الحدث حوالي عام.

والآن، يجب ألا ينسينا هذا الاستطراد الطويل، أهالي الدسول. فلنعد إلى هؤلاء اللصوص الممشوقي القامة ولنفحص حياتهم الداخلية. فهناك شيء مثير لديهم وهو عدم وجود العايل [الغلام]؛ فما السبب في ذلك؟

إن السبب راجع إلى كون الدسول يتواجدون بالقرب من البرابر القساة الذين لا يطيقون تهتك جبالة . ولأن الدسوليين أميون في غالبيتهم، فإنهم لم يتبينوا موقف القرآن من جرائم قوم لوط ولم يكونوا فكرة واضحة عن هذا العمل الشنيع. بالمقابل، يوجد لديهم تعدد الزوجات وما يثيره من مشاكل وكذلك الطلاق والخيانة الزوجية.

القبائل الجزائرية التي لجأت إلى المغرب:

بعد احتلال الجزائر سنة 1830، اعتبرت بعض القبائل الجزائرية أن دينها لا يتلاءم مع مبادئ الأمم النصرانية، مبررة موقفها بكون التعاليم القرآنية تدعو إلى عدم مهادنة الكافرين.[7]

---

[7] كمثال على ذلك، انظر الآية 23 من سورة التوبة والتي جاء فيها: "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، ان استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم، فأولئك هم الظالمون".

وعندما دخلت الكتائب الفرنسية إلى الجزائر، قرر أهالي هذه القبائل الهجرة، متخذين هجرة الرسول وتجنبه لشرور الكفار كقدوة.

هكذا، رافقت قبيلتا بني عامر وهاشم بوهران الأمير عبد القادر الذي غادر البلاد بعد هزيمته وقصد المغرب. لكن، كم كانت خيبة ظن الجميع ! فأرض الإسلام هاته، لم تستقبلهم كما يجب، ونظر أهاليها بعيون الطمع لمواشيهم وزوجاتهم وثرواتهم. وقد اضطر المهاجرون البئيسون إلى شق طريقهم بالسيف، من وجدة إلى الحياينة، حيث استقروا مؤقتا.

ولما علم السلطان المولى عبد الرحمن بأنهم يرغبون في المجيء إلى فاس، مهما كلفهم ذلك من ثمن، اعتقد بأن الأمير عبد القادر طامع في عرشه، فاستنهض ضد القبيلتين الجزائريتين أشرس قطاع الطرق بالمغرب الشمالي وهم الحياينة والدسول، متخليا لهم عن كل الغنائم التي يمكنهم الحصول عليها.

واندلعت حرب بلا هوادة بين الطرفين، اضطر معها المهاجرون بعد مواجهات بطولية، إلى الاستقرار بأعالي تراب هوارة الحجر؛ وهناك قاوموا هجمات أعدائهم مدة شهر. ولم يستمر الحياينة والدسول وحدهم في المواجهة، فقد انضمت إليهم القبائل المجاورة بدائرة فاس وجبالة، مطالبة بحقها في الغنيمة. وفي الأخير، استسلم الجزائريون بعد مقاومة عنيفة. وسلب معسكرهم وتم سبي نسائهم وأطفالهم، بحيث احتفظ عرب الجنوب بالأمهات والفتيات واستولى الجبليون على الأطفال الذين استخدموا كغلمان.

وما قلته الآن بخصوص هاتين القبيلتين، يختلف بعض الشيء عما ورد في كتاب الاستقصا [الجزء الرابع، ص. 198و 199] لكن بما أن ابن الطيب أخبر بما حصل في عين المكان ومن طرف أشخاص عايشوا هذه الأحداث الرهيبة، فإنني أعتقد بأن معلوماته صادقة وأن مصدرها لا يختلف في شيء عن المصدر الذي رجع إليه المؤرخ المغربي.

كان ذلك إذن، هو سبب تواجد العديد من الجزائريين بالدسول والحياينة. واليوم، فإن حفدة هؤلاء المهاجرين الذين تلقوا مثل هذا الاستقبال لم يعودوا مختلفين عن مضطهديهم. فقد أصبحوا بفضل الإدماج، دسوليين يتذكرون بالكاد موطنهم الأصلي. ولم يبق جميع المهاجرين بالمنفى، فقد عانت بعض الأسر الغنية من الفوضى واللاأمن السائدين في المغرب، ووصل إلى مسامع أعضائها خبر المعاملة المتسامحة للفرنسيين تجاه إخوانهم

بالشرق، لذلك ذهبوا إلى طنجة واعتذروا للفرنسا [!!] وتم إرجاعهم إلى وهران على متن بواخر أشرف القنصل الفرنسي بالمغرب، على انطلاقها. وعندما رجعوا إلى بلدهم، حكوا عن الاضطهاد الذي عانوا منه وحقد المغاربة عليهم. ولربما كان هذا هو سبب كره أهالي بلعباس ومسكارة وتلمسان للمغاربة. فلولا تواجد الفرنسيين، لكانوا قد أبادوا بطيبة خاطر، كل رعايا صاحب الجلالة الشريف الذين يلتقون بهم !

[ملحوظة المترجم: يجب ان تؤخذ هذه المعلومات بحذر شديد؛ فمبالغاتها ونفحتها الاستعمارية لا تخفى على أحد].

وعند احتلال فرنسا للجزائر وإحكام السيطرة عليها، توجهت أقسام أخرى من القبائل الوهرانية إلى المغرب، فرارا من الفرنسيين الذين ظنوهم أكلة لحوم البشر. وبأمر من السلطان الذي كان يغير مكان إقامة القبائل المخزنية كما يريد، تم توطين أعداد كبيرة من المهاجرين الجزائريين المنتمين إلى قبائل بني عامر وهاشم وبني سنوس والغزال والجعافرة وحميان وأولاد سليمان والحساسنة والسجع بدائرة فاس؛ والبعض الاخر وإن كان قليل العدد، بحوز مراكش. ورغم وحدة العقيدة والتشابه شبه الكامل بين العادات والتقاليد، فإن عملية الإدماج لم تتم بسهولة وشابتها مشاكل لا يسمح المقام بذكرها في تفاصيلها. ففي البداية، عامل المغاربة هؤلاء الشرقيين "شراڴة" بعنف، وعانى هؤلاء الأجانب الأمرين قبل أن يصبحوا مثل مضطهديهم قساة وجشعين. وفي يوم من الأيام، لقي مغربي بسوق فاس، مهاجرا من بني عامر، فظن أن بإمكانه سلبه ماله بالحيلة؛ هكذا توجه إليه قائلا:

- ياسيدي محمد، الله يرحم والديك، اقبض لي هذا البغل واحد الساعة، دابا نجي.[8]

فقبل الجزائري حراسة البغل بطيبة خاطر وذهب الفاسي إلى حال سبيله. ومر وقت طويل قبل أن يعود هذا الأخير لاهثا وصاح في ا لرجل:

- هيا، هل ستؤدي لي ثمن البغل أم لا؟

- كيف سأؤدي لك الثمن؟ أنا لا أفهم.

- لقد أعطيتني 100 قرش كتسبيق وبقي في ذمتك 39 دورو [195 فرنك] ثمن البغل الذي اشتريته مني وها هم الشهود.

[8] إن أي مسلم يحس بالرضى عندما ينادي عليه شخص باسم الرسول (ص) أو باسم عبد الله.

وأشار إلى ثلاثة فاسيين متواطئين معه. فرفض العامري أداء الثمن وذهب الجميع إلى القاضي؛ وأمام هذا الأخير، أقسم الشهود بأن البيع قد تم وبأن التسبيق قد دفع. وعندما طلب القاضي من الجزائري توضيحا، أجابه على الفور:

- إنني لم أقدم التسبيق فحسب، بل المبلغ كله وهو 39 دورو، الذي يطالبني به للمرة الثانية ويمكنني أن آتي بالشهود.

وطبعا، فإن وجود شهود الزور، أمر سهل في البلد مثل وجود الماء في البحر. فبعد فترة رجع الجزائري رفقة أشخاص أكدوا قوله. وحكم القاضي لصالح المهاجر الذي أخذ البغل وذهب إلى حال سبيله.

لقد سبق أن أشرنا إلى كون أراضي الدسول مسقية بشكل جيد؛ فمنها ينبع واد اللبن الذي يصب في نهر سبو وسط الحياينة، بعد أن يجوب مساحة تقدر بآلاف الهكتارات. وتتوفر أراضي الحياينة بدورها على العديد من الأنهار، مثل واد إناون من جهة غياثة واد اللبن بالوسط وواد ورغة بالشمال وكلها روافد لسبو.

وإذا كان من الطبيعي أن يتخوف الأشخاص الذين يحملون معهم النقود أو البضائع أو الملابس الفاخرة عند الاقتراب من أراضي الدسوليين، فإن الأمر هو على العكس تماما بالنسبة للمتسولين الذين يرافقون الحصادين ويلتقطون ما تبقى من الحصاد. فخلال هذه الفترة، يلتقي الشيوخ المعدمون والعجائز الفقيرات والأطفال البؤساء من الجنسين، في الحقول ويجمعون ما تساقط من الحصاد ويحملونه إلى مساكنهم.

- مرسل الرياح المقدس:

إن الطلبة الأجانب، المتسولين بامتياز، يأتون إلى أماكن الحصاد، عند فصل حبوب الشعير والقمح عن التبن؛ وذلك لأخذ "العباسية"، وهي صدقة الحصاد. ويعتقد المزارع المغربي بأن حضور الطلبة هو بمثابة خير وبركة. فبفضل صلواتهم ودعواتهم، يرسل الوالي الصالح أبو العباس السبتي الرياح التي تسمح بفرز الحبوب عن التبن. ففي عز شهر يوليوز، حينما تكون الأرض كاوية والشمس محرقة، تتحرك البغال التي أحرقت جلودها تحت أشعة الشمس، للقيام بعملية الفرز [الدرس] وتأتي الرياح التي تهب بفضل بركة الولي ودعوات الطلبة، لتخفف من وطأة القيظ.

القرى الرئيسية بالدسول[9]

- عين إنقوشت [العين المنقوشة]، التسمية عربية وأمازيغية، 500 منزل؛ محاطة بأشجار الزيتون ويوجد بها سوق الإثنين الكبير.

- بني فراحن، 100 منزل، بسوق الإثنين. وتوجد بدائرة الجزائر للإشارة، قبيلة أمازيغية باسم آيت فراوحن.

- القوى العسكرية: 8 آلاف رجل من المشاة والفرسان، العدد المحتمل للسكان: 56 ألف نسمة.

وهناك حوالي 100 قرية غير معروفة.

نبذة تاريخية عن الدسول

تحدث ابن خلدون عن "التسول" دون إعطاء توضيحات كثيرة. فتارة يعتبرها قلعة مجاورة لتازة وتارة كتجمع للأهالي المتواجدين بهذه القلعة. [تاريخ البربر، الجزء الأول، ص. 259 و 265 والمجلد الثاني ص. 31 من الترجمة الفرنسية].

وذكر الدسول في التاريخ، خلال توزيع مناطق المغرب بين أبناء إدريس الثاني [828م]، حيث حظي داوود بن إدريس بقيادة مناطق هوارة والدسول ومكناسة وتازة وغياثة [القرطاس، ص. 62 من الترجمة الفرنسية؛ وقد كنت مضطرا لتصحيح بعض أسماء الأعلام].

- سنة 917م، أشرف حكم الأدارسة على نهايته، وكان الدسول المتحالفون مع أهالي تازة ومكناسة، هم أصحاب الضربة القاضية. فقد تحالف قائد هذه القبائل الثلاث، موسى بن أبي العافية، مع مسالا بن حبوس، وهو القائد الذي أرسله المهدي عبيد الله. وبعد أن هزم بمكناسة وحوصر بفاس، احتفظ الأمير الإدريسي يحيى بن إدريس، بسيادة وهمية على فاس

---

[9] هل هذه الكلمة أمازيغية؟ لقد قيل لي انها تعني "سدرة النبق"؛ وأنا لم أجد لهذا المعنى أثرافي أي معجم من المعاجم العربية التي رجعت إليها. وهو ما يؤكد الأصل الأمازيغي لهذه القبيلة، مثل جيرانها مكناسة. ولن أناقش المؤلفين العرب الذين يكتبون "التسول" [بالتاء بدل الدال]. فمعلوم أن الناسخين لا يقومون بتصحيح أخطاء من سبقهم. وأعتقد بأن أول من كتبها بالتاء هو صاحب "القرطاس"؛ وقد تبعه النساخ في ذلك، دون أن يتساءلوا ولو مرة عن أصل الكلمة.

وضواحيها، لأنه كان في الحقيقة تابعا للمهدي. وقد كافأ هذا الأخير موسى بن أبي العافية وعينه واليا على المغرب الأقصى برمته.

- سنة 921م، مرت أربع سنوات، عانى فيها المغرب من هيمنة قائد الدسول، الحقود موسى، الذي كان يسعى لإزالة ملك فاس عن عرشه. ولأنه كان يغار من الأصل الشريف ومن الخصال الحميدة للأمير يحيى، فقد استغل الغزو الثاني للمغرب من طرف مسالا، لإقناع هذا الأخير بالعمل على خلع يحيى عن عرشه. وتحرك مسالا نحو فاس، فخرج يحيى الذي لم يكن على علم بما هو مبيت له لاستقباله مع أفراد حاشيته. فتم اعتقاله وتقييده بالسلاسل ووضع على ظهر جمل قبل الطواف به في المدينة.

ولم يقف حقد جلاديه عند هذا الحد، فقد تم تعذيبه بفظاعة ووحشية، ليدلي لهم عن المكان الذي يخفي فيه كنوزه. وهكذا، سلب من كل ما يملك ونفي إلى منطقة بضواحي أصيلة. [الاستقصا، الجزء الأول، ص. 79 و 80].

إن موسى بن أبي العافية الذي نكل بالأدارسة، مازال إلى يومنا هذا، يحظى بسمعة سيئة. وأول مغربي تلتقي به بالصدفة، سيقول لك إن هذا الملعون يهودي وقد ادعى الإسلام لكي يروي غليل حقد الإسرائيليين على الإسلام والمسلمين؛ كما سيروي لك أساطير لا تنتهي وحكايات أليمة حول هذا السفاح الذي شرب من دماء الشرفاء والذي سجن الأمير البئيس يحيى بن إدريس، مدة عشرين سنة بعد أن خلعه عن عرشه.

- ما بين 1218 و 1223م، أعلن الدسول ومكناسة وهوارة، ولاءهم للأمير المريني أبي سعيد عثمان. [ابن خلدون، مرجع مذكور، الجزء الرابع، ص. 31 من الترجمة الفرنسية].

قبيلة صنهاجة الغدو

إنها الأخت الشقيقة لصنهاجة الوطا، وهما تشكلان معا قبيلة واحدة إن صح التعبير. وبما أنها توجد في الجانب الجنوبي من جبالة، فإنها تتوفر على الخصائص المميزة لهذه المنطقة؛ و نقصد بذلك، أراضي متموجة وشاسعة وكثيرة الأدغال. وقد انتشرت فيها شجيرات الصبار الثمينة، على مساحات كبيرة إلى جانب شجيرات الدوم الراسخة. وعندما تنضج ثمار الصبار، يتسلح كل الجائعين بقصبات على شكل ملاقط، من أجل نزع الثمرة الشائكة، غذاء المسكين الواقي من المجاعة.

فيا شعوب الشمال الراغبين في استعمار إفريقيا الشمالية مستقبلا، لا تدمروا التين الوحشي، لأنه أنقذ حياة آلاف الأسر من الجوع؛ وسيكون غذاء مجانيا للأفواه والبطون الجائعة في الأزمنة المقبلة.

ومن بعيد، تبدو الأراضي مغطاة بشجيرات الدوم، ويندهش المسافر الذي يعبرها، عندما يجد حقولا مزروعة بالحبوب والتبغ [طابة] والكيف وقد رسمت بشكل ملتو، وسط الشجيرات المذكورة. ولأن عملية الحرث صعبة عبر هذه المسالك الملتوية، فقد اعتمد الأهالي على الفأس بدل المحراث، من أجل زرع البذور. أما الحصاد فيتم بدون منجل، حيث تنزع سيقان السنابل بالأيادي فقط. غير أن غنى القبيلة لا يتجلى في زراعة الحبوب، بل في بساتين الفواكه التي تشمل أشجار الزيتون والتين واللوز والتي تصدر ثمارها بعيدا إلى دائرة فاس، حيث يحملها التجار الصنهاجيون المتجولون على ظهر الحمير. ومعروف عن رجال صنهاجة الغدو أنهم مقاتلون أشداء بجلابتهم السوداء والغشاء الصوفي الذي توضع فيه البندقية والذي يحيطون به رؤوسهم العارية.

وهم معروفون أيضا بقامتهم القصيرة وأكتافهم العريضة ولونهم الأبيض المائل إلى السمرة، بفعل أشعة الشمس. لكن أسلحتهم رديئة، فالثلاثة آلاف وخمس مائة (3500) بندقية التي تتوفر عليها القبيلة، مصنوعة بتاغزوت [الريف]؛ لذلك فإن الأهالي لا يعرفون البندقية الجيدة ذات الطلقات السريعة، مثل الماوزر Mauser واللابل Lebel؛ وهم ليسوا على علم بالأسلحة المدمرة الأخرى المتوفرة بالبلدان المتقدمة.

ولا حاجة إلى تكرار أن المرأة المسلمة تشتغل أكثر من الرجل. فبينما يقضي السيد وقته في ترتيل القرآن بالمسجد؛ وفي القيام بالجولات الإحسانية [النزاهة] بالدسول وغياثة ، وصولا إلى دائرة فاس والدهرة [فكيك، وجدة]، فإن رفيقته المجدة تحيك طوال النهار، الحايك والجلابيب التي سيجدها زوجها الرحالة عند عودته والتي سيلبسها دون ان تصدر عنه كلمة شكر.

هكذا سيعود إلى منزله ومعه بعض النقود التي سيشتري بها الكيف والنشوق وسيبددها في أماكن الخلاعة التي يقصدها الماجنون القلائل بالقبيلة. وللحقيقة نقول، إن سلوك الأهالي ليس متهتكا، ما دام القاصدون لدور الخلاعة، يفعلون ذلك بتكتم.

إن قرى القبيلة كبيرة؛ أما منازلها فهي عادية ومبنية بملاط الجير. ويتكون الطعام الأساسي للأهالي، من البلوط الموجود بالغابة والذرة والفطر والأرغال والجراد أحيانا؛ والعسل المتواجد بكثرة. ويبرز هنا تنوع الأطعمة الصنهاجية التي يوجد على رأسها البيصار، بدون منازع.

- قرى مليئة بالنحل:

يمارس أهالي صنهاجة الغدو تربية النحل، بفضل الأزهار والأشجار المتواجدة بكثرة. ولا يخلو منزل أو كوخ من خلايا النحل ولا أية وجبة من العسل. لكن النحل لا يكون مسالما على الدوام. فقد شوهد سكان قرى عديدة، وهم يفرون من مساكنهم أمام الأسراب السوداء للنحل الذي تمت إثارته بشكل غير مقصود.

وبقرية سيدي داوود، عاين الدرويش حالة من هذا القبيل، تسببت فيها معزة. فقد كانت ضمن القطيع الذي تم إدخاله إلى حظيرة بمنزل أحد أبرز مربي النحل، حيث توجد خلايا هذه الحشرة. وجثمت المعزة فوق إحداها، فخرج منها النحل وهاجم القطيع بأكمله. فذعرت الحيوانات وبدأت تجري في كل الاتجاهات وداست على الخلايا الأخرى التي يتواجد بها آلاف النحل. ولم يكتف النحل بلسع الماعز، بل دخل إلى المساكن وهاجم الرجال والنساء والأطفال والكلاب وكل الحيوانات الأخرى التي يصادفها في طريقه.

وهرب جميع السكان من جراء ذلك، إلى أن حل الظلام القرية المغطاة بأسراب النحل. ومع حلول الليل، توقف الهجوم وعاد الأهالي إلى مساكنهم، وهناك وجدوا الدجاج والقطط ميتة وقد انتفخت من جراء اللسعات التي تعرضت لها.

وفي إحدى المرات، وقعت حادثة مماثلة باولاد بوسلامة. فقد قام بني ونجل إثر انتصارهم في إحدى المعارك، بإحراق المنازل الموجودة بباب الحيط، فخرج النحل من خليته وهاجم المتحاربين، حيث لسع المنتصرين والمهزومين الذين فروا بسرعة ولم تعد المعركة تهمهم.

أما الزنابير فهي أشرس من النحل؛ ولأن أعدادها قليلة، فهي غير قادرة على إنجاز بطولات النحل المذكورة.

القرى الرئيسية بصنهاجة الغدو [صنهاجة البراعم]
- التسمية أمازيغية –

- الناضور، 300 منزل.
- بني كزين، 50 منزلا.
- بني مسيل، 50 منزلا.
- سيدي داوود، 300 منزل؛ ويوجد بها سوق الأربعاء.
- أولاد ابراهيم، 100 منزل، على واد يحمل نفس الاسم.
- زاوية سيدي أحمد أخمريش، 100 منزل.
- القوى العسكرية: 3500 من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 24500 نسمة.

وهناك حوالي 50 قرية غير معروفة.

قبيلة بـــورذا

وهي قبيلة صغيرة تستطيع بالكاد تعبئة 500 رجل من المشاة؛ لكن مقاتليها معروفون بشجاعتهم، كما أنها محمية ومحاطة بسلسلة الجبال الصنهاجية. و يجهد الأهالي أنفسهم في العمل بهذه القبيلة. فهم يشتهرون بحب الشاي والموسيقى؛ ويقضي المتعلمون منهم أوقاتهم في تبادل المجاملات ولا يستعجلون حفظ القرآن، بحيث يتطلب منهم ذلك أكثر من عشرين سنـــــة.

وفيما مضى، كانت البلدة أكثر غنى، فقد كانت أشجار الزيتون تغطي كل ترابها. لكن، قبل مرور محمد بها، قام أهالي مرنيسة بقطعها خلال الحرب بين القبائل الغمارية والصنهاجية. وهي الحرب التي لم تضع أوزارها نهائيا، ما دام الدرويش كان حاضرا أثناء المفاوضات العسيرة من أجل معاهدة الصلح.

وكان الشرفاء الخمالشة هم الوسطاء الذين تم اختيارهم لهذه المهمة، وقد أصروا على البقاء بالمنطقة لضمان استمرار الصلح بين الفريقين. وكيفما كان الحال، فإن هذا الصلح المؤقت سمح للقبائل الصغيرة مثل بني ونجل وبورذا باستعادة القرى التي استولت عليها القبائل الأقوى منها. ولا يوجد أي سوق ببورذا، لذلك فإن الأهالي يذهبون إلى سوق الثلاثاء ببني وليد؛ غير أنهم يستقبلون مع ذلك، القوافل القادمة من الجنوب والمحملة بالصوف والحبوب. ومن بين الحرف الرئيسية بالقبيلة، نذكر صناعة وخياطة الجلابيب، حيث تجد في كل قرية حائكين أو ثلاثة على الأقل.

ولن ينسى الدرويش مدى حياته، تلك الليلة التي قضاها بمقبرة هذه القبيلة. فقد ذهب إلى سوق الثلاثاء ببني وليد للترويح عن النفس، لأن السوق بالمغرب شبيه بالمعرض عندنا؛ مع فارق أساسي، وهو أن الطلبة يلتقون فيه للهو وللمشاركة في "الوعدة" التي تقام بداخله والاستمتاع بالأطعمة التي تقدم في مثل هذه المناسبات.

وبعد أن قضى يومه في الأكل وشرب الشاي مع الطلبة الآخرين وتذوق الحلويات التي تصدق بها بعض المحسنين، قرر الرحالة الرجوع وحده إلى بورذا دون أن يخبر أي أحد.

ولأنه خرج متأخرا من السوق، فقد فاجأته الظلمة عند حدود القبيلة. وظهرت امامه مقبرة تعرف عليها بشواهد القبور وبقبة الولي الموجود بها. فقال في قرارة نفسه:

- من الأفضل قضاء الليل هنا.

وبالفعل، توجه إلى مرقد الولي. وعند وصوله، كان الظلام حالكا، فدفع باب الضريح ووجد حصيرة من الدوم، استلقى فوقها واضعا تحت رأسه حجرا يستخدم للتيمم. عندئذ شم رائحة كافور قوية فقال:

- لربما دفن شخص مؤخرا، وقد لا يكون الجثمان مدفونا بالمرة !

وأصابه الأرق نتيجة هذه الفكرة. وعند حوالي الثانية صباحا قام للتبول، وبدأ يلتمس طريقه نحو الباب. وقبل بلوغها، تعثر بشيء مترهل فصاح:

- واشتا هاذا؟

وانحنى لمعرفة ذلك الشيء الذي لم يكن سوى جسدا إنسانيا. فتراجع إلى الوراء، لكنه سقط فوق جسد آخر. فارتعب بشدة وفر إلى الخارج إلى أن بزغ الفجر.

وقد فسر له الأشخاص الأوائل الذين جاؤوا إلى المقبرة، بان الأمر يتعلق بميتين وضعا داخل القبة، قائلين:

- إنهما رجل وامرأة، وقد جئنا لدفنهما. وهما متوفيان منذ البارحة مساء، ولم نتمكن من حفر قبريهما، فوضعناهما داخل ضريح الولي. فهل تريد الانضمام إلى الطلبة الآخرين، لقراءة ما تيسر من الذكر الحكيم؟

فقبل الرحالة، حيث شارك في الجنازة وأكل طعامها، وتلقى 40 سنتيما مقابل خدماته.

القرى الرئيسية ببورذا

[وهي تحويل للكلمة العربية "أبو رداء" (صاحب المعطف)؛ وغالبا ما يبدل الجبليون الدال ذالا].

- بورذا، 500 منزل، وسط القبيلة.

- القوى العسكرية: 500 رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 3500 نسمة.

وهناك حوالي 20 قرية لم يتم التعرف عليها.

قبيلة بني مزگلدة

أثناء تواجده بزاوية بورذا المظلمة، توصل محمد بخبر مثير، وهو تمرد بني مزگلدة على السلطان. ولبلوغ هذه القبيلة، تطلب الأمر أربعة أيام مشيا على الأقدام، عبر الجبال والقبائل المعروفة.

ولم يتردد صاحبنا لحظة واحدة، فقد كان متشوقا لحضور ومعاينة الحملة العسكرية.

هكذا، اتجه غربا، عابرا قبيلة بني وليد المحتفلة دوما ومزياث التي كانت في نزاع مع الحياينة. وعندما وصل إلى بني زروال فتر حماسه، فتوقف بزاوية سيدي الحمومي لاسترجاع قوته رفقة الطلبة؛ ثم تابع رحلته عبر الجاية وسلاس وبني ورياگل.

وفي طريقه، كان يتلقى الأخبار والمعلومات المتناقضة. وتمكن من خلال الإشاعات والأقوال الكاذبة، من أخذ الفكرة التالية عن تمرد بني مزگلدة.

فقد كان سبب هذا التمرد تافها؛ ذلك أن أهالي القبيلة قتلوا القايد الذي سبق أن عينوه بانفسهم وحظي بموافقة البلاط الشريف. غير أن "صف"[1] المرحوم، القوي بفاس، تمكن من إقناع السلطان بإرسال فرقة عسكرية لإبادة الجناة. هذا ما علمه الدرويش قبل وصوله إلى الزغيرة، وهي قرية كبيرة ببني مزگلدة، حيث شيدت أيادي محسنة، ضريحا رائعا على شرف الولي الصالح مولاي بوشتى الخمار. ومن ذلك المكان، راقب الرحالة على مدى شهر، الأحداث الخطيرة الواقعة على بعد كيلومترات قليلة.

فقد تموقع الجنود المخزنيون المكونون أساسا من الفرسان العرب بدائرة فاس، بقبيلة فشتالة الصغيرة. ولم يغامر هؤلاء الفرسان بجيادهم داخل جبال بني مزگلدة، بل ظلوا عند الحدود الجنوبية للقبيلة، في منطقة منخفضة وملائمة للقيام بدوريات في الشمال، يتم الإعلان رسميا عن تفوقها في مهامها. وفي الحقيقة، فقد كان بني مزگلدة يقاومون جيوش المخزن ببسالة، مستخدمين بنادقهم التقليدية mousquets المصنوعة بالقبيلة. وقد تحالفت القبائل الصغيرة مع السلطان، لكي يتسنى لها كما تقول، "ابتلاع" بني مزگلدة. ولم يكن هؤلاء يخشون سوى بني مسارة، لذلك عملوا على تحييد هذه القبيلة الرهيبة التي كانت وزان عاصمة لها. فقبل

[1] المقصود بالصف، الطائفة أو الحزب.

إعلان التمرد، ذبحوا العديد من العجول في أسواق هذه الأخيرة، طالبين من أهاليها مساندتهم؛ وهو ما قام به هؤلاء فعلا، حيث أرسلوا إليهم تعزيزات في الخفاء.
وقتل حوالي 300 مزگلدي خلال المعارك؛ لكن خسائر الجيش المخزني كانت أكبر بكل تأكيد، ما دام قد تراجع دون إخماد التمرد.
وبعد ثلاث سنوات من الفوضى العارمة، قررت القبيلة بعد أن علمت بنية السلطان مهاجمتها على رأس فيلق من البدو، الخضوع للسلطة المركزية؛ وعينت قايدا جديدا، حظي بموافقة البلاط. وهذا يدل على ضعف هذه السلطة التي اضطرت إلى التفاوض مع قبيلة صغيرة وضعيفة نسبيا. فقد كانت شجاعة المتمردين ومنطقتهم الجبلية والغابوية، كافيتين لردع الغزاة المخزنيين.
فما هي طبيعة هذه البلدة القريبة من وزان وفاس والتي استطاعت أن تتحدى القوى الشريفة؟ إنها بلدة جبلية، خصبة، مسقية بشكل جيد ومأهولة بالسكان. وتتقارب القرى فيما بينها، كما أن المساجد تتواجد فيها بكثرة، لأن الأهالي معروفون بورعهم وأغلبهم من الطلبة، وهم يستقبلون الطلبة الأجانب بحفاوة. بالمقابل، يشتغل غير المتعلمين بالزراعة ويعتنون على الخصوص ببساتين الفواكه ومن ضمنها كروم العنب. ومن بين أنواع هذه الفواكه الأخيرة نجد "بوخنزير" و "بزول العودة". وهذا النوع الأخير هو عنب جميل المنظر، مائل إلى الإحمرار، ذو حبات كبيرة ويطلب كثيرا في الأسواق. وهناك أيضا "تافريالت" ذو الحبات السوداء و "الأحمر بوعمور" ذو اللون الأحمر القاني، وهو يؤكل بمجرد قطفه. وتتشكل صناعة "الصامت" الحلو و "الصامت" المسكر والخمر الذي يحتفظ به بعض المزارعين الصغار في الجرات؛ وبيع الفواكه والكتان وزراعة الكيف، جزءا من موارد هذه المنطقة الجميلة. ويجب ان نبحث عن مصدر غنى بني مزگلدة في إنتاجها الضخم للزيتون.

- معالجة الزيتون:

بعد قطف الزيتون، يتم الاحتفاظ به مدة شهر أو شهرين داخل سلال من الدفلى ويوضع بساحة المنزل دون أن يغطي. وقبل ثلاثة أيام من طحنه ينشر تحت أشعة الشمس. بعد ذلك، يوضع في حوض اسمنتي ويطحن بواسطة رحى صخرية طولها متران وعلوها 75 سنتيمترا، يجرها بغلان يدوران حول الحوض. وعند الانتهاء من هذه العملية، تملأ ققف من

الدوم بهذا الزيتون الذي لم يطحن كلية وتوضع تحت معصرة ذات لوالب. وهكذا تتسرب الزيت من شقق القفف وتسيل فوق "قصع" وهي عبارة عن صحون كبيرة، جعلت تحت المعصرة مباشرة. بعد هذه العمليات تصفى النواة ويتم الحصول من جراء ذلك على زيت مرة أقل جودة من الأولى. وتستعمل بقايا النواة كحطب؛ وهي أفضل من الخشب.

وهناك أيضا عملية أصيلة، لكنها لا تطبق كثيرا؛ وتتمثل في وضع الزيتون داخل غلاية مع شيء من الماء؛ وحينما يغلي بشكل جيد، يلقى داخل حوض ويقوم الرجال بعزل نواته بضربات العصي.

وحينما تأتي العاصفة أو تهب الرياح بقوة، فإن العادة تقتضي ترك الفقراء يجمعون ما تساقط من الزيتون؛ وأحيانا ما تكون الحصيلة مساوية لما يجنيه مالك الأشجار.

ويعتبر الزيتون طعاما مفضلا لدى المزگلديين، فهم يأكلونه صباحا ومساء. أما أصحاب الذوق الرفيع raffinés، فيهيؤونه بطريقة متميزة، حيث يشقون الزيتون الأسود بالسكين ويوضع في الماء مدة شهر، بعد ذلك يصفى من الماء وتضاف إليه قطع الليمون وزيت الزيتون الخالصة وشيء من الماء والملح؛ ويؤكد الجبليون بان هذه الوجبة لا مثيل لها. وبالنسبة لعشاق الروائح النفاذة، فإنهم يملحون الزيتون ويخلطونه بالكثير من الثوم، قبل استهلاكه عند مرور شهر على هذه العملية. ويخضع الزيتون الأخضر لمعالجة مغايرة؛ فهو يطحن بواسطة الرحى أولا، ثم يوضع في الماء مدة عشرين يوما، ثم يصفى من الماء ويوضع في إناء ويملح ليستهلك بعد ذلك.

إلى جانب الزيتون، نذكر منتوجات فلاحية أخرى طيبة بالقبيلة، مثل البرتقال والسفرجل والموز والليمون، كما توجد بغاباتها طرائد متنوعة يتم اصطيادها بمساعدة كلاب الصيد من فصيلة السلاقي. وهناك أيضا الحلزون والفطر الأبيض الضخم الذي يطبخ باللحم؛ علما بأنه يطبخ بالحليب بدائرة فاس.

وللأسف، فإن هذه الجنة الأرضية تلوث بالعادات الجبلية المتهتكة التي تمارس هنا بشكل أسوأ. لكن لنقفز على هذه المسألة ولننقل كلمة عن أهم صناعة بالبلدة؛ وهي صناعة البنادق والبارود.

ففي كل قرية كبيرة، تجد ورشة تصنع بها البندقية التقليدية المعروفة باسم المزݣَلدي والتي يقل الطلب عليها تدريجيا، بفعل غزو البنادق الأروبية الجيدة للمنطقة. ومع ذلك، فهي تشترى هنا وهناك، في القرى النائية ببلاد السيبة؛ وإن كانت قناتها الضيقة والطويلة ومقبضها وصوانها، لم تعد ملائمة كثيرا في المعارك، كما كانت في السابق.

- جدول تلخيصي للقبائل الغمارية والصنهاجية بالريف وجبالة:

سبق لي أن أشرت بأن المغاربة يقسمون بلدهم إلى قبائل منحدرة من صنهاجة وأخرى منحدرة من غمارة. ويولي جيراننا بالغرب أهمية كبيرة لأصولهم؛ وغالبا ما ترجع الصداقات أو العداوات بين القبائل إلى قرابة مزعومة أو إلى غيابها؛ لذلك يتعين إبراز هذه العلاقات الدموية، المتخيلة أو الواقعية، بين مختلف المجموعات الأمازيغية الخالصة أو الأمازيغية المعربة المتواجدة بمنطقتي الريف وجبالة.

القبائل الغمارية بالريف[2]	القبائل الغمارية بجبالة
مثيوة، بني بوفراح، بني يطفث، كزناية، تمسمان، بني سعيد، لمطالسة، بني بويحيي، قلعية، بني زناسن	نورد هنا فقط، القبيلة الأصل وهي غمارة الكبرى، دون أقسامها العشرة التي هي قبائل قائمة بذاتها: غمارة، بني سعيد، بني حسان، بني معدان، بني حوزمر، واذراس، بني مساورة، بني عروس، بني مسارة، رهونة، بني مزݣَلدة، بسطا، أهل سريف، بني زروال، بني ورياݣَل، فشتالة، سلاس، مثيوة، كتامة، بني ونجل، الدسول

[2] بخصوص كلمة "ريف Rif"، نتساءل لماذا يكتبها صحافيونا مضاعفة "FF"(Riff, Riffain) ؟ لماذا أصبحت بقيوة Bekk'ouya بعد عمليات القرصنة الأخيرة، تكتب كالتالي: Bekilya، Bocoyas، Belkouya؟ لماذا تكتب "مولاي" Muley أو Moulaï بدل Moulaye؟ وتكتب Mughreb أو Maghreb بدل Maghrib؟ و Chechaouan بدل Ech-chaoun؟ لماذا كتب أجدادنا الطيبون، لكن غير العارفين Miramolin كنقل لكلمة أمير المؤمنين؟ سيجيبنا الدرويش بهذه العبارة الوجيزة:"الجهل ما عندو حد".

القبائل الصنهاجية بالريف	القبائل الصنهاجية بجبالة
تاغزوت، بني بونصر، بني خنوس، بني سيداث، بني بشير، زرقت، تارغيست، بني مزدوي، بني جميل، بني ورياغل، بني توزين، بني ولشك، بقيوة، كبدانة.	صنهاجة الوطا [ويزعم أنها أصل المجموعة،] صنهاجة الغدو، هوارة الحجر، بورذا، البرانص، أولاد بوسلامة، بني بوشيبث، رغيوة، مزياث، الجاية، بني أحمد، غزاوة، الاخماس، سوماثة، بني يسف، مصمودة، جبل الحبيب، بني كرفط الغربية، الساحل، أصيلة، فناسة. [3]

ويؤكد مثل مغربي بأن الغماريين يعرفون ببدانتهم وطيبوبتهم، أما الصنهاجيون فيعرفون بخفتهم ونحافتهم وأنانيتهم.

القرى الرئيسية ببني مزگلدة [البدينون][4]

- الخميس، 500 منزل، ويوجد بها سوق يحمل نفس الاسم.
- الزغيرة، 500 منزل.
- القيطون، 100 منزل.
- القوى العسكرية: 4 آلاف من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 28 ألف نسمة

وهناك حوالي 30 قرية غير معروفة.

نبذة تاريخية عن بني مزگلدة

يرجع ابن خلدون هذه القبيلة المعربة تماما، إلى أصل امازيغي صنهاجي. وفي عصره، كان أهالي بني مزگلدة يقيمون، بنفس المنطقة التي مازالوا بها إلى الآن.

[ابن خلدون، مذكور، الجزء الثاني، ص. 125 من الترجمة الفرنسية].

[3] يتوقف العلم الجنيالوجي للدرويش عند هذا القدر ويتعين على علماء المستقبل تتمة أو تصحيح هذا الجدول.

[4] لكي ألتزم بنظام نقل الأسماء العربية والأمازيغية، يجب علي أن أكتب Mezgelda وليس Mezguelda.

قبيلة بني مسارة

ما بين بني مزكّلدة وبني مسارة توجد قرى عديدة مسط الخضرة. وقد غادر الدرويش قرية الزغيرة في الصباح الباكر ووصل حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر إلى قرية الزواقين ببني مسارة.

- الزواقيـــــن:

حول المنازل، توجد أشجار البرتقال والرمان والخوخ والمشمش وشجيرات النبق، مشكلة بساتين رائعة تنبع بداخلها العيون وتلقي بمياهها في واد وزان. أما أشجار الزيتون ، فموجودة في كل مكان وخصوصا في هذه الجهة الجنوبية من جبالة المغطاة بهذه الشجرة الثمينة ذات الأوراق الخالدة.

وبالقرى، يستمتع الأهالي بأوقاتهم، حيث ترى أجواقا موسيقية تعزف على آلتي المزمار والطبل، متبوعة بالتلاميذ الصغار والأميين الكبار ومسبوقة بالغلمان والراقصين الذين يحركون مؤخراتهم بطريقة متهتكة. وقد غمغم الدرويش مع نفسه وهو يخترق الجموع:

- ها قد عدنا إلى التقاليد والعادات القديمة لمسلمي الأندلس.

ولجأ إلى المسجد بعد أن أعياه التعب؛ وفوجئ في طريقه بوجود صومعة كبيرة؛ وهو ما لم يشاهده منذ مدة، لأن المساجد القروية الصغيرة لا توجد بها صوامع. وهو ما يدل على أن المسجد كبير ويضم مدرسة. وبالفعل، فعندما دخل إلى المسجد، وجد حوالي 200 طالب وتلميذ، حيث كان الصغار يرتلون آيات من القرآن الكريم وكان الكبار يستمعون إلى دروس في النحو والفقه؛ فاستلقى على زربية من أجل أخذ قسط من الراحة. وبعد انتهاء الدروس، أيقظه طالبان ملتحيان وسألاه إن كان يرغب في متابعة الدروس معهم بالمسجد، فأجابهما:

- لهذا جئت إلى هنا، وأرجو أن تقبلوني وإلا اتركوني أنام.

فاستقبله الجميع بعبارة :"مرحبا بك". وقضى رحالتنا أجمل خمسة أشهر في حياته، مستمتعا بالإقامة والمأكل والملبس والنوم والتدفئة. وتعتبر الزواقين مدينة صغيرة بحوالي ألف منزل بطابق أرضي. لكن أغلب المنازل تتوفر على غرفة هي بمثابة مخزن للمؤن، مما يوحي بان هناك طابقا آخر. وقد شيدت بشكل متين بملاط الجير ولها سقوف خضراء، بفعل القراميد الخضراء التي تلمع تحت أشعة الشمس.

وأطعمة الأهالي شبه المدينيين متنوعة وجيدة. فهي تتكون من الطبيخ واللحم المشوي والحساء والعجائن. وعندما يشبعون من لحم الغنم والماعز، يستبدلونه بلحم الدجاج وبأسماك الأنهار. ولا يستعملون الزبدة كثيرا في أطعمتهم. بالمقابل، فإن الزيوت تستعمل بكثرة، حتى في الكسكس. أضف إلى ذلك، أنواع الحلويات والفواكه التي تزخر بها هذه القرية الكبيرة والغنية.

ويتذكر محمد الساحة الموجودة وراء المسجد والتي كان الطلبة المتخومون وهو من ضمنهم طبعا، يرمون فيها بقايا الخبز والكسكس، كطعام لكلاب القرية ودجاجها، علما بأن هذه العادة نادرة في العالم الإسلامي. وكان الرحالة غالبا ما يتغيب عن الدراسة بمسجد الزواقين، للتجول في النواحي أياما عديدة، كان يحظى فيها بحفاوة الترحاب أينما حل. وكان ينجذب كثيرا إلى مدينة وزان، معقل الصلحاء كما سنرى. وتبلغ مساحة القبيلة 40 كيلومترا من الشمال إلى الجنوب و 30 كيلومترا من الشرق إلى الغرب. وتلتقي أراضيها بالجنوب بأراضي دائرة فاس، وتشكل منطقة مشتركة وخصبة، ذات حقول شاسعة، محاطة بأشجار الفواكه المتنوعة. وكلما اتجهنا صوب الشمال والشرق، كلما بدت المرتفعات التي تتواجد بها قبائل الاخماس ورهونا ومصمودة جبالا شاهقة هي بمثابة حصون طبيعية بالنسبة لأهالي بني مسارة المشاغبين.

وهذه الأراضي الجبلية غنية أيضا، فهي عبارة عن بستان القبيلة ومورده من الحبوب. وإليها أيضا يلجأ المنفيون والمتمردون بجنوب وجنوب غرب جبالة. إن الصراعات المستمرة بين مسارة والجيوش المخزنية وصلحاء وزان، قد وصل صداها إلى أروبا. وطبعا، فقد اختزلت الأحداث ووصلتنا مشوهة، حيث تم اعتبارها مجرد تمرد لمجموعات صغيرة من قطاع الطرق، لا تستحق اهتمام الأروبيين. ومع ذلك ، فهناك مجال هام بالنسبة للسوسيولوجي والمؤرخ والمهتم بالشؤون المغربية marocaniste– وهذا النوع من الدارسين غير المعروف لدينا إلى حد الآن؛ يتلقى الأموال الكثيرة في كل العواصم الكبرى للعالم المتحضر – وكل مفكر جاد، للقيام بأبحاث مفيدة داخل المجتمع المغربي. ونقترح بألا تجري هذه الأبحاث على أصحاب العمائم الكبيرة بوزان وفاس، بل على الشعب الذي يعتبر مصدر الحقيقة العارية؛ بعيدا عن الأخبار الزائفة التي ينشرها جنود الإمبراطوية الشريفة.

فلنعمل الآن، على رفع هذا الغطاء الثقيل، الذي يخفي الزوايا والفرق المغربية التي تتحرك وتتآمر من أجل تحقيق هيمنة شاملة، معنوية ومادية.

مديـــــــنـــة وزان

لم تكن وزان منذ ثلاثة قرون خلت، سوى قرية صغيرة من حوالي خمسين من المنازل المتفرقة على جنبات جبل الريحان وسط غابة الزيتون والريحان والأدغال ذات الروائح النفاذة. وكان الموقع ملائما للعبادة والتأمل لذلك جلب الرجل الذي سيجعل منه مكان الزاوية الشهيرة في المغرب. إنه أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الشريف، وهو الابن الأكبر لأسرة الطيبيين الذين استقروا بوزان؛ وكان من الصلحاء الجوالين الذين زهدوا في الدنيا ومباهجها. وفي إحدى جولاته، قادته الصدفة إلى دشرة جبل الريحان، فقرر الإقامة بها مع أسرته. فقد سحره هذا الموقع الأخاذ بخضرته، أكثر من أبهة القصور. وكان بإمكانه العيش معززا، مكرما بفاس، لأن ابن عمه السلطان مولاي الرشيد[1] الذي استعاد عرشه، كان يسعى إلى جمع أفراد عائلته الشريفة حوله. لكن الرجل الصالح فضل اللجوء إلى تلك القرية الصغيرة التي غير اسمها الجميل "دشرة جبل الريحان"، باسم ذي نفحة دينية صوفية، وهو وزان [أي الذي يزن الأعمال الخيرة والسيئة بالعدل].

وفي خضم حماسه الورع، شرع في بناء زاوية، تعتبر من أقدم زوايا وزان.

لكن لندعه الآن، يستقطب الأتباع المتعصبين والمغفلين، سواء في زمنه أو في وقتنا الحالي[2]؛ ولنر الآن كيف تحولت دشرة الريحان القديمة إلى وزان الحديثة.

فبعد أن اجتاز بساتين الزيتون والبرتقال، وجد الدرويش نفسه فجأة بوزان التي لم تكن محاطة بالأسوار. وكان مرفوقا بمساري بئيس مثله، أخبره بحسن الضيافة التي يتلقاها الزائر لزاوية مولاي عبد الله الشريف؛ لذلك توجها إليها، غير عابئين بحشود الزوار والمتسولين المتواجدين بالأزقة والذين توافدوا على الزاوية من كل المناطق ، أملا في الاستفادة من "الــوعـــــدة".

---

[1] ينحدر أبو محمد عبد الله والسلطان مولاي الرشيد بن الشريف، من الشريف عبد الله الكامل، أحد أحفاد فاطمة؛ وهو الجد المشترك لشرفاء وزان وللعائلة الشريفة الحاكمة حاليا بالمغرب.

[2] توفي هذا الجد الشهير لشرفاء وزان في 12 شعبان 1089 هـ [28 شتنبر 1678م] عن عمر يناهز 85 سنة [الاستقصاء، الجزء الرابع، ص. 54]

وعند وصوله إلى الضريح، دار محمد حول البناية التي كانت مطلية بالجير وشاهد القبة المبلطة واللامعة تحت أشعة شمس الغروب والتي وضع هلال فوقها. أما رفيقه الذي لم تكن تهمه هذه الأمور الإستتيقية، فقد انسل وسط حشود المعوزين والزوار الذين يملؤون جنبات الضريح، حيث يقوم بعضهم بأداء الصلاة والبعض الآخر بذكر الله أو الثرثرة في انتظار طعام العشاء. والتحق محمد بصديقه واستلقى بجانبه فوق حصيرة سميكة من الحلفة.

إن سيد المدينة أبا محمد عبد الله، الذي تحدثنا عنه، والذي يعتقد خطأ بأنه مؤسس المدينة يعرف لدى العامة باسم مولاي عبد الله الشريف. وتوجد مقتنياته وأيضا ذخائر أحفاده، في أكبر وأقدم وأهم زاوية بالمدينة. فإليها، تحج كل سنة، الأعداد الهائلة من الزوارالقادمين من كل جهات المغرب، حاملين الأعلام وعازفين الموسيقى ومرفوقين بالمواشي التي ستقدم كقرابين، سائرين بأقدام حافية، مقبلين التراب المحيط بالمدينة المقدسة، قبل الوصول إليها. وعندما تتراءى لهم المنازل الأولى للمدينة، يتدافعون في أزقتها الضيقة، كي يحظوا بأسبقية تقبيل ولمس الأخشاب والكسوة التي تغطي قبر الولي. بعد ذلك، تجد الحشود الطعام المقدم مجانيا والكساء والإقامة، بل حتى النقود الموزعة من طرف المحسنين. لكن العكس هو الذي يحدث في الغالب بمعنى أن هذه الحشود هي التي تقدم الهدايا " في سبيل الله" وأيضا " في سبيل مولاي عبد الله الشريف".

والحال، أنه منذ وفاة هذا الرجل الصالح، سنة 1678 م تراكمت الثروات بزاويته وتحولت تدريجيا إلى عقارات ومزارع وبساتين وداووير كاملة مملوكة على شكل أحباس، من طرف سادة الزاوية المعتزين بأنفسهم. وهناك، يتواجد " المجلس الأعلى" لطريقة الطيبيين، هذه الزاوية الشهيرة التي نسج الأروبيون حولها الكثير من الأغاليط.

طـريـقة مـولاي الطيـب :

لنبرز الحقيقة بشكل نهائي حول أصل ودور وتأثير هذه الزاوية المغربية. ونشير في البداية إلى أنها لا تعرف، في المغرب عموما، باسم الطيبية أو الطيبيين، لأنها اشتهرت تحت اسم

التهامية وأتباعها هم التهاميون، نسبة إلى مولاي التهامي بن محمد الذي يعتبر من طرف ممثلي الطريقة وأنصارها بمثابة الرجل الذي أعاد للزاوية بريقها[3].

فكيف تمكن ورثة مولاي الطيب، من أن يحظوا باهتمام الدبلوماسيين بأروبا المسيحية، وسط حشد من شرفاء المغرب الذين يعتبرون أبناء عمومتهم ؟

إن هذا السؤال لن يكون محرجا بالنسبة لمن تعمق منذ سنوات في أعماق نفسية وعقلية المسلمين. لكن الأمر المثير هو اقتصار السيكولوجيا الأروبية في تحليلها – الضيق والسطحي – على زاوية واحدة وهي التهامية، متعاملين بإزدراء مع الزوايا الأخرى التي تخيف هذه الأخيرة والتي ستبتلعها يوما، قبل أن يبتلع بعضها بعضا.

ويرجع اهتمام الفرنسيين والبريطانيين بهذه الزاوية إلى تطور سياسي – اجتماعي لأحد ممثليها، الذي سيتهم بالخيانة، من طرف المغاربة. ذلك أن "مقدم" الزاوية، الحاج عبد السلام، ارتبط بالحضارة الغربية عندما تزوج انجليزية؛ ولم يشعر بأي حرج في شرب الشمبانيا، وإعلان صداقته لبريطانيا العظمى ولفرنسا؛ وهي صداقة قائمة على المصلحة. وعملت الرواية الأروبية الإطرائية واللامعقولة، على تبجيل هذا الرجل الذكي والسياسي الماهر الذي فكر في استخدام النصارى لتحقيق طموحاته، بعد أن فقد تعاطف الأهالي معه.

واليوم، ما الذي تبقى من عمله السري ومن دبلوماسيته البئيسة، بعد أن تلاشت أحلامه ولم يعد قادرا على التأثير في القنصليات الأروبية ؟ لاشيء، أو لنقل سمعة سيئة وسط المغاربة ونفورا من زاويته هو بمثابة جرح غائر أو مرض قاتل لها. ورغم ذلك، فإن التهاميين مازالوا يعتقدون بأن زاويتهم هي الأقوى والأكثر تأثيرا في المغرب. والأمر الغريب هو أنهم استطاعوا إقناع العالم القديم والجديد بهذا الإدعاء.

---

[3] مولاي التهامي هو حفيد سيد وزان أبي محمد عبد الله الشريف الذي تحدثنا عنه من قبل. ولم أجد في كتاب الاستقصا سوى معلومات عامة حول العائلة الوزانية الشريفة، تهم بعض الأسماء والتواريخ ما بين سنتي 1089 و 1260 هـ [1678 و 1844 م].

وقد توفي مولاي التهامي، صبيحة يوم الاثنين فاتح محرم، سنة 1127 هـ [8 يناير 1715م] عن عمر يناهز 66 سنة.

ومن بين الشرفاء الوزانيين المنحدرين من أبي محمد عبد الله، فإن مولاي التهامي هو الوحيد الذي حظى من طرف صاحب الاستقصا، بلقب القطب. [انظر، الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 1] وضمن لائحة الأعلام الموجودة بالكتاب، اعتبر مولاي الطيب وريثا لمولاي التهامي.

فإذا ما فتحتم عن طريق الصدفة أي كتاب مسيحي حول إفريقيا الشمالية وراجعتم المادة المتعلقة بوزان فإنكم ستجدون المدح والإطراء تجاه الزاوية الوزانية. وهو ما ستجدونه أيضا في بعض الكتب الحديثة، مما يبين ظاهرة النقل المتفشية وسط الباحثين؛ حيث يتم تغيير صفحتين أو ثلاث وخمس أو ست فواصل، كي يبدوا العمل أصيلا، وما هو بأصيل. طبعا، فأنا لا يهمني هؤلاء الكتبة المداحين، الجهلة الذين لا يخجلون من عملهم. لكن ما يؤلمني هو عناد السلطات العليا التي لا ترى إلا بأعين هؤلاء العميان ولا تسمع إلا بآذان هؤلاء الصم، الذي يعتبرون مستشارين وموجهين لها.

وفي الحقيقة، فإنم زاوية التهاميين المسماة الطيبية، ليس لها تأثير مميز في المغرب؛ بل إنها فقدت تأثيرها بعد أن تورط المرحوم الحاج عبد السلام، في مغازلته لكل من فرنسا وانجلترا.

واليوم، فإن أعضاء من أسرته ينتقدون في الخفاء ما صدر عنه، كما أن الزعماء الروحيين للزوايا الأخرى يوجهون أفظع التهم لشخصه، مما يلطخ سمعته. ولن أذكر هذه التهم، لأنني لا أريد لقلمي بأن يقتات من دود القبر. وكل ما هنالك، أن الضربات القاضية الموجهة إلى زاويته، بكل ما تحمله من تعصب ديني، قد صدرت في المغرب، من قلب هذه الزاوية، أي من العائلة الوزانية نفسها !

ولم تنفع عملية جمع الصدقات في الإعلاء من شأن التهاميين. فبعد أن استغلوا المناطق المجاورة لهم، وأمام منافسة الزوايا الاخرى لهم، امتدت أذرعهم الأخطبوطية بعيدا؛ حتى وهران وتوات، حيث شرعوا في امتصاصا خيرات الأهالي واستقطاب المتعصبين لمساعدتهم.

هذا بالنسبة للشعب، أما بالنسبة للبلاط الشريف، فلا أحد يجهل عملية التجسس التي كان الحاج عبد السلام يخضع لها. فكل خطوة من خطواته، كانت تصل إلى مسامع القصر، بفضل المخبرين الذين لم يفارقوه أبدا. ورغم علمه بذلك، فإنه لم يكن يعير الأمر أي اهتمام، لأنه كان محميا من طرف قناصلة فرنسا وبريطانيا العظمى.

ومعلوم أن السلطان الحالي، ابن مولاي الحسن، يراقب عن كتب زاوية وزان، عملا بنصيحة والده. وهو يدرك بأن هناك تحركا مريبا ومحدودا بالزاوية، لكن من الممكن أن يخلق المتاعب في المستقبل بفعل التدخل الأجنبي وأن يشكل خطرا على البلاد برمتها. فمن أين

أتت هذه الرواية الكاذبة التي مفادها أن سلطان المغرب لا يعترف به عاهلا إلا بعد مباركة سيد مدينة الريحان؟ إنني لا أجدها في أي مؤلف عربي؛ وعندما أسأل المغاربة بهذا الخصوص فإنهم يندهشون ويجيبونني بمكر قائلين:

- إن من له مصلحة في هذه الإشاعة، هو من ابتكرها !

ولم يتم ذكر هذه المسألة من طرف مؤلف كتاب الاستقصا علما بأنه يستفيض القول عندما يتعلق الأمر باعتلاء أحد أفراد العائلة المالكة العرش؛ ففي مثل هذه المناسبات، يستخدم العبارة النمطية التالية:

"عند موت السلطان الفلاني، يجتمع كبار الشخصيات بالحكومة والجيش والقضاء والعلماء والأعيان [دون تمييز بين أصولهم]، لإعلان بيعتهم لفلان، لأنهم يرون فيه الشخص المتوفر على فضائل الإمام الكامل ولأنه ولي عهد السلطان المرحوم [وإن كان هذا الشرط الأخير ليس ضروريا دوما].

وقد كان المؤرخ أبو القاسم بن أحمد، أكثر وضوحا في "ترجمانه" من السلاوي، حينما تحدث عن اعتلاء السلطان المولى سليمان بن محمد بن عبد الله العرش [من سنة 1792 إلى 1822]، حيث قال بالحرف "اجتمع أهل الحل والعقد من أمراء العبيد وأعيان البربر الذين هم عصبة المغرب"[4]

وتهمنا هنا عبارة "أعيان البربر الذين هم عصبة المغرب"؛ وإنني أسأل أبا القاسم الحذر، كيف تمكن من ذكر الحقيقة هذه المرة؟

أما زاوية وزان، فلم يذكرها أحد؛ وهذه الطريقة التي اشتهرت في العالم، لا تتضمن في الواقع، سوى مجموعة من المتسولين المشهورين ومن الصلحاء عديمي الأهمية الذين يصدر عنهم الضجيج كما يصدر عن جلد الطبل. ورب متسائل : "لكن، من هم الشرفاء الأكثر تبجيلا واحتراما؟" وجوابي هو كالتالي، مع بعض التحفظات: إنهم الحفدة المباشرون للأمراء الأدارسة. لكن انتبهوا معي جيدا، فإن تأثيرهم السياسي شبه منعدم، لأنهم قرروا، بعد الفظائع التي لحقت بهم، عدم الاهتمام بالشؤون الدنيوية والابتعاد عن مغرياتها. وقد اختاروا العيش فقراء مترفعين عن التسول وملتزمين بوعدهم القاضي بالابتعاد عن التشريف والثروة

---

[4] انظر الصفحة 92 من النص العربي والصفحة 169 من ترجمة هوداس Houdas.

والمجد. وأدركوا بأن العمل هو المصدر الأساسي لكرامة الشخص؛ فمارسوا مهنا بسيطة، مثل خياطة الملابس وحياكة جلابيب الصوف التي يبيعونها بالأسواق؛ بالإضافة إلى أشرف المهن الإنسانية، وهي مهنة التعليم.

لذلك، تعاطف الشعب مع هؤلاء النبلاء والصناع البسطاء الذين جرفت مياه النهر تاجهم، لكن آثار مجدهم الغابر، ظلت منطبعة على جباههم.

- بهلوانيون وممثلون:

تعتبر وزان الواقعة على مسافة متساوية بين فاس وطنجة، محطة أساسية بالنسبة للقوافل والمسافرين. فبعد ظهر كل يوم، يمكن للسائح أن يستمتع في أسواق وحارات المدينة، بعروض عيساوة والمغنيين ورواة الحكايات والرماة والألعاب البهلوانية لأولاد سيدي أحمد أوموسى ذوي الأصول السوسية. ويرسم هؤلاء بأجسادهم ما يعرف بالصومعة، حيث يصعد أربعة رجال بعضهم فوق بعض ويتجولون في الأزقة. ويقوم الرجل المتواجد بالأعلى، بالغناء ودق الطبل ورمي البندقية إلى أعلى ثم الإمساك بها ثانية أمام ذهول المتفرجين.

وفي أماكن أخرى، يوجد البهلوانيون ومروضو الأفاعي الذين يحتمون ببركة وليهم سيدي عبد القادر الجيلاني، معلنين أمام الحاضرين، بأنهم لن يشرعوا في العمل، إلا بعد أن يتلقوا قدرا محددا من النقود.

وهناك كوميديون شعبيون، يلعبون أدوارا تمثيلية وراءخربة، مرفوقين بجوق موسيقي مكون من عازفين للناي القصبي وضابط للإيقاع على دف بجلاجل. وتتكون الفرقة المسرحية من ممثلين إلى ثلاثة ممثلين. فهناك البطل الذي يلعب الأدوار الأولى والمهرج الذي يمثل تارة دور اليهودي أو اليهودية أو الحمار، وتارة شخصية سياسية يكرهها الجماهير أو منبوذة؛ وكذلك السافل والمتهتك؛ وهو الذي يحمل الحل في جعبته deux ex machina؛ لكن هذا الدور غالبا ما يلغى لعدم وجود خيال خصب يدرجه في موضوع المسرحية.

في سنة 1897، شاهدت بتلمسان وبالتحديد خارج باب سيدي الحلوي عرضا مضحكا قدمه مهرجان pitres مغربيان. وكان المهرج الأول زنجيا قوي البنية، يمثل دور الحمار ويروي للحضور الضاحك كيف أنه لم يتمكن من حمل الغذاء إلى سيده، لأنه التقى في طريقه حمارة [أتان] حسناء وجذابة ومثيرة؛ وبدأ ينهق مثل الحمار، إلى درجة أن الأطفال المتحلقين حوله

سقطوا على الأرض من فرط الضحك. وظهر البطل حاملا عصاه وجرى وراء الحيوان معاتبا إياه على مغامراته وميوعته طوال اليوم، تاركا سيده يتضور جوعا؛ وأشبعه ضربا. لكن الحمار قاوم السيد واتكأ على يديه، ثم شرع في النهيق من جديد وفي إصدار أصوات أخرى، متفاديا الضربات، بل موجها إلى البطل ركلات كانت تلقي به وسط الجمهور. وفي الأخير، قدمت حفنة من الشعير للمتصارعين، فتصالحا فيما بينهما.

وبينما كنت أتابع المشهد، مر بجواري بعض الأروبيين الذين لا يفهمون اللغة العربية؛ ونظروا باحتقار إلى المهرجين وتابعوا طريقهم، دون أن يخفوا دهشتهم من وجود أروبي مثلهم، في أحسن هيئة، وسط مجموعة من البؤساء والبدو المتسخين؛ وهو يتابع معهم العرض. والحال، أنهم لم يفهموا، في إطار جهلهم المقصود بعادات وتاريخ ولغة المهزومين، بأنني أدرس إحدى المشكلات الإنسانية الأكثر إثارة، وهي معرفة ما إذا كان لعرب المغرب مسرح.

وبالفعل، تبين بأن لديهم مسرحهم؛ وهو بدائي بكل تأكيد وفظ وغير فني، لكنه موجود. فالأمر يتعلق بالتهريج وبالعروض الهزلية البسيطة التي لم تجد أمامها نماذج أخرى كي تتطور؛ في حين أن الكوميديا الأروبية المليئة بالروائع، تبحث الان عن الجديد؛ ويبدو أنها تعود إلى أصولها الأولى.

إن المسرح الموجود بالمغرب ارتجالي، فهو ليس مسرح المحاكاة ولا يعتمد على نصوص درامية موجودة من قبل. بقي أن نعلم هل استعير من الرومان عن طريق الأمازيغيين، أم أنه إنتاج تلقائي لعرق ميال إلى السخرية وقادر على الإحاطة بمزايا وعيوب من تتم ملاحظتهم رغم أنفهم.

- مـــــــلاح وزان:

يشغل الملاح مكانا مخصوصا بغرب المدينة، بعيدا عن الزاوية وبيوت الله؛ وهو مأهول بالسكان ويبدو أن اليهود مرتاحون بداخله. وهم يرتدون جلابيب سوداء و "شاشيات" ونعالا من نفس اللون. وعلى العكس من ذلك، فإن طرابيش المسلمين حمراء وهي محاطة بعمامة كبيرة من القطن الأبيض؛ ويرتدي هؤلاء جلابات من مختلف الألوان، باستثناء اللون الأسود، حتى يتميزون عن بني إسرائيل الذين فرض عليهم هذا اللون.

ويعرف اليهود أيضا بخصلات الشعر التي تتدلى على وجنتيهم؛ وهو ما يلاحظ أيضا لدى عساكر المخزن؛ بل إن خصلات هؤلاء، أطول من خصلات الإسرائيليين. أما اليهوديات فيضعن شالا أحمر فوق القميص القطني الأبيض.

وهل من الضروري التأكيد بأن شعب يهوه Jehovah "المختار"، يعيش اعتمادا على التهريب والربا؟ على أية حال، فإن اليهود لم يكن لهم خيار في ذلك. فالزراعة ممنوعة عليهم، لأن بني مسارة يحصدون وحدهم ما بذروه. ولا مجال للحديث عن صناعة الأسلحة؛ وبالنسبة للتعليم، فإنه يحظر عليهم قراءة وكتابة العربية.

وماذا عن الوظائف الإدارية والقضائية؟ إنكم تعلمون بأن اليهودي لا يتوفر على حقوق مدنية ولا يمكنه أن يمارس أية وظيفة. وقيمته في كامل تراب المملكة الشريفة، ليست أفضل من قيمة كلب ميت.

ومع ذلك، فقد مارس اليهود التجارة وحققوا ثروات هائلة من ورائها؛ بل إنهم اكتسبوا بفضل مجهوداتهم، وضعا متميزا بمدينة وزان الإسلامية.

[**ملحوظة المترجم**: يبدو تناقض موليراس واضحا هنا؛ فبعد أن تحدث عن انعدام قيمة اليهود، ها هو يشير إلى وضعهم المتميز داخل وزان.

من جهة أخرى، نعلم جميعا بأن اليهود كانوا يمارسون، فضلا عن التجارة بكل أشكالها والربا، مهنا أخرى وعلى رأسها الصياغة. وأنا أتحدث هنا عن اليهود المتواجدين بالمدن وأستحضر ما عاينته في طفولتي بفاس، ليس بالملاح، ولكن بالمدينة القديمة [الطالعة الكبرى، القيسارية الخ..].

وأول انطباع يشعر به المرء أثناء زيارته للملاح، هو وجوده أمام عرق صبور وماكر، يعيش وسط المسلمين رغم الصعوبات ويراكم الثروات. وهناك تناقض واضح بين الأزقة الضيقة والدائمة الحركة بالملاح، حيث تكثر دكاكين الإسكافيين والخياطين وصانعي القدور؛ وأزقة المسلمين الهادئة !

ففي الأولى، نجد النشاط وحب المال والبخل التام ladrerie وفي الثانية نجد التخلي عن كل نشاط بدني او ذهني والحلم الدائم بالمتع الأخروية التي ترددها الخطب والمواعظ الدينية.

لكن حب المال والرغبة الحثيثة في الربح، يدفعان اليهودي خارج حيه ويعرضانه لشتى المخاطر. فنشاطه الأكبر يتجلى خارج أسوار المدينة المبجلة، حيث يغامر بالتجول في البوادي والقرى والدواوير الموجودة بالمناطق الخاضعة للسلطان. ويتبع مشيا على الأقدام حماره أو بغله المحمل ببضاعته الرخيصة pacotille المكونة من العقاقير ومواد التجميل والمرايا والأثواب القطنية والأواني والقدور. وبعد عملية البيع، يعود إلى مسكنه حاملا معه الصوف والقمح والشعير. وهو ينتهز فرصة عودة ا لقوافل إلى وزان، لكي يجتاز منطقة بني مسارة الخطيرة، دون مشاكل.

وعلى غير عادته، لم يقم الدرويش بزيارة الملاح والتجول في أزقته. فقد كان مرتاحا في زاوية مولاي عبد الله، حيث كان يستمتع بالمأكل والإقامة والتدفئة والإنارة في هذه الزاوية المضيافة. وصادف لحسن حظه، توزيع بعض المحسنين للحايك وللجلابة على كل معوز؛ وبطبيعة الحال، فقد تمكن من الحصول على حصته من الملابس الجديدة.

وحظي أيضا بتعليم أحد أبناء الشرفاء، عبر تلقينه دروسا في النحو. ففي كل يوم، كان المعلم والتلميذ ينفردان في أحد بساتين ضاحية وزان، وسط الزهور والخضرة، ويقضيان اليوم في القراءة وشرب الشاي وتناول الأطعمة الجيدة التي يحضرها أخ الشريف حوالي الواحدة بعد الظهر.

وقد أثار مظهر الرحالة بملابسه الأنيقة ورفقته للشرفاء، طمع يهودي من فاس، ظل يراقبه منتظرا الفرصة المواتية للنصب عليه. ونجح في إبعاد الدرويش عن تلميذه وأغراه بالسفر إلى فاس على ظهر بغل، لحضور حفل زفاف ابنة يهودي غني بملاح العاصمة الشريفة. وفضل محمد مرافقة اليهودي على البقاء مع تلميذه.

وكان من المقرر أن ينطلق "الحمار" في غضون ثلاثة أو أربعة أيام؛ لذلك قضى محمد هذه الأيام في الملاح، رفقة مضيفه. وطوال اليوم، كان الرجلان لا يفعلان شيئا سوى الأكل والشرب بإحدى غرف المنزل. ولم يكن طعام يهود وزان متنوعا، فقد كان في غالبيته مكونا من القطاني؛ وأحيانا ما يقدم البيض المقلي بالثوم؛ لكن سرعان ما يبرز من جديد صحن الفاصوليا [اللوبية] المطبوخة والممزوجة بالخل. وعند تقديمها تتقاطر الكلمات الساخرة والسافلة على لسان اليهودي الذي يكرر هذه العبارة:

- اللوبية حبس الحزقات [الفاصوليا هي سجن الضرطات].

وفي الليل، ينام جميع أفراد الأسرة بنفس الغرفة. ولا يشعر اليهود، كبارا وصغارا، بأي حرج عما يصدر عنهم أثناء النوم، حيث ينبعث من مؤخراتهم الفسو والضراط الذي يلوث الجو ويصيب الدرويش بالدوار.

وللإمعان في السخرية من ضيفه، كان اليهودي يدير مؤخرته تجاه الزاوية ويضرط صائحا:

- هذي للشرفا، هذي للمرابطين !

وأخيرا غادرت القافلة وزان إلى فاس؛ ودام السفر ثلاثة أيام. وفي كل مساء، كان أفراد القافلة يتوسلون أهالي الدوار الذين توقفوا فيه، بالسماح لهم بالمبيت في العراء بجواره وتخصيص مكان آمن للحيوانات، حتى لا تتعرض للسرقة.

وبفاس استضاف اليهودي الثرثار الدرويش؛ ولكن لم يسمح له بحضور حفل الزفاف؛ وظل الرحالة بجانبه في أكل وشرب ونوم، إلى أن أيقظته كلمات متهورة من حالة الاسترخاء التي كان يتواجد فيها ونبهته إلى الخطر الذي يحذق به. ففي إحدى الأمسيات، سأل يهودي آخر كان قد وصل للتو من دبدو، رحالتنا عما إذا كان يفهم أمازيغية تلك المنطقة؛ فأجابه الدرويش الحذر بالنفي. ولكي يتيقن اليهودي من جوابه، شتمه بالأمازيغية، لكن صاحبنا لم يحرك ساكنا أمام سيل الكلمات البذيئة الموجهة إليه. عندئذ نادى اليهودي صديقه صاحب الفاصوليا وخاطبه بالأمازيغية قائلا:

- أقترح عليك أن تفقأ عيني هذا المسلم. وسنحتفظ به في قبو المنزل، حيث سيدير الطاحونة إلى آخر أيام حياته؛ وبذلك سنعفي نساءنا من هذا العمل الشاق. وأنت تعلم بأن حاييم ويعقوب التازي قاما بنفس الشيء مع رجلين مسلمين. وقد مرت الآن سنتان وهما يديران الطاحونة بمنزلهما.

واتفق السافلان على القيام بجريمتهما في أقرب وقت. وبعد تناول العشاء، ذهب الجميع إلى النوم. لكن الدرويش ظل يقظا، فقد تخيل نفسه كبغل يجر طاحونة اليهودي الضخمة تحت الأرض، بعينين فقدتا النور. وتفاديا لوقوع الجريمة في تلك الليلة، أيقظ صديقه وأخبره بأنه قد أخفى قدرا مليئا بالذهب بضواحي صفرو. فرد عليه اليهودي:

- سنتحدث عن ذلك غدا.

ثم غط في نومه من جديد. وفي الصباح، وبعد نقاش طويل، تم الاتفاق على أن يذهب محمد وحده إلى صفرو للبحث عن كنزه، لأن الطريق لم تكن آمنة بالنسبة لليهود. وعندما هم بالخروج، طلب منه اليهودي بأن يترك ملابسه الأنيقة بالمنزل، لأنه من الممكن أن تسلب منه خلال السفر؛ وطبعا سيستردها عن عودته. فرد عليه الدرويش:

- فكرة جيدة، لكنني لن أسافر الآن يا عزيزي؛ وأقترح عليك أن نقوم بجولة صغيرة بالملاح وعند رجوعنا إلى المنزل، سأنزع هذه الملابس وأتركها أمانة عندك.

وفي الزقاق، التقى الرجلان بجماعة من المسلمين، فقفز محمد وسطهم صائحا:

- ابعد عني أيها "اليهودي الخانز". انظروا أيها المسلمون، يا خدام المخزن، إن هذا اليهودي يريد سلبي ما أملك.

واختفى الإسرائيلي فجأة عند رؤيته للمسلمين؛ وتوقف الأمر عند هذا الحد.

وأريد الآن أن أسجل على المستوى التوثيقي فقط؛ ودون تبني بعض الأحكام الشعبية المسبقة الناتجة في أغلبها عن الافتراء والأسطورة، بعض الاتهامات التي يوجهها المسلمون المغاربة ليهود بلدهم. فهم يقتلون أبناء المسلمين ويخلطون دمهم بالخبز الفطير pain azyme الذي يهيأ في عيد الفصح؛ ويهيؤون وجوها من الشمع تمثل النبيين عيسى ومحمدا [عليهما السلام] ويغرسان فيها الإبر.

اما سعادتهم الكبرى فتتحقق عندما يقبضون على مسلم راشد ويفقؤون عينيه ويجبرونه على جر الطاحونة طوال حياته. لذلك يجب أن يحذر المرء من الملاح وألا يعتقد بأنه في أمان عندما يكون وسط اليهود. ويضيفون إلى ذلك، روايات أخرى، تبين الحقد الدفين الذي يكنه اليهودي للمسلم.

- **الشريف و اليهودي**:

عند رجوعه إلى وزان، روى محمد بن الطيب لمجموعة من أصدقائه، ما وقع له مع يهودي فاس. وقد اندهش شيخ وقور بلحيته البيضاء، من سذاجة الدرويش وأنبه بقسوة، محذرا إياه من ربط أية علاقة في المستقبل مع أعداء الرسول (ص) وأضاف قائلا:

- ألا تعلم بأن اليهودي هو معدن المكر؟ اسمع ما وقع لأحد أجدادي. فقد غادر هذا الشريف طنجة مرفوقا بيهودي استعطفه لحمايته أثناء السفر إلى فاس. وكان الجد

على معرفة بمكر وحقد أصحاب التلمود؛ لذلك ظل من فوق حصانه يراقب اليهودي الذي كان يمشي بجواره.

فقد كان الشريف يدرك بأن لليهود المغاربة أشكالا من الحيل لا يعرفها غيرهم. ولم يصدر عن اليهودي ما يثير الشبهات خلال السفر. وعند أبواب فاس، نزل الجد من فوق حصانه وخاطب الإسرائيلي بلهجة المنتصر قائلا :

- هيه أيها اليهودي، لقد بقيت محترسا منك طوال السفر؛ ولم تستطع خداعي، أليس كذلك ؟ فأجاب اليهودي الماكر :
- صحيح يا سيدي أنك احترست مني؛ لكنني حققت هدفي مع ذلك.
- كيف ذلك ؟
- عليك ان تقسم بأنك ستسامحني وسأخبرك بما فعلت.
- أقسم بالله العظيم، أنه لن يصيبك مكروه.
- حسنا ! فخلال سفرنا من طنجة إلى فاس، كنت أدوس على جمجمتك؛ حيث كنت أتبع في كل مرة ظل رأسك المبجلة على الأرض وأدهسها بقدمي !

وزان وبنــــــي مســـارة :

لا تسألوني عن خضوع مدينة الشرفاء لهيمنة بني مسارة. فهؤلاء لا يبجلون ولا يحترمون سوى عائلة شريفة واحدة وهي عائلة أولاد البقال المنحدرين من سيدي علال الحاج الذي توجد زاويته بقبيلة غزاوة.

أما الشرفاء الوزانيون التهاميون، فإن الاحترام الذي يحظون به، شبيه بالاحترام الذي يكنه غياثة لأهالي تازة. فالمساري هو سيد المدينة؛ وهو يتجول فيها بسلاحه ويتكلم بصوت عال وبعنف مع السكان الذين لا يعبرون عن احترامهم له سواء كانوا شرفاء او يهودا.

وبالضواحي، يكمن للأطفال والنساء فيسبيهم ويذهب بهم إلى موطنه الجبلي، حيث يتم بيعهم أو استغلالهم جنسيا. ولا تمر سنة دون أن يقوم قسم من بني مسارة بنهب وزان. وكم من مرة خربت هذه المدينة المقدسة وأحرقت من طرف جيرانها الرهيبين. ورغم مقاومة سكانها، فإنها تستسلم لهم في الأخير.

أما السلطان، فإنه لا يأسف في العمق، على التنكيل الذي يتعرض له أناس يطمعون في عرشه. وهو لا يسعى إلى مناصرتهم، بل يرغب في أن تتم إبادة العائلة التي تجرأت على التحالف مع الأجنبي والطمع في السلطة. من جهة أخرى، فإن بني مسارة لا يخشون السلطة المركزية وغالبا ما كبدوا العساكر الشريفة هزائم مخزية. وعلى العموم، فإن أغلب المغاربة لا يهمهم مصير أولاد مولاي الطيب بوزان. وعلى الرغم من أنهم لا يحطون من قيمتهم كشرفاء ، إلا أنهم يعتبرونهم في نفس مستوى الشرفاء الآخرين الذين يعج بهم المغرب، ومن بينهم أولاد البقال[5] وأولاد ادريس وأولاد مولاي عبد السلام ببني عروس وأولاد مولاي علي الشريف بتافيلالت الخ...

إن الشرفاء الوزانيين المستسلمين لأمرهم، سيضطرون إلى مداهنة الشخصيات النافذة في بني مسارة واللجوء إلى مرتزقتها خلال فترات الأزمة. وبعد كل هزيمة تلحق بهم، يطلبون التوبة والغفران بنوع من السذاجة الدينية، معتقدين بأن ما يلحقهم من هزائم يرجع إلى العادات اللواطية القبيحة التي يمارسها بعض أفراد عائلتهم المبجلة.

مـــضايـقات داعــرة :

تجد المضايقات الداعرة والقاسية، خصوصا بين الطلبة، مرتعها الخصب هنا. ولا يمكن للإنسان الأمي الذي يدخل قرية كبيرة لأول مرة أن يتفاداها، في حين أن الطالب الذكي الذي يعرف ما ينتظره، يتجنب مضايقات الساخرين، باستخدام عبارات من قبيل: " لعن الله الناظر والمنظور، فكشف الصورة حرام في القرآن والسنة". عند ذلك، يترك وشانه. اما إذا كان الطالب ساذجا وغير مجرب، فإن شخصين قويين يمسكان به ويلقيان به أرضا ويرفعان ملابسه فوق خاصرته. وعادة ما تتم العملية ليلا، حيث يضيء طالب ثالث المكان بواسطة شمعة أو مصباح زيتي. ويأتي طالب رابع وبيده مقص كبير، وهو متجهم الوجه ويصيح قائلا :

- يجب أن نتأكد ما إذا كان ختان هذا "المغندف" [الغبي] قد تم كما يجب؛ وهل مازالت الغرلة التي يعرف بها الرومي، بادية للعيان كعرف الديك ؟

[5] ويعتبرون من حفدة الرسول (ص)؛ وإن كانوا غير متمدنين. وسنتحدث عنهم لاحقا.

ويشتد رعب الضحية، فيتلوى باكيا، مستعطفا جلاديه، مما يضاعف من انتشاء الجمهور. وفجأة يأخذ صاحب المقص قطعة من الجلد ويقطعها فيصبح الجميع : "الفار بالأذنين والقط بالظفرين، جبهم يتطهروا ولو يكونوا شايبين ! "

وقد خضع محمد بن الطيب لهذه العملية اكثر من خمسين مرة أثناء رحلاته الطويلة بتراب بني مسارة؛ لذلك أصبح عارفا بتقاليد القبيلة، وما أن يدخل إلى المسجد حتى يتمدد فوق الزربية ويقول بمكر : "بارك الله فيكم ! هيا أقبلوا ! فسأفعل ما تريدونه." فتتعالى الضحكات ويبتعد الجميع عن هذا الدرويش الماكر والمرح في نفس الوقت.

إن هذه المضايقة أو هذه العادة، المتمثلة في الختان الثاني، معممة في كل القرى الجبلية الكبيرة ببني زروال وبني أحمد والسراق والاخماس وغزاوة وبني عروس؛ فهي تمارس في المناطق الواقعة بين طنجة وتطوان، لكنها غير معروفة بغمارة.

والويل للرومي، أي للنصراني غير المختن، الذي تسول له نفسه التجوال في هذه المنطقة، حتى ولو كان على هيئة شحاذ أو كان يكتب ويتكلم اللغة العربية – وهذا أمر غير وارد إلى حد الآن – فإن حقيقته ستنكشف بهذه الطريقة الشنيعة والذكية. وإذا ما حاول استعمال الحجة لإقناع هؤلاء الأقظاظ بأن الختان ليس فرضا دينيا وبأنه لم يشرع قرآنيا، فإن مصيره سيكون هو القتل، باعتباره جاسوسا.

فيا أيها المكتشفون المسيحيون المقبلون على زيارة بلاد السيبة، تفادوا قضاء الليل بالقرى الجبلية الكبيرة؛ واختاروا النوم في الدواوير الصغيرة التي لن تتعرضوا فيها لعملية "المراجعة" الشنيعة هاته !

أما عندما يكون الأجنبي شابا أمرد، فإنه لا يخضع لهذه العملية فحسب، إذ يجبر مباشرة بعد ذلك، على الرقص على نغمات الموسيقى وعند منتصف الليل تمارس عليه الفاحشة.

وفي الصباح تتهكم النسوة أمام الرجال قائلات :

-إنه أمر لا يصدق، فقد نام عايل شاب البارحة بالمسجد؛ وخرج نقيا. ها ها ! إن الشباب أصبحوا جريئين في أيامنا هذه.

ويضحك الرجال من هذه السخرية كما اقتضت العادة. وإذا ما حاول شخص أن ينتقد هذه الممارسات، فإنه يتلقى الرد التالي :

مكتوبة في الصبـــــاط **** من كان زامل يرجع لواط

وليست هناك عبارة أكثر وقاحة لوصف هذا الداء الذي ينخر المجتمع المغربي. وهذا الميل لدى الشعب نحو فاحشة مقيتة، لطالما تمت مؤاخذة أبناء سام على ممارستها. وقد انتشر هذا الداء وسط النساء المساريات أنفسهن! فبدافع من الشهوة ومن الانتقام أيضا، يلجأن إلى الغلمان وينزوين معهم في مكان بعيد ويمارسن برفقتهم أشياء أرفض وصفها.

وفي المراكز الصغيرة التي لا يوجد بها بيت الصحفة، يلجأ العزاب والعاملون في الحقول والأرامل إلى المواشي لإطفاء شهوتهم. ويحكى أن مساريا بجنوب المنطقة، كان يحرث أرضه مستعينا بناقة ضخمة. وفجأة راودته فكرة جهنمية، فجرى مسرعا إلى الغابة وقطع بعض الأغصان ليصنع منها سلما؛ ورجع إلى الناقة التي ظلت واقعة وسط الحقل واستعمل السلم ثم ....

وبعدما نزل من فوقها، أحس بالندم وبنصف اليوم الضائع في صناعة السلم وبالعقاب الإلهي المنتظر. وكمسلم عادي، أرجع الغلطة إلى الشيطان الذي هو كبش ضحية كل السفلة، وصرخ بغضب :

-اللهم إلعن إبليس، فهو الذي أغراني وهو سبب هذه الخطيئة.

وأراد الاستمرار في لعناته، فظهر الشيطان فجأة وقاطعه قائلا بصوت كالرعد :

- ليلعنك الله انت أيها السافل ! أما أنا إبليس، فيشهد الله علي بأنني أجهل تماما هذه العملية الجديدة التي قمت بها.

واختفى سيد الظلام يائسا ومعترفا بهزيمته أمام هؤلاء البشر الذين هم أكثر شيطنة منه.

ومن المؤسف والمخجل الإقرار بأن هذه الرذيلة النابعة من سدوم sodome [اللواطية]، كان لها تأثير أشنع من الفظاعات التي قامت بها مختلف الأسر الدموية التي غزت المغرب منذ عدة قرون. والحال، أن هذا الداء ما زال منتشرا بشكل أكبر؛ ولسنا ندري متى وأين سيتوقف.

مجتمـع الرماية والمسايفة :

إن العيب الأساسي لبني مسارة هو التكبر. فهم يعتبرون أنفسهم من أفضل خلق الله، لأن التعليم القرآني منتشر بكثرة في مساجدهم، حيث يتعلم الأولاد والبنات القراءة. وهم يفتخرون

بشجاعتهم؛ ولعل الزوايا العديدة لديهم والمخصوصة لمحبي الرماية، دليل على تحمسهم للقتال. ففي كل يوم، على الساعة الرابعة بعد الظهر، تتدرب مجموعات من 50 إلى 150 رجلا في كل القرى، على إصابة الهدف Cible ولعب الكرة والمسايفة، بحيث يستخدم المبتدؤون أعواد الزيتون أما المتمرسون والمقاتلون فيستعملون سيوفا حقيقية. والحال، أن الغرائز القتالية لهؤلاء الأشخاص لا تعني أنهم أعداء المرح والمتعة. فهم مهووسون بالسهرات الليلية الراقصة؛ وتراهم عند حلول الظلام، حاملين المشاعل لتفادي الأزبال المتراكمة هنا وهناك، منتقلين من المسجد إلى دور الخلاعة. وفي النهار، ينشغلون بالقنص، حيث يصطادون الحجل بالشباك والأرانب البرية بالاستعانة بحيوان ابن مقرض[النمس] furet وفي موسم مرور السمان والزرازير، يقتلون الكثير منها.

وقد سبق أن قلنا، إن المراكز القروية الكبرى تتوفر على زاوية مخصوصة للرماة وتتحول إلى مخزن للأسلحة، يشمل بنادق ورصاصات وبارود الجماعة. ويعتبر " مقدم" الزاوية هو قائد الرما [الرماة] فهو الذي يقود هؤلاء يوميا إلى ساحة، خارج القرية للقيام بالتمرينات المختلفة على فن الرماية. وعندما تعود المجموعة إلى القرية، فإنها تطلق عيارات نارية كثيفة، تجيبها زغاريد النساء الواقفات بأبواب المنازل. ومن قرية إلى أخرى، يفتخر الأهالي باستدعاء هؤلاء الرماة ويتم الاحتفال بهم وتكريمهم؛ لأن الجميع يحب سماع صوت إطلاق النار وصفير الرصاصات الموجهة نحو أهداف محددة.

ولا تقتصر هذه الممارسة على الشباب، فكل الرجال الأصحاء ما بين 15 و 70 سنة يشاركون في الرماية. وسواء كانوا شيوخا أو مراهقين، فإنهم ينتشون برائحة البارود ويتحدثون طوال الوقت عن الأسلحة النارية. ويبدو أن هناك مولفات عربية متخصصة، تتضمن قواعد هذه الرياضة. وقد أوصى مقاتلون ورعون وشجعان، اعتبروا أولياء بعد موتهم، مثل سيدي أحمد بناصر وابن الوقاص وسيدي يوسف، بخلق جماعات الرماة في المملكة برمتها. ولديهم الآن أتباع كثيرون خصوصا بسوس وبحوز مراكش؛ وهم يشكلون زوايا قوية ومحترمة.

هكذا، تمتلىء صناديق هذه الزوايا بهبات وصدقات المحسنين؛ وبفضلها تتزود بمكية هائلة من البارود والرصاص، يتم استعمالها يوميا من طنجة إلى ما وراء درعة.

إن أهالي بني مسارة يتسوقون من وزان؛ فبها يجدون الحايك الجيد والجلابة الأنيقة المشهورة بجودتها في المغرب الشمالي برمته. ويصنعها الخياطون ويبيعونها بأنفسهم للزبناء. وبالرغم من كون الدرويش لم يشتر لباسا في حياته، إلا أنه قدم لي معلومات حول أثمان الجلابة والحايك الجبليين. فالجلابة المطروزة والمرصعة بكرات الحرير تباع بثمن يتراوح ما بين 15 و 20 فرنكا؛ أما ثمن الحايك الجيد، فيتراوح ما بين 8 و 12 فرنكا. ويتفادى المساريون التبضع بأسواق وزان منفردين، فهم يدركون كره الوزانيين لهم، لذلك يأتون جماعات حاملين أسلحتهم؛ ويتصرفون وكأنهم محتلون للبلدة، حيث يستولون على كل ما يجدونه في طريقهم دونما اعتبار للمالك. وإذا حدث أن تباطأ اليهودي عند رؤيتهم ولم يسرع الخطى جهة اليسار، حاملا نعليه بيده، فإنه سيتلقى ضربات مؤلمة بالعصا. لذلك، فعندما يرى اليهودي أحد المساريين من بعيد، فإنه يتفاداه قدر الإمكان. وبالملاح يجثو أمامه ويتمسح به كي يشتري منه شيئا؛ وغالبا ما ينجح في مهمته. والشيء المثير هو أن المرأة اليهودية لا تخشى هذا المساري العنيف، فهو يمر بجانبها بتعجرف ويتفادى ملامستها كي لا يصبح نجسا.

وعندما يتجول المساري في المدينة التي تعادل مساحتها مدينة بلعباس، يرى بأن ساكنتها من المسلمين واليهود، قد وضعوا كل الاحتياطات قبل وصوله؛ فيذهب إلى إحدى الزوايا الأربع بالمدينة لتناول طعام الغذاء أو العشاء؛ وهناك يستقبل بحفاوة. وبعد ان يملأ بطنه بالكسكس واللحم يعود إلى جباله.

والآن، لنتتبع خطاه في مسقط رأسه. فإذا كان غنيا نسبيا، فإنه سيكون متزوجا بامرأتين أو ثلاث؛ وهذا لا يمنعه من قضاء أمسياته ببيت الصحفة رفقة أصدقاء المجون، وسط دخان الكيف، شاربا الشاي والصامت المسكر[6] ومستمتعا بالرقصات الصادرة عن المخلوقات البئيسة من الجنسين التي

---

[6] قرأت مؤخرا، دراسة مختصرة عن العصير المعقم وفق طريقة الكيميائي الفرنسي ذي الأصل الألزاسي روزنسيال Rosenstiel. وبلغة شاعرية ومتحمسة إلى درجة الهذيان، أعلن المؤلف عن نجاح تجربته. فقد تخيل أنه من الآن فصاعدا، بإمكان 150 مستهلك مسلم، شرب هذا الكوثر nectar أو الخمر الشبيه بالمنابع والجداول الصافية.

وللأسف، فلا جديد تحت الشمس ! فمنذ قرون، دأب المغاربة على صنع وشرب العصير المعقم المسمى عندهم "بالصامت" الحلو، حيث يغلى العنب ويصفى من الخميرة التي تغطيه، ليصبح عبارة عن هلام العنب أو مربى سائل، لن تجد الجمعيات المناهضة للكحول في العالم، ما تقوله ضده. ومع ذلك، فإن المغاربة يعرفون كيف يصنعون الخمر الحقيقي أي "الصامت" غير المعقم أو المسكر.

ويا للعجب ! فمن منا كان يتصور بأن أصل اكتشاف العصير المعقم، لا يوجد في أعمال باستور ولا في الطريقة الجديدة للسيد روزنسيال، بل في المغرب، عند المغاربة الذين ينعتون ب "الهمج"؛ هؤلاء الأميين الذين مازالت كلمة كيمياء chimie تحتفظ عندهم بمعناها القديم وهو: الخيمياء al chimie.

بخصوص تحضير "الصامت" الحلو والمسكر، انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 61 و 62.

يستغلها لممارسة المتع المحرمة عليه داخل الرتابة المملة للحريم. وأحيانا ما يبلغ تهتكه حدا لا يتصور، حيث يستدعي غلامه للعيش معه وسط أسرته، أي بين زوجاته وأبنائه الذين يعتبرون الأمر طبيعيا، ما دامت العادة تقتضي ذلك.

ـ منشطات جنسية وأعشاب وعلوم طبية:

عندما تخور قوى الماجنين، فإنهم يلجؤون إلى منشطات جنسية يعتقدون بأنها موجودة ببعض الفواكه الجافة، مثل اللوز والزفزوف وأيضا العنب الأحمر. لكنهم يفضلون في الغالب، بعض النباتات القوية المفعول، مثل الوضمي وشنتقورا وتيجنطاست وتاسرغينت وأراديم.[7]

فالوضمي عبارة عن نبات منشط Gypsophila compressa وتستعمله النساء للزيادة في وزنهن، لأن المرأة السمينة هي النموذج ومبتغى كل مغربي. وطريقة الاستعمال هي كالتالي: توضع جذور الوضمي داخل القرب التي يمخض فيها الحليب وهو ما يجعله حامضا على ما يبدو.

وأنا لا اعرف شنتغورا، وبالمقابل فإن تيجنطاست هي anacylus (corymbifères) وتاسرغينت هي Globularia (Globulariées) وأراديم هي phelipae (Orobanchées). وعند الإصابة بصداع الرأس، ينصح الطب الشعبي الجبلي باستعمال مريوة، حيث تطحن ورقتها ويتم استنشاقها؛ وعلى الفور يزول الألم؛ وإن كان المريض يستمر في العطس مدة طويلة. وبمزابل القرى تنبت شجيرة تدعى سيكران، تنتج ثمرة ذات خصائص مخدرة soporofiques. ويستعمل الكبار capre في العديد من الأطعمة ويعتبر مقويا جنسيا. أما آلام الأعصاب nervralgies، فتعالج بوضع كمادات من الحرمل paganum harmala، بعد أن يتم غمسها في زيت ساخنة. ويسود الاعتقاد لدى الجميع، بأن النباتات المرة مفيدة لمعالجة آلام الهضم ؛ وتستعمل للقضاء على الديدان المعوية المتولدة بدون شك، عن الشرب المبالغ فيه للشاي المحلى بمعدل 30 غراما للقدح وأيضا عن الاستهلاك المفرط للحلويات لدى المغاربة.

إن ممارسة الطب الشعبي أو بالأحرى الشعوذة charlatanisme التي تأخذ هذا الاسم، هي حكر على بعض الطلبة عديمي الذمة. وفي الواقع، فإن كل طالب هو طبيب بمعنى ما.

---

[7] الملاحظ أن كل هذه الكلمات أمازيغية؛ ويستعمل عرب دائرة وهران الأراديم ويسمونه الرديم.

ومصدر شهرته الكونية هو الحرز أو الحجاب الذي يتضمن عبارات غير مفهومة، تنتقى كلماتها من ا لقرآن الكريم الذي يثق فيه ا لمريض بشكل مطلق. ويصنع جميع الطلبة أحجبة علاجية؛ ومن ضمنهم الدرويش الذي وزع المئات منها خلال جولاته. فخلال جولته السابقة بحوز مراكش، ادعى بأنه طبيب. وقد جمع مالا كثيرا واحتال على العديد من المرضى. غير أن مصرع طالبين أو ثلاثة، ممن كانوا يزاولون نفس المهنة، فتح عينيه على مخاطرها، بحيث يكثر الحساد والأعداء، من بين أولئك الذين دفعوا الأموال دون أن يشفوا.
وفي الحقيقة، فإن هؤلاء الطلبة المتهورين مثله، كانوا يرتدون أحسن الملابس ويرصعون أصابع أيديهم بالخواتم، مما كان يثير حفيظة المغاربة تجاه هؤلاء المحتالين الذين يدعونهم ب "كروش الحرام".
وأمام هذه الوضعية التي أثارت مشاكل عديدة لا مجال لذكرها هنا، اشمأز محمد من العلوم الطبية ومن المعدن المعلوم، مصدر العديد من الجرائم، فتخلى عن ملابسه الأنيقة ولبس أسماله القديمة التي تمنحه وحدها الأمان وتجنبه تلقي ضربات قطاع الطرق؛ وهذا مكسب هام.

- ليالـــي وزان:

في سنة 1895، وهي السنة الأخيرة التي سيتواجد فيها بالمغرب، ظهر محمد بن الطيب بوزان مرة أخرى. وكم كانت دهشته وفرحته عندما تعرف بأحد دكاكين المدينة، على صديقه القديم الشريف الوزاني سي المكي بن ابراهيم. وقد سبق للدرويش أن التقى بالرجل بسناذة وهي قرية كبيرة ببني يطفث بالريف، حيث كان يعيش رفقة عائلته، معززا مكرما. بعد ذلك، رجع إلى وزان ليتحمل مسؤولية "مقدم" الزاوية، بعد موت "المقدم" السابق.
وتحدث الشريف مع صديقه عن الظروف الصعبة التي تعاني منها العائلة الوزانية التي لم يعد أفرادها يحظون بالاحترام في مدينتهم نفسها. أضف إلى ذلك، أن هناك العديد من الشرفاء المنافسين لهم، ليس فقط بوزان ولكن بكل أنحاء المغرب؛ وقد تحولت المنافسة إلى عداوة بينهم. فسأله الدرويش:
- لماذا لا ترجع إلى الريف؟
وكانت الإجابة:

- إنني أتمنى ذلك لكن القايد الجديد شاب غير محنك وخجول، على خلاف القايد السابق الذي كان رجلا عمليا محنكا.

وفجأة سمع صوت رجل، منبثق من داخل متجر الأثواب القطنية وهو يصيح باستعطاف:

- سيدي، سيدي.

وظهر رجل قصير القامة، بعينين متوسلتين وانحنى على يدي الشريف وقبلهما طويلا. وكانت تلك إشارة من الرجل، على ضرورة التوقف عن ذلك الحديث الخطير. وهو ما أدركه الشريف الوزاني، فحول مجرى الحديث بسرعة وقال للدرويش وهو يشير إلى الرجل:

- ها هو مضيفي وصديقي، صاحب هذا المتجر.

فتوهج وجه الرجل امتنانا وصاح:

- مضيفك وصديقك؟ ! كلا، إنني لا أستحق هذا، فأنا بالأحرى خادمك وعبدك.

وتساءل الرحالة في قرارة نفسه، عن الروابط الخفية، الدينية والسياسية التي تجمع بين الرجلين، خصوصا وأن الشريف يتصف بالمرح والتسامح. وسيقر من جراء ذلك، بأن الحياة مليئة بالمفاجآت الغريبة التي يفرضها صراع المصالح.

وأوقف الدرويش تفكيره في الموضوع عند هذا الحد، مع الأمل في أن يعوضه هذا اللقاء عن الحرمان الشديد الذي عانى منه خلال سفره الأخير. ففي الليلة السابقة فقط، اضطر إلى المبيت داخل اصطبل مهجور بدون أبواب. وبينما كانت الكلاب تنبح بالخارج وكانت الفئران تقفز حوله بجرأة وهي تقضم حبوب الشعير تحت ضوء القمر، قرر بأن يحل ضيفا على أحد الشرفاء وأن يستمتع بالأيام التي سيقضيها بالمدينة على حساب مضيفه. وكان لقاء صديقه الشريف مناسبة لتحقيق رغبته بعد مشاق الطريق التي قطعها من وهران إلى توات ومن توات إلى وزان. وكان السناذي كريما أو بالأحرى كان مضيفه، الرجل القصير ذو العينين المتوسلتين هو صاحب العطاء. هكذا، طلب سي المكي حلويات بالعسل مع الشاي للاحتفاء بصديقه، فخرج التاجر لتنفيذ الطلب. وانتظر الشريف الفرصة ليسأل الدرويش عن رحلاته الأخيرة وعما شاهده وفعله منذ أن افترقا؛ وأخبره بأنه يريد أن يكون رفيقا له عند عودته إلى سناذة. ولم يجبه الرحالة الماكر في الحين، لأنه قرر الابتعاد عن صديقه، حالما يأخذ قسطا من الراحة بالمدينة، وسأله الوزاني:

- هل نحن متفقان؟ هل ستعود معي إلى بني يطفث؟

وعندما أشار الرحالة برأسه، علامة على الموافقة، وضع الشريف يده على مجموعة من الزرابي الحمراء الصغيرة وأخذ واحدة منها، مخاطبا الدرويش:

- خذ هذه اللبدة، فهي لك.

فرد عليه محمد:

- يخلف عليك.

وكانت اللبدة جيدة وفاقعة الحمرة وأنيقة، تستعملها الشخصيات المهمة في الإدارة والأعيان والطلبة والتجار الكبار للجلوس أو للصلاة. وسواء كان في البادية أو في المدينة، فإن كل مغربي ذي شأن، يحملها معه. فهو يطويها مرتين ويضعها تحت إبطه عند مغادرته المنزل أو عندما يتوجه إلى مكان ما ماشيا على الأقدام؛ كما يضعها فوق السرج عندما يركب الحصان، فيكون مقعده مريحا. وخلال أوقات الصلاة، ينشرها أمامه ويصلي فوقها، ثم يجمعها عندما يريد العودة إلى منزله أو زيارة أصدقائه، حيث يجلس عليها، في انتظار إقامة الصلاة من جديد.

وقد ظلت صناعة اللبدة، حكرا على صانعي الزرابي بفاس ومراكش مدة طويلة؛ لكن في السنين الأخيرة، أغرقت بريطانيا العظمى أسواق طنجة والدار البيضاء بها، ملحقة خسائر كبيرة بالورشات المغربية.

فهي تبيع اللبدة الأجود صنعا بثمن أقل من أسعار فاس التي لا تتجاوز فرنكين مع ذلك؛ في حين أن لبدة مراكش ذات الجودة العالية، تباع بصعوبة نظرا لثمنها المرتفع الذي يتراوح ما بين 5 و 8 فرنكات. وما أن تمدد الدرويش فوق لبدته، حتى وصلت صينية النحاس وبها إبريق الشاي وأكوام الحلويات ودزينة من الكؤوس المذهبة، مرفوقة بجوق الموسيقيين، المكون من عازفين على الكمان ودف وطبل بجلاجل. وبعد أن قبل أعضاء الجوق يد الشريف، أخذوا مكانهم داخل المتجر وشرعوا في ترديد قصيدة مفضلة لدى الوزانيين، ينسجم فيها صوت المغني مع إيقاع الدف والطبل ونغم الكمان. وإليكم القصيدة:

إن الأتاي لا لنعمـة فوقـــه   فما هو إلا طيب الجنة

إن الأتاي لنعمــة زادت   وكل نعمة سلطانها الشاهي

فرائض الأتـــــاي سبعـــــة   بابور، سكر، أتاي، براد، صينية،كيسان

ماء صافي على النار طايب   وسنته سبع، ملعقة، مجمر

نعنع، وعنبـــر زنبيـــــــل   كعب غزال، خرقة مطرزة

لمســـــــــح الكيســــــان   والصينيـــــة وسكريـــــة

فضائله سبع، مرشة معمرة   بها ورد وزهر ومبخـــــرة

بعود لقماري مع حصى اللوبان   مناولــــــه أديـــــب شاب

وجلاســــــه أخيـــــــار   وتأنيسه بالأشعار والأوتــار

وشمعـــــــة طويلـــــة   وحسكـــــــة مذهبـــــــة

ومكروهاتـــه ثـــــــلاث   ماء غير طايب أو قبيــــح

وكثرة الناس وقلة الفلوس   وتشوش البال بقلة لفلـــوس

لقد كان الشريف رجلا عظيما. وكان وجوده بمتجر صديقه تشريفا للمكان، لذلك كان بإمكان طلباته أن تتضاعف عشر مرات، لتلبى في الحين من طرف التاجر الوزاني الذي كان يشعر بالغبطة وهو يخدم الرجلين [الشريف والرحالة].

واستمر الاحتفال يومين؛ لكن لكل شيء نهاية. ففي مساء اليوم الثاني، وعندما كان محمد راجعا للنوم بالمتجر وجد الباب مغلقا. فسأل البقال المجاور مستفسرا عن الأمر، لكن هذا الأخير قام بإشارة، تفيد بأن عليه مغادرة المكان بسرعة. فابتعد الدرويش متجها نحو الزاوية الكبيرة لقضاء الليل وهو يدمدم:

- يا وزان البئيسة والحزينة، هل تتخلص قواك الخفية بهذه السهولة من الأشخاص المزعجين والمحرجين؟

إن ما يميز أهالي هذه المدينة الشبيهة ببندقية Venise القرون الوسطى، هو لامبالاتهم التامة وحذرهم الشديد تجاه الغرباء. وفي تلك الليلة، ظل محمد يتجول بأزقة المدينة؛ وعندما عاد إلى المسجد وجد بابه مقفلا. وكان الأشخاص المتواجدون بداخله هم الذين أقفلوا الباب حتى لا يزعجهم المتأخرون.

فقال الدرويش في قرارة نفسه:

- لا يهم ذلك؛ فمع هذه الحرارة المفرطة ورائحة البشر، سيختنق الذباب بالمسجد. لنترك إذن هذا المكان الخانق ولنبت في العراء.

وغير بعيد عن المسجد، رأى كوخا قصبيا [نوالة]، يعتبر مكانا ملائما للنوم. لكنه كان مغلقا ولربما كان بداخله بعض السكان. فاضطر إلى التمدد بالقرب منه في الظلام. وبعد مرور عشر دقائق، خرجت امرأة من الكوخ لقضاء حاجتها وجثمت على مقربة منه، وفجأة انتبهت إلى وجوده، فصرخت برعب:

- هيه أيها الرجل، ماذا تفعل هنا؟

وعادت بسرعة إلى الكوخ وأيقظت زوجها فخرج هذا الأخير حاملا هراوة كبيرة، معتقدا أن الأمر يتعلق بمساري؛ لذلك طلب منه الابتعاد عن مسكنهما، محذرا إياه بأن دورية المخزن تعتقل كل الأجانب الذين يتسكعون في الأزقة بعد العاشرةليلا؛ وأضاف قائلا وهو يحرك هراوته:

- هيا اذهب وإلا ضربتك.

وكان من الممكن ان يستغيث الرجل ويطلب مساعدة جيرانه، مما قد يؤدي إلى اعتقال الدرويش وبقائه مدة طويلة بالسجن. لذلك ارتأى الابتعاد عن المكان والرجوع إلى الإصطبل حيث حاول النوم بعد أن وضع ورقتي نعناع بأنفه اتقاء للروائح الكريهة المنبعثة من الداخل.

وفي ليلة أخرى، وبعد صلاة العشاء، أي حوالي التاسعة ليلا، لقي الرحالة في طريقه دورية مخزنية بالقرب من منزل قايد وزان. وحاول ثلاثة جنود ترهيبه بعد أن تأكدوا من إمكانية سلبه ما لديه. وبادروه بالسؤال:

- كيف تجرؤ على التجول في هذا الوقت المتأخر؟ ألا تعلم بأن هناك دورية مشتركة بين السكان والجيش تحت إمرة قايد مخزني، تجوب الأزقة لاعتقال كل المتسكعين والأجانب، بعد صلاة العشاء؟ هيا معنا إلى مركز المراقبة وسترتاح هناك.

وأخذوه معهم إلى مركز المراقبة، حيث أجلسوه وسطهم على مططبة من الإسمنت. وكان الحديث في البداية يهم أمورا عامة؛ وفجأة قال أحدهم وهو يمسك غليون الكيف بيده:

- ألا يمكن لهذا الشخص أن يقرضنا بعض النقود؟

فأردف رفيقه:

- يجب عليه أن يقدم لنا الشاي بالعنبر، فلقد مر وقت طويل على تذوقنا له.

وأضاف ثالث بلحية بيضاء:

- لقد مرت عشر سنوات، لم أتلق فيها أي فلس[8] من المخزن.

في تلك الأثناء، كان الرحالة يفكر في أفضل طريقة للتخلص من هؤلاء السفلة. فقد كانوا مخدرين بالكيف ولن يستطيعوا الجري وراءه؛ لذلك قرر الفرار. وبقفزة واحدة وجد نفسه وسط الزقاق وجرى مثل أرنب؛ ولم يتبعه سوى مخزني واحد، ولكنه لم يستطع مجاراته، لأن الأمر كان شبيها بسباق العجل مع الغزال.

غير أن الدرويش اضطر إلى التوقف، لأن حاجزا أخطر كان منتصبا أمامه. فقد كان هناك كلب ضخم ينبح بشكل رهيب ويتحفز لمهاجمة صاحبنا الذي لم يجد سوى الأحجار للدفاع عن نفسه. ولحسن الحظ، فإن الكلب كان يجري وراء كل حجرة تقذف باتجاهه. وفي الأخير فتحت باب أحد المنازل وصاح صوت مرتعب:

- أشكون؟

فأجاب ارحالة:

- ضيف الله.

فرد الرجل بسخرية:

- ضيف الله في هذه الساعة؟ لا تخدعني فأنت إما لص وإما مساري.

وهدده بهراوة ليبين له بأنه غير مرغوب فيه. وبعد أن بقي لحظة يتابع صراع الدرويش مع الكلب، أغلق باب منزله وهو مرتاح نوعا ما، لكونه ترك لصا سافلا أمام حيوان مسعور بكل تأكيد.

ولم يبق أمام الدرويش سوى حل واحد، وهو التراجع إلى الوراء؛ وهو ما قام به، متفاديا الأزبال المتواجدة هنا وهناك؛ لأنه لو سقط فوقها، فإن الكلب سيجدها مناسبة للانقضاض عليه واستمر في رمي الحيوان الهائج بالحجر، غير عابئ بمرور الوقت، إلى أن وصل إلى زقاق مسدود impasse وظل واقفا أمام الكلب الذي لم يتوقف نباحه إلى أن بزغ الفجر.

---

[8] الفلس أقل من قرش، انظر فيما بعد، جدول النقود المغربية.

القرى الرئيسية ببني مسارة

تتألف قبيلة مسارة من خمسة أقسام وهي:

- عين بوتيلا [عين الماء]، التسمية عربية وأمازيغية.
- الأحوازة.
- عين بقرة
- الزواقين
- بني مستار

وهذا القسم الأخير هو الأهم، وغالبا ما يطلق اسمه على القبيلة برمتها. فالمؤلفون المغاربة والأروبيون يعرفونها باسم بني مسار أو بني مسارة، لكن الشعب ينطقها بني مسارة.

- وزان، ويدعي بعض المغاربة أن الكلمة مشتقة من الزان وهو نوع من الشجر. وتتضمن المدينة حوالي ألف منزل، أي ما بين 6 و 7 آلاف نسمة.

- الزواقين، قرية كبيرة من ألف منزل.

- عين بقرة، 100 منزل.

- إزمورن [أشجار الزيتون]، التسمية أمازيغية، 50 منزلا؛ قرب وزان؛ وقد دفن بها سيدي محمد بن مولاي الطيب الذي توفي قبل أبيه وأقيم له ضريح في عين المكان.

- تلمسون [القديمة]، التسمية أمازيغية مثل تلمسان، 100 منزل. [انظر كتابي حول بني إزكين، وهران 1895، ص. 41].

- بني مستار، 50 منزلا، يوجد بها منجم الرصاص.

- حجر بني عيش، 100 منزل.

- القيطون، 100 منزل.

والمنطقة غنية بالمناجم المعدنية.

- القوى العسكرية: 8 ألف رجل من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 63 ألف نسمة بما فيهم ساكنة وزان.

وهناك حوالي 60 قرية غير معروفة.

قبيلـــة مصمـــودة

تحد بالاخماس شرقا وبني مسارة جنوبا ورهونة وأهل سريف غربا. وهي منطقة صغيرة مليئة بالقرى ومغطاة بأشجار الفواكه المتنوعة. أما الغابة فتشتمل على أشجار السنديان والحور.

وقد فوجئ الدرويش صبيحة أحد الأيام، عندما كان مستقرا بدشرة المقطع، بقدوم أسراب اللقالق؛ وكانت هذه الطيور قد انتشرت فوق سطوح كل المنازل منذ أواخر يناير، مصدرة أصواتها المتميزة طوال النهار ومدافعة عن أعشاشها ضد الوافدين الجدد. وتفضل السطوح العالية حيث يتراءى لها الأفق من بعيد، مما يسمح لها بالاستقرار دون خوف. ولأن الرحالة لم يسبق له أن شاهد هذه الأعداد الكبيرة من اللقالق، فإنه تساءل عما إذا لم يكن المغرب هو الملجأ الأخير لهذه الطيور المبجلة من طرف المسلمين. وكان الأطفال يجرون في الأزقة فرحين بمقدمها، مرددين اسما خاصا بها وهو:

- بوشقشاق، بوشقشاق جا.

بعد مرور بضعة أيام، سيندهش الرحالة من أمر آخر. فبفناء أحد المنازل، رأى ديوكا رومية، تصدر أصواتا شبيهة بالبقبقة glougloutent وتنظف ريشها الأسود الناعم؛ وتساءل إثر ذلك:

- من أين أتت هذه الديوك الأمريكية المفضلة عند الرومي؟ هل سرقت من بعض كفرة طنجة أو من مدن أخرى بالساحل؟

إنها مسألة صعبة الحل؛ وهي تتعلق بلحم هذه الطيور أكثر مما تتعلق بها هي نفسها. ذلك ان الرحالة لم ينس مذاقها رغم مرورعشرين سنة. وفي سنة 1894، وبمناسبة أعياد الميلاد، فرح كثيرا عندما قدمت له جناح هذا الطير الذي ظل يحلم بلحمه منذ مدة. وبمصمودة، كان يكتفي بطعام "التردة"؛ وهو عبارة عن خبز مغموس في المرق وأحيانا في الحليب الساخن. ولحسن الحظ، فإن الأكل بالمسجد كان متنوعا. فقد كان الطلبة يتذوقون أطعمة الدوار على اختلافها، إذ من المعلوم أن كل أسرة تبعث إلى هؤلاء الطلبة المقيمين بالمسجد، جزءا من طعامها.

وفي جميع الأحوال، فقد كان كل شيء يباع بثمن بخس. فالدجاجة تساوي 5 قروش في الصيف و 15 قرشا في الشتاء؛ وثمن الخروف 5 فرنكات والمعزة فرنكان ونصف؛ أما الفواكه فكانت تقدم مجانا لمن يريدها.

إن هذه القبيلة الموجودة بمنطقة جبلية ذات مناخ صحي، تحظى بحماية رجال أشاوس؛ غير أن عددهم الذي لا يتجاوز الثمان مائة، لا يسمح لهم بالتمتع بحرية مطلقة، لذلك قبلوا حماية بني مسارة الذين يتحالفون معهم خلال نزاعهم مع عساكر المخزن. وفي زمن السلم، يسود العمل والكد في كل مكان. ففي كل قرية، توجد ورشة للحدادة ودكاكين الخياطين والحائكين ومصانع الصابون والنجارين وصانعي البارود وأيضا وللأسف، بيت الصحفة.

ولا ينسى أهل مصمودة الدور الهام الذي لعبته قبيلتهم بخصوص مصير المغرب. ففي العديد من الحملات العسكرية، بقيت فيالق كاملة من المصموديين كقوات محتلة في العديد من المدن، مثل ندروما. وبشرق هذه المدينة وخارج أسوارها، ويوجد قبر الولي الصالح سيدي أحمد البجاي، الذي يقول عنه المغاربة، إن أصله من بجاوة بقبيلة مصمودة، رغم أن اسمه لا يعكس ذلك. بالمقابل، فإن سكان ندروما يدعون بأنه من مواليد بجاية [الجزائر] ويروون بشأنه، الأسطورة التالية، الموجودة بكتاب القرطاس.[1]

أسـطورة سيدي أحمـد البجـاي :

هو معلم وصديق عبد المومن، القائد الموحدي الشهير. ومعلوم أن أصل هذا الأخير من نواحي ندروما؛ وهي قبيلة كومية بدائرة وهران.

فقد رافق البجاي تلميذه الأمير، في حملته ضد مسيحيي مهدية [تونس] سنة 1160 م. وعند رجوعهما إلى المغرب، علم سيدي أحمد بوجود مؤامرة لاغتيال الأمير، حاكها ضده متآمرون، ذاقوا ذرعا بسلطته ومعاركه التي لا تنتهي.

ولم يكن هناك سوى حل واحد لإحباط هذه المؤامرة، وهو السماح للمعلم بأخذ مكان الامير في الخيمة التي تنتظر هجوم القتلة. وقبل العاهل هذا الاقتراح واعتبره طبيعيا ومنطقيا، لأن جسد الأشخاص المتوجين أسمى وأفضل من جسد رجل من عامة الشعب.

---

[1] Roudh el k'art'as, Histoire des souverains du Mag'rib et annales de la ville de Fas, par Abou moh'amed ben Abd el Halim, trad. Beaumier, pages 282 et 283, in-8, Paris, 1860.

وفي تلك الليلة، هوجمت خيمة عبد المومن وقتل سيدي احمد الذي صعدت روحه مطمئنة إلى السماء، بعد أن ضحى بها في سبيل الإسلام والمسلمين؛ في نفس الوقت الذي كان فيه الأمير ينام قرير العين، بخيمة معلمه وفوق حصيرة هذا الرجل الذي سيصبح من أشهر صلحاء الإسلام الإفريقي.

وبعد ان انتقم من المتآمرين، حمل عبد المومن بنفسه جثمان سيدي أحمد ووضعه فوق ناقة، قائلا :

-اتركوها تذهب لوحدها ولتتوقف أينما شاءت. وتحركت الناقة ووراءها الأمير وضباطه. وبعد مدة من السير جثمت بمكان معين، سيدفن فيه جثمان الولي وسيقام به ضريحه.

كانت تلك هي حكاية ضريح سيدي أحمد البجاي. غير أن الحقيقة التاريخية، تدفعنا إلى تصنيف هذه الحكاية في خانة الروايات الخيالية. وسيسرد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي مؤلف تاريخ الموحدين[2] القصة بشكل آخر، لأنه أقدم من مؤلف القرطاس ويوجد في وضعية أفضل للحديث عن المؤامرة التي حيكت ضد عبد المومن. فقد ذكر الاسم الحقيقي للشهيد الذي ضحى بنفسه في سبيل سيده؛ وهو رفيق للمهدي بن تومرت وأحد أتباعه المتعصبين ويدعى اسماعيل بن يحيى الخزرجي. وفي هذه الرواية الحقيقية على ما يبدو، لا يتعلق الأمر بالناقة ولا بتأسيس مدينتي البطحاء وندروما[3]

ويوجد ولي مصمودي آخر وهو سيدي ابراهيم المصمودي المدفون بتلمسان، قرب مسجد يحمل اسمه. وقد تفرق أهالي هذه القبيلة بمراكش والرباط وفاس، لمزاولة التجارة؛ ولم يحتفظوا من هذه القبيلة سوى بحب الملابس الأنيقة والغلمان.

وقيل لمحمد بن الطيب، إن مصمودة كانت فيما مضى قبيلة قوية؛ وقد انبثق منها السلاطين والعلماء والصلحاء وسادت بالمغرب مدة طويلة.

---

[2] The History of the Almohades, texte arabe, ed. R. Dozy, Leyden , in- 8, 1881, pages 166 et 167.

[3] voir, L. Piesse, Itinèraire de l’Algérie, in -12, Paris 1874, pages 266 et 267.

ففي هذا الكتاب، قدمت الرواية بشكل مبالغ فيه، ومن الصعب الاتفاق مع السيد بيس على تحديد تأسيس مدينة ندروما سنة 1160 م. لأن الجغرافي المغربي الإدريسي، تحدث سنوات من قبل [سنة 1154] عن ندروما كمدينة كبيرة، مزدهرة، مأهولة، ومحاطة بالأسوار. لذلك، لايمكن للقائد الموحدي تأسيس مدينة كانت موجودة قبله. ويحكي ابن الأثير في الكامل [الجزء 11، ص. 92 و 93] عن رجوع عبد المومن من مهدية إلى المغرب مشيرا إلى عدم تواجد الأمراء العرب بجبل زغوان. أما الاستقصا فينقل باختصار ما ورد في القرطاس [الجزء الأول، ص. 156 و 157].

لكن إفراط أهاليها جعلهم يفرطون في الحكم ويختفون من المشهد السياسي؛ ولم تعد لهم سوى ذكريات جميلة حول ماض كانوا فيه كل شيء، في حين أصبحوا حاليا عبارة عن لا شيء.

القرى الرئيسية بمصمودة [حجرة المغسل]

- التسمية أمازيغية -

تتألف القبيلة من أربعة أقسام وهي: 1) بني مرعاز، 2) ربع الواد؛ 3) ربع الخميس؛ 4) أولاد علي؛ وتوجد بها القرى التالية:

- أفرسيو، 100 منزل.
- بجاوة، 50 منزلا.
- ركونا، 100 منزل.
- أهل بو حمد، 300 منزل.
- المقطع، 200 منزل.

ويجري بها غديران من الشرق إلى الغرب وهما:

واد بني يسف وواد الخميس.

- القوى العسكرية: 800 رجل من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 5600 نسمة.

وهناك العديد من القرى غير المعروفة.

نبذة تاريخية عن مصمودة

هي قبيلة أمازيغية من أصل صنهاجي وتنتمي إلى فرع ازدادجة [البرانص]. وقد تحدث عنها ابن خلدون مطولا في المجلد الأول، ص. 194 من الترجمة الفرنسية، حيث اعتبر بأن الجزء الأكبر من سكان المغرب الأقصى ينتمي إلى قبيلة مصمودة. وأضاف في المجلد الثاني، ص. 124، بأن المصامدة هم أبناء مصمود بن برنص بن بر، ويشكلون إحدى القبائل البربرية الأكثر عددا. ومن بين فروع هذه العائلة الكبيرة، نجد برغواطة وغمارة وشعوب الأطلس. وقد أقام المصامدة بالمغرب الأقصى منذ عدة قرون.

إن الأمر يتعلق إذن بقبيلة أمازيغية مغربية، قح إن صح التعبير، وإن كانت المعطيات المجهولة لما قبل التاريخ، تتطلب منا الحذر في استنتاجاتنا. لذلك، لن يؤاخذنا أي أحد على عدم الحديث هنا عن ا لبطولات العسكرية والإنجازات السياسية لهذه القبيلة المغربية. ويمكن الاطلاع عليها لدى ابن خلدون في موضوع مصمودة. علما بان هذا الموضوع لا يندرج ضمن اهتمامنا.

ومن المؤكد أن قبيلة مصمودة الجبلية الصغيرة، ليست سوى بقية ضئيلة من مصمودة الكبيرة بالجنوب المغربي ومن المجموعات المصمودية الأخرى المتفرقة في كل نواحي المغرب الأقصى. ومع ذلك، هناك سؤالان يؤرقان فكري وهما:

- هل مصمودة الجبلية هي أصل هذا العرق؟
- وهل لها تاريخ معروف؟

وأنا أتصفح الاستقصا، وجدت اسم هذه القبيلة بالصدفة [الجزء الرابع، ص. 68، السطر 22 وما يليه]. وأنقل هنا، ما ورد في الصفحة المذكورة: "كان الأوداية الذين يقيمون بنواحي المدينة [فاس على الأرجح]، يهاجمون الأشخاص الذين يغسلون الكتان بواد فاس. ولما ذهب هؤلاء الأشخاص إلى مصمودة للقيام بنفس العمل، قدم الأوداية إلى هذه القبيلة ونهبوا القوافل بالفنادق.[4]

[4] في ا لصفحة 82 من ترجمة هوداس لكتاب ترجمان المغرب، نقل عبارة "أخذوا القفل من الفنادق" وصاغها بعبارة ils brisaient les serrures des fondouks [كسروا الأقفال بالفنادق]. والحال، أن كلمة قفل تعني في الدارجة المغربية قافلة. وقد سمحت لي معرفتي بالدلالة الخاصة لهذه الكلمة ، باقتراح هذا التعديل على السيد هوداس، بحيث أصبحت العبارة هي: "ونهبوا القوافل بالفنادق".

قبيلـــــة سوماثـــــا

إن أول قرية أقام فيها الرحالة طلبا للضيافة، هي قرية تازروث التي وصلها عند مغرب الشمس. وكان اليوم خميس، أي يوم عطلة، لذلك استغله الطلبة للاحتفال داخل المسجد وللاستمتاع بأنغام الكمان والمندولين وبرقصات الغلمان. وكانت الفطائر وصحون التردة والزيتون بأنواعه، معروضة للأكل أمام الجميع.

ولأن الدرويش كان جائعا، فقد اهتم بملء بطنه بدل مشاهدة الرقصات. وبعد الأكل استلقى بركن بالمسجد وأغمض عينيه رغم الضجيج الموجود. وعند الصباح، غادر القرية لاكتشاف المنطقة.

وسوماثا هي قبيلة صغيرة، لا يتجاوز قطرها 15 كيلومترا؛ ويمكنها أن تعبئ 1800 رجل من المشاة فقط؛ وهي محاطة بالاخماس وجبل الحبيب شمالا وبني مسارة جنوبا. وتتميز تربتها بالخصوبة، لذلك كثرت فيها الخضرة والغابات. أما الدواوير التي يتراوح عدد سكانها ما بين 200 و 300 نسمة فهي كثيرة وتتواجد وسط مناطق مخضرة، مليئة بالطرائد والثعالب والغربان وبنات آوى. والملاحظ أن الرعاة يأكلون لحم الخنزير خفية؛ وهو امر لم يفاجئني كثيرا.

ففي سنة 1882، عندما كنت بنواحي عين الدراهم بتونس، رأيت نساء وأطفال "الكرومير"[1] يتناولون شرائح لحم الخنزير المطبوخ. وقالت لي امرأة عجوز عندما استفسرتها الأمر:

- إنه حلوف الغابة.

وكان الرجال يتابعون المشهد بلامبالاة؛ وعندما لاحظوا اندهاشي قالوا لي:

- ما ا لعيب في ذلك؟ إن الجميع يعلم بأن النساء والأطفال ناقصو عقل وبالتالي فهم لا يعتبرون عصاة.

ورغم محدودية قوتهم، فإن أهالي القبيلة معاندون وميالون لقطع الطريق. وهم يقاتلون بشكل جيد؛ وقد تمكنوا بفضل جبالهم من تفادي الخضوع لجيرانهم الأقوياء بالشمال والجنوب.

---

(1) هناك خصوصية لهجية مميزة لهذا الشعب. فالأهالي هم أمازيغ لم يتعربوا بما فيه الكفاية، لذلك فهم غالبا ما يحولون آخر الكلمة إلى ياء، مثل المي بالنسبة للما [الماء] والمري بالنسبة للمرا [المرأة].

ويوجد وسط المنطقة، سوق الإثنين الذي يأتيه العديد من الزوار. وتباع فيه العجول والماعز والنعال والفول والبازلاء والعدس والصوف والملابس المصنوعة، بثمن بخس. أما العملة المتداولة فهي تلك التي تم سكها في عهد السلطانين المولى عبد الرحمن وسيدي محمد [مابين 1817 و 1873].

القرى الرئيسية بسوماثا [المتكئة على الجبل]

- التسمية أمازيغية -

- تازروث، 200 منزل، ويوجد بشمال شرقها منجم الملح.
- القوى العسكرية : 1800 رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 12600 نسمة.

وهناك حوالي ثلاثين قرية غير معروفة.

نبذة تاريخية عن سوماثا

تشكل بقايا القبيلة الأمازيغية الكبيرة لنفزاوة [وهم أمازيغيون طرابلسيون منحدرون من الأبتر].

وقد تحدث ابن خلدون عن بقايا سوماثا الموجودين بسهول القيروان [الجزء الأول، ص. 230 و 231 من الترجمة الفرنسية]. ويبدو أنه لم يعرف سوماثا المغربية.

قبيلـــة بني يســـف

من سوماتا إلى بني يسف، ترتسم المنعرجات الخطيرة على المنحدرات الجبلية المغطاة بالغابات. وعند وصوله إلى دشرة القلعة، صادف الدرويش، لحسن حظه، حفل زفاف عربي؛ وهو زفاف قايد القبيلة. وكان الأهالي ينتظرون قدوم العروس التي كلفت فرقة من 200 رجل مسلح بمرافقتها من القرية المجاورة.

- عرس جبلي:

من بعيد، كانت تسمع الطلقات النارية معلنة عن وصول موكب العروس. وكان سكان القلعة جميعهم ينتظرون خارج القرية بملابس الاحتفال، قدوم العروسة التي طال انتظارها.

وبعد ساعة، تراءت للناظرين "دمية" بيضاء لا يتعدى عمرها الثانية عشر سنة، محجبة تماما وراكبة فوق بغلة. وحولها، كانت نيران البنادق تفرقع وتثير فزع المطية التي كان الرجلان القابضان بلجامها يجدان صعوبة في تهدئتها. وفجأة، هرعت مجموعة من النساء، من قريبات القايد نحو "الدمية"، فحملنها إلى منزل العريس، في حين استمر الرجال في إطلاق نيران بنادقهم وظلت المزامير والطبول، تصدر نغماتها الصاخبة، عند هدوء صوت البنادق.

وبالمنطقة الخصبة بجبالة، عادة ما تقام الأعراس في فصل الخريف؛ وهي الفترة التي تكثر فيها الخيرات في كل مكان، بما في ذلك داخل الأكواخ الوضيعة. ونظرا لصرامة التعاليم الدينية، فأنت لا تجد عند المسلمين، فترة الخطوبة الجميلة التي تكثر في الغرب. ففي الغالب، يتزوج الرجل المرأة أو الفتاة التي لم يسبق له رؤيتها؛ وكل ما هنالك، أن أمه أو أخواته، يقدمن له وصفا عن المرأة التي ستصبح شريكة حياته. والمشكلة الأساسية التي تواجهه هي المهر. فهو يسعى إلى دفع أقل "ثمن" ممكن، لأن الأمر عبارة عن صفقة تجارية تحتاج إلى التفاوض، مثلما يتم التفاوض حول شراء الدواب.

وتطلب يد الفتاة وفق قواعد وطقوس محددة. فالراغب في الزواج، يأتي إلى منزل الفتاة مرفوقا بأعيان دواره. وفي البداية، يقدم أب الفتاة الطعام لزواره، متظاهرا بعدم علمه بهدف الزيارة ومتحدثا معهم في أمور تافهة. وبعد شرب الشاي، يتقدم أهم شخص داخل المجموعة ويتحدث كما يلي:

- نطلب منك يد ابنتك الفلانية، وفق ما اقتضته شريعة الله ورسوله.
وعند سماع لفظة "الرسول" يمسح الجميع لحيتهم بأيديهم ويرددون العبارة الضرورية "صلى الله عليه وسلم".
عندئذ يجيب الأب:
- ها هي شروطي.
ثم يقوم بتحديد الصداق وجهاز العروس والهدايا؛ وهو يكتفي بحوالي50 فرنكا إذا كان فقيرا ويطلب ما بين 100 و 500 فرنك إذا كان غنيا. وبعد تسوية كل الأمور، يعلن بشكل رسمي :
-هــي لكــم.
لكن يوم الزفاف لا يحدد على الفور؛ إذ يتعين على العريس الرجوع إلى القرية مع رفاقه وترتيب كل الأمور والالتزام بما وعد به. هكذا، يذهب إلى الأسواق والدكاكين، لشراء جهاز العروس والحلي والأثواب والملابس المتفق عليها. عندئذ، يعلن عن موعد الزفاف وتبدأ الاستعدادات للحفل الكبير. وتصبح الحركة دائبة بمنزله، حيث تقوم أمه وأخواته وخالاته وعماته، بإشعال المواقد وطبخ لحوم العجول والماعز في حوالي عشرين قدرا وتهييء الزبدة والزيت والعسل وكل الأطعمة التي سيتم التهامها خلال الحفل. وفي اليوم الموعود، يعزف الموسيقيون ألحانهم بواسطة المزامير والطبول، أمام منزل العريس وذلك منذ الصباح الباكر. ويا له من يوم عظيم ! حيث يظهر العريس الذي طليت يداه ورجلاه بالحناء، في غرفة مليئة بالأصدقاء. وهو يتميز عنهم ببرنوسه الأبيض، في حين يكتفون من جانبهم، بارتداء جلابتهم السوداء. ويعتبر هو السلطان وهم الوزراء الذين يظلون مرتبطين به ويقومون بمهام سنتحدث عنها لاحقا. والملاحظ أن الجبليين لا يلبسون البرنوس إلا في حفل زفافهم. ولكل دوار برنوس الزفاف الخاص به؛ وهو يستعمل من طرف كل المقبلين على الزواج، لذلك يحتفظ به عند أحد أعيان القرية.
لنتابع الآن ما الذي يحدث بمنزل العروس. فبعد موافقة الأب، تحيط القريبات والصديقات بالعروسة المرتقبة. وأول عملية تجميل، هي وضع الحناء برجليها وبيديها. ويغسل شعرها بالغاسول[1] ويمشط ويطلى بالحناء أيضا.

---

[1] وهو صلصال يستخدم لتنظيف شعر الرأس ويستعمل كثيرا بالمغرب، وهناك من يدعوه "الطفل".

بعد ذلك، ترتدي " الدمية" ملابس قطنية خفيفة ويغطى جسدها كلية بحايك ناصع البياض وتضع بقدميها نعلين أحمرين؛ ثم تخرج لزيارة القريبات. وترفق بصديقاتها، كما تستقبل من طرف النساء المسنات بحفاوة وبالعبارة التقليدية التالية : " الحمد لله ! مبارك الزواج إن شاء الله".

وعند عودتها إلى البيت المخصوص لها كحريم gynecée، تنزع حجابها وتتناول الحلويات وتشرب الشاي وتثرثر مع صديقاتها اللواتي لن يفارقنها وسنعرف السبب بعد قليل.

وعلى مدى سبعة أيام، تقوم العروسة بجولة في القرية، حيث يحتفى بها في كل مكان. وفي اليوم السابع، تنتظر قدوم الوفد الذي سيحملها إلى بيت الزوج. وفي نفس اليوم، يكون أصدقاء وخلان هذا الأخير على أتم الاستعداد للانطلاق حاملين بنادقهم ومرتدين ملابس أشبه بملابس القتال؛ وعلى رأس الموكب جوق الموسيقيين العازفين على الطبل والمزمار والذي لن يتوقف صخبهم إلا عند منزل الصهر. هكذا، يدخل بعض أقارب العريس إلى الدار، لترتيب مجيء العروس إلى مقرها الجديد وفي نفس الآن، يتم استقبال أفراد الموكب من طرف أفراد عائلتها؛ ويقدم لهم طعام فاخر. وفي الأخير، تغادر العروس منزل أهلها وهي محاطة بأخواتها وعماتها وخالاتها وبنات أعمامها مرتدية أفضل ملابسها وقد غطي وجهها تماما.

ويحملها أقارب العريس فوق بغلة مسرجة بشكل جيد، ليتحرك الموكب بعد ذلك.

ومع الخطوات الأولى، تبدأ طلقات البنادق التي لن تتوقف إلا عند باب منزل العريس، حيث تراقبها زغاريد النساء وصخب الجوق الموسيقي. وبينما تنفرد النساء بالوافدة الجديدة داخل غرفة مخصوصة، يظل العريس مع أصدقائه في غرفة أخرى. ولا يفكر بتاتا في الالتقاء بها مخافة التعرض " للثقاف". وسأوضح بعد قليل، هذا العمل السحري الغريب الذي يخاف منه الجميع في المغرب.

وعند حلول المساء، يتوافد المدعوون وتقدم عشرات الأطباق من اللحم المطبوخ بالزيت على الطريقة الجبلية وسلال الخبز والزبدة والعسل و " المسمن" والتريد والفطائر والفواكه وأباريق الشاي، بالغرف المخصوصة للرجال وتلك المخصوصة للنساء والمضاءة جميعها بالقناديل.

وعندما تمتلئ البطون، تصدح الموسيقى ويقدم الغلمان والعايلات رقصاتهم في غرفة الرجال وسط دخان الكيف الكثيف. ويستمر عزف الموسيقى الذي ترافقه الرقصات تارة وروايات الحكواتيين تارة أخرى.

وبالخارج، تطلق نيران البنادق باستمرار من طرف الشباب الذين فضلوا الحركة بعد المأدبة الهائلة وخرجوا إلى العراء للضحك والثرثرة وإسماع صوت بنادقهم. وهكذا يظل الاحتفال قائما حتى الفجر، بنفس الطريقة المتبعة منذ أقدم العصور.

لنعد الآن إلى العريس. ففي مغرب اليوم الأول، يخرج من غرفته متخليا عن وزرائه ويدخل إلى الغرفة التي تتواجد فيها العروسة رفقة مجموعة من النساء، حاملا بندقيته. وعند رؤيته تغادر كل النسوة الغرفة. ولن يكون هناك تبادل للحديث بين هذين الشخصين اللذين يقفان وجها لوجه لأول مرة. وسيأخذ الفارس المغوار " الدمية" الصغيرة من ذراعها وسيقودها إلى الفراش أو إلى الحصيرة إذا لم يكن هناك فراش. ولا نعتقد بأنه سيتأمل وجه عروسته على ضوء القنديل الذي ينير هذا المشهد الواقعي وغير الشاعري.

فالرجل الخشن لا يحمل سوى فكرة واحدة وهي البرهنة أمام الجميع على " فحولته". بعد ذلك، سيخرج كمجنون هائج إلى ساحة المنزل وسيطلق عيارات نارية من بندقيته، ليلتحق بعد ذلك برفاقه الذين سيقضي معهم بقية الليل في الأكل وشرب الشاي.

وعند الصباح، تتصفح النساء الملابس الداخلية للعروس، فإذا كانت بها بقع من الدم، فإن الزغاريد تصدح والضحكات والمداعبات الساخرة تكثر، حيث تعلق النساء الحاضرات :

- يـا له من فحل عظيــم !

أما إذا لم تظهر أية قطرة دم، فإن اللعنات ستوجه إلى العذراء المزعومة ! وستطلق في الحين وتعود إلى أهلها الذين يضطرون إلى إرجاع المهر للزوج المخدوع.

وفي اليوم الثاني، يعود العريس إلى عروسته مع حلول الظلام. ويتغيب في غرفتها حوالي الساعة، ثم يلتحق من جديد بوزرائه ويقضي معهم الليل في الأكل والشرب والثرثرة.

هكذا تمر الأيام السبعة للحفل. فهو لا يغادر أصدقائه إلا لرؤية زوجته والعكس أيضا.

ومن جهتها، فإن العروس، تظل محاطة برفيقاتها داخل غرفتها، مدة سبعة أيام، تتخللها اللقاءات الليلية المحدودة مع زوجها.

أما المدعوون، فإنهم يقيمون بغرف مخصوصة لهم. وهم لا يهتمون بالعريسين اللذين لا يرونهما على أية حال؛ لأن اهتمامهم يكون منصبا على متابعة رقصات الغلمان والعايلات وعلى تحركات موزعي الطعام؛ وبالخلف توجد النساء والاطفال الذين يتابعون بدورهم مشاهد الاحتفال. ولا يمكن لأي واحد من المدعوين أن يستدير لمشاهدة النساء فبالأحرى الاقتراب منهن؛ لأن خرق هذه القاعدة المغربية يؤدي بالبليد الذي اقترفه إلى الموت مباشرة.
والملاحظ أن الرقصات وعزف الموسيقى وإطلاق الأعيرة النارية، لا تستمر إلا ثلاثة أيام اما الأيام الأربعة المتبقية، فيقضيها الجميع في الأكل والشرب.
ومن الواضح أن حفلات الزفاف تشكل بالنسبة للطلبة الأجانب، مناسبة للاستمتاع بالفنون المعروضة وبالمآكل الشهية؛ وإذا لم يحضروا بأنفسهم إلى الحفل، فإن حصتهم من الطعام ترسل إليهم.

الثقاف أو العجز الجنسي المصطنع :

رغم التلميحات القرآنية بهذا الخصوص[2] ورغم التأكيدات الواضحة للفقهاء، فإن مؤلف "المغرب المجهول" ومعه الفلاسفة الكبار والفزيولوجيون الممتازون في هذا العصر، يشكون في إمكانية حدوث عجز جنسي مصطنع [ثقاف] نتيجة عمل سحري. طبعا، فإن هذا الشك سيغيظ أي مغربي، سواء كان متعلما أو أميا، لأن المغاربة يؤمنون بوجود الثقاف ويرتعبون من مجرد ذكره. وذلك هو حال العذراوات، أما العجائز فيبدو أن تجربتهن تسمح لهن بتحدي هذا النوع من السحر.
ومن الناحية الطبية، فإن الثقاف يعني لدى الفتاة الانسداد التام للمكان الذي انبثقنا منه جميعا؛ أما لدى الرجل، فيعني العجز الجنسي.
وقد لاحظتم العناية التي يحظى بها العروسان من طرف أصدقائهما قبل وبعد الزفاف؛ لأنه يكفي حصول شيء بسيط لجعلهما تعيسين. فمن الممكن مثلا أن يلتقي بهما رجل شرير او امرأة ذات نوايا خبيثة وأن يلمسا أحدهما، لكي يفعل السحر فعله. والأمر في غاية البساطة، حيث يأخذ الشخص مقصا أو سكينا وحفنة من الفول ويكتب على الآلة الحديدية العبارة التالية

---

[2] أنظر سورة الفلق، الآية الرابعة : " ومن شر النفاثات في العقد".

: " الله يثقف فلان بن فلان"[3] عن فرج فلانة بنت فلانة[4] بجاه هذه الآيات : " إنك ميت وإنهم ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون " [سورة الزمر، الآية 29 و 30] "ذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" [سورة طه، الآية 124].

ومن الممكن أن يستبدل الآيات القرآنية بجمل مقتطعة من بردة البوصيري أو من كتاب الدمياطي؛ ويضيف إليها بعض " الجداول" carrés cabalistiques تتضمن كلمات سحرية مثل : مذهب، الأحمر، برقان، ميمون، أشني، شواشين.

وبعد أن يتسلح بهذه الأدوات، يترصد العدو للعريس بإحدى الحارات؛ وعندما لا يتمكن من اللقاء به، يضطر لزيارته بمنزله مع باقي المدعوين ويستقبله العريس المسكين بحفاوة ويكرم ضيافته كي يكسبه إلى جانبه. وكيفما كان الحال، فإن العمل السحري لن يكتب له النجاح داخل المنزل، أمام العديد من الأحجبة الواقية التي يحملها العريس معه.

وبما أن الأطعمة نفسها يمكن أن تكون عرضة لهذا العمل الخبيث، فإن الأصدقاء الحميميين للعريس ووزراءه هم الذين يكلفون بحمل الطعام والشراب إليه. وكسلطان، فإنه يكفيه الإشارة بيده لكي تلبى جميع طلباته؛ مع استثناء وحيد وهو حينما يرغب في مغادرة المنزل، عندئذ يجد معارضة صارمة من أصدقائه، لأن مجرد لمسة من عدوه خارج المنزل، يمكأان تصيب الهدف؛ ولن تجدي الأحجية الواقية أنذاك نفعا.

ومن جهتها، فإن الفتاة تكون اكثر عرضة من الرجل. فالعادة المحلية تقتضي بأن تزور كل أقاربها بالقرية، لذلك يجب عليها أن تتخذ كل الاحتياطات وألا تغادر منزلها إلا عند حلول الظلام وأن تجتاز الأزقة الخالية من المارة وتتفادى الالتقاء بأعدائها، رجالا ونساء، وتظل وسط رفيقاتها ولا تقترب إلا من الأشخاص الذين تثق بهم. هكذا، تزور منازل الأقرباء وتسلم من شر الأعداء، بفضل الأحجبة الواقية التي تحملها معها. وفي الحقيقة، فإن هذا الموضوع المتعلق بالشابات والشبان الذين كانوا ضحايا الثقاف، يتضمن روايات وأساطير لا تنتهي. ويتأثر المرء عندما يسمع شابا قوي البنية، لا يتجاوز العشرين من عمره، وهو يشتكي لأصدقائه عجزه عن معاشرة زوجته، بعد مرور حفل الزفاف.

---

[3] يكتب اسم الشخص كاملا.

[4] أو العكس، حينما يتعلق الأمر بعذراء، حيث يستبدل لفظ فرج بلفظ ذكر.

وقد يلجأ العريسان إلى الأولياء لإبطال مفعول السحر ويحصلون على أحجبة أخرى وعلى علاجات مضادة يعرف بعض الطلبة أسرارها؛ وتشكل بالنسبة إليهم فرصة لحلب هذه البقرة المتوسلة إليهم.

القرى الرئيسية ببني يسف :

- القلعة ، 200 منزل.

وهناك حوالي ثلاثين قرية غير معروفة.

- القوى العسكرية : 1800 رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 12600 نسمة.

قبيـــــلة بــني إيــذر

يتعلق الأمر هنا أيضا بقبيلة صغيرة موجودة بالجبال الغابوية الشاهقة. فكل قراها محاطة بالخضر، كما توجد بها مياه وافرة صادرة عن المنابع أو الجداول. وجمال القبيلة وعاداتها شبيهة بما ذكرناه بخصوص القبائل الثلاث السالفة. ومعروف عن القبيلة اهتمامها بتربية النحل، غير أن الشيء المثير، هو أنه بالرغم من مرارة العسل، بسبب نوع الرحيق الذي يمتصه النحل، فإنه يباع بسعر أغلى من سعر العسل الحلو. لماذا ؟ لأن الأول هو بشهادة الجميع، عبارة عن دواء ضد العديد من الأمراض. ويقوم الأهالي بتجفيف فاكهة المشمش والتين الوحشي وأكلها عندما تختفي من الأشجار. ولا توجد زراعات كثيرة، فباستثناء بساتين الخضر، يقتات السكان من الغابة ومن أشجار الفواكه. وفضلا عن ذلك، فإن الأرض متموجة ولا يمكن حفرها إلا بالفأس، لأن المحراث غير معروف بالمنطقة.

الكـــتـــان والقـــنب :

ومع ذلك، فهناك بعض حقول الكتان والقنب والقطن وبعض أشجار التوت التي يربي بها دود القز. وفي الجزء الأكبر من هذه المنطقة الجبلية، يحتل الكتان والقنب مساحة آلاف الهكتارات. ويندهش المرء من استفادة الأهالي من هذه النباتات التي تتم معالجتها كما هو الشأن في أروبا. فبعد قطعها وتجفيفها تنقع في مياه الغدير. وقد أشرنا من قبل، إلى أن واد فاس وجداول مصمودة، كانت تستخدم منذ القرن الثامن عشر في عملية النقع هاته.

بعد ذلك، تجفف تحت أشعة الشمس ويتم تشذيبها بواسطة أداوت بسيطة، ليست في مستوى تعقيد آلياتنا، للحصول على خيوط دقيقة. هكذا يقوم الرجال والنساء، بنسجها وحياكتها بمهارة؛ وقلما تجد منزلا لا توجد به آلة الحياكة. وعندما يفيض الإنتاج عن الحاجة يباع النسيج بالأسواق الكبيرة بالشاون وتطوان وطنجة وخصوصا بفاس، حيث يوجد الصباغون المهرة.

تــربية دود القـــز :

لنر الآن كيف تتم تربية دود القز. فكل الجبليين الذين استشرتهم، يؤكدون لي بأن تربيته تتم بطريقة ذكية ومتقنة في العديد من المناطق. وتباع " الحبات" بالأسواق، بحيث لا يعرف ثمنها الاستقرار كما هو الشأن عندنا. وتوكل مهمة تربية دودة القز للفتيات وللنساء اللواتي

يوفرن أوراق التوت المتواجدة بكثرة. ويقمن بنزع الحرير عن الشرنقة وفتله وتصديره إلى فاس ومراكش حيث يتم نسجه.

من جهة أخرى، هناك بقرى القبيلة قطيعة بين الطلبة الأجانب والطلبة المحليين. ولولا تدخل الجماعة لتهجم هؤلاء على أولئك ولمنعوهم من الإقامة بمساجدهم. أما المتهتكون الذين يتوافدون على بيت الصحفة، فهم يكرهون الطلبة الذين يحتقرونهم بدورهم. وهم يقضون اليوم في القنص وقطع الطريق ويعودون في المساء إلى وكر الرذيلة، حيث يقوم رفيق لهم بحراسة العايلات والغلمان الذين تعودوا على الهرب ومرافقة مختطفيهم بكل سهولة.

الجمـــاعــة المــغربيــة :

لن يكون هناك اجتماع لدى الساكنة المستقلة بالمغرب الأقصى، في فردوس الحرية اللامحدودة والفوضى العارمة، دون وجود سلطة وازنة وعدالة إنسانية. وإذا ما سلمنا بأن الله قد اهتم بأكثر المناطق فوضوية، فإنه من الطبيعي أن يقر بأهمية مؤسسة الجماعة المغربية.

فبدونها، كان الرجال سيبيدون بعضهم بعضا؛ ولن يكون خمس أسداس المغرب سوى ساحة للمعارك والمجازر. إنها قوة العرف والعادات المحلية التي لا توجد في الكتاب المقدس للمسلمين، لكنها كافية للحد من أكثر الأهواء رعونة لدى أبناء الشمال الغربي الإفريقي. فهي تحمي الضعيف من بطش الطاغية فارضة على كل واحد منهما، القانون الإلهي الصارم، للمساواة الطبيعية.

لنحاول الآن تحديد مهام ونشاط ونظام واختيار هذه الهيئة المنتخبة. إن الجماعة ليست مجرد مجلس للسلطة التنفيذية، لأنها في نفس الآن، مجلس تشريعي وإداري وسلطة تنفيذية ومحكمة عليا. فهي وحدها التي تشرع القوانين وتسود بشكل مطلق في كل المناطق المتمردة بالمغرب. ومن مهامها، اختيار القياد كي يعينوا شكليا من طرف السلطان؛ لأنه كيفما كان أصلهم فإنهم يعتبرون خداما لمن انتخبهم. ومن مهامها أيضا تحديد الضرائب الواجب أداءها، سواء كانت خفيفة او ثقيلة على كاهل من يؤديها؛ وجلد المتهمين كي يعترفوا بجرائمهم وإفقاء أعين الزناة بواسطة المنجل الحامي وإعلان الحرب على العدو المشترك والتفاوض من أجل السلام ونفي الأشخاص المعارضين لسياستها ـو المارقين. وهي تقوم بذلك، دون حسيب أو رقيب؛ ولا تسود وتحكم فقط، بل تمارس حكما مطلقا بدون حدود،

باعتبارها سلطة فوق الجميع؛ ويبدو الاستبداد الأوروبي او الآسيوي باهتا أمام هذه الهيمنة الشاملة للجماعة المغربية. والشيء المثير، أنها لا تحكم بالإعدام على مقترف جريمة قتل، إلا في حالات نادرة. ولكي نفهم هذا الأمر، يجب ان نعلم بأن العائلات هي التي تقوم بهذه المهمة، عملا بقانون القصاص الوارد في القرآن الكريم. لذلك، فهي لا تريد ان يتدخل طرف ثالث وينزع عنها حق الثأر. هكذا، تمر الأجيال ويستمر القصاص قائما أمام أعين الجماعة العاجزة عن وضع حد للمآسي العائلية الرهيبة والتي توافق على حالة اجتماعية تعتبرها عادلة وملائمة لقوانين السماء والأرض.

ومن مهامها كذلك، الفصل في النزاعات. فهي تصدر الأحكام دون استشارة القاضي الموجود على بعد ثلاثين كيلومترا على الأقل، وتصادق على عقود البيع والكراء والزواج، بحضور بعض الطلبة الذين يحررون العقد ويوقعونه ويقدمونه للطرفين. أما مسألة الخضوع لبنوده من طرف المتعاقدين، فذلك أمر آخر. ويتلقون مقابل عملهم حفنة من التينأ الزبيب؛ ونادرا ما يمنحون بعض السنتيمات. فيالها من بساطة في العيش ! ويا له من واقع، قد يحلم به الإيديولوجي والطوباوي لولا تضمنه لحالة الفوضى.

وعند حدوث نزاع بين الأطراف، تكون الجماعة هي الحكم، بحيث لا يناقشأ قراراتها. وهي التي تعين المكلفين بالأحباس التي تسمح مداخيلها بالاعتناء بالمساجد والمدارس وأضرحة الأولياء؛ وتقوم بتحديد عضوية هؤلاء المحافظين كل سنة، لكي لا يستغلوا وضعيتهم من أجل تنمية ثرواتهم.

ويعتبر عضوا في الجماعة، كل رجل كهل، متزوج، غني، محترم، ابن لعضو سابق في الجماعة ولديه أقارب وحلفاء بالقرية. وليست هناك شروط أخرى؛ وأغلب أعضاء الجماعة أميون؛ وهذا لا يمنع من كونهم مسيرين جيدين، لأن الفوارق الثقافية بينهم وبين الطلبة ضئيلة. وأعتقد، إذا لم أكن مخطئا، بأن العقل المتحرر من النصوص الدينية المتعصبة، سيكون أفضل من العقل الذي يردد التعاليم الدينية كالببغاء.

وتعقد الجماعة جلساتها باستمرار؛ فبما أن أعضاءها لا شغل لهم، فإنهم يلتقون منذ الصباح ويثرثرون طوال اليوم، إما بالمسجد أو بأحد الدكاكين أو فوق تلة، يمكن الإحاطة من خلالها

بالأفق البعيد وعند حلول الظلام، يعودون إلى المسجد ويتناولون الطعام ويقضون جزءا من الليل معا، إلى ان يحين موعد النوم، فيذهب كل واحد إلى حال سبيله.

وفوق الجماعات المحلية الصغيرة، توجد الجماعات الكبيرة، أي المجلس الأعلى للقبيلة. وتمثل فيه كل جماعة صغيرة بعضوين يتم اختيارهما. ومن مهام هذا المجلس، الحرص على المصالح العليا وضبط السياسة الخارجية للقبيلة.

وعليكم ان تتصوروا معي، التأثير الذي يمكن ان يكون للقايد أمام هذا الحشد منأاعضاء المجلس الذين يتراوح عددهم ما بين 50 و 100 مستشار مستقلين وأحرار وغير مروضين، لا تفارقهم سيوفهم ولا بنادقهم وهم على أتم الاستعداد لاستعمالها كوسيلة للإقناع. وطالما ظلت الجماعة الكبيرة مدعمة للقايد، فإنه يحظى بشبه سلطة، بحيث يفرض الغرامات ويسجن من لم يلتزموا ببعض الأعمال ويجمع بعض الهدايا كضرائب تبعث كل خمس أو ست سنوات إلى سلطان فاس. وعادة ما يقدم إلى البلاط الشريف، مرفوقا ببعض الأعيان لتقديم الهدية، ويتلقاها السلطان معتبرا في قرارة نفسه، بأن الهدية على بساطتها أفضل من كلا شيء.

وغني عن البيان أن القايد لا يبالي بالمعارك التي قد تنشب ببين قرى قبيلته. فهو يشارك فيها مثل أي واحد من الأهالي، أي بالدفاع عن منزله وأسرته أمام أي تدخل من الخارج.

أما إذا لم ترض عليه الجماعة الكبيرة الناطقة باسم القبيلة برمتها، فإن هذا الموظف البئيس سيعفى من مهامه وسيطارد كحيوان متوحش. وتقتضي العادة المشينة، أن يقوم الأهالي بأنفسهم، بحرق مزروعاته ومنزله؛ وإذا ما أفلت مع ذويه من المطاردة، فإنه يختار المنفى في منطقة أجنبية، إلى حين قيام تمرد داخلي يرجعه إلى موطنه الأصلي الناكر للجميل.

القرى الرئيسية ببني إيذر [أبناء النبلة]

ـ التسمية عربية وأمازيغية ـ

ـ العنصر، 300 منزل وتوجد بقسم يحمل نفس الاسم، وبها عين مائية، انبثق منها غدير يسمى واد العنصر. وقد تتلمذ الدرويش في هذه القرية على يد أستاذ للفقه، يدعى الفقيه السرحاني وتابع دروسه مدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.

- أذقار [الانكسار]، التسمية أمازيغية، 100 منزل على واد بني إيذر.
- القوى العسكرية: 200 رجل من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 14 ألف نسمة.
وهناك العديد من القرى غير معروفة.

نبذة تاريخية عن بني إيذر

في سنتي 1794 و 1795، لجأ المتمرد زيطان إلى بني إيذر وقاوم جيوش السلطان. وقد كتب مؤلف الاستقصا اسم القبيلة خطأ، حيث جاء في الجزء الرابع، ص. 132 بني يدير، وكذلك كتبه مؤلف الترجمان ، ص. 94 من النص العربي . ونقل هوداس الكلمة بالصدفة في ترجمته بنفس الخطأ Beni-yddir؛ وهو خطأ مقبول نظرا لصعوبة ضبط كتابة اسم العلم العربي أو الأمازيغي الذي لم يسمع من قبل.
وهو ما حدث للفظة المغرب Maghreb [غروب الشمس] التي اعتمدها بعض الجاهلين باللغة العربية وحتى بعض المستعربين، معتقدين بأنها تعني الغرب Mag’rib. ويكفي سماع أي مغربي وهو يتلفظ بالكلمتين، لإدراك اختلاف المعنى لديه ولدى العرب عموما.

قبيلـــة رهونـــة

تتوفر هذه القبيلة على نفس مساحة وشكل جارتها بني إيذر، بحيث توجد بجبال عالية إلى حد ما وغابوية.

- الكـــروم :

هي بلدة أشجار الإجاص وخصوصا الكروم. وكما هو الشأن في أروبا، تتم العناية بهذه الأخيرة جيدا في الحقول؛ وهي توجد بالأجزاء المعتدلة المناخ من جبالة. والملاحظ أن بعض الأهالي يتركونها تتسلق فوق الأشجار وتسمى عندهم " العريش"؛ في حين يقوم البعض الآخر بشذبها فتسمى " الزحاف" أو " الدالية". ويسمح الكرم المتعرش treille، بإنتاج الصامت والخل والخمر، رغم التعليمات القرآنية الصارمة بخصوص هذا الأخير. أما "الدالية" فتسمح بإنتاج الزبيب الذي يستهلكه المغاربة بكثرة.

وفي منتصف فصل الشتاء، يقوم الرجال والنساء بعملية التويزة [العمل المشترك]، حيث يغادرون القرية حاملين السواطير والمناجل، من أجل شذب أغصان الكروم وإزالة النباتات الطفيلية من حولها وهي النباتات التي تترك في عين المكان، لتشكل سمادا مفيدا للأرض. ويتناول العاملون طعام الغذاء في الحقل، في انتظار مأدبة العشاء التي يقيمها المالك.

ويلجأ زارعو الكروم viticulteurs، فضلا عن التويزة إلى خدمات " الزبارة" الذين يشذبون الكروم بمهنية عالية والذين يحظون بنفس الامتيازات التي يحظى بها " الشوالة" [الحصادون] لدى العرب.

وأعترف بأنني لا أصدق وجود 99 نوع من الكروم الجبلية و 99 نوعا من الثمر الصحراوي و 99 نوعا من القمح بالسهول المغربية ! لكن ما علينا ! فلنسلم بأن هناك مبالغة في هذه التأكيدات المجازية لجيراننا بالغرب، ومع ذلك يستحيل علينا الشك في وجود الكروم الجبلية. ولا يهم ما إذا كان هناك نوع واحد أو مائة نوع، لأن المهم هو معرفة أن قبائل كاملة وذات وزن، مغطاة بهذه الشجرة العزيزة على باخوس Bacchus. ولربما كان زارع الكروم في جنوب فرنسا، في وضعية أفضل مني لإبراز النتائج المستخلصة من هذا الاكتشاف غير المنتظر، في بلد إسلامي أساسا. وحسب ما قيل لي، فإن أهم المناطق الجبلية التي تتواجد فيها الكروم هي: صنهاجة الوطا، صنهاجة الغدو، مثيوة، بني زروال، غمارة، بني أحمد،

الاخماس، بني عروس، بني مسارة، بني مزݣلدة، أهل سريف ورهونة. وخارج جبالة تهتم قبائل زرقت وبني ورياغل بالريف وغياثة بالبرابر، بزراعة الكروم أيضا.

- التجارة والصناعة:

يختص أهالي كل من رهونة وبني إيذر، في صناعة سلال دائرية من الدوم [الطبق]؛ لكنهم لا يصنعون القبعات ذات الأطراف الواسعة، المسماة "مدهولة". ومن المؤكد أن هذا الصنف من القبعات لن يعرف الرواج في الجزء الجنوبي من جبالة. بالمقابل، فإنه يستعمل في الشمال من طرف الرجل والنساء الذين يفضلون القبعات المصنوعة ببقيوة. وهناك خمس قبائل بشمال غرب إفريقيا متخصصة في هذا النوع من القبعات وهي:

1) بني أوغليس بواد أقبو [الجزائر].

2) وضاسا بدائرة نامور [الجزائر].

3) بقيوة [الريف]

4) الدسول [جبالة]

5) زناݣة [سوس].

أما الشواشي [ومفردها شاشية]، فهي تصنع في كل مناطق جبالة؛ وهي من الصوف الأبيض وتستعمل فوق الرؤوس المليئة [بالعلم] للطلبة المتقدمين في السن.

أمنا الشاشية الحمراء المصنوعة بفاس ومراكش، فتزين الرؤوس الفارغة لجيوش المخزن.

وبنواحي تطوان، تلبس النساء المتزوجات "المدهولة" فوق منديل القطن الأبيض المسمى "سبنية". وتغطي الفتاة رأسها بهذه "السبنية" فقط، وعندما تبلغ العشرين من عمرها، فإنها تضع فوقها القبعة المذكورة، سواء كانت متزوجة أو لم تكن.

وبالجبال الشاهقة تضع القرويات حول سيقانهن ما يدعى ب"الطرابق"؛ وهي عبارة عن لفافة تحيط بالساق حتى الكعب guêtre [او ما كان يعرف عند الإغريق باسم enémicle]، مصنوعة من الصوف الخشن؛ ورغم أنها لا تبرز مفاتن هذا الجزءمن الجسم إلا أنها تفيد في الوقاية من العليق والأشواك. وتعتقد راعيات المواشي والعاملات النشيطات بالحقول، أن هذه اللفافة تقي أيضا من لسعات الثعابين؛ وإن كانت الأفاعي السامة نادرة في المغرب الشمالي. ولا بأس من التذكير بأن المغاربة وباستثناء عيساوة، لا يأكلون الزواحف ويشمئزون منها،

مثلما يشمئزون من الضفادع المتواجدة بكثرة في المنابع والجداول؛ ولا يأكلون السرطان ولا أنقليس الأنهار ولا السلحفاة ولا جراد البحر langouste ولا سرطان البحر homard.[1]
فلماذا يفضلون مع ذلك، أكل انقليسات البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي التي يدعونها "حنوشة البحر" [ثعابين البحر]؟

أقســـــام قبيلة رهونــــة

أتأسف أكثر من أي واحد على عدم تذكر الدرويش لأية قرية برهونة. لكنه احتفظ في ذاكرته مع ذلك، باسماء ثلاثة أقسام وهي: الحصحاص، الحرايق وبني أحمد.
- القوى العسكرية: 2400 من المشاة، عدد السكان المحتمل: 16800 نسمة.

[1] لا تساوي جرادة البحر بالصويرة،أكثر من خمسة سنتيمات !

قبيلة أهـــــل سريـــــف

توجد قبيلة أهل سريف المليئة بالتلال والهضاب، جنوب غرب بني إيذر. وهي أقرب إلى المناطق المستوية حيث تظهر بها بعض السهول التي ستمتد داخل الأراضي المنخفضة بالخلوط. وهنا تقع آخر المنحدرات الغربية لجبالة، بجانب الطريق المعروفة لدى الأروبيين والتي لا تبعد كثيرا عن مدينة القصر الكبير. ويتميز الطقس بحرارة تفوق في درجاتها، حرارة المناطق الجبلية التي اجتزناها؛ ونحس هنا بشساعة الآفاق وحضور الجياد الغائبة تقريبا في جبال الشمال والوسط. طبعا، سنجد المنابع والجداول والأدغال والقرى العديدة؛ لكن كل هذه المناظر الطبيعية لا تشبه أبدا ما سبق أن رأيناه؛ وأقصد بذلك، الغابات الشاسعة والمياه المتدفقة والقرى الكبرى ببلاد السيبة. فنحن سنغادر هذه المنطقة المستقلة الرائعة ولن نراها قريبا !

ـ عادات غريبة:

هيمنت أيادي المخزن على أهل سريف ونهبت أفضل خيرات القبيلة. ونظرا لخوف الأهالي من بطش عساكر المخزن واحتقارهم، فإنهم انغمسوا في الملذات وانساقوا مع أهوائهم الدنيئة. وينطبق هذا الأمر على العديد من القرى التي نذكر من بينها، زهجوكة بعازفيها وراقصيها المائة واللوكوس ومليانة حيث يتكاثر الطبالون والعازفون على الكمان، وهم جميعهم مخنثون efféminés؛ وكتامة عاصمة الغلمان الراقصين والعايلات الراقصات النصف عاريات. وكل هذا الحشد من الأشخاص يباع ويشترى؛ وهو ما يستوجب اهتمام عالم الاقتصاد بهذه الظاهرة. فهم يعرضون في الأسواق مثل المواشي ويتم إظهار مفاتنهم والحديث عن مواهبهم، ومنهم من يبلغ ثمنه 300 فرنك، حيث يقتاد فيما بعد إلى بيت الصحفة أو إلى منزل المشتري، ليعيش وسط النساء الشرعيات وأطفالهن. فمن هو الشخص الجريء الذي يستطيع الكشف عن هذا الخزي المشوه للمجتمع المغربي؟ ومن هو هذا الشجاع الذي سيسبر الأعماق النتنة لمجتمع اللواطيين؟ لماذا يا إلاهي حتمت علي القيام بهذه المهمة الصعبة والبغيضة المتمثلة في بحث إثنوغرافي تشمئز منه نفسي، خصوصا وأنني لا أريد أن

أرى في عملك العظيم والخالد سوى النور والزهور وخصوصا النور الذي يتعين أن ينفذ إلى أعماق وقلوب مخلوقاتك البئيسة؟[1]

إن الأعمال الخيالية والروايات الطبيعية لم ترق إلى الواقع الجبلي، رغم خلاعتها المتخيلة. فلنقم الآن بزيارة إحدى الأسر الجبلية بأهل سريف.

ففي إحدى الغرف المفتوحة بالكاد، يوجد شاب بعيون نائمة ومكحلة وبردفين عظيمين وملامح بليدة، لكنها معافة وبشوشة، وهو يلبس قميصا من الحرير، يغطي جسده المهتريء والأبيض كالشمع.

وبالقرب منه عايلة متهتكة مثله، تلاعبه ويلاعبها؛ وعندما تتعب، تتخلى للشاب عن الحايك وتخرج إلى باحة المنزل عارية كما ولدتها أمها؛ لكنها تعود بسرعة إلى الغرفة، لأنها على ما يبدو، أبصرت رب المنزل في غرفة أخرى. غير أن هذا الأخير لم يغتظ من ذلك المشهد، لأنه يعلم منذ مدة بما يحصل بين الشابين. وبالخارج يسخر منه الأصدقاء قائلين:

- يا لك من جبان ! لماذا لم تقتلهما عندما عاينت بنفسك العلاقة القائمة بينهما؟

لكنه يجيب بهدوء قائلا:

- هذا الأمر لا يهمكم. فالعايل والعايلة في ملكي وسأفعل بهما ما أريد هذا المساء !

وسيتمم فكرته بإشارة خليعة توضح نوع الانتقام الذي ينتظرهما.

ولا يمكن للمرء أن يتصور المدى الذي تصل إليه الخلاعة داخل بعض الأسر، حيث يتقاسم الأب والإبن نفس الأجساد. ويتناقل الناس همسا هذه الواقعة الغريبة: ففي أحد الأيام، باغت رجل إبنه وهو يمارس الفاحشة على غلامه. فخرج دون أن ينبس بكلمة وظل صامتا طوال النهار. وفي المساء خاطب ابنه "المحترم" قائلا:

- يا بني، إنك طالب؛ أفلا تعلم بان الله تعالى قال في كتابه العزيز: "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم"، فأجابه الابن الذي كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب:

---

[1] لم يكن ليون الإفريقي يجهل انحرافات أبناء ديانته [انظر الصفحات 50، 152 و 153 من طبعة أنفرس 1556 لمؤلف "وصف إفريقيا"؛ لكنه لم يصرح بكل شيء، بل تردد وترك لي هذه المهمة الفظيعة. أما مارمول Marmol فلم يعمل سوى على نقل ما ورد في كتاب ليون الإفريقي. وبالنسبة للكتاب الآخرين، فإنهم لم يذكروا أي شيء تقريبا عن الموضوع.

- اسمح لي يا سيدي، لقد قال تعالى: "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء" ولم يقل من الرجال. [2]

وبمنقطة جبالة المليئة بالمتع، تستغل كل الفرص للاحتفال. فالولادات والختان والزواج و"التخريجة" أو "الختمة" [يعني نهاية الدروس الشرعية والنحوية والقانونية بالنسبة للطالب] ورجوع الحجاج من مكة واستقبال وفود المخزن وعيد المولد النبوي والأعياد الدينية الأخرى، بما في ذلك الاحتفال برأس السنة الذي يدعى "الحاگوز" وليس الحاجوز؛ كل ذلك، يشكل مناسبة للاحتفالات الصاخبة.

- الولادات:

تضع المرأة الجبلية حملها وهي واقفة، حيث تمسك بها قريبتان؛ ومن تحتها تفتح القابلة قطعة قماش لاستقبال المولود الجديد. فإذا كان ذكرا، يعلن عن الخبر، عبر إطلاق عيارات نارية. ويأتي الجيران والأصدقاء منذ اليوم الأول للاستمتاع بالمآدب. وبعد مرور سبعة أيام، يذبح الأب خروفا أو تيسا؛ وفي اللحظة التي تمر فيها السكين فوق عنق الحيوان، يختار أحد الأسماء، مثل محمد أو عبد الله أو عبد السلام الذي سيصبح هو اسم المولود إلى الأبد.

ولا حاجة إلى التأكيد بأن الخروف أو التيس يلتهم في حينه من طرف الضيوف الذين تتفتح شهيتهم في مثل هذه المناسبات. وطبعا فإن الطلبة المتواجدين بالمسجد سيتوصلون بحصتهم من الطعام.

وعند المساء، يعزف الجوق بالطبل والمزمار [الغيطة] أنغاما صاخبة، مرفوقة برقصات الغلمان والعايلات أمام جمهور متحمس. أما بالخارج، فتسمع طلقات البنادق المتتالية بشكل منتظم وكأنها انفجار قنابل موقوتة.

لكن، عندما تكون المولودة فتاة، فإن الأمور تتم بشكل بسيط، وكأن الأهل نادمون على مجيئها إلى الدنيا. فلا تطلق عيارات نارية ولا تزغرد النساء. وفي اليوم الأول، يقدم الأبوان بنوع من الأسى، الزبيب و التين للزوار. ولا يذبح أي حيوان في اليوم السابع، بل يكتفي

---

[2] إن الاستشهاد الصادر عن هذين السافلين، مستمد من سورة النساء، الآية 22. وقد ترجمها كزميرسكي kazimirski الجاهل بغنى اللغة العربية وأيضا باللغة الفرنسية التي ليست هي لغته الأم ب "ولا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم ".

وعندما أفتح قاموس الفيروز بادي ، أجد أن كلمة "نكح" تعني ما ترجمته أعلاه.

ولأن لغتنا الفرنسية لا تتوفر على مقابل دقيق للكلمة، فإنني فضلت استعمال لفظة "coïter".

الأبوان بتوزيع الخبز والفواكه على الأقارب والأصدقاء ويطلق اسم على المولودة مثل: يامنة أو خديجة أو الزوهرة أو فاطمة، وينتهي كل شيء.

- الختـــــان:

يخضع الطفل لهذه العملية، عندما يتراوح عمره ما بين 5 و 10 سنوات. وعندما يكون "الجراح" من أهالي القرية، فإنه لا يتلقى أي مقابل؛ أما إذا أتى من قرية مجاورة، فإنه ينال أجرا زهيدا على عمله. وفي اليوم الموعود، يلاطف رجلان أو ثلاثة، الطفل الذي لا يكون على علم بأي شيء. هكذا، يتم اقتياده إلى باحة المنزل، حيث تبيت المواشي؛ ويقوم "الجراح" بمقصه أو بسكينه الحادة، بقطع غرلة الطفل بضربة واحدة، ليتم دفنها مباشرة.

أما المختون فإنه يصرخ بألم، لكن صوته يضيع وسط صخب الجوق الموسيقي الذي استدعي بمناسبة هذا الحفل الدموي. وفي نفس الآن، ينهمك الحاضرون في الثرثرة والضحك ولا يهتمون بأمر الطفل وكأنه غير موجود. ولا يتوقف عمل "الجراح" عند هذا الحد، بل يغطي الجزء المجروح بقطعة قماش ويمسح الدم الذي لطخ أداته بورقة شجرة أو بصوف نعجة وينضم إلى الضيوف، للمشاركة في المأدبة الجماعية.

ومن جانبهن، فإن النساء الحاضرات، وخصوصا الأم والخالات والأخوات يلاطفن المختون ويقدمن له الحلويات ويدخلنه غرفة خاصة به، حيث سيتمدد فوق الزربية. وعلى مدى شهر كامل، يعالج بواسطة كمادات cataplasmes مكونة من رماد الدفلى ومن الخرق ومن قشرة شجرة الرمان، المطحونة والممزوجة بالعسل؛ وهذا لا يمنع الطفل من اللعب مع أقرانه والتباهي أمامهم ببقع الدم المتناثرة على مقدمة قميصه.

- التخريجة والختمة:

لم يعرف المغرب إلى حد الآن نظام الشواهد peau d’âne المعمول به في البلدان المتحضرة والمستغل بشكل مفرط. فالعالم المغربي لا يخفي داخل قلنسوته أي لقب جامعي؛ ولا يفكر أي أحد في مطالبته بذلك.

أو لم يجتز الاختبار أمام الطلبة والأساتذة، مبرزا للجميع على أنه على دراية مثل الفقهاء الذين سبقوه ولربما كان أفضل منهم؟

وهل من الضروري أن يكون العقل الذي أنتج العديد من المؤلفات التي تثير حسد الفقهاء البارزين بالجامعات الشريفة والذي كتب صفحات رائعة، خاضعا لبرنامج محدد سلفا ولتمارين خاصة تدعى الامتحان؟

كلا، فبالرغم من منافسة الأكاديميين المأجورين، فإن الشهرة واحترام الجمهور، يعتبران أفضل بالنسبة للعالم المغربي من كل أنواع التبريز والدكتوراه في تعليمنا الحديث.

ولأن إمكانية التدريس هي في متناول أي فرد يريد القيام بعمل بيداغوجي؛ فإن المغربي لا يتساءل عما إذا كان مدرسه يحمل تلك الورقة البسيطة المسماة شهادة الأهلية.

لهذا، فإن الامتحان بالمعنى الحصري للكلمة، لا يوجد لدى جيراننا بالغرب. فبعد قضاء 15 أو 20 سنة في الدراسة والتحصيل وبعد أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب، يقيم الشاب حفلا كبيرا يدعو إليه أعيان الجماعة والمعلم والأصدقاء ويقيم على شرفهم، مأدبة فاخرة. وبعد الأكل إلى حد التخمة، كما هي عادة الطلبة المسلمين، يقدم الشاب هديته البسيطة لمعلمه ويقوم الطلبة إثر ذلك بقراءة الفاتحة ويختمون جلستهم بالدعوات، ثم يعود كل واحد إلى حال سبيله. وغالبا ما يختتم العديد من الطلبة دراستهم في نفس اليوم. وعليكم أن تتصوروا المآدب الكثيرة التي ستقام حينها. وتكتسي ختمة سيدي خليل، مناسبة لمآدب لا تنتهي؛ وهي توازي الإجازة في الحقوق وإتمام الدراسات العربية الأخرى وهي: البلاغة والتفسير والنحو والحساب والعروض – وتشكل على ما أعتقد الحصيلة التامة للعلم المغربي – ويساهم في هذه الوليمة الجامعية، سكان الحي بأكمله إذا كان الطالب يقطن بالمدينة، وسكان القرية كلها، إذا كان بالبادية. هكذا، يحمل كل فرد حصته من الطعام إلى المسجد، حيث يجتمع الطلبة والأساتذة وأعضاء الجماعة وأقارب وأصدقاء الطالب المعني. وبعد قراءة الفاتحة يقدم المجازون لمعلميهم قدرا من المال؛ وهو ما يقبله هؤلاء المدرسون بسرور، لأن ما يتلقونه سنويا لا يساوي أجرة شهرية لأبسط معلم عندنا.

ومعلوم أن مجرد معرفة القراءة والكتابة، تمنح للمسلم امتيازا وأفضلية على أبناء دينه. فمن الآن فصاعدا، سيقترن اسمه [محمد، عبد الله بلقاسم الخ..] بلقب سيدي الذي يختصر في "سي" بالجزائر و "آسي" بالمغرب.[3]

---

[3] انظر، المغرب المجهول، مذكور ، ص. 76، الهامش 23.

وألاحظ بالمناسبة – وليس في ذلك أي خروج عن الموضوع – بأننا لم نسلم من هذا الغرور الإنساني. فأنا أتساءل، بأي حق استحوذ الأطباء بفرنسا، على لقب دكتور وحدهم؛ هذا اللقب المتكلف والتافه؟ وبأي حق استحوذ الرهبان على لقب صاحب السيادة mon seigneur؟ ونحن لا نتحدث هنا عن جيش الدكاترة الأجانب من ألمان وإنجليز الخ... فقد كثر عددهم إلى درجة أننا نضطر من الآن فصاعدا، إلى إحصاء وتصنيف من لا يتوفر على هذا اللقب.

- استقبال الحجاج:

عند رجوعه من الحج، يتوقف الجبلي على بعد عشرة كيلومترات من قريته ويبعث أحدا من أقاربه للإعلان عن قرب وصوله. وتستعد أسرته التي بلغها الخبر السعيد، للاحتفال بمقدمه؛ كما ينتشر هذا الخبر السار في كل أرجاء القرية بسرعة البرق. وفي الغد، يدخل الرجل الذي سيلقب من الآن فصاعدا بالحاج، إلى قريته، وسط موكب احتفالي. ويتلقى القبلات والتهاني من الجميع. وبالمنزل تقدم الأطعمة المتنوعة، فتملأ البطون وتتقاطر الدعوات.

- استقبال خدام المخزن والشرفاء:

نذكر بأن موظفي الحكومة الشريفة لا يمكنهم الظهور إلا ببلاد المخزن. وماعدا ذلك، فإنهم سيستقبلون بضربات السيوف ونيران البنادق، من طرف أهالي بلاد السيبة.

وسواء كان قايدا أو شيخا او عاملا أو مجرد مرسول مخزني estafette، فإن ممثل السلطة سيقيم بالمسجد. وعند وصوله، يقدم له الطعام مع الشاي ويوضع حصانه بالاصطبل حيث يوجد الشعير والتبن بكثرة.

بعد ذلك، يأتي وفد من أعيان القرية، بابتسامة متكلفة ويستفسرون سيادته عن الهدف من زيارته. أما في المناطق المستقلة، فيعامل القياد مثل باقي الناس دون تميز.

وبالنسبة للشرفاء، فإنهم يستقبلون بحفاوة في العادة. وقد سبق أن تحدثنا عن جولة الدرويش برفقة شريف، ولا فائدة من العودة إلى هذا الموضوع.

- الأعياد الدينية:

- عيد المولد النبوي [المولود]:

وهو عيد مولد الرسول محمد (ص)؛ ويتم في هذا اليوم المبارك، ذبح الخراف والعجول والماعز؛ وتهييء الأطعمة المتنوعة. وفي الغد، يلبس الناس أفخر ملابسهم ويحملون طعامهم إلى المسجد، حيث تقام وليمة مشتركة، مصحوبة بالموسيقى والرقصات وطلقات البنادق.

- عاشوراء:

يصادف هذا العيد العاشر من محرم؛ وتقام في هذا اليوم الاحتفالات في كل الأماكن، في القرى والمساجد والمنازل. وتدعي الأسطورة بأن اسم عاشوراء [من عشرة]، يرجع إلى كون الله تعالى قد أنقذ عشرة من أنبيائه في ذلك اليوم وهم:

1) موسى الذي أنقذ من اليم.

2) إبراهيل الذي أصبحت النار التي ألقي فيها بردا وسلاما عليه.

3) سليمان الذي أعيد إليه خاتمه الشهير.

4) آدم، أثناء مواجهته لإبليس.

5) داوود الذي فقد تاجه.

6) إدريس الذي مكث بالجنة.

7) أيوب الذي تخلص من مصائبه.

8) يونس الذي أنقذ من الحوت.

9) نوح الذي نجا من الطوفان.

10) عيسى الذي لم يتمكن اليهود من صلبه.(4)

- ميلاد المسيح عليه السلام:

قبل عشرة أيام من رأس السنة الميلادية عند المسيحيين، يحتفل المغاربة بميلاد المسيح الذي يصادف أعياد الميلاد noël عندنا. غير أن مسلمي المغرب لا يعطون أهمية كبيرة لهذه

---

(4) حسب ما ورد في القرآن، فإن المسيح رفع إلى السماء دون أن يلحقه أذى، وقتل وصلب أحد أتباعه الخونة الذي كان يشبهه.

- ملحوظة المترجم: بخصوص عاشوراء، يبدو أن موليراس غير مطلع على هذا الحفل بدقة ، وهو يجهل ارتباط هذا اليوم بمقتل الحسين بن علي.

المناسبة وإن كانوا يستريحون في ذلك اليوم ويقيمون المآدب. وقد احتفظوا عبر العصور بالاحتفال باليوم الأول من السنة الجديدة، حسب التقويم الوثني وهو أول يناير. والشيء المثير، هو أنهم يحتفلون بطريقة خاصة، حيث يلتهمون كميات كبيرة من "الدشيشة" وهي نوع من السميد المطبوخ بالزيت ويقضمون الفواكه الجافة مثل الجوز واللوز.

- العيد الصغير والعيد الكبير:

يحل العيد الصغير مباشرة بعد رمضان، حيث تقام العديد من الاحتفالات، بعد أيام مرهقة وطويلة من الصيام. وقد سبق لي أن أشرت إلى هذا الأمر وأضيف بأن العادات المحلية تختلف فيما بينها بهذا الخصوص. ففي بعض المناطق تقام صلاة العيد خارج القرية، وبعد الصلاة يتوجه الجميع إلى المسجد حيث تنتظرهم "جبال" من الأطعمة التي قد تصبح وبالا على المعدة الهشة.

اما العيد الكبير، فقد شرعه الرسول كذكرى لخلاص إسماعيل من الذبح. ويسمى أيضا عيد القربان وعيد الأضحى أو عيد الخروف.

ولا يحتفل بهذا اليوم، بنفس الحماس الذي يتم في العيد الصغير؛ فهو يأتي بعد أربعين يوما من هذا الأخير، أي في مرحلة لا يرغب فيها الناس في مزيد من الأطعمة. ومع ذلك، فقد اقتضت العادة أن يكون الحفل بهيجا. فكل عائلة مطالبة بذبح كبش وأحيانا كبشين أو ثلاثة أو أربعة، بحسب عدد الرجال بالأسرة. وقليلون هم الأشخاص الذين يكتفون بتيس أو معزة. وفي جميع الحوال فإن أكثر الناس بؤسا، يذبح حيوانا في هذه المناسبة، حتى ولو كان دجاجة. ومنذ الشروق، يستيقظ الأهالي ويرتدون أفضل ملابسهم. هكذا، تضع النساء والفتيات أزهى الحلل وأجمل الأقمشة الحريرية المطرزة بخيوط ذهبية والفاقعة الألوان. ويلبس الرجال جلابات أنيقة ويتوجهون جماعات إلى العيون والجداول والمنبع الموجود داخل المسجد للتوضأ؛ ثم يقصدون تلة خارج القرية لأداء صلاة العيد.

وعند الثامنة صباحا، يعودون إلى المسجد ويقضون به ثلاثة أيام وليالي في الأكل والشرب وسماع الموسيقى وحكايات الرواة الشعبيين ومتابعة رقصات الغلمان.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال الأيام الثلاثة التي يستمر فيها الاحتفال، تصادق القبائل المستقلة على هدنة، يمكن للأجنبي بمقتضاها، أن يتجول بمناطقها دون خوف. ولن يفكر أي أحد في

سلبه أمتعته بل يمكن أن يستقبل بحفاوة وأن تقدم له الأطعمة المتنوعة التي تهيأ في هذه المناسبة، احتفالا بتخليص إسماعيل من عملية الذبح التي كاد إبراهيم أن يقوم بها تنفيذا لأوامر الرب [يهوه] الصارمة الواردة في سفر التكوين.

- أوراق بنكية وطمع على الطريقة المغربية:

لنلتحق بالدرويش مرة أخرى. فقد أقام بمسجد زهجوكة؛ تاركا دروسه من أجل اكتشاف المنطقة وزيارة أضرحة الأولياء، حيث تكثر الولائم.

وعلى بعد مئات من الأمتار عن القرية، يوجد سوق هام، يجلب العديد من السريفيين ومن أهالي القرى المجاورة. وفي أحد الأيام، ذهب محمد إلى السوق مرفوقا بشاب شاحب الوجه من زهجوكة، وهو مترهل الجسم مثل العديد من الطلبة بمملكة الشريف. وبينما كانا يسيران باطمئنان، فاجأهما رجلان، خرجا من أحد الأدغال وامسكا برفيق الدرويش واخذاه معهما إلى الغابة. وبالرغم من أن الرحالة كان يتوخى الحذر في مثل هذه الظروف إلى أنه خاطب السافلين، مخبرا إياهما بأن الشاب ينتمي إلى عائلة محترمة بزهجوكة. وما أن أنهى كلامه، حتى ظهر الخاطفان من جديد وقيدا الشاب بشجرة واقتربا من الدرويش وصاحا فيه بعنف:

- هيا أيها المجنون، انزع ثيابك.

فرد عليهما الدرويش قائلا:

- وهو كذلك يا سادتي.

وبسرعة نزع جلابته وباقي ملابسه ووضعها قرب أرجل اللصين. فترك له الرجلان قميصا باليا ليستر عورته وأخذا الباقي واقتادا أسيرهما.

عند ذلك، رجع محمد إلى زهجوكة وأخبر أقارب الشاب بما وقع، مضيفا بأن الخاطفين من دشرة إمامن. فسأله أب الشاب وهو يحمل بندقيته:

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- نعم؛ وعليك أن تسرع حتى تقبض عليهما بالغابة.

وخرج الأهل والأصدقاء من القرية بحثا عن الأسير. وفي المساء، وبينما كان الرحالة يتناول عشاءه بالمسجد، شاهد رفيقه الشاب وهو في حالة يرثى لها، حيث كان يمشي بصعوبة

وكانت ملابسه ملطخة بالوحل وببقع من الدم؛ وانزوى بركن داخل المسجد وغطى رأسه بقلنسوة جلابته وظل صامتا إلى أن بزغ الفجر.

وفي يوم آخر، كان الدرويش يتجول بأزقة الصفصاف متباهيا بملابسه الجديدة ومثيرا لفضول أصدقائه القدامى. وكان يتأهب للعودة إلى زهجوكة، عندما توسل إليه أحد ساكنة الصفصاف، باستصحاب أخيه الأصغر، وهو يتيم عمره 25 سنة ويحتاج إلى معلم، ثم أضاف قائلا:

- إنه بليد بعض الشيء وعليك أن تؤدبه.

وانطلق الرجلان باتجاه زهجوكة؛ ولم يمر وقت طويل حتى ادعى رفيقه بانه يعرف طريقا مختصرا عبر الغابة وبأنهما سيصلان في أسرع وقت ممكن وبأمان. وفجأة التقيا بالأخ الأكبر حاملا بندقيته على كتفه وسيفه المعلق بخاصريه. وبرر هذه المصادفة بكونه ينوي زيارة صهره الساكن بإحدى القرى المجاورة. وأدرك الدرويش بأنه سقط في ا لفخ، لذلك اعلن للرجلين بأنه يريد قضاء حاجته؛ وأثناء جلوسه القرفصاء، لف بمنديل يحتوي على أربعة أو خمسة فرنكات من العملة المغربية حول فخذه. وغير بعيد عنه كان الأخوان يتحدثان بهمس فيما بينهما. وعندما اقترب منهما أشار إلى قرية على بعد مئات من الأمتار، وقال مخاطبا تلميذه المزعوم:

- أقترح عليك أن نبيت الليلة في هذه القرية وأن نتابع طريقنا في الصباح؛ اترك أخاك يذهب وحده عند قريبك.

فرد الشاب صائحا:

- هذا مستحيل، فأهالي هذه القرية هم اعداؤنا؛ وإذا ما وضعت قدمي بترابهم، فإنهم سيقتلونني.

وابتعدوا جميعا عن القرية؛ وبعد ربع ساعة من المشي خاطب الأخ الأكبر الدرويش قائلا:

- لنجلس هنا، لأكل قطعة خبز.

فجلس الثلاثة على جانب حفرة وأخرج الرجل من قلنسوة جلابته التين واللوز والخبز والزبيب.

وشرع الدرويش في التهام الطعام وتمتم في قرارة نفسه:

- هذا ما سنربحه من هذه الرفقة.
وبعد الأكل،تابع الرجال الثلاثة طريقهم، وكان الأخوان يسيران في المقدمة وخلفهما الرحالة الذي كان يدعي التعب ويتصيد الفرصة للاختفاء داخل الغابة التي أصبحت أكثر كثافة.
وعندما حاول الهرب، توجه إليه التلميذ وطلب منه الوقوف وخاطبه هامسا:
- يا عزيزي، لا يمكنك أن تتصور الحرج الذي يشعر به أخي. فقد اعترف لي بأنه لم يجرؤ على مطالبتك بقرضه ريالا [خمسة فرنكات] ينوي إهداءه إلى صهره.
فأجابه الرحالة:
- ما عنديش.
وعلى الفور، أخبر التلميذ أخاه برد الدرويش، فرجع الرجلان وتوسلا إليه، كي يقرضهما المبلغ المذكور.
فكرر الرحالة:
- لكنني لا أملك شيئا. وهل يقرض المال بالغابة؟ فلو طلبتما مني ذلك ونحن بالصفصاف، لكنت لبيت الطلب، لأنني تركت عشرة فرنكات أمانة عند فقيه القرية. أما هنا فالأمر مستحيل.
عندئذ، أسقط الأخ الأكبر قناعه، فاختفت ابتسامته المعسولة وشرع في شتم الدرويش بألفاظ بذيئة، متهما إياه بالكذب و مؤكدا بأن النقود موجودة معه. فرد عليه محمد ببساطة قائلا:
- فتشني.
ولما لم تفض هذه العملية إلى أية نتيجة، غضب الرجل وصاح:
- أيها السافل، ستعطيني إحدى جلاباتك وسأبيعها كي أقابل صهري دون حرج وأقدم له هديتي.
ونزع الدرويش جلابته بسرعة، فارتداها الصفصافي ثم رفع عصاه في وجه صاحبنا وأمره بالتقدم إلى الأمام، مهددا بسلبه كل ملابسه.
لكن الدرويش فاجأه بالاقتراح التالي:
- اسمعني، علينا ألا نتخاصم وأن نتفق فيما بيننا من أجل مصلحتنا المشتركة؛ فما أن نصل إلى قرية صهرك، حتى أقترض 100 سنتيم وأدفعها لك.

والحال، أن القرية والصهر كانا مجرد كذبة. لذلك رفض الصفصافي أي تفاوض، بل إنه شعر بالخجل وتضايق من تبادل الحديث مع شخص درويش فعلا. وكرد فعل، ظل يدفعه بعصاه ليسير أمامه. وفي إحدى اللحظات، سل خنجره وهدد بالقتل إن لم يعطه النقود.

فقال محمد:

- يا عزيزي، من المؤسف أننا نوجد بعيدين عن الميناء، وإلا كنت أعطيتك شيئا يدخل السرور إلى قلبك.

- وما هو؟

- لقد حملت معي من العرايش 8 دورو douros [40 فرنكا]؛ وهذه القيمة موجودة بورقة يستعملها النصارى في معاملاتهم التجارية.

فهدأ الرجل وقال:

- حسنا، حسنا، إنني على علم بذلك. أين هي "الكارطة"؟

وكان الأمر يتعلق فقط بورقة سفر مستعملة، تسمح بعبور البحر من الدار البيضاء إلى العرايش على ظهر سفينة بريطانية؛ وقد وجدها الدرويش صدفة فاحتفظ بها وسط كتبه، كورقة نادرة.

وكان يمسك بها بين السبابة والإبهام ويريها لسارقه الذي أصبحت عيناه تلمعان من فرط الجشع. وتراجع الدرويش إلى الوراء قائلا:

- لحظة، إن هذه الورقة ثمينة.
- كم تساوي؟
- كما قلت لك، إنها تساوي 8 دورو؛ وعليك أن تقسم لي بجاه النبي، أنك ستصرفها في العرايش وستمنحني نصف المبلغ؛ اما النصف الثاني فسأقرضه لك، ويمكنك أن ترده لي متى شئت.

فصاح الصفصافي بعد أن أخذ الورقة:

- اتفقنا.

وتغير سلوك الأخوين السافلين، حيث طلبا المسامحة من الدرويش وأصرا على رد الجلابة. وخاطبه الأخ الأصغر قائلا:

- خذ جلابتك يا سيدي وسامحنا.

لكن الدرويش أشار باستعلاء بأنه لا يريدها، ثم شرع في إحراج الوغدين بحديث مليء بالحكم التي تحتفظ بها ذاكرته القوية وقال بهذا الخصوص:

- آه يا أصدقائي، إن الفقر هو سبب كل الأحقادالقائمة بين البشر، لأن القناعة أفضل من الغنى والعلم هو أثمن كنز.

وختم كلامه بقول منسوب إلى الرسول (ص)وهو: "من جهل شيئا عاداه". وبآيات قرآنية حول ضعف وغرور الإنسان.

عندئذ سأله التلميذ:

- سيدي أين سنذهب الآن؟

فرد محمد مخاطبا الأخ الأكبر:

- لنفترق الآن يا عزيزي ولترافقك السلامة، أما أخوك فسيذهب معي.

ولم يناقشه الرجل، بل غادر المكان بسرعة الأرنب، في حين تابع الدرويش وتلميذه البئيس طريقهما باتجاه القرية المجاورة. ولم يخبر الرحالة ضيوفه بما وقع، رأفة بتلميذه وأيضا بدافع الحذر.

هكذا، تعشى بالمسجد ونام رفقة تلميذه فوق نفس الحصيرة. وعند الصباح خاطبه قائلا:

- يا عزيزي، غادر القرية بسرعة وإلا رويت للجماعة سلوكك المقيت اتجاهي وسترى حينها كما يجب !

فسارع اليتيم ذو الخمس وعشرين سنة بمغادرة القرية حاملا لوحته؛ أما محمد فقد رجع إلى زهجوكة في نفس اليوم.

وبالنسبة للأوراق البنكية، فإن رحالتنا يتذكر خدعة أخرى كان ضحيتها صديقين مزعومين له وهما معلمان سافلان، سبق أن تلقيا معه الدروس بأحد مساجد بني زروال.

ويرجع تاريخ الواقعة إلى أواخر فصل الربيع من سنة 1895، بقلعية [الريف]. فبعد أن قضى ليلته بمليلية، توجه الرحالة إلى سوق الإثنين بفرخانة. وأثناء تجوله وسط الحشود، التقى بالشخصين المذكورين. وكان أحدهما معلما بقرية إغزور إمرابدين، وتحديدا بجامع الرايس محمدين، قسم بني شيكر.

أما الثاني فكان معلما بقرية الورك، على شاطئ البحر، قرب مليلية. [5]
وكانت فرحة اللقاء بأرض أجنبية. لذلك قرر الرجال الثلاثة الاحتفال، خصوصا وأن الريفيين ليسوا كجبالة الذين يحبون اللهو والاستمتاع بأوقاتهم.
هكذا، بدؤوا بشراء التين والزبيب والفستق والجوز. ورغم حذره الطبيعي، فإن الدرويش لم يشك في النوايا الخبيثة للزرواليين. وقد تقرر أن يذهبوا جميعا إلى إغزور إمرابدين، ثم إلى الورك للهو قبل أن يفترقوا.
وحوالي الرابعة بعد الظهر أعلن أحد الجبليين عن موعد الانطلاق، بعد أن عاين موقع الشمس بالسماء. فرد عليه الرحالة:
- يا الله [هيا بنا].
وخرجوا من السوق باتجاه الشمال. وفي منتصف الطريق، بالقرب من منحدر، صاح أحد المعلمين:
- لا يمكننا أن نذهب إلى مليلية ما لم نعول على الاستمتاع بشابة أندلسية هناك، لكن يجب أن تتوفر لدينا النقود من أجل ذلك.
وأردف معلم إغزور إمرابدين مخاطبا الدرويش:
- إذن، يجب ان تكون معك نقود.
فأجابه محمد:
- ليس معي فلس واحد. بالمقابل، فأنتما تذهبان كثيرا إلى مليلية، ومن المؤكد أن معكما الكثير من النقود. أما أنا فقد نسيت شكل الدورو.
وفجأة تغير معلم "الورك" وأصبح وقحا وعدوانيا وخبيثا، ووضع يده الغليظة فوق كتف الدرويش ثم خاطبه قائلا:
- إنك تهسهس gazouilles مثل إست بغل.
وأضاف أمام ذهول الدرويش:

---

[5] إغزور إمرابدين [غدير المرابطين] والورك، هما قريتان بحريتان بقسم بني شيكر، قبيلة قلعية وتوجدان بالشمال، غير بعيدتين عن مليلية. وأنا لم أتحدث عنهما لأن الدرويش لم يزرهما إلا في سنة 1895، ولا بأس من أن أكرر مرة أخرى بأن العديد من الجبليين يساهمون حاليا في تعريب الريف، حيث يأتون إليه كمعلمين [مشارط]؛ وهم ينجحون في مهمتهم. وبهذا الشكل تقريبا، تبنى الشمال الإفريقي لغة ودين وعادات العرب.

- إذن فأنت تعاند [تغانن] ! هيا انزع ملابسك.
ووقف الرجلان أمامه، بحيث أخذ أحدهما بخناقه ووضع الثاني هراوته أمام وجهه. وكان شحوب وجهيهما واحمرار أعينهما، خير دليل على ما يبيتانه من شر. فقد كانا سافلين حقا وحقيقة. وفجأة خطرت للدرويش فكرة الأوراق البنكية المزورة، فخاطبهما قائلا:
- مهلا يا صديقي العزيزين؛ لدي بالفعل ورقة بنكية تساوي 4 دورو؛ إنها لكما، لكن اتركا لي ملابسي. وأنتما تعلمان بأن القلعيين سيقتلونكما إذا علما بأنكما قمتما بسرقتي.
ولسوء حظه، فإنه لم يستطع أن يستغيث رغم وجود أحد الدواوير على بعد عشرة أمتار منهم؛ ووجه إليه السافلان ضربة قوية وطلبا منه بسرعة أن يمدهما بالنقود.
فأخرج محمد من جيبه وصلا بريديا لعشرين فرنكا وهو قدر سبق أن أرسله من بلعباس إلى زوجته الوهرانية المشاكسة التي سيطلقها فيما بعد.[6]
وتفحص الزرواليان الورقة مليا، معتقدين بان الأمر يتعلق فعلا بورقة بنكية، ما دامت مطبوعة. وتاهبا للتخلي عن الدرويش بعد أن تسلما الورقة، لكنه توسل إليهما قائلا:
- أرجوكما، ابقيا معي إلى حين وصولي إلى القرية المجاورة. لقد أحسنت إليكما، فلا تتركاني وحيدا في الحقول، لأن القلعيين يمكن أن يسلبوا مني ما لدي.
وفعلا، استجابا لطلبه، فرافقاه لفترة، لكنهما تخليا عنه بعد أن ظهرت المنازل الأولى لدشرة الأربعاء ببني شيگَر؛ خوفا من أن يشي بهما.
وبعودتنا إلى قبيلة أهل سريف، يلاحظ بأنها تتوفر على جبال غير شاهقة، تمتد من الشرق إلى الغرب. وتمر بها ثلاثة أنهار وهي واد اللوكوس الذي تحدثت عنه النصوص القديمة تحت اسم لكسوس Lixus والذي سأتوقف عنده فور وصولنا إلى مصبه بالعرائش.
وهذا النهر مظلل بالأشجار المليئة بالطيور. وعند خروجه من رهونة، يمر النهر بمليانة والصفصاف واللوكوس التي تحمل اسمه. بعد ذلك، ينحرف جنوبا ويصل إلى حدود سطا

---

[6] انظر، المغرب المجهول، مذكور، ص. 140 و 141.
لقد عوض الدرويش زوجته السابقة بأرملة أكبر منه بعشر سنوات وقبيحة بشكل مريع. لكنها معجبة بزوجها الرحالة إلى حد التقديس؛ وهي تتبعه في كل مكان؛ ولهذا السبب لم يطلقها بعد.

التي يظل محاذيا لها إلى حين دخوله أراضي الخلوط بعد أن ينضاف إليه واد زهجوكة؛ وبالزاوية الجنوبية الغربية للقبيلة، ينضاف إليه واد الوسط.

وتقع قبيلة أهل سريف بأجمل المناطق وأكثرها خضرة بغرب وجنوب جبالة. فتلالها مليئة بأشجار الزيتون والبرتقال والصبار والرمان والكروم وأشجار الفواكه الأخرى. ولأنها حظيت بهذا الجمال الطبيعي، فقد سميت "جبل الفواكه".

وقد سبق أن أشرنا إلى استمتاع أهالي هذه المنطقة بخيراتها وأيضا إلى كرمهم؛ وهو ما يؤكده المثل المغربي التالي:

أهل سريف، كرامين الضيف، بالخبز والخريف.

القرى الرئيسية بأهل سريف

- قسم مليانة -

- مليانة، 500 منزل، على واد اللوكوس.

قسم زهجوكة

- زهجوكة، 500 منزل، على واد يحمل نفس الاسم.
- الصفصاف، 800 منزل، وهي مدينة صغيرة، بمسجد جميل، وتوجد منازلها على واد اللوكوس.
- إمامن [الأئمة]، التسمية عربية وأمازيغية، 50 منزلا.
- إغارمن [القلاع]، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب سوق الأربعاء.

قسم اللوكوس

- اللوكوس [هناك جهل بالاسم القديم وهو ليكسوس الذي أخذ الاسم الحالي؛ لذلك فإن الأهالي يعطون معنى لهذه التسمية وهو الأزهار؛ ومبررهم في ذلك، كون النهر يجري في منطقة جميلة، مليئة بأزهار الياسمين والمنثور giroflée والبنفسج والورود]، 500 منزل على الواد الذي يحمل نفس ا لاسم.

قسم بني خالد

- بني خالد، 500 منزل، على واد الوسط.

- بوجداين، 100 منزل.

القوى العسكرية: 8 آلاف من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 56 ألف نسمة.

وتوجد قرى عديدة على ضفاف الأنهار الثلاثة، وخصوصا نهر اللكوس، تصل إلى 30 قرية بالنسبة لكل قسم، بحيث يتراوح عدد منازلها ما بين 100 و 500.

نبذة تاريخية عن أهل سريف

يقول ابن خلدون إن بني زروال كانوا يحتلون جبل سريف، إضافة إلى القبائل الصنهاجية الأخرى وهي فشتالة، مشتى، بني ورياگل بني معن الخ.. ونقرأ في الجدول الجغرافي لدوسلان، ما يلي: "سريف جبل بالريف المغربي، بين القصر الكبير وبلاد غمارة".

[تاريخ البربر، الجزء الأول، ص LXXVIII من الترجمة الفرنسية].

ويقترح تيسو Tissot تحديد موقع مستعمرة Augusta baba التي تدعى Julia campestris، على الليكسوس [واد اللوكوس]؛ أي على بعد 12 أو 15 ميل شرق القصر الكبير Oppidum Novum؛ وسيضيف قائلا: "وتوجد على الأرجح بسريف، وهي النقطة التي تمر فيها الطريق المباشرة بين طنجة ووزان عبر اللوكوس".

. [Tissot, Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, Pages 166 et 167]

قبيلة سـطـــــــا

بعد مغادرته لأهل سريف دخل الدرويش إلى أراضي سطا وهي قبيلة مجاورة للأولى وتشبهها كثيرا فيما يخص طبيعتها الخلابة وما تتوفر عليه من أشجار الفاكهة؛ وهي تتميز بمساحتها الشاسعة، النصف سهلية والنصف منحدرة وتتداخل في الجنوب مع الأراضي المنخفضة لدائرة فاس وإن كانت تتميز عنها بحقول الشعير التي تتوسطها بساتين الخضر والفواكه.

- مسار "الحمار" بالشمال:

إن "الحمار" عبارة عن قافلة محروسة باستمرار من طرف عساكر المخزن. وتقطع هذه القافلة المسافة بين طنجة وفاس؛ حيث تنطلق من طنجة وتتبع الطريق "الملكية" أو لنقل ببساطة، الطريق القديمة الرابطة بين طنجيس القديمة ومدينة مولاي إدريس.

ففي اليوم الأول، تجتاز أراضي الفحاص والغربية و تقضي الليل بالقصر الكبير بقبيلة الخلوط. وتتوقف أحيانا بوزان؛ ورغم أن بعض القوافل تذهب إلى قبيلة الغرب الكبيرة بدائرة فاس، إلا أن وزان تظل في الغالب هي أول محطة وقوف. ومن وزان يتوجه "الحمار" إلى قبيلة الغرب، ثم يمر عبر أولاد عيسى وأولاد جامع ويصل في الأخير إلى فاس بعد خمسة أيام من المشي.

ومن طنجة إلى تطوان، يتم المرور عبر قبيلة الفحاص والتوقف بواد بوصفيحة. أما من العرائش إلى فاس فتحدد المراحل كما يلي:

1) قضاء الليل بالقصر الكبير.

2) المبيت بقبيلة الغرب.

3) الوصول إلى فاس عند المساء

ومن فاس إلى وجدة، يتم اجتياز قنطرة سبو والمرور عبر وادي مكناسة الذي يتواجد به نهر إيناون إلى حين بلوغ تازة. ومن تازة تنتقل القافلة إلى مكناسة وتجتاز سهل الفحامة، لتلج بعد ذلك قصبة مسون، ثم تتابع طريقها عبر السهل إلى حين بلوغ قصبة ملوية الموجودة بأحد الوديان؛ ثم تجتاز واد زا وقصبة المخزن وقصبة العيون وأنجاد، قبل الوصول إلى وجدة كآخر محطة.

وتحد سطا جنوبا بدائرة فاس وشرقا ببني مسارة وشمالا وبالشمال الغربي، بقبيلة الخلوط. وأهاليها أناس مسالمون خاضعون لسيطرة المخزن، وقد نسوا من جراء ذلك عاداتهم الحربية وتبنوا السلوكات اللبقة والمؤدبة للمدينيين. وتتشكل ثروتهم الحيوانية من الأغنام والماعز والأبقار؛ اما الجمال فتوجد بالسهول الرملية للخلوط.

وتحظى القبيلة بزيارة الطلبة الأجانب لها، لكن هداوة هم الذين يأتون إليها باستمرار، نظرا لتواجد العديد من الأضرحة التي تذبح بها القرابين؛ وطبعا فإن هؤلاء الطفيليين البشعين ينالون حظهم منها؛ وهم يقضون يومهم في التجوال والسرقة، أو في طبخ الطعام وغليون الكيف مثبت بفمهم؛ أما في الليل، فتراهم يخيطون أسمالهم وهم متحلقون حول النار، مستعملين إبرا كبيرة وخيوطا غليظة. هكذا يضيفون إلى ثيابهم الممزقة، خرقا قديمة من القطن التقطوها من الأرض أو تصدق بها أحد المحسنين عليهم؛ فيصبح رداؤهم متعدد الألوان، ثقيل الوزن، مما يجعل من الجلابة الهداوية، قطعة نادرة قد تثير بائع التحف القديمة.

- كيف يتم السفر في المغرب:

بعد إقامته وسط هداوة لبضعة أيام، قرر الدرويش مغادرتهم عندما سنحت له الفرصة لذلك. فقد التقى بأحد سكان إمزاورو الأغنياء وهو سي عبد السلام المصمودي أحد المولعين بالسفر، الذي استمع إلى حكايات رحالتنا باندهاش كبير. وكان سي عبد السلام محبا للعلم وخصوصا للعلم الجغرافي، و حاول اختبار معلومات الدرويش في مجال الفقه والتشريع والنحو والحساب والطب؛ ثم ناقشه في أمور السفر وعرض عليه المبادئ التالية قائلا:

- هناك ثلاثة انواع من السياحة وهي:

1) السياحة الدنياوية.

2) السياحة الربانية.

3) السياحة الشيطانية.

فالأولى مرتبطة بغرض مادي؛ والثانية مقترنة بالحج والعلم، أما الثالثة فهدفها النهب والتهتك. ويجب أن يكون السائح الجدير بهذا الاسم، قادرا على السفر بمفرده أو مع الجماعة [القافلة]، ولا يخشى النوم في العراء. أما أهم ما يميزالأسفار فهو الصبر والتحمل وشرح له محمد ببساطة، طريقته في السفر قائلا:

- إنني أتجول في المناطق المختلفة لأفيد وأستفيد. فعندما أجد التلاميذ أصبح أستاذا ! وعندما لا أجدهم أصبح تلميذا بدوري. فهل تريد معرفة طريقتي المتبعة في السفر؟

فرد عبد السلام بالإيجاب. عندها قال الدرويش:

- لقد قضيت عدة ليالي نائما فوق الأزبال وبداخل الغابات وعلى الرمال المبللة بالسواحل وبقعر الوديان وعلى قمم الجبال. كما نمت بالمغاور وقضيت الساعات الطوال في ظلام حالك، تارة تحت الأمطار الغزيرة وتارة تحت الثلوج الكثيفة. وفي العديد من المرات، نمت اليوم بكامله، بعد السهرات الطويلة خلال الليل، حيث كنت أتجول وحيدا في أرض الله الواسعة، كذرة تحت النجوم.

ولا أخفي عليك بأنني نمت في الكثير من الأحيان ببيوت المومسات؛ ولكنني لم أ لمسهن أبدا، كي أحافظ على كرامتي. وفي الصباح، لا أرى حرجا في مرافقتهن إلى الشارع والاستماع إلى المعلومات المفيدة التي يقدمنها لي. كما أنني رافقت قطاع الطرق لمراقبة طريقتهم في نهب الناس. من جهة اخرى، فإن أحفاد الرسول (ص) قد استضافوني؛ وكنت أتخذ مثلهم تلك الهيئة الوقورة والمتكبرة بعض الشيء.

وباختصار، فقد تنقلت بين أماكن عديدة، مع الطلبة وبرفقة الجيوش الشريفة، بل إنني أصبحت جنديا في صفوف المخزن وعينت فارسا بالرباط مدة سنة، وقد منحتني الدولة حصانا وبندقية، وكلن ذلك منذ حوالي 16 أو 17 سنة [1880 أو 1881م].

وبدون افتخار، لا بأس بإخبارك بان البربر المتوحشين عينوني قايدا عليهم، لكنهم طردوني بعد مرور بضعة أيام. أما عن مهنة التدريس، فقد اشتغلت معلما في كل مكان، في دائرة فاس والبرابر والريف وأيضا بأقبو وبوجدة عندما كنت شابا.

وتحولت في إحدى المرات إلى هداوي بنواحي العرائش وبقيت على تلك الحالة مدة ستة أشهر بأسمالي الوسخة حاملا معي القدر الذي أطبخ فيه طعامي والكيف و "طابة" لأنني كنت أدخن طوال النهار، مثل باقي الهداويين. وتركت شعري مسترسلا فوق كتفي وبلغت حدا من الاتساخ إلى درجة تخوفت فيها من أن تمتص ا لبراغيث والقمل كل دمائي. بعد ذلك، أصبحت طالبا ثم عدت إلى هداوة، لكن لفترة قصيرة لأن عشرتهم لم تكن مفيدة.

ولأنني أحب الموسيقى فقد حاولت تعلم المندولين، لكن هدفي الأساسي كان هو التعرف على عادات الموسيقيين والعيش على حسابهم.

وهنا سيفتح الدرويش قوسا ليخاطب مؤلف ا لكتاب قائلا:

(- إنك تعرف عقلية المسلمين؛ ولهذا عليك أن تفهم لماذا لم أسرد على المتعصب عبد السلام، اعتناقي المزعوم لليهودية أكثر من عشرين مرة؛ فمن المؤكد أن العقل المتحجر للرجل، ما كان ليقبل مثل هذا الانحطاط، حتى ولو كان الغرض من وراء ذلك معرفيا).

نغلق ا لقوس ونعود إلى حديث الدرويش مع مضيفه والذي جاء فيه:

- ما رويته لك يخص اكتشافاتي داخل المغرب، وقد عبرت أيضا الصحراء، إما بمفردي أو مع القافلة. وقضيت يومين أو ثلاثة دون أكل ولا شرب ودون أن ألتقي أحدا. وشاركت الرحل طعامهم المكون أساسا من الثمر؛ ولم آكل غيره، إلى أن أصبحت نفسي تشمئز منه كلما ذكره لي أحد.

وتبعت القوافل المنطلقة من درعة والساقية الحمراء والمتوجهة إلى ليبيا عبر الطريق الصحراوية، لمعرفة كيف يتم اجتياز الصحراء. وأعترف لك بأن هؤلاء الرجال قد أدهشوني، إنهم ليسوا بشرا، بل هم عفاريت ! ذلك أنهم يتحركون داخل المحيط الرملي الشاسع كما تتحرك الأسماك بداخل المحيط الأطلسي. وهم جريؤون لا يخشون الله ولا الشيطان ولا الحيوانات المتوحشة. ويمكن لواحد منهم أن يواجه 20 مغربيا من مغاربة الداخل.

وقاطع عبد السلام الدرويش ليسأله عن طعام الصحراويين، فأجابه محمد:

- الثمر والحليب والروب.

- وما هو الروب؟

- إنه هلام الثمر الذي يتم الحصول عليه بعد أن تغلى الفاكهة ويسكب عليها العسل. ونحن في الحقيقة، نبالغ حينما نقول إن الصحراويين يتناولون الثمر فقط، فهم يأكلون أيضا لحم الغزال اللذيذ والتيس والجمل وأيضا لحم "الضب" المعروف بسحلية النخيل.

وسأله الجبلي مرة أخرى:

- هل زرت بلاد النصارى؟

فرد عليه الرحالة:

- لقد زرت الجزائر !

قل لي هل تسافر مشيا على الأقدام؟

- دائما تقريبا؛ لكنني عبرت الصحراء على ظهر الجمل، وقطعت مئات الكيلومترات راكبا "الماشينة" [القطار] وعربات النصارى؛ وأبحرت بواسطة المراكب البخارية والشراعية والقوارب. لكن لا شيء يعوض قدمي ! فبفضلهما تجولت في جميع مناطق المغرب وفي جزء كبير من الجزائر.

واندهش عبد السلام من كلام الدرويش وظل يحملق في هذا الرحالة الضعيف البنية، متسائلا كيف يمكن لهذا الجسد النحيل أن يتوفر على هذه الإرادة العظيمة؛ في حين يظل هو، صاحب البنية القوية، مستلقيا طوال اليوم فوق حصيرته الجبلية. وشعر بتفاهته في هذا العالم، ما دام ينتمي إلى جيش الكسالى. وأدرك بأن حجه إلى مكة وزيارته للقدس منذ سنتين لا يضاهيان تجوال الدرويش. ففي آخر المطاف، ما الذي جناه من زيارة مقام مؤسسين لديانتين، مازال المنتسبون إليهما، يقتتلون فيما بينهم؟

عند ذلك، أخرج من جيبه هدية [صدقة] وقدمها بتواضع للدرويش هامسا:

- أيتها الصدقة المباركة، أنت العذر الوحيد لسلوك لم يجد نفعا.

القرى الرئيسية بسطا

[تحويل لكلمة تاسطا الأمازيغية وتعني الشجرة]

- أمزاورو، 500 منزل، على واد يحمل نفس الاسم.

- القلعة، 100 منزل.

- القوى العسكرية: 2400 من المشاة ومن ضمنهم بعض الفرسان، العدد المحتمل للسكان: 16800 نسمة.

وتشتمل القبيلة على خمسة أقسام وهي: بني امحمد بوربوع والقلعة بالشمال حيث يوجد جبل سطا؛ الحوز، ربوع الواد وأمزاورو.

وبها غديران وهما: واد سطا وواد أمزاورو؛ وحوالي 40 قرية غير معروفة.

قبيلة الخلـــــوط

وهي منطقة شاسعة ومنخفضة، ذات أرض صخرية وكتبان رملية، تختفي أحيانا لتحل محلها حقول القمح والشعير. ويبدو لأول وهلة وكأن الخلوط لا تندرج ضمن المناطق المنحدرة لجبالة. وهنا يمكن للجغرافي المحترف أن يلاحظ ما يلي:

- معلوم أن لفظ "جبالة" يقترن بالجبل، وأنت تتحدث الآن عن أرض مستوية مثل الطاولة الممسوحة !

هذا بخصوص الجغرافيا الطبيعية؛ وبإمكانه أن يضيف:

- يبدو أن إثنوغرافيا هذه المنطقة، قد ألغت أغلب ساكنة الخلوط من المجموعة الجبلية، لأنهم خليط من الأعراق، وعلى رأسهم العرب وأمازيغ الريف. إن هذه الاعتراضات مقبولة، لكن الدرويش والمغاربة الآخرين، يؤكدون بأنه على الرغم من أراضيها المنبسطة، فإن الخلوط لا يمكن أن تقتطع من دائرة جبالة. فهي جبلية منذ قرون وستظل كذلك، إلى أن يأتي اليوم الذي يقوم فيه المتخصصون في التقطيع الترابي بالقوة، بإقرار العكس. إن الخلوط القريبة من قبيلة الغرب [دائرة فاس] والتي تشبهها في الكثير من الجوانب، لها رحلها وخيامها وأكواخها وثروتها من الماشية المكونة أساسا من الأغنام والجمال. ولها فرسانها البالغ عددهم حوالي 800 من الرجال الأشداء، حفدة المغاربة القساة الذين هشموا سنة 1830، رؤوس البحارة النمساويين بمناجلهم. وإذا ما فكرتم يوما في البحث عن أصول الخلوطيين، فإنكم، ستجدون بأن مسيرتهم مكتوبة بحروف دموية في تاريخ المغرب المجهول.

وتشبه هذه المنطقة أهاليها، فهي عبارة عن سهل عار بدون أشجار. وفوق هذه المساحة الممتدة البالغة حوالي 40 كيلومترا، لا يرى المرء سوى الخيام المعزولة أو المتجمعة بالدواوير؛ والأكواخ والمساكن الوضيعة التي يغادرها عند الغسق، جيش من قطاع الطرق. أما أهالي القبيلة فهم خليط من الزنوج الذين مازالوا عبيدا أو الذين تحرروا بطريقة لا نعرفها؛ ومن الريفيين الذين جاؤوا للعمل أو تم توطينهم من طرف السلاطين بغرض إعادة إعمار المدن الساحلية التي خربتها الجيوش النصرانية؛ ومن البرابر، وهم كالفراشات المتهورة التي عرضت أجنحتها للاحتراق تحت شمس المدن البحرية؛ ومن العرب الذين

يشكلون أغلبية سكان الخلوط وهم رحل وقطاع طرق وسفلة. وهناك أيضا اليهود الذين يشبهون العناكب السوداء وهم مسجونون داخل متاجرهم بالقصر الكبير والعرائش.
ولا تظنون بأن حضور جيوش السلطان هو ضمانة للأمن والاستقرار بهذه القبيلة؛ بل عليكم أن تتصوروا منطقة يتواطأ فيها رجال الأمن مع قطاع الطرق لنهب الممتلكات وسرقة المسافرين. فليالي الخلوط مرعبة، بحيث تتحرك "الأشباح" عبر الحقول لسرقة القمح من المخازن ولترهيب السكان بطلقات البنادق. وعندما يعود عسكري إلى الثكنة محمولا على ظهر بغلة وهو جثة هامدة، فإن السلطة العسكرية ستعرف مسبقا بأنه لقي حتفه أثناء محاولة للسرقة أو الاغتصاب؛ ولن تكلف نفسها بالتالي، عناء القيام بتحقيق ما. هكذا، يوارى الميت التراب وكأنه توفي بسبب الجوع أو الثمالة المفرطة. وخلال التواجد الأخير للدرويش بقبيلة الخلوط، كان يحكمها قايد اسمه الخلخالي. وكان هذا الطاغية الحقير يمارس سلطته على القرويين فقط، لأن القصر الكبير والعرائش كانتا خاضعتين لسلطة العامل.

مدينة القصر الكبير

إليكم في البداية، هذه الوثيقة الرسمية الهامة التي أنقلها دون تغيير:

القصر

"ترتبط هذه ا لمدينة بمينائي العرائش وطنجة، وتقع في الطريق المؤدية إلى فاس. وساكنتها فقيرة، لأنها لا تتوفر على مواد كثيرة، كما أن تجارتها ضعيفة. ومع ذلك، توجد بها العديد من البضائع الاستهلاكية مثل الأثواب القطنية والشاي والشموع المستوردة من أنجلترا، والأجواخ الألمانية والسكر. وكانت هذه المادة الأخيرة تستورد حصريا من فرنسا، لكن معامل السكر بألمانيا وبلجيكا أصبحت تنافس المصانع الفرنسية. وتستورد أثواب الحرير من فرنسا أيضا، وهنا يواجه صناعنا كذلك، منافسة شديدة من طرف الألمان الذين تعتبر منتوجاتهم أقل جودة، لكن أبخس ثمنا.
وللإشارة، فإن العديد من ممثلي الشركات الألمانية المتوجهين إلى فاس، يتوقفون بالقصر، للقيام ببعض العمليات التجارية في حين لا يظهر التجار الفرنسيون أبدا بهذه المدينة".[1]

---

[1] Annexe au Moniteur officiel du commerce, 26 mars 1896, Le commerce du Maroc, n° 339.

إن قراءة التقارير التجارية لعملاء فرنسا الدبلوماسيين والقنصليين تكون مؤلمة أحيانا، لكنها مفيدة دوما. فأرشيفات المراكز التجارية تظل راهنة؛ وليس هناك من يضاهيها في وصف حالة الشعوب.

ويجب الإقرار من هذا المنظور، بأن مدينة القصر الكبير، ليست كبيرة كما يعلنه اسمها. فهي تشمل حوالي 1000 من المساكن، يوجد خمسها بالملاح. ويجتازها نهر كبير وهو واد اللكوس، حيث يجري غير بعيد نحو الشرق. ويتم قطعه بالقوارب في العرائش، أما هنا، فرغم قوة منسوب مياهه، إلا أنه من الممكن اجتيازه مشيا guéable في بعض الأماكن. وخارج الأسوار التي تبدو مهدمة، يوجد السوق الأسبوعي. لكن داخل القصر، هناك العديد من الأسواق القارة مثل سوق الحبوب وسوق الفحم والفواكه والبقالة والإسكافيين والمبيطرين والصاغة والعطارين والفرائين pelletiers والدباغين والكتبيين ومجلدي الكتب.

ولكل مهنة مكانها المخصص لها. وتوجد أيضا مقاهي ومطاعم شعبية gargotes عديدة. وأزقة المدينة ضيقة ووسخة وموحلة بشكل كبير خلال فصل الشتاء. وبخصوص المآثر الدينية، هناك عشرات المساجد والزوايا؛ ومن أشهرها زاوية سيدي عبد الرحمن المجذوب وزاوية سيدي علي بوغانم. وهذا الأخير هو سيد القصر الكبير، لكنه مدفون بفاس؛ أما الأول فمدفون بمكناسة الزيتون.

وتوجد بالقصر أعداد هائلة من اللقالق التي تضع أعشاشها فوق صوامع المساجد وعلى سطوح المنازل، وتقتات من الضفادع والأفاعي الكثيرة المتواجدة بالمستنقعات.

وسكان المدينة هم خليط من العرب والجبليين والريفيين؛ وهم عمال مياومون يحلون مشكلة السكن والكراء، ببناء أكواخ حول المدينة، تستخدم للنوم ولطبخ الطعام؛ ويعيش بها من 10 إلى 12 فردا؛ وتحرس طوال اليوم، من طرف الشخص المكلف بطبخ الوجبة اليومية.

أما الأجانب العابرون، فبإمكانهم أن يجدوا مأوى باحد الفنادق أو بإحدى الزوايا المفتوحة دائما في وجه البؤساء. ويمكن المبيت أيضا في الحمامات الثلاثة بالمدينة، مقابل 5 سنتيمات، بما فيها شرب الشاي.

ويمثل السلطة قايدان، أحدهما يحكم المدينة والثاني يترأس جيوش السلطان. أما عملاء فرنسا وانجلترا وألمانيا القنصليون، فهم مسلمون وليس لهم أي نفوذ طبعا.

والآن لنعرج على ملاح اليهود؛ فهو كبير جدا لكنه متسخ بشكل مفرط، بإسكافييه وباعته المتجولين وصانعي القدور وخياطيه وتجار الأثواب وبقاليه. إن يهودي القصر لا يشعر بالخوف مثل إخوانه بالشاون، لأنه يوجد ببلاد المخزن. وما يميزه عن المسلمين، هو لباسه الأسود وخصلات شعره المتدلية على وجنتيه؛ وبالنسبة للباقي، فهو يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلم تقريبا، ويدافع عن حقوقه أمام القايد بحجج معدنية [نقدية] ! ويؤكد الدرويش بأن اليهوديات لسن كلهن محصنات. ورغم أنهن لا يبلغن درجة تهتك أخواتهن بالمدن البحرية بالمغرب، إلا أن الكثيرات لا يجدن أي حرج في ربط علاقات حميمية مع المسلمين. بالمقابل، فإن البدويات المسلمات يعتبرن مجرد مغازلة اليهودي لهن، عملا نجسا.

ومما لا جدال فيه، أن الولي الأكثر تشريفا بالقصر هو سيدي عبد الرحمن المجدوب الذي نسجت حوله العديد من الروايات بأروبا. وسنرى ما يمكن استخلاصه من أسطورته فيما بعد. فباستثناء تاريخ وفاته[2] هناك نتائج قليلة من الناحية التاريخية، وكثيرة من الناحية السيكولوجية.

---

[2] قدم لنا كتاب الاستقصا، الاسم الحقيقي للمجذوب المغربي الشهير والفترة التي عاش فيها والتي نجهلها في أروبا. وقد أخطأ دو كاستري:

M. de Castries, Gnomes de Sidi Abderhaman El Mejdoub, Paris, 1896, in 12

عندما حدد تاريخ وفاة بطله سنة 1085 هـ، حيث أضاف أكثر من قرن على هذا التاريخ. ومن جهته، أكد روني باسي:

R. Basset, Compte rendu de l’ouvrage de M. de Castries, revue de l’histoire des religions, Paris 1896,

على خطأ هذا الكاتب واقترح تحديد فترة وجود المجذوب في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، وهو ا لاقتراح الذي ساعدني على اكتشاف الحقيقة. وإليكم ما وجدته بالاستقصا، بخصوص وفاة المجذوب:

"في ليلة عيد الأضحى من سنة 976 هجرية، توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجي الفرجي الدكالي المعروف باسم "المجذوب"؛ وهو ولي صالح مدفون بمكناسة الزيتون. وكان أجداده يقطنون بمدينة تيط قرب أزمور؛ لكنه هاجر رفقة أبيه إلى مكناسة حيث توفي هناك".

[الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 41 و 42]

إن تاريخ 10 ذي الحجة من سنة 976هـ، هو تاريخ وفاة المجذوب، يوافق 26 ماي من سنة 1569م. وقد لاحظت مرة أخرى، كيف أن الدرويش لم يكن مخطئا حينما قال إن سيدي عبد الرحمن المجذوب مدفون بمكناسة الزيتون. أما بخصوص اسم هذه البلدة، فإنني أحتفظ بتسمية كل من الأهالي والدرويش لها.

كيف أصبح سيدي عبد الرحمن مجذوبا؟

تقع أحداث القصة بالقصر الكبير، وككل حكاية خرافية فهي قابلة للشك؛ وسأقدمها كما رويت لي، مع الإشارة إلى أن المسلمين المغاربة يصدقونها تماما.

كان فيما مضى بالقصر طفل شقي ومشاغب، اضطر أبواه إلى إرساله إلى المدرسة للتخلص من شقاوته. وكان اسم هذا "الناقص" عبد الرحمن. ولم يكن معلم المدرسة يهتم بتلامذته منذ أن قرأ يوما في أحد الكتب بأنه قد يصبح مجذوبا إلى الأبد، إذا ما أكل لحم أحد حيوانات الحقول. ومنذ ذلك اليوم، ظل يقضي أوقاته في الحقول بحثا عن الحيوان الثمين. في حين كان التلاميذ يلعبون ويتعاركون فيما بينهم بالمدرسة. وكان عبد الرحمن أكثرهم عنفاوإزعاجا. وذات صباح، عاد المعلم الذي لم يخبر أي أحد بسره، حاملا معه الحيوان المنشود. وبعد أن سلخه، وضعه في القدر على النار، أمام أعين تلاميذه.

وتساءل عبد الرحمن الذي ملأت ر ائحة الطعام خياشيمه، عما إذا كان المعلم سيغيب لفترة، حتى يتمكن من سرقة قطعة من اللحم. وفي تلك اللحظة بالذات، شعر بالغبطة عندما رأى معلمه يغادر غرفة الدرس وهو يتلوى من آلام البطن. وقفز الطفل المشاغب جهة القدر وأزال غطاءه، فتطايرت قطعة من اللحم بحجم الجوزة وسقطت بالقرب من السارق. فارتعب هذا الأخير والتقطها ثم أعادها إلى القدر. لكنها تطايرت من جديد؛ وتكرر هذا الأمر عشرات المرات. وفي الأخير، قرر عبد الرحمن ابتلاع القطعة، خوفا من رجوع معلمه؛ وما أن أكلها حتى شعر بانتشاء. هكذا، انفتحت أمامه أبواب السماء وتمكن من رؤية "اللوح المحفوظ" الذي سجلت فيه أفعال البشر. ولم ينتبه المجذوب وهو في تلك الحالة إلى قدوم المعلم الذي ظل يهزه ويصيح:

- يا الناقص، ألن تكف عن النظر إلى السماء؟ هل أنت مجذوب أم مجنون؟

وأجابه الطفل وكأنه في حلم:

- المجذوب هو أنا والمجنون هو أنت. وقد كان مقدرا أن تجد الحيوان وتطبخه؛ وكان مقدرا أيضا أن آكل قطعة اللحم التي تجعل المرء مجذوبا إلى الأبد.

وكانت تلك هي آخر الكلمات العادية للفتى. ومنذ تلك اللحظة لن تصدر عنه سوى الحكم والتنبؤات؛ وستصيب سهام سخريته اللاذعة المدن والشعوب، كما سيتجول بجسده في كل

ربوع المغرب، لكن روحه ستظل معلقة بالأعالي، غير عابئة بالآلم الجسدية والمعنوية للمجذوب الأرضي الذي ينتظر انتهاء أجله كي يقيم نهائيا في عالم الأولياء والصالحين.

على مستوى آخر، سيقر تيسو Tissot [3] الذي تعرف على مدينة القصر الكبير بشكل أفضل من دو فوكو C. de Foucauld [4]، بان الجزء الأكبر من هذه المدينة شيد بمواد قديمة.

وبأحد الأسس الموجودة بصومعة الجامع الكبير، نقل سنة 1871 هذا النص الناقص الذي هو عبارة عن نقش على شاهد قبري:

IMOC. NEOC. ΛOC TOY. NOMAEYPIHΔ. TPI ENOAΔ EKEIMAIO ………PO NWIWBIW .TTA……NC ΛΛEZΛNDPO ETWN . KB

وقد ترجم ميلر[5] Miller الشاهد القبري كما يلي:

"[...] اسم أبي هو يوربيدوس. وقد دفنت هنا بعد أن عشت هنا. الإسكندر المتوفى عن سن تناهز الثانية والعشرين".

مدينة العرائش

زارها ووصفها العديد من الأروبيين؛ وهي مفتوحة أمام الجميع، برا وبحرا. أما من جهتنا فسنتبع كالمعتاد، خطوات مرشدنا.

إن سكان القصر غالبا ما يتوجهون إلى العرائش لقضاء أغراضهم. وهم يصلون إلى هذا الميناء البحري بعد نصف يوم من المشي، حيث يقومون بعمليات البيع والشراء؛ وفي الغد،

---

[3] Voir, Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, p. 162 et suiv .

[4] C. de Foucauld, Reconnaissance au Maroc, pages 14 et 15.

[5] E. Miller, Mélanges de Philol. Et d'épig., 1ère partie, p. 123/128, Paris, in-8, 1876.

يرجعون إلى ديارهم. وتوجد العرائش على شاطئ المحيط الأطلسي بمصب النهر القادم من الخلوط وهو واد اللوكوس.[6]

ومساحة المدينة قريبة من مساحة القصر، وهي مبنية على كثبان رملية، بحيث تبدو منفصلة عن البر وكأنها جزيرة؛ لذلك فهي تشبه الصويرة كثيرا. وتوجد أربعة أبواب بالسور المحيط بها وهي:

1) باب المرسى بالشرق؛ وتطل على النهر.

2) باب البحر؛ وتطل على المحيط .

3) باب الخميس؛ وهي كثيرة الحركة وتنفتح على بادية الخلوط.

4) باب القصبة؛ وتتميز بصغرها؛ وهي منفتحة على القلعة التي بناها الإسبان.

ومن باب المرسى إلى باب الخميس يوحد شارع كبير بمحاذاة الشاطئ وهو مليء بالمتاجر. وبطرف المدينة توجد حامية المخزن بالقرب من قبيلة الساحل.

ولا نعثر بغرب المدينة إلا على الأهالي المسلمين، أما بنواحي باب البحر وباب المرسى فهناك بعض النصارى وملاح اليهود. والملاحظ أن متاجر الأروبيين، الواقعة خارج الأسوار قرب النهر، تقوم بعمليات تجارية هامة مع القوافل العربية، تهم بالأساس، الحبوب والصوف. لكن عدد التجار الأجانب قليل جدا، ويوجد من ضمنهم الإنجليز والألمان والإسبان والفرنسيون والأمريكيون والسويسريون والبلجيكيون [ويسميهم الأهالي "بزريگو] والسويديون والنمساويون. فهؤلاء السادة يمتلكون المخازن ويشترون المنازل من المخزن ولديهم أراضي بضواحي العرائش وأغلبهم من الإنجليز والإسبان.

من جهة أخرى، فإن اليهود لا يقطنون بالملاح فقط، بل يسمح لهم بالسكن وسط العرب، مع استثناء يهم القصبة وحي القبيبات. وقد أحرز العديد من الإسرائليين على حماية القوى النصرانية، من أجل تفادي مضايقات المسلمين لهم، وليس كما يعتقد بعض الأروبيين عن خطأ، حبا في أتباع عيسى.

---

[6] كل الكتاب، باستثناء الإدريسي [انظر النص العربي، ص. 169] ينقلون اسم هذا النهر بشكل خاطئ. وقد اندهشت من كون تيسو نفسه، المعروف بدقته، كتبه تارة Loukkos وتارة Lekkos. أنظر اعماله الرائعة حول المغرب وتحديدا:

- Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, et aussi, Itinéraire de Tanger à Rabat, dans le Bulletin de la société de Géographie de Paris, septembre, 1876.

- الإنجليزي واليهودي:

في أحد الأيام، كان الدرويش بمتجر يهودي من أصدقائه، فرأى نصرانيا قادما، تدل ملامحه وحركاته على غضبه الشديد. وكان اليهودي الماكر محميا من طرف بريطانيا العظمى ويتقن الحديث باللغات العربية والإسبانية والإنجليزية. وبدأ الحوار بينه وبين النصراني بهذه اللغة الأخيرة. ولأن الدرويش لم يفهم ما دار بينهما، فقد طلب من العبراني بأن يشرح له ما قاله الرومي. فأوضح اليهودي الأمر قائلا:

- لقد طلب مني أن أرافقه إلى الباشا كترجمان؛ لأنه تعارك مع مسلم وجرحه، مما دفع الباشا إلى استصدار أمر بطرده من العرائش، علما بأن تجارته تستدعي بقاءه بالمدينة.

وكان بنفس المكان يهود آخرون، خاطبوا أخاهم في الملة بعربية رديئة، يعلمون بأن الأنجليزي لن يفهمها قائلين:

- اذهب معه، وعندما تقف أمام الباشا، اعمل على إثارة حفيظته ضد هذا النصراني الكلب، لأن هؤلاء النصارى الملاعين منافسون لنا. وإذا كنا قد طلبنا حمايتهم، فلأننا لا نريد أن يزعجنا أحد. ونحن نطلب من الخالق كل يوم، بأن يبيد جميع من ليس عبرانيا " Les gentils"، مسيحيين ومسلمين.

وبالفعل، قرر اليهودي اتباع النصيحة. فقد رافق الإنجليزي عند الباشا. وبعد مرور ساعة، ظهر لوحده مشرق الوجه وقال ساخرا:

- هاد الرومي البحر عليه. لقد قمت بتأليب الحاكم ضده، بحيث لن يبقى هنا ولو شهرا واحدا.

وما أن انتهى من كلامه حتى ظهر الإنجليزي وهو يشير بيديه معبرا عن غضبه من اللقاء. وعلى الفور، تغيرت ملامح اليهودي وتحولت من الفرح إلى الحزن. وحاول تهدئة الرجل مؤكدا بأن كل المغاربة معاندون؛ ودمعت عيناه أثناء الحديث. وعندما رأى دموع التماسيح هاته، تذكر محمد المثل العربي الشهير:

"يحرقوا النوالة ويبكيو مع مولاها".

وإنني أتساءل بالمناسبة، ألم يقرر إخواننا تعلم العربية بعد؟ لأنهم سيتفادون الكثير من الإهانات داخل البلد الذي تنطق فيه هذه اللغة.وليتذكروا المثال الإيطالي Traduttore

traditore [المترجم خائن]. وهذا المثال صحيح، خصوصا في الحالة التي ذكرناها قبل قليل.

وقد حاول نصراني آخر تدهشني غباوته وجرأته، وهو درامون هاي Drumond Hay[7]، وصف المغرب وقبائل الرحل الموجودة به، وهو يعرف بالكاد بعض الكلمات العربية.

وفي إحدى المرات، شاهد بالعرائش عرضا لعيساوة وروى مطولا كيف يتلاعب أتباع "سيدنا عيزر Aïser" ! بالثعابين الخطيرة دون خوف، مضيفا: "يدعو العرب هذا النوع من الثعابين "ألفا" لأن الهيئة التي تتخذها تذكر بشكل الحرف العشرين من الأبجدية العربية [الفاء] !

فما رأي مان دوساسي Mânes de Sacy في ذلك؟ أو ليس ا لخلط بين الأفعى وحرف الفاء وبين عيزر وعيسى، بالإضافة إلى أخطاء فظيعة أخرى لسنا في حاجة إلى ذكرها، دليلا على عدم المسؤولية وعلى جهل المكتشف الأجنبي الذي لم يكلف نفسه، مثل الآخرين أيضا، عناء القيام بالدراسات التي تتطلب ربع قرن من الكد، قبل اقتحام الجحيم المغربي؟

أما الأوروبي الآخر وهو مواطننا ديديي Didier [8] الذي لم يبلغ مستوى هاي Hay، فإنه يثير الضحك عندما يؤكد في مؤلفه "جولة في المغرب"، ص. 227، بان حرف الباء غير موجود في اللغة الريفية القومية.[9] فكيف يمكن للمرء أن يكتب هذه الخزعبلات، عندما يعلم بأنه لا يعلم شيئا؟

وتتوفر العرائش على سوق قار يباع فيه كل شيء، وهو أيضا ملتقى عيساوة والموسيقيين والحكواتيين [الخرافة] ويشتغل هؤلاء الفنانون في الهواء الطلق، بحيث يتحلق حولهم الأهالي من كل الأعمار ويمدونهم بالصدقات، فيتلقون مقابل ذلك، دعوات الخير والبركة.

وهناك أربع زوايا بالمدينة وهي:

1) زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني

2) زاوية سيدي أحمد بناصر.

---

[7] Drumond Hay, le Maroc et ses tribus nomades, trad. De Belloc, Paris, 1844.

[8] Charles Didier, Promenade au Maroc, Paris, 1844, in-8

[9] إن أول كلمة في السطر 11 من الصفحة 169 من مؤلف المغرب المجهول، الجزء الأول، هي Abrour ennes، وهي كلمة أمازيغية أصيلة تؤكد عكس ما أقره ديديي.

3) زاوية عيساوة.

4) الزاوية المصباحية.

وجد هذه الزاوية الأخيرة هو مولاي عبد السلام بن مشيش. وخارج أسوار المدينة، توجد عدة أضرحة ومن بينها ضريح الولية الصالحة للا منانة المصباحية، سيدة العرائش. وقد أحصى الدرويش ثلاث سرايا مدفعية بالمدينة، واحدة جهة البحر والثانية بالقصبة والثالثة خارج الأسوار، جهة الغرب. ورغم أن الحامية الشريفة قليلة العدد وغير منظمة، إلا أنها تطمئن الأهالي الذين مازالوا يتذكرون قصف النصارى لمدينتهم .

- تجارة العرائش سنة 1894:

إن الجمارك المغربية تقتطع نصيبها من دخول وخروج البضائع. وتتمثل المواد المصدرة أساسا في الأصواف والحبوب، لأن العرائش والرباط هما المنفذان الرئيسيان بالنسبة لدائرة فاس؛ في حين أن الدار البيضاء والجديدة هما منفذان لحوز مراكش، مثلما أن الصويرة هي الميناء الكبير لسوس وطنجة هي ميناء جبالة.

والآن لنستمع إلى ما تقوله الوثائق الرسمية.[10]

لا يتوفر ميناء العرائش على موارد كثيرة، لأن تجارته المحلية محدودة؛ لكنه يستخدم لنقل جزء كبير من البضائع المبعوثة إلى فاس ومكناس أو القادمة منها. ويلعب الاستيراد دورا أساسيا هنا، فهو يتزايد سنة بعد أخرى.

هكذا، بلغ حجمه سنة 1894، ما قدره 6886735 فرنك مقابل 6125750 فرنك سنة 1893. وتوجد إنجلترا وفرنسا على رأس قائمة المستوردين بنسبة 49% و 42% تباعا؛ وتأتي بلجيكا في المرتبة الثالثة بنسبة 5% وألمانيا في المرتبة الرابعة بنسبة 2% كما يؤكده الجدول التالي:

[10] Le commerce du Maroc, moniteur officiel du commerce de 26 mars, 1896.

1 -انجلترا	3380420 فرنك
2 -فرنسا	2937445 ف
3 -بلجيكا	376135 ف
4 -ألمانيا	167765 ف
5 -إيطاليا	15400 ف
6 -إسبانيا	9820 ف

والملاحظ أن واردات فرنسا إلى العرائش سنة 1893 تجاوزت واردات إنجلترا بحوالي 400 أ لف فرنك؛ لكن النسبة التي كانت في صالحنا ستصبح معكوسة، فقد عرفت تجارتنا تراجعا بمقدار 255185 فرنك، في حين ازداد حجم تجارة منافسينا بحوالي 648800 فرنك بحيث أن أرقام معاملات السنة الماضية، بلغت الضعف بالنسبة لألمانيا وازدادت أربع مرات بالنسبة لبلجيكا، علما بأن حركة الواردات عرفت تقدما كبيرا؛ وهذه علامة مزعجة. فالخسارة لحقت أساسا سكرنا الذي انخفض إلى 445325 فرنك، غير أن حجم خسارتنا سينخفض، بفضل زيادة مبيعات الحرير التي بلغت 178800 فرنك.

وهذا الانخفاض على مستوى واردات السكر مثير، خصوصا وأن انخفاض هذه المادة بالعرائش لم يتجاوز 141700 فرنك. وهذا معناه أن الطلب ظل قائما؛ وما خسرناه، ربحته بلجيكا التي يعتبر سكرها أبخس ثمنا ويوزع وفق شروط ممتازة.

أما إنجلترا التي تعرف تجارتها تقدما كبيرا، فقد حققت أرباحا على مستوى أثواب القطن [بزيادة 586025 فرنك] والشموع [بزيادة 102285 فرنك]. لكن الخسارة لحقتها في مجال الحديد والصلب وبلغت 101360 فرنك.

وانتقل حجم معاملات بلجيكا من 97920 فرنك إلى 376135 فرنك، بفضل سكرها، كما ارتفع هذا الحجم بالنسبة لألمانيا وانتقل من 86320 فرنك إلى 167765 فرنك.

وبشكل عام، فإن الزيادة شملت بالخصوص، أثمان القطن والأجواخ والحرير والشموع والدقيق، أما التراجع فمس السكر والحديد والبترول. ومن بين المواد التي تم تصديرها أيضا،

نذكر الشاي والأواني المعدنية والزجاجية والخزفية والتوابل والملاءات والكحول والأوراق والعطور وأعواد الثقاب.

ولا تكتسي الصادرات من ميناء العرائش، نفس أهمية الواردات، بل إنها ستعرف سنة 1894، انخفاضا محسوسا، بحيث بلغت 830060 فرنك بدل 1165330 فرنك سنة 1893. فقد بلغ حجم الصادرات إلى فرنسا 490.815 فرنك وإلى إسبانيا 29170 فرنك وإلى ألمانيا 10580 فرنك وإلى بلجيكا 2600 فرنك.

ورغم أن فرنسا لم تعوض خسارتها على مستوى وارداتها، إلا أنها ربحت مع ذلك 69070 فرنك، ويرجع الفضل في ذلك إلى الصوف الذي سمح بزيادة ما قدره 100 ألف فرنك، وما عدا ذلك، لم تطرأ تغييرات كبيرة على حجم المعاملات.

وقد حققت كل من ألمانيا وبلجيكا تقدما ملموسا. وبالمقابل، فإن إنجلترا خسرت ما مقداره 318745 فرنك، بحيث أن القطاني وحدها بما فيها الفول وأيضا الصوف بلغت خسارتها 142695 فرنك؛ وطالت الخسارة كذلك، البرتغال وإسبانيا.

وعلى مستوى السوق، فإن الخسارة مست موادا مثل الفول والبازلاء والثمر، نتيجة الموسم الفلاحي غير الجيد. لأن المنتوجات الفلاحية من قطاني وصوف مخصوصة للتصدير أساسا؛ وقد انخفضت مداخيلها بشكل كبير في سنتي 1892 و 1893؛ في حين عرف رقم معاملات المواد المستوردة ارتفاعا كبيرا. وتوجد بالعرائش مؤسسة تجارية هي مؤسسة العرائشي.

- الملاحة البحرية:

تشير بيانات سنة 1894 إلى دخول 78 سفينة بخارية و 37 سفينة شراعية، تبلغ حمولتها 47499 طنا و 935 برميل؛ وهو ما ينطبق على السفن التي تغادر الميناء. وتأتي فرنسا ب 25 سفينة بخارية حمولتها 16145 طنا بعد انجلترا ب 24 سفينة بخارية و 11 سفينة شراعية حمولتها 17745 طنا و 236 برميلا، تليها إسبانيا ثم ألمانيا.

- حركة ميناء العرائش: [11]

بلغ النشاط التجاري سنة 1886 ما قدره 6566825 فرنك، موزعة كما يلي:

[11] wolfrom et Bianconi, passim .

	الاستيراد	التصدير
أنجلترا	3396825 فرنك	368550 فرنك
فرنسا	730975 ف	509000 ف
البرتغال	3000 ف	1046075 ف
إسبانيا	- -	512400 ف

وبلغ سنة 1887 ما قدره 4287825 موزعة كما يلي:

	الاستيراد	التصدير
أنجلترا	1419625 فرنك	408450 ف
فرنسا	1022250 ف	689950 ف
البرتغال	5250 ف	430350 ف
إسبانيا	- -	312050 ف

وفي سنة 1890 بلغ حجم النشاط التجاري 5386300 فرنك ومن ضمنها 2967950 ف بالنسبة للاستيراد و 2418350 ف بالنسبة للتصدير.

ملخـــص

1889	1887	1890	1893	1894
6566825 ف	4287825 ف	5386300 ف	6125750 ف	6886735 ف

سنة 1894 كانت أنجلترا تحتل المرتبة الأولى بنسبة 49% من مجموع تجارة العرائش؛ وكانت فرنسا تحتل المرتبة الثانية بنسبة 42% ثم بلجيكا بنسبة 5% وأخيرا ألمانيا بنسبة2%.

والملاحظ أن هاتين القوتين اللتين لم تذكرا في جداول سنوات 1886 و 1887 و 1890، بسبب رقم معاملاتهما الضعيف، قد حققتا في سنتي 1893 و 1894، قفزة تجارية هامة، ليس فقط بالعرائش، بل أيضا بالموانئ المغربية الأخرى.

- ضريح مولاي بوسلهام:

بعد أن مل من البطالة والكسل ومن العرائش التي لا يحظى فيها الطلبة بحسن المعاملة كما في البادية. قرر الدرويش مغادرة المدينة، وإن كان لا يعرف الوجهة التي سيقصدها. فهل يتعين عليه الذهاب شمالا أم جنوبا؟ وبالقرب منه، ارتفع صوت اخترق صمت الزقاق الذي بدأت تغيب عنه الشمس. وكان الصوت صادرا عن متسول أعمى، لربما من أولئك اللصوص الذين فقدوا بصرهم بفعل عقاب المنجل الحامي، وطلب هذا الأخير الصدقة من محمد باسم مولاي بوسلهام. فخاطبه الدرويش قائلا:

- يا أخي، لقد أوحيت إلي بفكرة.

وبعد أن تصدق على المسكين بفطيرة من الشعير كان قد احتفظ بها من طعام الفطور، سارع محمد بمغادرة المدينة قائلا:

- ما دمنا في بلد غير آمن، فمن الأفضل السفر ليلا حتى لا نتعرض للنهب. فلنتجه إذن صوب قبيلة الغرب.

وبعد ساعتين من المشي جنوب العرائش، توقف لبضعة دقائق بمكان غير بعيد عن البحر يدعى البحيرة. وأحس برعب شديد لم يدرك له سببا. فقد وجد نفسه وسط كثبان رملية، في ليلة مظلمة لم تستطع النجوم البعيدة إضاءتها. وبدت له الشجيرات والنباتات كأشخاص متربصين له ومستعدين لذبحه. فقرر التمدد على الرمل وغطى رأسه بقلنسوة جلابته، منصتا لصوت الريح والموج. وبعد ساعة من الاستراحة، تشجع قليلا ونهض من مكانه وتابع المشي باتجاه الجنوب. وعند بزوغ الفجر ظهر في الجهة اليسرى، دوار غير بعيد. فأسرع الخطوات نحوه، بعد أن لاحت له مدرسة وسط الخيام المنصوبة. وما أن اقترب منها حتى أوقفه طالب يقال له وكيل المخزن وسأله عن هويته وماذا يريد. وعندما علم بأن الدرويش يحفظ القرآن عن ظهر قلب، رحب به وقدم له فطيرة من القمح وقدحا من الحليب. وما أن تناول طعامه، حتى غادر الدوار متجها صوب الساحل متمنيا بألا يلتقي بأي قاطع طريق. وتابع سيره بالأجراف المطلة على البحر وقد أحاطت به الرمال من كل جانب. وفجأة سمع نعيق غراب كان موجودا فوق صخرة. فتساءل الرحالة وهو يسرع الخطى دون خوف:

- هل ينعق هذا الطائر المنحوس لمجرد النعيق أم أنه يريد نهش لحمي؟
وتصاعد النعيق فوق رأس محمد وظهر سرب من الغربان التي ظلت تحوم حوله وتسير وراءه. فقرر محمد من باب الدعابة، إثارة هذه الطيور. هكذا، تمدد على بطنه وبقي بدون حراك كميت، بعد أن غطى رأسه. وفجأة توقف النعيق وتحلقت الغربان حوله، منتظرة لحظة الانقضاض عليه. وبالفعل فقد شعر بكثلة هائلة فوق جسده وبمخالب تغرز في لحمه وكأن أسدا أو فهدا انقض عليه. وبحركة قوية تمكن من التخلص من غراب ضخم ذي منقار حاد، لربما كان هو قائد السرب.
وما أن وقف الدرويش حتى عاودت الغربان طيرانها فوق رأسه، مثيرة الرعب في أوصاله. وأخيرا فهم بان تلك الطيور الجائعة تريد تمزيقه إربا وتقديم قطع من جسده لصغارها الموجودة فوق الأجراف. وشرع في الجري وقد تملكه الخوف؛ وكان يتوقف أحيانا لإبعاد السرب عنه بإشارات من يده. وظلت الأمور على هذه الحال، إلى أن وصل إلى ضريح مولاي بوسلهام، فخاطبه وهو يضع يده على الباب قائلا:
- يا أيها الولي العظيم، أنا في حماك.
وكان محمد سيقتنع بتدخل الولي الصالح لحمايته، لولا أن الغربان ذهبت من تلقاء نفسها، لربما خوفا من الولي أو من زواره أو من طلبة الدوار القريب منه. هكذا، توجه السرب نحو البحر، دون أن يسمع شتائم الدرويش الذي كاد أن يكون ضحية لها والذي ظل يردد:
- ينعل دين جدكم القران وكال الجيف.
وكان الدوار الموجود بمكان أعلى من موضع الضريح، يشمل حوالي خمس أو ست خيام، حاول الدرويش عبثا طلب الضيافة من أهلها. ذلك أن الرجال والنساء المتجهمين وغير الكرماء، كما هو شأن ساكنة الغرب والخلوط، كانوا يجيبونه بالعبارة التالية:
- القوبع أصغر منك وبيات برا.
وتعب محمد كثيرا بسبب الجوع وما بذله من مجهود، لذلك قرر المبيت فوق سماد الإسطبل الموجود وسط الدوار. ولم يحرك ساكنا طوال الليل، لتفادي عدويين وهما: مصارين بطنه وكلاب الحراسة التي قد تمزقه إربا لو تجرأ واجتاز محيط الخيام خلال الليل.

وفي الصباح، عاد إلى قبر مولاي بوسلهام لفحصه بتأن. وهو عبارة عن ضريح صغير، يتجاوز بالكاد مستوى الرمال التي تحيط به من كل جهة، باستثناء الباب التي حفر بها خندق لتسهيل مرور الزوار. وبالداخل توجد أسوار محيطة بالقبر؛ وغير بعيد عنه، ناحية الشرق، هناك مزارات لأولياء آخرين، تابعين لمولاي بوسلهام.

أما جهة الغرب، فيجري غدير ليصب في مياه المحيط وهو غدير صغير، يصبح عميقا قرب المصب، بحيث يتعين استعمال القوارب لقطعه. ويسمى واد للا ميمونة تاكناوت.[12] وهو اسم الولية الصالحة التي يوجد ضريحها قبالة ضريح مولاي بوسلهام على الضفة الأخرى من الغدير. وقرب للا ميمونة يوجد ضريح سيدي علي الطيار، لأنه كان على ما يبدو، يحلق مثل الطيور !

وشخصية مولاي بوسلهام تثير الحرج من الناحية التاريخية. لكن، لنفحص أولا الرواية المحلية، فلربما قدمت لنا مفتاح السر. ويحكي الطلبة بأن الاسم الحقيقي لهذا الولي هو أبو اليزيد المصري، أما لقب بوسلهام فيرجع إلى اللباس الشرقي [السلهام] الذي كان يرتديه؛ علما بأن العادة المغربية تقتضي ارتداء الجلابة. كان بوسلهام من أصل مصري إذن؛ وقد غادر ضفاف النيل مشيا على الأقدام، مرتديا سلهامه ومتلقيا صدقات المحسنين على طول الساحل المتوسطي؛ وجهته المغرب. ولم يرق له الريف، لذلك توقف بالساحل الأطلسي في المكان الذي يتواجد فيه ضريحه؛ وهناك أقام خلوته للتعبد، إلى أن وافته ا لمنية.

وتقترب هذه الحكاية الشعبية من مقطع وجدته بالصدفة في كتاب الاستقصا [الجزء الأول، الصفحة 84، السطر 18 وما يليه]؛ ومما جاء فيه: "في تلك الفترة [أي سنة 344 هـ، موافق ل 955 و 956 م]، كان يعيش الشيخ أبو سعيد المصري المعروف ببوسلهام. وهو من أكبر صلحاء المغرب ويوجد ضريحه بمشرع الخضر على شاطئ البحر؛ وهو مغطى بقبة منقوشة بشكل بديع ومزينة بقطع خزفية متعددة الألوان. وقد تحدث عنه أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في "ميراث المحاسن" بما يلي: "هناك لوحة مذهبة على قبر الشيخ بوسلهامة كتب عليها: ها هنا توجد ثلاثة قبور، أخفى الله تعالى بينها قبر أبي سعيد المعروف ببوسلهام الذي توفي بعد سنة 340 تقريبا".

---

[12] هل يتعلق الأمر بواد الدرادر الذي تحدث عنه تيسو؟

وأضاف: "ونزل النصارى إلى ذلك المكان ونزعوا اللوحة وأخذوها معهم". وقال أيضا :"ما يزيد على سنة 340 كان مثبتا باللوحة، لكنني نسيته، وهو لا يتعدى رقم 7 والله أعلم".
وحسب هذا النص، فإن بوسلهام سيكون قد توفي سنة 347هـ على أكثر تقدير [957/958م].
بقي علينا أن نعرف الان، هل كان بوسلهامة هو نفس الشخص الذي نتحدث عنه، أي بوسلهام؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو سبب تغيير اسمه.
إن الشعب لا يعرف سوى بوسلهام. ومعلوم أن مؤلف كتاب الاستقصا قد تحدث عن قبر الشيخ بوسلهام، حيث قتل النصارى بالقرب منه احد شهداء الإسلام وهو البطل أبو عبد الله محمد القصري في أواخر القرن السادس عشر الميلادي [الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 156]. فهل بوسلهامة هو نفسه بوسلهام؟ إنني لا أستطيع تأكيد ذلك.
ومن منظور الجغرافيا الطبيعية والمقارنة أكد تيسو بنوع من اليقين، بأن أقصى طرف بمولاي بوسلهام يوجد بموقع المدينة الفينيقية موليلاشا Mulelacha. وأضاف قائلا: "وكانت هذه البلدة في القديم، وإلى حدود القرون الوسطى، من بين أكبر الموانئ بالساحل الموريطاني وأكثرها أمنا".
وبالفعل، فقد تكون هذا الميناء انطلاقا من "المرجة الزرقاء"، وهي بحيرة شاطئية lagune مازال واد الدرادر يصب فيها مياهه إلى اليوم. "وكانت المرجة الزرقاء المتميزة بعمقها، تشكل خليجا من الداخل؛ وبهذا الشكل رسمت بالخرائط". غير أن الرمال تراكمت بالممر الذي يوصل إلى المحيط، في السنين الأخيرة؛ ولم تعد تسمح للسفن بالدخول إلى البحيرة التي أصبحت أكثر عمقا، مما منع القوافل التي تختار الطريق الساحلية، من المرور بمحاذاتها.[13]
وقد وقع خطأ طريف في نقل اسم بوسلهام كما حدث مع روكليس، في مؤلفه حول الجغرافيا الكونية:
[Elisée Reclus, Géographie universelle, tome 11, p. 716] حيث أصبح بوسلهام هو بوسلام، لأن هذا الجغرافي الكبير، خلط بين سلهام وسلام.

[13] Cf. Géographie comparée de la maurétanie tingitane, p. 85 et suiv.

ولربما أعادت الأجيال القادمة لهذه المرجة الزرقا دورها القديم، باعتبارها "من بين أكبر الموانئ بالساحل الموريطاني وأكثرها أمنا".

"إن جرف مولاي بوسلهام يرتفع فوق المحيط بحوالي 76 مترا وينغمس في المصب الخليجي للمرجة الزرقا عبر سلسلة من المنحدرات الكلسية، لينفصل عنه جرف صخري تبرز نتوءاته في البحيرة الشاطئية بالجهة الجنوبية الشرقية.

وفي أقصى هذا المكان المسطح، توجد خرائب شبيهة بالأسوار الجنوبية للوكسوس. وهذه الخرائب الموجودة على مسافة عشر دقائق مشيا من تلة مولاي بوسلهام تمثل على الأرجح، ميناء موليلاشا القديم.

أما المدينة نفسها، فلربما كانت موجودة بقمة التلة وبمنحدراتها الغربية. ولم يبق منها حاليا أي أثر ظاهر، فقد اختفت تحت الرمال التي تطأها أقدام المسلمين الذين يزورون كل سنة، ضريح وليهم المقدس مولاي بوسلهام".[14]

- المخزن والسجون المغربية:

بعد أن اجتاز من جديد الساحل الصخري المغربي، من مصب نهر سبو إلى العرائش، ظهر محمد ذات مساء بكوخ بسيط، عوض المقام برياض هسبريس الرائع. لقد كان يرتدي لباسا عسكريا قديما، منحه إياه باشا غير حازم من فاس، كان يشعر بالملل داخل حاميته التي يتحكم في جنودها. وكان ممثل السلطان هذا، يقضي وقتا طويلا في الاستماع إلى هذا الرحالة المرح والذكي الذي لا علاقة له بالشؤون الحربية، وهو ما يفسر إعفاءه من كل المهام التي يشمئز منها الجنود الأوغاد أنفسهم.

واندمج الدرويش في مجتمع المحاربين الحفاة المتعطشين للمال وللتمجيد والذين يحاصرون باستمرار، مقر إقامة الحاكم. كما قام بملاحظة سلوك هؤلاء الأشخاص ذوي السحنات المخيفة، القساة الجهلة وعديمي الضمير. وكان يتساءل، وهو الإنسان المسالم، المحب للخير وللحرية، لماذا ترعى الشعوب على حسابها هؤلاء المحاربين الذين يتسببون في المجازر الفظيعة.

---

[14] Tissot, ouvrage cité

وكان برنامج الباشا المذكور يعكس تفاهة وجوده. فقد كان يستيقظ في العاشرة صباحا ويستدعي الجنود المتشكين من عدم توصلهم برواتبهم التي استولى عليها الضباط. هكذا، يصيح الشواش:

- اشكون يشكي؟

ويفتحون باب قاعة الانتظار، سائلين الباشا:

- هل ندخل فلانا؟

وحينما يرد الباشا بالإيجاب، يتم دفع أحد الجنود البؤساء للمثول بين يديه، فيفقد توازنه ويتمتم بنوع من الخنوع:

- لقد انزلقت رجلي على الزربية، أنا عبد سيدي.

عندها يخاطبه الباشا قائلا:

- تكلم

وتتوالى شكاوي الجنود إلى أن يتعب الباشا فيعلن كالمعتاد:

- حتى الغدوة.

وبالخارج تتلقى الحشود الواقفة الأوامر التالية للشواش:

- اذهبوا إلى حال سبيلكم، سيسمع سيدنا إلى شكاويكم في يوم آخر. فقد أصيب رأسه بالصداع من جراء هذه الشكاوي؛ هيا تفرقوا واذهبوا أنى شئتم.

بعد ذلك، يخرج الباشا للقيام بجولته المعهودة بالمدينة. وما أن يجتاز عتبة الباب، حتى يقف الحراس ويحيونه بوضع يدهم فوق صدرهم.

لقد كان الباشا حاكما على المدينة وقائدا للحامية العسكرية ومسؤولا عن السجن. فبمجرد حدوث معركة او شبهة ثمالة أو زنى أو غش في الميزان، فإن المصير يكون هو السجن على الفور ! والمكان هو عبارة عن بناية متآكلة يشرف عليها شخص فظ يدعى قايد السجن. ويقوم أربعة او خمسة مخازنية بحراسة مدخل هذه البناية الرهيبة التي تتضمن زنازن كبيرة، يخصص بعضها للسجناء المكبلين والبعض الآخر للسجناء غير المقيدين. وليست هناك أشغال شاقة بالنسبة لهؤلاء أو أولئك.

إن السجناء ينامون ليل نهار ولا يستيقظون إلا لتناول الطعام أو للثرثرة فيما بينهم. ومع ذلك، يوجد بينهم من يصنع سلال الدوم والحلفة ومن يقوم بخياطة الملابس ويطلب مقابلا من رفاق الزنزانة. وينتظر السجناء بفارغ الصبر، زيارة الأقارب والأصدقاء، لأنهم يأتون بالطعام اليومي؛ ذلك أن الحكومة الشريفة لم تهتم أبدا بإطعام سجنائها. أما أولئك الذين ليس لهم أقارب ولا أصدقاء، فإنهم يضطرون إلى التسول أو القيام ببعض الأشغال كالخياطة وصنع السلال كما ذكرنا. ويمر السجانون بهراواتهم وسط المجموعات، متخطين النائمين ومثرثرين مع المستيقظين، حيث يعاملونهم بود، لأنهم كانوا هم أنفسهم مساجين سابقين وأصبحوا تائبين. وقد دفع الفضول بالدرويش إلى الانسلال وسط الزوار بملابسه الرثة. وكان يجلس على الأرض مثلهم، قرب المسجونين الذين كان ينصت إليهم باهتمام. وعادة ما يدور الحديث حول مشاكلهم والظلم الذي لحق بهم. وعند حلول الظلام عاد الزوار من حيث أتوا. وكان الدرويش هو آخر المغادرين، لكن حارس السجن اعتقد بانه من السجناء، فخاطبه قائلا:

- أنت سجين وتريد أن تهرب.

- أنا؟ لا يمكن ! لقد أتيت لزيارة أحد أصدقائي وهو موجود هنا منذ عشر سنوات. أتركني أخرج.

- أعطيني الدليل على أنك لست بسجين.

وقام الحارس بتفتيشه، أملا في العثور على قطعة نقدية. والملاحظ، أن السجون المغربية تخضع لقاعدة عامة نادرا ما تتخللها استثناءات. فكيفما كانت مدة الحبس المقررة، فإن السجين غالبا ما يقضي بقية عمره مسجونا. ولن يطلق سراحه إلا بتوزيع النقود على كل موظفي الإدارة الشريفة، من العامل إلى حارس السجن نفسه الذي يتلقى فرنكين بالنسبة لكل إطلاق سراح. وتدعى هذه "الضريبة" المفروضة إداريا ب "حق السلسلة".

وعادة ما يعامل سجناء الحق العام أو المعتقلون السياسيون بطريقة ألطف من معاملة أسرى الحرب. غير أن السلطان المنصور [القرن الثاني عشر الميلادي] يشكل استثناءا بهذا الخصوص. فهذا العاهل الذي قتل إخوته وأقرباءه، كان رؤوفا تجاه نزلاء السجون. فعندما أصبح سلطانا فتح أبواب السجون بمملكته وأطلق سراح كل السفلة وقطاع الطرق وأيضا

بعض الأبرياء الذين كانوا متواجدين بها. وقد ارتكب خطأ كبيرا، حينما أطلق سراح أسرى معركة الأرك Alarcos وعددهم 24 ألف نصراني، لكي ينال الشهرة بمبادرته تلك. وكان ذلك خطأ سياسي، لن يرتكبه السلاطين الذين جاؤوا بعده؛ لأن العادة في المغرب، تقتضي الحكم على أسرى الحرب إما بالإعدام أو بالأشغال الشاقة مدى الحياة.

- الفظاعات المتبادلة بين المسلمين واليهود المغاربة:

تصوروا مجموعة دينية وعرقية، تعيش معزولة وسط مجموعات دينية وعرقية أخرى وتكره كل شخص لا ينتمي إلى ديانة موسى، كما تسعى إلى استغلال غير اليهود gentils أينما كانوا وكيفما كانت ديانتهم، وسيبرز لكم اليهودي المغربي على حقيقته.

وتصوروا معي الآن، مجموعة دينية وعرقية مغايرة، أقوى من الأولى وأكثر عددا، مكونة من المتعصبين أصحاب العمائم الذين يتهمون كل من لا يدين بالإسلام، بتهمة الكفر؛ ومع ذلك، فهم يتحملون وجود الإسرائيليين ويرغبون في سلبهم أموالهم ومذخراتهم؛ وستجدون صورة المسلم المغربي، مقابل صورة أبناء يعقوب.

ومعلوم أن البلدان المتحضرة حاليا، تدين التعصب العرقي والديني الذي لم يعد متلائما مع العصر؛ فهو من بقايا العهود البائدة. وستنطفئ جذوته تحت الزخات المائية للعلم وللتقدم الفلسفي.

لكن في المغرب، تحيا النعرات العرقية والدينية وتبرز الأحقاد من هذا الجانب أو ذاك. وإذا ما منحتم اليهود نفس الإمكانيات والشروط المتوفرة للمسلمين فإنهم سيمارسون نفس سلوكاتهم تجاه الآخر، أي أنهم سيكونون قساة، بدون شفقة تجاه غير اليهود. وأمام الاتهامات المنتشرة في أروبا ضد اليهود، كشعب طفيلي، يسعى إلى الهيمنة، يجب على الفيلسوف والسوسيولوجي أن ينجزا خطابا مغايرا وهو كالتالي:

- اعملوا على أن يغير اليهودي ديانته، فإذا أصبح نصرانيا، فإنه سيعرف حقيقة النصارى، كاثوليكيين كانوا أم بروتستانتيين؛ وإذا ما أصبح مسلما أو بوذيا، فإنه لن يفرق بين أتباع محمد (ص) وأتباع ساكياموني Çakiamouni. وهذا أفضل حل للمسألة اليهودية في الوقت الراهن.

في بلاد المخزن، يأمر السلطان باشواته بألا يعاملوا التجار الإسرائيليين بعنف، لأنهم تعودوا على إرسال الهدايا إلى البلاط منذ قرون. فاليهودي شبيه بحصالة النقود tire lire التي يتم الرجوع إليها عند الحاجة. وطبعا فهو يطالب بحمايته من المسلمين، مقابل خدماته، ومن النادر ألا يستجيب الموظف الشريف لطلباته، لأن هناك وسيلة هامة لإقناعه وهي القطع النقدية.

اما في بلاد السيبة، فإن الأمر يختلف. ففي هذه المناطق التي لا توجد بها سلطة مخزنية، يتميز أتباع موسى بالوداعة والإستكانة كالعبيد. وأحيانا ما يقوم بعض الأهالي الأفظاظ بالتهكم على يهودي واختبار جرأته. هكذا، يجبر مثلا على مهاجمة متشرد مسلم، وهو أمر لا يصدقه هذا الأخير، خصوصا وهو يرى يهوديا شاحب الوجه، متقدما نحوه، حاملا مسدس وهراوة. وقد عاين محمد مثل هذا المشهد بأجدير [قبيلة بني ورياغل بالريف] سنة 1895. وقد تحول الحادث كما سنرى إلى مأساة. فقبل غروب الشمس كان متسول ريفي يسير بمحاذاة الشاطئ، عندما أبصره مجموعة من الأمازيغيين الذين كانوا يثرثرون مع محمد ومع أحد اليهود. وعند ظهور المتسول، خاطب أحد الريفيين اليهودي بسخرية قائلا:

- إذا كنت رجلا، فهاجم هذا المغربي وانزع عنه ملابسه.

فأجابه اليهودي الذي أراد أن يثبت جرأته:

- اعطني مسدسا وسأقوم بالمهمة.

وبالفعل، قدم له المسدس فاتجه صوب الشحاذ وأمسكه من يده. وفوجئ هذا الأخير في البداية، لكنه تماسك وأحاط اليهودي بذراعه وألقاه أرضا. فنهض الإسارئيلي مرعوبا ولتفادي ضربة أخرى، أطلق رصاصة على الرجل فأرداه قتيلا على الفور. وبعد قيامه بهذا العمل "الجريء" قفل راجعا إلى مكانه. لكن ريفيين آخرين كانوا قد تابعوا المشهد، فطاردوا اليهودي وأمسكوا به غير بعيد عن مجموعته. وفي ظرف عشرين ثانية، انغرست في جسمه عشرات الخناجر، فسقط ميتا دون ان يسعى أي واحد من الأشخاص الذين كانوا يتحدثون معه من قبل إلى نجدته؛ مثلما لم يتحرك أي واحد منهم، عندما قام الإسرائيلي بقتل المتسول الريفي بتلك الطريقة المخزية. وبعد ساعة، أقبل يهود أجدير وأخذوا معهم جثمان القاتل

المقتول وهم صامتون وحزينون، كي يدفن في اليوم الموالي بالمقبرة اليهودية بسناذة.[15] أما المتشرد، فلا يعلم محمد هل تم دفنه أم لا.

وبمدينة تازة، شتم يهودي عربيا من الدهرة، فأمسك به أهالي غياثة الذين كانوا متواجدين بعين المكان وجروه إلى وسط السوق. وهناك، جردوه من كل ملابسه وانهالوا عليه ضربا بالهراوات، بحيث لم يسلم أي جزء من جسده. وبينما كان البئيس يصرخ من الألم، كان إخوانه في الدين يتابعون هذا المشهد الوحشي دون حركة؛ ولم يتوقف الضرب إلا بعد أن سقط الرجل جثة هامدة.

وبصفرو، حدث أن تشاجر يهودي مع مسلم وجرحه بطلقة من بندقيته. فقام المسلمون الحاضرون برجمه إلى أن دفن جسمه تحت وابل من الحجارة التي ستوضع فوقها الأزبال. لكن بعد يومين، انبعثت رائحة كريهة من مكان الرجم، فأمر قايد المدينة الجالية اليهودية بدفن الميت على وجه السرعة. وكانت العائلات اليهودية قد تحصنت بمنازلها مخافة تعرضها للاعتداء. لكن أمر القايد، أجبر خمسة إلى ستة يهود، على حمل جثمان الميت إلى المقبرة؛ ولم يسلموا هم أيضل من الرجم. ذلك أن أمازيغ آيت اليوسي، غير الخاضعين للسلطان، لم يكتفوا بموت يهودي واحد وأرادوا القضاء على الأشخاص الذين كلفوا بدفنه أيضا.

وفي ليلة 15 يناير 1880، أحرق يهودي حيا بفاس، من طرف حشد من المسلمين الذين ادعوا بأنه طعن بخنجره شريفا مغربيا، فأرداه قتيلا.[16]

وقد تحدث أوسكار لانز Oskar Lenz عن امرأة مغربية مسلمة كانت تربطها باليهودي علاقات مادية وعاطفية. وكيفما كان الحال، فقد تبين بأن الشريف قتل على يد العبراني. وعلى الفور، هاجمت جماعة من المسلمين الملاح وتم إلقاء القبض على القاتل وأشبع ضربا، ثم ألقي به وسط نار حامية أشعلت بساحة عمومية، أمام حشد هائج. لكن المغاربة المسلمين لم

---

[15] انظر المغرب المجهول، مذكور ص. 95 وتحديدا المقبرة اليهودية بسناذة.

[16] يقدم أوسكار لانز رواية مغايرة حول هذا الحدث المأساوي. ومعلوم أن هذا العالم والرحالة الجريئ والدقيق، لم يكن للأسف يعرف العربية [وتكرر نفس الحكاية !]. انظر عمله الرائع:

Tombouctou, Voyage au Maroc, tr. Lehaut Court, Paris 1886, in-8, 2 vol.

وخصوصا قصة اليهودي الذي أحرق حيا، المجلد الأول، ص. 161 و 162.

يهدؤوا مع ذلك، فالقصاص لم يكن كافيا. هكذا، وبعد شهر من الحادث، هيأ اليهود موكبا للطواف بالمدينة، احتفاء بحاخام من سوريا، أتى لجمع التبرعات من المغرب. وقبل الحاخام التجول بأزقة فاس، بعد أن لقي التكريم بالملاح. وبذلك، تحرك موكب الإسرائيليين الراكبين على ظهور الحمير والبغال، لأنه يمنع عليهم ركوب الجياد. وكان الحاخام يشعر بنشوة النصر على أرض الإسلام، وهو على ظهر بغلته، عندما اعترض مسلم يضع عمامة خضراء على رأسه، طريق الموكب وتقدم دون ان تبدو على ملامحه آثار الغضب أو الاحتقار، وسأل يهوديا عن هوية الشخصية التي يحتفى بها، فأجابه:

- إنه رجل عظيم، وهو قوي وشهم ويخشاه كل النصارى الكلاب، ونحن نعتبره كشريف أو كولي من أولياء الله.

وعلق المسلم قائلا:

- إنني أريد التبرك به، فهل يمكنني تقبيل يده؟

وكان الطلب مثيرا للاستغراب، إذ كيف يعقل أن يقبل مسلم يد إسرائيلي؟

وعندها صاح اليهودي بنوع من الافتخار:

- دعوا سيدي الشريف يمر، فهو يريد أن يقبل يد حاخامنا.

وتوقف الموكب، حيث بدا المشهد غريبا. فبين صفين من الأشخاص ذوي اللحي الطويلة والأنوف المعقوفة، تقدم أحد ممثلي الشرفاء المغاربة مشيا على الأقدام ويده على صدره وقامته شبه منحية أمام الحاخام العظيم؛ وركع أمامه قائلا:

- خليني نسلم على يديك.

وأحس الحاخام بشفتي الشريف فوق يده فتملكته الغبطة. بعد ذلك، خاطبه المسلم قائلا:

- عندي ما نقول لك.

وأمام النظرات الحانقة والمندهشة للمسلمين والنظرات الحنونة لليهود، انحنى الحاخام لسماع ما سيقوله الشريف. وفي تلك اللحظة طعنه هذا الأخير بخنجر ريفي طويل، في صدره. وسل سلاحه وخرج وسط الموكب وهو يتلو الآية القرآنية: "لتجدن أشد عداوة للذين آمنوا اليهود". [سورة المائدة، الآية 84].

وحمل اليهود جثمان الحاخام إلى باب قصر السلطان وهم في حالة يرثى لها. وبدؤوا يصرخون وينوحون، إلى أن بلغ ضجيجهم مسامع السلطان الذي كان يستريح فوق ديوان مهدى من طرف أحد أصدقائه الأروبيين فصاح:

- ما هاذا؟

فأجابه رئيس الحرس:

- إنه حشد من اليهود يا مولاي، يقفون بباب قصرك المصان ويقولون إن الحاخام الأكبر قتل على يد شريف، وهم يطالبون بإقرار العدل في هذه القضية.

فأمر السلطان بإدخالهم إلى ساحة المشور. وتحرك بنفسه تحت مظلته التي يرفعها رئيس العبيد، على علو متر فوق رأسه. وما أن وطأت قدماه المشور حتى انحنت جباه اليهود واصطدمت بالأرضية الرخامية. وبإشارة من السلطان، تكلف حاجبان بتقديم ممثل الجالية اليهودية بالملاح؛ وهو رجل سمين بلحية "توراتية". ولم يكلف العاهل نفسه عناء النظر إليه فبالأحرى مخاطبته، واكتفى برفع يده اليمنى ببطء؛ فصاح أحد حراسه:

- صاحب الجلالة السلطان، سيدنا ومولانا، يأمرك ويسمح لك بالكلام.

وتقدم العبراني تسبقه دعواته، وقد اتخذ وضعية الضعيف المشتكي، أمام قوة السلطة وجبروتها. وعندما انتهى اليهودي من شكواه أمر الصدر الأعظم بإحضار المتهم. وقد وجده مبعوث الوزير بالمسجد، محاطا بالمعجبين، رافعا يديه الملطختان بالدماء، نحو السماء وهو يتضرع إلى الله. ولم يبد الرجل أية مقاومة وركب الدابة التي قدمها له المبعوث المخزني بنوع من الاحترام. وتوجه الرجلان إلى القصر متبوعين بحشد هائج من الناس الذين ظلوا يعلقون على ضربة الخنجر الرائعة الموجهة إلى صدر الحاخام. وبالمشور، ابتعد الحشد وتقدم القاتل إلى غرفة العرش وقال بصوت متأثر:

- يا مولاي، أطال الله بقاءكم. لقد استدعيتموني وأنا أقول سمعا وطاعة.

وأعجب السلطان بهذا الاعتزاز بالنفس، فغمز قريبه بطريقة أدرك مغزاها؛ وخاطبه قائلا:

- كيف قمت بقتل هذا اليهودي؟

فاستل الشريف خنجره من حزامه، وكانت بقع الدم ما زالت عالقة به، ووجه نظره إلى بطن ممثل الجالية اليهودية وصاح:

- لقد تصرفت بهذا الشكل.

ووجه طعنة إلى اليهودي؛ ثم أضاف بطريقة هستيرية: لقد تصرفت هكذا، ووجه خنجره إلى بطون اليهود الآخرين، أمام أعين المسلمين الذين لم يحركوا ساكنا؛ وكأنه يشق البطيخ وليس أجساد من يدعوهم بأعداء الله والرسول. وبلغ عدد ضحاياه عشرة، سقطوا مضرجين بدمائهم، في حين فر الآخرون نحو باب القصر، أمام الأعين الساخرة للحشد.

ولم يحرك السلطان ولا الوزراء ولا الضباط ولا باقي الحاضرين ساكنا؛ وظلوا يتابعون المجزرة الرهيبة بنوع من الرضى. وعندما لم يبق بالساحة سوى أتباع الإسلام، دوت هتافات صاخبة وردد صاحبها هذه العبارة:

- خلفنا الثأر، الله ينصر السلطان.

المراكز الرئيسة بالخلوط

مصدر الكلمة هو الخلط [أي المزج بين كل الأشياء]. ولم يسبق للمترجمين الأروبيين أن سمعوا بهذه الكلمة العربية، لذلك كتبوها Khelt بالصدفة فقط.

قسم أولاد سليمان

لا توجد به قرى كبيرة، بل بعض الأكواخ والدواوير فقط.

حوز العرائش

- العرائش، ما بين 5 و 6 آلاف نسمة، على المحيط الأطلسي، بمصب نهر اللكوس [انظر فيما بعد النبذة التاريخية عن العرائش].

- القصر الكبير، ما بين5 و 6 آلاف نسمة، قرب واد اللكوس.

- دوار الخلخلي، 50 خيمة.

- قرية بنعودة، حوالي 20 كوخا.

وتوجد العديد من الدواوير والأكواخ المتفرقة هنا وهناك.

نبذة تاريخية عن الخلوط [17]

هي جزء من العائلة العربية الكبيرة لبني هلال قسم الجشم.[18] وقد رافقت قبيلة الخلوط الجحافل الهلالية أثناء غزوها لإفريقية أواسط القرن الخامس الهجري [1050م].

- سنة 1054م، أقام الخلوط مع إخوانهم الهلاليين بمنطقة تقع غرب ڭابس.

- سنة 1187م، توجه السلطان الموحدي المنصور، جنوب ڭفصة، بعد ان قضى على تمرد ابن غانية وقرقوش بتونس؛ ودمر معسكرات العرب القائمة بها ونقل إلى المغرب قبائل الجشم والريام والعاصم ومن ضمنها قبيلة الخلط.[19] وبهذا الشكل استوطنت الخلوط بالمغرب الأقصى وأقامت في البداية بسهول تامسنا.

- سنة 1224م، تزامن تاريخ اعتلاء السلطان الموحدي العادل بن المنصور على العرش، مع انهزام جيوشه أمام مقاتلي الخلط المتمردين.

- سنة 1228م، بايع هلال بن حميدان رئيس الخلط، السلطان الموحدي المامون بن المنصور وظل وفيا له ولابنه الراشد.

- سنة 1232م، تعرضت قبيلة سفيان المتحالفة مع يحيى بن الناصر، للهزيمة وللنهب على يد هلال رئيس الخلط وحليف الراشد الموحدي.

- في سنتي 1234 و 1235م، خلف مسعود أخاه هلال على قيادة الخلط وأعلن تمرده على الراشد، فاستدرجه هذا الأخير إلى مراكش وقتله. وعين يحيى بن هلال رئيسا للخلط بعد موت مسعود، فحاصر مدينة مراكش واستولى عليها ونهبها.

- في سنتي 1235 و 1236م، استرجع الراشد مراكش وطرد الخلط قبل أن يتوجه صوب فاس. فهل يمكن تحديد هذه الفترة كتاريخ لإقامة قسم من هذه القبيلة بنواحي العرائش؟

إن ابن خلدون لا يقول شيئا بهذا الخصوص. ففي تاريخه المختصر حول الخلط، يحدد زمن استقرار هذه القبيلة في عصره، أي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي؛ في ذلك الجزء من المغرب الأقصى الذي يقع بين فاس ومراكش [الجزء الأول، ص. 26 من

---

[17] لا ننسى بان قبيلة الخلوط تدعى خلط من طرف مستشرقينا.

[18] يطابق ابن خلدون بين الخلط وبين منتفك. [الجزء الأول، ص. 64 من الترجمة الفرنسية].

[19] إنني أكتب خلط والخلوط، لكي لا تكون هناك قطيعة مع المترجمين المسيحيين الذين يستعملون كلمة خلط فقط.

الترجمة الفرنسية]. وفي الصفحة 67 من نفس الجزء، نندهش من ملاحظة ابن خلدون التي مفادها أن الخلط اختفوا تماما وكأنهم لم يوجدوا أبدا.

لكن بعد موت ابن خلدون، ظل الخلط موجودين وأثروا بشكل كبير في مسار المغرب، مدعمين الطامعين في العرش على اختلاف توجهاتهم؛ ومقاومين لاجتياح النصارى ومتورطين في الدسائس والخيانات والحروب. وأنا لن أتابعهم في كل معاركهم؛ وستكون الفرصة سانحة للحديث عنهم من جديد، ضمن النبذة التاريخية عن العرائش والقصر الكبير.

نبذة تاريخية عن العرائش

مازالت التلة الغابوية لتيشيمس[20] تحافظ على اطلال المنشأة التجارية الفينيقية لليكسوس Lixos colonia، على بعد أربعة كيلومترات شرق العرائش. وكانت هذه التلة، كما تقول الرواية، هي بستان هسبريس؛ ونحن نعرف الأسطورة المرتبطة بهذا الموقع. ذلك أن الهسبريس، وهن بنات أطلس وهسبريس الثلاث [أغلي Aglé وأريتوس Aréthuse وهسبريتوس Hysprethuse] كن يمتلكن بستانا رائعا، مليئا بالفواكه المتنوعة وخصوصا التفاح الذهبي [البرتقال]. وكان هذا البستان محروسا من طرف تنين بمائة رأس، هو ابن الأرض. وبأمر من يورستي Eurysthée جاء هرقل إلى بستان الهسبريس وقتل التنين، ثم أخذ معه التفاح الذهبي وأنجز بالتالي العمل الثاني عشر.

وقد حدد بارث Barth وتيسو Tissot ودولمرتنيير P. de la Martinière وخصوصا هذين الأخيرين موقع هذه المدينة القرطاجنية.

[انظر مؤلف تيسو وعنوانه:

Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane وانظر أيضا دولمرتينيير ضمن:

Le Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques du ministère de l'instruction publique, 1890]

---

[20] تحدث الإدريسي عن تشيمس Tchemmech دون ذكر العرائش. وقد أشار صاحب كتاب الاستقصا ومؤلفون عرب آخرون إلى هذه التلة، تحت اسم تشيمس؛ وهي التسمية المتداولة بين المغاربة حاليا.

ويتضمن مؤلف مولرMüller حول نقود إفريقيا القديمة، من جهته، دراسات قيمة لهذا العالم حول نقود ليكسوس: "ففي سنتي 1888 و 1889، أنجزت حفريات هامة بتشيمس من طرف دولمرتينيير وعرضت الأشياء والنقوش التي تم الحصول عليها، جراء هذه الحفريات، بباريس في متحف اللوفر Louvre. ومازالت آثار أسوار القلعة موجودة، حيث تبرز من خلالها خاصية البناء الضخم المميز لكل من بارياس Barrias وإريكس Eryx ومطية Motya. وفي الفترة الرومانية توسعت المدينة وحققت ازدهارا كبيرا في عهد كلود Claude. أما في الفترة البيزنطية، فإن الإصلاحات المعمارية التي عرفتها، تشهد على هيمنة الإمبارطورية المتأخرة على المنطقة لمدة طويلة. وينطبق على تشيمس ما قاله رينان Renan بصدد صور Tyr:

"إنها خرائب مدينة بنيت على خرائب".

وبخصوص السيطرة العربية، فقد كانت محدودة زمنيا، لأن المدينة نهبت وأحرقت مع العرائش من طرف النصارى".[21]

إن لفظة العرائش عربية وتعني كما يؤكده اسمها، ما هو معرش. وقد برزت لأول مرة في التاريخ سنة 828 ميلادية، خلال التقسيم المشؤوم للامبراطورية الإدريسية، بين الإمام محمد بن إدريس وإخوته. وفي هذا الإطار، حصل يحيى بن إدريس على مدن أصيلة والعرائش ونواحيها حتى بلاد ورغة [انظر القرطاس].

فما هي هذه المدينة التي ظهرت فجأة تحت اسم العرائش؟ هل نعتمد على ما نقله مارمول Marmol عن هذه المدينة الجديدة التي كتب اسمها خطأ وهو "العرائس" نسبة إلى بني عروس؟ [22] وهل نشاطره الرأي بكون أهالي هذه القبيلة هم أول من استقر بها بعد الفتح الإسلامي، من أجل استغلال الكروم المعرشة ببستان الهسبريس الشهير؟

إننا نعتقد بأنه من الأفضل الاعتراف بكوننا نجهل كل شيء عن مؤسس العرائش.

---

[21] Cf. Grande Encyclopédie, article Lixus [H.P. de la Martinière]

وحسب الكتاب العرب، الذين تم ذكرهم من قبل، فإن تدمير العرائش وتشيمس، حصل سنة 1269 ميلادية.

[22] Marmol, l'Afrique, tome 2, p. 206, Paris, 1667, in-8.

- سنة 1269م، هاجم النصارى العرائش وتشميس، حيث أبادوا الرجال واختطفوا النساء وسرقوا الممتلكات وأحرقوا كل شيء. وبعد ارتكاب هذه الفظائع عادوا إلى بلدهم بحرا، دون أي تخوف من رد فعل السلطان يعقوب الذي كان منشغلا بالاستيلاء على مراكش. ولم يذكر مؤلف الاستقصا شيئا عن جنسية النصارى الغزاة [الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 15]؛ وهو ما ينطبق أيضا على مؤلف "القرطاس". فهل يتعلق الأمر بالغزاة النورمانديين؟

- سنة 1471م، استولى البرتغاليون على مدينة أصيلا، وهو ما أثر على سكان العرائش المجاورين لها، فتخلوا عن مدينتهم التي كانت مأهولة ومزدهرة.

- سنة 1477م، توجه البرتغاليون إلى اللوكوس ونزلوا بالجزيرة لبناء قلعة بالمدينة التي هجرها أهلها، مثلما هجرت العرائش. لكنهم تخلوا عن هذا المشروع.

[Cf. Renou, Déscription géographique de l’empire du maroc , p. 315 et suivantes].

- حوالي سنة 1491م، قام مولاي الناصر أخ سلطان فاس بتحصين العرائش وإعادة إعمارها.

سنة 1504م، لجأ قراصنة العرائش وتطوان المسلمون[23] إلى مصب نهر اللوكوس، فطاردهم البرتغاليون بقيادة دون جوان دومنسيس Don Jouan de Meneses واستولوا على الكثير من السفن الراسية بالنهر وأحرقوا بعضها. واسترجعوا سفنهم التي سبق لقراصنة تطوان أن استولوا عليها. وقد تحدث كتاب الاستقصا بشكل مقتضب عن هذه الواقعة ومما جاء فيه [الجزء الثاني، ص. 156، السطر 8 وما يليه] أن البرتغاليين احتلوا العرائش سنة 910 هجرية. فهل ظلوا بها مدة طويلة؟ من غير المؤكد، لأن السلاطين الوطاسيين عملوا في تلك الفترة على حماية المدينة من أي هجوم جديد للنصارى [نزهة الهادي، ص. 20 من

---

[23] اعتقد مرسيي Mercier في مؤلفه "تاريخ إفريقيا الشمالية" الجزء الثاني، ص. 417و418، بأن نهر العرائش كان يستخدم كميناء لتطوان. غير أن مسافة 150 كيلومتر التي تفصل بين المدينتين، لا تسمح بقبول هذا الادعاء. ومن الطبيعي أن يلجأ القراصنة المسلمون بتطوان أو بالسواحل المغربية الأخرى، إلى نهر اللوكوس أو إلى أي نهر آخر قابل للملاحة، عندما تطاردهم سفن النصارى؛ لكن هذا لا يعني أبدا أن العرائش كانت تستخدم كميناء لتطوان كما أسلفنا.

الترجمة الفرنسية]. وقد شيد السلطان السعدي المنصور، في نهاية القرن السادس عشر، حصنين بالعرائش، يحمل أحدهما اسم "حصن الفتح". [نزهة الهادي، ص. 196].

- سنة 1578، تمكن أسطول برتغالي بعرض شاطء العرائش، من نقل ما تبقى من الجيش الذي أبيد تقريبا في معركة القصر الكبير.

- سنة 1609، تنازع أبناء السلطان المنصور على الملك وقامت بينهم حروب دامية. غير أن واحدا من هؤلاء الإخوة واسمه الشيخ، كان أكثر طموحا إلى السلطة، فذهب إلى العرائش رفقة أفراد عائلته وبعض قادة جيشه ومنها إلى إسبانيا، طلبا لعون فيليب الثالث [الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 103].

- في 20 نوفمبر 1610، قبل هذا الأخير مساعدة الطامع في العرش مقابل تنازله عن العرائش. وبالفعل سلم الشيخ المدينة للاسبان، بعد أن طرد أهاليها المسلمين. ويروي مؤلف Descripcion historica deMarruecos في الصفحة 45، بأن جيش الاحتلال الإسباني كان تحت قيادة دون خوان دوماندورا، ماركيز سان جرمان الذي استولى على العرائش باسم ملك إسبانيا في 21 نوفمبر 1610. وحدد كل من "نزهة الهادي" في الصفحة 321 من الترجمة الفرنسية والاستقصا [الجزء الثالث، ص. 105] تاريخ الاستيلاء في 20 نوفمبر 1610م الموافق لـ4 رمضان 1019هـ. ويرجع هذا الفرق البسيط إلى كون العرائش وضعت رهن إشارة الإسبان في 20 نوفمبر، لكنهم لم يدخلوها إلا في اليوم الموالي. وقد حدد كل من غودار Godard في مؤلفه "تاريخ المغرب، ص. 479" ومرسي Mercier في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" [الجزء الثالث، ص. 188]، تاريخ استسلام العرائش في شهر دجنبر سنة 1610 وهذا خطأ.

من جهة أخرى، وحسب ملاحظة لهوداس Houdas [أنظر، ترجمة "نزهة الهادي"، ص. 441، الهامش 1]، فإن الإسبان احتلوا العرائش على ما يبدو سنة 1613 أو 1614. ويعود هذا الخطأ إلى خلط جغرافي. ذلك أن هذا العالم المترجم خلط بين مصب نهر سبو ومصب نهر اللوكوس. وبتصفحنا لكتاب الاستقصا [الجزء الثالث ص. 119] سنرى بأن ميناء الحلق المذكور من طرف هوداس، ليس سوى مدينة مهدية الموجودة، كما هو معلوم، بمصب سبو. وبذلك أدى الخطأ الجغرافي إلى خطأ تاريخي.

- سنة 1630م، نظمت حملة عسكرية ضد الحامية الإسبانية بالعرائش، تحت قيادة بطل الإسلام عبد الله العياشي.[24] وتمكن هذا القائد بفضل معلومات جاسوس مسلم كان يخدم الإسبان، من نصب كمين لهؤلاء وقتل ألف رجل.

- في 16 غشت 1688م، اقتربت الهيمنة الإسبانية على المدينة من نهايتها، حيث حوصرت مدة ثلاثة أشهر من طرف القائد أبي العباس أحمد بن حدو البطيوي [من بطيوة بالريف].

وقد حفر المغاربة خندقا تحت سور المدينة، جهة الميناء[25] وفجروا السور وتمكنوا من دخول العرائش حيث أبادوا أكبر عدد من الإسبان. وتحصنت مجموعة صغيرة منهم بقلعة القبيبات التي بناها المنصور السعدي؛ ولم تدم مقاومة هؤلاءة الرجال أكثر من يوم وليلة. وأخيرا استسلموا وأصبحت العرائش إسلامية من جديد، بتاريخ 10 نوفمبر 1689.[26]

وبخصوص استرجاع المغاربة للعرائش، يقدم المؤرخ الإسباني مانويل بابلو Manuel Pablo واقعة لم أتمكن من التأكد منها بمكتباتنا الصغيرة بوهران. فقد قال هذا المؤرخ: "إن لويس الرابع عشر ملك فرنسا النصراني cristianisimo rey de Francia، لم يجد أي غضاضة في مساعدة المغاربة ومدهم بالأسلحة لاسترجاع العرائش".

---

[24] كان بحق بطل حرب ضد البرتغاليين والإسبان الذين احتلوا شواطئ المغرب. وقد أثر في محيطه بادعاءاته حيث كان يقنع إخوانه في الدين بأن الله تعالى يلهمه سبل الانتصار بواسطة حلم يتكرر دوما ويتسم بالغرابة.

ففي ليلة المعركة، رأى في حلمه بأنه يقود قطيعا من الخنازير؛ فاستيقظ بعد هذه الرؤيا العجيبة وهو واثق من الانتصار على الكفار [انظر، الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 130 ونزهة الهادي ص. 442 من الترجمة الفرنسية].وعلى ذكر الأحلام الغريبة، نستحضر هنا حلم السلطان المريني أبي محمد عبد الحق [انظر، القرطاس، ص. 407 من الترجمة الفرنسية]؛ فبعد أن رأى حلما خليعا أخبر بعض الفقهاء بمضمونه، فطمأنوه،معلنين بأن ذلك فأل خير وبركة بالنسبة له ولذريته. فمن يستطيع سبر أغوار هذه السيكولوجيا الإسلامية؟ !

[25] أكد كتاب الاستقصا بأن المسلمين هم الذين حفروا الخندق. وفي ترجمته لفقرة معقدة من كتاب "نزهة الهادي"، ص. 507، اعتقد هوداس بأن الضمير في فعل "حفروا"، يعود إلى النصارى. وكان من الأفضل ومن المنطقي أن يعود الضمير إلى جيوش السلطان. وعلى الرغم من وجود هذا الخطأ الصغير وبعض الخطاء الأخرى ضمن ترجمته، فإن كل ذلك لا يبخس من قيمة هذا الرجل الذي سبقني في شغل كرسي العربية بوهران. فإصداراته تنم عن اجتهاد كبير وعن دراية عميقة باللغة العربية. وأتمنى أن يتوفر بلدي على مستعربين كثيرين من طينة هوداس.

[26] جاء في الاستقصا [الجزء الرابع، ص. 34]، بأن مؤلف "النزهة" أخطأ عندما أكد بأن الإسبان قاوموا حصار قلعة القبيبات مدة سنة. [انظر، الترجمان، ترجمة هوداس، ص. 42. وبذلك سيكون تاريخ1691 و 1692، المحدد كتاريخ استرجاع العرائش من طرف المغاربة، غير صحيح.

وتحدث الاستقصا من جهته اعتمادا على ما ورد في مؤلف مانويل، عن مشاركة كتيبة فرنسية في قصف العرائش [Descripcion historica de Marruecos].
والان، لنر ما الذي حدث للحامية الإسبانية؟
فمانويل يؤكد بأنها كانت تحتوي على 1800 عسكري. وقد استسلم رجالها للمسلمين، شريطة السماح لهم بالعودة إلى إسبانيا، لكن المغاربة لم يحترموا الاتفاق وأسروهم.
وسيرفض مؤلف الاستقصا [الجزء الرابع، ص. 34 و 35] ادعاء المؤرخ القشتالي، مستندا في ذلك على رواية مؤلف "الفهرست"، القاضي أبو القاسم العميري وهي الرواية التي جاء فيها:
"لقد ادعى نصارى العرائش بأن استسلام المدينة جاء نتيجة الصلح وليس عن طريق القوة؛ مما أثار نقاشا حول هذه المسألة. وطلب السلطان من قاضي مكناسة، أبي عبد الله محمد، المعروف باسم أبي مدين، بحل هذا المشكل. وبعد نقاشات مطولة واحتكام إلى النصوص الشرعية، أصدر القاضي حكمه بأسر النصارى". هكذا، أرسل الأسرى الإسبان وعددهم 1800 إلى مكناسة الزيتون، حيث أجبروا على بناء القصور الملكية. وبعملية حسابية فإن العرائش ظلت خاضعة للاحتلال الإسباني مدة 79 سنة، من 1610 إلى 1689م.
بعد تحقيق الانتصار، أعاد السلطان إعمار المدينة واستدعي الريفيين إليها. وعين الزعيم الأمازيغي [الذي سبق ذكره] قايدا على المنطقة، حيث تلقى الأمر ببناء مسجدين وحمام وتشييد إقامته الخاصة داخل القلعة. وشكل دخول القوات الإسلامية إلى العرائش مناسبة احتفالية، نظم فيها الشعراء قصائد، مملة أحيانا، حول الانتصار الكبير الذي حققه الإسلام على المسيحية [انظر، الاستقصا، ص. 35 و 36 ونزهة الهادي، ص. 508 و 509 من الترجمة الفرنسية].
- سنة 1747، قامت جماعة من المتمردين المنتمين إلى قبائل الغرب والخلوط والغليف، بمحاصرة العرائش مدة ثلاثة أشهر، لتفادي مهاجمة السلطان الشريف عبد الله بن اسماعيل لهم. فاضطر هذا الأخير، إلى منحهم الأمان؛ وبذلك تركوا المدينة وعادوا إلى ديارهم.
- بتاريخ 21 يونيو 1765 قام القراصنة المغاربة باستفزاز سفن القوى الأروبية؛ مما اضطر بعضها إلى المطالبة بالهدنة مع أداء ضريبة سنوية للشريف. وعندما هوجمت سفينة حربية

من طرف قراصنة العرائش، أرسل ملك فرنسا أسطولا بحريا لقصف المدينة. وبفاتح محرم 1179 هـ]21 يونيو 1765 م] أمطر الأسطول وسط المدينة بوابل من القذائف التي هدمت المنازل والمساجد.

وفي اليوم الموالي [22 يونيو]، أبحر حوالي ألف جندي وضابط بمصب اللوكوس، على متن 15 قاربا، واقتربوا من سفن المغاربة، ثم أحرقوا واحدة منها. وحسب الاستقصا، فقد كانت هذه السفينة هي التي استولى عليها القراصنة المغاربة وأخذوها من الفرنسيين. وهاجم هؤلاء سفينة أخرى ودمروها بالفؤوس وبقضبان الحديد. عندئذ اجتمع المسلمون بأعداد كبيرة وقاموا بهجوم مضاد وبرز من بينهم أهالي بني كرفط والساحل الذين أبلوا بلاء حسنا. وتراجع الفرنسيون إلى سفنهم، لكنهم اصطدموا عند مدخل الميناء بعرب قبيلة الغرب الذين كان يرأسهم القايد الحبيب المالكي والذين أطلقوا عليهم وابلا من الرصاص، منعهم من اجتياز النهر. وكانوا على متن قواربهم وسط النهر، محاصرين من كل جانب؛ وعندما تحاول جماعة منهم الاقتراب من إحدى الضفاف، فإنها تباد عن آخرها من طرف المغاربة المسلحين بالبنادق. وبعد قتل عدد كبير من الفرنسيين، سبح المغاربة باتجاه القوارب وأسروا العشرات منهم ونجا أربعة فقط. أما ا لفرنسيون الذين هربوا برا، فقد قتلوا أو أسروا. وقد تم إرسال 80 رأسا نصرانية مقطوعة إلى سلا، حيث علقت بعمود قرب ضريح الشيخ ابن عاشر. [انظر، الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 99 و 100. وتعتبر الرواية التي استقيتها منه، مفصلة أكثر من القصة المختصرة التي قدمها مرسيي في مؤلفه "تاريخ إفريقيا"، الجزء الثالث، ص. 393 و 394. وأنظر أيضا، الترجمان، ص. 141 و 142 من الترجمة الفرنسية].

- بتاريخ 30 ماي 1667م، أهدى السلطان العثماني مصطفى الثالث، سفينة حربية إلى سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل. وقد نزل المدفعيون والبحارة

والمهندسون الأتراك الذين كانوا متواجدين على ظهرها بالعرائش بهذا التاريخ؛ وكان مؤلف البستان والترجمان متواجدا بعين المكان باعتباره موظفا حكوميا [عامل المدينة].[27]

- سنة 1830، خلق القراصنة المغاربة مشاكل كبيرة للتجارة الأروبية. وفي يوم الإثنين 26 أبريل 1830، قصف أسطول بحري نمساوي مكون من ست سفن، مدينة العرائش. وبينما كانت مدافعهم منشغلة بتدمير ساحتها، ركب 500 نمساوي، 7 قوارب ونزلوا بمكان يدعى المقصرة وتوجهوا نحو مراكب المسلمين الراسية بالنهر وأحرقوها. فقام أهالي قبيلة الساحل وسكان العرائش ونواحيها، بهجوم مضاد على الأروبيين. وساهم في العملية أيضا، الحصادون المسلحون بمناجلهم التي ستغرز في رؤوس الجنود الإمبراطوريين؛ مما دفعهم إلى التراجع بعد ان فقدوا 43 فردا في ساحة المعركة، دون ان نحصي الأسرى [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 183 و 184].

- بتاريخ 25 فبراير 1860، قام أسطول إسباني بقيادة بوستيوس إيباريدا Bostillos y Barreda بقصف العرائش التي ردت مدافعها الخمس والثلاثون بالمثل على السفن القشتالية. وتزامن ذلك مع الحملة الكبرى لبريم Prim وأودونيل O’Donnel على تطوان. فقد كانت إسبانيا تسعى طبعا لضرب المغرب في كل المواقع الضعيفة؛ ولذلك كانت تستعمل أسطولها الحربي لقصف الموانئ المغربية بالمحيط الأطلسي. فبعد العرائش وأصيلة، توجه الأسطول إلى الرباط وسلا. لكن العواصف لم تسمح بقصف هاتين المدينتين الأخيرتين، لذلك سلمتا من القذائف النصرانية؛ وهو ما أرجعه المتعصبون المغاربة إلى العناية الإلهية.

ويعتبر فيليب الثاني من أكثر الأمراء طمعا في العرائش، فقد كان يقول بحماس غير مسؤول، إن العرائش تساوي إفريقيا برمتها ! وتقع المدينة على درجة 8,29 من خط الطول غربا وعلى الدرجة 35,13 من خط العرض شمالا.

---

[27] نقرأ في الصفحة 143 السطر 14 ما يلي: "نزل القراصنة بالعرائش". ويبدو أن النص العربي المترجم من طرف هوداس كان مبتورا Tronqué. وقد تأكدت من الحدث بالرجوع إلى كتاب الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 104، حيث تم الحديث عن سفينة يمتلكها القراصنة نزل طاقمها بالعرائش؛ دون الإشارة إلى أي هجوم تعرضت له المدينة.

نبذة تاريخية عن القصر الكبير

حسب دليل أنطونان Itinéraire d'Antonin، فإن المركز الروماني المسمى Oppidum novum، كان يشغل المكان الذي يتواجد فيه القصر حاليا. ومن حقنا أن نتساءل عما إذا لم يكن المركز الروماني قد بني على أنقاض قرية أمازيغية أسسها الكتاميون أو أهالي النواحي. أما حكاية ليون الإفريقي حول القصر الكبير، فهي أسطورة حديثة وهي تلميح إلى شغف العاهل الموحدي يعقوب المنصور [القرن الثاني عشر الميلادي] الذي كان يعاني مما يدعوه بناؤونا بمرض الحجر. فهذا الملك والمهندس المعماري، كان يأمر بالبناء دون هوادة. هكذا، شيد الأنصاب والمساجد والمستشفيات وأصلح المدن؛ ووضع أسس الرباط مقابل مدينة سلا.

ومع ذلك، وبالرغم مما يدعيه ليون الإفريقي، فإنه لم يؤسس مدينة القصر. ويقدم لنا كتاب الاستقصا، دليلا على ذلك، بطريقة غير مباشرة، حيث جاء فيه أنه في سنة 1172 أو 1177، أي قبل سنوات من تتويج المنصور، توفي بالقصر ولي مسلم أندلسي وهو أبو الحسن علي بن يخلف بن غالب الذي استقر بهذه المدينة المغربية، مفضلا إياها على مدينته شلب Silves وعلى قرطبة التي درس بها [الاستقصا، الجزء الأول، ص. 187، السطر 17 وما يليه]. وتسمح لنا هذه الإشارة بالإقرار بأن السلطان يعقوب أنعش الحياة بقصر كتامة، أثناء إحدى زياراته الترفيهية من أجل القنص، لكي ينسى متاعب السلطة والسياسة. لكن القصر الكبير كان موجودا قبله؛ وحكاية ليون الإفريقي المؤثرة، ملفقة ولم يعد يتذكرها أحد في البلد[28]؛ وهي تمحي أمام شهادات البكري والإدريسي.

---

[28] وهو ما نأسف له، لأن هذه الحكاية مؤثرة ولا تتكرر إلا نادرا في الإمبراطورية الكئيبة. وإليكم مضمونها بشكل مختصر: عند نهاية يوم ممطر من القنص، تاه السلطان يعقوب وسط مستنقعات اللوكوس، فاستقبله صياد بئيس للأنقليس Anguiles بكوخه وخاطبه قائلا: "أرحب بكم يا مولاي بمسكني المتواضع إن قبلتم بذلك". وبالفعل، حل المنصور ضيفا على الرجل الذي قدم له الأنقليس المشوي؛ لكن السلطان اشمئز منه وسأل الرجل: "ألا يوجد لديك نوع آخر من اللحم؟" فأجابه الصياد: "كل ما أملك، عنزة وجدي؛ ومن الممكن أن يتشرف لحم الجدي بتلبية رغبتكم". وبالفعل، ذبح الحيوان وأمر زوجته بطبخه وقدمه لضيفه. وبعد أن تناول طعامه، نام بالكوخ حتى الصباح؛ فغادر المكان رفقة مضيفه وما أن تجاوزا المستنقعات حتى لقيا فرسان السلطان الذين كانوا يبحثون عنه بقلق. وقبل أن يغادر مضيفه الكريم أمر ببناء قصر للرجل الذي أصبح سيدا بهذه المدينة الصغيرة.

Cf. Historiale description de l'Afrique, tierce partie du monde écrite de notre temps par Jean léon l'Africain, premiérement en langue arabesque, puis Toscane et à présent mise en Français, en Anvers chez jeans Bellere, 1556, p. 206 et suiv.

ومن المرجح ألا يكون هناك أي تبديل للمركز الروماني Oppidum novum الذي سيأخذ فيما بعد تسميات عربية وأمازيغية وهي على التوالي: قصر كتامة، سوق كتامة، قصر صنهاجة[29] قصر ابن عبد الكريم، القصر الكبير.

- سنة 1188م، أقامت قبيلة الريام العربية التي تم تهجيرها إلى المغرب، بمنطقة الهبط شمال القصر.

- سنة 1237م، أجبر المرينيون الذين استولوا على الحكم بقيادة زعيمهم عثمان الأعور، أهالي القصر على أداء الجزية.

- سنة 1288م سلم أبو الحسن بن عشق اللولة مدينة قاديس للسلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق؛ وتلقى مقابل ذلك، الولاية على القصرالكبير والمناطق المجاورة [الاستقصا، الجزء الثاني، ص. 33؛ ابن خلدون، الجزء الرابع ص. 125 من الترجمة الفرنسية].

- سنة 1359م، هزم أبو سالم الطامع في العرش، عند أبواب القصر الكبير.

- سنة 1503م، انطلقت كتيبتان برتغاليتان، إحداهما من طنجة والأخرى من أصيلة وتوجهتا صوب القصر، لكنهما تراجعتا فيما بعد" بسبب العدد الهائل من ا لمغاربة الذين جاؤوا لنصرةالقصر"

[Chénier, Recherches sur les maures, t. 2, p. 418]

- إن يوم 4 غشت 1578م، هو تاريخ مشؤوم بالنسبة للبرتغاليين؛ فبالقرب من القصر بسهل موجود عند ملتقى واد المخازن وواد اللوكوس، تقع ساحة معركة القصر أو الملوك الثلاثة. فقد أبيد الجيش البرتغالي عن آخره وغرق قائده الملك دوم سبستيان بواد المخازن، كما غرق حليفه السلطان السابق محمد بنهر اللوكوس؛ أما السلطان الحاكم عبد المالك، فتوفي على فراش المرض في عز المعركة. ويقدر المؤرخون المسلمون عدد البرتغاليين الذين لقوا

---

(29) لايتفق تيسو مع الرأي الذي يماثل قصر صنهاجة بالتسميات الأخرى لهذه المدينة "ففي دليل البكري يوجد قصر صنهاجة بعيدا، فوق تلة جنوب اللوكوس، في حين يوجد سوق كتامة بالسهل جنوب النهر". لكن من الممكن أن يخطئ البكري، ولا أدل على ذلك من كون ابن خلدون أكد بأن قصر كتامة هذا المركز الهام بالمغرب ، كان يدعى أيضا قصر صنهاجة [انظر، تاريخ البربر، الجزء الأول، ص. 291].

حتفهم في المعركة ب 100 ألف رجل. وهو رقم مبالغ فيه سيختصره المؤرخون المسيحيون في 30 ألف.

- سنة 1591م، هي فترة أكبر رخاء عرفته مدينة القصر. فقد شكلت حصنا إسلاميا يواجه المناطق المغربية المحتلة من طرف الإسبان والبرتغاليين؛ لذلك اعتبرت مركزا هاما وسوقا كبيرا تباع فيه مختلف البضائع الإسبانية والمغربية. وهي عاصمة دائرة الهبط بدون منازع. فمن طنجة وسبتة وفاس والعرائش، يأتي التجار ا لمسيحيون والمسلمون ويقومون بمبادلات تجارية، متخلين عن الأحقاد التي ولدتها المعارك والحروب الكثيرة.

- في سنتي 1652 و 1653 أعلن الخدر غيلان من بني كرفط، وهو أحد المساعدين القدامى لعدو النصارى أبي عبد الله العياشي، تمرده بدائرة الهبط، واستولى على مدينة القصر بعد أن هزم سكانها الذين هبوا لمقاومته. وقد ارتكب المجازر في حق أعيانها، مما دفع بالعديد من العائلات الكبرى إلى الفرار باتجاه فاس. ولما شاع خبر انتصاراته، التحق به سنة 1659 أحد الفقهاء الداعين إلى محاربة النصارى وهو بوسلهام بن قادر[30]، الذي غادر فاس متوجها إلى القصر. غير أن غيلان الذي لم ينس موقف بوسلهام العدائي تجاه رئيسه القديم أبي عبد الله العياشي سيسجن هذا الفقيه بمدينة أصيلة.

لكنه سيطلق سراحه بعد فترة زمنية من اعتقاله[31].

- سنة 1666م، بعد أن شعر غيلان بعجزه عن مواجهة الحملة التي قادها السلطان الراشد، تخلى عن القصر الكبير وفر إلى أصيلة.

---

[30] هل يتعلق الأمر بالشخصية الحقيقية لبوسلهام الذي يوجد قبره على ضفة المحيط الأطلسي جنوب العرائش؟

[31] استمد مؤلف الاستقصا معلوماته [الجزء الرابع، ص. 14] من نشر ا لمتاني. وتعتبر ترجمة هوداس مختصرة وقد عنونها ب"الزياني" واعتمد عليها مرسيي الذي حدد تاريخ استيلاء غيلان على القصر سنة 1664، فلماذا هذه السنة بالضبط؟ انظر:

Histoire de l’Afrique Septentrionale, t. 3, p. 258.

وفي نفس الجزء والصفحة، تم نعت غيلان من طرف مويط Mouette بالمغربي الأندلسي السلاوي. أما الاستقصا فقد تحدث عنه "كبدوي جرفطي". وهذا خطأ في تدوين الكلمة على عادة الكتاب المغاربة الذين ينطقون ڭرفط ويكتبونها جرفط.

- سنة 1741م، هاجم الباشا أحمد بن علي الريفي، المتحالف مع السلطان المستهدي، مدينة القصر ونهب المقاطعات التابعة لها [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 72]. ويؤكد الزياني [ترجمة هوداس، ص. 49]، بان هذه الأحداث وقعت سنة 1158 هـ [1745م].

وتوجد مدينة القصر الكبير، جنوب طنجة على خط العرض 34,59 درجة من الشمال وعلى خط الطول 8,12 درجة جهة الغرب.

- القوى العسكرية: 8 آلاف رجل من المشاة والفرسان. العدد المحتمل للسكان: 50 ألف نسمة.

قبيلة الساحـــــل

كانت الحرارة مفرطة خلال هذه السنة، لذلك قرر محمد بأن يدرس في قرية الخميس، وهي عبارة عن مركز تعليمي جميل؛ تخفف نسمات المحيط الأطلسي المنعشة، من أجوائها في فترات الحر. وجاء هذا القرار الذي يتعارض مع طبيعة الدرويش الميالة إلى الترحال، عندما كان يتجول بالأزقة الكئيبة لأصيلة. هكذا قبل عرض أهالي الخميس، ليكون مدرسا لأبنائهم، مقابل الحصول سنويا على ستة قناطر من الشعير ومثلها من القمح، إضافة إلى هدايا الآباء بمناسبة الأعياد والنقود التي تمنح عند ختم التلميذ لدراساته. وعند مغادرته لأصيلة رفقة أصدقائه الجدد، انتبه إلى حقول الشعير الشاسعة التي تتمايل سنابلها الصفراء تحت الهواء الصحراوي الساخن. ومن بعيد تتراءى حقول القمح الذي ما زالت سنابله الخضراء، تغطي منحدرات التلال. وكان الحصادون يقطعون سنابل الشعير بمناجلهم، تاركين السيقان معروضة أمام رياح الجنوب. ورغم قساوة شمس مايو، فإن عطر الحقول فتح شهية الرحالة الذي قال في قرارة نفسه، عندما وصلت القافلة في المساء إلى قرية الخميس:

ـ لنأكل أولا، أما التدريس فسنقوم به عندما يحين الوقت.

ولقد كان الدرويش معلما سيئا ! ففي يوم الخميس، وهو يوم عطلة، كان يغادر القرية ويتجول في الدواوير الأخرى ويقطع مئات الهكتارات من الدوم، حيث كان يستقبله الأهالي الميسورون إلى حد ما بحفاوة، لأنهم يحترمون الطلبة ويقدرونهم، أكثر مما يحترم أعضاء المعاهد العلمية عندنا. وكان الدرويش يحضر حفلات الزواج والمآتم، يرافقه أحيانا بعض تلامذته الذين اقتنع أهلهم بضرورة تعرفهم على الطلبة الآخرين الذين يتواجدون بأماكن الأفراح والجنازات من اجل إشباع بطونهم.

إن مساحة قبيلة الساحل متوسطة، بحيث لا يتعدى قطرها 20 كيلومترا؛ وهي تمتد على طول الساحل الأطلسي بأجرافها المسننة التي تتخللها خلجان صغيرة يصطاد الأهالي فيها السمك الذي يستهلكونه بكثرة.

فعند الجزر marée basse يتقدمون بصناراتهم وشباكهم وسط الصخور وهم حفاة وقد عقدوا قميصهم على سرتهم لاصطياد الأسماك المتواجدة بكثرة. وكان الدرويش الشغوف بالصيد يتبعهم للاستمتاع بتلك اللحظة؛ فعندما تسقط بعض الأسماك بداخل الشباك أو تعلق

بالصنارة، تتعالى أصوات الرجال والأطفال بالضحك ويتوقف الحصادون عن عملهم لمتابعة المشهد، ثم يستأنفون عملهم وسط حقول الشعير الصفراء، الممتدة على طول السهل.

- بيداغوجيا مغربية:

كان موسم الحصاد قريبا من الانتهاء وكانت السماء زرقاء والشمس حارقة، ينضاف إليها عراء الحقول وغبار الرمل المتطاير فوق الأكواخ والبيوت. وكانت الحرائق على الأبواب ولربما أصابت هذه السنة، قرية الخميس الكبيرة، المعروفة ببرودة طقسها الناتجة عن الرياح القادمة من المحيط الأطلسي. وكانت الرغبة في جمع بعض النقود وفي الاستراحة من عناء الرحلات، قد حولت الدرويش إلى مدرس جاد نسبيا. لكن المهمة كانت صعبة ولم يكن بإمكانه التحكم في تلاميذه. فطبعه الحالم والهادئ يمنعه من استعمال عصا الزيتون الطويلة التي يستخدمها باقي المعلمين طوال اليوم وينهالون بها على أيادي وأرجل وأكتاف ورؤوس التلاميذ المشاغبين. وعندما يضيق ذرعا بصراخ هؤلاء التلاميذ، كان محمد يشتكي إلى زملائه في المهنة من هذه الوضعية الجهنمية، لكن المعلمين الذين حنكتهم التجربة كانوا يجيبونه بغضب قائلين:

- يا لك من غبي، استعمل معهم التحميل.

وكان الدرويش يرفض هذه المعاملة ويقشعر بدنه، بمجرد تصور الصراخ الحاد للأطفال الخاضعين لهذا التعذيب الرهيب. وغالبا ما عاين هذا العقاب القاسي المنتشر بكل المدارس العربية بالشمال الإفريقي، حيث يمسك الطفل من ساقيه ورأسه إلى أسفل؛ وترفع رجلاه إلى أعلى وتنهال عليهما حوالي 50 أو 60 ضربة بعصا المعلم الذي تتوالى ضرباته بعنف غير طبيعي.

وعادة ما يصبح جلد الرجلين رقيقا مثل قشرة البصل عند الضربة العشرين، فتقطر الدماء على الأرض وترش أجساد التلاميذ الآخرين المرعوبين. فما هو السبب المؤدي إلى هذا التعذيب الشبيه بعقاب محاكم التفتيش؟ قد يكون الأمر راجعا إلى درس لم يحفظ جيدا أو إ لى غياب غير مبرر للتلميذ او إلى معركة بين التلاميذ أو سرقة لوحة أو كتاب أو نسيان الأجرة الأسبوعية التي تؤدى للمعلم أو رفض الانصياع لأوامر التلميذ الأكبر سنا الذي يكلف من هو أصغر سنا بجمع الصدقات أو تسخين الماء للوضوء. تلك هي "الجرائم" المؤدية إلى هذا

العقاب الرهيب الذي يتلوى فيه جسد الطفل من الألم ويطلق صرخات قد يرق لها قلب نمر كاسر. ولأن العقوبات لا تتوقف إلا نادرا، فإن عصي الزيتون غالبا ما تنكسر، لذلك يحتفظ المعلم بثلاثين منها على الأقل، لاستخدامها عند الحاجة. وطبعا فإن الطلبة الكبار لا يخضعون لهذا التعذيب الذي عانوا منه في صغرهم، اللهم في حالات استثنائية مثل السرقة أو عدم احترام المعلم أو السكر حتى الثمالة.

وعادة ما تتوفر كل قرية على مدرسة واحدة وبالتالي على مدرس واحد. وبالقرى الكبرى هناك ثلاثة مستويات تعليمية وبالتالي ثلاثة معلمين وهم:

1) "المشارط " على العلم، ويدرس الفقه والنحو، كما يلقي خطبة الجمعة.
2) "المشارط" على القرآن ومهمته السهر على أن يحفظ تلامذته القرآن عن ظهر قلب.
3) "المشارط" على الصلاة وهو إمام المسجد.

وهؤلاء الفقهاء المزعومون الثلاثة لا يعلمون المبتدئين؛ لأن هذه المهمة موكولة لأفضل طالب، وهو من سيعوض أساتذته لاحقا.

ويتقاضى "المشارط" الأول 500 فرنك سنويا؛ أما "المشارط" المكلف بتحفيظ القرآن فيتقاضى 250 فرنك والإمام 75 فرنكا والطالب المعلم 50 فرنكا. وفي الجزء الغربي من جبالة، تعوض هذه القيمة النقدية بالقمح والشعير والزيت. أما في الجزء الشرقي، فإن المعلمين يمنحون التين والزبيب والزيت والكيف و "طابة".

هكذا، يتحول هؤلاء المدرسون بعد موسم الحصاد والجني إلى تجار التين والزبيب والحبوب؛ ويذهبون إلى مختلف الأسواق لعرض بضاعتهم على القرويين الذين يشترونها على الفور، معتقدين بأنها كلها خير وبركة.

ولأن المساجد بالقرى لا تتوفر على ساعات، كما أن المعلمين والتلاميذ لا يحملونها معهم، فإن الأوقات خلال النهار، تعرف من وضعية الشمس في كبد السماء؛ وذلك لكي تقام الصلوات في أوقاتها المحددة. وعادة ما يعلن الأهالي الورعون عن موعد الصلاة، فيهرع الجميع للتوضؤ ولأداء الفريضة.

أما بالمدن، فإن المساجد تتوفر على مؤذنين وعلى ساعات متنوعة وذات مصادر مختلفة، إنجليزية وألمانية وفرنسية وإسبانية. وتدعى الساعة الحائطية بالدارجة "مگّانة"، اما ساعة الجيب فتدعى "مگّانة الشون".

- غسل الموتى والبقاء بجوار جثمانهم:

هناك عملان جنائزيان يتخلى عنهما الجبليون عندما يتواجد في مناطقهم طلبة ومعلمون فقراء، حيث يفرضون عليهم القيام بالدور غير المرغوب فيه الذي سنقوم الآن بوصفه. طبعا، فإن المال يكون محفزا إذا ما كان المتوفى غنيا، حيث يتم على الفور غسله والبقاء بجوار جثمانه.

وفي إحدى الأمسيات، وبعد أن أنهى درسه بمدرسة الخميس، استقبل الدرويش بعض أعضاء الجماعة الذين خاطبوه بطريقتهم التلقائية المعهودة قائلين:

- واحد القليل مات، يا الله تغسلو بتغرادك [توفي أحد الفقراء، هيا لغسله وستتلقى أجرا على ذلك].

فسألهم الدرويش:

- أي نوع من الأجر؟

فأجابه أكبرهم سنا:

- أجر إلهي في الجنة.

وتردد الرحالة موضحا لمخاطبيه بأنه غير ملم بطريقة غسل الأموات. ولما لاحظ تجهم وجوههم، وقف وقال إنه لن يمانع في القيام بفعل يرضي الله تعالى. ورافقه طالب قوي البنية إلى منزل الراحل، حيث استقبلا ببرود، كرجلين يقومان بهذه المهمة رغم أنفهما.

وبعد أن حمل الجثمان إلى غرفة مخصصة للغسل وضع فوق لوح خشبي وانسحب الأقارب تاركين الطالبين وحدهما؛ وأمامهما قدر مليئة بالماء الساخن.

وبدأ الرجلان عملهما، بعد أن لفا يديهما بخرق، وبينما كان الطالب القوي البنية يرفع الجثمان ويقلبه، كان الرحالة ينظفه بسكب الماء الساخن عليه. ومرة أخرى، وكان ذلك سنة 1880

بتزمورين، ببني ورياغل [الريف][1] ، كان أحد الأمازيغيين قد غادر منزله على الساعة الثامنة صباحا، عندما تلقى رصاصة من بندقية جاره الذي يكن له العداوة ووجد الفرصة سانحة، ليسكن الرصاصة في لحمه كما يقال. ولقي الرجل حتفه على الفور؛ فتعالى صراخ النساء وسحبه أفراد عائلته داخل المنزل. بعد بضع دقائق، قدم طلبة القرية لقراءة ما تيسر من القرآن مدة نصف ساعة. وعند الانتهاء من القراءة خاطب الطلبة الذين كانوا جميعهم مسلحين بالبنادق والمسدسات، الدرويش قائلين:

- Ekker chek ai aârab sd'ith.[انهض أنت أيها العربي واغسله]

ولم يكن هناك مجال للاعتراض. فقد ظن الجميع بأن الرحالة عربي، لأنه كان قد وصل حديثا إلى البلدة. وكان من الضروري أن يطيع أمر هؤلاء الأمازيغ المعاندين. فأجابهم قائلا:

- فيها خير.

وخرج الطلبة بينما بقي الدرويش وحده مع أقارب الميت الذين جردوا هذا الأخير من ثيابه، بعد أن حملوه إلى غرفة صغيرة وجلبوا قدرا من الماء الساخن، ثم غادروا المكان تاركين الرحالة مع المتوفى. وفجأة فتح باب الغرفة بقوة ودخل طالب ريفي قوي البنية، حاملا بندقيته على كتفه ومسدسا بيده؛ وأخبر الدرويش بأنه قدم لمساعدته. فرد محمد قائلا:

- جيد، إذن ضع بندقيتك ومسدسك جانبا ويا بسم الله.

لكن الآخر أردف قائلا:

- اللي ما فيدو مكحلة ميت.

---

[1] انظر، المغرب المجهول، مذكور ص. 108.

وكان الأمر واضحا. ففي تلك المنطقة الجميلة، كان الأمان منعدما خلال تلك الفترة[2] إلى درجة أن الطالب رفض التخلي عن سلاحه ولو أثناء غسل الميت.

هكذا، قام بصب الماء الساخن على جسد الميت بينما كان الدرويش يقلبه وينظفه باشمئزاز، بسبب الدماء التي لم تتوقف عن السيلان من الجروح الكبيرة بالجسد، حيث اخترقت رصاصتان جنبه والثالثة فخده. وكان الدرويش يقوم بهذه المهمة الرهيبة وقد تلطخت يداه بالدماء وزاد من فظاعة الأمر، الحرارة المنبعثة من الرجل الذي لم يكن قد مر على اغتياله أكثر من ساعة.

---

[2] كان ربيع 1898 مشؤوما بالنسبة للمنطقة الوسطى للريف البحري. فقد قام أهالي بني ورياغل وبمساعدة أهالي تمسمان وقلعية، مدعومين بألف رجل من الجيوش الشريفة، بإبادة إخوانهم من بقيوة، مقابل وعود من عملاء السلطان بمكافآت عظيمة. ومعلوم أن أهالي بقيوة كانوا آخر ممثلي القراصنة الأمازيغ؛ وهو أمر لا يصدق في فجر القرن العشرين؛ خصوصا وأنهم كانوا يتوفرون على حوالي 20 قاربا فقط، لا تضاهي قوارب طراداتنا من الدرجة الثانية.

ولا يسع المرء إلا أن يتعاطف مع هؤلاء القراصنة، بسبب الوحشية التي عوملوا بها. فقد أحرقت قراهم وممتلكاتهم وتم تشويه أجساد الأحياء والأموات وكثر الاغتصاب وسبي النساء والفتيات. هكذا، استباح المهاجمون كلي شيء، خدمة للأهداف المكيافيلية لبلاط فاس.

وسيأتي يوم أكتب فيه عن هذه القصة المأساوية التي لعب فيها المخزن دورا رهيبا. لكن، وكما يقول المثل، ستكون الغلبة لمن يحسن استغلال الوضع في الأخير. فأهالي بقيوة لم يبادوا عن آخرهم وبقيت عاصمة قبيلتهم أذوز صامدة أمام حصار دام خمسة أشهر. من جهة أخرى، فقد لجأ المقاومون إلى الجبال الشاهقة بالمنطقة وصدوا المهاجمين؛ وأخيرا فإن فرنسا لم تبق مكتوفة الأيدي أمام مشروع إبادة القبيلة، حيث استقبلت سفنها المجموعات المرعوبة من النساء والأطفال الريفيين، النصف عراة، والذين كانوا موجودين فوق حجرة باديس المقفرة؛ ونقل هؤلاء اللاجؤون البالغ عددهم 297 فردا إلى وهران بتاريخ 18 يونيو 1898؛ وكان من بينهم حوالي 50 رجلا تم إيواؤهم بخيام فرنسية بباب سانطون Santon، على بعد خطوات من مسكني برياض ولسفورد. ويمكن تلخيص سيكولوجيا بقيوة كلها في حكاية بليغة رواها لي أحد البقيويين بتمازيغث، وهي عبارة عن مواجهة بين بقيوي وورياغلي [انظر المغرب المجهول، ص. 109 / 175] ومما جاء فيها :

- ge souk'en dh'add iousa d ouriar'er iniakh tserdount iousa dijjen zeg Bek'k'ouen. Inn as ouriar'er.
- Balak ach thouueth tsardent. Enta innas :
- Mara thoukthai tsardount, ad'oukhthar'r'annech sermed faâ .

بسوق الأحد قرب أذوز، قدم ورياغلي راكبا على بغلة ولقي رجلا من بقيوة فقال له:

-ابتعد كي لا تضربك البغلة.

فأجابه البقيوي:

- إذا ضربتني البغلة فسأضربها أنا أيضا بالبندقية.

وبعد الانتهاء من هذه العملية المرعبة، لاحظ محمد بأن جلابته ملطخة بالدماء، فسارع بإزالة البقع الحمراء بالماء الساخن. وطلب منه الطالب الريفي بأن يكفن الميت، وهو ما قام به قبل أن يغادرا المكان. وبالخارج، هرع الدرويش إلى الساقية للاغتسال، حتى تزول عنه كما يعتقد، رائحة الميت. وبالمسجد، لم يغمض له جفن، فقد كان سريع التأثر على عكس مضيفيه الأشداء. وظل يتقلب فوق الحصيرة وصورة جثة الريفي الملطخة بالدماء لا تفارق مخيلته. وعندما غلبه النعاس حوالي الساعة الثانية صباحا، رأى حلما مرعبا؛ فبينما كان يغسل الميت تحرك هذا الأخير ونهض واقفا وحمل البندقية وتوجه نحو الدرويش ثم صوب البندقية باتجاهه. وفي اللحظة التي أطلق فيها النار، استيقظ الرحالة وهو يرتعد ويتصبب عرقا. وكان الطلبة من حوله، يشخرون في الظلام الجاثم على المسجد.

- استحمام غريب وحالة غرق:

وفي سنة أخرى، درس محمد بن الطيب بدشرة أولاد سالم، قسم أولاد عياد، ربع أولاد رياب من قبيلة الحياينة بدائرة فاس. وكانت القرية موجودة على واد إيناون وهو مجرى مائي شبيه بنهر سبو. وتمتد على ضفتيه بساتين الخضر والفواكه التي تسقى بواسطة نواعير يمدها النهر بمياهه. وفي عصر أحد الأيام، كان بعض أعضاء الجماعة يثرثرون بالمسجد مع بعض الأشخاص ومن ضمنهم رحالتنا، عندما نهض رجل من قبيلة الدسول وأعلن بأنه ذاهب لصيد السمك.

وبالفعل، شوهد وهو يتجه صوب النهر، حاملا خيط صنارته فوق كتفه؛ ويبدو أنه كان يقصد مكانا عميقا يتواجد فيه السمك بكثرة. ورآه البستانيون من بعيد وهو يقترب من ذلك المكان العميق رافعا جلابته فوق حزامه. وغاب تحت الماء في المرة الأولى، فاعتقد البستانيون بأنه يستمتع بالغطس لم يعيروه اهتماما بعد ذلك. والحال، أن التيار جذب الصياد فقاومه في البداية، لكن ملابسه منعته من السباحة فغرق. وحوالي الساعة التاسعة ليلا، حضر أعضاء الجماعة إلى المسجد لتناول طعام العشاء مع الطلبة والضيوف الأجانب، كما اقتضت العادة بدائرة فاس.

وبعد أن تلفظ الجميع بكلمة بسم الله وشرعوا في الأكل، بادر أحدهم بالتساؤل:

- أين هو فلان؟

فأجاب أحد البستانيين:

- لقد شاهدناه وهو يسبح في النهر.

ورد بعض الحاضرين بأن الأمر لا يتعلق بنفس الشخص. وهكذا استمر النقاش بينهم إلى أن انتهوا من الأكل وقرروا الذهاب إلى النوم. وفي الصباح، بدأت الشكوك تساور الأذهان بخصوص مصير الدسولي. فأرست الجماعة ثلاثة سباحين مهرة إلى النهر للبحث عن الرجل. ورافقهم الدرويش لإشباع فضوله. ونزع ثيابه بضفة النهر من أجل الاستحمام فقط، لأن حرارة الصيف كانت غير معتادة في ذلك الجزء المنخفض من أراضي المغرب.

وفي تلك الأثناء كان الغطاسون يسبرون غور النهر بعصي طويلة gaules. ولما لم يجدوا شيئا، نزعوا ثيابهم ووضعوها على الضفة تحت أحجار كبيرة وفجأة خرج أحدهم من الماء، شاحب الوجه وهو يرتعد وقال إن الغريق يوجد هنا ربما، لأنه أحس برعب لم يجد له تفسيرا. فقال الرجلان الآخران اللذان اقتربا من المكان المعلوم:

- إذن سيكون هو بالتأكيد.

وبعد عمليات غطس متوالية، تم اكتشاف الدسولي في ذلك المكان بالضبط. وكان من اللازم ربط رجليه بحبل، وهو ما قام به أحد الغطاسين الذي ظهر على سطح الماء من جديد وصاح في الآخرين:

- راه مربوط.

ومد لهم الحبل لسحبه، ثم خرج بسرعة من المياه الباردة لإيناون ولبس جلابته على وجه السرعة. بعد ذلك، رجع لمساعدة زملائه الذين كانوا يسحبون الغريق إلى الضفة. وكان منظر الجثة بشعا، فقد كان رأسه مدلى إلى أسفل وبطنه منفوخا ومغطى بالوحل، لذلك وجد الرجال صعوبة في سحبه. واقترب الدرويش من الغريق للتأكد من هويته؛ وفي تلك الأثناء فوجئ بالغطاسين الثلاثة وهم يصعدون فوق بطن هذا الأخير ويقفزون فوقه لإخراج المياه من فمه وأنفه. وبينما كانوا يقومون بهذه المهمة، طلبوا من أعضاء الجماعة القدوم للتعرف عليه. وقدم حوالي 20 رجلا ولفوا الجثة في حايك وحملوها معهم إلى القرية. ولم يكن بهذه القرية أي فقيه باستثناء الدرويش الذي كان يعلم الأطفال القراءة.

وكان من اللازم غسل الدسولي كما تقتضي الشريعة الإسلامية ذلك. وتساءل الرحالة في قرارة نفسه:

- من الذي سيقوم بهذه المهمة؟

ليجيب على الفور:

- أنا بدون شك.

ولم يتحدث معه أي أحد في الموضوع، حيث قضى النصف الأول من اليوم في التدريس. وعندما جاء وقت القيلولة، قدم نحوه عضو مؤثر بالجماعة وبيده ثوب من القطن وخاطب الدرويش بعد أن ألقى الثوب فوق الحصيرة:

- يجب عليك أن تخيط هذا الثوب على شكل كيس.

فقام الرحالة بخياطة الكفن على الفور. وبعد الانتهاء من هذا العمل، خاطبه الرجل مجددا:

- والآن، يجب أن تغسل الميت.

فأجابه الدرويش:

- إن ذلك غير ضروري، فقد نظفه النهر بما يكفي على ما أعتقد.

لكن الجبلي رد بقسوة وهو يحملق في المعلم الهزيل قائلا:

- أحنا ما نخليوشي فرائض الغسيل.

فتمتم محمد المسكين:

- يا لها من مهمة بئيسة !

وتخلى عن قيلولته، ليتوجه إلى منزل الغريق. وفي الطريق كان يردد كلمات سوقية تعبيرا عن غضبه ومن بينها:

- يوم الخراء، يوم الخراء.

وبالمنزل، كان الجميع يتفادى لمس الجثة التي كانت منتفخة وبشعة المنظر. وعندما ترك الدرويش وحيدا رفقة الميت داخل المستودع، بدأ عمله الكئيب وهو يتمتم:

- سأرى الميت في الحلم هذه الليلة بكل تأكيد !

ولأن الجثة كانت ثقيلة، فإنه لم يقلبها واكتفى بصب الماء الفاتر على الصدر والبطن والوجه والسيقان، مستعملا يديه للغسل ولصب الماء. وبعد الانتهاء من عمله، أخبر أقارب الميت الذين جلبوا معهم الكفن. ثم توجه الجميع إلى المقبرة.
وتقدم الرحالة الموكب الجنائزي وهو يتلو آيات من سورة الملك؛ وبما أنه كان المتعلم الوحيد بالقرية، فقد تكلف بهذه المهمة أيضا وتلقى كمقابل، 5 أو 6 سنتيمات من النقود المغربية. وعندما استسلم الدرويش للنوم في الليل، تراءى له الغريق في الحلم، بحيث كان واقفا كما ولدته أمه وبطنه متدلية و منتفخة بشكل لا يتصور، بحيث أصبحت كطبل تصدر عنه قرقرة رهيبة. وأمسك الغريق المنتفخ بشكل مريع، بالدرويش بغية جره إلى قعر واد إيناون حيث هلك.
إن أنهار جبالة والبرابر توقع كل سنة عددا كبيرا من الضحايا بين الصيادين والسباحين؛ وخصوصا المسافرين الذين يقطعونها خلال فصل الشتاء ولا يعرفون الأماكن العميقة بها.
وبدائرة فاس، تستعمل الزوارق لعبور الأنهار الهامة، لذلك تقل حالات الغرق. ومع ذلك فإن الفيضانات غالبا ما تشكل خطرا على الإنسان والحيوان. لكن، وجبت الإشارة إلى أن الحيوانات أكثر احتياطا من البشر، فهي تتفادى بذكائها الغريزي أخطار الطبيعة التي تواجهنا جميعا. وخلال فترات الحر الشديد، تشاهد قطعان العجول وهي تخترق مياه الأنهار التي تصل إلى أسفل عنقها fanon ولكنها تظل حذرة مع ذلك ولا تغامر إلى الداخل. ويعتبر سلوكها أفضل من سلوك رعاتها الشباب الذين يلقون بأجسادهم العارية في الأماكن الخطيرة بالنهر؛ ويظلون مثل البط ساعات طويلة وهم يسبحون ويغطسون ويأكلون ويشربون وسط الماء، دون خوف من تعرضهم لاحتقان مفاجئ. ونجد بقرية كريستال البحرية قرب وهران، نفس السلوك الغريب لدى الأطفال العرب؛ ويتمثل في السباحة مباشرة بعد تناول الغذاء تحت شمس محرقة وبرؤوس عارية. ولم يحدث خلال مقامي هناك مدة ثلاثة أسابيع، في شهر يوليوز 1895، أن شاهدت شخصا متأثرا بهذه الظروف غير الصحية تماما. وبهذا الصدد، فإن خادمنا الماكر المسمى ابن إبقة، وهو طفل لا يتجاوز عمره الثانية عشرة، يدهشنا أكثر من رفاقه. فهو يصر على الاستحمام بعد تناول وجبة دسمة من الكسكس واللحم أو الأرز بالسمك؛ وعندما يملء بطنه، يصعد إلى أعلى صخرة قرب ضريح سيدي موسى

ويغطس في مياه المتوسط. وكنا نقلق عليه، خصوصا عندما يتعمد البقاء تحت الماء مدة طويلة ونقول:

- يا للمسكين، لقد غرق ولن يخرج حيا من الماء !

وفجأة تظهر رجلاه على سطح الماء، وكانت تلك طريقته في تحيتنا؛ ثم يعود إلى الوضعية الطبيعية وتظهر رأسه المحلوقة عن آخرها وينظر اتجاهنا بعينين ما كرتين وكأنه يقول:

- ما الجدوى من أطبائكم أو ليس هذا دليلا على فشل طبكم المزعوم؟

ونحن نتساءل بدورنا: كيف يكون موقف هذه الرأس الصغيرة والجاهلة، لو قرأت مؤلف Les morticoles؟

المركز الرئيسي للساحل[3]

- قرية الخميس، 500 منزل، غير بعيدة عن البحر ويوجد بها سوق ا لخميس.
- القوى العسكرية: 800 من المشاة، عدد السكان المحتمل: 5600 نسمة وهناك حوالي 30 قرية صغيرة غير معروفة.

[3] توجد نبذة تاريخية عن الساحل، ضمن حديثنا عن أصيلة بقبيلة الغربية.

قبيلـــة الغربيـــة

تتكون العناصر الإثنية المتواجدة بهذه المنطقة مما يلي: العنصر السامي sémitique الذي يتشكل من العرب واليهود وهم الأغلبية؛ والعنصر الأمازيغي ومن ضمنه بعض الطلبة الريفيين؛ وهو لا يتميز عن العنصر السامي. وهناك عنصر جديد خاص بالمدن البحرية بالمغربية ويمثله الأروبيون المتواجدون بأعداد قليلة بأصيلة.

أما عن المنطقة، فهي عبارة عن سهل ممتد مغطى بشجيرات الدوم والصبار وعود الند؛ هذه الشجيرات الإفريقية التي تبدو من بعيد كأعمدة تلغرافية. وبالمساحات العارية، يزرع القمح والشعير والذرة التي تبدو حقولها مصفرة منذ شهر ماي، بفعل أشعة الشمس الحارقة.

وتفلح الحقول بواسطة الجياد، بالرغم من وجود قطعان العجول؛ وذلك وفق عادة مستوردة من الخلوط والفحاص. ولا توجد الغابات والأدغال بالمنطقة، باستثناء بعض أشجار الزيتون الكائنة ببساتين الخضر.

والغربية قبيلة بحرية على ساحل المحيط الأطلسي، وهي محاطة بعدة قبائل خاضعة مثلها للمخزن. وتنتمي إلى المنطقة العسكرية لطنجة، بحيث تمدها عند الحاجة بحوالي 1500 رجل من المشاة والفرسان المسلحين ببنادق صوانية، وهي شبيهة بلعب الأطفال إذا ما قورنت ببنادق الموزر Mauser والرمنغتون Remington .

وتسقى القبيلة بثلاث وديان تنبع ببني مساور وتصب مياهها القليلة بالمحيط وهي: واد أصيلة، واد الأحد، ثم واد الحمرا الذي يتسم المد والجزر بمصبه بقوة الرفع.

وتعتبر قرية الأحد من أهم القرى، بفعل سوقها الكبير الذي يقام كل يوم أحد ويأتيه التجار المغاربة من طنجة وأصيلة ومن فاس أيضا، حيث يبيعون لقرويي المنطقة ما يحتاجونه من مواد، مثل السكر والصوف والشموع والملابس الخ...

أما المدارس فهي عديدة ويمكن أن تجدها في أصغر الدواوير؛ ويأتيها الطلبة الريفيون بكثرة مثلما يتواجدون بكثرة أيضا بالخلوط والفحاص.

وتتكون أطعمة القبيلة من اللحم المطبوخ أو المشوي ومن "صيكوك" وهو الكسكس البارد غير المخلوط بالزبدة أو الشحم والمسقي باللبن فقط.

والشراب المفضل لدى الأهالي هو الشاي؛ وتحديدا الشاي الإنجليزي الذي يستهلك بكثرة في المغرب الأقصى. أما القهوة فهي معروفة بالكاد ولا يعيرها الناس أي اهتمام، علما بانها كانت منذ قرنين، تستهلك في كل مناطق الإمبراطورية الشريفة.

وأعتقد بأن الإنجليز هم الذين عودوا المغاربة على شرب الشاي بكثرة، أثناء احتلالهم لطنجة[1]؛ ومن هذه الناحية على الأقل، فإن النجاح فاق كل التوقعات. فرغم أن بريطانيا العظمى فقدت هذه المدينة المفتاح بالنسبة لمضيق جبل طارق، فإنها تمكنت بفضل احتلالها العابر لها، من القضاء على استيراد القهوة بالمغرب وتعويضها بأطنان من الشاي الهندي التي ترسلها سنويا إلى الموانئ الرئيسية بإمبراطورية الشريف.

وتبدو القرى كئيبة وبئيسة، بحيث تنتشرأكواخها بالسهل المليئ بشجيرات الدوم ذات الفائدة المحدودة. ولا يوجد قطاع الطرق بهذه القبيلة التي تجتازها القوافل، باستثناء مكان يدعى العقبة الحمرا، وهو موضع رهيب يلتقي فيه لصوص المنطقة، لذلك يجب الاحتياط من اجتيازه.

- سلطان الطلبة:

بعد موسم الحصاد في الصيف، يختار الطلبة في العادة سلطانا من بينهم. وتدوم سلطنة هذا العاهل الجديد 30 يوما، يقوم فيها الطلبة المرحون بجولات إحسانية[نزاهة] بالقبيلة.

وهذه السلطنة المؤقتة غير معروفة في باقي مناطق جبالة؛ وقد تبناها أهالي الغربية والخلوط محاكات لقبيلة الغرب، جارتهم بالجنوب، حيث تختار كل مدرسة ذات أهمية، سلطانها، مقلدة بدورها ما يحدث بمراكش وبباقي المراكز الكبرى بالمغرب.

ويحظى العاهل المزعوم بنفس امتيازات السلطان الفعلي بفاس [شكليا على الأقل]. فهو يتوفر على حراس وبلاط ومخزن وقياد وباشوات وصدر أعظم ووزراء. وعندما يخرج، يسبقه مناديان يحملان الحراب والسيوف؛ ويتبعه طالب قوي البنية يرفع فوق رأس سلطانه المظلة الحمراء التي ترمز إلى عظمة الشخص.

---

[1] وقد استمر هذا الاحتلال 21 سنة من 1662 إلى 1683. وحل الشاي محل القهوة بشكل نهائي في عهد السلطان المولى سليمان بن محمد [1792-1822]، انظر، غودار، تاريخ المغرب، ص. 584.

وأثناء مرور موكبه بالقرى، يحييه الأهالي المندهشون ويمنحونه الهدايا المختلفة [عينا ونقدا]؛ وتستمر الجولة ويستمر معها حصد الطلبة لما تبقى للقروين المساكين من مدخرات، بعد أن أخذت الإدارة المخزنية أغليب ما يملكون.

وتختلف هذه التظاهرة عن "النزاهة" الجبلية المعروفة، بنظامها وانضباط أفرادها؛ لأن السلطان المزعوم يأخذ دوره بجدية ولا يقبل أي خرق للقوانين وللقواعد الجاري بها العمل. وعندما ينتهي شهر جمع التبرعات، يعود السلطان إلى وضعه الأول ويحمل لوحته كطالب؛ وينسى بأنه كان في فترة ما، يحمل التاج فوق رأسه.

- الفلاحة والأيدي العاملة الريفية:

لنتجول شيئا ما بالبادية. فتربتها خصبة لكنها تفتقر إلى المياه في أغلب الأعوام، باستثناء السنوات الممطرة التي تصبح فيها الحقول مغمورة بالأمطار القادمة من المحيط الأطلسي. ويمتد السهل دون غابات ولا أدغال، بعشبه الأخضر الذي تسقيه مياه الأمطار، فيتموج مع شجيرات الدوم الخضراء أيضا. وفي مواسم الفلاحة والحصاد، يأتي الريفيون المجدون، للعمل عند مزارعي المنطقة. ويستقر بعضهم نهائيا بالبلدة ويهتمون بزراعة الخضر.

ويمكن تقسيم هؤلاء الأجانب إلى فئتين:

1) فئة الريفيين الفقراء الذين يكون هدفهم هو تحصيل بعض المال ثم العودة إلى ديارهم.
2) فئة الريفيين الأغنياء أو الفقراء الذين هجروا منطقتهم بسبب ارتكابهم للقتل ولكي يتفادوا ثأر خصومهم؛ لذلك يلجؤون إلى غرب جبالة، بالغربية وطنجة والخلوط مثلا، حيث لن يلتقوا بأعدائهم على الأرجح.

ويمكن أيضا التمييز، ضمن هؤلاء المهاجرين الريفيين، بين الرجال المتزوجين والعزاب. فالمتزوجون يختارون البقاء ببلدهم؛ أما العزاب فيفضلون الجزائر، حيث يجدون العديد من المتع التي تلبي رغباتهم الجسدية؛ وهي المتع التي يستحيل الحصول عليها في بلدهم المتزمت.

- طيش مهاجر جزائري محمي من طرف فرنسا:

إن قبيلة الغربية خاضعة لسلطة موظف مخزني من أصل ريفي؛ وهو من عائلة أولاد بن عبد الصدوق بتمسمان؛ وهذا العامل تابع بدوره لباشا طنجة. ويتفاهم هذان الرجلان بشكل جيد،

عندما يتعلق الأم بضرب مصالح الأروبيين ومعارضة الأفكار والإصلاحات التي يريد النصارى إدخالها للبلاد.

لكن، علينا الاعتراف بأن لبعض الأجانب طريقة خاصة في اكتساب ود الأهالي المغاربة ! وإليكم هذا المثال الحي لشخصية مسلمة، خضعت للحماية الفرنسية بغرض تحقيق ربح سهل. فبالغربية، يوجد حاليا مالك عقاري اسمه محمد ولد السويحلي. وكان أبوه مهاجرا جزائريا من قبيلة الساحل بدائرة نامور. وبعد موت أبيه، قرر الشاب السويحلي طلب الحماية الفرنسية، لكي يتفادى شطط السلطات المغربية. وبعد أن حصل على طلبه، شعر هذا الرجل الذي ورث ثروة كبيرة وأصبح محميا من قوة عظمى، بالزهو والافتخار؛ وتبدل سلوكه، بحيث لم يعد يحترم ممثلي السلطة الشريفة؛ ويتباهى أمام أهالي الغربية، بكونه شخصا مستقلا لا يخاف من السلطان ولا من القياد. فاجتمع أعيان القبيلةالذين ضاقوا ذرعا بادعاءات الجزائري البليد وبغروره الذي لا يحتمل؛ وأعلنوا ما يلي:

- إن هذا "الشرقي" الذي لم يكن يملك سنتيما وأصبح اليوم غنيا، يعتقد أنه فوق الجميع، "فلنقطع له الزريعة".

وبالفعل، سيهاجمونه سنة 1891 ببرجه، وهو عبارة عن قصر فخم يستفز المساكن المجاورة.

وسيقتلون إثنين من إخوته. ونجا صاحب القصر بأعجوبة ولجأ إلى طنجة، تاركا أخاه الثالث محاصرا بأحد أبراج القصر، في قلب الغربية.

وفي ربيع 1895، كان الرأسمالي الثري يتساءل عن كيفية رجوعه إلى القبيلة الغاضبة، عندما التقى بالدرويش بسوق الخضر. وكان كعادته، يمشي بزهو واضعا يديه على حزامه المحاط بالأسلحة. وسبق لهما أن تعارفا من قبل، لذلك استدعى الرجل المغرور الدرويش للعشاء وللمبيت عنده بمنزله الجميل بطنجة. وطبعا، قبل محمد الدعوة على الفور. وأثناء تناول العشاء حدثه السويحلي بتفصيل وبحركات غاضبة من يده، عن اعتداء القبيلة عليه. وكخاتمة للكلام péroraison نصح الرحالة مضيفه قائلا:

- يا عزيزي، يجب عليك كأجنبي، ألا تتحدى الأهالي؛ لأن المخزن نفسه يداريهم؛ فهل تعتقد أن باستطاعتك ترويضهم لوحدك؟

فأجابه المضيف بافتخار:

- إنني شريف ومن أصول عربية؛ ولست مثل أولئك الريفيين أولاد الحرام. وأقسم لك بأنني سأعود هناك وسأعاملهم كالكلاب؛ فباستطاعتي وحدي أن أ لتهم عشرة منهم !

وأمام رجل طائش مثل هذا الجزائري، فضل الدرويش تغيير موضوع الحديث ولم يجادل هذا الشخص المعاند، ضمانا للعشاء وللمبيت.

وبعد مرور ثمانية أشهر على هذا الحوار، مر الرحالة بطنجة بعد زيارة للمناطق الجنوبية بالمغرب، وسأل عن السويحلي، فأخبره أحد أصدقائه ضاحكا:

- تريد أن تعرف أين هو؟ اعلم بأن ذلك المغرور عاد إلى قصره بالغربية، بعد ظهور الكوليرا بطنجة منذ حوالي 20 يوما. ولم يكن هو الخائف الوحيد من هذا الوباء، بل إن اليهود وبعض النصارى، غادروا مدينتنا حيث تضاعف عدد المصابين بالكوليرا مؤخرا.

لكن رحالتنا لم يخف من انتشار الوباء وبقي بضعة أيام بطنجة قبل الإبحار باتجاه وهران.

وذات صباح وبينما كان يتجول بأزقة مدينة البوغاز التي عاد إليها، اندهش من مرور عربة بجانبه، يجرها بغلان؛ وبداخلها كان السويحلي المعاند ممددا فوق كومة من التبن ووجهه ملطخ بالدماء. وكان المارة يعلقون على المشهد قائلين إن الرجل لن يبقى على قيد الحياة حتى آخر النهار.

فعلق الرحالة على الأمر بالقول:

- يبدو أن الرجل قام بسلوكات مشينة من جديد وأدى الثمن باهظا.

وتبع العربة إلى أن وصل إلى منزل صديقه ودخل مع الأشخاص الذين كانوا يحملون الجريح. وعندما وضع هذا الأخير فوق سريره، تقدم إليه محمد وسأله عن أحواله وسبب تعرضه للاعتداء.

فزمجر الجريح وقال:

- لا تحدثني عن هذا الموضوع، فأهالي الغربية وحوش وجبناء.

عندها أدرك الدرويش المصيبة التي لحقت بصديقه. فقد تعرض صدره وذراعه ووجهه لطلقات بندقية صيد، على حين غفلة، عندما كان يستمتع بنسيم المساء بباب قصره. وأخبره

وهو يدمدم بغضب، بأن الأوغاد الذين فعلوا به ذلك، والذين كانوا يستفيدون من كرمه، سيؤدون ثمن فعلتهم؛ ثم أضاف بمبالغته المعهودة قائلا:

- كان الوقت غروبا؛ وكنت جالسا مع أربعة من أقربائي بباب البرج، عندما هاجمنا شخصان، كانا مختبئين بالأدغال المجاورة وأطلقا النار علينا من مسدساتهما وبنادقهما. ورغم الدماء التي كانت تسيل من جبهتي، تمكنت من إطلاق نار بندقيتي على أحد السافلين الذي فر وهو يصرخ من الألم. ولحسن الحظ، فقد تبعه رفيقه، وإلا كان الرجلان سيستمران في إطلاق النار علينا وكأننا أرانب. ولا أعلم من خطط لهذا الهجوم؛ كل ما هنالك أن قنصل فرنسا أمرني بالعودة إلى طنجة. وكان علي الامتثال لأمره رغم أنفي، وإلا كنت سآخذ بثأري، عبر قتل عشرة من أوغاد تلك القبيلة على الأقل !

والسؤال المطروح هو: كيف يمكن للمرء أن يصدق هذه الحكاية وهو يعلم، الكثير عن مبالغات هذا المحمي الفرنسي؟

لقد كان من اللازم القيام بالبحث والتقصي بخصوص هذه الواقعة؛ وهو ما فعله الدرويش؛ وإليكم النتيجة:

إن محاولة الاغتيال حدثت فعلا، لكن السويحلي هو الذي أشاع الخبر وطلب حماية ومساعدة المفوضية الفرنسية. فقام وزيرنا باستعارة عربة شريف وزان الحاج عبد السلام؛ وأرسل في طلب المشاكس الجريح. وليس السويحلي هو الوحيد الذي حصل بالغربية على حماية قوة نصرانية، فالعديد من المسلمين محميون من طرف بروسيا وإنجلترا وإسبانيا. لكن هؤلاء يتصفون على الأقل برزانتهم ولا يخلقون المشاكل ولا يخبرون أحدا بوضعيتهم الجديدة، التي لا يصرحون بها إلا عندما يواجهون خطرا حقيقيا، خارجا عن إرادتهم.

مدينة أصيلة

بالجهة الجنوبية للقبيلة، تجدون قرية أصيلة الكبيرة التي يدعوها الأهالي بنوع من التفخيم، مدينة أصيلة. وهي متكئة على تلة بين الغربية والساحل وتحتوي على 300 مسكن بشاطئ عار على بعد كيلومتر تقريبا من مصب النهر الذي يحمل اسمها وقرب أمواج المحيط التي تنكسر على أسوارها القديمة. وتمر المراكب بعيدا عن شاطئها دون أن تتوقف، لذلك فإن

التجارة منعدمة بها. فطنجة والعرائش تستحوذان على الحركة التجارية بهذا الجزء من الساحل. وأغلب المباني بأصيلة برتغالية، كما أن أسوارها متينة رغم قدمها؛ لكن القصبة في حاجة إلى إصلاحات كبيرة.

ويكن الأهالي احتراما عظيما للسلطان المجاهد سيدي محمد بن عبد الله الذي استرجع أصيلة من أيدي البرتغاليين، إضافة إلى مدن أخرى بالساحل المغربي؛ وهو الذي وضع أسس مدينة الصويرة.

ويؤكد هؤلاء الأهالي بأن طنجة قد حررت من سيطرة البرتغاليين على يد الريفيين، ولهذا تلقب أحيانا بالريفية. وما دمنا في مجال الحكايات، فلا بأس من الإشارة إلى أن الشعب يتحدث عن التقسيم القديم للساحل المغربي، بين إسبانيا والبرتغال. فقد احتفظ الإسبان بالساحل المتوسطي إلى حدود ملوية؛ واحتفظ البرتغاليون بكل المدن المتواجدة على المحيط الأطلسي.

لنعد إلى أصيلة؛ فهي تبدو لامعة من بعيد لأنها مطلية بالجير؛ لكن ما أن يقترب منها المرء حتى تصبح كئيبة بأزقتها الضيقة، المغبرة في الصيف والموحلة في الشتاء، فضلا عن الأزبال المتراكمة بها والحيوانات النافقة والمتعفنة بأركانها.

ويرتدي الأهالي الملابس الجبلية المعروفة، أي الجلابة والسراويل القطنية البيضاء بالنسبة للرجال؛ والحايك الصوفي الأبيض أو الملون بالنسبة للنساء.

ويستقبل الأجنبي المسلم ببرود من طرف السكان الذين يعيشون في شبه عزلة؛ ويرتابون بشكل غريزي مثل كل المغاربة، من كل واحد لا ينتمي إلى أسرتهم أو عشيرتهم أو طائفتهم.

وأشهر زاوية بأصيلة هي زاوية سيدي ابن مرزوق، وله أخوان مدفونان بتلمسان وغمارة. أما جثمان ابن مرزوق فهو مدفون بضريح يحيط به برج الحمام وخم الدجاج؛ وهي الطيور المهداة إلى الولي الصالح من طرف الزوار. ويعلم "مقدم" الزاوية سيدي عبد القادر بن مرزوق، وهو أحد حفدة الولي، بأن هذه الطيور مهداة لإطعام الفقراء والأجانب. لذلك، فهو ينظم "الوعدات" من أجلهم ويحتفظ بجزء هام من الهدايا. ولدى الرجل منزلان، أحدهما بأصيلة والآخر بتطوان؛ ويقال إنه عالم علامة pic de la mirande قادر على إبداء رأيه في كل العلوم المعروفة بالمغرب.

- الجالية اليهودية بأصيلة:

وهي لا تقطن في الملاح، كما هو الشأن في جهات أخرى من المغرب. فأفرادها المتفرقون هنا وهناك، يعيشون بجوار المسلمين دون إثارة المشاكل، لأنهم يحترمون العادات الإسلامية. واليهودي بأصيلة إنسان هياب pusillanime بشكل مبالغ فيه، وهو يعرف بملابسه السوداء وبسحنته الذليلة والماكرة، في حين تخرج زوجته بدون حجاب واضعة على رأسها منديلا من القطن الأبيض. كما أنه يتكلم العربية بنبرة قشتالية، لأنه حافظ على استخدام الإسبانية التي يتحدث بها مع ذويه. وأغلب عملاء القنصليات هم من أصل يهودي، لأن النصارى لا يريدون العيش بهذه البلدة التي لا تربطها بالعالم الخارجي أية سفينة.

والحال، أن اليهودي يشعر بالغبطة حيث يشعر الأروبي بالقنوط؛ فإذا وضعت يهوديا بأرض أجنبية فإنه سيتغلب فورا على حنينه، عبر تعلم لغة جيرانه الجدد والتعامل تجاريا معهم دون أي وسيط.

فهل ينطبق نفس الأمر على الأروبيين؟ ألا نراهم يقيمون 20 أو 30 سنة بل نصف قرن وأكثر وسط العرب، دون أن يتعلموا ولو كلمة من لغة الضاد؟ وأحيانا ما يقول لك بعضهم بسذاجة:

- يقال إن العربية سهلة، لكنني لا أدري لماذا لم أتعلمها رغم كل هذه المدة.

وبإمكانك أن تطرح على هؤلاء المسألة المحرجة التالية التي ستظهر لهم الهوة المفتوحة تحت أقدامهم.

- هناك أمران: فإما أن العربية سهلة، وفي هذه الحالة فأنتم مسؤولون عن عدم تعلمها؛ وإما أنها صعبة جدا ويسمح لكم بتجاهلها. وعليكم الاختيار بين أحد هذين الأمرين.

وقد استغل محمد بن الطيب بأصيلة، سذاجة المسلمين واليهود معا، حيث ظل يبيع لهم الأحجبة الواقية من كل الأمراض بما فيها العجز الجنسي. فما أن حط الرحال بهذه البلدة حتى شرع في مراقبة أعمال المشعوذين اليهود وتمكن من معرفة أساليبهم الخادعة. فقد كان هؤلاء العرافون المزعومون يكتبون أسماء الله وبعض العفاريت بمربعات قبالية cabalistiques ويبيعونها للسذج الذين يثقون بعلمهم المزعوم. وكمشارك لهم في الشعوذة، تم قبوله في دائرة

السحرة اليهود الذين اندهشوا من كون مسلم يعيش بينهم وينام ويأكل ويشرب معهم، وهو ما لم يحصل أبدا في أصيلة.

وبخصوص مواردها الغذائية، فإن البلدة تتوفر على الأسماك التي يصطادها محترفون لمهنة الصيد؛ وعلى الخضر والفواكه التي تجلب من البساتين المحيطة بها من جهة الغرب. ويعقد سوقها الرئيسي يوم الاثنين على ضفة النهر، خارج الأسوار؛ ويأتيه الأهالي من الساحل ومن الغربية؛ لكنه صغير الحجم وقليل الأهمية.

ويمثل السلطان بالبلدة قايد، كان اسمه سنة 1895 سي سعيد؛ وهو رجل غني وسمين كما يقول العرب؛ ويمتلك المزارع والأراضي بالبادية وأيضا عمارة جميلة بطنجة.

ولا تحظى أصيلة بالأمان التام. فموقعها بين الغربية والساحل، يجعلها دوما في مواجهة قرويي هاتين القبيلتين؛ وبفضل أسوارها، فإنها تحتمي نسبيا من بطشهم. فما ان يحيط بها الأعداء، حتى تباشر بإغلاق البابين الوحيدين الموجودين بها وهما:

باب البحر المطلة على المحيط كما يدل على ذلك اسمها؛ وباب الجبل التي تقع بأعلى نقطة بالبلدة قبالة البساتين.

القرى الرئيسية بالغربية

- أصيلة، 300 منزل، انظر النبذة التاريخية عنها.
- الحجرة الزرقا، 300 منزل، على واد الغربية.
- دشرة أولاد بني عائشة، 50 منزل، ويوجد بها سوق الخميس.
- العقبة الحمراء ويوجد بها مركز مخزني.

وأقسام القبيلة هي: الحجرة الزرقا، أولاد بني عائشة، الفواقة، الغرابة. وتوجد بها ثلاثة انهار وهي: واد أصيلة، واد الوسط، واد الغربية. وينبع الأول ببني ݣرفط، أما الثاني والثالث فينبعان ببني مساور. وتصب هذه الأودية جميعها بالمحيط الأطلسي.

- القوى العسكرية: ألف رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان: 7 آلاف نسمة؛ وهناك حوالي عشرين قرية صغيرة غير معروفة.

نبذة تاريخية عن أصيلة [2]

تحتل هذه البلدة موقع المدينة الليبية الفينيقية القديمة زيليا أوزيليس التي خضعت في البداية للإمبراطورية الاستعمارية لقرطاج ثم للسيطرة الرومانية. ولا نعرف أي شيء عن زيليس التي كانت مركزا تجاريا بونيقيا Pûnique ثم مستعمرة رومانية أسسها أوجست وسماها julia constantiazilis، اللهم من كونها انتزعت من الملوك الموريطانيين وتم ضمها إلى البتيك Betique [3]. ويرجع البكري تأسيس أصيلا إلى حملة النورمانديين سنة 229 هـ [844/843 م].[4] وهذا خطأ، لأن زيليس الرومانية كانت موجودة سنة 712 م وهي فترة الفتح الإسلامي؛ وكانت موجودة أيضا سنة 828م، ما دامت قد سلمت ليحيى بن إدريس حسب ما ورد في القرطاس [ص. 62 من الترجمة الفرنسية].

وأعتقد بأن الحملتين المتتاليتين للنورمانديين على أصيلة، تشكلان أول حدث تاريخي هام بهذه البلدة، وهو الحدث الذي أجبر سكانها على بناء رباط، هو عبارة عن قلعة ستحتمي بها الساكنة المجاورة.

- سنة 921م، احتجز يحيى بن إدريس بمنطقة أصيلة.

- سنة 936م، وحسب ليون الإفريقي ومارمول اللذين نشك في التواريخ المقدمة من طرفهما، فإن الإنجليز دمروا البلدة التي ظلت مأهولة مدة 20 سنة، إلى أن أعاد الحكم الثاني بن عبد الرحمن خليفة قرطبة بناءها وتحصينها.

- في سنتي 950 و 951م، لجأ آخر ملوك الأدارسة وهو أبو العيش أحمد بن القاسم گنون إلى أصيلة، وهي البلدة الوحيدة التي ظلت خاضعة له، واحتمى بأمويي الأندلس [القرطاس، ص. 118؛ وابن خلدون المجلد الثاني، ص. 148 من الترجمة الفرنسة].

---

[2] لم يسبق للأهالي أن سموها أرزيل أو أرصيلة أو أرزيلة Arzile, Arcila, Arzila، وهي الأسماء التي أطلقها الأروبيون عليها. أما المؤرخون العرب، فقد حولوا الزين المفخمة في اللغة الأمازيغية إلى صاد وهذا خطأ؛ لأنه يجب كتابتها أزيلة كما تنطق.

ملحوظة المترجم: رغم إلمامه الكبير بكنوز اللغة العربية، فإن موليراس لم ينتبه إلى ما قد تعنيه لفظة أصيلة بالصاد.

[3] tissot, p. 64 à 67.

[4] El Bekri, ed. de Slane, p. 111 : Dozy, Recherches sur l'histoire de la littérature de l'Espagne, T.II, p. 265.

- سنة 997م، نزع القائد الأموي وداح أصيلة من سيطرة الزيري بن عطية. وهو القائد الزناتي الذي ذهب إلى الأندلس سنة 992م، واستقبل من طرف الخليفة المنصور بن أبي عامر؛ ومن بين الهدايا النادرة التي قدمها له والتي أثارت إعجابه، طائر يتكلم العربية والأمازيغية. ونحن الأروبيون الذين لا نعرف هاتين اللغتين، كنا سنشعر بالخجل أمام هذا الفينق الطائر، لولا إدراكنا بأن الأمر يتعلق فقط ببغاء، علمه الزيري الماكر بعض الكلمات العربية لدغدغة كبرياء المنصور؛ وبعض الكلمات الأمازيغية لتكريس هيبته أمام أعين مواطنيه المغاربة السذج. [القرطاس، ص. 142 والاستقصا، الجزء الأول ص. 91 و 92].

- سنة 1154م، تحدث الإدريسي عن أصيلة، كبلدة صغيرة لا أهمية لها.

- وفي 24 غشت 1471م، هاجم البرتغاليون أصيلة، بقيادة دون ألونسو الخامس ونهبوها.

[Cf. Castellanos, ouv, cité, p. 38 et 39 ; Chénier, t. 2, p. 415]

ويروي شينيي في إحدى ملاحظاته، قصة غريبة تتعلق بالتقديس المزعوم الذي أبداه المسلمون المغاربة تجاه الأمير دون فردنان، بحيث أطلقوا عليه لقبا يستحيل تصديقه وهو سيدي كافر. والشيء المثير في غزو أصيلة، هو تمكن البرتغاليين من إخضاع المناطق المجاورة لها على امتداد مساحة كبيرة.

[voir aussi, Pellissier, Mémoires historiques et géographiques sur l'Algérie, Paris, in-8, 1844, p. 126 à 128]

- في أكتوبر 1508م، حاصر السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي أصيلة، بأعداد كبيرة من جيوشه، وقاومت الحامية البرتغالية بقيادة فاسكو كنتينيو V.Contiño حصار المسلمين بشدة؛ لكن هؤلاء تمكنوا في الأخير من اجتياز الأسوار فاضطر النصارى إلى التحصن بالقلعة؛ وكانوا على وشك الاستسلام بسبب الهجومات العنيفة للمغاربة، لكن الأسطول الحربي البرتغالي بقيادة جوان دي منيسيس J. de Meneses حاكم سبتة، هب لإنقاذهم. وقام فردنان الكاثوليكي أيضا بإرسال مساعدته، مما أجبر الجيش المغربي على التراجع حتى القصر الكبير. لكن أصيلا كانت قد أصبحت خرابا من جراء هذه المواجهة.

- في يوليوز 1578م، نزل الجزء الأكبر من الجيش البرتغالي بشاطء أصيلة، وستتم إبادته فيما بعد، في معركة القصر الكبير الشهيرة.

- سنة 1580، ستخضع المراكز التي كانت مستعمرة من طرف البرتغاليين لهيمنة الإسبان.
- في 13 شتنبر 1589م، هجر النصارى أصيلة بسبب ترهيب المنصور لهم. وحسب ما ورد في مؤلف نزهة الهادي [ص.263 من ا لترجمة الفرنسسية] فإن النصارى تخلوا عن أصيلة، ثم استعادوها مرات عديدة. لكن المؤرخين المسلمين والأروبيين غير متفقين حول هذه المسألة. وهذه قضية مهمة يتعين توضيحها.
- سنة 1595م "هاجم كل من [المنداني] قايد تطوان وعلي [براكس] قايد الشاون، مدينة أصيلة. وكان حاكمها جوان دومنسيس متواجدا آنذاك بلشبونة فخرج مساعده لمواجهة المهاجمين لكنه هزم وقتل. وهب جوان دومنسيس لنجدة جيوشه المحاصرة، متحديا العرب". لقد نقلت حرفيا ما ورد في مؤلف بليسيي Pellissier "مذكرات تاريخية"، ص. 130 و 131، دون تغيير للأسماء العربية التي شوهت وأصبحت غير معروفة، تحت ريشة مارمول الذي استعيرت منه هذه الرواية.
- سنة 1641م، نصب أبو العباس الخدر غيلان من بني گرفط، نفسه أميرا مستقلا بإقليم الهبط. واحتجز بأصيلا الولي الشهير بوسلهام بن قادر، ثم أطلق سراحه فيما بعد. وهذا الحدث الوارد بالاستقصا، الجزء الرابع، الصفحة 14، يبين كيف أن أصيلة لم تعد تحت السيطرة البرتغالية؛ وبالتالي فإن تاريخ انسحاب البرتغاليين من المدينة، الذي قدمه بليسيي وهو سنة 1648، يتعلق بعملية الشد والجذب بين الشعبين المتصارعين حول هذ المنطقة.
- سنة 1667، تحصن غيلان بأصيلة؛ ولم يجرأ السلطان الراشد على مهاجمته، فقرر العودة إلى فاس بجيوشه [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 17].
- سنة 1668، بعد أن قويت شوكة الراشد الذي دعم حكمه بعنف لا مثيل له، شعر غيلان بالخوف، فغادر أصيلة وتوجه إلى الجزائر.
- في سنتي 1690 و 1691م، استولى الأروبيون من جديد على أصيلة. ويروي المؤرخون العرب كيف أن المجاهدين قاموا بحصار هذه البلدة التي كانت محتلة من طرف النصارى الإسبان بدون شك. وقد استسلم هؤلاء، لكنهم لم يثقوا في وعود المسلمين، فأبحروا ليلا وعادوا إلى بلدهم. وبعد مغادرتهم للمدينة، تم إعمارها من جديد وقدم إليها أهالي الريف بالخصوص [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 36 و 37؛ الترجمان، ص .43 من الترجمة

الفرنسية] وهناك فارق سنة بين هذين المؤرخين فيما يتعلق باستعادة أصيلة. فقد تم ذلك سنتي 1690 و 1691 بالنسبة للاستقصا، و 1691-1692 بالنسبة للترجمان.

- سنة 1858م، رست سفينة إسبانية، بأصيلة وطلبت من سكانها تزويدها بالماء الذي كانت في أمس الحاجة إليه، فرفضوا رفضا قاطعا [Castellanos ; p. 42].

- في 20 فبراير 1860م، قصف الأسطول الحربي الإسباني بقيادة بوستيوس إيباريدا B.Y Barreda مدينة أصيلة. ورد المسلمون على القصف بكرات مدافعهم ا لبالغة عددها عشرة. فاضطر الأسطول الإسباني إلى العودة إلى الجزيرة الخضراء بسبب هيجان البحر، بعد أن ألحق خسائر كبيرة بالمدينة المغربية الصغيرة.

إن أصيلة التي تعرف تجارتها حاليا الجمود، قد تمت الإشارة إليها في الخرائط النصرانية للقرن الرابع عشر، كأبعد نقطة باتجاه الجنوب الغربي الذي يمكن للتجارة الأروبية بلوغه، فيما وراء مضيق جبل طارق. وكانت تعتبر في تلك الفترة، محطة تجارية هامة، لكنها فقدت أهميتها اليوم تماما.

قبيلة بني مساور

ترك محمد ساحل المحيط الأطلسي، متجها صوب جبال بني مساور. وهكذا، غادر الشواطئ الرملية قاصدا القمم الغابوية لهذه القبيلة الكبيرة المسقية بشكل جيد، بعيونها وجداولها العديدة. إن أراضي هذه القبيلة خصبة، وهي تمتد من الفحاص إلى جبل الحبيب على مسافة يوم من المشي [40 كيلومترا]؛ أما عرضها فيناهز 20 كيلومترا ما بين الغربية ووذراس. وهي محمية بشكل طبيعي، بفضل جبالها العالية ومقاتليها البالغ عددهم 9 آلاف رجل، خاضعين للقيادة العسكرية لطنجة.

وتكثر بها القرى التي تتراوح أعداد منازلها ما بين 100 و 500 منزل؛ والتي نذكر من بينها:

بني حكيم [300 منزل] والعليق [500 منزل]. وهذه الأخيرة عبارة عن مدينة صغيرة، توجد بها صناعات محلية مثل صناعة النعال والزعبولة [حافظة النقود] والأحزمة الجلدية التي تباع بالمراكز القروية الكبيرة وخصوصا بسوق الخميس. وإلى جانب البساتين الجميلة، توجد حقول القمح والذرة والفول والكتان والقطن. وتتوفر القبيلة على ثروة حيوانية مكونة من الماعز والغنم وأيضا من خلايا النحل؛ كما أن مناخها صحي وبارد، بسبب ارتفاع قممها. وكما لاحظنا من قبل، فإن خصوبة الأرض وجمال الطبيعة، يثيران الشهوات الغريزية بالمغرب. فالأسر لا تجد أي حرج في صنع الصامت المسكر. وخلال السهرات الليلية، يشرب الطلبة الخمر الذي يشترى من نصارى ويهود طنجة، رغم أنف فقهاء الشريعة. كما أن طنجة تمدهم بالمومسات اللواتي يقضين معهم مدة محددة، ثم يعدن من حيث أتين، بعد أن تخمد الرغبات. وتشكل الفتاة المدينية متعة جسدية، يتم اقتناؤها أحيانا، لتنويع الوجبة اليومية من العايلات والغلمان الذين يباعون كالعبيد، وبشكل عادي في القبيلة.

- الكرنفال الجبلي:

يدعى الكرنفال الذي يحييه أهالي جنوب جبالة "با شيخ"؛ غير أن الأقنعة المستعملة تختلف عما نجده في كرنفال الريف؛ وهو ما ينطبق أيضا على الشخوص. [1] فلدى الريفيين، يشارك

---

[1] انظر المغرب المجهول، مذكور، ص. 113 إلى 117.

5 ممثلين في "المسخرة"، في حين نجد لدى الجبليين الأقل بدائية 10 شخوص رئيسيين و 3 أو 4 ممثلين ثانويين [كومبارس] وهم كالتالي:

1) با شيخ رئيس الفرقة.

2) زوجة با شيخ.

3) الزنجية؛ وهي الأمة التي تستخدمها أسرة با شيخ.

4) الحمار

5) اليهودي

6) اليهودية

وهؤلاء الثلاثة هم أيضا من أتباع با شيخ

7) القاضي

8) المؤذن

9) القايد

10)اللص

11)العديد من المخازنية التابعين للقايد.

ولا حاجة للتذكير بأن كل هؤلاء الممثلين مسلمون ذكور. وهنا أود فتح قوس كبير، مخصوص للنفوس العفيفة؛ فأنا سأكون محرجا بإشراكها في هذا العرض المتهتك والبرنوغرافي. لأن النفوس العفيفة والقلوب الصافية، مازالت موجودة والحمد لله. ونجدها بالخصوص لدى النساء، لأن الرجال ميالون أكثر للتهتك وللخلاعة؛ ولدى العذراوات اللواتي يستحقن ثوب الزفاف وأيضا لدى العاملات في الحقول وفي المدن وكل النساء المجدات والشريفات. وأخيرا، لدى أمهات أطفالنا، زوجاتنا المحترمات اللواتي يترفعن دوما عن سلوكاتنا وميولاتنا الخليعة، نحن الرجال.

أقول قولي هذا وأدعو القارئ للغوص معي في وحل اللا أخلاق؛ لأن الموضوع يفرض ذلك.

- لباس با شيخ المضحك: أسمال بالية، حذاء من أوراق الصبار اليابسة، قبعة من جلد التيس، حدبة على الظهر، وحل على الجبين والأنف والخدين، صوف أبيض لاصق بالوجه وباليدين، حبات البازلاء، مسبحة من قواقع الحلزون مدلاة من العنق، عصا رقيقة من الحلفة،

سيور lanières من جلد الغنم وصوفها وحبتان من البادنجال بين الفخدين ترمزان للأعضاء التناسلية.

- الملابس التنكرية لزوجة با شيخ: عادة ما يقوم بهذا الدور غلام مخنث، حيث يلف جسده العاري بحصيرة من الحلفة مشدودة عند الحزام بحبل من الدوم، وفوق الحصيرة يتدلى ثوب قطني من الكتف إلى الكعبين. ويغطي الوجه بيقطينة تستعمل كقناع؛ وبها ثلاثة ثقوب تشكل العينين والفم، المحاط بعظام الزيتون كأسنان. وتحمل زوجة با شيخ قدرا مليئة بالزفت، كرمز لعطور المرأة الجبلية.

- ويلعب دور الحمار قروي بذيء الكلام ومرح، قوي البنية، يضع على جسده زربية من الأسل أو الحلفة وفوق ظهره ما يشبه البردعة. ويغطي رأسه بجمجمة حمار يابسة، تبرز فكه وأسنانه الهائلة، أما الأذنان فتتشكلان من أوراق الند؛ وتعلق عصا بمؤخرته كذيل وبين ساقيه توجد هراوة قصيرة لكن ضخمة، ذات لون أسود وحجرتان داخل كيسين، تمثلان مع الهراوة، الأعضاء التناسلية للحمار.

- ويقوم بدور الزنجية رجل أبيض طليت بشرته بمسحوق الفحم ووضعت يقطينتان تحت أسماله مكان النهدين وعمامة سوداء حول الرأس وحبات الفول كأسنان وزربية قديمة فوق الكتف كلباس للحفلة.

- وعادة ما يكون اليهودي شخصا مضحكا، يقوم بدوره رجل مسلم. ولكي يتميز عن رفاقه، يصنع قميصا من حصيرة وسخة ويضع فوق رأسه طاقية سوداء ربط بها من الجانبين ذيل بقرة للإشارة إلى خصلات شعر الإسرائيليين. وتتشكل لحيته من شعر عنق الحمار أو البغل وينتعل حذائين مثقوبين ومن جلد رديء. ويجب عليه أن يكون مستعدا دوما لتلقي الضربات القوية على ظهره. وأحيانا ما نراه يتدحرج على الأرض بمهارة ويبكي ويشتكي بلهجة غريبة، بينما تسعى زوجته لحمايته بتوسلاتها التي لا تنتهي.

- وهذه اليهودية التي يقوم بدورها مسلم مثير للضحك أيضا، تحيط جسمها بحصيرة ممزقة وتضع على رأسها منديلا من القطن الأبيض وبسيقانها خلاخل من الجلد وبصدرها يقطينتين على شكل نهدين ويطلى جسدها كله بالجير.

- ومن جهته، فإن القاضي يضع حول جسمه كيسا على شكل حايك وفوق رأسه توجد عمامة كبيرة من القطن مثبتة بخيوط من الدوم؛ وبيده سبحة من قواقيع الحلزون وتحت إبطه قطعة من الفلين ترمز إلى القرآن الكريم الذي سيستعمله لإصدار أكثر الأحكام غرابة.

- أما القايد، فيطلي وجهه بالصباغة، كي يبدو منظره بشعا ويعكس كره الأهالي للسلطة. وهو يلعب هذا الدور المخزني الشنيع الموكل له، بعينيه الجاحظتين ولحيته الكثيفة وشواربه المنفوشة والمنتصبة كشوارب نمر هائج، مستعد للانقضاض على فريسته. وتحت ثيابه الكثيفة، يبدو هذا الرجل الغني والبخيل في نفس الوقت؛ وهو يشهر سيفه في كل وقت وحين، كعلامة على قوته وبطشه. ويغطي رأسه بقبعة حمراء، كما يضع بين رجليه مجموعة من أواني المطبخ، كالقدور والقصاعي والصحون، كتلميح لسرقاته العديدة وللمآدب التي يحضرها يوميا.

- أما المخازنية، فإن منظرهم يثير الرعب بسيوفهم المسلولة ونظراتهم الحقودة وملابسهم التي تشبه ملابس القايد رئيسهم؛ وهم ينتظرون كلمة أو إشارة من سيدهم للانقضاض على ضحيتهم. وفي جميع الأحوال، فإن القايد لا يفتح فمه إلا لكي يصدر أمرا بالحبس أو الجلد:

- عليكم بإبعاد هذا وإدخال ذاك إلى السجن، وسيعاقب فلان بمائة جلدة وعلان بخمسين. وعلى الفور، ينقض المخازنية على الشخص المعاند ويأخدون بتلابيبه ويرمونه في حفرة، هي بمثابة سجن.

ويقام الكرنفال مرة واحدة في السنة، خلال عيد الأضحى ويستمر ثلاثة أيام. ففي اليوم الأول، ينتشر الممثلون بالقرية حوالي الظهر ويمرون بكل المنازل جلبا للصدقات، حيث يعيدون على انظار السكان هزلياتهم البذيئة ويتقاضون كمقابل، الخبز واللحم والبيض والدجاج والحبوب.

ونشير إلى أن جميع أفراد القرية يتبعونهم ويهتاجون كلما صدرت عن أحد الممثلين حركات غاية في البذاءة. ولعل ما يميز با شيخ الثرثار هو إلحاحه الدائم على المعاشرة الجنسية، فهو يريد التمتع بحقوقه كزوج بالشارع وأمام الملأ. ورغم ثنيه عن رغبته، فإنه يظل يعاكس زوجته باستمرار. لكنه يعجز عن مواقعتها فتنظر إليه باحتقار وتبصق على قضيبه المرتخي وتذهب إلى القاضي، فتحكي بألفاظ بذيئة ما حصل لها. وسيغتنم القاضي الفرصة معلنا

طلاقها من با شيخ وزواجها منه. غير أن با شيخ سيقترح عليه حلا، يثير حفيظة أي مسلم، وهو توزيع المرأة بينهما، حيث يحتفظ الواحد بالوجه والآخر بالظهر.

وبما أن الاتفاق لم يحصل، فإن الرجل العجوز سيأخذ زوجته وسيركبها بالقوة على ظهر الحمار. وفي البداية لن يبدي الحيوان أية مقاومة، لكن ما أن يستقر الزوجان على ظهره، حتى يهيج ويلقي بهما أرضا ويجثم فوقهما، مصدرا نهيقا عاليا وضراطا مزعجا. وفي خضم هذه الجلبة، تقوم الزوجة بطلاء وجه باشيخ بالزفت، بذريعة تجميله وتطييبه.

في تلك الأثناء، تجلس الزنجية بأحد الأركان وتقوم بعجن الوحل وصنع بعض الحبات وكأنها تهيء الكسكس. ولا يظل اليهودي واليهودية جامدين؛ فهما لا يتفاهمان في أي شيء وتشب بينهما صراعات لا تنتهي ويتبادلان الضرب؛ والسبب في ذلك، هو عجز الرجل جنسيا.

وتشتكي الإسرائيلية إلى القاضي وهي في حالة هستيرية؛ وذلك بلغة عربية – عبرانية يصعب ترجمتها:

- يا شيدي، ليهودي ديالي نفسو ماتت.

ويمثل اليهودي أمام القاضي ويضع بين يديه كيسه المليئ بالجلود والمسامير وهو يشكو:

- أنا نظل نخدم، نرقع البلاغي لشيادي؛ ونزيب لها ما تاكل وعند الرگّادة ما تقنعسي اللوطو [للوطأ].

وعند سماعه لهذه التوضيحات، يجحظ القاضي بعينين رهيبتين ويعلن الحكم التالي:

- حكمت عليك تنيكها عشر مرات فالليلة وإلا نحبسك.

فينحني اليهودي ويقول باحترام:

- قبلت يا شيدي.

وبموازاة مع هذا المشهد بالمحكمة، هناك غير بعيد، مشهد آخر يتسم بالخلاعة والسادية [وانا أجد نفسي محرجا في وصفه]. ذلك أن با شيخ يحاول بإصرار وطأ زوجته ويشتكي من عجزه الجنسي ويبحث بطريقة غير لبقة عن فرجها طالبا من الزوجة مساعدته في ذلك. فترد عليه بسخرية:

- ما الفائدة من ذلك؟ إن نفسك ميتة.

وفي الأخير، تفتح كيسا بطريقة ذكية، فيضع فيه قضيبه المرتخي، لكنه يشعر بسعة الهوة فيتراجع مرتعبا. وهنا تصيح الحشود المتحمسة إلى درجة الهذيان:

- لماذا هربت؟

فيجيب قائلا:

- ليس هذا بفرج، بل هو بئر وانا أخاف أن أغرق فيه وألا أخرج منه.

والان لنستمع إلى المؤذن وهو ينادي المؤمنين للصلاة. فكل تعابيره وحركاته ستتسم بالابتذال. هكذا، سيجتمع كل الأشخاص بأقنعتهم باستثناء اليهودي واليهودية واللص، لإقامة الصلاة. وسيتيمم الحمار. ويصطف المصلون صوب القبلة وراء القاضي الذي يقوم بدور الإمام. وبدل الآيات القرآنية، سيتلفظ بأفظع الكلمات وأكثرها تهتكا موجها خطابه إلى الجمهور الذي لا يتأثر بذلك. وتمارس كل الحركات بشكل مقلوب، وكأن المصلين يطلبون من الله عدم قبول صلاتهم.

في نفس الوقت، يكون اليهودي عرضة لهجوم الأطفال والرجال، حيث يتلقى وابلا من الحجارة والروث فيفر نائحا.

أما اللص، العاري إلا من خرقة تستر عورته، فإن جسده يكون ملطخا بالطين؛ وهو لا يسعى إلا لشيء واحد، وهو سرقة الأقنعة؛ وخصوصا قناعي اليهودي والزنجية. وسيتحقق له ما يريد إلا أنه سيقبض عليه وسيمثل أمام القاضي الذي سيصدر حكمة بإيداعه السجن؛ وهكذا، سيلقي به المخازنية في الحفرة لكنه سيخرج منها بسرعة وسيقوم بتكرار فعلته.

إن با شيخ أو الكرنفال المغربي، معروف بالريف والبرابر وسوس وجبالة ، وفي بعض القبائل الجنوبية بهذا الإقليم الأخير، ينحصر عدد الممثلين في اثنين وهما: با شيخ وزوجته التي تظل طوال الوقت ترقص على دقات الطبول. وهذا العرض ممل بالنسبة للمتفرجين، لكنه أقل تهتكا من الكرنفال الآخر، المليء بالمشاهد الخليعة المنقولة على الأرجح من الألعاب التهريجية الرومانية Saturnales.

والان لنستمع إلى حكاية هداوة ولنتعرف أكثر على هؤلاء الأشخاص الذين يرغبون دوما في زيارة قبيلة بني مساور الغنية، حيث تكثر المتع وتصرف الأموال بكثرة. فهم يأتون إليها خلال موسم جني الفواكه طالبين الصدقات لهم ولزاويتهم، مدخنين غليون الكيف باستمرار

ومستعدون لالتهام كل ما يقدم لهم. وتروى عنهم الحكاية التالية التي أنقلها كما أملاها علي أحد ساكنة الشاون، بحيث حافظت على اللهجة الجبلية دون أن أغير فيها شيئا.

- حكاية هداوة والكيدار:[2]

خرجوا يسعوا في القبيلة ن[3]

بني مساور باثو[4] يضربو

ف[5] الطبل وبعد تحششوا

بالسبسي ونعسوا من اين قاموا

فالصباح ما صابوشي

الكيدار اللي يسعوا به

ويرفدوا[6] عليه الزرع والبصل

والتوم [7] والكرموس وغير

ذاك اللي يعطوها لهم الناس

صابوا سرقوه لهم بداو يزعفوا

على بعضهم وقالوا ما ننجم شي

نرجع للزاوية بلا كيدار

كيفاش نعمل. جاء[8] الكبير

---

[2] هو الحصان غير الأصيل، وهذه الكلمة الدارجة المغربية والوهرانية، مستمدة على الأرجح من الأمازيغية البقيوية [الريف] حيث يدعى الحصان أكيدار وجمعه أكيدارن.

[3] هل يتعلق الأمر بالحرف الساكن الأخير ضمن حرف الجر "من"؟ أم بحرف النون الأمازيغي الجار أيضا والمستعمل من طرف الطوارق؟

ومما لا شك فيه، أن الأمازيغية قد تركت آثارها بالدارجة الجبلية لذلك فإنني أميل إلى الافتراض الثاني.

[4] يبدو هنا أيضا التأثير الأمازيغي على الدارجة الجبلية. فالتاء العربية لدى الزواوا مثلا، تتناوب مع الثاء ومع الذال. انظر بهذا الخصوص كتابي :

- Légendes de la Grande Kabylie, t. 1, p9, note 20, p. 474, note 20.

[5] تعبير مغربي وجزائري، وهو اختصار لحرف "في".

[6] انظر الهامش رقم 4

[7] وهذا أمر غريب، لأنه يجب وضع حرف الثاء هنا.

وعلى الرغم من أن الجبليين يستعملون هذا الحرف كثيرا، إلا أنهم عوضوه في هذه الكلمة وفي كلمات أخرى، بحرف الثاء.

[8] تعبير جبلي، يشبه كثيرا التعبير الأمازيغي Ikker ed [نهض]؛ وهو يعني في الواقع: "عندئذ"، "في تلك اللحظة".

فيهم قال لهم جبدوا[8'] السبسي
وعلاش تخمموا، عمروا السبسي
واعطوه له يشرب، من اين
سف السبسي وجبذ احماروا
عينيه[9] وبدا يشوف السما وقال
لهم اللي دانا الكيدار اسمه عمر
واعطى السبسي لصاحبه وجبذ
جبذة وقال لهم اللي أدانا الكيدار
إذا كا ن اسمه عمر راه أشقر[10] وأعطى
السبسي لصاحبه الثالث وقال له
أجبذ أنت، خذا السبسي وجبذ
وقال لهم، إذا كان اللي أدانا الكيدار
اسمه عمر ونوله[11] أشقر راه أصله
من بني مسور[12]، عود اعطى السبسي
لخاه الرابع وقال له اجبذ
حتى احماروا عينه وقال لهم إذا كان
اللي دانا الكيدار اسمه عمر ونوله
أشقر وأصله من بني مسور، راه
ادانا الكيدار بلا شك للقصر
قالوا يا الله نمشيو للقصر، اتحزموا
ومشاو للقصر ودخلوا للقصر
ودخلوا عند القايد

[8'] وتعني حرفيا "اخرجوا".

[9] يرفض الجبليون، كورثة للأمازيغيين القدامى، استعمال المثنى وقد حاولت إقناع الشاوني باستعمال "عينيه" بدل "عينه" لكنه رفض. لذلك خضعت لإرادته وكتبت "عينه" التي تحيل على المثنى.

[10] أزعر أو أصهب.

[11] قلب لكلمة لون

[12] استعمل لفظ مسور بدل مساور لدواعي النظم

قالو له احنايا[13] هداوة ن

سيدي هدي بيتنا في بني مسور

وراهم داونا الكيدار واللي سرقه

لنا هو عمر ونوله أشقر وأصله

من بني مسور ودخله يبيعه

هنا عندك ف القصر[14] دابة[15]

دبر[16] لنا فالكيدار، قال لهم

باش[17] عرفتوا هذا الرجل الاسم ديالو

قالوا عندنا باش نعرفوه، جا

القايد عمر لهم مخفية[18] بلتشين[19]

وغطاها بالمكب[20] ومن فوق المكب

المنديل د[21] القطن وقال لهم[22]

إيوا شوفو[23] واش ف وسطها

ونجيب لكم الكيدار أو

نشري لكم واحد آخر

جا الكبير ديالهم وقال لهم اجبدوا

السبسي؛ جبدوا السبسي وعمروه

وعطاوه للكبير ديالهم، سف وجبذ

---

[13] الياء هنا زائدة أو حشوية explétif.

[14] المقصود مدينة القصر الكبير بدائرة جبالة.

[15]دابة، تعبير دارجي مغربي، يعني الآن، في هذه اللحظة، فورا، ويستعمل بكثرة.

[16] فعل أمر دبر، وهو من الأفعال ذات الدلالات المتعددة، مما يحير الطلبة.

[17] اختزال لكلمة بأي شيء.

[18] وهي مرادفة للمترد بالجزائر.

[19] البرتقال؛ وهي كلمة دارجة مغربية وجزائرية.

[20] المكب هو غطاء من الحلفة يأخذ شكل قبعة مدينية

[21] أشرنا إلى دور الزائدة وهو شبيه بدور "متاع" عند الجزائريين.

[22] لم يرد الراوي إخبارنا بأن القايد هيأ طبق البرتقال في سرية تامة

[23] وتعني هذه الكلمة الدارجة: انظروا وأيضا خمنوا.

وقال هذا الشي مكور، وعطا

السبسي ن، صاحبه سف وجبذ

ثاني وقال إذا كان الشي مكور[24]

راه أحمر، وعطا السبسي ن الثالث

جبذ ثاني وقال إذا كان مكور

وأحمر راه لتشين د القصر

زاد عطا السبي ن الرابع

سف وجبذ حتى انقلبوا عينيه

وقال للقايد جبنا الكيدار

صار القايد فحيار، فتش وصاب

الكيدار فالقصر واللي عباه

أحمر وأشقر وأصله من بني

مسور، وجا باش يبيعه

فالقصر وكلامهم معبر.[25]

القرى الرئيسية ببني مساور

- بني حكيم، 300 منزل.
- العليق، 300 منزل، على واد بني حكيم
- القوى العسكرية: 9 آلاف من المشاة.
- العدد المحتمل للسكان: 65 ألف نسمة

[24] يجب أن تخضع الواو للتضعيف

[25] تبين هذه العينة من اللغة الجبلية، إلى أي حد خضعت العربية للتبديل من طرف هؤلاء الجبليين الذين كان أجدادهم في القرن الرابع عشر الميلادي يتحدثون الأمازيغية. وقد حاولت بدون جدوى معرفة النطق المحلي، كما هو متداول بتطوان وفاس. وأنا أعترف بعجزي عن كتابة هذه اللهجة كما هي. وأتساءل كيف كانت عليه منذ أربعة أو خمسة قرون، أي عندما بدأ جبالة يعربون بالكاد.

ربما كانت شبيهة باللهجة العربية لدى الر يفيين حاليا، وإذن، فقد حصل تقدم ملموس في هذا الإطار، وأعتقد بأن جبالة سيتقنون اللهجة العربية مثل المجموعات الأمازيغية الأخرى، هذا إذا ما استمرت لغة الضاد في تقدمها وانتشارها.

قبيلـــــــة الفحـــــاص

لقد بلغنا أبواب طنجة، عاصمة جبالة بدون منازع، هذه المدينة الإسلامية النائمة على بعد خطوتين من أروبا.[1] وانا أتوقف هنا بعض الشيء، للإدلاء بأفكار ساورت ذهني.

ففي هذه الجهة من المضيق يسود الموت والسكون العميق؛ ومن الجهة الأخرى تسود الحياة والنشاط. لماذا؟ أمام هذا السؤال ليس هناك سوى جواب واحد وهو كالتالي: لا ثروة مادية بدون ثروة عقلية. فالحضارة الصناعية الخارجية، هي ابنة الحضارة الروحية الداخلية. وبصيغة أخرى مختصرة، هناك ترابط وثيق بين التطور السيكولوجي والتطور الاقتصادي.

وتعتبر طنجة وفاس وقسطنطينية، أو لنقل المغرب وتركيا وإيران وباقي البلدان الإسلامية الخاضعة للشريعة، مثالا بارزا في هذا الإطار.

ويجب أن نظهر هذا الترابط بين التطور السيكولوجي والتطور الاقتصادي، على مرأى ومسمع المسلمين وإقناع عقولهم المتعصبة بالحقيقة التالية وهي أن الجبرية ليست هي مرض الإسلام.

فما مصدر هذا المرض إذن؟ إنه موضوع مثير للنقاش. وللأسف، فإن جبهة السفسطائيين المعاندين، هي التي قدمت الآراء التي تحجب عنا حقيقة الإسلام. فالكتاب المسيحيون اتفقوا على شيء واحد، وهو عدم فهمهم لهذه ا لحقيقة.

هكذا، اعتقد المسيحيون بأن سبب هذا المرض راجع إلى جبرية الإسلام. واعتبر المسلمون من جهتهم بأن واجب المؤمن هو العمل من أجل سعادة أبدية والخضوع للإرادة الإلهية، أي الالتزام بمقتضيات الشرع كما هي. فلنبدأ بالجبرية ولنر هل تسمح لنا بمعرفة أعماق الإسلام والخراب الذي لحق بالبلدان الإسلامية، بسبب العنصر الحقيقي الذي سأشير إليه بعد قليل.

صحيح أن الاعتقاد بالقدر موجود بالقرآن الكريم. لكن، ألا نجد هذا المعتقد في الفكر القديم برمته؟ ومع ذلك ألم ينتج العصر القديم أعمالا رائعة؟ أو لسنا جبريين بمعنى من المعاني؟

فنحن لا نستطيع إدراك ما لا يمكن إدراكه ونعترف بأننا لا شيء وبأن الله وحده هو كل شيء.

---

[1] ليست إسبانيا نقيضا للمغرب بكل تأكيد. فعلى جانبي ا لمضيق، هناك تشابه على مستوى التخلف الفكري والتعصب الحاد، إلى درجة الاعتقاد بأن أروبا تبدأ حقيقة من المنحدر الشمالي لجبال البرانس Pyrénnées.

لقد أصبحنا جبريين منذ تأسيس أثينا؛ وبقينا على تلك الحالة، مع إدخال بعض التعديلات العامة عليها، حيث أصبح باستطاعتنا اليوم تبني تصور جديد ورائع للحياة وهو: "أننا خلقنا للعمل ولكي نزرع حديقتنا"، على حد تعبير فولتير Voltaire. وإذن، فإن المعتقد الجبري المفهوم بهذا الشكل لم يكن هو السبب في سبات العالم الإسلامي، فما هو هذا المرض الذي استشرى في جسم إخواننا المسلمين؟ إنه في نظري هو: **التشاؤم الديني**.

وإذا ما تأملنا القاعدة التالية وهي أن المؤمن متشائم في الدنيا ومتفائل في الآخرة؛ فإننا سنصل إلى الخلاصة التي مفادها أن المتشائم الديني هو الذي يعتقد بأن كل الشرور موجودة في هذه الدنيا وكل الخير موجود في العالم الآخر. ويمكننا أن نلخص الفكرة بهذا الشكل: الجبري هو الذي يعتقد بأن كل شيء مقدر سلفا؛ والمتشائم هو الذي يعتقد بأن كل الشرور موجودة بعالمنا الأرضي.

فأي موقف سنختار؟ أو بالأحرى أي موقف ستتم إدانته؟ إن أسوأ الموقفين في نظري، ليس هو الموقف الأول. لأن الجبري كما أسلفنا، كان في القديم صانعا للميثولوجيات الرائعة وكان عبقريا في الكثير من الأحيان. أما الموقف الثاني، فهو خطير وغير مفيد، لأنه يؤكد على أن الوجود الدنيوي سيء وعلى أن كل حركة لا جدوى من ورائها وعلى أن الإنسان خلق من أجل السعادة الأخروية، على اعتبار أن الحياة الزائلة التي يعيشها في دنياه، ليست سوى تحضيرا للسعادة الأبدية. إنها أطروحة الفشل والكسل والإحباط وفلسفة اليأس والموت التي تؤدي حتما إلى انهيار الملكات والقوى الإنسانية.

وكانت هذه هي أطروحة الإسلام في بدايته والتي ستصل إلى أقصى حد مع الفقهاء المتزمتين. فالكتابان السماويان [الإنجيل والقرآن]، احتقرا المادة والدنيا التي مجدتها الوثنية القديمة رغم نزعتها الجبرية.

[**ملحوظة المترجم**: مرة أخرى يجب التعامل بحذر مع أحكام موليبيراس حول الإسلام. فمعلوم أنه لا رهبانية في الإسلام؛ ومن جهة أخرى، هناك اجتهادات كثيرة في الفكر الإسلامي، أكدت على تضمن القرآن الكريم لتعاليم تدعو إلى تحمل المسؤولية وتثمن إرادة وحرية الإنسان؛ ونستحضر هنا اجتهادات المعتزلة كمثال].

لقد سادت النزعة التشاؤمية مدة ثمانية عشر قرنا وأصابت الإنسانية بالشلل؛ وكان من اللازم أن يكون هناك رد فعل، يقضي على هذا المذهب السلبي ويعوض كره الحياة بحبها، ويدفن التشاؤم القديم تحت تفاؤل مزدوج: دنيوي وأخروي. وهو ما تحقق بأروبا وأمريكا الشمالية اللتين تقدمتا بقفزتهما الهائلة على الأعراق التي ظلت تكره الدنيا.

لقد حاولت البلدان المسيحية المعاصرة وعلى رأسها البلدان الأنجلو-ساكسونية أن تجمع بين التفاؤل الأخروي والتفاؤل الدنيوي، دون أن تنكر أهمية الحياة الأخرى. وقد نجحت في ذلك بطريقة سريعة وبسيطة عندما أعلنت بأنه من الممكن أن يكون المرء سعيدا بشكل مزدوج:

1) في هذا العالم، من خلال حب الحياة والعمل.

2) في العالم الآخر، عبر السعادة الأبدية.

وبذلك أصبحنا نعاني ظاهرة مثيرة، وهي أن الأعراق الأكثر ورعا من الناحية الدينية، أي الأنجلو ساكسونيين، هي أيضا الأعراق الأكثر اجتهادا وسعادة في العالم الحديث.

فبفضل التقدم الفلسفي، تطورت المسيحية وتخلصت من جمودها، رغم بطء هذا التطور. وعلى أية حال، فإن تاريخها هو تاريخ مسار تطوري طويل، إيجابي أحيانا وسلبي أحيانا أخرى.

ولننظر الآن إلى الإسلام. لقد ظل جامدا وهذا هو السبب المؤدي إلى هلاكه. فقد ظل المسلمون خاضعين للتعاليم الدينية، دون أن ينتبهوا إلى ما يحدث حولهم من تطور على المستوى الفكري. فمن هو هذا الرياضي القوي، القادر على فتح التابوت الذي يرقد فيه هذا الشخص المحتضر ومخاطبته بجرأة قائلا:

- ارم كفنك المصنوع من التشاؤم والجبرية. وانظر إلى أحوال البلدان الأخرى، فهي تحب الحياة، لذلك أصبحت سعيدة. وهي سعيدة لأنها أدركت بأن الخير والسعادة قابلان للتحقيق في هذه الدنيا التي تحتقرها ببلادة. نعم، إن الخير والسعادة سيتحققان بفضل العمل والتناغم بين المصالح المادية والمعنوية.

لكن بدل هذه الكلمات المحفزة والحيوية والتنويرية، فأنت لا تسمع في "القبر الإسلامي"، سوى خطابا كئيبا، قديما مثل العالم، يردد ما يلي:

- أيها المؤمن، عليك أن تضحي بالحياة الحاضرة، كي تكسب الآخرة. فالاهتمام بالشؤون الدنيوية والعمل اليدوي والفكري، لا جدوى ولا نفع من ورائهما.

وعليك أن تحتقر كل ما ابتدعه الفكر الإنساني من حقائق جديدة وأن تلعن كل الأنشطة وعلى رأسها الأنشطة الذهنية التي هي مصدر هلاكك. فالحياة في هذه الدنيا عذاب والوجود عبارة عن حلم محبط وجحيم زرعت طريقه بالأشواك. إن الحياة الحقيقية الوحيدة، هي الحياة الأخروية التي خلقت من أجلها، أما الباقي فلا يساوي شيئا.

ما هي طبيعة هذا الخطاب؟ أفلا نجد أنفسنا هنا في قلب العصور الوسطى، ولربما قبل ذلك، في فترة شهداء الإيمان، أي في العصر الذهبي للتشاؤم الديني ولاحتقار الدنيا؟

وباختصار، إن الإسلام هو عبارة عن بوذية مقلوبة. فالوجود الأرضي بالنسبة للمسلم، مرادف للراحة والنوم والهدوء والكسل ولنوع من النرفانا، مع فاصل تردد فيه الابتهالات ويمارس فيه الجهاد والصيام، عندما يستيقظ المؤمن من سباته.

إن النهر الفلسفي والاقتصادي والصناعي الرائع الذي غطى بمياهه العرقين الجرماني والأنجلوساكسوني في البداية، ثم اجتاح الأراضي اللاتينية والسلافية، قد بلغت روافده إلى الشعوب ذات العرق الأصفر والأسود. فلماذا توقف عند الحواجز العالية لجبال البرانس ؟ ألأنه يخاف اجتياح شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث يعتقد بأن الهلال ومحاكم التفتيش مازالا مسيطرين ؟

عليك أن تتقدم يا نهر الحياة، يا أيها النهر الجامح ! فقدرك هو تجاوز كل الحواجز بما فيها جبل الغرانيت المتمثل في التعصب الإسلامي.

مـديـنة طنـــجة

إن حالة طنجة اليوم، هي حالتها كما كانت منذ قرون خلت وكما أصبحت عليه منذ الفتح العربي لها. وإذا كانت أسوارها قد تغيرت، فإن روحها ظلت كما هي، روحا صلبة، هادئة وجامدة؛ وهي الروح المتينة التي شكلت فوق سنديان الإيمان من طرف مجاهدي الإسلام. فلندخلها الآن برفقة الدرويش.

لقد انتقل هذا "الدرويش" الفيلسوف من بني مساور إلى منطقة الفحاص، عابرا قرى ودواوير معزولة وصغيرة، لم يرغب في التوقف عندها، لأن وجهته كانت هي طنجة، هذه المدينة الكبيرة. وكان يرغب في الاستمتاع بالمأكولات اللشهية للمسلمين واليهود ب " طنجيس" العتيقة التي تنام بداخل أجمل خليج بالمغرب، قبالة الصخرة البريطانية الرهيبة التي تهدد مدافعها السبع مائة، أروبا وإفريقيا؛ وهي مستعدة دوما لإطلاق وابل من قذائفها على مياه المضيق.

واجتاز الرحالة بسرعة البساتين المحيطة بطنجة، وسار بأحد الأزقة المحاذية للشارع الكبير الذي يمتد من الميناء حتى وسط المدينة. آنذاك، سمع صوتا متهدجا Chevrotante مرفوقا بنغمة كمان حادة. وكان الصوت يغني المقطع التالي :

رمت عينها في ورخت الأشفار

وقبضت علي قبضة مثل السلوقي في الشبار

عييت ما ندور ونختار

والمعشوق في الزين ما يكون إلا صبار

وبينما كان المغني يكرر هذا المقطع المرة تلو الأخرى، كان محمد يتساءل أين سمع هذا الفنان المعمم وكيف التقى به ؟ ولم يكن الرجل قريبا منه حتى يتمكن من التعرف عليه. لذلك اضطر الدرويش إلى دفع المتشردين والبؤساء والعميان والقرع، المتحلقين حول هذا المغني الذي يثير أعجابهم، إلى أن وصل بالقرب منه وتوقف هذا الأخير عن الغناء وحملق في الرحالة الذي تمتم قائلا :

-ها هو يتجه صوبي.

وبالفعل، اقترب الفنان من الدرويش وبدأ يحملق في وجهه وأشار له بيده، كي يبتعدا معا عن أعين الفضوليين. وخاطبه هذا الفنان البئيس قائلا :

-ألم تتعرف على صديقك الذي التقيت به بصنهاجة الوطــا ؟

فرد الرحالة بالإيجاب، بعد ان تذكر المغامرة المأساوية لهذا الرجل بتازوذة.[2]

ففي ظهيرة أحد الأيام الخريفية، كان الرحالة ممددا فوق مقعد حجري بإحدى أزقة القرية؛ وكان يستمع إلى نفس الأغنية التي كان يرددها نفس الشخص. وفي تلك اللحظة مرت امرأة محجبة تحمل جرة ماء فوق رأسها وأبطأت في مشيها لسماع الاغنية؛ ففهم الفنان بأنها وقعت في حبه. وعندما اختفت عن الأنظار نهض الرجلان وتوجها نحو المسجد، لكنهما عرجا قبل ذلك على بيت الصحفة الذي كان مقابلا لبيت الله.

وبعد فترة من الزمن، دخلت فتاة صغيرة إلى مكان الخلاعة ذاك وهي تحمل معها منديلا يضم فطائر وبيضا مسلوقا ملونا بالاحمر والأصفر. ومدت المنديل إلى صاحب المكان وهمست في أذنه قائلة :

- من عند حمامة[3]

وخرجت الفتاة، ثم خرج بعدها الدرويش الذي لم يكن يرغب في أن يكون طرفا في هذه القصة الغرامية. ولم تمر ثلاثة أيام حتى هرب العشيقان إلى قبيلة رغيوة. إثر ذلك، وقع نزاع بين أقارب الرجل وأقارب المرأة التي كانت متزوجة؛ وبدؤوا يتراشقون بنيران بنادقهم، في كل مكان، في الحقول والأزقة.

وأردف الموسيقي مخاطبا صديقه الدرويش :

- لقد طلب أقاربها من أهالي رغيوة تسليمي لهم؛ لذلك تخليت عن حمامة ولجأت إلى هذا المكان حيث لا يعرفني احد.

وســـــأله محمــد :

وما هو مصــــير حــمامــة ؟

فأجـــابه الفـــــنان :

---

[2] وهي قرية بصنهاجة الوطـــا، قسم عين مــديونــــة.

[3] حمامة اسم امراة؛ وهو متداول بكثرة لدى الصنهاجيين.

- لقد اختطفها عزاب أحد بيوت الصحفة؛ وحسب ما بلغني، فإنها تحظى باهتمام خاص من طرف الرجال في صنهاجة الغـــدو.

وعلق الدرويش قائلا :

- هـــذا أمـــر جيــد.

وافترق مع صديقه الطائش الذي أدرك شخصيته تماما. فقد كان الرجل مشبوها ومنحرفا وبإمكانه أن يتحول من عاشق ولهان إلى قواد خدوم.

مســـاجد وزوايــا طنجــة :

سيقوم الدرويش بوصف الجانب العربي الإسلامي لطنجة، لأنه هو الجانب الذي يهمنا هنا، ولأنه لم يسبق التعرض له من طرف السياح الأروبيين الذين تركوا لنا بالمقابل وصفا طوبوغرافيا جميلا للمدينة.

وقد قرر رحالتنا في البداية، القيام بأبحاث تهم مجال الأطعمة داخل المدينة. وفي الحقيقة، فإن نتائج هذه الأبحاث كانت خصبة ومفيدة. وكان العدد الكبير من المتسولين بالأزقة، إشارة إلى أن بأمكانه الاعتماد على صدقات المحسنين؛ ولن يضطر إلى الذهاب إلى المطاعم الشعبية والفنادق Caravan sérials، حيث يتعين التوفر على النقود.

هكذا، دله أحد الشحاذين على زاوية الحاج عبد السلام الوزاني التي يكون فيها الأكل والمبيت مضمونا. وتوجد هذه الزاوية بحي سيدي إيدر؛ وكان على رأسها، مؤسسها نفسه وهو عبد السلام الشهير الذي كان يدعوه المغاربة " زوج الإنجليزية" والذي سيتوفى سنة 1892. ويتلى بهذه الزاوية " ورد" مولاي عبد الله الشريف، تبعا لزاوية التهاميين بوزان. أما زاوية درقاوة، فتوجد بحي دار البارود. ويشرف "مقدمها" على تلاوة "ورد" مولاي العربي الدرقاوي الذي سبق أن تحدثنا عنه، خلال مرورنا بقبيلة بني زروال.

وتتواجد زاوية عيساوة بحي الساقية الجديدة، وخلال الموسم، يقوم أتباع سيدي أحمد بن عيسى بمكناس، بحركات بهلوانية مثيرة.

وتعتبر زاوية حمادشة قريبة من عيساوة. ويتلى بها " ورد" سيدي علي بن حمدوش المدفون بزرهون [دائرة فاس]. وحمادشة مشعوذون ويقومون بحركات بهلوانية أكثر إثارة من حركات عيساوة. وسنتحدث عنهم بتفصيل عند وصولنا إلى قبيلة زرهون.

وبالنسبة لكل من زاوية بنعجيبة وبريسول ومولاي عبد السلام بن مشيش، فإنها توجد بالقصبة؛ وتعتبر زاوية بنعجيبة أصغرها حجما. وبحي دار البارود، نجد زاوية مولاي عبد القادر الجيلاني وأيضا زاوية سيدي أحمد التاجاني وليس التيجاني؛ لأن المغاربة المتعلمين يعتقدون بان الاسم مشتق من التاج. ومؤسس هذه الزاوية من قبيلة التجاجنة، قصر آيت مهدي قرب لغواط.

[**ملحوظة المترجم** : يبدو أن معلومات موليبيراس حول سيدي أحمد التيجاني غير دقيقة. فهذا الولي الصالح ولد بعين ماضي بالجزائر سنة 1737 وكان جده الرابع محمد بن سالم قد انتقل من قبيلة عبدة بأحواز آسفي المغربية، إلى قبيلة تيجانة بالجزائر وتزوج منهم وصار أولاده وأحفاده يعرفون بالتيجانيين. ومعلوم أن سيدي احمد التيجاني انتقل مع أهله إلى فاس سنة 1789 وظل مقيما بها إلى أن توفي سنة 1815].

لقد قمنا بذكر الزوايا الرئيسية؛ وهناك زوايا أخرى بالمدينة وتعتمد جميعها على صدقات المحسنين وعلى ممتلكات الحبوس لتدبير شؤونها.

وأستسمح القارئ إذا كررت مرة اخرى، بان هذه الزوايا الإسلامية لا سلطة لها ولا تأثير على السياسة ولا على الدين بالمغرب. ومن الممكن ان تصبح مهيمنة في المستقبل بفضل النصارى. لكن هؤلاء سيعقدون الوضع الداخلي، بخلق دولة داخل الدولة وبرعاية أفاعي ستنشب أنيابها بالخيرات العمومية "للكافرين"، قبل أن تلسع من أحسنوا إليها.

ويحظى سادة هذه الزوايا بالاحترام، لدى الأوساط الراقية بالمجتمع الإسلامي؛ وهو شبيه باحترامنا لرجال الدين عندنا، رغم نزعتنا الشكية.

لكن الطلبة المغاربة ينتقدون بشدة هؤلاء الرؤساء [المقدمين]. وفي الحقيقة، كيف يمكن للمرء أن يحترم أشخاصا أحياء لهم عيوبهم مثل باقي الناس وتذاع أخبارهم على الملأ؛ علما بأن بعض الصلحاء الميتين لا يسلمون هم أنفسهم من النقد اللاذع. أو ليس الولي الصالح سيدي الأخضر بن خلوف هو الذي قال:

"كم من يزار *** مقامه في النار"؟[4]

[4] ومعنى هذا القول، كم من الأولياء الذين تزار أضرحتهم يوجد مكانهم في جهنم. والأخضر بن خلوف صاحب هذا المثل، مدفون بدائرة مستغانم. ولربما لاحظ من مكانه، بالجنة أو بالنار، بأن ضريحه يزار أيضا !

وكيفما كان الحال، فإن الأولياء المبجلين من طرف العامة، لا يضاهون المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الإسلام. وإليكم هذا المثال العربي:

أربعين والي *** في مقام مولاي عبد القادرالجيلالي *** تشد في ركاب صحابي.

ويذهب بعض الطلبة المعروفين بسخريتهم اللاذعة إلى أبعد الحدود؛ مما يثير امام فكرنا الفلسفي والنقدي العديد من التساؤلات. ففي المثال التالي: "ما ولى من القبر شارد"، إثارة لمسألة الحياة في العالم الآخر. وأعترف بأنني قد ذهلت عند قراءته أول مرة.

- الاستسلام والحماية والقانون الدولي:

كانت المعاهدات الأولى بين النصارى ومسلمي إفريقيا الشمالية، منذ الفتح العربي إلى القرن الثاني عشر الميلادي، شفوية وليست مكتوبة. ويقدم لنا نصان لاتينيان مترجمان عن العربية ويرجعان إلى الفترة ما بين 1229 و 1236م، المبادئ العامة للمعاهدات الموقعة بين الأمم الأروبية. وتتضمن على الخصوص، إجراءات حمائية للأشخاص المسيحيين ولممتلكاتهم وضمانات من الأجانب وإقرارا بحرية التبادل وتحديد مسؤوليات القناصلة والممتلكات الموجودة بالفنادق والكنائس والمقابر وعملية استقبال الأجانب والأصدقاء والأشخاص المحايدين المنتمين مع ذلك إلى بلد حليف؛ بالإضافة إلى قوانين أخرى عامة وداخلية، لا يسمح المقام بعرضها بتفصيل هنا.

وهذه المعاهدات التي كانت في الحقيقة عبارة عن استسلام capitulation، سبقت بثلاثة قرون، معاهدة الصداقة الشهيرة، الموقعة بين فرانسوا الأول وسليمان العظيم، والتي شكلت أساسا لكل أشكال الاستسلام الناجمة عنها.

إن الأروبيين يعيشون حاليا بالمغرب، في ظل نظام الاستسلام، أي تحت نظام معاهدات تضمن لرعايا الأمم النصرانية المقيمين بشكل مؤقت او دائم بالبلدان الأخرى غير النصرانية وخصوصا الإسلامية، الحق في عدم الخضوع للسلطات المحلية؛ والخضوع بدل ذلك للسلطات الوطنية الممثلة من طرف القناصلة وعملائهم. غير أن نظام الاستسلام المعمول به في كل البلدان الإسلامية يزداد تعقيدا في الإمبراطورية الشريفة بفعل نظام الحماية. فكما أن السجل التجاري قد ابتكر من طرف اليهود المضطهدين والماكرين مع ذلك، فإن المعاهدة

الدولية المعروفة في الغرب تحت اسم الحماية، قد ابتكرت أيضا من طرف التجار الإسرائيليين، بغرض التغلب على منافسة التجار المسيحيين لهم.

يقول كاتب اسباني سيذكر اسمه فيما بعد:"عندما أجبرت الظروف سلطان المغرب على فتح أبواب بلاده أمام التجارة الأجنبية، استقرت جالية أروبية بمختلف الموانئ الساحلية، للقيام بمبادلات تجارية. لكن الوافدين الجدد كانوا يجهلون لغة وعادات وتقاليد البلد. وفضلا عن ذلك، لم يكن بإمكانهم التجول داخل المغرب لأن الزي الأروبي كان ممقوتا من طرف الأهالي؛ لذلك اضطروا إلى استخدام بعض الأفراد من الأهالي كسماسرة. ووقع اختيارهم أساسا على اليهود نظرا لمهارتهم التجارية. لكن اليهود المغاربة اللذين غالبا ما يحملون معهم مبالغ مالية كبيرة، لا يمكنهم التجول بأمان بالأسواق المغربية، ما لم يكونوا متوفرين على حماية أجنبية.

هكذا، اتفقت الحكومات المغربية والأروبية، على أن يتوفر كل تاجر على سمسارين محميين من طرف الدولة التي ينتمي إليها هذا التاجر. وستشمل الحماية أيضا كل الأهالي والجنود العاملين بالقنصليات المختلفة. وستكون الحكومة المغربية مسؤولة عن كل أذى يلحقه رعاياها بهؤلاء المحميين. لكن أفضل المؤسسات الانسانية لها عيوبها. فقد شعر التجار الإسرائيليون المغاربة الكبار، بالحسد تجاه التجار الأجانب الذين أصبحوا منافسين لهم؛ وحصلوا فضلا عن ذلك، على الحماية لهم ولمستخدميهم؛ في حين أنهم ظلوا كرعايا مغاربة، عرضة لنزوات موظفي الحكومة المغربة، كبارهم وصغارهم. ولأنهم لم يتمكنوا من الحصول على الحماية بشكل مشروع، فقد ناوروا مع ممثلي الدول الأروبية، لشراء حمايتهم؛ وأقنعوهم بأنهم سيتمكنون بفضل ذلك، من التأثير على البلد بشكل أكبر. وبالنسبة لاقتناع الحكومة المغربية، فقد تفننوا في الكذب لخداعها. وهناك من اليهود المغاربة من اشترى قنصلية أروبية، بحيث أصبح الأبناء والأحفاد عملاء قنصليين بالوراثة".

هكذا تكلم بيانوكي Bianconi، وهو عالم اقتصاد لا يكره اليهود، خصوصا وأنه سيعلن في الصفحة 6 من مؤلفه "الخريطة التجارية للمغرب" ما يلي:

"إن اليهودي هو مستقبل المغرب، فهو ينتمي إلى عرق سام Semitique تعرض وحده للاضطهاد". لكنه سيعود في الصفحة الموالية وبشكل متناقض إلى وصف هذا "العرق

السامي" بأرذل الصفات وسيضيف قائلا: "هكذا، يمكن القول إن الدولة المغربية مقطوعة الأوصال حاليا؛ فقد أخذ من السلطان أفضل رعاياه وهما: الذكاء والمال. لذلك، فحينما تطالب أروبا أمير المؤمنين بالانفتاح على حضارتها، فإنه يجيبهم قائلا: أعيدوا إلي أفراد رعيتي".
والملاحظ، أن بيانكوني لم يحط علما بالمعاهدة الدولية الموقعة بمدريد بتاريخ 3 يوليوز 1888 وهي المعاهدة التي تسمح للقوى الأروبية بالتوفر على محميين مغاربة، لكنها تقلص عددهم بشكل كبير. هكذا، يقر الفصل 16 ما يلي:
"إن حق الحماية مضمون فقط، في حالة مكافأة خدمات مغربي تجاه قوة أجنبية؛ أو في حالات استثنائية. ولا يجب أن يتعدى عدد المحميين 12 شخصا بالنسبة لكل قوة؛ وهذا أقصى حد؛ اللهم إذا ما قبل السلطان بتجاوزه".

ـ السكان والأحياء العربية بطنجة:

إن العنصر الأمازيغي متواجد بكثرة بالمدينة وبضواحيها، لأن قبيلة الفحاص برمتها تعتبر منذ القدم، ملاذا للريفيين. هكذا تجدون التمسمانيين بالمصلى، حيث انتظموا في اتحادية خاصة بهم. وهناك بني ورياغل الذين عينوا قايدا خاصا بهم، اما بني عمريث فقد استقروا بجامع المقراع غرب طنجة. وهناك أهالي آخرون من مختلف المناطق الريفية، وهم يعيشون وسط مواطنيهم ويتداولون لغتهم العزيزة تامزيغث التي تقاوم زحف اللغة العربية.
وأمام ترهيب السلطة المغربية المستمر، حصل العديد من الريفيين على حماية القوى الأروبية. وقد لاحظ الدرويش بأن أهالي تمسمان وبني ورياغل، يفضلون مملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا المتحدة؛ وتأتي فرنسا في المرتبة الثانية بنفس عدد المحميين إن لم يكن أكثر. أما إسبانيا فلا تتوفر إلا على عدد قليل منهم، لذلك فهي لا تصل إلى مستوى هاتين القوتين العظيمتين المتنافستين، خصوصا بعد الهزائم التي لحقتها بكوبا. فقد أصبح مغاربة الساحل يدركون بأن هناك في الجهة الأخرى من المحيط الأطلسي شعبا عمليا وقويا يدعونه "المريكان"؛ وهو الذي يمتلك جوهرة الأنتيل المسماة عند المغاربة ب " هابانا" "habana".
ومن باب البحر إلى السواني وجامع المقراع، تحاط طنجة بالبساتين التي يقطنها الريفيون وقرويو الصفاح الذين يمارس أغلبهم مهنة النجارة.

وتتوفر المدينة على أربعة أبواب وهي : باب المرسى، باب البحر المطلة على شرق المدينة، باب الفحاص المطلة جنوبا على السوق وباب حاحا التي تقابل الجبل الكبير غربا. وتوجد هذه الباب بالقصبة؛ وعند مغادرتها تظهر مجموعة من المساكن، تدعى مرشان؛ وضمنها يوجد منزل الباشا ابن عبد الصدوق. وما بين هذا المنزل والمدينة، يمكن للسائح أن يشاهد مسكن عبد السلام الوزاني الشهير؛ وهو عبارة عن بناية مطلة على البحر ويتراءى منها منظر جميل.

ويوجد بداخل المدينة خليط من الديانات والعادات والأعراف. فهناك يهود المنطقة ويهود جبل طارق ومسيحيو مختلف البلدان والمسلمون العرب والأمازيغ من مغاربة وجزائريين. وعادة ما تتميز المنازل بالطابع الغربي؛ وهي كئيبة المظهر من الخارج ولا تتميز عن بعضها البعض إلا من الداخل الذي لا يمكن للرومي زيارته.

أما الأزقة فهي ضيقة ومنحدرة وأفضلها بدون منازع، هو الشارع الكبير [المدعو شارع البحرية] الذي يمتد من باب المرسى وباب البحر إلى باب الفحاص، حيث يخترق المدينة برمتها وهو ملتقى الأروبيين واليهود الذين يجتمعون فيه خلال النهار والليل، إلى حدود العاشرة مساء، لأنه مضاء بالمصابيح. [5]

وغير بعيد عن باب البحر، يوجد المسجد الكبير الذي يقابل المدرسة. ويمكنكم أن تروا أيضا منزل الطريس، وهو الوزير المغربي المزعوم للخارجية؛ أما في الطرف الآخر من الشارع، قرب باب الفحاص، فتوجد قنصلية فرنسا والولايات المتحدة، بمحاذاة سوق الخبز اليهودي.

وباختصار، فإن هذا الشارع هو أكبر محج بالمدينة وهو مركز تجاري، تتواجد به أغلب متاجر ودكاكين البلدة. بعد باب الفحاص يصل الزائر إلى سوق الخضر واللحم والسمك. وعن يمينه، يوجد سوق " الدلالة". وعند مغادرة باب الفحاص، يظهر سوق الخميس الكبير، المليء بالدكاكين والأكواخ. وعن يمينه، توجد القنصلية الألمانية. أما وسط السوق، فيظهر ضريح سيدي المخفي؛ وتحيط به خيام الطلبة الذين يقرأون الطالع ويصنعون الأحجبة ضد مختلف الأمراض الجسدية والعقلية.

---

[5] يبدو ان طنجة تستمتع حاليا بالإنارة الكهربائية، فمتى ستستنير عقول المغاربة ؟

إننا نوجد هنا بسوق طنجة الكبير الذي يأتي إليه أهالي الفحاص والغربية والأنجرة ووذراس وبني مساور؛ رجالا ونساء. كما تأتيه القوافل التجارية من فاس ومكناس والرباط والعرائش والقصر الكبير وتطوان. وفي طرفه الجنوبي يوجد مكان مخصوص للعجول تباع فيه أيضا الأغنام والصوف. ففي كل يوم، تتوافد مواكب الجمال حاملة معها إلى طنجة، منتوجات المناطق الأخرى وحاملة إلى هذه الأخيرة البضائع العربية والأوروبية المشتراة بالمدينة. وتمر هذه القوافل بأمان في أغلب ربوع الفحاص، باستثناء العقبة الحمرا الرهيبة التي تنهب فيها أمتعة المسافرين العزل.

وتوجد القنصليات الفرنسية والأمريكية داخل المدينة، والقنصلية الإيطالية خارج الأسوار بالشرق، وكل من قنصلية إسبانيا والنمسا – هنغاريا، خارج السوق بالغرب، extra muros قرب المقابر؛ لأن هناك مقبرتان للمسلمين، واحدة على اليمين قرب السوق والثانية فوقه، جهة الجنوب. وبهذه المقبرة الأخيرة نرى قبر سيدي محمد الحاج بوعراقية سيد مدينة طنجة وابن سيدي علال الحاج البقالي المدفون بقرية الحرايق بقبيلة غزاوة.

وهناك أسواق صغيرة كثيرة العدد بغرب المدينة، وتدعى بدون تمييز بقالة، حيث تباع فيها الخضر والفواكه والزيت والزبدة والحليب والعسل. وتتجاور منازل المسلمين واليهود والنصارى فيما بينها، بحيث يصعب التمييز بين هذه وتلك. ونستثني القصبة التي تشمل جنود المخزن، أي مسلمين لاغير. وإليكم هذا الجرد لمختلف أحياء المدينة :

1 -حومة بني إيدر، وتمتد من الجامع الكبير إلى باب الفحاص.

2 -حومة السانية الجديدة وتمتد من يمين باب الفحاص إلى القصبة.

3 -حومة دار البارود وتمتد من القصبة إلى باب المرسى.

4 -القصبة التي هي عبارة عن مدينة داخل المدينة، إن صح القول، بمتاجرها ودكاكينها ومقاهيها ومساجدها. وهي تحتل أعلى نقطة بالمدينة جهة الغرب وعن يمين الملاحظ الذي يراقبها يمينا من جهة الميناء.

إن منازل طنجة تنتشر بأسفل منحدرات الجبل الكبير، المجاور للمدينة والمليء بالأشجار والبساتين. وبقمة هذا الجبل، نشاهد أضرحة العديد من الأولياء مثل سيدي عمور الحضري

وسيد المصمودي أخ سيدي إبراهيم المصمودي المدفون بتلمسان جنوب مسجد حي الفرغوليين.

ويجري واد الفحاص بهذا الجبل البعيد عن طنجة بحوالي نصف ساعة مشيا. وهناك طريقان تؤديان إليه، بحيث تنطلق الاولى من باب الفحاص بالقصبة وتمر بمرشان؛ وتبدأ الثانية من باب الفحاص أيضا لتؤدي مباشرة إلى قمة الجبل. وتوجد مقبرة النصارى بين مرشان والسوق وهي محاطة بالأسوار. كما أن مقبرة اليهود توجد أيضا خارج المدينة، جهة الشرق، وهي محاذية لأسوارها، على تلة مطلة على البحر. ويمتلك الأروبيون فيلات تحيط بجوانب المدينة ولديهم ثلاث دور للدعارة يديرها الإسبان، توجد اثنتان منها بمنطقة باب المرسى والثالثة بحومة بني إيدر. أما اليهود فإنهم يلجؤون إلى بنات دينهم لإشباع نزواتهم. ومعلوم أن الدعارة منتشرة وسط بعض الأسر اليهودية بالمدن الساحلية بالمغرب. وتشتهر الصويرة بعشرات العاهرات اليهوديات اللواتي يلجأ إليهن المسلمون واليهود والنصارى عند الحاجة. وتقام بطنجة أحيانا، علاقات غير شرعية بين اليهوديات والمسلمين، قد ينتج عنها مواليد مسلمون بالضرورة. ولأن مثل هذه العلاقات غير ممكنة مع العاهرات المسلمات، فإن الراغبين في معاشرتهن من المسلمين، يقومون بذلك على وجه السرعة، حيث تكتري هاته الفتيات غرفا بالمنازل اليهودية وتمارسن الدعارة مقابل بضع سنتيمات. لكن، الويل لمن ضبطها رجال المخزن، فهي ستعتقل ويرمى بها بزنزانة بدار التكة، وهي عبارة عن سجن للنساء؛ ولن تغادرها إلا في الأعياد. ونشير إلى أن الطلبة يلجؤون أيضا إلى دور الدعارة طلبا للمتعة؛ ويصدق عليهم ما ورد في هذين البيتين الشعريين :

[إنها الرغبة الهستيرية hystérique للطالب الخطيب

الذي تجرد من الخطابة rhétorique]

وهناك أيضا بعض الأكواخ بحومة دار البارود، وتستقبل فيه بائعات الهوى السادة جنود المخزن. ويبدو أن تواجد الأروبيين بالمدينة، يشكل عائقا أمام دعارة الغلمان الذين لا يتحركون إلا في الظلام.

القنــــاصلـــة الأروبيون :

سنعطي الآن الكلمة للدرويش، فهو الذي سيعبر بصدق عن شعور المسلم المغربي تجاه الدبلوماسيين الأروبيين؛ وقد قال لي بهذا الخصوص :

" كنت أزور هذه القنصلية أو تلك، بغرض دراسة مزاج وذكاء النصارى. وكنت أدعي بأنني من أهالي فاس وأرغب في حماية قوة أروبية وأذكر البلد الذي أتواجد بقنصليته. ولأنني لا أتكلم سوى العربية والأمازيغية، فقد كنت أصطدم دوما بالروميين الذين لا يعرفون هاتين اللغتين ويلجؤون إلى وساطة الإسرائيليين. لكن جهلهم بالإسلام والمسلمين وسذاجتهم يجعلان من هؤلاء الدبلوماسيين المسيحيين عرضة لسخرية اليهود والمسلمين معا. فهم لا يدركون خداع اليهود لهم، بحيث لا يعملون إلا بنصائحهم وبالتالي يصبحون عبيدا لهم. هكذا، يلاحظ بأن يهودي طنجة الذي يعرف شيئا من العربية ومن بعض اللغات الأروبية، هو سيد الموقف. فهو الذي يأمر وينهى وينصح ويسير ويرشد القنصل الأروبي المحتاج إليه. ولهذا السبب، تضاعف حقد المغاربة على هؤلاء الأروبيين الذين ساهموا في الإعلاء من شأن اليهود المغاربة.

ويعتقد المسلم الذي لا يدري طبيعة العلاقة التي تربط الأروبيين بالإسرائيليين، بأن هذا التحالف موجه ضد مؤسساته وأسرته وشخصه، وبذلك فهو يكره كلا من الآري والسامي؛ ولربما كان يكره الآري أكثر من السامي، لأنه يتفاهم إلى حد ما، مع هذا الأخير.

لهذا أطلب منك أيها " الشيخ موليراس"، بأن تخبر أصدقاءك ومواطنيك بفرنسا وإخوانك بأروبا وبالعالم الجديد، بأن الحذر المتبادل بين النصارى والمسلمين، ناتج عن جهل بعضهم لبعض. فلو حاول كل طرف معرفة الآخر دون وساطة اليهودي، لخفت حدة الكراهية بينهما ولحصل التفاهم والاحترام المتبادل بينهما. وما بين الاحترام والصداقة، ستكون الطريق معبدة".

وبعد هذه الأفكار ذات البعد الاجتماعي والعملي ولتدعيم آرائه بمثال حي، روى لي محمد آخر مغامرة حدثت له بطنجة مع أحد أتباع التلمود.

سيكولوجيا عبرانية :

في سنة 1895، كان رحالتنا يتجول بأزقة العاصمة القديمة لموريطانيا الطنجاوية، في ليلة صيفية جميلة، عندما التقى وجها لوجه، بإسرائيلي في الأربعين من عمره؛ وبادره هذا الأخير بالسؤال وكأنه يريد مساعدته :

-أيها الغربي، هل تبحث عن شيء ما ؟

فأجابه الرحالة :

-إنني أتجول فقط.

وتبادل الرجلان الكلمات الودية بينهما، حيث أبان كل واحد منهما عن لباقة في الحديث. وحاول محمد منذ البداية إيهام مخاطبه بأنه يهودي من دبدو؛ فعلق العبراني بالقول.

-هل أنت من دبدو حقا ؟ وهل يعرف مواطنو بلدتك الاشتغال على "البعد" ؟[6]

فكان جواب الرحالة :

- نعم؛ وأنا أشتغل عليه كلما سنحت لي الفرصة.

عندها قال اليهودي بتحسر :

- يا للأسف؛ إن كل محاولاتي لصنع النقود باءت بالفشل.

وبعد عشر دقائق من المشي، توقفا عند منزل العبراني الذي دعا الدرويش إلى دخوله. وبقاعة كبيرة، تحلق رجال ونساء وأطفال حول طاولة مليئة بالأطعمة وبقوارير مشبوهة؛ وكانوا جميعهم جالسين على الكراسي. وخاطب اليهودي الدرويش :

-قل لي، هل أنت يهودي أم مسلم ؟ لأنه يبدو من سحنتك ولهجتك أنك يهودي.

فأجاب محمد:

- إن أبي وأمي يهوديان، لكنني تربيت ببيت المسلمين ودرست علمهم.

فصاحت النساء :

-إنه يهودي ! إنه يهودي !

وأردف العبراني مفتخرا :

- وهل كنت سأدخله إلى المنزل لو كان مسلما ؟

---

[6] "البعد" هو الزئبق؛ ويعبر عنه في الدارجة المغربية بلفظة " الزاوق".

وظل الدرويش يقبل يده وينقلها مرات عديدة من فمه إلى جبهته والعكس، ثم قال :

- رب شمعون يعرفني.

واستدعي محمد إلى الطاولة، ثم قدم له طبق مليء بالأطعمة وكأسان، أحدهما مليء "بماحيا" [ماء الحياة] والآخر بماء صاف. وأخذ رب المنزل قطعة من الخبز وقربها من شفتيه وبعد أن تمتم بكلمات غير مفهومة، وضعها قرب صحن الضيف. وكان الرجل قد مارس عادة يقوم بها كل اليهود المغاربة عندما يشكون في دين من يجالسهم commensaux، حيث يمسكون بقطعة الخبز ويهمسون ثلاث مرات :

- أنت حمار وأنا سبع.

ثم يقدمون قطعة الخبز إلى الضيف الأجنبي. وتظاهر محمد بعدم ملاحظة ما جرى فأخذ الخبز وشرع في التهام الطعام، لأنه كان جائعا. وعند الانتهاء من الأكل، سأله مضيفه الذي لاحظ بأن كأس "ماحيا" لم يمس :

لماذا لا تشرب ؟

فأجابه الدرويش :

-لأنني سأخرج بعد قليل، وإذا ما شم المسلمون رائحة الشراب بفمي، فسيشبعونني ضربا.

فدعمت النساء قوله وهن يتحسرن :

-معه حق، إنه يخاف على حياته. فأبناء اليهود معذبون ومحتقرون ومضطهدون بالمغرب.

وعندما وقف محمد مستعدا للخروج، كشف له اليهودي عن صندوق، دعاه بنوع من التفخيم " مكتبة". وكان بداخلها بعض الكتب القديمة، العبرية والعربية، حول الشعوذة والسحر والخيمياء. ومرة أخرى أدرك الرحالة مدى جهل هؤلاء المشعوذين اليهود وإيمانهم بالخرافة، مثلهم في ذلك، مثل مواطنيهم المسلمين. ولكي يغير الموضوع، سأله محمد عما إذا لم يكن محميا من طرف قوة مسيحية ما ؟ فأجابه اليهودي :

-أنت تعلم بأننا نكره المسلمين والنصارى وكل من يحبهم. لكنني طلبت الحماية الأمريكية حفاظا على ممتلكاتي وعلى نفسي.

وسأله الدرويش :

-هل هؤلاء الأمريكيون طيبون ؟

فزمجر العبري بغضب وقال :

- أناس طيبون ! وهل يوجد من هو طيب وسط النصارى ؟ ليلعن الله المسلمين والمسيحيين ! فهم من طينة واحدة. لكنهم الأقوى حاليا ولهذا نصطف إلى جانبهم. لكن اصبر، فإن "ساعتنا" ستأتي وحينئذ سننتقم بقوة من غير اليهود جميعهم.

وعلق الرحالة بحكمة :

- نعم، لكل واحد أجله.

وأعجب اليهودي بهذه العبارة واقتنع بأن الدرويش يهودي أو أنه على الأقل صديق لليهود فخاطبه قائلا :

- بربي شمعون، بات هنا.

ولم يكن هناك مجال للرفض. فقد كان يهودا قريات، وهذا هو اسمه، يطمع في الاستفادة من معارف الدرويش المزعومة في الخيمياء. وقبل الدرويش الدعوة ببساطة. وبعد مرور خمسة أيام على استضافته بادره يهودا بالسؤال :

- يا أخي، هل تريد ان تتزوج أخت زوجتي ؟ انظر إليها، هل تروق لك ؟

فأجابه الرحالة وهو يقضم حبات الفستق :

-إنها رائعة ! لكن علي أن أسافر إلى الصويرة وسأتزوجها عند رجوعي.

وعندما غادر منزل صهر المستقبل، نطق محمد بالعبارة التالية :

-بالحرام يلا شافني.

ومعنى ذلك، ليذهب إلى الجحيم، فلن يراني أبدا.

عـــيد الأضـــحى بطنجة سنة 1898 :

لقد أسف الدرويش بشدة على عدم احتفاله بهذا العيد بطنجة، لأنه كان يعرف كرم العائلات الطنجاوية المحسنة بمناسبة عيد الأضحى. لذلك، سننقل وصف هذا الحفل البهيج في العالم الإسلامي، من جريدة فرنسية تطبع بطنجة وعنوانها " يقظة المغرب" " réveil du Maroc". وهو وصف مفيد من عدة جوانب كما سيلاحظ القارئ : " في يوم الأحد، فاتح ماي 1898، احتفل العالم الإسلامي بعيد الأضحى، وهو أعظم عيد في العالم العربي أيضا، عيد لملء البطون والتفكير في الآخرين، فهو عبارة عن مأدبة ضخمة واحتفال مجازي، لأنه

في الوقت الذي يذبح فيه الكبش قرب الحجرة المقدسة بطقوسه الدينية المتبعة بآسيا وبإفريقيا، تقوم أفقر العائلات باقتناء كبش الأضحية وأكله.

اقرؤوا الكتاب الهام والغني لموليبراس وعنوانه " المغرب المجهول" وتابعوا مغامرة الرحالة المسلم والطالب الدرويش؛ حيث تروى لنا ارتسامات وانطباعات ومحطات توقف هذا الرحالة المتسول والمتجول بربوع المغرب، بالداخل وعلى سواحل الريف المضيفة بهذا القدر أو ذاك وبالشواطئ التي بقيت على حالتها القديمة، في زمن التحضر؛ وستقفون على حدث هام يعرفه المجتمع المغربي وهو عيد الأضحى. ويختلف الاحتفال بحسب المناطق، ففي هذه القبيلة يكون بسيطا وفي تلك يكون بهيجا. ويتذكر الراوي لحم الغنم الساخن وسط صحن الكسكس[7]؛ وكيف تنغرس الأيادي بداخله وتتلمظ الشفاه وتلحس الأصابع. ولا يخفى ارتياحه وإعجابه بهؤلاء الأهالي الذين يستحقون كل التقدير. ولربما كان هذا الطالب الورع، سيصنف أهالي طنجة ضمن هاته الفئة. لأن تجارة الأغنام واستهلاكها يعرفان نشاطا لا مثيل له في هذه الأيام الأولى من شهر ماي. فقبل صبيحة العيد بثمانية أيام، ترى قطعان الأغنام في كل مكان، على طرق الإقليم وبالجبال والسهول المؤدية إلى المدينة. وبالسوق الكبير Soko، يتنازع البائع والمشتري حول ثمن الأضحية، ويتحلق حولهما الفضوليون بالشكل المعروف لدى العرب.

وفي يوم الأحد، وتحت سماء صافية وشمس ساطعة، يخرج كل سكان المدينة من العرب والأروبيين ويتجهون صوب السوق Soko، لمشاهدة الموكب المنطلق في الساعة الثامنة والنصف صباحا والذي يضم الباشا والقاضي والفرسان والجنود والشخصيات الدينية، حيث يتوجه الجميع للصلاة لذبح الأضحية بالمصلى. ويتحرك الموكب وسط الابتهالات والدعوات؛ وترى أفقر مسلم وقد ارتدى أحسن ملابسه؛ أما الأعيان فإنهم يخفون ملابسهم الحريرية تحت الحايك الخفيف والأبيض مثل شبكة العنكبوت. ويمر الرجال وكأنهم أشباح بأثوابهم البيضاء، بينما ترى النساء المرتديات للحايك الصوفي الأبيض وكأنهن تماثيل رخامية، وهن يتجهن صوب المقبرة، وسط شجيرات الصبار.

[7] ملحوظة موليبراس : يشار إلى الكسكس عند عرب شمال غرب إفريقيا بلفظة " الطعام".

وتطل آلاف الرؤوس من الشرفات والنوافذ والسطوح والتلال، لمشاهدة الأعيان المتواجدين بالسوق. ويتابع هذه المشاهد، سياح انجليز وفرنسيون وألمان، يركبون الجياد والبغال وينزوون بمكان خصص لهم من طرف مرشديهم. ويعرف هؤلاء الأجانب بملابس السفر أولا وبأناجيلهم ومنظارهم وآلات التصوير التي يستعملونها رغم أن المسلمين يحظرون استخدامها.

وبعد أداء صلاة العيد بالمصلى، يتم ذبح الخروف؛ ويجب أن يحمل على وجه السرعة وهو يقطر دما إلى المسجد. فإذا ما وصل وعلامات الحياة مازالت بادية عليه، من خلال حركاته المتشنجة فإن ذلك سيكون فأل خير وستكون السنة جيدة. أما إذا انقطعت أنفاسه قبل الوصول، فسيكون محصول السنة رديئا وستنتشر الأوبئة.

وتجدر الإشارة إلى أن الأضحية توضع في قفة ويحملها أربعة أشخاص من طائفة السقائين؛ وفي الطريق يتعرض الخروف المذبوح للضرب بالعصي والرمي بالحجارة. والشيء المثير في هذه العادة، هو سرعة الحمالين وجري الأطفال وراءهم وهم يصرخون ويرمون القفة بالحجارة. وعندما يتم قطع 50 مترا بالسوق والوصول إلى باب المدينة، يوجه 4 أو 5 أشخاص متيني البنية ضربات قوية للخروف الذي يصل حيا مع ذلك، إلى المسجد، حيث يمرر القاضي السكين القاضية على عنقه. آنذاك ينطلق صوت المدفع ويصرخ الأهالي شاكرين الله. بعد ذلك، يعود الموكب كما انطلق، ببهائه وزهوه وبياضه الناصع.

هكذا، تظهر المجموعة الأولى، المكونة من الشخصيات الدينية ويقودها شريف وزان المحاط بفرسانه وبأتباعه الذين يحملون الراية الخضراء. ويبدو الشريف فوق حصانه الرمادي وسرجه البنفسجي المذهب؛ وهو يرتدي برنوصا أبيض كسيد عربي من عصور الحروب الصليبية. والملاحظ أن عبوره تحت الباب القديمة، كان بمثابة إلهام للرسامين الهنغاريين وتحديدا للوحة مونكاكزي Munkaczy.

ويتدافع العرب والريفيون لتقبيل يده أو لمس قميصه وسرج حصانه. وهو تعبير عن احترام الشريف وتبجيله إلى حد الهوس.[8]

---

[8] ولا غرابة في ذلك، فكل أتباع الزوايا الأخرى، يمارسون نفس السلوك.

أما المجوعة الثانية، او لنقل اللوحة الثانية، فتشمل العامل وحاشيته. هكذا، يمر الباشا سيدي عبد السلام فوق بغلته؛ وهو رجل أنيق ووقور، وأمامه ووراءه ترى الخليفة وقائد ميناء طنجة القوي البنية وموظفو الجمارك الكبار والرماة بلباسهم التركي المكون من سترة زرقاء وسروال فضفاض ويليهم فرسان الباشا بزيهم الطريف. وتصدح الموسيقى بصخب تمتزج فيه نغمات المزامير بدقات الطبول، وهو ما يدفع الجياد إلى القيام بحركات راقصة. ويذكر هذا المشهد بألوانه وحركاته، بلوحة فرومنتان Fromentin، بحيث تمتزج البقع الحمراء بالزرقاء والخضراء والصفراء، وهي لوحة انطباعية inpressionniste تستمتع بها العين المحبة للنور واللون والحياة.

وعند الظهيرة، يفرغ السوق والأحياء من الأهالي وتغلق الدكاكين والمتاجر أبوابها ويطبخ الكسكس بالقدور قبل أن يخلط بمرق اللحم.

وتتعلق الأسرة العربية حول الخروف وبذلك يحل الاحتفال البطني محل الاحتفال الديني والوطني و متعة البطن بدل متعة الروح. وستستمر المأدبة يومين.

وبعد ظهيرة يوم الأحد، ترتسم اللوحة الثالثة على الشاطئ. فلا يمكن أن يكون هناك احتفال عربي حقيقي، بدون ألعاب الفروسية fantasia. وسيقوم فرسان شريف وزان بهذه الألعاب.

هكذا، سيتقدم الشريف صاحب السلطة الدينية باعتباره حفيدا للرسول؛ والسيد المحمي من طرف فرنسا، ومن ورائه فرسانه من أجل إعطاء انطلاقة الألعاب. وعند إحدى الكثبان الرملية، يتوقف هؤلاء الفرسان وينقسمون إلى مجموعتين، بحيث تقوم كل مجموعة بالكر وتلعب ببنادقها وتطلق النار في الهواء. ويمثل الفرسان مشهد المعركة، بكرها وفرها وإلقاء القبض على العدو؛ وهو ما يثير حماس وغبطة الحاضرين، لأن المشهد يشبه معركة حقيقية، من تلك المعارك التي تحدث في هذا الجزء من إفريقيا.

إن ألعاب الفروسية المقامة على الشاطئ، هي فعلا مشهد عربي إفريقي. ويؤثث هذا المشهد بثوب البحر الأزرق من الوراء وباللون الأخضر الداكن الذي يبدو على الجبل البعيد وببياض طنجة التي تنسل كقشدة من بين هذين اللونين [الأزرق والأخضر].

وسط البحر، تظهر السفن الحربية والتجارية وهي تتأرجح فوق الأمواج. وبالجهة الأخرى من المضيق يبدو الساحل الإسباني الأزرق الذي تقربه الأنوار من الساحل المغربي. هكذا تنتصب إسبانيا من الوراء، فما الذي تنتظره يا ترى ؟

لقد انتظرت فيما مضى مجيء المغربي، وها هي تنتظر اليوم مجيء الأمريكي".

الحــركــة التجارية بطنجــة :

مازالت الصناعة بالمغرب لم تتأسس بعد؛ وهو ما ينطبق أيضا على طنجة. ومع ذلك، فإن مؤسسة باريسية تدعى " الربيع"، أنشأت منذ بضع سنين مصنعا للنجارة الآلية، ينتج خشب البناء والأثاث، ومطحنة بخارية. كما أقام الإسبان معملا للآجر بالسواني. وهناك ثلاث مطاحن صغيرة وورشة فرنسية لتبييض الشمع.

وإذا ما كانت الصناعة شبه منعدمة، فإن الأمر عكس ذلك بالنسبة للتجارة. فنحن نعلم بأن طنجة هي أهم ميناء بالمغرب وإن كان ميناء الدار البيضاء الموجود بقلب البلاد، أصبح ينافسه بقوة في الفترة الأخيرة؛ ويمكن الاستشهاد على ذلك بالجدول التالي :

تجارة طنــجة	تجـــارة الــدار البيضـــاء
سنة 1886 : 16429400 فرنك	سنة 1886 : 11456125 فرنك
سنة 1887 : 15621800 ف	سنة 1887 : 10387800 ف
سنة 1890 : 20748375 ف	سنة 1890 : 19448650 ف
سنة 1891 : (9)	سنة 1891 : 21751275 ف
سنة 1892 :	سنة 1892 : 18601875 ف
سنة 1894 : 11723625 ف	سنة 1894 : 11630725 ف

والملاحظ أن التجارة المغربية عرفت تطورا ملموسا ما بين سنتي 1886 و 1891. وعلى العكس من ذلك، فقد عرفت في سنوات 1892، 1893 و 1894 تراجعا ملموسا. ففي سنة 1892، حجزت البضائع القادمة من مرسيليا وهامبورغ؛ وفي سنتي 1893 و 1894 عرفت

(9) لم تقدم الوثائق الرسمية أية بيانات بخصوص هاتين السنتين.

المحاصيل الزراعية تدنيا كبيرا وحصل اضطراب على مستوى المبادلات التجارية وغاب الأمن بسبب وفاة السلطان مولاي الحسن.

ولابد من الإشارة بأن ميناء الدار البيضاء أصبح ينافس ميناء طنجة بقوة، لأن المعاملات التجارية تطورت فيه بوتيرة مسرعة ولديه كل الحظوظ ليصبح أهم ميناء بالمغرب، إذا لم يقم التجار الطنجاويون بأنشطة فعالة.

فلنتعرف الآن على الوضعية التجارية بطنجة سنة 1894، كما عرضها الدليل الرسمي للتجارة:

" مازالت طنجة هي أهم مركز تجاري بالسواحل المغربية، رغم التقدم الهائل الذي أصبح يعرفه ميناء الدار البيضاء. وفضلا عن المعاملات التي تخص منطقتها، فإنها تضمن انتقال جزء كبير من البضائع إلى القصر الكبير ومكناس؛ وبهذا الصدد، فإن ميناء العرائش شكل منافسا قوي لها سنة 1894. وللإشارة، فإن هذه السنة، كانت بالنسبة لطنجة وللمغرب برمته، أقل السنوات مردودية على مستوى التبادل التجاري. فبالإضافة إلى الاضطرابات السياسية وغياب الأمن بالطرقات، حصل ارتفاع في معدل الصرف [الذي لم يكن يتعدى 20 %][10] وهو ما لم يحتمله الأهالي الذين لا يتوفرون على رساميل كبيرة.

وقد تراجع الاستيراد بشكل ملموس ولم يبلغ سوى 4295430 فرنك موزعة على الشكل التالي:

- فرنسا والجزائر : 1276965 ف
- ألمانيا : 377190 ف
- إسبانيا ومستعمراتها : 100945 ف
- البلاد المنخفضة [هولندا] : 64125 ف
- السويد : 12000 ف

وسواء تعلق الأمر بالاستيراد أو التصدير، فالملاحظ أن التجارة الفرنسية تحظى في طنجة، بنفس الأهمية التي تحظى بها تجارة إنجلترا.

---

[10] ويبدو هذا الأمر بسيطا بالمقارنة مع الأزمة المالية الرهيبة التي سادت المغرب منذ بداية الحرب الإسبانية الأمريكية. ففي شهر ماي من السنة الماضية [1898]، بلغ معدل الصرف % 100 في كل المراكز البحرية بالمغرب، أي أن ورقة 100 فرنك صادرة عن بنك فرنسا، كانت تساوي 200 فرنك بالعملة الإسبانية وهي العملة الوحيدة التي كانت متداولة بالمغرب.

وبالفعل، فإن فرنسا لا تصدر سوى ما تنتجه ولا تستورد سوى ما تحتاج إليه. بالمقابل، فإن انجلترا هي مكان عبور هام للبضائع، إلى بلجيكا وهولندا وألمانيا إلخ... ويتلقى ميناء جبل طارق المحسوب على التجارة الإنجليزية، البضائع من كل الجهات ويبيعها إلى جميع الجهات أيضا. وطبعا فإن ترتيبها إحصائيا، يتم بحسب جنسية السفن التي تتوقف بالميناء.
وأكبر رقم للمعاملات بالنسبة للاستيراد من إنجلترا يتمثل في المنتوجات القطنية التي تحتكر سوقها تقريبا. وتأتي فرنسا في المرتبة الأولى بخصوص السكر والدقيق وأثواب الحرير والألواح الزجاجية والإسمنت والبوطاس والجبس.
وفي الفترة الأخير، تمكنت ألمانيا من تطوير تجارتها بشكل فعال، بفضل ما قام به تجارها من تخفيض للأثمان وتأجيل للدفع. وبذلك وجد سكرها وأجواخها أسواق جديدة. حيث أصبح الأهالي يتهافتون عليها، رغم أن جودتها أقل من جودة منتوجاتها. ويعتبر السكر من المنتواجات الرئيسية المستوردة [472765 فرنك]، كما أن فرنسا هي المزود الأول لهذه المادة، رغم ما تعرفه من منافسة. ولا يغطى هذه العملية سوى معملين أو ثلاثة معامل للسكر؛ وهذا أمر مؤسف، لأنه من الممكن أن تسعى معامل شمال فرنسا إلى إيجاد زبائن جدد لمنتوجها من السكر. وتبلغ تجارة الحرير في بيانات سنة 1894 ما قدره 87500 فرنك. غير أن تهريب هذا المنتوج هو من الكثافة بحيث تقدر قيمة استيراده بحوالي 300.000 فرنك؛ ويجلب في أغلبه من فرنسا. ونجد في الصف الأول، أثواب القطن [1511400 ف] وهي تستورد من إنجلترا حصرا وإن كانت هذه الأخيرة تستقبل هذا المنتوج من بلجيكا والنمسا وألمانيا لتصدره إلى طنجة.
وتستورد أعواد الثقاب من فرنسا، وإن كان أغلبها يجلب من إيطاليا؛ أما الشموع [122825ف] فقد كانت تستورد من قبل، من فرنسا، لكنها تجلب حاليا من إنجلترا بسبب أثمانها المنخفضة، وأيضا من ألمانيا، رغم رداءتها.
وتعتبر فرنسا موردا أساسيا للدقيق [274190 ف]. وقد ساهم ارتفاع ثمن القمح بمنطقة طنجة، في تطور هذه التجارة منذ ثلاث أو أربع سنوات؛ ومن المنتظر أن تعرف تقدما أكبر. وهناك مواد أخرى مستوردة من أماكن عديدة، نذكر منها الكحول من ألمانيا والنشا amidon والزبدة من الدنمارك والقمح والطرابيش " الفاسية" من النمسا، والفحم من جبل

طارق والسيجار والسجائر والثمور[11] والحديد المستورد من بلجيكا والعرعر من شيدام Schiedam والبترول[12] من أمريكا والزبيب من مالقا والزعفران والخمور والفواكه من إسبانيا" أما النيترات والكبريت فيحظر استيرادهما؛ وتتكفل الحكومة حصريا ببيعهما.

وهناك مواد مصدرة، لم تتأثر بالوضعية الصعبة وارتفعت قيمتها سنة 1894 إلى 7428195 فرنك موزعة على الشكل التالي:

- اسبانيا و مستعمراتها : 2912262 فرنك
- بريطانيا العظمى وجبل طارق : 1979939 فرنك
- مصر : 1276220 فرنك
- فرنسا و مستعمراتها:1007335 فرنك
- إيطاليا : 92137 ف.
- ألمانيا : 82785 فرنك
- البرتغال: 63747 فرنك.

وتحتل إسبانيا المرتبة الأوى بفضل العجول والبيض التي تجلبها من طنجة لتموين موانئها؛ وهي تشكل كل وارداتها تقريبا. وينطبق نفس الأمر على واردات إجلترا، حيث تستهلك البيض والعجول التي تجلب من طنجة إلى جبل طارق. وتستقبل مصر بضائع كثيرة من فاس، كالنعال والحايك والزرابي. وتتم عملية تصديرها من طنجة عبر جبل طارق ومالطة؛ وهو ما يفيد الملاحة البحرية الإنجليزية.

أما فرنسا فتستورد بضائع مختلفة للاستهلاك، وإن كانت ترسل الجلود إلى أمريكا والحايك إلى الجزائر وتونس والسينغال.

وكما يلاحظ، فإن العجول تشكل المادة الرئيسية المصدرة من طنجة [3455175 فرنك]. ورغم حظر تصديرها، غلا أن السلطان يسمح ببيع حوالي 12000 رأس في السنة لكل بلد

[11] لا حاجة للتذكير بأن مصدرها هو الجنوب المغربي.

[12] يستعمل أهالي الجزائر البترول كثيرا للإنارة. ويقلدهم المغاربة في ذلك؛ وبالتالي فإن هذه المادة ستصبح مطلوبة أكثر مستقبلا.

راغب في ذلك. ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات، تم تصدير عدد كبير من العجول إلى مرسيليا [629165 فرنك] وإلى إسبانيا [383105 فرنك].

وتصدر النعال المصنوعة بفاس إلى مصر بالأساس [1047450 فرنك] وأيضا إلى إسبانيا التي توزعها بمليلية؛ وإلى فرنسا التي توزعها بالسنيغال والجزائر.

وتبلغ قيمة الشمع الأصفر المصدر من طنجة 325376 ف، بحيث تشتري منه فرنسا لوحدها ما قيمته 175221 ف.

أما جلود الماعز، فقد صدر منها ما قيمته208883 ف، منها 72288 ف لفرنسا. وتنقل إنجلترا كمية كبيرة منها إلى أمريكا. وهناك رقم معاملات هام بخصوص زرابي الرباط [269340 ف] والثمور [238134 ف] المصدرة أساسا إلى إنجلترا.

ويجب أن نذكر أيضا، الصوف المصدر إلى إنجلترا [لندن] والولايات المتحدة؛ والجلابة والحايك والغاسول الموجه إلى الجزائر وجلود العجول والدواجن. ورغم السماح بتصدير الجلود المدبوغة إلا أن مردودها كان ضعيفا.

- الملاحة البحرية:

ارتفع عدد السفن البخارية التي دخلت ميناء طنجة وغادرته، إلى 898 سفينة بحمولة مقدارها 428795 برميل؛ وعدد المراكب الشراعية 317 بحمولة مقدارها 7657 برميل وتوجد إسبانيا في المرتبة الأولى، بفضل المركب البريدي الذي يربط قاديس بطنجة والذي يقوم بحوالي 300 رحلة.

وتأتي الملاحة البحرية الإنجليزية في المرتبة الثانية بالنسبة للسفن البخارية، بفضل سـفينتين

تربطان جبل طارق بطنجة؛ لكن فرنسا التي تحتل المرتبة الثالثة، تتجاوزها على مستوى الحمولة [فهي توجد في المرتبة الثانية بهذا الخصوص]، حيث تبلغ حمولة 220 مركب ما يناهز 138382 طن.(13)

الاتفاقيات التجارية الحديثة:

(13) Annexe au Moniteur officiel du commerce du 26 mars, 1896, Paris.

لقد تمكنت الدبلوماسية الأروبية التي تصارع منذ قرون، جهل وتعصب وسوء نية الدول المتعاقبة بالمغرب، من الحصول على بعض الامتيازات التجارية التي انتزعتها من هذا البلد الغارق في سباته.

وأول اتفاقية جديرة بهذا الاسم، هي المعاهدة الإنجليزية لسنة 1856 التي تحدد حقوق خروج البضائع؛ وهي الحقوق التي كان السلطان يغيرها كما يحلو له، دون أن يخبر المعنيين بالأمر.

وحصلت بريطانيا العظمى فضلا عن ذلك، على حق تصدير مجموعة من المنتجات المغربية التي كان يحظر تصديرها من قبل. غير أن السفير البريطاني سورجون دراموند Sir John Drummond سيصطدم بتعنت العلماء الذين عارضوا تصدير القمح والشعير، بذريعة أن هذه الحبوب هي أطعمة مجاهدي الإسلام وجيادهم، لذلك لا يمكن بيعها للكفار.

وتعتبر المعاهدة الإسبانية لسنة 1860، نسخة من الاتفاقية الإنجليزية. وبعد انتصار البعثة البريطانية، سيأتي دور الدبلوماسية الألمانية التي ستحقق أكبر إنجاز اقتصادي بالمغرب وأكبر تنازل تجاري في العصور الحديثة. وتعتبر سنة 1890 هي تاريخ المعاهدة الجرمانية المغربية الشهيرة والتي تتضمن الامتيازات التالية :

1) الرفع المؤقت لحظر تصدير القمح والشعير. [14]

2) تحديد الرسوم الجمركية عند دخول وخروج البضائع.

3) وهذا هو أهم بند في المعاهدة، التزام السلطان بتطبيق هذه الاتفاقية إلى حين مراجعتها أو توقيع معاهدة جديدة.

---

[14] سمح بتصدير القمح والشعير بشكل استثنائي ما بين سنتي 1890 و 1893. وفي سنة 1894 تم حظره من جديد. ولمزيد من المعلومات حول التجارة المغربية عموما، انظر :

-Le Moniteur officiel du commerce, le Maroc, étude commerciale et agricole de wolfrom.

وانظر أيضا " يقظة المغرب Réveil du Maroc "، وهي جريدة سياسية وتجارية، تصدر بطنجة؛ ورئيس تحريرها الحالي هو هنري داركور Henri Darcours.

وهذا نصر بين وجميل، خصوصا إذا ما علمنا بأن المعاهدات السابقة كانت تترك للعاهل الشريف كامل الحرية في منع تصدير البضائع التي حددت أسعارها من قبل.

4) تحديد الرسوم الجمركية المتعلقة بالبضائع والمنتوجات المستوردة من طرف الرعايا الألمان بموانئ المغرب في 10 % على أكثر تقدير.

ويتعين أن تحدد هذه القيمة نقدا وحسب تسعيرة البيع بالجملة داخل الميناء الذي ستصدر منه.

تسعيرة حقوق الخروج حسب المعاهدة الألمانية المغربية لسنة 1890		
البـــــضاعـة	**الكميـــــــة**	**الرســـــوم الجمــركيــة**
الصوف	قنطـــار [15]	5 ريـــالات [16]
الينسون	// //	10 ريـــالات
اللوز	// //	15 ريــــــال
النعـــال	حسب قيمتها ad valorem	5 %
المـــوز	قنطـــار	18 ريــــــال
القمـــح	الفـانيگـا fanégua [17]	15 ريــــــال
مكانس الـــدوم	100	ريـــــال ونصـف

[15] القنطار المشار إليه هنا يعادل 50,75 كيلوغراما؛ وليس 100 كيلوغرام كما هو معروف.

[16] إن ريال فيلون Real de vellon يساوي 20 دورو إسبانية وهو ما يعادل 25 سنتيما فرنسية.

[17] الفانيكا، مقياس إسباني لكيل المواد الجافة؛ وهي تعادل ستين لترا. أنظر : Littré, dictionnaire de la langue française. ويدعي بيانكوني في مؤلفه " الخريطة التجارية للمغرب" بأن الفانيگا تساوي 54 كيلوغراما أما فولفروم [Maroc, étude commerciale]فيقدرها بحولي 50,7 كيلو عندما تفيض عن الحد، وما بين 45 و 47 كيلو عندما لا تفيض عن الحد، ويقدره آخرون بحوالي 72,18 كيلو في الحالة الأولى و 54,8 في الحالة الثانية. وهذا يعني أن المقدار يختلف بحسب الأمكنة. وهو ينقسم بشكل تنازلي على الشكل التالي: النصف، الربع، الثمن الخ...

البضاعة	الكمية	الرسوم الجمركية
المصـــاريـن	قنطـــار	10 ريـــــالات
الكبار Carvi	قنطار	10 ريالات
أحزمة صوفية	100	50 ريالا ونصف
القنب الهندي	قنطار	20 ريالا
حبال الدوم	100	ريالان ونصف
حبال من جلد الماعز	100	10 ريالات
الفوط	قنطار	5 ريالات
جوارب صوفية	حسب قيمتها	8%
الشمع المصفى	قنطار	70 ريالا ونصف
الشمع الخام	// //	50 ريالا
التين	// //	10 ريالات
القرون	1000	11 ريال و 3/4
القطن	قنطار	20 ريالا
أغطية الصوف	حسب قيمتها	5%
المخدات المطرزة	// //	5%
الهندباء	قنطار	10 ريالات
الكمون	// //	8 ريالات
الثمر	// //	20 ريالا

الجلابة	حسب قيمتها	5%
ركاب الحديد	// //	8%
الفول	فانيكا	10 ريالات
الجبن	قنطار	20 ريالا
الحلبة Fenugrec	// //	5 ريالات

البضاعة	الكمية	الرسوم الجمركية
الفاسوخ [18]	قنطار	10 ريالات
خيوط الدوم	// //	10 ريالات
خيوط القطن	حسب قيمتها	8%
خيوط الكتان	// //	8%
الصمغ	قنطار	8 ريالات
الكحل antimoine	// //	5 ريالات
الزيت	// //	25 ريالا
الحناء	// //	6 ريالات
الحايك	حسب قيمته	5%
الصوف المغسول	قنطار	40 ريالا
الصوف غير المغسول	// //	27 ريالا ونصف
الأرانب	أرنب واحد	ريال
العدس	فانيگا	10 ريالات
الأرانب البرية	للواحد	ريالا
الكتان	قنطار	20 ريالا

[18] وهي نبتة معطرة ممزوجة بالطين على شكل كروي وتستخدم لإبطال مفعول السحر، حسب ما هو مزعوم.

الذرة	فنيگًا زائدة عن الحد	10 ريالات
الزؤان	فانيگًا	10 ريالات
الطلاء	قنطار	8 ريالات
الجوز	// //	8 ريالات
الحصائر	حسب قيمتها	8%
البرتقال	1000	4 ريالات

البضاعة	الكمية	الرسوم الجمركية
الشعير	فانيكا لا تزيد عن الحد	10 ريالات
مرددوش origan	قنطار	4 ريالات
حماض oseille	// //	10 ريالات
بيض الدجاج	1000	25 ريالا
بيض النعام	واحدة	نصف ريال
الحمص	فانيكا	10 ريالات
جلود العجول والغنم والماعز	قنطار	18 ريال
جلود مدبوغة	// //	50 ريالا
جلد رأس العجل لصنع اللصاق	// //	4 ريالات
الخف	حسب قيمته	5%
مشط من الخشب	100	ريالان
أشواك الشيهمPorc-épic	1000	ريالان

ريش النعام	رطل[19]	18 ريال
صينيات نحاسية	حسب قيمتها	8%
سلال	100	10 ريالات
دجاج	دزينة	10 ريالات
شعر وزغب الحيوان	قنطار	15 ريال

البضاعة	**قيمتها**	**الرسوم الجمركية**
الدوم	100 حزمة	8 ريالات
الحجل	واحدة	ريال
الإجاص	قنطار	10 ريالات
السمك المملح	// //	20 ريالا
الزبيب	// //	10 ريالات
الأرز	// //	9 ريالات و 3/8
الورد	// //	10 ريالات
قصاصات جلدية rognures	// //	4 ريالات
شحم الأمعاء suif	// //	25 ريالا
حقائب جلدية	حسب قيمتها	5%
السمسم	قنطار	10 ريالات

(19) يتراوح مقدار الرطل ما بين 500 و 800 غرام؛ ويتطابق مع الرطل عندنا [نصف كيلو]. وهو يختلف بحسب البضاعة التي يتم وزنها. مثلا، إن رطل اللحم يعادل وزن 35 قطعة من 5 فرنكات أي 800 غرام ويعادل رطل الزيت 750 غرام؛ أما رطل تجارة التقسيط المتعلق بمواد مثل السكر والقهوة والشاي، فيعادل نصف كيلو.

خيوط الحلفة	// //	ريالان
سرغينة [20]	// //	5 ريالات
تكاوت	// //	10 ريالات
غربال	حسب قيمته	5%
زرابي	حسب قيمتها	5%
غاسول terre de foulon	قنطار	7 ريالات ونصف
خيام	حسب قيمتها	5%
سلاحف	50 كيلوغراما	ريالان ونصف

والملاحظ أن الحيوانات الأليفة لم تذكر في تسعيرة رسوم الخروج، لأن تصديرها ممنوع وقد سبق أن أشرت إلى القيود المفروضة على تصدير العجول [12 ألف رأس سنويا بالنسبة لكل بلد راغب في اقتنائها].

وهذا الحظر يشمل أيضا النساء المغربيات اللواتي لا يمكنهن مغاردة الوطن إلا بترخيص خاص من العاهل. وأحيانا ما يبدي الجمركيون صرامة مثيرة للضحك. فقد منعوا خروج كلب، كان صاحبه ينوي الإبحار من الصويرة إلى طنجة. ونظرا لعناد مالكه النصراني الذي جعل من الأمر قضية دبلوماسية، فإن السلطان اضطر إلى قبول استثناء لهذا القانون الصارم، لكنه استثناء يهم الكلاب فقط.

ـ الواردات الممنوعة:

إن البضائع المستوردة من كل الجهات تؤدى عموما 10% كرسوم جمركية، بحسب قيمتها ad valorem ومن الممكن أن يؤدي الثمن عينا. ويمنع استيراد الأسلحة والخراطيش وكل ذخائر الحرب والقنص والبارود والنيترات والكبريت.

وحسب الاتفاقية الفرنسية المغربية لسنة 1892 والتي سنتحدث عنها لاحقا، فإن أثواب الحرير الخالص أو المختلط والحلي الذهبية والفضية والأحجار الكريمة والمزيفة والياقوت والشرائط الذهبية والخمور أو السوائل المقطرة والعجائن، يمكن استيرادها؛ وتؤدى عنها

---

[20] نبتة ذات رائحة نفاذة وتستخدم للصباغة.

رسوم جمركية لا تتعدى 5%، وتحسب هذه القيمة بالريال [ريال فيلون]، كما تتم نقدا وبسعر الجملة بميناء الإبحار.

[Cf. Moniteur officiel du commerce du 26 mars 1896]

- المعاهدة الفرنسية المغربية لسنة 1892:

بعد سنتين على تحقيق ألمانيا لنصر اقتصادي، كررت فرنسا نفس الشيء، فقد حصل ممثلنا بطنجة، السيد دوبنيي D'Aubigny سنة 1892، على تخفيض بخصوص رسوم دخول وخروج البضائع. هكذا، ستحظى التسعيرة الهامة والأخيرة التي حددتها المعاهدة الجرمانية المغربية سنة 1890، بالتخفيضات التالية ضمن المعاهدة الفرنسية المغربية:

البضاعة	الكمية	التخفيضات
الكمون	القنطار	6 ريالات بدل 8
شحم الأمعاء	//	23 ريالا بدل 25
الكبار	//	8 ريالات بدل 10
القنب الهندي والكتان	//	16 ريالا بدل 20
الشمع الأبيض	//	60 ريالا بدل 70,5
القرون	1000	8 ريالات بدل 11 و 3/4

وفضلا عن ذلك فإن اتفاقية فرنسا لسنة 1892 سمحت بتصدير المنتوجات التالية التي كانت محظورة من قبل:

المنتوجات	الكمية	رسوم الخروج
قشور الأشجار	قنطار	6 ريالات
الفلين	//	6 ريالات
معدن النحاس	//	5 ريالات
معدن الحديد	//	ريالان
معادن أخرى باستثناء الرصاص	//	5 ريالات
الصلب	//	ريالان
خشب العرعار والأرز	نصف حمولة جمل	6 ريالات
نفس الخشب	نصف حمولة بغل	6 ريالات

ويجب أن نضيف إلى هذه الامتيازات العامة، الامتياز الخاص الذي حصل عليه وزيرنا، وهو حماية علامة الصناعة الفرنسية بالمغرب؛ "لذلك فإنه يتعين على الحكومة المغربية أن تحجز العلامات الفرنسية المزورة وأن يعاقب كل من قام بالتزوير، بأقسى العقوبات".[21]

مقابل هذه التنازلات، ستحظى المنتوجات المغربية المصدرة إلى فرنسا سنة 1893 بأسعار جمركية منخفضة. ويجب الآن إغناء هذه الدراسة الاقتصادية بدراسة أخرى تهم قضية الصرف.

مسـألة الصـرف :

وهي قضية أساسية بالنسبة للمستقبل التجاري لهذا البلد المتأخر والغارق في سباته والذي لم ير أفضل من اتباع جاره الذي مازال يغط في نومه أيضا وأقصد هنا إسبانيا.

إن الصرف[22] الذي كان من قبل مسكوتا عنه، أصبح اليوم قضية الساعة، بل يمكننا القول إنه أصبح قضية مهيمنة وملحة. ويكفي أن نعلم بأنه تحت نظام للصرف يتراوح سعره بين 40% و 42 % وقد يصل إلى 50 % دون أسباب واضحة، فإن المبادلات والمعاملات التجارية ستعرف اضطرابا كبيرا. ومن الممكن أن يساهم ارتفاع سعر الصرف، في زيادة قيمة التصدير ببلد ما، لكنه سيخنق الإستيراد بكل تأكيد.

احسبوا معي سعر الصرف الحالي بالمغرب وأضيفوا 10 % من رسوم الدخول والتي قد تبلغ بشكل اعتباطي ما بين 15% و 20% وكذلك تكاليف الإرسال والنقل والتعبئة وأرباح الوكلاء، وسترون بأن البضاعة التي تقدر بمائة فرنك بلندن أو باريس أو هامبورغ، سيتضاعف ثمنها ليصبح 200 فرنك، عند دخولها ميناء طنجة. فمن هم المستهلكون الذين سيقتنونها في بلد معروف بفقره ؟ فما سيحصل هو أن عملية الاستيراد ستهم السلع الضرورية مثل الدقيق والزيت والفحم والسكر والشموع والقطن الرخيص، مع الحد من استهلاكها؛ أما المواد الكمالية فلن تحظى بالرواج ونذكر منها الخمور والمشروبات الروحية والشاي والقهوة والأجواخ والحرير والصابون الفاخر والعطور وملابس الموضة، وكل ما

[21] مقتطف من رسالة سيدي المفضل بن محمد غريط الوزير المغربي للشؤون الخارجية، بتاريخ فاتح ربيع الثاني 1310 هـ الموافق ل 23 أكتوبر 1892.

[22] هذه الدراسة مستمدة من عدة مقالات صادرة بجريدة " يقظة المغرب" بتاريخ 31 مارس و 14 أبريل 1898.

يندرج تحت تسمية "سلع باريس" والتي يمكن أن تسمى أيضا سلع لندن أو فيينا أو برلين، مادامت البلدان الصناعية والعواصم الكبرى قد دخلت في منافسة شديدة فيما بينها.

وإذا ما استمر سعر الصرف بهذه الوتيرة، فإن تجارة الاستيراد بالمغرب سيقضى عليها.

فما هي أسباب ارتفاع هذا السعر ؟ هناك جواب على كل الألسنة وهو سعر الصرف الإسباني فنحن نتبعه ونخضع لاضطراباته.

وبالفعل، فرغم عملية سك مبلغ 30 إلى 40 مليون من النقود الوطنية المكونة من الدورو والحسني، فإن النقود الفضية المتداولة بالمغرب هي بالأساس الدورو الإسباني. ولا يوجد أثر للنقود الذهبية، لأن القطع الذهبية النادرة تعلق للزينة وتستعمل كأسورة أو يخفيها الأغنياء العرب في الجوارب الصوفية الذائعة الصيت. [23]

إن سعر الصرف عندنا يساير سعر مدريد، مع فارق فرنك أو بسيطة، وذلك بحسب مقتضيات العرض والطلب ومناورات البنكيين. ويبدو ان المغرب مرتبط بالسفينة الإسبانية ويسبح في مياه النقود الإسبانية دون أن تكون لديه روابط سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية بإسبانيا؛ مثلما ليست لديه أية روابط على هذا المستوى مع القوى العظمى الأخرى. فهل تكفي ظروف الجوار والعلاقات الودية، لتفسير هذا الارتباط الوثيق ؟

هذا ما يتعين فحصه من طرف الباحث المحايد الذي ينظر إلى اختلاف الأسعار بالعيون الناقدة للاقتصادي. ولربما كان من الضروري الذهاب أبعد من ذلك والبحث عن الأسباب الأولى لهذا المشكل المالي بالمغرب. وبهذا الصدد، يبدو من المفيد، الرجوع إلى الإحصائيات وإلى الجداول ومصادر المعلومات رغم بساطتها والتي يمكن تحديدها في ما يلي :

1 -الجداول الإحصائية المتعلقة بالتجارة، أي بعمليات الاستيراد والتصدير بالمغرب منذ سنة 1891.[24]

2 -دراسة الدور الخاص الذي تلعبه التجارة الإسبانية ضمن التجارة الدولية عموما.

---

[23] لقد اختفت كمية كبيرة من الذهب، من التداول بالمغرب وبالجزائر؛ وهي موجودة منذ سنوات، بمخابيء سرية بحيث لا يستفيد منها مالكوها الحذرون.

[24] لقد وضع مدير جريدة " يقظة المغرب" السيد هنري داركور هذه الجداول الإحصائية بناء على طلبي. وتبدو أهميتها من كونها مستمدة من الوثائق الإنجليزية والبلجيكية. والملاحظ أن هناك اختلافا بين معطياتها المتعلقة بسنة 1894 و معطيات " الدليل الرسمي " لنفس السنة والتي عرضها في الصفحات السابقة.

ولتشير بأن أرقامنا مستمدة من الإصدارات البلجيكية والإنجليزية التي لا يمكن نعتها بالتحيز. ويكتسي هذا العمل فائدة أخرى وهي دراسة حركة الصرف إلى جانب وضعية الميزان التجاري لفترة كافية لعملية المقارنة. هكذا، فإن الوضعية التجارية منذ سنة 1891، ستبرز كما يلي :

التجارة العامة للموانئ المغربية سنة 1891

الواردات : 41664643 فرنك
الصادرات : 40150384 فرنك
ميزان العجز : 1514386 ف

سنة 1892

الواردات : 41736870 فرنك
الصادرات : 35881905 فرنك
ميزان العجز : 5854965 ف

سنة 1893

الواردات : 43316475 فرنك
الصادرات : 32391485 فرنك
ميزان العجز : 10925990 ف

سنة 1894

الواردات : 41362010 فرنك
الصادرات : 26894880 فرنك
ميزان العجز : 14467130 ف

سنة 1895

الواردات : 40770414 فرنك
الصادرات : 22257977 فرنك
ميزان العجز : 18512437 ف

سنة 1896

الواردات : 34314250 فرنك
الصادرات : 23051725 فرنك
ميزان العجز : 11262525 ف

مجموع العجز : 62636304 ف

وبصيغة أخرى، لقد اضطر المغرب لصرف 62636304 فرنك، لتغطية العجز التجاري الناتج عن زيادة قيمة المشتريات على قيمة المبيعات دون أمل في استرداد هذا المبلغ. إضافة إلى ذلك، فإنه من غير الممكن أن يطبق بالمغرب، المذهب الاقتصادي الإنجليزي، القاضي باستيراد مواد أولية وتصدير مواد مصنعة؛ وهو ما يسمح للإنجليز بالتوفر على فائض في الميزان التجاري رغم أن عملية الاستيراد تفوق عملية التصدير.

أما بالمغرب، فإن كل البضائع المستوردة يتم استهلاكها ولا تصدر من جديد؛ وبذلك ينعدم مصدر الزيادة في المداخيل.

وإليكم الآن عمليات الصرف :

- سنة 1891 : كان هناك تساو مع العملة الإسبانية : 0
- سنة 1892 : بلغ معدل الصرف : 2 %
- سنة 1893 : بلغ معدل الصرف : 5 %
- سنة 1894 : بلغ معدل الصرف : 9 %
- سنة 1895 : بلغ معدل الصرف : 15 %
- سنة 1896 : بلغ معدل الصرف : 20 %
- سنة 1897 : بلغ معدل الصرف : 25 %

المجموع : 76 %

ويبلغ معدل الصرف على مدى هذه السنوات السبع : 10 %

وإذا ما أضفنا إلى مبلغ : 62636304 فرنك

زيادة سعر الصرف بعشرة في المائة أي : 6250000 فرنك

فسنحصل على ما مجموعه : 68886304 فرنك

وأدى المغرب لإسبانيا تعويضا قدره : 20000000 فرنك

وهو ما سيعطينا مجموعا آخر هو : 88886304 فرنك

هكذا نصل إلى 90 مليون فرنك تقريبا. أضف إلى ذلك التعويضات الأخرى المؤداة خلال هذه السنين السبع وعجز الميزان التجاري خلال سنة 1897 والذي لم تحدد الإحصائيات قيمته بعد؛ وهو ما يعني بلوغ رقم 100 مليون فرنك. والسؤال المطروح هو : ألا يبين لنا

انتقال هذا المبلغ من الصندوق الوطني إلى الصناديق الأجنبية، وجها من وجوه أزمة الاقتصاد المغربي وأزمة التجارة وانتشار الرهونات العقارية ؟

ولعل هذا ما يفسر المقاومة الضعيفة للمغرب أمام زحف سعر الصرف الإسباني.

بقي علينا ان نفحص الآن، الأسباب التي جعلت العملة الإسبانية هي العملة المتداولة بالبلد، بحيث لا تغادر الأرض المغربية حتى تعود إليها بسرعة. فمن جهة، سكت النقود المغربية المعروفة بالحسني، بكمية غير كافية لتلبية حاجيات المعاملات التجارية. ومن جهة أخرى فهي لا تتداول إلا داخل البلد ولا يتم تصديرها أو صرفها بالخارج. لذلك، كان من اللازم أن تقترض التجارة المغربية من بلد مجاور يتعامل يوميا معها، أكبر قدر من الأموال التي تحتاج إلبها. وتبدو إسبانيا هي البلد المعني، بفضل جوارها وتعدد خطوطها البحرية. والنتيجة هي أن البنكيين والتجار الكبار المتواجدين في عين المكان، سيلعبون دور الوسطاء بين الباعة والمشترين، حيث يتلقون العملة الإسبانية ويشترون البضائع المغربية بالحسني ويصدرون النقود الإسبانية إلى مرسيليا كسوق كبيرة للتبادلات، تسدد فيها نحو دول أروبية أخرى، المبالغ المتعلقة بالاستيراد.

هكذا، تصبح العملة الإسبانية وسيلة للتبادل وبضاعة خاضعة للتصدير وللاستيراد. وبالفعل، فإن أهم البنكيين بالمغرب وبطنجة خصوصا، يرسلون العملة الإسبانية إلى مرسيليا بالصناديق. أما كلفة النقل والتأمين فهي غير باهظة، إذ لا تتعدى 0,5%. وبمرسيليا تباع العملة الإسبانية بحسب سعر الصرف المتداول بمدريد وتحول إلى فرنكات تسدد بها فواتير البضائع المستوردة. وتعود هذه العملة مرة أخرى إلى إسبانيا، حيث يقتنيها التجار المدعوون إلى تسديد عدة فواتير ببلدهم. وتجدر الإشارة إلى أنه عندما يبلغ سعر صرف العملة الإسبانية بمدريد % 41 أو % 42 كما حدث في الأسابيع الأخيرة مثلا، فإن البنكيين المغاربة يرفعون هذا السعر إلى % 43 أو % 44؛ وهنا تتزايد أرباحهم، مما يشجع الوسطاء على شراء الدورو الإسباني بكل من مدريد ومالقة وقاديس؛ واستيراده أيضا من المغرب لبيعه بسعر فائدة يبلغ فرنكين أو ثلاثة فرنكات في المائة؛ علما بأن تكاليف نقل هذه العملة لا تتعدى 1%.

في ضوء هذه المعطيات، فإن المغرب مطالب بما يلي :

1 - أن يستخدم في معاملاته المالية والتجارية، عملة أقوى من العملة الفضية الإسبانية الخاضعة لتقلبات الصرف.

2 - أن يمتلك لصرفه الخاص، عملة مغربية كافية لتلبية حاجيات البلد. وستقدم جريدة "يقظة المغرب" في هذا الإطار، مشروعا للإصلاح النقدي يتسم بالمعقولية والواقعية؛ لكنه لن يطبق للأسف، لأنه معقول ومنصف فعلا.[25]

الخـدمـات البريديـة مـن وإلــى طنجـة :

- ذهـاب المـراسـلات [26] :

- إلى أوربا والجزائر [فرنسا، الجزائر وبلدان أخرى]

عبر قاديس، أيام الثلاثاء والخميس والسبت على الساعة التاسعة والنصف صباحا.

وعبر الجزيرة الخضراء، أيام الاثنين والأربعاء والجمعة على الساعة العاشرة والنصف صباحا.

- إلى مارسيليا [مباشرة] في 12 و 27 من كل شهر.

- إلى مرسيليا وجنوة بواسطة سفينة إيطالية في الثاني من كل شهر.

- إلى وهران عبر مليلية ونامور، كل أربعاء، أسبوعيا على الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا.

- إلى البرازيل في 24 من كل شهر، عبر سفينة بخارية للخطوط البرازيلية.

- إلى تطوان يوميا [باستثناء الأحد]، على الساعة الرابعة والنصف بعد الزوال.

- إلى القصر الكبير وفاس أيام الاثنين والأربعاء والسبت على الساعة الرابعة بعد الزوال.

- إلى القصر الكبير عبر العرائش، كل سبت على الساعة الرابعة بعد الزوال.

إلى أصيلة[27] والعرائش والرباط والدار البيضاء والجديدة ومراكش وآسفي والصويرة، أيام الإثنين والأربعاء والجمعة، على الساعة الرابعة بعد الزوال وبواسطة السفن البخارية العاملة بالساحل.

---

[25] Voir, le réveil du Maroc, 31 mars et 14 avril 1898.

[26] هذه المعلومات مستقاة من مداخيل البريد الفرنسي بطنجة [مارس 1898].

[27] إن أسماء بعض المدن لا تكتب بشكل سليم، كما هو الشأن بالنسبة لمدينتي فاس وأصيلة اللتين تكتبان Fez و Arzila.

- وصول المــراســلات :

-من أروبا عبر قاديس، أيام الإثنين والأربعاء والجمعة على الساعة الواحدة والنصف صباحا. عبر الجزيرة الخضراء أيام الثلاثاء والخميس والسبت، على الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا.

من مرسيليا [مباشرة] في 12 و 27 من كل شهر.

من وهران عبر نامور ومليلية، كل يوم ثلاثاء، أسبوعيا على الساعة الثالثة صباحا.

من تطوان كل يوم [باستثناء الأحد]، على الساعة السابعة صباحا.

من القصر الكبير وفاس، أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، على الساعة السادسة مساء.

من الساحل، أيام الاثنين والأربعاء والجمعة والسبت على الساعة السابعة صباحا، بواسطة كل السفن البخارية العاملة بالساحل.

البــريــد والتلــغراف :

لا يحتاج السلطان إلى البريد في ربوع مملكته، لكن الأروبيين بالمقابل، ونقصد بهم إسبانيا وإنجلترا وفرنسا، يتوفرون بالسوق الصغير Soko chico بطنجة[28] على مداخيل بريدية. والشيء المهم بالنسبة للجمهور، هو أنه من الممكن استخدام المصالح البريدية لهذه البلدان، حسب رغبة الزبون. لكن، غالبا ما يتم تفضيل المكاتب الفرنسية والإنجليزية، لأن البريد الإسباني ضعيف من حيث مردوديته.

وبخصوص التلغراف، فإنه يوجد بفضل حبلين معدنيين [كابلين] إنجليزي وإسباني، يربطان المغرب بأوربا. وكان من المقرر مؤخرا إضافة كابل ثالث بين وهران وطنجة. وسيكون من مصلحة فرنسا، العمل على إنجازه حتى لا تظل خاضعة للكابل البريطاني أو القشتالي، مع ما يترتب عن ذلك من أضرار بالنسبة للطرف الفرنسي.

الخطــوط البحــريــة :

بعد أن تعرضنا لعمليات ذهاب ووصول المراسلات يتعين علينا الآن إبراز جنسيات الشركات البحرية التي تعمل بواخرها بطنجة وبباقي الشواطئ المغربية.

المــراكــب الفرنسيـــة :

---

[28] يجب ان يقرأ تشيكو سوكو [السوق الصغير].

1 -شركة الملاحة المغربية، باكي وشركاؤه [مرسيليا] وتقوم برحلات نصف شهرية على شواطئ المحيط الاطلسي وجزر الخالدات.

2 -شركة الملاحة المختلطــة [شركة طواش]، وتقوم برحلات نصف شهرية بين مرسيليا وطنجة، مرورا بوهران، بني ساف، نامور، مليلية، جبل طارق وسبتة.

المــراكب الإنجليزيـــة :

1 -شركة Mersery SteamShip Company Limited، وهي تقوم برحلات عبر السواحل المغربية، فضلا عن جزر الخالدات وماديرا.

2 -هناك رحلات يومية بين جبل طارق وطنجة.

المــراكب الإسبانيـــة :

1 -الشركة الإسبانية العابرة للمحيط، وتقوم سفنها برحلات شهرية بين مرسيليا والصويرة، مرورا بالمدن الساحلية الأخرى.

2 -هناك خدمة بريدية كل يومين، بين قاديس وطنجة.

3 -هناك رحلات شهرية ما بين الموانئ المغربية وجزيرة فرناندو – بو – Fernando Po؛ وهي مستعمرة إسبانيا بإفريقيا، قرب الساحل الغيني، عدد سكانها 20 ألف نسمة.

4 -أما الشركة الإسبانية الأخرى، فهي شركة هاينس Haynes التي تنطلق مراكبها من قاديس، لكانه اندمجت بالشركة الإنجليزية.

British and African Steam navigation limited African Steam Ship Cie.

المــراكــب الألمـــانيــة :

1 -شركة هيرمان Haerman بميناء هامبورغ، وتقوم سفنها برحلات شهرية ومنتظمة إلى المغرب وتنتقل إلى جزر الخالدات والسنيغال.

2 -شركة أطلس ليني Atlas Linie بهامبورغ أيضا وتستعمل سفينة واحدة للقيام برحلات إلى الموانئ المغربية حتى الصويرة.

ونضيف في الأخير، معلومة حول الفنادق؛ فهي موجودة بكل موانئ الساحل. وعلى سبيل المثال، توجد بطنجة، فنادق فرنسية وانجليزية وإسبانية. ويؤكد بعض المسافرين بأن معدل الأثمنة هو 6 فرنكات لليلة؛ ويقول آخرون إن الأكل باهض الثمن ومتوسط الجودة.

-الأحواض المائية للفحاص وهندستها : **رأس سبارطيل** : تتضمن الدائرة الترابية لطنجة، قبيلة الفحاص التي تبلغ قطرها 40 كيلومترا من طنجة إلى بني مساور و 20 كيلومترا، من الغربية إلى الأنجرة؛ وهي منطقة بحرية أساسا، يحدها البحر الأبيض المتوسط وجبل طارق شمالا والمحيط الأطلسي غربا وأرضها متموجة وصالحة لزراعة الحبوب وكمرعى للمواشي، رغم تواجد شجيرات الصبار والند بكثرة بهذه المنطقة.

وحول الدواوير العديدة والمتسخة، توجد بساتين الفواكه وأشجار الزيتون. وقد غزا الريفيون البادية، فمنهم من أصبح مالكا للأرض ويشتغل على حسابه، ومنهم من يأتي كل سنة للعمل في مواسم الحصاد والجني. واختار هؤلاء الأمازيغ الجادون والبواسل، قبائل جبالة البحرية، حيث يستقبلون بحفاوة، بسبب الخدمات التي يقدمونها في مجال الفلاحة. غير أنهم يتعرضون أحيانا للسخرية، بسبب لغتهم وعاداتهم الخشنة، من طرف بعض العرب العديمي الأصل، الذين يجهلون أجدادهم والذين لم يبتكر فكرهم البئيس سوى هذا المثال المخزني الذي يعيرون به الريفيين وهو : " الدنيا توحمت بجبالة وولدت المدون وخرات العرب ومسحت بالريف !"

وقد ساهمت أعمال العديد من الأروبيين الذين زاروا المنطقة، في تحديد طوبوغرافيا الفحاص. وفي هذا الإطار، يقدم لنا تيسو Tissot كعادته وصفا دقيقا ومثيرا لهذه المنطقة التي يسميها دائرة طنجة، حيث يقول : " على مسافة ساعة من طنجة، تمر الطريق بين التلال التي تقع بها قرى البحرين. وتعتبر التلة المطلة على الشعاب، من اليسار بأعلى نقطة بالهضبة التي نجتازها والممتدة بالجنوب الشرقي حتى زينات، نقطة انفصال مياه حوضي طنجة والمهرهر. ومن التلال المطلة على البحرين، يبدو أول حوض؛ وهو محدود شمالا بالمضيق، من نقطة ملابطا إلى رأس سبارطيل وشرقا بالتلال المنتشرة من هذه النقطة إلى جبال بني مساور؛ وجنوبا بسلسلة تلال عين الدالية وزيتون بوغدور والهجارين والسوير، الموازية لرأس سبارطيل؛ وغربا بالمحيط الأطلسي.

ويمكن تقسيم حوض طنجة إلى ثلاث مناطق وهي :

1 -حوض الشرف الذي تصب مياهه بالخليج. وأهم مجرى بهذا الحوض، هو واد مغورة الذي تنضاف إليه شمال تلة الشرف، مياه واد السواني وواد طنجة البالية.

وأهم مراكزه السكنية هي : دشور الشرف وطنجة البالية ومغورة الموجودة على ثلاث تلال تشكل إحداها موجها للسفن التي ترسو بميناء طنجة، بسبب ابتعادها عن التلتين التبقيتين.

2 -مرتفعات رأس سباطيل أو الجبل، المنفصلة عن هضبة مرشان والتي بنيت طنجة على منحدرها الشرقي، حيث يمر بها واد اليهود؛ وبها نتوءات بارزة بالجنوب الشرقي، تسمى بوبانة، كم تتضمن العديد من القرى التي نذكر من أهمها : الجبل، منسانة، الزياتن، عمار، مغاير ومديونة.

3 -حوض بوخالف، المحدود شمالا بمرتفعات رأس سباطيل وشرقا بتلال ممتدة من الزياتن إلى بوعمار وجنوبا بتلال زيتون بوغدور والهجارين. ويصب واد بوخالف الذي تنحدر مياهه من الجبل، بالمحيط بين تلال المرييس وتلة جبلية معروفة في خرائطنا القديمة، تحت اسم جبل نيبل Nipple" [29]

إن الدرويش لم يتمكن من زيارة رأس سباطيل، المتميز الذي يشكل أقصى نقطة بشمال غرب القارة الإفريقية.

بالمقابل، فإن العديد من الأروبيين شاهدوا هذا الرأس ومازالوا يزورونه. ويشكل رأس سبارطيل أحد المنتزهات المفضلة لسكان طنجة. وفوق الصخرة التي تخترق البحر، يوجد فنار ممتاز، شيده مهندس فرنسي وتسهر القوى المسيحية على صيانته. وعلى مسافة قصيرة

[29] Tissot, Itinéraire de Tanger à Rabat, Bulletin de la société de goégraphie de Paris, Septembre 1876.

وقد ولد شارل تيسو بباريس في 29 غشت 1828 وتوفي بها في 2 يوليوز 1884. وهو لم يكن فقط عالم آثار عظيم، بل كان أيضا من أبرز مكتشفي المغرب. وقد تحدث السيد بيرو Perrot عن مؤلفه : " أبحاث في الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجاوية" بما يلي : " إنه كتاب علمي ومنهجي رائع، ولم تعمل الأكاديمية على نقل كل الخرائط والبيانات الموجودة به والتي تشكل عملا ثمينا أحتفظ به لتميزه. ويمكن القول، إنه صورة أمينة عن البلد الذي اكتشف ساحله الأطلسي وتعرف بالخصوص على مناطقه التي سبق أن بلغتها الحضارتان الرومانية والفنيقية" [تأبين شارل تيسو بجلسة الأكاديمية المنعقدة بتاريخ 5 يوليوز 1884].

من الفنار جنوبا، يمكن للمرء أن يستمتع بمنظر مغارات هرقل العجيبة.[30] ونحن نعلم بأن الإغريق كانوا يسمون رأس سبارتيل من قبل "رأس الكروم".[31]

المراكز الرئيسية بالفحاص

طنجة وضاحيتها

ـ طنجة: عندما يتعلق الأمر بصياغة الأسماء والبحث عن أصولها، فإن العرب لا يجدون أي حرج في القيام بذلك. وبخصوص طنجة، فقد تخيلوا قصة غريبة تلائم واقع الأمية المتفشية في المغرب. ومما جاء فيها، أن الحمامة التي أطلقها نبي الله نوح خلال الطوفان، رجعت إلى السفينة وبمنقارها شيء من الطين، ماخوذ من المكان الذي ستبنى فيه طنجة لاحقا.

حينها صاح نبي الله وصاح معه كل أفراد عائلته:

ـ الطين جا ! ومن هاتين الكلمتين صاغ العرب لفظة طنجة التي تسمى عند الفرنسيين Tanger.

ويبلغ عدد سكان طنجة حاليا، ما بين 20 و 25 ألف نسمة، يوجد من بينهم 4 أو 5 آلاف إسباني وبعض الفرنسيين والإنجليز والألمان؛ و8 آلاف يهودي على الأقل. أما باقي السكان فيتألف من الريفيين والجبليين والموركسيين والعرب الجزائريين وعرب جنوب ووسط المغرب.

وتعتبر طنجة مقرا لإقامة الهيئة الدبلوماسية. ومعلوم أنه قبل حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله [1758-1790]، كان كل القناصلة الأجانب يقيمون بتطوان – باستثناء قنصل فرنسا الذي أقام أولا بآسفي ثم بسلا حيث بقي حتى سنة 1793 –.

وحدث أن أحد الأروبيين كان يصطاد العصافير ببندقيته بضواحي هذه المدينة، فأصاب امرأة مغربية برصاصة، قتلت على إثرها؛ عندها أقسم السلطان سيدي محمد وهو يمسك لحيته[32]

---

[30] حفرت هذه المغارات داخل ركام صخري تشكل من أحجار صغيرة بحجم البازلاء أو الفاصوليا، متراصة بفعل كلس متبلور. وقد تم توسيع المغارة الرئيسية، بشكل غير مباشر، لأن رحى الطواحين كانت تستخرج منها منذ القدم. [أوسكار لانز].

[31] Tissot, Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, P. 54.

بألا تطأ قدم أي نصراني مدينة تطوان في المستقبل. وهو ما دفع الهيئة الدبلوماسيةإلى الإقامة بطنجة، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وتوجد الدواوير التالية بضواحي طنجة:

الشارف، السواني، دار المدفع، المصلى، المرشان، جامع المقرع.

قسم جبيلو

ويدعى أيضا جبيلة. وقد اختار الأهالي هذا الاسم القريب من جبالة، معللين ذلك بكون أول انسان أقام بالمنطقة، كان جبليا.

- جبيلو، 100 منزل.
- سيدي حساين، 50 منزلا، قرب الساحل.

قسم العوامة

- العوامة، 300 منزل، على واد مرشان.

قسم مسنانة

- مسنانة [وهو مكان يكثر فيه نوع من السمك يدعى بوسنان]، 100 منزل.
- مغوغة، 100 منزل

قسم حجرة كحيلة

- حجرة كحيلة، على المحيط الأطلسي ويجتازها واد الفحاص.

---

(32) يعتقد كل من لمبريير Lamprière الذي روى هذا الحدث والأب كستيانوس Castellanos الذي نقله عنه، بأن القسم بوضع اليد على اللحية، لا يؤدى من طرف المغاربة إلا في المناسبات الهامة. والحال، أن هذين الكاتبين يجهلان بأن هذا النوع من القسم غير موجود عند المغاربة. ويرجع خطؤهم في التقدير إلى ما يلي: عندما يهدد مسلم إفريقي شمالي شخصا آخر، فإنه يمسك لحيته ويقسم سرا أو جهرا بأنه سيفعل كذا لذلك الشخص. وكما يلاحظ، فإن دور اللحية يعتبر ثانويا في هذه الحالة. وقد تم تهديد الدرويش مرات عديدة بهذه الطريقة، كما حدث له مع قاطع الطريق بتريغة.

Voir, Lamprière, Voyage dans l’Empire du Maroc et le Royaume de Fès, in – 8, 1801, p. 6 ; et Castellanos, Descripcion historica de Marruecos, p. 34.

وقد اعتقد ديديي Didier بمزاجه البارد في كتابه "جولة بالمغرب"، ص. 24، بأن المسلمات كن ميالات إلى النصارى؛ وأرجع طرد الهيئة الدبلوماسية من تطوان، إلى غيرة الأزواج المسلمين. ويبدو أن مواطننا السطحي واللا مسؤول، مارس سيكولوجيا الإشارات مع المغربيات عن بعد ! ويا لها من طريقة لاكتشاف المشاعر الحميمية لأعقد الكائنات على وجه الأرض. !

قسم ربع ريافة [غرب المدينة]

- خندق الزرزور، 100 منزل.
- العمرية، 50 منزلا.

قسم البحورة

- البنيان، 20 منزلا.
- عين الدالية، 50 منزلا

قسم أهل الواد

- القوى العسكرية: 8 آلاف فارس وجندي من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 56 ألف نسمة، بما في ذلك ساكنة طنجة.

نبذة تاريخية عن طنجة

- طنجة قديما، قبل الفتح العربي-

قال عنها ميلا [Mila, I.V]:

« Tinge oppidum pervetus, ab Antaeo, ut ferunt conditum ».

وقال عنها بلين [Pline, V, I]:

« Tingi, quondam ab Antaeo conditum »

وقد تعددت التسميات من قبيل: Tinga, Tenga, Tingi, Tinge وكان هذان الإسمان الأخيران منقوشين على النقود القديمة بطنجة [33] ويشيران إلى نفسص المدينة وهي العاصمة الطنجاوية.

[33] يؤكد مولر Müller على أن الصوامت TTG المنقوشة على بعض النقود البونيقية لطنجيس، قد مكنت من ظهور مقطع TITGE أو TITGA التي التي اشتقت منها لفظة Tiga الإغريقية. وبالمناسبة أحيي هذا العالم على عمله الرائع حول النقود البونيقية والرومانية لطنجيس وللمدن القديمة لموريطانيا الطنجاوية، وهو العمل الذي اختار له كعنوان :

- Numisamatique de l'Acienne Afrique, Copenhague, 4 volumes in – 4,ipupliés de 1860 à 1874.

أما التقليد ا لذي اعتبر أنطي Antée مؤسسا لها، فهو يدل فقط على إيغالها في القدم. فمن الذي بناها إذن؟ لربما كان الأمازغيون أو القرطاجيون. ويعتقد تيسو[34]بأن اسم طنجيس Tangis أو طينجا Tindja ليبي[35]؛ ويذكر بلدة بشمال تونس، ما زالت تسمى طينجا. ويستبعد هذا المؤلف الفرضية التي تربط بين طنجيس وأطلال طنجة البالية الموجودة على بعد ميلين تقريبا، شرق طنجة. وقد سبق لبارث Barth [36]، أن لاحظ قبل تيسو، بان أطلال طنجة البالية، ترجع إ لى الفترة البيزنطية على أكثر تقدير.

إن طنجة الحالية، كانت على الأرجح مدينة أمازيغية في الأصل؛ وأصبحت فيما بعد، مركزا تجاريا فينيقيا، ثم تحولت إلى مركز قيادة للجيش الروماني في موريطانيا الطنجاوية.

ومن المحتمل أن تكون طنجة موجودة قبل سنة 1520 قبل الميلاد؛ وهي الفترة التي تمت فيها عمليات الإبحار الفينيقية الأولى بمضيق جبل طارق وبالساحل الغربي لشمال المغرب، حيث أقام الفينيقيون الشجعان بعض المراكز التجارية.

ويجب أن تكون مدينة يتجاوز عمرها 3500 سنة، مليئة بالأطلال وبالآثار القديمة، بحيث تشبه متحفا. لكن للأسف، لا تجد أي شيء من كل هذا. فباستثناء مقبرة ترجع على الأرجح إلى الفترة الليبية – الفينيقية [وقد حفرت القبور في الهضبة الصخرية التي تحتل طنجة منحدرها الشرقي، لكنها تتعرض حاليا للهدم من طرف الأهالي الذين يستغلون أحجار الصخرة من أجل بناء مساكنهم]، وباستثناء بعض النقوش الرومانية النادرة التي اكتشفت ثلاثة منها، من طرف تيسو[37]، فإن محب التاريخ القديم، سيرجع بخفي حنين من الصيد العلمي الذي يحاول ممارسته عبر أزقة طنجة الحديثة. وأتمنى أن يسفر باطن أرضها عن

---

[34] Tissot, Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane.

وهو كتاب أساسي وضروري لكل من يريد التعرف على المغرب القديم.

[35] تعني طنجي أو طينجا بالأمازيغية "مدينة البحيرة".

Voir, Tissot, géographie Comparée de la province romaine d’Afrique, in-4, Paris, 1884, p. 516.

وهو أيضا مؤلف رائع على مستوى منهجيته ومضمونه المعرفي.

[36] wanderungen durch die Küsten lander des Mittel meers, p. 8

[37] Géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, p. 47 et suiv.

مفاجآت بالنسبة لأولئك الذين سيهدمون في المستقبل، الأكواخ العربية لتعويضها ببنايات وشوارع فسيحة ونظيفة.

- حوالي سنة 238 ق.م، عاشت طنجة حدثا مثيرا. فقد تقدمت الجيوش القرطاجية بالشاطئ مسبوقة بفيلتها؛ وكانت قادمة من الشرق، قاطعة المسافة الفاصلة بين قرطاج ومضيق جبل طارق.

وقد مشى الجنود على الأقدام، منطلقين من بيرسا Byrsa، قاطعين المسافات بمحاذاة الساحل، بينما كان الأسطول البحري يقطع الأمواج دون أن يغيب عنه تحرك القوات البرية. فيا لها من مسيرة عسكرية رائعة ! وقد تم قطع المراحل وسط الشعوب الأمازيغية الحرة؛ فكيف حققت هذه الحملة الرائعة النجاح؟

لقد كان على رأس الجيش البونيقي، أحد عظماء المقاتلين في القديم وهو أميلكار Amilcar الملقب بباركا Barca أي البرق؛ وكان العنصر الأمازيغي متواجدا بكثرة في صفوف جيشه. واصطحب معه "قاهر المرتزقة" هذا، ابنه الذي كان طفلا آنذاك والذي سيثير الرعب لاحقا في روما، وأقصد به هاني بعل Hannibal. هكذا، استخدمت طنجة في ا لقرن الثالث قبل الميلاد تقريبا، كميناء يبحر منه الجيث الأمازيغي القرطاجي الغازي، الذي سيسيطر على إسبانيا، قبل أن يباشر حملته الخالدة على إيطاليا التي كادت أن تؤدي إلى استسلام روما.

وبعد تدمير قرطاج، حكم الأمراء الأمازيغ بالمغرب الشمالي البلاد؛ وتأكدت هيمنة الأمازيغ من جديد، حتى اليوم الذي هاجمت فيه روما كلا من يوغورطا Jugurtha وبوخوس Bocchus [وكان ذلك سنة 107 ق.م].

- سنة 81 ق.م، استولى القائد الإسباني سرتوريوس Sertorius على طنجيس، التي لجأ إليها أحد الطامعين في الإمارة بالمغرب، يسمى أسكاليس Ascalis.

- سنة 38 ق.م، تحالف بوغود Bugud، ملك موريطانيا الغربية، مع مارك أنطوان Marc Antoine وقطع المضيق إلى إسبانيا لمواجهة أتباع أوكتاف Octave. وأثناء غيابه، تمرد سكان طنجيس وسلموا مدينتهم إلى بوخوس ملك موريطانيا الشرقية، الذي مكنه أوكتاف من السيادة على موريطانيا الغربية.

- سنة 42 ميلادية، قسم كلود Claude موريطانيا إلى قسمين: الطنجاوية والقيصرية. واعتبرت طنجيس مستعمرة رومانية وأصبحت مركزا بالنسبة للمنطقة الطنجاوية برمتها. وحسب بلين Pline فإن المدينة كانت تدعى Tinge colonia Julia Traducta أما إقليمها فكان يدعى: Provincia nova hispania ulterior Tingitana . وتعتبر الموريطانيتان من الأقاليم الخاضعة للإمبراطور وتتم إدارتها من طرف الولاة.

سنة 69م. ألحق فتيليوس Vitellius موريطانيا الطنجاوية بإسبانيا[38]

والمثير في الأمر، هو أنه بعد هذا الإلحاق، سيتم وضعها سنة 323م، تحت سلطة حاكم يمثل الغوليين.

ويفتقر الباحث إلى الوثائق المتعلقة بتاريخ طنجة وإقليمها، منذ ضمها نهائيا من طرف الامبراطورية الرومانية سنة 42 ميلادية إلى غزو الوندال Vandales لها سنة 428م. وكل ما نعرفه هو أن الاحتلال الروماني ظل عرضة لهجمات الأمازيغ المستمرة. ويمكننا التأكيد على أن لفظة "تمرد"، تلخص ما حدث خلال أربعة قرون من الاحتلال العابر، الذي اقتصر على منطقة جبالة الحالية وعلى الجزء الشمالي من دائرة فاس.[39]

هكذا، احتاج شعب الأباطرة إلى أكثر من أربعة قرون، لاجتياز هذه المسافة الصغيرة بين طنجة وفاس. وبعد ذلك، اختفى جنوده مثل دخان حملته العاصفة، تحت الضربات المتتالية للأمازيغ المتشددين. وهو ما حدث أيضا لقرطاج، فما أن أقام تجارها الجشعون بالساحل المغربي، حتى اضطروا إلى مغادرته والاختفاء نهائيا، إن صح التعبير.

- سنة 428م[40]، اجتاز قطيع الوندال الذي نزل بطنجة، المغرب بسرعة. وهو ما يؤكد إلى أي حد كان هؤلاء الهمج يتفادون مواجهة همج آخرين، لا يقلون عنهم جرأة وقسوة.

---

(38) Fournel, les Berbers, tome, 1er, p. 55.

(39) انظر خارطة موريطانيا الطنجاوية في مؤلف روني كانيا René Cagnat وعنوانه:

- L’Armée romaine d’Afrique et l’occupation militaire de l’Afrique sous les Empereurs, Imprimerie nationale, Paris, in-4, 1892.

Voir aussi, les travax de M. de la Matinière dans le Bulletin archéologique du comité des travaux historiques (de 1891 à 1893) ; et les Fastes des provinces africaines sous la domination romaine, par M. Pallu de Lesert, Paris, in-4, 1896 et 1897 [1ère et 2ème partie].

(40) إن السنوات المقرونة بحرف الميم أو بدونه،تشير إلى التاريخ الميلادي.

وبذلك، لا توجد معلومات وافية حول المرحلة الوندالية بالمنطقة الطنجاوية، وإن كان الحضور العابر لهؤلاء الغزاة المخربين، سببا من أسباب زوال الهيمنة الرومانية بالمغرب.

ثم جاءت بيزنطة، وقد مس الاحتلال البيزنطي سبتة وطنجة وبعض نواحيها، حيث اكتشف الأركيولوجيون بعضا من آثاره [531-642م].

وخلال حكم سوينذيلا Swinthilla [621-631م]، احتل الفزيقوط visigoths الإسبان، مدينة طنجة التي انتزعوها من أيدي البيزنطيين لكن لفترة قصيرة .

- في سنتي 682 و 693م، استولى القائد المسلم عقبة بن نافع على مدينة طنجة "وقتل جميع أهاليها من الذكور وأسر الباقي". [البكري، المسالك، ص. 108 و 109].

ويؤكد فورنيل Fournel بان طنجة كانت تحت سيطرة الأمازيغ، عندما استولى عليها عقبة.

[Les Berbers, t. 1er, p. 171, n° 1]

[**ملحوظة المترجم**: صاغ فورنيل لفظة Berberr بدون الحرف الصائت e، في الأخير]

-الوثنية والمسيحية واليهودية بالمنطقة الطنجاوية:

قبل معالجة التاريخ الإسلامي بطنجة، أقترح إلقاء نظرة على المعتقدات الدينية لموريطانيا الطنجاوية قبل وبعد ظهور المسيحية.

فنحن نعلم بكل تأكيد، أن الأهالي كانوا عبدة للاوثان idolâtres وللنار ignicoles؛ واستمروا في ممارسة طقوسهم رغم انتشار المسيحية واليهودية بين ظهرانيهم. والدليل على ذلك، أنه في سنة 299م، تم إصلاح معبد إحدى الربات الأكثر شهرة وهي الربة Maura التي استمد منها السكان اسم موريسياني Maurissiani أو مورنسي في حفل مهيب بعين تموشنت Timouchent.[41] وقد كانت الوثنية هي ديانة أغلب الأمازيغيين القدامى، تليها من حيث الانتشار، الديانة اليهودية ثم المسيحية.

[41] إن ا لاكتشاف الهام للنقوش التالية، يسمح لي بالتأكيد على أن الربة مورا كانت أولا هي معبودة المغاربة القدامى؛ وثانيا هي مصدر الاسم الإثني الذي أطلقه الرومان على قسم هام من العرق الأمازيغي. وإليكم هذه الوثيقة الثمينة:

فلنفحص أولا وضع المسيحية: إن مذهب المسيح دخل المغرب في فترة غير محددة بدقة. وقد اضطهد معتنقوه بشدة في البداية؛ لكن انتشاره عرف تقدما سريعا فيما بعد، لأن داعية الإسلام العظيم، إدريس الأول، كان مضطرا إلى خوض معارك عنيفة ضد الأمازيغ المسيحيين واليهود.[42]

وقد تساءل الأب غودار Godard الذي لا يشك أحد في موقفه المحايد نسبيا من الأهالي الوثنيين، كيف تمكنت المسيحية من التغلغل بعمق في موريطانيا الطنجاوية خلال القرن الخامس؟[43]

- تمثال الربة مورا: "حصل اكتشاف هام بعين تموشنت داخل أطلال ألبولي Albulae على بعد 75 مترا من النقطة التي استخرجت منها سنة 1888 الوثيقة المنقوشة التي تتحدث عن إصلاح في العام 260 من التقويم المحلي[الموافق لسنة 299م] لمعبد ال ربة مورا.

فبتاريخ 15 نوفمبر، اكتشف عمال البناء الذين كانوا يحفرون أساس منزل السيد كارسناك Carcenac على عمق ثلاثة امتار، بقايا تمثال من المرمر الإيطالي، لهذه الربة المحلية. وكان رأسها يتكون من قطعتين ويحاط ذراعها بأكمام ذات ثنايا أربعة، كما تظهر اليد اليمنى وجزء من الذراع والساق وأخيرا الرجل اليسرى؛ وبها نعل مربوط بسيور courroies. ويبلغ علو الرأس 24 سنتيمترا، أما طول التمثال فهو عادي. ويؤكد شكل الشعر المجعد بانتظام، ما ورد في "جغرافيا سترابون Strabon" حول تصفيفة الشعر لدى المغاربة القدامى أو الموريسيين.

[سيلي ذلك استشهاد بما ورد في الكتاب السابع من هذا المؤلف، الفصل الثالث، القسم السابع، ترجمة أميدي طارديو A. Tardieu].

وعندما أخبرني عمدة عين تموشنت بهذا الاكتشاف، التحقت بعين المكان لجمع هذه القطع الثمينة الموجودة حاليا بمتحف وهران".

[Extraits du Bulletin de la Société de géographie et d’archéologie, de la province d’Oran , tome XI, fascicule II, octobre – d écembre 1891, pp. 561 et 562 ; article écrit par feu mon ami L. Demaeght] .

[42] إن هذا التأكيد المقدم من طرف ابن أبي زرع غير مقنع. فإما أن المغرب كان يعج ب "الكفار" وبالتالي فإن إدريس ما كان بإمكانه الانتصار عليهم بمساعدة مناصريه القليلي العدد؛ وإما أنه كان يتضمن مجموعات صغيرة من المسيحيين واليهود، وبذلك فإن مسألة هدايتهم أو إبادتهم، كانت مسألة وقت فقط. وتبدو لي هذه الفرضية الثانية أقوى.

[43] Godard, Histoire du Maroc, Tome 1er,P. 259.

والشيء المؤكد هو أنه لم يسبق أن ذكر اسم قبيلة مسيحية؛ وبالمقابل فقد تبين أن غياثة ومديونة، كانتا تعتنقان اليهودية. فليس هناك ما يسمح بافتراض أن الشعوب الأمازيغية المغربية ذات المزاج الثوري والديموقراطي، قد اعتنقت المسيحية الآرية.

وفي جميع الأحوال، فإن تعذيب القائد العسكري المسيحي مرسيلوس Marcellus الذي قطعت رأسه بطنجة، لأنه رفض المشاركة في الطقوس الوثنية التي أقيمت احتفاء بذكرى الإمبراطور مكسيمليان هرقل Maximilien Hercule، يؤكد حقيقة لا جدال حولها، وهي أن الإنجيل لم يسد في المناطق البيتيقية Bétique والطنجاوية.

وأدعوكم للمقارنة بين هذين الحدثين المهمين والمتنافرين وهما: قطع رأس النصراني مرسيلوس بسبب إيمانه سنة 298؛ والإصلاح الاحتفالي لمعبد الربة الوطنية مورا سنة 299، واستخلاص ما يترتب عنهما من نتائج.

ويدعي بعض الكتاب المسيحيين، وجود بعض الأسقفيات évêchés بالمنطقة الطنجاوية، قبل القرن الرابع الميلادي، حيث يرجع تاريخ أسقفية طنجة إلى سنة 298 وقاع اسرس إلى سنة 255.

وعند تتويج الإمبراطور قسطنطين انتشر مذهب يسوع، رسميا على الأقل، وبدأ تنصير موريطانيا الطنجاوية في بداية القرن الرابع. لكن تجربتي كإفريقي قديم تجعلني أخمن بأن هذه العملية لم تتجاوز المدن الخاضعة للرومان وضواحيها أيضا، أما أغلب السكان الجبليين والقرويين الأمازيغ، فلم يخضعوا لروما، لا سياسيا ولا دينيا. وخير دليل على ذلك، السهولة النسبية التي اعتنق بها الإسلام من طرف الشعب الأمازيغي.

وإذا كان من الممكن التأكيد على أن المسيحية لم تتجذر في الأراضي الطنجاوية قبل الفتح العربي، فهل ينطبق نفس الأمر على اليهودية التي فكر أتباعها المغاربة سنة 694 في غزو إسبانيا؟

إن هذا الحدث المثير وغير المعروف، يحتاج إلى تفسير. ففي سنة 616 شرع رجال الدين الإسبان، في عهد ملك الفزيقوط سيزيبوط Sisibut في اضطهاد يهود شبه الجزيرة

وأمهلوهم سنة واحدة للتخلي عن ديانتهم واعتناق المسيحية، وإذا ما انتهى الأجل وظل اليهود محافظين على معتقدهم، فإنه سيتم نفيهم، بعد جلدهم مائة جلدة ومصادرة ممتلكاتهم.[44]

هكذا تنصر حوالي 90 ألف إسرائيلي؛ وإن كان أغلبهم قد ادعى اعتناق الدين الجديد وظل يمارس خفية، طقوس الديانة العبرانية مع باقي اليهود. لنقل إن النواة الأولى للمرتدين اليهود apostats قد تضخمت تدريجيا تحت ضغط المتعصبين من المرابطين والموحدين، وخصوصا بعد سنة 1480، أي بعد إنتشار محاكم التفتيش inquisition بإسبانيا. أضف إلى ذلك، أن هذه الاضطهادات ستؤدي إلى اعتناق مكثف للديانة المسيحية وبالتالي إلى إدماج آلاف اليهود داخل القومية الإسبانية، حيث بلغ عدد كبير منهم مراتب اجتماعية عالية. وهو ما لخصته عبارة وردت في "جمرة النبالة" لماندوزا Mendoza، جاء فيها:

"إن دم أغلب العائلات الإسبانية يحتوي حاليا على دم يهودي".

لنعد الآن إلى المشروع المثير لليهود المغاربة والقاضي بغزو شبه الجزيرة الإيبيرية. ذلك أن اضطهاد الإسرائيليين الذي بدأ سنة 616، دام ثمانين سنة، عانى فيها هذا العرق الويلات بصمت. وفي سنة 694، قرر اليهود القيام بانتفاضة جماعية بإسبانيا، بمساعدة يهود موريطانيا الطنجاوية، "حيث كانت العديد من القبائل الأمازيغية تعتنق اليهودية وحيث لجأ العديد من اليهود المنفيين من إسبانيا. وكان من المقرر أن تندلع الثورة في أماكن عديدة، ، عندما يبحر يهود إفريقيا باتجاه السواحل الإسبانية. لكن قبل الوقت المحدد لتنفيذ العملية، أحيطت الحكومة علما بالمؤامرة. واتخذ الملك إخيكا Egica التدابير اللازمة لمواجهة الوضع، فاستدعى مجمع الأساقفة concile بطليطلة وأخبر مرشديه الروحيين بالمشاريع الدنيئة لليهود، وطلب منهم إلحاق أشد العقوبات بهذا العرق الملعون. وبعد الاستماع إلى تصريحات بعض الإسرائيليين التي مفادها أن الهدف من المؤامرة هو جعل إسبانيا بلدا يهوديا، استشاط الأساقفة غضبا وحكموا على كل اليهود، بفقدان ممتلكاتهم وحريتهم".[45]

[44] Dozy, Histoire des musulmans d’Espagne, t. 2, p.26.

[45] Dozy, Histoire des musulmans d’Espagne, t. 2, pp. 27 et 28.

ولعل هذا ما يفسر، كيف أن اليهود سيقومون بعد 17 سنة من وقوع هذه الأحداث، بخيانة مواطنيهم المسيحيين واستقبال جيوش طارق وموسى بحفاوة كمحررين لهم. فلماذا كان الاستقبال حماسيا وبحفاوة؟ هناك سببان لذلك، في اعتقادي:

- أولهما وهو مؤكد، مقت المسيحي الجلاد.

- ثانيهما وهو مفترض، لكنه مقبول، يتعلق بالعامل الديموغرافي. فقد كان اليهود بإسبانيا قليلي العدد قبل الفتح العربي وتضاعف عددهم بعد ذلك.

ولا يمكن تفسير هذا العدد المضاعف والمفاجئ إلا بفعل هجرة اليهود الأمازيغ أو المتمزغين من موريطانيا الطنجاوية، رفقة الطلائع الأولى للجيوش الإسلامية.

ومن المؤكد أن الأعداد الكبيرة من اليهود المغاربة ذوي العرق الأمازيغي، والتي كانت تنوي الاستيلاء على إسبانيا سنة 694، لم تكن قد أبيدت بعد مرور 17 سنة، أي عند بدأ الف تح العربي للأندلس.

لذلك، فإن الاستقبال الحماسي لليهود الإسبان، يرجع إلى وجود العديد من اليهود الأفارقة في صفوف الجيوش الإسلامية؛ وبالتالي فإن اليهودية كانت مزدهرة في المغرب أكثر من المسيحية.

طنجة بعد الفتح العربي

لقد ساهمت حملة عقبة بن نافع العابرة والعنيفة، في تدمير كل شيء ولم تخلق شيئا. وستليها بعد 25 سنة حملة أخرى، على المغرب وإسبانيا، حيث سيتغلغل الإسلام في هذين البلدين الجميلين.

- في سنتي 706 و 707 هاجم موسى بن نصير طنجة واستولى عليها وأباد المسيحيين المتواجدين بها. [46] بعد ذلك، اتجه نحو جنوب المغرب لإخضاع الأهالي وعاد سنة فيما

[46] Godard, Histoire du Maroc, p. 277.

بعد، ومعه أسرى من مصمودة، أجبرهم على الإقامة بطنجة. وقبل عودته إلى إفريقية، ترك هذا القائد العربي حامية من 19 ألف أمازيغي اعتنقوا الإسلام حديثا.

- في سنوات 710، 711 و 712، أبحرت الجيوش المكلفة بفتح الندلس، من طنجة وسبتة؛ وهي جيوش مكونة في غالبيتها من الأمازيغ الذين أسلموا حديثا والذين كانوا يتضمنون في صفوفهم، مئات الأمازيغ اليهود أو الذين تهودوا؛ وهم ا لذين ساهموا كما قلنا، في زيادة أعداد اليهود الإسبان.

- في سنتي 739 و 740، أصبح ضغط العرب غير محتمل، بحيث قام كل من طاغية طنجة وطاغية سوس، بإخضاع الأهالي الذين أسلموا حديثا، لجبرتوهما. فبالإضافة إلى الضرائب العادية التي يتعين أداؤها، فرض عليهم أداء خمس المحصول الزراعي، مثل المهزومين الذين لم يعتنقوا الإسلام. وبفعل عمليات الاضطهاد والتفقير هاته، اعتنق الأمازيغ المذهب الخارجي الذي تلاءم مع أفكارهم الثورية والديموقراطية.

وتنامى الحقد ضد العرب المضطهدين لهم وانتشر في كل القرى، إلى أن انفجر بعنف لا مثيل له. عندها ارتكب المنتصرون خطأ إخلاء حامياتهم ببلاد البربر وإرسال جنودهم إلى صقلية. عندما قامت انتفاضة الأمازيغ المغاربة الذين طردوا المحتلين خارج المغرب ونزعوا منهم الأراضي التي استوجب احتلالها تضحيات جسيمة؛ وعين المتمردون قائدا عليهم وهو ميسرة المطغري(47)؛ وهو غير متعصب وينتمي مثلهم، إلى الفئات الدنيا بالمجتمع، حيث كان سقاء بالقيروان.

وبعد توليه القيادة، هاجم طنجة واستولى عليها وارتكب بها المجازر، حيث قتل واليها العربي، السفاح عمر بن عبد الله، الذي كان يستحق ذلك المصير؛ وكل الرجال الأصحاء والمعطوبين ذوي الأصل العربي، وأيضا الأطفال والنساء العربيات، مطبقا في ذلك تعاليم المذهب الخارجي في صرامته اللا إنسانية. (48)

---

(47) يدعوه مؤلف الاستقصا، في الجزء الأول، ص. 49، المضغري ويضيف بأن مضغرة فرع من قبيلة بني فاتن التي يعتبر جدها الأول هو مدغيس بن الأبتر. ولم يتفق الكتاب العرب حول اسم القبيلة، هل هو مطغرة أو مضغرة. انظر:

Fournel, Les Berbers, tome 1er, p. 287, ° 1.

(48) Dozy, Histoire des musulmans d’Espagne, t. 1er, p. 241, et Fournel, les Berbers, t. 1er, p.287.

وقبل ذهابه إلى سوس، لإعلان استقلال الأمازيغ وفرض المذهب الخارجي على الوثنيين القدامى، أعلن هذا السقاء الطموح نفسه خليفة.[49]

بعد ذلك، رجع من سوس منتصرا على الأعداء الذين تم دحرهم عن الأرض المغربية. وعندما وصل إلى طنجة، اصطدم هذا القائد الوطني بجيش عربي قوي، قدم من الشرق لإخماد تمرد الأمازيغ. ولم يحالف الحظ ميسرة هذه المرة، فبعد معركة دامية، اضطر إلى التراجع وراء أسوار طنجة. وكان ذلك سببا في هلاكه، حيث قتله مناصروه وعينوا بدله الزناتي خالد بن حميد قائدا عليهم. وسيتمكن هذا الأخير من الانتصار على العرب في المعركة الشهيرة المعروفة باسم غزوة الأشراف.

وعلى مدى 50 سنة، ما بين 739 و 789، ظل المغرب مستقلا وتشكلت في إطاره إمارات أمازيغية صغيرة.

وفجأة سيظهر أحد حفدة الرسول وسيساهم في عودة السيطرة العربية. فقد كان الأصل الشريف لإدريس الأول سببا في حدوث المعجزة.

فيا لقوة التعصب ! حيث أخضع هذا اللاجئ الورع الأمازيغ مستعينا بالأمازيغ أنفسهم ! وفي ظل هذه الحرب الأخوية، تمت إبادة القبائل الوثنية واليهودية والمسيحية من طرف أخواتها اللواتي اعتنقت الإسلام. وكان إدريس داعية دمويا ودبلوماسيا بارعا، لذلك لم يمس المذهب الخارجي وتفادى مواجهة هذه النزعة الانشقاقية الرهيبةالتي سيحاول ابنه القضاء عليها، لكن بدون جدوى. وعند وصوله إلى المغرب، توقف إدريس أولا بطنجة غير أن هذه المدينة لم ترق له ولا لخادمه الأمين راشد، فتوجه جنوبا إلى وليلي. وسيكون نفور هذا الشريف من طنجة، من أحد أسباب تأسيس فاس لاحقا. فهذه الأخيرة، ستكون مركز تبجيل الأدارسة، بعيدا عن الكفار. ويفسر ابتعادها عن الساحل، مدى كره السلاطين المغاربة لطنجة، هذه المدينة ذات الموقع الرائع والتي ستصبح يوما ما حاضرة المغرب الأقصى.

---

[49] يؤكد كل من الاستقصا، الجزء الأول، ص. 49 وفورنيل في المرجع السابق هذه الواقعة، في حين يشير دوزي في ا لمرجع السابق إلى أن الأمازيغ "بايعوا ميسرة كخليفة، بعد عودته من سوس".

- سنة 828، وبعد التجزيء اللا مسؤول للمغرب من طرف أبناء إدريس الثاني، كانت طنجة ونواحيها من نصيب القاسم، غير أنه تمرد على ملكه، ففقد حصته وحوصر بالمدينة من طرف أخيه عمر، واضطر إلى الهرب منها، لتسقط بأيدي المنتصرين.

- في سنتي 950 و 951، استولى الخليفة الأندلسي الناصر على طنجة وطرد منها الأدارسة. [Fournel, tome 2, p. 294, note 2] .

- سنة 971، غزا بولوغان المدينة باسم الفاطميين وولى عليها الإدريسي ابن كَنون.

- سنة 972، انتصر هذا الأخير على الجيش الأموي في معركة طنجة، لكنه تعرض لخيانة بعض قادة الجيش الأمازيغ بقصر مصمودة [قبيلة الفحاص]. فلجأ إلى حجرة النسور[50]، حيث استسلم لخصومه. وتمكن الأمويون من استرجاع المدينة [انظر لاحقا، النبذة التاريخية عن سبتة، سنة 971].

- سنة 998، وقعت معركة واد مينة قرب طنجة. وقد انتصر فيها القائد الأموي الوضاح على القائد الزناتي الزيري بن عطية.

- سنة 1016، اجتاز الإدريسي الحمودي علي بن حمود، والي طنجة التابع للأمويين، مضيق جبل طارق وقتل الخليفة الأموي المستعين وساد مكانه على قرطبة.

- سنة 1023، سقطت طنجة بين يدي الإدريسي الحمودي إدريس[51] الذي لم يكن يعترف بسلطة ابن عمه القاسم، خليفة قرطبة.

- سنة 1077، ساد العبد المحرر سغوط ا لبرغواطي، التابع للأسرة الإدريسية، كملك مستقل على طنجة وسبتة.

- سنة 1083، وقبل ذهابه إلى الأندلس، حيث استدعاه حاكم إشبيلية المسلم، أمر الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين قائده العسكري صلاح بن عمران، بالاستيلاء على طنجة وسبتة. وفي الوقت الذي كان فيه أسطول المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، يحاصر المدينتين، هاجم

---

[50] يؤكد صاحب "القرطاس" في الصفحة 125 من الكتاب ومؤلف الاستقصا الذي نقل ما ورد في هذا الأخير [الجزء الأول، ص. 87]، بأن قلعة الأدارسة هاته، كانت موجودة قرب سبتة. لكن كلمة "قرب" قد تعني بعيدا، عندما ينطق بها العربي والعكس صحيح !

وقد سبق أن حددت من قبل، موقع حجرة النسور بالضبط.

[51] تكتب إدريس بالفرنسية Idris وليس Edris كما يكتبها البعض دون مبرر.

صلاح طنجة برا. وبعد انتصاره بمعركة واد مينة التي قتل فيها سغوط، دخل طنجة، لتصبح خاضعة رسميا للمرابطين.

- في سنتي 1146 و 1147، استولى الموحدون على طنجة وأخرجوا المرابطين منها [القرطاس، الترجمة الفرنسية، ص. 269؛ ابن خلدون، الجزء الثاني، ص. 156 من الترجمة الفرنسية].

- سنة 1154، عين الأمير الموحدي عبد المومن بن علي ابنه أبا سعيد واليا على سبتة وطنجة [القرطاس، ص. 276].

- في شهر دجنبر 1160، وصل عبد المومن إلى طنجة وظل بها بضعة أيام، قبل أن يلتحق بالأندلس في بداية يناير 1161،[52] لتنظيم الجيش الموحدي الذي سيقاتل في غيابه، ملك البرتغال ألفونس وسينتصر عليه.

- سنة 1162 "تاقت نفس عبد المومن للجهاد"، بعد أن أصبح سيدا مطلقا على المغرب الأقصى وعلى جزء من الأندلس، حيث كان يتهيأ لمواجهة النصارى برا وبحرا. وقام لهذا الغرض بتحصين كل السواحل وجهز 400 سفينة، من ضمنها 120 بميناء المعمورة. [ويسمى حاليا ميناء مهدية] و 100 بطنجة وسبتة ورادس وباقي موانئ الريف و 100 بإفريقية ووهران وحنصين [بدائرة وهران] و 80 بالأندلس.

وكان رعاياه يصنعون يوميا 10 قناطير من النبال. وأصبح الحديث عن الجهاد على كل الألسن، حيث هيئت الأسلحة والمؤونة والجياد. وعند بداية ربيع 1163 كانت الجيوش التي

[52] هذه التواريخ واردة بكتاب الاستقصا الذي يعتبر أدق من كتب المؤرخين العرب الآخرين الذين أتوفر على نصوصهم. وإليكم النص:

"فلما نهض عبد المومن من تلمسان في رجعته ضده، عدل إلى طنجة فدخلها في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها، فعبر منها إلى الأندلس".

ويوافق حلول سنة 556 هجرية، تاريخ 31 دجنبر 1160 ميلادية. وحسب هذا المؤرخ، فإن عبد المومن كان موجودا بطنجة في هذا التاريخ. ويمكنني أن أفترض، في ضوء ذلك، بأن القائد الموحدي أبحر باتجاه الأندلس في الأيام الأولى من يناير 1161. انظر، الاستقصا، الجزء الأول، ص. 157، السطر 12وما يليه؛ وأيضا القرطاس، ص. 283 من الترجمة الفرنسية. أما ابن خلدون فلا يذكر أي تاريخ محدد في "تاريخ البربر" الجزء الثاني، ص. 194 من الترجمة الفرنسية. ويشير دوزي Dozy من جهته في كتابه "تاريخ الموحدين"، ص. 171، إلى سنة 548هـ (1153م) وهي السنة التي كان فيها عبد المومن متواجد بمراكش وتينملال وسلا و ليس بشمال المغرب.

قدر عددها بحوالي 500 ألف رجل[53] تنتظر قرب الرباط أمر الإبحار والتوجه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. لكن وكما يقول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه *** ترقب زوالا إذا قيل تم[54]

وهذا البيت الشعري الذي يعتبر مجازيا بالنسبة لمستعرب وغامضا بالنسبة لغير الملم باللغة العربية، يعني ببساطة أن عبد المومن قضى نحبه عندما كان يتهيأ لإثارة الرعب بالجانب الآخر من المضيق [في شهر ماي 1163م].

- سنة 1208، اقتنع القديس فرانسوا داسيز ST François d’Assise بأنه مدعو لتنصير أهالي المغرب المسلمين وكان ينوح قائلا:

O Tingis ! Tingis ! O dementa Tingis ! O Marro Chium! MarroChium, illusa civitas ولحسن حظه توقف بإسبانيا بسبب المرض. ومع ذلك، لم يتخل عن حلمه العزيز عليه، فأرسل مبشرين إلى المغرب. وقام هؤلاء الرهبان بالتجديف ضد الرسول محمد (ص)، فسامحهم الأهالي في البداية، لكنهم أعادوا الكرة مرة أخرى، فتمت إبادتهم عن آخرهم.

- سنة 1243، تمردت طنجة وسبتة على الموحدين وتحالفتا مع الحفصيين.

- سنة 1249، ظلت طنجة تابعة لسبتة. [55] فبعد أن طرد أهالي هذه الأخيرة الحاكم الحفصي وبايعوا الأمير الموحدي المرتضى، تبعهم أهالي طنجة وخضعوا بدورهم للموحدين. لكن خلال نفس السنة، تمردوا عليهم من جديد وتحالفوا مع الخليفة الحفصي واعترفوا بسلطة العباسيين وأعلنوا استقلالهم، ثم عينوا على رأسهم، حاكمهم السابق يوسف الحمداني بن محمد بن عبد الله بن أحمد، الملقب بابن الأمين الذي ساد كأمير مستقل.

- في سنتي 1266 و 1267، وصل المرينيون إلى ضواحي طنجة ونهبوا باديتها. وقد اضطر ابن الأمين إلى دفع الجزية لهم ليرتاح منهم. وبالفعل، أراحه المرينيون نهائيا بقتله.

---

[53] القرطاس، ص. 286. ولربما كانت هناك مبالغة في هذه الأرقام. انظر أيضا:

De Slane, Histoire des berbères, t. 2, p. 196, note n°1.

[54] كتاب الاستقصا، الجزء الأول، ص. 158.

[55] Ibn Khaldoun, Histoires des Berbères, tome 4, p. 65.

وبقي ابنه خمسة شهور على عرش طنجة، إلى أن سقطت المدينة بيد ملك سبتة أبي القاسم الأزفي.

- في سنتي 1267 و 1268، حاصر الأمير المريني أبو مالك، طنجة مدة ستة أيام ولم يتمكن من الاستيلاء عليها.

- وفي شهري يوليوز وغشت 1273، قام السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بمحاصرة طنجة واستولى عليها بعد أن استسلم عدد كبير من جنود حاميتها [ابن خلدون، مذكور، الجزء الرابع، الصفحة 66 من الترجمة الفرنسية].

- في 21 شتنبر 1437[56] تمزقت أوصال الإمبراطورية المرينية، فقام البرتغاليون الذين استولوا على سبتة بمحاصرة طنجة برا وبحرا. لكن الطنجاويين قاوموهم ببسالة وتلقوا مساعدة إخوانهم المغاربة القادمين من الجنوب والذين سيحاصرون النصارى بدورهم، مما اضطر البرتغاليين إلى الاستسلام والتخلي عن سبتة. وظل الأمير دون فيرديناند أسيرا لدى المغاربة، كضمانة لاستسلام المدينة. لكن هذه الاتفاقية المهينة لم توقع من طرف الكورتيس الذي اعتبرها لاغية وقد دعمته روما في ذلك.

- سنة 1464، سيفشل البرتغاليون ثانية في محاصرة طنجة.

- في 28غشت 1471، عندما علم أهالي طنجة بسقوط أصيلة وموت 2000 مسلم وأسر 5000 منهم، ذعروا وغادروا مدينتهم كي لا يلقوا نفس المصير، فدخلها دون جوان ابن دوق دو براغنس Duc de Bragance دون إراقة للدماء. وستظل طنجة تحت سيطرة البرتغال

---

[56] نجد هذا التاريخ في المؤلف البرتغالي:

Cronica e vida del rey Dom Duarte, p. 31, in-4, Lisboa, 1634.

ويشير كتاب برتغالي آخر وعنوانه:

Historia de Tangere escrita por P.F. de Menezès, Lisboa, 1737, in-4

إلى أن الجيش البرتغالي غادر سبتة بتاريخ 29 شتنبر 1437. ومن جهته، فإن دو شينيي يقر في مؤلفه"أبحاث تاريخية حول المغاربة" بأن حصار طنجة بدأ في 15 شتنبر 1437. أما غودار، فذكر في مؤلفه "تاريخ المغرب"، تاريخ 23 شتنبر؛ وحديثا استشهد مرسيي في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" بغودار، لكنه حدد هذا التاريخ في 28 شتنبر 1437.

مدة 191 سنة[57] حتى سنة 1662، حيث سلمت للإنجليز [بخصوص الأحداث التي وقعت بطنجة خلال سيطرة البرتغال، انظر المرجع المذكور Historica de Tangere].

- سنة 1502، قاد سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي حملة على مدينة طنجة التي غدت عاصمة الممتلكات البرتغالية بالمغرب. وواجهه حاكم المدينة رودريغي دي كاسترو Rodrigue de Castro الذي انهزم في المعركة. لكن السلطان المغربي لم يحاصر المدينة، لأنه كان ينوي فقط مباغتة البرتغاليين "متكلا على الله".

- سنة 1557، تم تعويض أسقف طنجة غوندي سلفي Gundi Salvi بأخيه الصغير وهو فرانسوا دي كورسما F. de Coresma وفي السنة الموالية، توحدت كنائس سبتة وطنجة. [غودار، ص . 494].

- سنة 1581، بعد أن اعتلى ملك إسبانيا فيليب الثاني عرش البرتغال، عين على طنجة حاكما من اختياره وهو فرنسيسكو دي ألميدا F. de Almeida [Historica de Tangere, p.88].

- ما بين 1581 و 1643 ظلت طنجة خاضعة لإسبانيا. وفي سنة 1640، انفصلت المملكتان الإيبيريتان بعنف، فبقيت طنجة في البداية، تحت سيطرة الإسبان، لكن بعد ثلاث سنوات [23 غشت 1643] "تمردت مثل مدينة لشبونة" وأصبحت برتغالية، إثر مبايعة حاكمها الكونت دي سارثيداس C. de Sarzedas لملك البرتغال جوان، بعد أن حاصره الوطنيون البرتغاليون في غرفة نومه، علما بأنه كان قد نصب حاكما على المدينة من طرف الملك فيليب الرابع.[58]

---

[57] في الفترة التي كانت فيها إسبانيا والبرتغال متحدين تحت راية واحدة، كان احتلال إسبانيا لطنجة إسميا أكثر منه واقعيا. ويؤكد كتاب الاستقصا الذي لم تكن تواريخه المتعلقة بهذه الفترة مضبوطة، بأن البرتغاليين احتفظوا بطنجة مدة 250 سنة [الجزء الثاني، ص. 150] وفي الحقيقة، فإن المؤرخين المسلمين لم يقوموا بمهمتهم كما يجب، عندما تعلق الأمر بحملات الإسبان والبرتغاليين واستقرارهم بالمغرب. ولن يجد المرء الشيء الكثير في أخبارهم المختصرة التي يجب الاحتياط منها مع ذلك. وتبقى مذكرات وروايات المسيحيين بهذا الخصوص، أفيد وأكثر موضوعية من روايات المغاربة.

[58] Historia de Tangere, p. 162 et revue Africaine n° 94, 1872, p. 313 et suiv.

Voir aussi, les Villes maritimes du Maroc, par Elie de Primau daie.

ملحوظة المترجم: انظر ترجمتنا لهذا النص الأخير بمجلة "حوليات الريف" العدد الثاني، السنة الثانية، 1999-، الصفحات من 11 إلى 38.

- سنة 1661، لم تعد طنجة خاضعة للبرتغال، إذ احتلها الإنجليز. وكانت المدينة هي جزء من المهر الذي قدمته الأميرة كاثرين دوبراغنس إلى زوجها شارل الثاني ملك بريطانيا العظمى.

وبعد إبادة أغلب جنود الحامية البرتغالية من طرف المغاربة، استولى الأميرال الإنجليزي الكونت دوساندويش C. de Sandwich دون عناء، على المدينة التي استسلمت كما يقول المؤرخ البرتغالي: "aos inglezes hereges" ضمن مؤلفه:

Historia de Tangere, P. 274 et suiv[59]

- في 13 ماي 1664، سيصرح مؤرخ إنجليزي شهير بما يلي: "لن نحصل أبدا من أهالي المغرب، لا بواسطة السلاح ولا عن طريق الاتفاقيات، على الأراضي المحيطة بطنجة واللازمة لأمن حاميتنا العسكرية"[60]. وتنطبق هذه العبارة على كل الغزوات التي قامت بها القوى المسيحية لبلاد البرابر، قبل سنة 1830.

وستكون فرنسا هي أول من سيدشن نظام الاحتلال الشامل والسيطرة الكاملة على أرض البرابر. لكن ثمن ذلك سيكون باهظا !

وفي اليوم الأول من تواجدها بطنجة، تعرضت الحامية البريطانية للحصار المغربي المعتاد؛ وقد قتل القائد البريطاني في إحدى المواجهات، بتاريخ 13 ماي 1664. وعندما اقتنع الحاكم الجديد اللورد بلاسيس Lord Bellassis، باستحالة الاستيلاء على شبر من الأرض حول المدينة، أمر بالقيام بأشغال بالميناء لحمايته. وبلغت كلفة هذه الأشغال 50 مليونا. ويكفي أن تعلم بأن تكلفة بناء سور بحري môle لإغلاق الميناء من جهة الخليج، بلغت لوحدها 30 مليونا. وقد فشلت العديد من شركات البناء في هذه المهمة إلا أنها تلقت الأموال الكثيرة مع ذلك.[61]

---

[59] يتفق أغلب المؤرخين على أن بريطانيا العظمى استولت على طنجة سنة 1662. غير أن مرسيي Mercier سيذكر تاريخ غشت 1661 [انظر، تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء الثالث، ص. 256]. ومن جهته، فإن مؤلف "تاريخ طنجة" تحدث عن سنة 1661، بعد شهر يونيو، لكن دون تحديد لليوم ولا للشهر بدقة.

[60] Gilbert Burnet, History of my own times, t. 1er , p. 390.

[61] Th. Lyotard, Histoire navale d’Angleterre, t. 2, p. 667, de la Primaudaie, Revue Africaine, n° 94, p. 316. [Les Villes maritimes du Maroc].

واستمرت مناوشات المغاربة للإنجليز بطنجة"وكانت الحيلة المدبرة لمهاجمة الإنجليز، هي دفع قطيع من المواشي يضم ما بين 200 و 300 رأس باتجاه أسوار المدينة والتربص في مكان محدد بين المدينة والقصر أو بالنواحي؛ وغالبا ما كان الإنجليز يسقطون في الكمين".[62]

ومرت القرون ولم تتغير طريقة المغاربة. ففي سنة 1893 كان أمازيغ قلعية، يتربصون طوال النهار أمام تحصينات مليلية لإطلاق النار على الحراس الإسبانيين.

وكان الجنود القشتاليون، يضعون قبعة فوق عصا ويرفعونها عاليا، من أجل التسلية، فيتلقون وابلا من الرصاص الريفي الذي "يحيي" القبعة، حيث يعتقد الأهالي الريفيون بأن تحت القبعة توجد رأس عدوة.

- سنة 1671، بعث السلطان الراشد كتيبة من الفرسان لمحاربة الكفار بطنجة [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 20].

وفي أواخر محرم سنة 1090هـ [15 مارس 1679م] هاجم المسلمون النصارى المتواجدين بطنجة، فقتلوا 350 من الكفار واستولوا على قلعة من أ ربعة أبراج. وقد استشهد 50 مجاهدا. [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 28].

غير أن بيربروغر Berbrugger، روى الحدث بشكل مغاير[63]. ومما جاء في روايته: "حوالي سنة 1678 قام العديد من قياد نواحي طنجة بمهاجمتها. وقد استولى قايد القصر عمار حدو[64] على مركزين متقدمين، حيث باغث 20 جنديا واستولى على مدفع برونزي من صنع برتغالي. وعرضت هذه الغنيمة بمكناس أمام أعين الإمبراطور مولاي إسماعيل الذي قدم في موكب ضخم وسجد شكرا لله على أول نصر حققه على النصارى".

- في أبريل 1680، أصبحت طنجة عرضة للمخاطر بشكل أكبر، ولربما كان ذلك هو النصر الجزئي الذي حققه المسلمون والذي ذكره الاستقصا أعلاه. وإليكم الوقائع: استولى القايد عمار بن حدو على قلعة صغيرة بضواحي طنجة وعلى حاميتها التي

---

(62) Braith Waite, Histoire des révolutions de l'empire du Maroc, depuis la mort du dernier empereur moulay Ismael, Amsterdam, 1734, in- 12, p.408 et 409.

(63) Occupation anglaise de Tanger (Revue Africaine), n° 29, 1861, p. 343.

(64) وهو عمار حدو البطيوي؛ انظر الترجمان، ص. 19.

كانت تضم 40 رجلا اضطروا إلى الاستسلام كي لا تزهق أرواحهم. ولما نفذت مؤونة القائد العسكري شارل Charles، تخلى عن مواقعه وتوجه إلى القصر عبر الخنادق. وتم أسر أو قتل 30 من رجاله، من بين السبعين المتواجدين معه؛ كما تم تفجير القلعة التي وجد بها المسلمون 18 مدفع مثبت على الأرض. [65]

- وإليكم رواية أحمد بن خالد المتعلقة بخروج الإنجليز من طنجة: عين السلطان مولاي إسماعيل القايد أبا الحسن علي بن عبد الله الريفي قائدا عسكريا على المجاهدين وبعثه لمحاصرة طنجة. وبالفعل قام المجاهدون بحصار النصارى مدة طويلة، إلى أن اضطر هؤلاء إلى الفرار بسفنهم عبر البحر، بعد أن تركوا المدينة خرابا وراءهم. وحدث ذلك في شهر ربيع الأول[66] سنة 1095 هـ [17 فبراير 1684].

أما رواية مؤلف البستان فجاءت على الشكل التالي:

بعد أن انفلت الوضع من أيادي نصارى طنجة بفعل الحصار الدائم حولهم منذ مدة؛ خربوا المدينة وهدموا الأسوار والقلاع وركبوا سفنهم، متخلين عن مواقعهم. ودخلها المسلمون بعد ذلك، حيث شرع قائد المجاهدين علي بن عبد الله الريفي، في بناء الأسوار والمساجد على أنقاض الخرائب في الأول من جمادى الأولى من نفس السنة [16 أبريل 1684]. ومازال حفدة هذا القايد إلى اليوم يتبوؤون بطنجة مراكز إدارية هامة . [الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 31].

وما قاله المؤرخ المغربي هو عين الحق. فوضعية الإنجليز بطنجة غدت غير محتملة. وفي سنة 1680، رفض البرلمان إرسال المساعدة المطلوبة من شارل الثاني.

ولاحظ المتعصبون الإنجليكان، بأنه رغم الاتفاقيات المبرمة، فإن الكنيسة الكاثوليكية بطنجة، ظلت مليئة بالرهبان والقساوسة البرتغاليين. وأضافوا قائلين:"سيدي، اطرد أتباع البابا papistes، إذا أردت أن ندفع الأموال لطنجة وحتى لا نساهم في تقوية صفوف خصومنا".

وقد فقدت طنجة في خضم هذا النقاش خصوصيتها الوطنية، لتصبح سلاحا دينيا وسياسيا.

---

[65] Occupation anglaise de Tanger, p. 348, Revue Africaine, n° 29.

[66] يشير مؤلف "نزهة الهادي" في الصفحة 306 من النص العربي و 506 من الترجمة الفرنسية، إلى شهر ربيع الثاني 1095هـ [ما بين 19 مارس و 16 أبريل 1684]. وكان مؤلف الاستقصا قد ذكر تاريخ ربيع الأول، مشيرا إلى ذلك بهذه العبارة: "قاله في النزهة".

وبعد أقل من أربع سنوات على هذا النقاش، رسا أسطول حربي انجليزي بقيادة اللورد دارموث Darmouth بميناء طنجة. وكان غرضه القيام بأعمال تخريبية.

وبالفعل، فقد دمرت أسوار الميناء والتحصينات ونهبت المدينة عن آخرها. ولتخليد عملهم التخريبي الشنيع، عمد الإنجليز إلى دفن قطع نقدية ذهبية وفضية عليها صور العاهل البريطاني، تحت خرائب المدينة. وعندما ركب كل الجنود الأروبيين السفن ولم يعد أي إنجليزي فوق أرض طنجة، أبحر أسطول اللورد عائدا من حيث أتى، وفي نفس الوقت دخل المجاهدون المسلمون إلى شوارع المدينة وهم يصرخون معبرين عن انتصارهم على الإنجليز. هكذا، استرجع قائد الجيش المغربي هذه المدينة البحرية التي ظلت تحت سيطرة النصارىمدة تناهز 213 سنة.

- في سنتي 1766 و 1767، قاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل، حملة على طنجة، للاستيلاء على ممتلكات عبد الصادق الريفي الذي نفيت عائلته إلى مهدية.

وفي نفس الفترة، أقام حامية، قوامها 1500 من العبيد[67] لمواجهة الريفيين المتواجدين بالمدينة وبقبيلة الفحاص المناوئة لسلطته. وعمل على نفي العديد من الأمازيغ إلى مهدية أيضا.

- سنة 1776، تم توزيع أعضاء مليشيا العبيد المشاغبة، على موانئ طنجة والعرائش والرباط. وقد تمرد عبيد طنجة على حاكم المدينة، فاعتقل أبرز المتمردين وأرسلوا إلى السلطان الذي أنزل بهم عقابا غريبا وهو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أوالعكس، لكل واحد.

- سنة 1788، قاد المؤرخ أبو القاسم بن أحمد ألف رجل من آيت عطا إلى طنجة. وكان من ضمنهم زنوج استقدمهم من تافيلالت كجنود. وقد عبر عن ذلك قائلا: "بطنجة، أركبتهم القوارب كي يتمرنوا على الإبحار ويتعودوا على البحر. وعند بداية فصل الشتاء أعدتهم إلى مكناس قرب السلطان، الذي عينني واليا على تافيلالت."[68]

---

[67] وهي مليشيا الزنوج، كونها المولى إسماعيل وكان قوامها 150 ألف رجل، انظر الترجمان، ص. 29 وما يليها من الترجمة الفرنسية .

[68] الترجمان ، ص. 157 من ترجمة هوداس.

فيا لها من محاولة غريبة لخلق مدرسة بحرية مغربية ! فمن الواضح أنها لم تكون سوى مجموعة من القراصنة !

- في 24 غشت 1791، أعلنت إسبانيا الحرب على السلطان الدموي اليزيد وقام أسطول حربي بقيادة فرنسيسكو خابيير موراليس F. Javier Morales بقصف طنجة بالمدفعية.

- في 25 نوفمبر 1795، قررت الجمهورية الفرنسية نقل قنصلها الموجود بسلا إلى طنجة، لمراقبة تحركات إسبانيا وبريطانيا العظمى.

- سنة 1802، تم إبعاد قنصل الولايات المتحدة الأمريكية من طنجة، لأن بلاده حاصرت مدينة طرابلس التي كان حاكمها الباشا، صديقا لسلطان المغرب. ولم يستمر النزاع طويلا، وعاد القنصل الأمريكي إلى منصبه.

- سنة 1816، هدد أسطول هولندي ميناء طنجة. فاضطر السلطان إلى إعادة ثلاث سفن كان القراصنة المغاربة قد استولوا عليها، ويتعلق الأمر بسفينتين هولنديتين وثالثة من هانوفر Hanovre.

- في ماي 1818، عاد الحجاج المغاربة من مكة، ومن ضمنهم ابنين للسلطان المولى سليمان وهما علي وعمرو، وكانوا جميعهم على متن سفينة إنجليزية. وعندما نزلوا بميناء طنجة، لم يعلموا بأنهم حملوا معهم جراثيم الطاعون الرهيب. [كتاب الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 151]. وهو الداء الذي سيفتك بالمغاربة على مدى سنتين.[69]

- في شتنبر 1828، تقدم درويش متسول إلى قنصلية فرنسا بطنجة. وكان الأمر يتعلق بالرحالة روني كايي René Caillé الذي اجتاز الصحراء والمغرب، قادما من سيراليون عبر تومبوكتو.

---

[69] وهي سفينة "التاج". وقد فقدت طنجة خلال بضع شهور خمس سكانها [غودار، تاريخ المغرب، ص. 585].

ودعا غرابيرب دي همسو Graberb di Hemso إلى ضرورة استعمال زيت الزيتون ضد الطاعون L'uso interno dell olio d'olivia contra la pesta وذلك في الصفحة 304 من مؤلفه:

- Specchio geografico e statistico dell imperio di Marocco, Geneva, 1834, petit in – 8 de 364 pages.

كما قام قنصل البرتغال بالعرائش، السيد كالوسو Caloço بابتكار وتشجيع استعمال زيت الزيتون كعلاج ضد الطاعون.

- سنة 1842، قرر السلطان بألا يتواصل مع القناصلة في المستقبل، إلا عن طريق باشا طنجة. وهذه طريقة "رائعة" للمماطلة في العمل وإرجاء الشؤون التي تهم القوى الأروبية إلى أجل غير مسمى.
- في 11 يوليوز 1842، لم يستسغ علماء المغرب انتصار الجيوش الفرنسية بالجزائر. وقد قام مجموعة من المتعصبين وعلى رأسهم الشريف عبد السلام، بإطلاق نيران بنادقهم على سفينتنا "الأمريكية L'Americaine"، التي كانت راسية بميناء طنجة. وسيعاقب المعتدون في 10 غشت، بعد شكاية مقدمة من فرنسا، حيث قام باشا طنجة بجلد حفيد الرسول وعشرة من شركائه.
- في 6 غشت 1844، تم قصف طنجة من طرف الأسطول الفرنسي. وكانت المقاومة الباسلة التي قادها الأمير عبد القادر بالجزائر ضد فرنسا، قد ألهبت حماس المسلمين بالمغرب. هكذا، تعرض جنودنا وقبائلنا وبرلمانيونا لهجومات جيراننا الخطيرين بالمغرب، على الحدود الوهرانية. [مهاجمة مغنية في 30 ماي 1844، وإطلاق نيران البنادق على موكب الجنيرال بيدو Bedeau في 15 يونيو 1844].
وبدل أن يشجب السلطان المولى عبد الرحمن أعمال رعاياه، فإنه طلب من فرنسا استدعاء بوجو Bugeaud. ولم يعد هناك شك في تواطؤ العاهل الشريف مع الأمير عبد القادر، خصوصا وأن بريطانيا العظمى كانت ترسل إليه سرا من جبل طارق الأسلحة والمؤونة الحربية. وقد طلبت منه فرنسا تعويضات على الخسائر الناجمة عن عدوان 30 ماي لكن السلطان لم يستجب لهذا المطلب وظل يناور ويجادل ويماطل فقط. عندها تهيأ أسطول حربي تحت قيادة الأميرال دو جوانفيل de Joinville وكلف بالتوجه إلى الشواطئ المغربية لدعم المفاوضات الجارية هناك والتدخل عند الحاجة. وانطلق الأسطول من وهران في 7 يوليوز 1844، [70] ليصل إلى جبل طارق في 8 يوليوز وأمام طنجة في التاسع منه.
وكانت هذه القوة البحرية تتضمن ما يلي:
3 بوارج وهي: Le Triton, Le Jemmapes, Le Suffren
فرقاطة شراعية وهي : La Belle poule

[70] أو بالأحرى من مرسى الكبير وهو ميناء طبيعي، على بعد 8 كلم غرب وهران.

3 فرقاطات بخارية وهي L’Orénoque, l’Asmodée, Le Labradi

4 مراكب بخارية وهي: Le Véloce, le Cuvier, Le Gassendi, Le Pluton

3 سفن حربية وهي: L’Argus, Le Volage, Le Cassard.

11 سفينة بخارية ذاتت قوة متوسطة و 3 سفن للنقل، أي ما مجموعه 27 سفينة.

ولأن مطالبنا الملحة لم تجد آذانا صاغية من طرف الحكومة المغربية، فقد انتظر دوجوانفيل ابتعاد السيد هاي Hay قنصل إنجلترا، ليقصف مدينة طنجة في 6 غشت 1844، على الساعة الثامنة صباحا. "وتقدمت السفن الثلاث الأولى وهي Le Suffren التي تحمل راية الأميرال le Jemmapes و L’Argusح ثم تلتها بعد ساعة Le triton و La Belle poule وأرسلت Le Rubis، صواريخ أشعلت النيران في بعض المخيمات داخل المدينة وخارجها مع تفادي إصابة الحي الفرنسي. ورغم ارتفاع أمواج البحر والدخان الكثيف المتصاعد، فإن طلقات المدافع كانت تصيب أهدافها، مما ألحق أضرارا جسيمة بالجزء السفلي من القصبة. ومنذ البداية، تم إسكات المدافع الموجودة بالميناء وتفرقت الجموع من ذلك المكان. وعلى مدى ساعة، ردت المدفعية المغربية بقوة، لكن بعض المدافع القليلة هي التي استمرت في إطلاق قذائفها مدة ثلاث ساعات.

كما أن مدفعية الأمير عبد القادر المكونة من عشر قطع والموجودة على بعد ميل من طنجة، جهة الغرب، أصابت السفن الموجودة في المقدمة، إلى أن تدخلت Le Triton لإسكاتها. وبفضل الأسوار والخنادق، لم تتعد حصيلة الموتى من المغاربة 200 والجرحى 400 تقريبا؛ أما خسائر الفرنسيين فكانت ضعيفة". [71]

وقد سلمت المدينة من القصف رغم كل شيء، بحيث لم تتعرض للنيران الكثيفة سوى التحصينات المحيطة بها والتي دكت عن آخرها. وكان الأسطول الإسباني وبعض السفن الحربية الإنجليزية والأمريكية والسويدية والإيطالية، شاهدة على المعركة.

ويؤكد بعض مؤرخي تلك الفترة، بان إسبانيا وبريطانيا العظمى، قد شعرتا بالغيرة من جراء الانتصار الفرنسي.

[71] Godard, Histoire du Maroc, p. 665 et 666.

ونضيف في الأخير، بان طنجة كانت محمية ب 150 مدفعا، كما أن 6 بطاريات من 40 مدفعا، كانت تحرس مدخل الخليج.[72]

وكان بإمكان فرنسا حينها أن تطلب الكثير، لكنها لم تطالب بأي شيء، ولا حتى بتعويض عن خسائر الحرب.

وقد سبقت الاتفاقية الفرنسية – المغربية البئيسة، الموقعة بطنجة في 10 شتنبر 1844، ببضعة شهور، المعاهدة البئيسة لترسيم الحدود والموقعة بللا مغنية في 18 مارس 1845، من طرف ممثلي الحكومتين المغربية والفرنسية؛؛ وهو ترسيم مجحف في حقنا، لأنه أبعدنا عن ملوية، وهو ما يتناقض مع اتفاقية طنجة المذكورة التي ينص فصلها الخامس على ما يلي: "إن ترسيم الحدود بين ممتلكات صاحب الجلالة إمبراطور فرنسا وممتلكات صاحب الجلالة إمبراطور المغرب، يظل ثابتا وفق الوضع المعترف به من طرف الحكومة المغربية إبان الاحتلال التركي للجزائر".

وقد كان جزء من العبارة البئيسة التي كتبها بوجو وأرسلها إلى القايد الگلاوي، سببا في فقدان فرنسا للمنطقة الواقعة بين واد كيس وملوية.

فقد كتب المارشال المتسامح إلى الگلاوي قائلا: "إننا نريد الاحتفاظ بالحدود التي كانت للأتراك ومعهم عبد القادر، ولا نريد أخذ شيء ليس في ملكنا".

هكذا اكتفينا بالحدود التي لم يكن الأمير عبد القادر قد تجاوزها أبدا، خلال إمارته العابرة. وكنا من السذاجة بحيث أبلغنا السلطان عن ذلك ! ومن المؤكد أنه انتشى طربا عندما علم بأن خط كيس و للا مغنية وسبدو، ستكفينا ! [73]

- في 22 فبراير 1855، قام شريف مغربي مدفوعا بحقده على النصارى الذين يدعوهم بالكلاب، بقتل التاجر الفرنسي بول ري Paul Rey بطنجة في واضحة النهار. وقد هدد القائم بشؤون فرنسا، باستدعاء الأسطول الحربي مرة أخرى، إذا لم تتم معاقبة الجاني فورا. وبالفعل، حكم بالإعدام على القاتل النبيل، وإن كان الغموض قد ساد هذا الحكم. وكيفما كان

---

[72] أشار مؤلف كتاب الاستقصا إلى قصف طنجة والصويرة من طرف الفرنسيين، في ثلاثة أسطر جافة.

[73] تحدث أحمد بن خالد الناصري، المعاصر لهذه الحداث، في كتابه الاستقصا، الجزء الأول، ص. 34، عن الحدود الطبيعية والتاريخية للمغرب قائلا: "وحد هذا المغرب الأقصى من جهة المغرب، البحر المحيط ومن جهة المشرق واد ملوية مع جبل تازة".

الحال، فقد كانت تلك المرة الأولى التي تحصل فيها قوة نصرانية على تعويض عن الضرر بشكل سريع، من طرف الحكومة الشريفة.

وإثر ذلك، تلقى ممثلنا رسالة تهنئة من الهيئة الدبلوماسية برمتها، ومما جاء فيها: "لقد علمتنا التجربة أن معاقبة مسلم اقترف جريمة قتل بحق نصراني لم يسبق أن نفذت. ويكتسي نجاحكم أهمية خاصة، لأن الأمر يتعلق بشريف، أي بشخص مقدس لا يمكن المساس به، حسب أعراف هذا البلد مهما اقترف من جرائم".(74)

- في نوفمبر 1858، أرسلت إسبانيا أسطولا حربيا مكونا من 8 سفن بخارية، قبالة طنجة. وكانت تلك هي بداية الحرب التي ستعلنها حكومة مدريد ضد المغرب، بتاريخ 22 أكتوبر 1859 وفي 30 من نفس الشهر، ستقوم بحصار موانئ تطوان وطنجة والعرائش.(75)

النقود المغربية الحالية

إن النظام النقدي بالمغرب يتسم بالغموض، وهذه خاصية أخرى يجب إضافتها إلى هذه الإمبراطورية الغامضة أصلا. فهو أمر معقد بالنسبة للمغاربة أنفسهم ويشبه التعقيدات التي يواجهها المزابيون Mozabites الجزائريون مع ترقيمهم الأمازيغي.(76)

ولا غرابة في كون المهتمين بالشؤون المغربية، لم يعيروا اهتماما للنقود المستعملة عند جيراننا بالشمال الغربي لإفريقيا.

لكن بإمكاننا التعرف على النقود المنقوشة، بفضل العمل الهام للافوا La Voix(77) الذي قام بدراسة القطع النقدية المسكوكة في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن [1859-1873]. غير أن هذا العالم، صاحب نظرية في النقود، لم يقم بفحص القيمة الحالية للعملة المغربية

(74) لم يذكر كتاب الاستقصا هذه الوقائع، فيا له من تأريخ ويا لها من موضوعية !

(75) في صفحات سابقة، تحدثنا عن أسباب ونتائج حملة إسبانيا على المغرب. وقد ساهمت فيها فرنسا بشكل غير مباشر، حيث مدت إسبانيا بأسلحة كثيرة وأرسلت أحد أساطيلها لقصف الحصون المغربية بمصب واد تطوان.

(76) تجدون هذا الترقيم في مؤلفي "بني إزگين Beni Isguen"، وهران، 1895.

(77) Catalogue de monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale [Espagne et Afrique] par Henri La Voix, Paris, in-8, 1841.

ومقارنتها بغيرها من العملات. كما لم يوضح لنا الغموض الرهيب للمصطلحات النقدية بالمغرب.

وكان مقدرا علي القيام بهذا العمل الشاق. وقبل الشروع فيه وعرضه، أطلب من القارئ أن يسامحني إذا ما كانت هناك أخطاء وهي موجودة طبعا، لأنني لم أجد بوهران سوى مخبر مغربي واحد من الشاون، أخضعته لرياضة ذهنية متعبة بشكل كبير.

وهي العملية التي سيخضع لها كل من له الجرأة مثلي، في اختراق المتاهات المعدنية لمملكة الشرفاء.

قيمة النقود المغربية الحالية (1898)

رسم النقود	القيمة المغربية	القيمة الفرنسية
النقود البرونزية		
فلس، جمع فلوس	وحدة نقدية	1/6 سنتيم
فلس متاع زوج	فلسان	1/3 سنتيم
فلس دا ربع	4 فلوس	2/3 سنتيم
النقود الفضية		
قرش، جمع قروش	156 فلس	25 أو 26 سنتيم
بليون، جمع بلايين	نفسه	نفسه
نص بسيطة	2 قروش	50 أو 52 سنتيم
ربع ريال	5 قروش	فرنك و 25 أو 30 سنتيم
نصف ريال	10 قروش	2 فرنك و 50 أو 60 سنتيم
ريال أو دورو	20 قرش	5 فرنكات أو 5 ف و 20 سنتيم
النقود الذهبية		
البندقي دواحد	قطع اجنبية	5 فرنكات
البندقي دزوج	//	10 فرنكات
اللويز	//	20 فرنكا
المونيضة	//	من 25 إلى 100 فرنك

أسماء وقيم نقود صورية		
موزونة، جمع موازن او مزونات	6 فلوس	سنتيم
وجه، جمع وجوه	// //	// //
وجهين	12 فلس	2 سنتيم
درهم، جمع دراهم	24 فلس	4 سنتيم
واق جمع أواق	// //	// //
أوقية جمع أوقيات	// //	// //
مثقال جمع مثاقل	240 فلس أو 40 موزونة	40 سنتيم

هكذا، فإن العملة المغربية العربية تشمل:

- بالنسبة للبرونز: الفلس [جمع فلوس]، فلس متاع زوج، فلس داربع.
- بالنسبة للفضة: قرش [جمع قروش]، بليون [جمع بلايين]، نص بسيطة، ربع ريال، نص ريال، دورو.
- بالنسبة للذهب: البندقي دواحد، البندقي دزوج، اللويز، المونيضة.
- بخصوص النقود الصورية: موزونة [جمع موازن أو موزونات]، وجه [جمع وجوه]، وجهين، درهم [جمع دراهم]، واق [جمع أواق]، أوقية [جمع أوقيات]، مثقال [جمع مثاقل].

وقد سحبت القطع النقدية القديمة، الذهبية والفضية والبرونزية من التداول، ولا توجد حاليا بالمغرب سوى النقود الفضية والنحاسية المسكوكة في عهد السلطانين مولاي الحسن وابنه المولى عبد العزيز [السلطان الحالي].

- مصطلحات ومترادفات:

كان للفلس من قبل، قاسم صحيح sous-multipe يعبر عنه بمترادفين وهما الدبلون والقيراط.[78] ويجب التوفر على أربعة للحصول على فلس، أي 24 بالنسبة للسنتيم.

[78] القيراط Carat، جمع قوارط والدبلون هو دبلون إسبانيا Doublon d’Espagne

ويستعمل هذان المترادفان حاليا، للإشارة إلى المقادير الصغيرة، لذلك، يجب معرفتهما.
وللمزونة مرادف هو الوجه، لكنه نادرا ما يستعمل؛ بالمقابل، فإن كلمة وجوه المرادف لمزونات، تستعمل في الكثير من الأحيان.
ويساوي الوجه أو الموزونة سنتيما واحدا، ومن الطبيعي أن تكون قيمة وجهين مضاعفة.
وأخيرا، فإن للدرهم أيضا مرادفا أو مرادفين وهما الواق الذي يتحول إلى أوقية. وتستعمل هذه اللفظة الأخيرة أكثر من لفظة الدرهم.

- طريقة حساب الفلوس [نقود واقعية]:

يستعمل الفلس من 1 إلى 5، فنقول فلس، 2 فلوس، 3 فلوس، 4 فلوس، 5 فلوس. وبالنسبة للمضاعف multiple، نقول الفلس متاع زوج، الفلس داربع. ويتميز الفلس عن هذه القيم المضاعفة عبر تسميته بالفلس الصغير.

- طريقة حساب الموزونة [نقود صورية]:

لم تعد الموزونة موجودة كعملة واقعية [حقيقية]؛ لكنها ظلت تحتفظ بقيمتها التي تبلغ 6 فلوس.
كما لم يعد الفلس يستخدم كقاسم صحيح Sous-multiple للمزونة، لأنه يعتبر في غالب الأحيان، عديم الأهمية وعادة ما لا يتم ذكره.[79] وإليكم المثال التالي:

1) الموزونة والفلس لا يحسبان.
2) الموزونة زائد فلسين، تدعى موزونة او ثمانية والمقصود بذلك ثمانية فلوس، لا أقل ولا أكثر.
3) الموزونة زائد 3 فلوس، تسمى موزونة ونص أي 9 فلوس
4) انطلاقا من موزونة و 4 فلوس يستعمل لفظ "وجهين" بدل موزونة. هكذا يقال "وجهين" إلا ربع[80] أي 9 فلوس وليس 10. لكن هذا الفارق لا يعتبر في بلد كالمغرب.

---

[79] مثلا، إذا ما طلبت من بقال مغربي موزونة وفلس من الفلفل الحار فإنه سيدرك بأنك أجنبي. وإذا كنت مسلما، فإنه يعطيك موزونة أوثمانية من البضاعة المطلوبة. أما إذا أحس بأنك كافر، فإنه لن يجيبك وسيشعر إخوانه في الملة بوجودك، وبالتالي، فإن أي خطأ في الحديث من طرفك، سيؤدي إلى عواقب وخيمة.

5) الموزونة و5 فلوس، أي "وجهين" ناقص فلس، لا تحسب.

6) الموزونة و 6 فلوس تساوي وجهين.[81]

- طريقة حساب الوجهين [نقود صورية]

1) "وجهين" وفلس، لا يحتسبان.

2) "وجهين" و 2 فلوس، هما "وجهين أوثمانية والمقصود بذلك 14 فلسا.

3) "وجهين" و 3 فلوس هما "وجهين" ونصف ويتعلق الأمر بنصف موزونة.

4) "وجهين" و 4 فلوس هما ثلاثة وجوه إلا ربع؛ ولا ننسى بأن الوجه مرادف للموزونة؛ وبالتالي فإن ثلاثة وجوه إلا ربع[82] تساوي 16 فلسا أو "وجهين" و 4 فلوس.

5) "وجهين" و 5 فلوس لا يحتسبان.

6) "وجهين" و 6 فلوس هما ثلاثة وجوه أي 18 فلسا.

- العد بالموزونة والوجوه [نقود صورية]:

هاتان الكلمتان مترادفتان وأكثرهما استعمالا هي الموزونة؛ ومن الممكن أن تتعدد من واحد إلى مائة.

لكن من النادر أن تسمع شخصا يتحدث عن 50 أو 60 أو 70 موزونة، فعادة ما يتم التوقف عند 39 موزونة، لأنه انطلاقا من 40 نتحدث عن مثقال.

ويقف الوجه عند 10 موزونات، ولن يسمع المرء أبدا 11 أو 20 أو 30 أو 40 وجه الخ.. فبعد 10 وجوه، تستخدم لفظة موزونة.

- طريقة حساب المثقال [نقود صورية]:

---

(80) إن المغاربة الذين يتوفرون على حس تجاري كبير ويعتبرون أكثر مكرا من أهالي الجزائر، لا يهتمون بمسائل اللغة، عندما يتعلق الأمر بالتجارة. فهم لا يستعملون مثل الجزائريين "غير ربع" الثقيلة، بل ينطقونها "إلا ربع"، بحيث يقومون بتضعيف اللام مع عدم التلفظ بالعين [اللرب]. فيا لها من مدرسة في اللغة بالنسبة للمستعربين والفلاسفة الذين يريدون تعلم العربية يوما ما !

(81) ما دام المفرد هو وجه، فإن المثنى هو وجهان لكن المغاربة ينطقونها "وجهين" أو "وجوه".

(82) إن عملية طرح بسيطة تبين بأن ثلاثة وجوه إلا ربع، لا تساوي 16 فلسا، بل هي قريبة من هذا المبلغ. لكن هذا الأمر لا أهمية له بالمغرب. ولكي يكون الحساب دقيقا، يتعين أن نقول: ثلاثة وجوه إلا الثلث.

يساوي المثقال 40 موزونة؛ وتستعمل هذه الكلمة في الحسابات الكبرى. لهذا، لن يعود هناك مجال للحديث عن الفلس، لأن القاسم الصحيح للمثقال يتوزع عبر الدرهم والوجهين والموزونة.

وأصغر قدر ينضاف إلى المثقال هو الموزونة وبالتالي، لن يتم اللجوء إلى فلس أو فلسين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة فلوس.

1) هكذا، لا نقول "مثقال و 6 فلوس"، بل نقول "مثقال وموزونة". ولا نقول "مثقال و 2 موزونات"، بل نقول "مثقال ووجهين".

2) انطلاقا من مثقال وثلاثة وجوه، نقول 11 أوقية إلا ربع.

- العد بالدراهم والأواقي:

للدرهم مرادفان وهما: الأوقية [جمع أوقيات] والواق [جمع أواق] وهذا الأخير، هو الأكثر استعمالا.

وللحديث عن بليون أو قرش يقال 6 أوقيات ونصف أو 6 دراهم ووجهين [0.26 سنتيم].

وإذا ما أضفتم موزونة إلى هذا الرقم، فستحصلون على 7 أواق إلا ربع [أي 0,27 سنتيم]. أما إذا زدتم موزونة أخرى على هذا العدد، فسيصبح المبلغ هو 7 أواق [أي 0,28 سنتيم]

- القطع الذهبية:

لا توجد نقود ذهبية مغربية، أو بالأحرى لم تعد موجودة منذ مدة. وتحتفظ القطع الذهبية الأجنبية، الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، النادرة على أية حال، بقيمتها الحقيقية. لذلك، سنكتفي ببعض التوضيحات حول هذه النقود الثمينة والنادرة بالمغرب.

فالقطع النقدية الأخرى التي تفوق قيمتها اللويز Luiz [وهو اللويس الذهبي الذي تقدر قيمته ب 20 فرنكا]، والتي تتحدد انطلاقا من الجنيه الذي يساوي 25 فرنكا، إلى قطعة 100 فرنك، تاخذ التسميات التالية:

1) مونيضة 5 دورو [25 فرنكا].

2) مونيضة 8 دورو [40 فرنكا].

3) مونيضة 16 دورو [80 فرنكا].

4) مونيضة 20 دورو [100 فرنك].

قبيلـــــة أنجـــرة

تقع قبيلة أنجرة البحرية الكبيرة بشرق الفحاص وطنجة. وهي توجد بمنطقة جبلية، بنيت عليها مدينة سبتة الخاضعة لإسبانيا. وباستثناء الفضاء المحدود المخصص لهذه المدينة، فإنه يمنع على الإسبان التجول في القبيلة، وإلا سيكون مآلهم الموت. ذلك أن أهالي انجرة، وهم جبليون أشداء متحدون فيما بينهم، يمقتون السادة الحاليين لسبتة ويواجهونهم باستمرار. وتكفي شرارة بسيطة، لكي يفجروا عنفهم ضد هذا الرومي، عدوهم الدائم.

لقد ارتاح الدرويش خلال مقامه بقبيلة أنجرة، حيث عومل معاملة حسنة؛ وأكد لي بأنه لا يوجد بين جبالة من يضاهيهم كرما، فهؤلاء المغاربة الطيبون يحترمون الطلبة ويكرمون وفادتهم، ولا يختلف لباسهم عن لباس باقي جبليي المنطقة؛ ونقصد بذلك، الجلابة الداكنة المخططة بالرمادي والأسود. وتتكون أسلحتهم المستوردة من جهات عديدة، من بنادق أروبية ذات طلقات سريعة وبنادق مصنوعة بالمغرب.

وتعرف المنطقة بزراعة الفول والذرة والقمح والشعير وبتوفرها على قطعان الماعز والعجول، أما صناعتها المحلية، فهي الخياطة والحياكة والصيد البحري.

ومناخها صحي وممطر شتاء، كما أن الثلوج تسقط بجبالها الجنوبية. والملاحظ أن القرى فقيرة وأغلبها موجود بالمنحدرات والأودية، كما أن منازلها وأكواخها متواضعة وهي ذات سقوف مغطاة بالقصب أو الدوم؛ وبالداخل تجد غرفا ضيقة بأرضية من الطين، غير مبلطة. وتقوم النساء بتربية الدواجن والحمام من أجل بيعها بطنجة. وبخصوص الأشجار، فإننا نجد أنواعا كثيرة مثل شجر الإجاص والتين والكروم والسنديان والعرعار والزيتون والبرتقال. ويمتلك أبناء شريف وزان المشهور ، الحاج عبد السلام بن الحاج العربي، العديد من المزارع [عزايب] بالقبيلة، مثلهم مثل أولاد بريسول.

- رواية التنازل عن سبتة للإسبان:

تتميز الصيغة التي روي بها هذا الحدث بنكهة خاصة، سيكون من الخطأ عدم إبرازها. وقد تلقيت الرواية وسجلتها، كما سردها الدرويش بجمله المتقطعة والمختصرة وكأنها أمر تافه ! وذلك رغبة منه في المرور إلى موضوعات أكثر أهمية في اعتقاده. واختار لروايته العنوان التالي: "سبب كره أهالي أنجرة للسبنيول"، ومما جاء فيها : "سبب كراهية أنجرة مع السبنيول؛ كانت سبتة مدينة كبيرة على يد المسلمين، وكان والي كبير فيها، مشهور إلى الآن في جميع أقاليم المسلمين وهو سيدي أبي العباس السبتي، وهو والي كبير ومولى كرامات؛ ومن جهة كراماته، إذ يبدأ الفلاح يحرث يصدق خروبة من الزريعة صدقة على سيدي بلعباس المذكور، وهو يستر الفلاحة من الجياحة، وإذا يحضنو الدجاجة على كذا من حبة يعلموا واحدة منهم ويقولوا هذي عباسية، مقصودهم إذا فقسوا جميع وانجارا، يعطيوا هذاك الطير المثمور لسيدي بالعباس ، للمساكين.

وهو مدفون في مراكش ومقامه في سبتة وفي غيرها من المدن. وكان أهل سبتة يحقروه وباعها للسبنيول، يعني أعطاها لهم وضحاوا السبنيول يداڭوا مع أهل أنجرة حتى غلبوهم وسكنوها. وأهل سبتة خرجوا لجبل أنجرة وسكنوا فيه إلى الآن، ولهذا باقيين متباغضين إلى الآن والسلام".[1]

---

[1] هناك فرق هام بين لغة الطلبة ولغة العوام. فبسبب تكلفهم، وأيضا بفعل دراستهم، يستعمل الطلبة أثناء حديثهم، صيغا من اللغة العربية الكلاسيكية. ويجب علينا القيام بدراسة مقارنة لهذين الشكلين من التخاطب بشمال إفريقيا ونقصد بهما: لغة الطلبة ولغة العوام.

- الخضوع المزعوم لأهالي أنجرة:

لقد روى لي محمد بن الطيب هذه الأحداث سنة 1894. سنتان بعد ذلك، وإثر زيارته الأخيرة للمغرب، قدم لي هذا الرحالة الذكي معلومات جديدة وهامة حول قبيلة أنجرة الكبيرة التي لا تعتبر خاضعة تماما للحكومة المغربية، رغم قربها من طنجة.

وهناك حدثان من الأهمية بمكان، يظهران عدم استقرار السلطة الشريفة في هذه المنطقة الجبلية حيث ما يزال الانسان محتفظا بغريزة الاستقلالية التي تهبها الطبيعة للمرتبطين بها مباشرة.

هكذا، ففي سنة 1880، لم تتردد القبيلة، عندما علمت بأن السلطان منح للنصارى الألمان أراضي توجد بترابها، عن إعلان تمردها عليه ومبايعة عبد السلام الوزاني الشهير سلطانا عليها. وأرسل المخزن تجريدة عسكرية لإخماد التمرد، لكنها أبيدت عن آخرها. عندئذ فكر في تطبيق خطته المألوفة وهي تحريض القبائل المجاورة للقبيلة المتمردة لمواجهتها، مع وعد بالسماح لها بنهبها. هكذا تهافتت قبيلة الفحاص وحوز تطوان على مهاجمة أهالي أنجرة، متبوعين بنصف كتيبة demi-régiment من الجنود النظاميين.

وسيفهم القارئ الذكي بأن الأراضي التي ستنهب هي التي يملكها شريف وزان؛ وقد تخلى هذا الأخير عن الأهالي المتهورين الذين بايعوه سلطانا. وبطبيعة الحال، ستهزم القبيلة وستضطر إلى أداء الضرائب التي ستملأ بها صناديق القياد والباشوات والصلحاء والسلطان، الذين يجمعون بين التقوى وحب المال.

وبعد مرور عشر سنوات على هذا الحادث، أي حوالي سنة 1890، فوجئ أهالي أنجرة مرة أخرى، باقتطاع السلطان لجزء من أراضيهم، على سفح جبل منارة، غرب طنجة وقرب شاطئ البحر؛ وذلك لفائدة شركة إنجليزية للبناء. لكن الأهالي كانوا أكثر حذرا هذه المرة، فقد بعثوا رسالة احتجاج إلى فاس، يقولون فيها إن مسلمي أنجرة لن يسمحوا للإنجليز ولا لغيرهم من النصارى، بالإقامة فوق أرضهم الإسلامية. ورغم الرسائل والوعود المتتالية للبلاط الشريف، فغن الأهالي لم يسحبوا احتجاجهم. عندئذ، تلقى باشا طنجة الأمر بمهاجمة الأهالي وردهم إلى طريق الصواب والمقصود بذلك، إبادتهم إن أمكن ! وقد قاومت القبيلة ببسالة

ويأس، مما أجبر الباشا على عقد صلح معها؛ وهو ما يعتبر هزيمة بالنسبة لهذا الموظف السامي الذي لم يستسغها؛ وسينتقم من أهاليها لاحقا، بطريقة غادرة كما سنرى.

فقد كان زعيم التمرد والمقاتل الذي أوقف زحف الجيوش الشريفة هو قايد أنجرة ولد الحمام، الذي كان تأثيره على الأهالي أقوى من تأثير الشريف الوزاني. وبعد أن عقد الصلح، اعتقد ولد الحمام أن بإمكانه الذهاب إلى طنجة والتجول في أسواقها والالتقاء بممثلي القبائل المجاورة، دون أن يصاب بأذى. وتفاديا لمفاجأة غير سارة رافقه ثلاثون مقاتلا، حاملين أسلحتهم معهم. وعندما علم باشا طنجة بمقدم "رأس الفتنة"، استدعاه لتناول الغذاء هو ومرافقوه؛ فلبى الرجل الدعوة وفقا للعادة المغربية.

هكذا، وصل ولد الحمام برفقة مقاتليه إلى قصر الباشا. وكان الاستقبال وديا وحميميا، كما يحلو للبدو القيام به عندما يريدون قضاء مآربهم. واستدعى ولد الحمام لوحده إلى غرفة الاستقبال المخصوصة للوجهاء؛ وكبدوي ساذج ترك أسلحته بالباب عندما طلب منه الخدم ذلك، على أساس أن ترد له عندما يغادر الغرفة. ولم تمر دقيقتان حتى تم تكبيل المتمرد السابق وأسره. أما رفاقه، فقد هوجموا من طرف رجال المخزن، حيث جرح البعض وأسر البعض الآخر. وتم تجميع كل الأسرى وإرسالهم إلى فاس، ليقبعوا في سجونها.

ونزل خبر اعتقال قايد أنجرة ورجاله كالصاعقة على الأهالي، لكنهم لم يكونوا مستعدين للانتقام، لأنهم سبق أن هزموا في مناوشات سابقة. وأصبح الجميع يترقب فراره من الأسر، لأنه كان متعودا على التخلص من بين مخالب المخزن الشريف.

وذات يوم اضطر الحراس المكلفون باقتياده إلى فاس، إلى التوقف ليلا بوزان، وسيفاجأ الجميع باختفاء الأسير في الصباح؛ وهي العملية التي لعب فيها أحد شرفاء المدينة دورا كبيرا، حيث أقنع رئيس الحرس بإطلاق سراح مسجونه، وهو ما فعله على الفور، أمام اندهاش مرؤوسيه.

ومازال هذا السجان الكريم، قابعا منذ عشر سنوات في إحدى زنازن الصويرة، عقابا له على لحظة ضعف أمام الشريف. ويبدو أن ولد الحمام قد أسر من جديد؛ ومن المرجح أن ينهي بقية حياته فوق الأرضية الباردة لزنازن المخزن.

وتحظى قبيلة الأنجرة بوجود عائلات صالحة نذكر من بينها، أولاد بنعجيبة، أولاد بريسول أولاد البقال التي لا يخفى على أحد تأثيرها السياسي والديني.

ومن جهة أخرى، فإن القرى بهذه القبيلة، تتألف من منازل محاطة بالأشجار ومتباعدة بعضها عن بعض. ويذهب كل من النساء والرجال إلى سوق طنجة. فالنساء يبعن البيض والدجاج وجبن الماعز؛ أما الرجال فيبيعون الفحم والجير المصنوعين بالقبيلة.

مدينـــــة سبتـــة

- السياسة الإسبانية -

على الشاطئ الإفريقي، قبالة جبل طارق، الذي لا تفصله عنها سوى مسافة قصيرة، توجد مدينة صغيرة وبئيسة، تمتد بارتخاء على مهد صخري تتلاطم عليه الأمواج باستمرار. إنها مدينة سبتة القديمة، هذه القلعة ذات الأسوار الثلاثة والقصر القروسطي الذي مازال يتذكر جياده الجامحة والمعتقل الكئيب الذي لم يرد الإهمال القشتالي أو لم يعرف تحويله إلى مدينة أخرى، مزدهرة بالمضيق. إن سبتة العربية لم تعد عاصمة لموريطانيا الطنجاوية لأنها أصبحت عبارة عن قلعة محصنة، لا تجارة فيها ولا صناعة.

ويبدو أن الإسبان لا يحتلون مكانا في العلم. إلا ويحولونه إلى عالم من الرتابة التجارية والتعصب السياسي والديني. فيا له من شعب بئيس غارق في أ فكاره الرجعية التي لا نعرفها جيدا في باقي أروبا وخصوصا في فرنسا. فمتى سينهض هذا الشعب ومتى سيتعلم؟ لأن الأمية هي سبب كل مشاكله. ومتى سيتوقف عن حسد الشعوب الأخرى وعلى رأسها الشعب الفرنسي الذي يعتقد بسذاجة أنه محبوب من طرف كل شعوب العالم وخصوصا من طرف جيرانه فيما وراء جبال البرانس؟ [2]

---

[2] رددت بعض الجرائد الإسبانية، الخبر المنتشر بلندن والذي مفاده أن الحكومة المغربية منحت الإمبراطورية الألمانية ، نكاية بفرنسا، منطقة بملوية على الحدود مع الجزائر. وقد أضافت إحدى هذه الصحف وهي "أسرة قاديس"، العبارة التالية: "يجب اختيار أهون الضررين". وهذه قمة السخرية، في وقت التزمت فيه فرنسا أخلاقيا بواشنطن مع قضية إسبانيا؛ وهذه ضربة موجعة للنظرية الشهيرة حول الأعراق اللاتينية [عن جريدة "يقظة المغرب، 4 غشت 1898].

ولأنها عاجزة عن توسيع مستعمراتها، فإن إسبانيا تمارس بعنادها المعروف، سياستها التقليدية وغير الذكية بالمغرب. وهي تتشبث بالصخور الجرداء الموجودة بالساحل المغربي، فارضة على الأهالي تغطرسها وعنفها.

من جهة أخرى، فإنها تصرخ احتجاجا، وهي التي لا تملك سوى مساحة ضئيلة بالمغرب، عندما تسمع بأن إحدى القوى العظمى، تطمع في إمبراطورية الشريف؛ مما يدفع هذه القوى إلى التراجع، معتقدة بأن هذا المجتمع لا يقهر؛ وهي تشبه في ذلك، اللبؤة بحديقة الحيوان التي ترتجف عند سماع زئير الأسد الغاضب.

طبعا، فأنا أومن بأن التقدم سيرسم طريقه بهذا البلد الذي يعيش تقهقرا كبيرا. لكن كيف نأمل في تحققه لدى شعب ينطبق عليه تساؤل سان سيمون: "هل العلم جريمة وهل الجهل والغباوة فضيلة؟".

فيا إخواننا الإيبيريين، إذا كانت هذه الحقائق صادمة بالنسبة إليكم، فإن نيتي الطيبة تجاهكم لا غبار عليها. وبدل أن تحسدوا فرنسا، قلدوا ما هو جميل لديها ونافسوها في أمور الفكر ولا تؤكدوا حكم علماء النفس القاسي عليكم وهو أن "الإسباني غاسكوني، لكنه غاسكوني مأساوي Gascon tragique". وهذا حكم عام، لأن الإسباني الجاهل- وأنا أؤكد على هذا النعت – "متعصب ومغرور وفظ"؛ وهذا يكفي. [3]

هكذا، فبينما كان سفيرنا لدى الولايات المتحدة الأمريكية يدافع عن إسبانيا الموزعة الأطراف وكانت صحافتنا تحزن على مآسي الجارة الأخت وكانت أموال مواطنينا تصرف بالمناطق القشتالية، كنا نسمع بالمقابل، تعابير حقودة من هذا الشعب المهزوم، تجاه فرنسا التي كانت هي القوة الوحيدة المساندة لإسبانيا ، أثناء هزيمتها المثيرة للشفقة بكوبا.

[3] لقد مرت الآن حوالي 70 سنة على احتلالنا للجزائر ومازال العديد من الإسبان الجزائريين يكنون لنا العداء ويحسدوننا رغم حسن ضيافتنا لهم. فهم يستمرون في نعت الفرنسيين بلفظة gavachos [السفلة] ويعتقدون بان دائرة وهران هي ملك لإسبانيا وأننا مجرد أجراء لدى La reina regente. وباختصار فهم يفكرون بطريقتهم الجافة والمعهودة وبجهلهم الغريب للخريطة السياسية للدول. وتدعونا هذه المشاعر العدائية إلى تصور إدماج العنصر الإيبيري بالعنصر الغالي Gaulois، بتفاؤل أقل. فلنحترس من منح لقب مواطن فرنسي إلى كل من هب ودب، بما في ذلك من لم يطلبه. ويجب مراجعة قانون 26 يونيو 1889 حول تجنيس الأجانب المولودين بفرنسا أو بالجزائر؛ بل يجب تعديله كلية لتفادي الخطر المحدق بمستعمرتنا الفرنسية الكبيرة والمتمثل في القضاء على الهيمنة السياسية للفرنسيين الأصليين. لذا، وجب إقرار قانون وقائي في أقرب الآجال . وسيكون هذا القانون ليبراليا أو لن يكون. [وللأسف، فإن النزعة المالتوسية الفرنسية تدفعنا إلى ذلك].

طبعا، سيفتح الباب أمام تجنيس الأجانب، لكنه يشترط عليهم ضمانات مادية ومعنوية، حول تشبثهم بالبلد الذي تبناهم. وعلى سبيل المثال، يجب إخضاع جيلين أو ثلاثة أجيال لتداريب مستمرة، قبل الاستمتاع بكافة الحقوق المدنية والسياسية

إن هذه الملاحظات القاسية ليست موجهة إلى الإسباني المتعلم والمهذب – وهذا نوع نادر للأسف -، فهو يتميز عن مواطنيه الجهلة ولن يدعو الفرنسيين Gavachos [4] ولن يعلن أمام الملأ بأن إسبانيا هي أول بلد في العالم، لأنه يعرف حقيقة واقعه البئيس ولا يجهل بان وطنه المجيد السابق، يأتي خلف ثلاثة أو أربعة شعوب، تتربع على عرش الحضارة.

لهذا، أطلب من ممثلي الطبقة المتنورة الإسبانية المحترمين أن يسامحوني، إذا ما كان نقدي عنيفا وجارحا لكبريائهم. وليعلموا أن أملي الكبير، هو معاينة انبعاث إسبانيا في أقرب وقت، كي نتعايش معا. فحلمي الجميل الذي أتمنى أن يتحقق يوما، هو ما أدعوه بالأخوة الإنسانية. ولربما اختفت كل الجهالات في القرون القادمة.

من جهتهم، فإن المغاربة يشتكون من عداوة الإيبيريين لهم؛ ويتهمون الإسبان بالحفاظ على حقدهم الدفين تجاه "المورو moro" الذين هزموهم في الماضي واستولوا على أراضيهم.

ولعل أحقر مزحة يواجه بها المسلم، هي عملية الضراط والفسو التي يقوم بها بعض السفلة الإسبان، عند مرورهم بمحاذاة المغاربة. فمثل هذا السلوك المهين الذي يعتبر شتيمة موجهة لدين المغربي، يثير حنق هذا الأخير ويعمق من كرهه للرومي؛ فيا أصدقائي الإسبان، عليكم أن تتخلوا عن هذا الفعل المشين وأن تعوضوا ضراطكم بأصوات الصناجات Castagnettes عندما تقتربون من مسلم وقور.

وإجراء الخدمة العسكرية الخ... [وقد سبق لي أن عبرت في الجزء الأول من هذا الكتاب، عن رأيي بخصوص مرسوم كريميو Décret Crémieux الشبيه بقانون 26 يونيو 1889 المشؤوم].

أما بالنسبة للمنظرين الكونيين الذين يعتبرون هذه الشروط قاسية وغير اجتماعية، فإنني سأكتفي بالتأكيد على أنه لا يوجد في العالم بلد أكثر ليبرالية من فرنسا فيما يتعلق بالتجنيس؛ بل إن الجمهورية الرومانية في فترة عظمتها، لم تكن تبيع بسهولة لقب المواطن الروماني Civus romanus وكحجة أخيرة، سيسمح لي من لا وطن لهم Sans patrie باختيار نموذج عن الإقصاء الذي لا مثيل له في العالم والذي نجده لدى المسلمين. فالشعوب الإسلامية المضيافة وغير الرافضة للتنوع الديني، تتخذ موقفا إقصائيا، حينما يتعلق الأمر بإدماج اليهود داخل الجماعة الإسلامية. وإذا ما طلبتم من المسلمين إعطاء تبرير لهذا المثل الشهير: "اليهودي ما يكون مسلم إلا بعد أربعين سنة"، فإنهم سيجيبونك بما يلي : "الكل ولي وعدته"، وهو ما يعني أن لكل ولي سمعته، فنحن نقدس الأولياء بحسب معرفتنا بهم.

[4] وهي مشتقة من Gavacho التي تقرأ Gavatcho ومعناها، سافل، بئيس، فقير، جبان، لا شرف له. وينعت الإسبان الفرنسيين بهذا اللفظ، حينما يريدون شتمهم ! انظر:

Littré, Dictionnaire de la langue française, tome 2, le mot gavache.

إن عدد سكان سبتة لا يتجاوز 10 آلاف نسمة، بما في ذلك 2500 جندي بالحامية العسكرية و 2000 سجين محكوم عليهم بالأشغال الشاقة forçats.

"وتتألف المدينة المبنية على شبه جزيرة من قسمين: فهناك المدينة القديمة الموجودة بالجانب الأسفل من شبه الجزيرة، وهناك المدينة الجديدة التي ترتفع فوق إحدى التلال السبع القائمة داخل التحصينات. ويتميز الميناء الموجود بين المدينتين [القديمة والجديدة] والمتوفر على منار يتموقع على 42 ,33,53 درجة من خط العرض شمالا و 7,37,13 درجة من خط الطول غربا؛ وهو صغير الحجم لكنه محاط بخليج يسمح برسو السفن.

وبسبتة أسقفية ومحكمة عسكرية؛ وهي أقرب المستعمرات الإسبانية على الساحل الشمالي بالمغرب. ورغم قربها من أروبا [فهي لا تبعد إلا بحوالي 16 كيلومترا عن جبل طارق]، إلا أنها تفتقر إلى أنشطة التجارية والصناعية. فهي ميدان حربي، محمي طبيعيا وأيضا بالحصن المشيد فوق جبل آشو". (5)

وبالمقارنة مع المستعمرات الإسبانية الأخرى على الساحل الريفي، فإن سبتة تتوفر على مياه كثيرة. فمنابعها وخزاناتها، تسمح لها بالتوفر دوما على الماء، لكن بخصوص تموينها بالغذاء، فهي تعتمد على تطوان وعلى القبائل المجاورة وعلى إسبانيا.

ويبيع أهالي أنجرة بها، البيض والدجاج والطرائد والحبوب؛ كما يسمح لهم بتهريب الأسلحة الأروبية كالمسدسات وبنادق الماوزر والخراطيش.

وهذه العلاقات التجارية بين النصارى والمسلمين، لا تروق لبعض الصلحاء الذين يرددون باستمرار العبارة التالية: "شوف هذوا أولاد الحرام السبنيول، أحنا نبيعوا لهم الصح وهما يبيعوا لينا الخاوي".

وقد أنشأت الحكومة الإسبانية بسبتة "سرية المورو Compañia de Moros"، المكونة أساسا من الريفيين. وهم متطوعون من أهالي القبائل البحرية الريفية، الذين اضطروا إلى العمل مع أعدائهم، بسبب البؤس أو خوفا من عمليات الثأر داخل قبائلهم وأيضا من أجل ربح المال.

---

(5) Grande encyclodédie, tome 10, p. 168 [article Ceuta] .

إن فكرة إنشاء سرية المتطوعين المسلمين، تكتسي رغم بساطتها، أهمية كبرى أخلاقية وسياسية، خصوصا وإنها صادرة عن إسبانيا، إحدى أكثر الأمم النصرانية فردانية وإقصاء للآخر. فالتعصب القومي الضيق لبلد سرفانتيس Cervantès ويرتكز على خطأ فادح، تمثله الأنانية الوطنية كأساس للنزاعات الدولية. ومقابل الصيغة الإسبانية الحقودة gerra al Moro [الحرب ضد المغاربة]، نتمنى أن تتبنى جارتنا صيغة المحبة الجميلة، التي قد تخلصها من انحطاطها وهي: كل الناس إخوة.

وإذا ما فرضت إسبانيا على أبنائها تبني القيم الكونية للخير والتسامح، فإنها ستدرك أسباب بؤسها وستقضي على الظلامية الكنسية والملكية التي تهيمن عليها منذ قرون. فلنحترس من تشجيع الشعوب على التعصب القومي، أي على كره الغير وتمجيد الذات. ومقابل هذا التعصب، علينا أن نشجع الوطنية المتنورة والمنفتحة والمواطنة الذكية. وآخر شيء ننصح به إسبانيا هو، أن تقديس الوطن واجب وفضيلة كبرى، لكن احتقار وطن الآخرين دون سبب، هو اكبر خطأ.

- دخول الدرويش إلى سبتة:

يتميز رحالتنا المتسول، كما هو معلوم، بطابعه المرح رغم ما يتلقاه من إذلال ومن مشاكل. فبعد أن تجول بالمدينة وتحدث مع المسلمين الريفيين الذين يشتغلون مع الإسبان، ذهب الدرويش إلى شاطئ البحر. وبينما هو متكئ على سور صغير، يتأمل الأمواج، إذا بيد قوية تنتزع منه عصاه ومحفظته الجلدية التي تحتوي على بعض الأوراق القرآنية وفطيرة من الشعير. وفي تلك الأثناء، سمع نفخا مدويا بالبوق، يعلن عن قدوم مجموعة من الجنود الإسبان، فتوجه نحوهم صائحا:

- الخنشة والمطرق [المحفظة والعصا].

ويبدو أن الجنود لم يفهموا كلامه، لذلك أجابوه بالكلمات العربية الوحيدة التي يتعلمها الأروبي عندما تطأ قدماه تراب إفريقيا الشمالية، وهي كلمات بذيئة مرفوقة بإشارات ساقطة، من قبيل "يا دين الزب" [وهي تحويل لعبارة "يا دين الرب"]، و "القواد" و "روح يا كلب". ولم

يكتفوا بذلك، بل انهالوا عليه بالشتائم ورموه بالحجارة. ففر محمد وغادر ذلك السجن القشتالي مسرعا.

وغير بعيد عن المدينة، التقى في طريقه متسولا هزيلا، جالسا وسط الأشجار ومنشغلا بالتهام الطماطم النيئة وخبز الشعير. وكانت نحافة هذا المتسول مرضية وبشعة، والأدهى من ذلك، أن الرجل كان أقرع وكانت علامات داء الزهري بادية عليه. ورغم ذلك، فقد تلقى محمد دون اشمئزاز قطعة الخبز التي مدها له هذا المحسن الشبيه بأيوب، لأن بطنه كان يتضور جوعا.

المراكز الرئيسية بأنجرة

هل ننطق أنجرة بفتح الهمزة أو بكسرها أو بتسكينها؟

يبدو أن النطق الأخير هو السائد. وتشمل أنجرة ستة أقسام وهي: بلزرق، ربع الوسطي، القصر، الخميس، الفحاص و العزيب.

وتجري ثلاثة جداول بالقبيلة وهي: واد القصر الذي يمكن أن يكون هو واد ليان أو إليان الذي تحدث عنه المؤرخون العرب(6) وواد الخميس الذي يصب بواد بلزرق.

- سبتة، 10 آلاف نسمة، انظر لاحقا، النبذة التاريخية عن المدينة.
- ظهر الحجر، 100 منزل.
- بلزرق، 300 منزل، على واد يحمل نفس الاسم.
- بني مزالة، 300 منزل، قرب سبتة وبجوار ضريح سيدي مبارك، وهو ولي صالح بضواحي المدينة.
- سيدي علي بن حرازم، 500 منزل، ويوجد بها ضريح هذا الولي.
- دشرة القصور، 100 منزل، يوجد بها ضريح سيدي داوود.
- عين عنصر، 300 منزل
- الزميح، 300 منزل.

---

(6) وهذه فرضية ذكية ومقبولة، انظر:

Tissot, Géographie comparée de la Maurétanie tingitane, p. 32.

- دشرة بني محمد، 20 منزلا، غير بعيدة عن سوق الخميس.
- سوق السبت، 50 منزلا.
- القوى العسكرية: 10 آلاف رجل من ا لمشاة
- العدد المحتمل للسكان: 70 ألف نسمة .

وتوجد بالقبيلة مجموعة أخرى من الدواوير.

نبذة تاريخية عن سبتة

- سبتة قبل الفتح العربي -

لا يقبل تيسو الرأي الذي مفاده أن سبتة البيزنطية بنيت على أنقاض محطة الإخوة السبعة ad Septem fratres "فهذه المحطة كانت توجد على بعد أربعة أميال من adabilem (سبتة) في الشرم الواقع بين رأسي Blanca و Barmeja بجبل بليونش".

وتتفق الآراء حاليا، على كون سبتة تقابل محطتين قديمتين وهما: أبيلا Abyla المشيدة على جبل أشول [194 مترا] والذي يشكل قبالة جبل طارق، ما يعرف بالعمود الثاني من اعمدة هرقل. والإخوة السبعة، وقد سميت هذه المحطة كذلك، لتوفرها على سبع تلال بجبل القرود، حسب تسمية سترابون Strabon وجبل موسى حسب التسمية العربية. وبالفعل، فإن هذه التلال توجد داخل تحصينات سبتة الحديثة.

إن أبيلا Abyla أو سبتة Septa، كانت في البداية عبارة عن مركز روماني تم تشييده بقرية أمازيغية، لأنه من نافلة القول، إن الأمازيغ سبقوا الرومان والقرطاجيين بهذا البلد، بعدة قرون. ونحن لا نعرف الكثير عن Septem أو Septience Castellum التي تحولت إلى Septum أو Septa، اللهم من كون الوندال احتلوها سنة 428 قبل الميلاد.

وبعد تخليهم عن البرابر الغربية، استولى الغوط Goths الإسبان على سبتوم Septem التي كانت تحصيناتها حسب بروكبوس procope قد تقادمت.

لكن الغوط لم يستمروا طويلا بسبتة، إذ أن الأمازيغ سيلحقون سنة 532 هزيمة نكراء بالملك ثيودوس Theudus الذي كان قد اجتاز المضيق للاستيلاء على المدينة. [7]

وفي سنة 534 سيطر البيزنطيون على المدينة، حيث أرسل بلزير Belisaire، بعد دحره للوندال، كتيبة من الجنود الإغريق إلى المدينتين البحريتين المغربيتين وهما سيزاري Cesarée و سبتوم Septum.

بعد عشر سنوات، وتحديدا في سنة 544، استغل فزيقوط Visighots إسبانيا التمرد الهائل للأمازيغيين، ضد الهيمنة البيزنطية واجتازوا المضيق وحاصروا سبتة، لكن المدينة قاومت ببسالة ودحرت الأعداء. وفي سنة555 بني جوستنيان Justinien بسبتة، كنيسة مخصوصة للعذراء.[8]

وفي عهد الإمبراطور موريس Maurice (582-602)، أصبحت قلعة سبتوم Septum التي كانت خاضعة لموريطانيا القيصرية، عاصمة للحكومة الجديدة. وأصبح هذا الإقليم الجديد الذي يضم سبتوم وجزر الباليار والمناطق الإسبانية الأخرى التي تحتلها بيزنطة، يدعى موريطانيا الجديدة، وكان يحكمها وال على إفريقيا.[9]

- في سنتي 682 و 683 وقع أول فتح إسلامي بقيادة عقبة بن نافع، لمدينة سبتة التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وحسب رواية البكري، فإن الكونت جوليان الذي ولاه قسطنطين الرابع حاكما على سبتة، التقى بالقائد العربي وقدم له هدايا ثمينة؛ وحصل بالمقابل على الهدنة وبقي يمارس مهامه.[10]

وقد سبق لي أن تحدثت في موضع آخر عن مكر هذا البيزنطي الذي تخلص من القائد المسلم الرهيب ودفعه إلى غزو المناطق الجنوبية بالمغرب الأقصى.

سبتة بعـــد الفتـــح العربـــي

---

(7) Isidore de seville, Gothorum historia, p 496 ; Ibn Ad'ari, Baïan, t. 1er, p. 211; Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, t.1er, p. 62, 3ème ed., 1881, Fournel , Les Berbers, t. 1er, p. 93, n° 2.

(8) Chrlés Diehl, L'Afrique Byzantine ; Histoire de la domination byzantine en Afrique,533-709, in-8 Paris, 1896.

(9) Ibidem

(10) El Massalik, p. 104, journal asiatique, t. 13, 5ème série, 1859.

- في سنتي 707 و 709، وبعد مرور حوالي 25 سنة على ظهور المليشيات الإسلامية الأولى؛ فوجئ جوليان الذي ظل حاكما على سبتة طوال تلك المدة بتحرك العساكر العربية مرة ثانية، تحت أسوار عاصمته الصغيرة. فقد كان القائد موسى بن نصير الذي هزم الأمازيغ في أغلب مناطق المغرب الأقصى عازما على إلقاء "روم سبتة" بالبحر.

"هكذا، هاجم موسى تحصينات جوليان، ولما أدرك بأن قوات هذا الأخير تدافع ببسالة عن المدينة، عاد إلى طنجة وأمر بنهب القرى المحيطة بسبتة. ولم ينفعه هذا السلوك، لأن السفن القادمة من إسبانيا كانت تمد سكانها بالمؤونة والعتاد بشكل دائم".[11]

وكانت هذه المساعدة المقدمة إلى الحاكم الإغريقي من طرف غوط إسبانيا، دليلا على التحالف القائم بين سادة شبه الجزيرة الإيبيرية وسيد سبتة، لكن ذلك لا يعني أن جوليان كان خاضعا للملوك الغوطيين.

وفضلا عن ذلك، فقد أقر العالم دوزي بشكل لا يقبل الجدل، بأن جوليان لم يكن تابعا ولا رعية من رعايا ملك الفزيغوط، كما كان يعتقد البعض، بل كان حاكما تم تنصيبه من طرف إمبراطور قسطنطينية في هذه الرقعة الإفريقية الصغيرة التي لم يكن العرب قد انتزعوها بعد، من الورثة الضعاف لقسطنطين الأعظم؛ والمقصود بها سبتة ونواحيها".[12]

وفي سنة 709، قام رودريك Roderik ملك الفزيقوط بفعلة شنيعة، عندما اغتصب ابنة جوليان التي كانت تتلقى تربيتها ببلاط طليطلة. وقد شعر الحاكم البيزنطي بغيظ شديد إثر ذلك، وقرر توقيع معاهدة مع موسى بن نصير أواخر سنة 90 هجرية [709 ميلادية]، تم بمقتضاها، فتح أبواب سبتة والمناطق المجاورة لها، أمام الفاتحين العرب.

بعد ذلك، شجع جوليان القائد المسلم على فتح الأندلس وأمده بالسفن التي ستنقل الجنود إلى الجهة الأخرى من المضيق وأبحر بنفسه وعمل كمستشار ومرشد للمسلمين. وقد رافق حملة طارق بن زياد وحارب بخريز Jerez سنة 711؛ وغداة تحقيق الانتصار، نصح جوليان القائد الأمازيغي بالهجوم على طليطلة وشارك في الاستيلاء على كرمونا Carmona.

وفي اللحظة التي فقد التاريخ آثار سيد سبتة، استولت عليه الأسطورة، لتخبرنا بأنه مات أسيرا. طبعا، فإن الروايات والأخبار ستتحدث عن هذا النصراني المنافق كنموذج للخائن السافل

---

(11) Akhbar Majmouâ, Recherches, T. 1er, p. 237, Dozy, Recherches, T. 1er, p. 40.

(12) Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, T. 1er. P. 61 à 65, 3ème édition, Paris et Leyde, in-8, 1881.

[Ganelon] كما نعت في الروايتين الإسبانية والبرتغالية. ومن المؤكد أن جوليان كان ماكرا – ونحن نقول بلغة الدبلوماسيين، إنه كان داهية من الناحية السياسية – فقد أثر في عقبة بن نافع وواجه موسى بن نصير، ولم يفتح أبواب سبتة أمامه إلا بعد ما عجز عن المقاومة. فهل أراد الانتقام فقط، من اغتصاب رودريك لابنته، أم أنه كان يأمل في تخليص إمارته، عبر تشجيع المسلمين على فتح الأندلس؟

لربما كان الأمران مترابطين. وفي جميع الأحوال، فإن الوثائق القديمة تقول إن جوليان ظل يناور حتى النهاية، بعد ذلك اختفى، رغم دهائه، داخل الدوامة الإسلامية التي كانت تخضع الجميع شعوبا وملوكا.

- سنة 715، عين فاتح الأندلس ابنه الثالث عبد المالك بن موسى، حاكما على سبتة.

- في سنتي 741 و 742، استولى بالج أو بلج على سبتة، رفقة من تبقى من العرب السوريين الذين أبيد أغلبهم في معركة واد سبو. ويبدو أن المدينة وقعت مع طنجة في نفس الآن، بين يدي الأمازيغ الذين انتفضوا ضد الغزو العربي، وكان ذلك في سنتي 740 و 741.

وفي السنة الموالية، بعد محاصرة الأمازيغ لسبتة وتدميرهم للحقول المحيطة بها، طلب السوريون المتواجدون بداخلها والذين أنهكهم الجوع، من الحاكم العربي بالأندلس، عبد المالك، السماح بمساعدتهم على المجيء إلى شبه الجزيرة العربية، كي يؤازروه في سحق الأمازيغ الأندلسيين الذين كانوا قد انتفضوا ضد الهيمنة الإيبيربية هناك. هكذا، ستصبح سبتة وباقي مناطق المغرب مستقلة، بعد تخلصها من السيطرة العربية وستستمر كذلك إلى حين قدوم الأدارسة. ولأن فورنيل هو الكاتب الوحيد الذي اهتم بمصير سبتة ما بين 742و 931، وهي الفترة التي عرفت سيطرة الإمبراطورية الأموية عليها، فإنني سأستعير من هذا المؤرخ الكبير للأمازيغ، روايته عما حصل لهذه المدينة المغربية الصغيرة، خلال هذه المدة التي تزيد على قرنين.

- في سنة 213هـ [828م]، كانت سبتة تحت السيطرة الاسمية وليست الفعلية للأدارسة. ولفهم ذلك، يجب أن نعود إلى الوراء بعض الشيء.

فنحن نتذكر استقبال جوليان سنة 62 هجرية لعقبة بن نافع ودفاعه عن سبتة سنة 90 هجرية والمساعدة التي قدمها في السنة الموالية لطارق بن زياد في أول حملة عربية على الندلس. وقد أكد البكري بأن جوليان هو الذي قدم لطارق في الحملة الثانية [سنة 92 هجرية]، الإمكانيات للعبور

بجيوشه إلى الأندلس. وأضاف قائلا: "بعد ذلك، حصل اتفاق بين العرب وأهالي سبتة، حيث سمح لهم بالاستقرار بالمدينة".(13)

بعد ذلك، أي في سنة 112هـ، وقعت ثورة ميسرة الحقير. ويقول ابن خلدون بهذا الصدد، إن أمازيغ طنجة، هاجموا سبتة وطردوا العرب منها واستعبدوا أهاليها وخربوها، بحيث لم تعد مسكونة.

[Voir, Histoire des berbères, t. 2, p136 de la trad. Franç]

وقد ربط البكري من جهته، ودون أن يذكر اسم ميسرة، تخريب المدينة بتمرد سنة 122هـ. فبعد أن تحدث عن استقرار العرب بسبتة، أضاف بأنهم طردوا منها بعد ذلك، من طرف أمازيغ طنجة، وظلت المدينة مهجورة ومخربة، بدون ساكنة، اللهم من الحيوانات المتوحشة. [المسالك، ص. 104 والبيان لابن عذاري، الجزء الأول، ص. 211].

كم من الوقت تطلب تخريب سبتة؟ لا يمكن تحديد ذلك للأسف؛ وإن كان تاريخ 319 هـ قد ذكر في الجزء الثاني من "البيان". لكن تاريخ الاستيلاء عليها من طرف قائد عسكري اسمه ماجكس من قبيلة غمارة، لم يحدد بدقة؛ علما بأن هذا الأخير أنشأ أسرة حاكمة تعاقب أربعة أمراء فقط على الحكم فيها؛ وكان آخرهم يمارس مهامه خلال سنة 319 هـ. وعليه، يمكن أن

---

(13) المسالك والممالك، ص. 104، I، 5، ضمن:

Journal Asiatique, T. 13, p. 193, 5ème série, 1859.

وقد اعتبر ابن خلدون، بأن هذا الاتفاق تم بعد وفاة جوليان، انظر:

Histoire des Berberes, T. 1, p. 371 et T. 2 p. 136 de la tr. Fran.

ويظهر من خلال كلام البكري وابن خلدون، أن وضع العرب بالمغرب الأقصى لم يكن مستقرا بعد موت جوليان، أي في فترة غير بعيدة عن انتصارات موسى بن نصير بالمنطقة. وتبين الفقرات التي استشهدت بها، بأن الكونت جوليان ظل يحكم سبتة إلى حين وفاته، رغم ما قيل حول الموضوع. والشيء الذي نأسف له هو أن تاريخ الوفاة الذي كان قريبا من سنة 100 هـ [718-719م] لم يحدد بدقة.

- Roderici Toletani, De rebus Hispania, lib. IV, cap. 4, Hisp. Illustri, t. 2, in-8, Franco furti, 1603.
- Lu ca Tudensis, Chronicon Mundi, lib. IV.

وفي مقالة حول الكونت جوليان، تفادى دوزي الحديث عن نهايته، انظر

Recherches, t.1, p.64à70, Leyde, 1860.

نرجح كون سبتة تعرضت للدمار سنة 213 هـ [828م] حينما استولى عليها أمازيغ طنجة.[14]

- سنة 213هـ [828م] وقع التقسيم الشهير للمغرب بين أبناء إدريس الثاني. وسيحظى أحدهم وهو القاسم، بطنجة وسبتة – التي كانت خرابا كما قلنا – وتطوان والمناطق البحرية التابعة لها. لكن أخاه واسمه عمر بن إدريس، سيحاربه لأنه تمرد على ملكه. [15]

وسيكافأ عمر على ذلك، بالحصول على إمارة أخيه المهزوم. وهكذا سيحكم خلفاء عمر سبتة وسيسيطرون لاحقا على أجزاء كبيرة من المغرب.

- ما بين سنتي 828 و 931 ظل تاريخ سبتة مجهولا. ويعتقد الباحث المتميز فورنيل بأن سبتة كانت خاضعة للأدارسة سنة 931، اسميا على الأقل.

وستصبح في هذه المرحلة خاضعة لسيطرة أمويي الأندلس. وسيضيف قائلا: "على ما يبدو فإن سبتة كانت سنة 213 هـ، مدمرة ومهجورة، بحيث لم يذكرها لا اليعقوبي ولا الإصطخري[16]. ففي فترة مجهولة، يمكن أن تعود إلى السنوات المزدهرة للأدارسة، اختار أمازيغي وثني يدعي ماجكس[17] من قبيلة غمارة، مدينة سبتة للإقامة؛ واعتنق الإسلام ثم أصبح سيدا لمدينة.

---

[14] Fournel, Les Berbers, t. 1er, p. 498 et 499, note 5.

[15] استطاع أحد حفدة القاسم، استرجاع إمارة جده بما فيها سبتة. وقد تم ذلك في تاريخ لم يتمكن فورنيل من ضبطه. انظر: Fournel, Les Berbers, t. 2, p. 249, n° 2.

[16] أضيف إلى ما لاحظه فورنيل، ملاحظة أخرى تتعلق بالمؤرخ اللا مبالي أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الذي يلقب بفريد زمانه وبحر العلوم. والحال أن هذا "البحر"يتسم بالفقر عندما يتعلق الأمر بالقرون الأولى من تاريخ المغرب. فكتاب الاستقصا، لا يتوقف عند مفهوم القبيلة ولا عند التجارة ولا عند مدن موريطانيا الطنجاوية القديمة. طبعا، فإن طرقنا الحديثة في البحث التي تعتمد على الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والجغرافيا والاقتصاد السياسي والنقد الفلسفي، تستفز مؤرخنا المغربي وتثير اشمئزازه، وكأنها فخذ خنزير مملح فوق طبق من الكسكس. ولا يمكن مسامحة هذا الكاتب الذي لم يكلف نفسه عناء الاستفادة من مؤرخين نموذجيين مثل ابن خلدون والبكري وابن عذاري وابن الأثير وغيرهم، ممن يستطيع التوفر على مؤلفاتهم. فقد قام بإخصائهم وقدم لنا ظلالهم، معتقدا بأنه أنجز عملا كاملا.

[17] كتبه ابن خلدون بهذا الشكل، وأن أفضله على الشكل الذي قدمه البكري وهو "ماجكن". لأن الأول سيبين كيف أن سبتة سميت "ماجكسة" [voir, Histoire des Berbères, t. 2, p. 136 de la trad. Fr] وسيكتبه ابن عذاري من جهته على الشكل التالي: "ماجكسن"، انظر: البيان، الجزء الأول، ص. 211.

وخلفه ابنه عصام، ثم حفيده مجبر بن عصام، وعند موته انتقلت السلطة إلى الراضي بن عصام، أخ مجبر، حتى سنة 319 هـ [931].[18]

ومعلوم أن هذه الأسرة الحاكمة لم تستقر بسبتة إلا بعد موافقة الأمراء المسيطرين على المغرب، وقد كانت تابعة لهم؛ لذلك فإنها ستفقد سلطتها بعد زوال سلطتهم. وقد أكد ابن خلدون بأن ولاء هذه الأسرة للأدارسة لم يكن صادقا تماما.[19]

كانت تلك هي وضعية سبتة وأمراؤها الصغار، عندما فكر عبد الرحمن الناصر في السيطرة على الجانب الآخر من المضيق. ويبدو أن الخليفة الأموي اعتبر تدمير الناقور Nakour تحديا غير مقبول. أو أنه اضطر أمام تسارع الأحداث بالمغرب، إلى الإعلان صراحة عن نيته في امتلاك هذا البلد. وقد استغل ضعف الأدارسة واقترح عليهم مبايعته والسماح له بانتزاع سبتة من أيادي بني عصام.

سيشرح لنا ابن خلدون مغزى هذين الاختيارين. فحسب الاختيار الأول، يتعين على الأمراء المهزومين قبول اقتراحه[20] وحسب الاختيار الثاني "سيجبر أبا العيش بن إدريس بن عمر، على تسليمه مدينة سبتة.[21]

وتبدو لي هذه الصيغة الثانية أكثر رجحانا، ما دام خليفة قرطبة، كما أكد ابن خلدون نفسه، قد أرسل إلى هذه المدينة أسطولا، تحت قيادة فرج بن غفير.[22]

---

[18] البكري، مذكور، ص. 105، ابن عذاري ص. 211؛ ابن خلدون، ص. 136 يسمي ابن عذاري خليفة عصام محمدا بدل مجبر، على عكس البكري. لكنهما يتفقان في اعتباره أخ ووريث الراضي. غير أن ابن خلدون سيقر بأن هذا الأخير هو ابن أو أخ مجبر .

[19] ابن خلدون، مذكور، ص. 136 من الترجمة الفرنسية.

[20] Histoire des berbères, t. 2, p. 136 et 146 de la trad. Fr..

في الفقرة الأخيرة، سيقول ابن خلدون إن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر قرر السيطرة على المغرب وطرد الفاطميين منه. لذلك دفع بني محمد إلى التخلي له عن مدينة سبتة التي استولى عليها سنة 319 هـ. وقد سبق لي أن قلت، اعتمادا على ابن خلدون، إن سبتة كانت خاضعة لبني عمر. وإذا ما فحصنا أقوال هذا المؤرخ، فإننا نستنتج بأن بني عمر كانوا يلعبون دورا ثانويا بالمقارنة مع دور بني محمد، وهو ما سيؤكده ابن خلدون فيما بعد عندما سيقول إن الأدارسة اعترفوا بسلطة أسرة بني محمد منذ ثورة الحجام على ابن أبي العافية [تاريخ البربر، الجزء الثاني، ص. 147 من الترجمة الفرنسية].

لكن ابن خلدون يقدم أحيانا روايات مختلفة حول نفس الحدث، إلى درجة يصعب معها التأكد من الواقعة الصحيحة.

[21] Histoire des berbères, append. IV, t. 2, p. 569 de la tr. Fr.

[22] هو فرج بن عفير بالنسبة للبكري وابن عذاري؛ وفرج بن غفير بالنسبة الابن خلدون.

حدث ذلك سنة 319 هـ؛ وقد استسلم الراضي العاصمي على الفور وتنازل عن العرش؛ وكانت تلك هي نهاية حكم أسرته.[23]

والملاحظ أنه لا شيء، يشير إلى موافقة الأدارسة، ولربما كان لاستعجال الراضي علاقة بعدم صدق الولاء الذي تحدث عنه ابن خلدون. وكيفما كان الحال، فإن الناصر استولى على سبتة، حسب البكري، يوم الجمعة الأول من ربيع الأول سنة 319 هـ [25 مارس 931م] ويذكر ابن عذاري بأن الخطبة تليت باسم الناصر في الرابع من نفس الشهر.[24]

- سنة 946، وقبل أن يقبل بالسيادة على المغرب الأقصى، طالب الخليفة الأموي بقرطبة، بأن تسلم له طنجة بعد أن استولى على سبتة، وبأن يزيل حلفاؤه الأمراء الأدارسة الحموديين، التحصينات الموجودة بتطوان.[25] وقد لبى هؤلاء طلب الخليفة فدمرت تطوان.

- بعد ثلاث سنوات، أي في سنة 952، بعد استسلام طنجة وتدمير تطوان، قرر بني محمد إعادة بناء هذه الأخيرة للتعويض عن خسارة الأولى. لكن أهالي سبتة عارضوا هذا القرار، معلنين بأن ذلك سيشكل عائقا أمام ازدهار مدينتهم وسيسلبها كل امتيازاتها. وعند بلوغه

---

[23] Histoire des berbères, op. cit., p. 136 et 137 de la tr. Fr.

« Et naviguio Septam vaniens obtiniut ciutatem et de suis in ea principem Stabiluit (Roderici toletani, Historia arabum, cap. XXX, p .26.

« En el año tres cientos diez y nueve ocuparon las tropas de Abderahman las ciudades de Cebta y de tanja ».

[J. Conde, hist. De la dom. De los Arab. En Espana, t. 1er, p. 409]

وأنا لا أفهم لماذا ذكر كوندي طنجة. وسنرى فيما بعد كيف أن الناصر سيسيطر على هذه المدينة سنة 339 هـ أي 20 سنة فيما بعد. ويبدو ان خطأ كوندي مستمد من "القرطاس" الذي جاء فيه أن عبد الرحمن الناصر استولى على سبتة وطنجة سنة 349هـ، وهناك من يرجع تاريخ هذا الحدث إلى سنة 319 هـ [القرطاس، ص. 135 من الترجمة الفرنسية].

[24] Fournel, Les Berbèrs , t.2, p.171 à 173.

[25] لم أنتبه إلى هذه المعلومة الثمينة التي أوردها كل من ابن خلدون والبكري، عندما قدمت نبذة تاريخية عن تطوان. ويظهر أن المدينة أو بالأحرى حصنها، كان موجودا قبل سنة 1286م، وهي فترة تأسيسها المزعوم، كما أقر بذلك كتاب الاستقصا.

انظر بهذا الخصوص، الدراسة العلمية لفورنيل وفرضياته حول طنجة وسبتة وتطوان ضمن مؤلفه "الأمازيغ"، الجزء الثاني الصفحات من 294 إلى 302.

الخبر، أرسل الخليفة الأموي إلى سبتة ومن ثم إلى تطوان [أو ما بقي منها] جيشا لمحاربة الأدارسة وإذلالهم.

- في سنتي 959 و 960، دخل القائد الفاطمي جوهر إلى المغرب فاتحا واستولى على كل مدنه باستثناء سبتة وطنجة اللتين دافعت عنهما القوات الأموية.

- في سنتي 962 و 963، تم إصلاح تحصينات سبتة وإضافة أخرى من طرف الخليفة الأموي الجديد على الأندلس، وريث الناصر.

- سنة 971، أصبحت سبتة هي المدينة الوحيدة بإفريقيا، الخاضعة لأمويي الأندلس، وقد أجبرها الأمازيغ على أداء ضرائب "الخراج" و "اللوازم"؛ وهو ما طبق أيضا على أهالي مرسى موسى. [26]

"وكان هذا الميناء خاضعا للأمويين، لكنني أظن بانه سيصبح تحت سيطرة سيدنا". [27]

ويبين هذا المقطع لابن حوقل، بأن الفاطميين أصبحوا سادة طنجة وباقي المغرب، باستثناء سبتة التي ستشكل مركز عمليات الجيوش الأموية الغازية.

- سنة 979، لم يتجرأ بولغين، هذا القائد الفاطمي الذي أخضع جزءا كبيرا من المغرب لسيطرته، على محاصرة سبتة التي كانت محمية من طرف المقاتلين الأمويين والأمازيغ ومتوفرة على المؤونة الكافية.

- سنة 1016، أصبح المملوك سغوط البرغواطي الذي كان تابعا للأدارسة، مستقلا واعتلى عرش طنجة وسبتة.

- سنة 1083، حاصر المرابطون سبتة واستولوا عليها، وهو بمثابة إعلان عن نهاية سيادة الأدارسة على المغرب الأقصى.

---

(26) وهو ميناء صغير بين سبتة وطنجة، على بعد 8 أميال من ميناء باب اليم، الموجود على بعد 30 ميلا من طنجة [البكري].

(27) Ibn H'aukal, Description de l'Afrique, section 34 et 35, Journ. Asiat., tome 13, p. 189, 3ème série.

- في سنتي 1146 و 1147، حوصرت المدينة من طرف الموحدين الذين انتزعوها من أيادي المرابطين.

- في سنتي 1147 و 1148، تمرد أهالي سبتة على سلطة الموحدين وقتلوا الحاكم يوسف بن مخلوف وتحالفوا مع القائد المسفيوي المرابطي الذي كان حاكما على الجزيرة الخضراء [ابن خلدون، مذكور، الجزء الثاني، ص. 183].

وحسب رواية "القرطاس" [ص. 271]، فإن كل الموحدين المتواجدين بسبتة أبيدوا عن آخرهم وأحرق قادتهم أحياء.

- سنة 1148، قضى عبد المومن على مقاومة المتمردين بالمغرب الشمالي؛ فطلب منه أهالي سبتة الصفح عنهم، وهو ما استجاب له، لكنه اشترط عليهم تدمير أسوار المدينة، فأذعنوا للأمر [القرطاس، ص. 272].

- في سنتي 1161 و 1162 تم إصلاح تحصينات سبتة على ما يبدو، فقد أخبرنا المؤرخون العرب بأنه خلال سنة 557 هـ [1161 / 1162 م] أمر عبد المومن الموحدي بتحصين السواحل استعدادا لمحاربة النصارى برا وبحرا؛ وكلف أهالي سبتة والأهالي بموانئ الريف الأخرى ببناء 100 سفينة.

- سنة 1232، أعلن أبو موسى، أخ السلطان الموحدي، نفسه ملكا على سبتة. فحاصر المامون المدينة مدة ثلاثة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها. وبعد رفع الحصار اختار أبو موسى الخضوع لابن هود حاكم الأندلس وسلمه سبتة.

- سنة 1233، وبعد مرور ثلاثة أشهر على تسلمه سبتة، تعرض ابن هود للخيانة وتم تعويضه بأحد أتباعه وهو القائد الموحدي الينشتي الملقب بالموفق والذي سيصبح حاكما على سبتة لحسابه الخاص [القرطاس، ص .393].

- سنة 1234، انقطع حبل التحالف بين السلطان الراشد وجمهورية جنوة. ذلك أن هذه الأخيرة حاصرت سبتة ب 70 سفينة كبيرة و 20 سفينة شراعية و 30 مركبا أصغر منها، معتقدة أن المدينة خاضعة لسلطة الموحدين [انظر فيما بعد، تجارة سبتة خلال القرون الوسطى].

- سنة 1235، انسحب مقاتلو جنوة بعد حصار طويل وشديد، استعملوا فيه آليتهم الحربية الرهيبة ضد سبتة التي قاومتهم تحت قيادة الحاكم المستقل الموفق.[28]

واضطر أهالي المدينة إلى دفع أربع مائة ألف دينار كتعويض عن الحرب، من أجل أن يرفع عنهم الحصار. [29]

- في سنتي 1237و 1238، تمرد أهالي اشبيلية على سلطة ابن هود وبايعوا السلطان المغربي الراشد. وقد أرسل قائد التمرد أبو عمر بن الجد إلى إفريقيا، بعض أفراد عائلة الحجاج الذين شجعوا أهالي سبتة على الثورة لفائدة الراشد. وسيفقد الينشتي الذي كان قد تمرد هو أيضا على ابن هود، سلطته نتيجة ذلك.[30]

هكذا، سيعين الراشد الذي كان متواجدا بالمغرب آنذاك، المسمى أبا علي بن خلاص حاكما على سبتة.

[ابن خلدون، مرجع مذكور، الجزء الثاني، ص. 242 من الترجمة الفرنسية].

- في سنتي 1245 و 1246، بايع أهالي إشبيلية و سبتة أبا زكريا الحفصي ملكا عليهم. وقد أرسل ابن خلاص سفينة محملة بالهدايا، بقيادة ابنه، إلا أنها غرقت بميناء سبتة. [ابن خلدون، مذكور ، ص. 246].

- في سنتي 1249 و 1250، قاد أبو القاسم الأزفي انتفاضة بمدينة سبتة وطرد حاكمها الحفصي وأخضع أهاليها لسلطة الموحدين.

- سنة 1273، حاصر المرينيون المدينة التي اضطر أهاليها إلى أداء ضريبة سنوية لرفع الحصار عنهم.

---

[28] وليس ابن هود، كما يؤكد مرسيي. انظر:

"تاريخ إفريقيا الشمالية"، مرجع مذكور، الجزء الثاني، ص. 154.

[29] القرطاس، ص. 304 من الترجمة الفرنسية. ومن الواضح أن الراشد لم يؤد ولو فلسا واحدا، لفائدة أهالي مدينة لم تعترف بملكه. وقد أخطأ كل من مرسيي وإيلي دولبر يمدي، عندما أكدا بأن الخليفة الموحدي أجبر على أداء 400 ألف دينار. كما لا أفهم لماذا حول مرسيي هذا المبلغ إلى 40 ألف قطعة ذهبية. انظر:

الاستقصا، الجزء الأول، ص. 202 وماس لاتري، مذكور، ص. 151.

[30] سبق ان ذكرنا بأن الينشتي استقل بالحكم منذ سنة 1233.

- في سنتي 1278 و 1279، بايع أبناء الأزفي بسبتة، السلطان المريني وتخلوا له عن إمارتهم.

[ابن خلدون، مذكور، الجزء الرابع، ص. 159 من الترجمة الفرنسية].

- 13 ماي 1306، استولى أمير غرناطة على سبتة دون سابق إنذار.

- في شهر يونيو 1308، دمرت الجيوش المرينية نواحي سبتة وحاصرت المدينة.

21 يوليوز 1309، أمر السلطان المريني أبو الربيع القائد تاشفين بن يعقوب الوطاسي بمحاصرة سبتة. وما أن علم الأهالي بوصول الجيش المريني إلى أسوار المدينة، حتى هللوا فرحا وطردوا أتباع ابن الأحمر والموظفين العسكريين، المدنيين والعسكريين. [ابن خلدون، مذكور، الجزء الرابع، ص. 183 من الترجمة الفرنسية].

- في سنتي 1316 و 1317، أقام أحد أحفاد الأزفي حكومة مستقلة بسبتة، مكونة من أعيان المدينة. لكن في سنة 1319، تظاهر الأهالي بالولاء من جديد للسلطان المريني.

- في سنتي 1327 و 1328، قرر السلطان المريني أبو سعيد، القضاء نهائيا على أسرة الأزفي القوية، فقاد حملة عسكرية على سبتة لاسترجاع سلطته. وعلى الفور، بايعه الأهالي وسلموه كل أفراد هذه الأسرة. وبعد أن استولى على القلعة، قام أبو سعيد بإصلاح التحصينات وإعادة النظام إلى المناطق المجاورة.

هكذا، ستنتقل الإدارة إلى أيدي المرينيين. وسيمنح السلطان للشيوخ ولأعيان المدينة، المكافآت والهدايا. وقبل عودته إلى عاصمة ملكه، أمر ببناء مدينة على مرتفعات سبتة، وشرع في بناء المركز[31] المسمى أفراغ – ويعني المنتزه أو الساحة بالأمازيغية – وكان ذلك سنة 729 هـ [1328 – 1329].

[انظر ابن خلدون، مذكور، الجزء الرابع، ص 200 و 201 من الترجمة الفرنسية].

استيلاء البرتغاليين على سبتة

(31) يتعلق الأمر بأبيلا Abyla القديمة بجبل أشو، التي حولها السلطان إلى قلعة. [انظر، غودار، مذكور، ص. 381].

من المعلوم أن تاريخ سبتة ظل ما بين 1330 و 1415، مقترنا بالسياسة المرينية بالمغرب. فقد توالت محاصرة المدينة واستسلام أهاليها وتبدل حكامها، خلال هذه المرحلة المضطربة من تاريخ المغرب.

وكان "الكفار" يترقبون في خفاء، الأحداث الحاصلة بالمدينة. وقد بين أمين الخزينة البرتغالي للملك جوان الأول، بأن ما سينفقه للاستيلاء على مركز بأراضي المغاربة، أقل مما سينفقه على الحفلات وعلى التداريب العسكرية لأبنائه، الفرسان الثلاثة.

ويروي مارمول Marmol كيف أن هذه النصيحة راقت للملك، فقرر غزو سبتة. وبذريعة التزود بالمؤونة، رست سفينتان برتغاليتان بميناء سبتة وتمت من فوق ظهرها، معاينة تحصينات المدينة. وفي نفس الوقت، أمر جوان بصناعة بعض السفن واشترى أخرى من قشتالة والفلاندر وإنجلترا، ثم قام بتجميع الجيوش بلشبونة.

هكذا، انتشر الخبر في جميع أرجاء أروبا، باستعداد البرتغال للقيام بحملة صليبية ضد "الكفار" فانخرط فرسان فرنسيون وإنجليز، بأعداد كبيرة، في الجيش النصراني.

وبتاريخ 14 غشت 1415، توجه الأسطول البرتغالي المكون من 200 سفينة شراعية [32] وعلى متنها 20 ألف رجل، إلى سبتة. وتظاهر الملك بمهاجمة القصر؛ وبينما كان المغاربة منشغلين بمواجهته هناك، احتلت جيوشه مدخل الميناء.

وفي نفس اليوم[33] تم غزو المدينة بعد معارك ضارية بالأزقة وبباب فاس التي تخندق بها المغاربة. وقد قتلوا أو أسروا في غالبيتهم وفر بعضهم إلى الجبال رفقة الحاكم صلاح بن صلاح.

ونهبت المنازل التي كان طعام العشاء ما يزال موجودا بها؛ وكانت الغنائم وفيرة. وفي الغد، احتفل الملك جوان بتنصيب أبنائه الثلاثة فرسانا، وذلك بالمسجد الرئيسي للمدينة، الذي تحول إلى كنيسة. وبهذه المناسبة، افتتح أحد الرهبان المرافقين للجنود، خطبته بعبارة مستعارة من القيصر وهي: Venis vidi et Deus vicit. [34]

---

[32] Cronicas del rey, D. IOAM, in-4, Lisboa, 1643, p. 335.

[33] تحدث رونو Renou عن تاريخ 21 غشت وليس 14 منه. انظر، الوصف الجغرافي للمغرب، ص. 300

[34] De la Primaudaie, villes maritimes du Maroc, Revue Africaine, n° 93

ويقدم لنا مؤلف "نشر المثاني" روايتين عن استيلاء البرتغاليين على سبتة. وتبدو الأولى خيالية ولا يمكن للمرء تصديقها، حيث جاء فيها أن التجار البرتغاليين أدخلوا إلى المدينة صناديق ضخمة، يختبئ بها حوالي 4 ألف مقاتل من جنود الملك جوان الأول.
وفي الرواية الثانية التي لا تختلف كثيرا عن الأولى، يشير المؤلف إلى أن سبب القطيعة بين الملك البرتغالي والبلاط المريني، يرجع إلى عجرفة التجار البرتغاليين الذين سمحوا لأنفسهم، في فترة السلم، باحتكار كل المعاملات التجارية بالميناء، فضلا عن ضريبة سنوية يقتطعونها من الأهالي المسلمين.[35]

- سنة 1418، حاصر سلطان فاس وأمير غرناطة المدينة برا وبحرا، لكن بدون جدوى.

- سنة 1458، هاجم البرتغاليون بأسطولهم الحربي القصر الصغير أو قصر مصمودة واستولوا على هذا المركز البحري الشهير، الواقع بين طنجة وسبتة. غير أن المنتصرين لم يستفيدوا من ملكيتهم الجديدة، وسيتخلون عنها بعد 82 سنة من الاحتلال، وكان ذلك في عهد الملك جوان الثالث. [36]

احتلال إسبانيا لسبتة

تعتبر سنة 1580 كارثية بالنسبة للبرتغال ومثيرة بالنسبة لإسبانيا التي ستستحوذ على المستعمرات الشاسعة لبلد فاسكو دي غاما Vasco de Gama.
هكذا ستنتقل سبتة التي انتزعها البرتغاليون بقوة من المغاربة، إلى القشتاليين بسهولة في اليوم الذي أصبح فيه فيليب الثاني الإسباني، ملكا على شبه الجزيرة الإيبيرية برمتها.
وبعد مرور 60 سنة، أي في عام 1640 استقلت البرتغال من جديد، لكن سبتة ظلت بيد الإسبان الذين استولوا عليها نهائيا، نتيجة معاهدة سنة 1668.

---

[35] مذكور في الصفحة 147 من كتاب الاسقصا، ا لجزء الثاني.

ويدعي المؤلف بأن البرتغاليين حاصروا المدينة مدة 6 سنوات ! وحسب زعمه، فإن هذه المعلومة توجد في بعض الكتب التاريخية [نفس المرجع، ص. 153].

[36] Renau, Description géographique de l'Empire du Maroc, p. 299 et 300.

,سواء كانت خاضعة للإسبان أو للبرتغاليين، فإن سبتة ظلت تؤرق السلاطين المغاربة. فقد كانت فكرة تحرير سبتة وانتزاعها من أيدي النصارى، حلم كل مؤمن يبتغي جزاء الدنيا والآخرة. وقد سبق لأحمد النقسيس سنة 1588، أن فاجأ النصارى الذين خرجوا للاحتفال بعيدا عن أسوار المدينة برجالهم ونسائهم وأطفالهم وخدمهم. وكاد المسلمون إثر ذلك، أن يسترجعوا المدينة.

[الاستقصا، الجزء الثالث، ص. 57].

- في أكتوبر 1693، قاد السلطان مولاي إسماعيل حملة على سبتة بجيش قوامه 30 ألف مغربي.[37] ولم يكن الإسبان يتوفرون إلا على 600 جندي من المشاة و 80 فارسا و 60 من المدفعيين وبعض المتطوعين المدنيين والمنفيين. وتم تسليح الجميع بمن فيهم الرهبان والقساوسة الذين شكلوا فرقة من 120 رجل دين، مستعدين لقتل أعدائهم من المسلمين.

ورغم تخلي إسبانيا عنها، فإن المدينة قاومت وصدت كل الهجومات، ولم يتمكن الشريف من دخولها بل اكتفى بحصارها. "هكذا، أقام مخيما محصنا على بعد عدة كيلومترات من سبتة وبنى به منازل للضباط وبيوتا للجنود. وعندما اندلعت حرب الخلافة سنة 1701، بعد موت ملك إسبانيا شارل الثاني، اعتبر مولاي إسماعيل الفرصة سانحة للقيام بمحاولة جديدة. لكن الحصار الثاني لم يؤد بدوره إلى أية نتيجة. وبعد عدة هجومات غير مجدية، قرر الشريف الإبقاء على الحصار. هكذا، تناوب الحرس العبيد، مرتين في السنة بالمخيم المحصن، كما أن مخازنية الأقاليم أمروا بالتناوب على حراسته، على مدى شهر بالنسبة لكل إقليم؛ وكان يهود تطوان يمدونهم بما يحتاجونه من بارود لم يكن ذا فائدة في أغلب الأحيان. [38]

وكان بإمكان القائد المسلم الاستيلاء على مدينة سبتة، لكن هذا المقاتل العملي، المدعو عليا بن عبد الله، كان يريد إطالة الحرب والحصار: "فقد كان يجبر الجنود العرب على فلاحة الأرض التي كانت تقيم بها قواته المحاصرة للمدينة. وكان نفس الجنود يقومون بالحصاد ويجنون العنب ويقدمون المحاصيل إلى قائدهم. وحينما أخطر سلطان المغرب بإيفاد فرقة من

[37] حسب المؤرخين العرب، فإن المجاهدين الذين كان عددهم 25 ألفا، حاصروا المدينة في غياب السلطان. انظر: الترجمان، ص. 43؛ والاستقصا، الجزء الرابع، ص. 37.

[38] E. de la Primaudaie, Les Villes maritimes du Maroc, Revue africaine, n° 93, 1872.

العبيد لتعزيز الحصار، نبه سرا حكومة سبتة ودعاها إلى أخذ كل الاحتياطات.[39] ولم يكن السلطان غافلا عن هذا السلوك غير العادي لقادته العسكريين وإن كان غير متيقن من خيانتهم "فقد كان يؤاخذهم على عدم الإسراع في السيطرة على المدينة، للقيام بحملات جديدة".

[الترجمان، ص. 43 من الترجمة الفرنسية].

ولم تغير وفاة القائد / الفلاح، علي بن عبد الله، التي لم يحدد المؤرخون تاريخ وقوعها بالضبط، من واقع الأمر شيئا. فقبل وفاته، سلم مقاليد قيادة الجيش المغربي لابنه أحمد الذي سيسير على نهج والده. وسيبقي الحصار قائما بالشكل الذي كان عليه من قبل. ولذلك، دام حصار سبتة 27 سنة، أي إلى حدود سنة 1721 !

ولربما طال أمده أكثر، لو لم يرسل القشتاليون الذي استفاقوا من غفوتهم في الأخير، أسطولا حربيا بقيادة المركيز ليفيس Leves، لرفع الحصار عن المدينة. وقد اشتبك الجنود الإسبان مع الجنود المغاربة وطردوهم من خنادقهم ومزارعهم، فاضطر هؤلاء إلى مغادرتها واستقروا بوديان سييرا بولون Sierra Bullone؛ وغنم الإسبان من جراء ذلك 4 رايات و 27 مدفعا وذخيرة كثيرة.

- سنة 1732، قدم المغامر الهولندي الأصل ريبردا Ripperda، وهو وزير سابق للشؤون الخارجية والمالية لإسبانيا، خدماته للسفاح عبد الله بن إسماعيل. وقد هزم بتاريخ 17 أكتوبر من طرف الإسبان وفقد 3 آلاف من رجاله وفر شبه عار من المجزرة ولجأ إلى تطوان حيث قضى بقية حياته إلى أن توفي سنة 1737 تاركا أبناء عديدين من الموريسكيات اللواتي تزوجهن؛ وكان هؤلاء الأبناء معروفين باسم أولاد الكوندي.[40]

ولم يتحدث الاستقصا عن هذا الحصار ولا عن ريبردا. ومن جهته، أكد شينيي Chénier بأن الدوق دو ريبردا، فكر فقط في مشروع محاصرة سبتة لكنه لم يكن قائدا على الجيوش المغربية؛ وأضاف قائلا: "ومهما يكن، فإن الدوق لم يكن مسلما". ويشير كستيانوس

[39] T. Marmol, Relation de trois voyages faits dans les états du rey de Maroc pour la rédemption des captifs en 1704, 1708 et 1712, p. 342/344.

[40] E. de la Primaudaie, E. Pellissier, Guttierrez, Historia de España et Castellanos.

castellanos، انطلاقا من رواية لغوتيريس Guttieriez، بأن ريبردا اعتنق الإسلام وأصبح اسمه سيدي عصمان [ص.262] .

وأخيرا، فإن فولتير قال عنه، إنه ذهب إلى مملكة المغرب لقضاء بقية حياته وهناك حاول إقرار ديانة جديدة.

[Voltaire, œuvres complètes, t. 4, in-8, Paris, 1846, p. 314 ; Précis du siècle de Louis XV] .

- في سنتي 1759 و 1760، وعند مرور السلطان سيدي محمد بن عبد الله قرب سبتة على رأس فرقة من جيوشه، أمر بإطلاق عيارات نارية من البارود فقط تجاه المدينة، فرد الإسبان على هذا السلوك "اللطيف" بوابل من قنابل المدفعية"حتى تزلزلت الأرض"، كما يقول الاستقصا [الجزء الرابع، ص. 95].

- سنة 1790 وعلى مدى أربعة عشر شهرا، أي من بداية شتنبر 1790 إلى 7 نوفمبر 1791، ردت سبتة على كل هجومات الجيش المغربي الذي كان يقوده السلطان اليزيد بن محمد والذي كان يقتل أعداءه من الإسبان ويعلق رؤوسهم وأرجلهم بأبواب المدن البحرية للمملكة.

- تجارة سبتة في العصور الوسطى:

بالرغم من كون المبادلات التجارية منعدمة تقريبا بسبتة في الوقت الحالي، إلا أنها كانت مزدهرة في الفترات الماضية التي كان فيها النصارى والمسلمون يقتتلون فيما بينهم، في كل وقت وحين، لنصرة دينهم.

والأمر الغريب هو أن الحروب المتتالية وفظائع القرون الوسطى لم تلغ المبادلات التجارية بين المؤمنين المنتمين للديانتين المتناحرتين، بل يمكننا القول – وهذه مفارقة – إنه كلما ازدادت العداوة، كلما شعر أتباع محمد وعيسى [عليهما السلام] بالحاجة إلى التقارب فيما بينهم، على المستوى التجاري، خصوصا في فترة استراحة المحاربين.

فمنذ القرن العاشر الميلادي، كان الحوض المرجاني لطنجة يشتغل بشكل منتظم. وعلى الرغم من كونه أقل جودة من مرجان تينيث Tenez وتابركا Tabarca إلا انه كان يباع بالأسواق والموانئ الإيطالية والإسبانية.

وكانت جنوة Gênes ترسل في سنة 1150، بضائعها إلى كل شواطئ البرابر؛ وطبعا كانت سفنها تصل بانتظام إلى ميناء سبتة.

في 15 نوفمبر 1186، منح السلطان يعقوب لتجار بيزة Les Pisans ترخيصا تجاريا يفتح لهم أبواب سبتة ووهران وبجاية وتونس، حيث مارسوا عمليات التصدير والاستيراد.

وفي سنة 1210، ربط تجار جنوة والبروفانس علاقات مع بجاية وسبتة، كما قامت السفن الكتلانية سنة 1227 بمبادلات تجارية مع هذه الأخيرة.

وعند بداية القرن الثالث عشر، كانت سبتة في أوج ازدهارها التجاري والعسكري. ويبدو أن السلطان المأمون مات غما بسبب فقدان "هذا المركز الهام الذي يتحكم في خطوط المواصلات بين إسبانيا والمغرب وحيث توجد أهم مدينة تجارية بالمملكة".[41]

من جهتها، فإن إسبانيا كانت تتحين الفرص للاستيلاء على هذه المدينة المفتاح بالنسبة للمضيق. ولذلك قامت بحملة صليبية وهيأت أسطولا حربيا توجه إلى سبتة في النصف الثاني من شهر غشت 1234.

وهناك وقع حدث لا يصدق، بحيث لم يهرع المسلمون فقط للدفاع إن المدينة، بل عن التجار القادمين من جنوة والذين كان لهم وزن كبير داخل سبتة، اتفقوا مع الحكومة على المشاركة في عملية الدفاع لكن بشروط.

هكذا وبشكل مثير، سيقوم نصارى جنوة بمساعدة نصارى مدن تجارية أخرى، بتهييء 28 سفينة حربية وسيتم تهديد الأسطول الإسباني الصليبي بالإحراق إذا لم يتراجع. وبالفعل، تراجعت السفن القشتالية أمام التحالف الإيطالي المغربي.

وبعد أن تنفست سبتة الصعداء، طالب تجار جنوة من الحكومة المغربية تعويضات عن الخسائر التي ألحقها الصليبيون الإسبان بتجارتهم، فرفض حاكم سبتة هذا الطلب. ولما ألح النصارى، قام المسلمون بإحراق متاجرهم. عندئذ بادرت إيطاليا إلى مساندة تجارها وأرسلت أسطولا حربيا، حاصر المدينة بدوره، لعدة شهور [ما بين 1234 و 1235]. ولم يبتعد الأسطول إلا بعد أن أدت سبتة، تعويضا عن الحرب قدره 400 ألف دينار ذهبي أي ما يعادل 4 مليون فرنك. وكان تجار مرسيليا من جهتهم، يمتلكون فندقا خارج المدينة

---

[41] Mas Latrie, Relat. et comm. De l’Afr. Sep. Au moyen âge.

الإسلامية، أي في الضواحي التي توجد بها مخازن تجار جنوة وبيزة. "وكانت القوانين البلدية تنظم نقل خمور مرسيليا إلى فنادق سبتة وبجاية وتونس ووهران، حيث تباع هذه الخمور بالجملة وبالتقسيط، تبعا للقوانين المنظمة لهذه التجارة. وكان المسلمون والنصارى يقتنون ما يحتاجونه منها، بشكل علني". [42]

وكان الأروبيون يأتون بالمعادن والأجواخ والكتان والأثواب الرفيعة وحبال السفن وصواريها والحلي ومواد أخرى مصنعة؛ وبالمقابل، كان المغاربة يزودون النصارى بمنتوجات الأرض والمواشي ، كالصوف والجلود والشمع والملح والقمح. فقد كانت زراعة قصب السكر قائمة بالمغرب إلى حدود القرن السادس عشر. وكانت مزارع سوس وسبتة متميزة بجودتها ووفرتها.

ويعتبر استيلاء البرتغال على سبتة سنة 1415، بمثابة الإعلان عن موت التجارة بهذه المدينة التي ستصبح مجرد ملجأ للمنفيين ومركزا للعمليات العسكرية. وستظل كذلك إلى يومنا هذا، بعد سقوطها بأيدي الإسبان.

فلماذا كانت سبتة الإسلامية مركزا نشيطا للتبادل التجاري؟ ولماذا أصبحت سبتة النصرانية ثكنة وسجنا وكئيبا؟

لأن إسبانيا لم تتبن أبدا سياسة تجارية حقيقية تجاه إفريقيا، ولأن هدفها الديني المتعصب، يجعل طموحاتها الاستعمارية محدودة الأفق، مما يؤثر سلبا على مصالحها المادية. ففي بلاد الأمازيغ، ظلت توجهاتها كما هي منذ عصر كسيمنيس Ximenes وشارل كينت Charles-Quint؛ ونقصد بذلك، الرغبة في تدمير الإسلام وإنشاء الكنائس على أنقاض المساجد وعدم الارتباط ب"الكفار" ما لم يتنصروا.

وهذا هو القيد الحديدي الذي يكبل أيادي المسؤولين عن مصير شبه الجزيرة الإيبيرية؛ وهو الحاجز الذي يخاطبهم قائلا: "إنكم لن تذهبوا بعيد !".[43]

---

[42] نفس المرجع والصفحة.

[43] لقد قررت عدم الخوض في التاريخ الديني للمؤسسات البرتغالية والإسبانية بالمغرب، وهو عمل دقيق وكئيب، لا أملك الوقت ولا الجرأة للقيام به.

فتحليل مشاعر البطولة والجبن والتضحية والهمجية والإحسان والتسامح والتعصب، التي استبدت بنفوس النصارى والمسلمين في أرض المغرب الحارقة يعتبر شيئا معقدا، ولكنه ليس بالأمر المستحيل. ولربما اكتسب قيمة كبيرة، لو قام به باحث فيلسوف، يتوج من خلاله منجزات العلوم المهتمة بتاريخ الأديان.

قبيلة حوز تيطاون

يقدم لنا الساحل المتوسطي بين سبتة وتطوان، منظرا متنوعا يشمل الأجراف والخضرة والنباتات المتوفرة بكثرة بين الصخور والأبراج المهدمة التي تذكر بمواقع القراصنة المغاربة القدامى، والخلجان التي تصب فيها مياه الوديان.

ويشغل حوز تيطاون جزءا هاما من هذا الساحل؛ ولربما كان هو الجزء الأكثر تشعبا، لأن الدرويش تاه فيه، خلال إحدى جولاته واضطر إلى المبيت فوق إحدى التلال، حيث كانت تصله أصداء الأمواج المتدفقة على الشاطئ. وقد وجده بعض الرعاة الذين كانوا يتسلقون الصخور بخفة رائعة، في فجر الغد، وصاح أحدهم عندما رآه:

- انظروا، يوجد "إسلامي" هنا.

ويقصدون بذلك، بأنه سجين إسباني محكوم عليه بالأشغال الشاقة؛ وقد فر من سجن سبتة وجاء إلى المنطقة لاعتناق الإسلام. وعندما يلتقي الرعاة بهؤلاء السجناء البئيسين، فإنهم يجردونهم من ملابسهم، فيضطر هؤلاء إلى متابعة سيرهم وهم عراة، حتى يصلوا إلى أول قرية، حيث يستقبلون بحفاوة.

هكذا، تحلق حول الدرويش حوالي عشرة أشخاص، تتراوح أعمارهم ما بين 18 و 25 سنة وسألوه من أين أتى فأجابهم:

- من تيطاون، وكنت متوجها إلى أنجرة، لكنني تهت في الطريق.

وتبين من خلال عباراته المنتقاة ولهجته، بأنه طالب؛ لذلك لم يعتد عليه الرعاة بإشباعه ضربا، بل طلبوا منه بأدب أن يتخلى عن أفضل ملابسه؛ وبأدب جم أيضا أرشدوه إلى مكانه المقصود، فتركهم وهو يدعو لهم بالخير.

وبقرية القطوف التي استقر بها، فحص رحالتنا القبيلة وتعرف على عاداتها. فمساحة حوز تيطاون لا تتعدى ثلاث ساعات مشيا من كل الجهات؛ وأرضها صخرية، أما دواويرها فهي مليئة بالسكان وتوجد أغلبها قرب البحر. وبها بساتين البرتقال والرمان والسفرجل والعنب والليمون وأيضا حقول القمح والفول والقطن والقنب الهندي؛ كما يتميز مناخها بدفئه صيفا ورطوبته شتاء.

ومن أهم الحرف التي يمارسها الرجال، الخياطة والحياكة. ويتألف طعام الأهالي من السمك ولحم العجول والماعز. وهناك العديد من المنابع المائية التي تمد حوض واد بوصفيحة الذي يسقي القبيلة من جهة بني حوزمر. أما عمل المرأة فيتوزع كما يلي:

1) صناعة الخزف، حيث كانت العديد من الأسر تنشط في هذا المجال.
2) الدعارة العلنية بتطوان التي كانت وجهة العديد من المومسات القادمات من حوز تيطاون والقبائل المجاورة لها.

لكن علينا ألا نلوم هاته العربيات البئيسات، لأنه يوجد بالمقابل، عشرات الآلاف من النصرانيات واليهوديات اللواتي يمارسن أقدم مهنة في العالم.

ومن طنجة إلى غمارة، وخصوصا على طول الساحل، يلاحظ بأن العادات غير متشددة، فالنساء والفتيات يخرجن بدون حجاب ويضعن فقط مناديل قطنية متعددة الألوان فوق

رؤوسهن، بحيث تغطي شعرهن وتتدلى فوق أكتافهن. كما يضعن فوطة من القطن على ظهرهن وهي طويلة وتصل إلى كاعبهن.

وتستخدم هذه الفوطة في عدة أمور، فهي توضع على الأرض للجلوس وتقي الجسم من الأشواك عندما تعود هاته النسوة المجدات من الغابة وهن يحملن على أكتافهن أكوام الحطب؛ وتقي من تسرب المياه التي تسيل من الجرات والقرب، عند العودة من المنبع أو الغدير.

ـ النسوانية الإسلامية:

رغم كل ما قاله بيرون Perron [(1)] وأتباعه من أشباه المستعربين والسوسيولوجيين الذين ساروا على نهج المدير السابق لكلية الطب بمصر، فإن المرأة المسلمة مازالت هي المتحكمة في بيتها كما كان الأمر عليه في العصر العباسي، بل وفي العصر الجاهلي.

لكن الشيء المؤكد هو أن سلطتها لم تظهر أمام الملأ أي خارج المنزل. وبالفعل، فإن ظاهرة الانغلاق في المجتمع الإسلامي تتنافى مع ما تعودنا عليه في أروبا، من حفلات راقصة ولقاءات يختلط فيها الجنسان بحميمية ويتلامسان ويلاحظ بعضهما بعضا. فالمرأة المغربية، العربية أو الأمازيغية، تختفي وراء أسوار منزلها وحجابها ولا تبدو إلا لأولئك الذين يعيشون معها، أي زوجها وإخوتها وأقاربها.

وإلى حد الساعة، لم يتجرأ أي واحد على كشف أسرار الحريم، سواء في خطاب أمام الملأ أو في عمل مسرحي أو ضمن الصفحات الساخنة لرواية حول العادات الشرقية. لذلك اضطر علماؤنا في النفس إلى دراسة المرأة العربية، استنادا على ما يوجد في الكتب العربية وحدها أو باللجوء إلى معلومات مستقاة من المومسات الجزائريات والتونسيات. فأولئك الذين نهلوا من الأدب الإسلامي، قدموا لنا نماذج استثنائية عن شاعرات وفنانات وأديبات. أما الآخرون، فقدموا لنا انطباعات حول الفتيات المتهتكات بشمال إفريقيا؛ وهذا أيضا استثناء لا يعزز أطروحاتهم.

وبخصوص تأثير المرأة في المجتمع الإسلامي، فنحن لا نجد الشيء الكثير في الأدب العربي، لأن الكتاب المسلمين تفادوا إزالة الحجاب عن الحياة الخاصة للنساء. وعندما يتم الحديث عن المرأة، فإن الأمر يتعلق غالبا إما بجارية أو بولية صالحة. طبعا، فإن لهذا

[(1)] Les femmes arabes avant et depuis l’islamisme, in-8 Paris et Alger, 1858.

الجانب الأخير أهميته في الدراسات النسائية، لكنه يظل محدودا، لأن النساء المتشددات في ورعهن bigotes يشكلن الأقلية.[2]

إن أبحاث المنشغلين بالظواهر الإفريقية Africanistes تضمنت الكثير من العيوب، لذلك توصلت إلى النتائج المتداولة وسط المسيحيين والتي تدين وضعية المرأة المسلمة بالمطلق، حيث يتم تشبيهها بالحيوان الأليف، باعتبارها أيضا لا تصلح إلا للاستمتاع، أما تأثيرها المعنوي فلا وجود له ! وسيضيف الطبيب بيرون، معززا هذا التصور المتشائم، بنبرة حماسية:

"أكرر بأن المرأة العربية تتضاءل تدريجيا، إلى حد أنها لن تعني شيئا في المستقبل".[3]

فلنترك هذا المنظر الذي درس المرأة البدوية من خلال الصفحات المغبرة للمخطوطات القديمة. ولنبتعد عن هذه الانتقادات البئيسة الصادرة عن بيرون وأتباعه الذين لم يختلف حديثهم حول المرأة المسلمة، عن حديث العامة. ولنباشر الموضوع انطلاقا من أمثلة، تبين كيف أن المرأة المسلمة داخل الطبقات الكادحة بالمجتمعات الإسلامية، تؤثر بشكل كبير على محيطها، مثلما هو الشأن بالنسبة لزوجة العامل المسيحي. وإذا كنت قد اخترت عن قصد، عالم الكادحين، فلأنه يشكل الغالبية المنتجة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني [اقتصادية وتناسلية الخ...]. وكما هو معلوم، فإن الأغنياء لا يشكلون سوى فئة قليلة، مقارنة بهذا العدد الهائل من الكادحين.

فعلى بعد بضعة أميال من عين البيضة بدائرة قسطنطينة، توجد قبيلة عربية تدعى أولاد داوود؛ احتفظت شخصيا بذكريات طيبة عنها. فقد كان الفلاح المتواضع سي أحمد بن الطيب يحظى بسمعة محترمة في الدوار المكون من حوالي عشرين خيمة. وكان جميع أفراد عائلته من أبناء وبنات و كنات واحفاد، يعيشون متآلفين ومتعاونين ومتحابين، بحيث كانوا يشكلون نموذجا رائعا للعائلة الأبوية كما أحبها.

[2] من المؤكد أن الأبحاث المتعلقة بصلحاء الإسلام، تتضمن مفاجآت كثيرة بالنسبة للنسائيين. انظر بهذا الخصوص، المقال الجميل لإنياس غولدزيهر Ignace Goldziher وعنوانه: "طقوس تقديس الأولياء عند المسلمين"، مجلة تاريخ الأديان، المجلد الثاني، باريس 1880، حيث تم توجيه انتقادات دقيقة لآراء بيرون المبالغ فيها.

[3] لقد تم التعبير عن هذه الفكرة"الثمينة" في الصفحة 603 من مؤلف "النساء العربيات".

وعندما وصلت سنة 1874 إلى هذا الوسط العربي لأتعلم أصعب لغة على وجه الأرض، حاملا معي رسالة توصية من أستاذي المرحوم نابليون سنييط Napoléon Seignette[4] استقبلت بحفاوة من طرف الأهالي الكرماء، كشاب غير مجرب، أي بصدق وتلقائية، كقريب وليس فقط كصديق. لقد فتح لي أولئك الأعزاء أبوابهم، ولن أنسى كرمهم رغم مرور ربع قرن على انفصالي عنهم. وكانوا بالنسبة لي، مرشدين ومستشارين متنورين وإخوة، رغم اختلاف العرق والدين. ولكم تمتاز هذه الخيام العربية بغناها؛ فهي تعج بالكنوز التي تتطلب متابعة دقيقة من طرف الباحثين. وقد اندمجت كلية مع الأهالي، حيث كنت أهتم بما يقومون به من زراعة وتربية للمواشي وحياكة وجز لصوف الأغنام وإخصاء للثيران وطبخ ورعي وحرث وصلاة ووضوء وتنظيف رأس الشيخ ا لوقور سي أحمد من البراغيث، وهي المهمة التي كان يقوم بها أبناؤه البالغين سن الثلاثين أو الأربعين؛ والسهرات الليلية والنقاشات التي لا تنتهي بين النساء والرجال. تلك هي الصورة الجميلة والواضحة التي أستحضرها عن مقامي هناك، مدة ثلاثة أشهر. وكانت تدير شؤون العائلة "جنية طيبة". وسأعلم لاحقا بأنها هي التي أعطت موافقتها لقبولي كضيف.

وقد كان اسم هذه العجوز الورعة زوجة الشيخ، خضرا الأم المبجلة من طرف الأبناء والربائب. ولم يكن سي أحمد يتخذ أي قرار يهم العائلة دون مشاورة "ملكة" الدوار التي تسير كل شيء بصرامة؛ ويكفي أن تصدر عنها تقطيبة جبين حتى يمتثل كل واحد للأوامر.

وفي إحدى الليالي، كنا مخيمين على منحدر تلة. وفجأة هبت عاصفة رهيبة، فذعرت المواشي بسبب الرعد والأمطار ودخلت إلى الخيام، حيث رفست النائمين وأسقطت الواقفين أرضا. وكانت الخيام مهددة بالسيول، فهرعت النساء إلى الخارج وهن يحتضن أطفالهن ويصرخن وكأن القيامة قامت. وقرر الرجال الذهاب إلى البرج القديم، المهجور حاليا، والذي كان يسكنه سنييط من قبل؛ وهو يبعد بحوالي ثلاثة كيلومترات. وتمت المناداة على سي أحمد ليلتحق بالجميع؛ وطلب منه الأبناء مغادرة خيمته قائلين:

- هيا يا سيدي، لنذهب إلى البرج،إن الطوفان سيأتي على كل شيء.

---

[4] توفي بسفاقص سنة 1884؛ وهو من ترجم سيدي خليل إلى الفرنسية. وقد صدرت الترجمة بقسطنطينة وباريس سنة1878.

فأجابهم الشيخ بهدوء:

- لا تستعجلوا الأمر يا أبنائي، إن خضرا تصلي الآن وحالما تنتهي من صلاتها، فإنها ستخبركم بما يجب فعله.

وبقينا ننتظر واقفين تحت هدير الرعد وسيول المطر، وفجأة ظهرت خضرا من تحت ضوء البروق وخاطبت الحشد قائلة:

-ارجعوا إلى خيامكم ولا تغادروها؛ فستتوقف العاصفة عما قريب إن شاء الله.

وبينما كانت تتكلم، كنت أتابع حركات يدها الموجهة نحونا، كسيدة متعودة على التحكم في مجتمعها. وبعد مرور ربع ساعة، كنا ننام قريري العين داخل الخيام التي أمرتنا سيدة أمية بالعودة إليها على وجه السرعة.

والمصادفة العجيبة هي أنه على بعد عشرة كيلومترات، يوجد دوار آخر تتمتع فيه امرأة بدوية عجوز، بنفس سلطات خضرا المبجلة من طرف ذويها. وأريد الآن، إبداء ملاحظة ذات أهمية كبيرة. فلم يحدث خلال مقامي وسط الأهالي، أن سمعت صراخا أو نزاعا أو صراعا داخل الأسر العشرين المحيطة بي. فقد كان كل واحد يقوم بمهامه وفق النظام المحدد منذ الأزمنة الغابرة.

وفي المساء، يتحلق الجميع حول خيمتي التي أصبحت ملتقى كل الأهالي، رجالا ونساء وأطفالا، حيث كنا نتبادل أطراف الحديث ونسمع حكايات ترويها بعض النساء وحكما يتلفظ بها البعض الآخر.

طبعا، لا يمكن أن نستنتج من ذلك، بأن كل الأزواج المسلمين هم نموذج للصبر والطيبوبة واللطف. كلا، إلا أنني أؤكد مع ذلك، بأنهم ليسوا أفضل ولا أسوأ من قروبينا، وأضيف دون مبالغة، بأن المسلم الذي يكتفي بشرب الماء، هو زوج أفضل ألف مرة، من العامل السكير بمدننا الصناعية الكبرى.(5)

والآن، لننتقل من البداية إلى مدارس المدن ولنغادر المنطقة الإفريقية الخاضعة لفرنسا، حيث ينعدم تعليم المرأة العربية، متوجهين نحو المغرب. وأدعوكم إلى زيارة فاس، العاصمة العلمية لهذا البلد.

---

(5) أحيلكم على ما قلته عن المرأة الريفية في الجزء الأول من هذا الكتاب، مذكور ، ص. 140

ونحن نحتاج إلى مرشدCicérone، كي نتمكن من التجول بمدينة مولاي إدريس المبجلة؛ ذلك أن ملابسنا "الرومية" ستثير حذر الأهالي ولربما حقد المتعصبين منهم؛ هذا دون الحديث عن الأبواب التي ستغلق بشكل مدوي أمام لحيتنا المقصوصة على الطريقة الأروبية. ولحسن الحظ، حصلنا على المرشد المناسب لنا. وهو رجل مسلم داكن السمرة، اسمه سي أحمد السنوسي. وقد رغب هذا الطالب القديم في مرافقتنا؛ وهو راوية شعبي وشاعر غزير العطاء ويتميز بطريقة مذهلة في ارتجال الأشعار.

ويقيم سي أحمد بفاس منذ 12 سنة، لذلك فهو يعرف كل أزقتها وعاداتها وتقاليد ومزاج سكانها. ولأننا عارفون بعض الشيء باللغة العربية، فإنه اهتم بالحوار معنا بحسن نية، وقدم لنا معلومات ثمينة عن تجربته وملاحظاته. فلنستمع إليه وهو يتحدث بتلقائية:

"أنا عبد ربي أحمد بن السنوسي، قريت في فاس مدة اثني عشر سنة ورأيت فيها امرأة يقال لها العالية بنت السي الطيب بن كيران، تقرينا في فن المنطق في جامع الأندلس، وبيننا وبينها حجاب، كنا نسمعها ولا نراها؛ أما علمها فكان وافرا لا حد له في كل فن؛ وأما حفظ القرآن فهي أكثر حفظا من نساء المدينة، لأن نساء فاس أكثرهن يقرأن المصحف العظيم؛ ولالة العالية تفوقهن بزيادة العلوم المعقولية.

وكنا نقراو عليها وهي دهشتنا بعظم علمها. وأما علم الأدب فنساء فاس فايقات فيه، خصوصا أشعار الإمام الغرناطي. والعالية كانت تقري الطلبة لوجه الله وكانت تقري الرجال وقت الظهر والنساء تقريهن بعد صلاة العصر وتقريهن[6] في الجرومية بشرح الأزهاري".[7]

وقد اندهش هذا المتعلم المسلم من الفكرة التي لدينا بأروبا حول المرأة المسلمة وأنشد هذه الأبيات:

يا عجبا من عدم امتثال الناس

للنساء يدرسن بفاس

---

[6] هذا نموذج للغة المتعلمين بشمال غرب إفريقيا، فباستثناء بعض الأخطاء النحوية، نرى كيف يقترب الخطاب من اللغة العربية الفصحى ويبتعد عن اللغة العربية الدارجة.

[7] إن سي أحمد بن السنوسي الذي أمدني بهذه العلومات، هو من ناحية مسكارة. ورغم بلوغه سن الأربعين، فإنه مازال طالبا. وقد كلف مؤخرا بإعطاء درس غير مؤدى عنه، في الأدب العربي بالجامع الكبير بوهران.

للعالية المشهورة بابن كيران

كل النساء يحفظن القرآن

تصوروا معي امرأة عربية تدرس المنطق ! فما رأي جغرافيينا وسوسيولوجيينا الذين ما فتؤوا يكررون بأسلوبهم المتشائم، أن المغرب يغرق في الظلمات وفي بحر الجهالة؟ ولاحظوا معي كيف أن العالية لا تقوم بتحفيظ القرآن، بالطريقة العقيمة التي نعرفها. فالذكاء المغربي يحلق في سماء العلوم، وهو علم البرهان كما عرفه الرواقيون؛ إنه العلم الذي حدده هاملتون Hamilton وكانط Kant "كعلم للفكر باعتباره فكرا".

فيا أيها النسوانيون العاطفيون ويا أيها الحكماء المتبصرون وأنتم أيها الفلاسفة الرائعون، يا من يحلمون بالمساواة وبالأخوة وبسيادة العلم الكوني، ابتهجوا ! فالمغرب ليس عبارة عن مقبرة مظلمة كما يعتقد البعض. وهو يساهم إلى حد ما في انبثاق نور المعرفة؛ ونحن نحمد الله على أنه لا يجسد ترتيلة رولا Rola اليائسة والتي جاء فيها :

العدم ! العدم ! فهل ترى ظله الشاسع

الذي يقضم محور الشمس الملتهب ؟

إن الظلمة تمتد وتتسع بشكل سرمدي

لنبتعد إذن عن هذا التصور اليائس. ذلك أنه بالرغم من بكاء الشعراء، فإن العدم الكوني لا يوجد إلا داخل الخيالات المريضة. فلماذا سيوجد العدم الفكري والعاطفي في عالمنا ؟

إن العاطفة والعقل موجودان حتى داخل كهوف المتوحشين القساة. وكما تعلمون، فإن المرأة، هذا الكائن العاطفي والذكي والعاقل، قادرة على ترويض النمور والأسود ! سواء كانت نمورا إسلامية أو أسودا نصرانية. وأنت أيها القارئ، كيفما كان العرق الذي تنتمي إليه وكيفما كانت الديانة التي تعتنقها، اعترف أنه مهما بلغت جرأتك، فإنك لست بالنسبة لامرأتك في آخر المطاف، سوى أسد مروض وخاضع، تم تطويعه بشكل تام.

اعترافـــات "مقــدم" درقاوي :

-قل لي يا سيدي محمد لماذا يكره الناس درقاوة ؟ وأنا حينما أقول " الناس "، فإنني أقصد بالخصوص، الطلبة والعلماء وموظفي المخزن.

وبالفعل، فقد كان السلطان مولاي الحسن يطارد الدرقاويين أينما كانوا وفي أي مكان تواجد فيه أقطاب زاويتهم. ولم يكن السلطان مخطئا تماما فيما يقوم به، لأن درقاوة كانوا يثيرون القلاقل داخل مملكته؛ وقد تعرض مركزان متمردان للقمع من طرف مخازنية الشريف وهما الهبري ببني زناسن حيث كانت الزاوية في حالة تمرد دائم وزاوية سيدي محمد العربي في مدغرة بتافيلالت.

هكذا، أغلقت مؤسسات درقاوة وألقي القبض على كل شيوخهم، ومن ضمنهم محاور الدرويش. ولم يكن هذا المحاور سوى الشريف سيدي عبد القادر بنعجيبة، أحد حفدة الولي الصالح سيدي أحمد بنعجيبة الذي يشع ضريحه بقرية الزميج بأنجرة.

لقد كان هذا الشريف المبجل يقوم بجولته المعهودة بحوز تيطاون لجمع تبرعات الأتباع. ومن تطوان التي يقيم بها، كان يتحرك هنا وهناك للحصول على المزيد من التبرعات ولإذكاء حماس المنتسبين للزاوية. وكان مرفوقا بحوالي 20 فردا من أتباعه، حينما التقى بمحمد بن الطيب بقرية الكف حيث كان الدرويش يأخذ قسطا من الراحة، بعد رحلاته المتعبة بقبيلة الحوز. وحينما اشتكى الشريف سيدي عبد القادر للرحالة، عما يتعرض له من مضايقات، لم يذكر له عفو السلطان المتكرر على الإخوة " المشاغبين". لأن هذا العفو، كان على عكس ما هو منتظر، يشجع أعضاء زاويته أكثر، على معارضة السلطة القائمة.

غير أن الدرويش كان عارفا بالوضعية السياسية بالمغرب، لذلك لم يثق بكل ما قيل له ! إلا أنه جامل الشريف لكي يظفر ببعض الوجبات الشهية برفقته. ولهذا، أجاب عن سؤال هذا الأخير، بعبارة فضفاضة ومنافقة قائلا :

- أيها الشيخ، إن رجال الله الذين يحبهم الله، يكونون عرضة لحقد ولافتراء الناس.

ويبدو أن الشريف اقتنع بما سمعه فابتسم بغبطة وقال :

- هذا صحيح !

واستمر النقاش على هذا المنوال، حيويا ولبقا، بحيث اضطر الدرويش إلى التلميح أثناء الحديث، على عادة العرب، مشيرا بأن الأهالي الأميين يعتبرونه وليا صالحا، رغم مظهره البئيس، وهو لم يدع أبدا الانتماء إلى أية زاوية، معتبرا بأن هذه أفضل وسيلة للحصول على

التبجيل دون التعرض للقمع. وبعد هذا النقاش المهذب، اتفق الرجلان على تصنيف الزوايا إلى ثلاث وهي:

1) الطرق الربانية.

2) الطرق الدنيوية.

3) الطرق الحربية والجسدية.

فأما الطرق الربانية، مثل طريقة سيدي أحمد التيجاني وطريقة مولاي عبد القادر الجيلاني، فإنها تهدف فقط إلى تقريب الإنسان من الحضرة الإلهية دون أي طمع مادي.

وأما الفرق الدنيوية مثل درقاوة وتهاميي وزان[8] والزيانيين، فإنها تعتبر نفسها مقربة إلى الله، وهي لا تحتقر العامة فقط، بل الزوايا الأخرى أيضا، كما تهدف إلى إخضاع المسلمين وغير المسلمين لتعاليمها الدنيوية والروحية. ولحسن حظ الإنسانية، فإن أعضاءها الطموحين لا يتوفرون على الإمكانيات المادية ولا على التأثير الروحي لإخضاع الجماهير. لذلك، فإنهم يتآمرون بين جدران زاويتهم دون أن يتمكنوا من تحقيق حلمهم الوهمي، المتمثل في الهيمنة على نطاق عالمي.

ولا بأس من الإشارة مرة أخرى، إلى أن الطلبة والعلماء وموظفي الإدارة المخزنية، يكنون العداء لشيوخ مختلف الزوايا. أما الأهالي الأميون، فإنهم لا يعيرون هذه الزوايا اهتماما كبيرا، فاحترامهم لشيوخها شبيه باحترام قرويي أروبا للرهبان.

أما الطرق الحربية، ومن بينها طريقة سيدي أحمد بن ناصر وطريقة ابن وقاص، فإنها تهدف إلى شيء واحد، وهو تكوين فرسان جيدين ورماة مهرة. وتدخل في هذا الإطار أيضا، طرق عيساوة وحمادشة وسيدي أحمد أو موسى، لأن أعضاءها يقومون بتمارين جسدية أيضا.

وفي البداية، كان الهدف الوحيد لهذه الزوايا، هو تلقين أتباعها الأخلاق الفاضلة والمعرفة التامة بالألوهية؛ مستندة في ذلك على الحكمة الملتبسة التالية : " من لا شيخ له، شيخه الشيطان".

---

(8) علمت من مصدر موثوق بأن زاوية مولاي الطيب الوزاني، تمتلك نسخا من كتاب عجيب عنوانه "تحفة الإخوان في مناقب أهل وزان". وهو عبارة عن سيرة كاملة في جزأين، للشيوخ الخمسة الأولئل لزاوية التهاميين، إلى مدى فترة تناهز القرنين من الزمان أي من مولاي عبد الله الشريف المتوفى سنة 1680، عن عمر يناهز 85 سنة، على مولاي أحمد بن مولاي الطيب، المتوفى سنة 1782، حسب ما ورد في الاستقصا، الجزء الرابع، ص. 51.

غير أنها حادت عن هدفها مع مرور الزمن. فقد ازدهرت زوايا عديدة؛ ومن الطبيعي أن تتخلى عن نواياها الاولى وتسعى إلى تحقيق أغلى وأجرأ رغباتها ألا وهي الهيمنة على نطاق عالمي باسم سلطة إلهية.

القـوى الرئيسيــة بحــوز تيطــاون :

- الكف، 100 منزل، قرب البحر
- المنزل، 50 منزلا، على واد بوصفيحة.
- الكدية، 100 منزل.
- أولاد جابر، 300 منزل؛ وهي قرية بحرية كبيرة، غرب تطوان.

وتخضع قبيلة الحوز الصغير للمخزن، وهي تابعة للمنطقة العسكرية بتطوان وتشتمل على ثلاثة أقسام وهي : طرافة، بني محمد وأولاد جابر.

- القوى العسكرية : 600 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 4200 نسمة.

وهناك العديد من القرى والدواوير المعزولة على ضفاف المتوسط.

قبيلـــتا واذراس وجبــل الحبيــــــب

يا لغرابة أطوار رحالتنا ! فهو لا يعترف بالقواعد الرياضية والمناهج الصارمة للعلم الحديث. فمن شاطئ البحر الذي كان يتواجد به، قرر فجأة الصعود جنوبا باتجاه الجبال الغابوية لقبيلتي واذراس وجبل الحبيب.

هكذا، انطلق صبيحة أحد الأيام، حاملا لوحته ورزمة كتبه على ظهره. فقد اضطر لمغادرة قرية الكف التي أصبح طلبتها لا يطيقون وجوده بينهم، لأنه كان ينافسهم في بيع الأحجبة الواقية من الأمراض الجسدية و النفسية للقرويين.

وفي الطريق، كان يتملى بطبيعة المنطقة الجبلية، بمنابعها ووديانها وحقولها المزروعة بالشعير والذرة الحمراء والفول. وتتميز أراضي واذراس بانبساطها شمالا، لكنها تعلو جهة

الجنوب وتغمرها غابات غنية بأشجار السنديان والفلين والحور والفستق. وتوجد بها الطرائد في كل مكان. ورغم أن رحالتنا كان يهتم بجغرافية المنطقة، إلا أن اهتمامه كان منصبا أكثر على دراسة الكائن الأذكى والأخطر بالمنطقة، أي إنسان واذراس المشهور بكونه قاطع طريق وأيضا بكذبه وفسقه.

فهذه القبيلة الخاضعة للمخزن، فقدت الشهامة الحقة المميزة للقبائل المستقلة ببلاد السيبة ولم تعد تمارس سوى شيئين وهما : السرقة والدعارة. وهو ما تعرفه تطوان جيدا، لأن واذراس هي منجم للغلمان والعايلات.

ولكي يؤكد لي هذه الملاحظة الإثنوغرافية، روى لي الدرويش حدثا رهيبا يستحيل علي نقله إلى الفرنسية؛ لذلك سأرويه كما تلقيته بالدارجة، وهي اللغة التي تتميز بصراحة ألفاظها أكثر من اللغات ذات الأصول اللاتينية. وإليكم الرواية : " من جملة عشق ناس واذراس في العايل، كان واحد الرجل عندو خوه زين وهو يعشق فيه وما صابش كيفاش يحتال عليه. وكانوا الناس يطمعوا فيه لأجل حسنه، حتى لواحد النهار دخل هذاك الطفل في بحيرتهم وجا خوه وعيط عليه وتم قال له اشكون هذاك الرجل، تحرام مرتي نحلف عليك ثم نفسق فيك ولو كان تكون خويا. وجرى عنده وقبضه، قال له الطفل كيفاش أنا خوك وتدير في هذا الشيء، قال له خوه تبغي نطلق المرأة، قال له لا ما تطلقهاش، افسق في وخليها هي؛ وفسق فخوه والعياذ بالله من الشيطان الرجيم والسلام".

وإذا أردنا المرور من واذراس إلى جبل الحبيب وهي قبيلة واقعة جنوب غرب القبيلة الأولى ولها نفس المساحة، فإننا سنضطر إلى صعود الجبال المليئة بالدواوير وبالبساتين.

ويتميز الطقس في هذه المنطقة ببرودته، بحيث تظل الثلوج متواجدة بجبالها إلى أن يحل فصل الربيع. والزراعة الرئيسية والوحيدة، هي زراعة الذرة البيضاء والحمراء. لذلك، فإن الطعام السائد هو الكسكس والخبز؛ وفي الحقيقة فإن طعام القبيلتين لا يستساغ؛ وقد اشمأز منه الدرويش لأنه مطبوخ بشكل رديء ولأن حبوب الذرة تعلق وسط الأسنان كحبات الرمل.

وقد أكد لي محمد ذلك بقوله :

-من المؤسف أن يكون الطبخ في هذه المنطقة رديئا، لأن أهالي جبل الحبيب يحبون الطلبة الأجانب كثيرا !

وبين لي كيف أن جبل الحبيب هي قبيلة الشرفاء والصلحاء، وهي خاضعة تماما لمخزن طنجة. وقد جعل أولاد البقال وحفدة مولاي عبد السلام بن مشيش والعديد من الصلحاء الأحياء والأموات من هذه المنطقة معبدا كبيرا، تكثر فيه المساجد والمدارس والزوايا. ويمكننا أن نلتقي أيضا ببعض الناسكين anachorètes الذين يعيشون في عزلة تامة إما بالكهوف أو بالغابات. ويقتات بعضهم بالنباتات والخضروات والفواكه الموجودة حولهم، في حين يتلقى البعض الآخر الصدقات المقدمة من طرف المحسنين. وسنجد عددا أكبر من الزهاد بقبيلة بني أحمد السراق.

غير أن العبادات ليست هي الشغل الوحيد لأهالي جبل الحبيب. ففي جل العائلات يوجد رجال أقل تعلما وورعا، حيث يقومون بالأعمال اليدوية التي تجلب لهم ولصحائهم القوت الضروري للعيش في هذه الدنيا الفانية.

هكذا، نجد من بينهم تجار العجول الذين يشترون هذه الحيوانات من أسواق قبيلتهم أو من بني عروس ليبيعوها في طنجة. ويكتفي التجار الصغار ببيع الدجاج والبيض بنفس المدينة. أما النساء فيتوجهن إلى عاصمة جبالة لبيع جبن البقر والماعز، المصنوع بطريقة جيدة، أفضل من طريقة أهالي الفحاص والأنجرة. وفضلا عن الجبن، فهن يبعن السواك والفوة ونباتات أخرى تهبها الجبال الغنية بغاباتها. وبهذا الصدد، فإن قمم جبل الحبيب، مغطاة بأشجار السنديان والجوز والفستق والعرعر. وبمنحدرات هذا الجبل، تتكاثر الدواوير المغطاة بالأشجار أو المعلقة بالصخور. وتشير وجهة الجبل صوب طنجة شمالا وقبيلة البرانص شرقا. وقد أخبرني الدرويش بأن هذا الجبل هو أكبر حاجز بجبالة من جهة الغرب.

القــرى الرئيســية بـــواذراس

يدعي محمد بأن واذراس مؤلفة من كلمتين وهما : واد وأراس وهي لفظة أمازيغية تعني الإنشغال والتضايق. فهل معنى هذا أن واذراس هي واد الملل والهموم ؟

- العنصر، 50 منزلا، على منحدرات جبل واذراس.
- دشرة الإثنين، 50 منزلا ويوجد بها سوق الإثنين.
- الفندق 6 منازل؛ وهي محطة الحمار القادم من طنجة والمتوجه إلى تطوان.
- بوصفيحة، 100 منزل، على ضفاف واد يحمل نفس الاسم ويسقي القبيلة.

- القوى العسكرية : 2000 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 14 ألف نسمة.

القــرى الرئيســية بجبـل الحبيـــب

هناك أربعة أقسام وهي : دار جعاذة [التسمية عربية وأمازيغية وتعني منزل الرطوبة]، بني امحمد، العنصر وأولاد علي.

- العنصر، 100 منزل عند منبع وادي بني ݣرفط. وينبع واد آخر بجبل الحبيب وهو واد العنصر.
- القوى العسكرية : 1500 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان 10500 نسمة؛ وتوجد مناجم الفضة والحديد بالجنوب.

قــبيلـة بنـــي ݣـرفـــط

عند مغادرتنا لقبيلة جبل الحبيب الهادئة والوعرة، نلج أراضي جيرانها وهم بني ݣرفط. ويلاحظ المرء تغيرا مفاجئا، سواء على المستوى الجغرافي أو على مستوى الشروط الاجتماعية والسياسية. فبدل القمم الشاهقة لجبل الحبيب، نجد تلالا متوسطة العلو، تفصل فيما بينها أودية فسيحة، من أبرزها وادي بني ݣرفط الرائع. ويمتد السهل جهة الغرب، ليلتقي بالأراضي البئيسة للخلوط، حيث تبدو بعض التلال بنباتاتها النادرة وبأراضيها الحجرية أو الرملية؛ وباختصار، بطبيعتها الكئيبة التي تختلف تماما عن طبيعة شمال وشرق القبيلة، حيث توجد الغابات الكثيفة والمياه المتدفقة والخضرة الدائمة.

ومقابل الخاصية المسالمة والورعة لأهالي جبل الحبيب، فإن أهالي بني كَرفط يتميزون بمشاكستهم وحيويتهم ويشتهرون في كل مناطق جبالة بانهم نهمون، بحيث يستطيع رجلان منهم على ما يبدو، التهام خروف مشوي. وكان محمد الذي راقبهم أثناء الأكل، لا يصدق عينيه، واعترف لي بضعفه أمام هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون معنى التخمة.

وباستثناء طعام الفطور الذي كان هزيلا، لأن السكان لا يبعثون إلى المسجد سوى الخبز والفواكه، فإن باقي الأوقات كانت تعرف تدفق الأطعمة المتنوعة. وقد احتفظ الدرويش بذكريات طيبة عن المآدب التي شارك فيها بقرية الأهرا. فعند حلول الظلام، كان ينطلق مع الطلبة الأجانب الآخرين داخل القرية، حيث تطلب الصدقة من كل المنازل، بالصيغة المتداولة عند الجميع وهي : " معروف لله". وتقدم كل أسرة ما تيسر من الطعام؛ وعند عودة الطلبة إلى المسجد، يشرعون في التهام هذه المأكولات المتنوعة التي تجعل الطلبة الألمان القدامى يتململون داخل قبورهم، لأنهم كانوا أيضا يطلبون الصدقة بنفس الشكل، مستعملين عبارة لاتينية وهي Panem propter Deum التي تحمل نفس معنى " معروف لله". وكان الشاب لوثر Luther يرددها بأبواب منازل المحسنين بمدينة إيزناخ Eisenach.

وبعد ملأ البطون، يتوجه الطلبة المسلمون إلى بيت الصحفة لمتابعة عروض ورقصات الغلمان والعايلات. طبعا، فإن هذا المكان هو المقابل للمرقص الألماني، حيث نجد الشاي بدل البيرة الجيدة وحيث يتصاعد دخان الكيف بدل دخان السيجار الكوبي.

هكذا تستمر سهرة الطلبة والعزاب الأميين المولعين بأجساد الراقصين والراقصات.

إن أهالي بني كَرفط يتمتعون باستقلال تام؛ وهم مسلحون بشكل جيد ولديهم قطعان وافرة من العجول والماعز. وقد أبانوا عن شجاعتهم في العديد من المعارك، وخصوصا خلال الحملة الفرنسية الكارثية على العرائش سنة 1765 والتي سبق ذكرها.

وتشتهر مدارسها بتقديمها لتعليم جيد في مجالات الفقه وأصوله والنحو والتفسير والمنطق. وقد كانت مدينة الصخرة مركزا علميا ممتازا، وبها تلقى محمد دروسه على يد أستاذ مشهور وهو الفقيه بنعبد السلام. وتقوم القبيلة أحيانا بإرسال بعض الهدايا إلى فاس، وهي ليست عبارة عن ضرائب، لأنها موجهة خصيصا لممثل أول سلطة روحية بالبلد ونقصد به أمير المؤمنين.

القـــرى الرئيســـية ببنـــي گـرفـط

[أي الذين يمشون بخطوات صغيرة؛ وفي الدارجة الوهرانية تعني " كلفط"، رفع].

- الصخرة، 800 منزل
- أورموث، 600 منزل
- الاهرا، 500 منزل، ويوجد بها منجم للشبة.
- الصفصاف، 50 منزلا على واد بني گرفط.
- دشرة الواد، 300 منزل.

وتتألف القبيلة من أربعة أقسام وهي : الربع السفلي، ربع الواد، الأهرا وبني علي، ويمكنها أن تعبئ 2000 من المشاة، أما عدد سكانها فيقدر بحوالي 14 ألف نسمة.

قـــبيلـــة غـــزاوة

لماذا انطلق الدرويش من بني گرفط متجها صوب الجنوب، أي نحو المناطق الجنوبية لجبالة التي سبق أن زار معظمها ؟ ولماذا لم يقم باكتشاف غزاوة عندما كان قريبا منها، أي عندما أقام بمزگلدة مثلا ؟ سيجيبنا الرحالة الماكر بالعبارة التالية :

- ذلك هو قدري كرحالة متجول.

وتبدو غزاوة على الخريطة كمنطقة صغيرة وسط جيران أقوياء وهم الاخماس شمالا وبني أحمد السراق شرقا ومزگلدة جنوبا. لكنها ليست محاصرة من طرف هذه القبائل، لأن جبالها العالية المكسوة بالثلوج خلال فصل الشتاء، تسمح لها بالتمتع بالحرية. وطبيعتها خلابة،

بحيث يمكن للمرء أن يتجول بها الساعات الطوال تحت ظلال أشجار الزيتون والتين والسنديان والحور، وأن يستمتع بمنظر مجاري المياه المتعددة.
وإلى جانب الخضرة توجد الطرائد بكثرة وخصوصا الخنازير وبنات آوى والأرانب البرية والحجول. وخلال موسم جني الفواكه، يأتي عرب دائرة فاس إلى القبيلة لمقايضة القمح والصوف الأسود بالجوز والتين والزيت والزبيب. وباختصار، فإن المنطقة غنية ويمكن تشبيهها بمعبد كبير نظرا لورع سكانها الشديد. ففي غزاوة نجد أكبر عدد من شرفاء أولاد البقال. ويعتبر أهالي دشرة الحرائق جميعهم حفدة الولي سيدي علال الحاج البقال. ففي مركز صغير من حوالي 50 منزلا، يعتز السكان بتوفرهم على أشهر زاوية بجبالة، وهي زاوية سيدي علال التي تحج إليها سنويا قوافل الزوار؛ وتذبح بضريح الولي عشرات العجول ولا شيء غير العجول التي توزع لحومها على الشرفاء الفقراء الذين يتوافدون بكثرة في مثل هذه المناسبات. ولا يمكن أن تمر الوعدة بدون عزف موسيقي بالمزامير والطبول وبدون ألعاب الفروسية. وعندما تلتقي القبائل المتناحرة، في هذه المناسبة، فإنها غالبا ما تقتتل فيما بينها، فتسيل دماء البشر بجوار دماء الأضاحي. ولا يرى هؤلاء المتعصبون الأميون أي غضاضة في الاقتتال بجوار ضريح الولي الذي يبدو أنه لا يغضب من رؤية دماء البشر ممتزجة بدماء العجول ! وخلال المعركة، يظل طلبة الزاوية داخل الضريح إلى ان تهدأ النفوس، عندها يغادرون مكانهم مدعين بأن توقف القتال ناتج عن دعواتهم وبركاتهم. ويمكنكم أن تعيدوا قراءة الصفحات التي خصصناها للاخماس وبني زروال والقبائل الجبلية الأخرى المجاورة لدائرة فاس، لتكونوا فكرة دقيقة عن عادات وتقاليد أهالي غزاوة المعروفين بجرأتهم الكبيرة، بحيث حدث لهم أن قاوموا بشجاعة قبيلة الاخماس العظمية.
والآن سأروي لكم مغامرة الدرويش مع السكير. فقد كان رحالتنا يدرس بقرية البلوط وقرر يوما الذهاب إلى قرية بني شعيب، في الطرف الآخر من قسم الحرايق. وبعد ساعات من المشي وصل إلى سوق الثلاثاء الموجود بالقرب من بني شعيب. ولم يكن بالمكان سوى خمسة أشخاص جالسين تحت شجرة وأمامهم بغالهم، بعد أن فرغ السوق من زواره.
وتقدم الدرويش بأدب نحو أولئك الرجال وسلم عليهم، فرد عليه احدهم السلام وقال له :
- لقد بعثك الله إلينا.

وعقب محمد بالقول :

- فعلا، لقد بعثني الله، فافعلوا بي ما تشاؤون.

فقال نفس الشخص بلهجة حازمة :

- هيا، انزع جلابتك.

ولم يتباطأ الدرويش في خلع جلابته الجديدة التي أهديت له منذ يومين فقط ورماها باتجاه الرجل. حينها انتبه إلى أن الرجال ثملون، حيث كانوا قد أفرغوا جرة مليئة بالخمر في بطونهم وكانت الجرة مرمية بجانبهم.

ولم يكتف السكير بأخذ الجلابة وارتدائها، بل نزع نعلي محمد وأمره بنزع قميصه أيضا، لكن أحد رفاقه الذي لم تكن الخمرة قد لعبت برأسه، وبخه على معاملة الطالب بهذا الشكل. غير أن هذا التوبيخ كان له تأثير عكسي ، حيث أن السكير صعد فوق صخرة وظل يقوم بحركات ساخرة، ثم رفع أطراف الجلابة وبدأ يرقص ويصرخ :

- هكذا يدير العريس.

ولم يكن الدرويش مهتما بهذه الحركات، قدر اهتمامه باسترجاع ملابسه؛ وكان يكرر العبارة التالية :

- ما العمل يا ربي، كيف أسترد حاجياتي ؟

ورد عليه الرجل الذي لم يكن قد ثمل بعد والذي سمع شكوى محمد :

- انتظر حتى يستفيق من سكره.

وبقيت الأمور على هذه الحال مدة ساعة، إلى أن عاد السكير إلى وعيه بعض الشيء. فطلب منه رفاقه إرجاع حاجيات الدرويش إلى صاحبها؛ لكنه أصر على الاحتفاظ بالنعلين وإرجاع الجلابة. وللتأثير في الجميع سل سيفه [السبولة] ووجهه نحو بطن الدرويش مخاطبا إياه بغضب :

يا ابن الكافر، هل تريد أن تمنحني النعلين أم لا ؟

وكان السيف ينغرز في جسد الرحالة المسكين الذي صرخ بأعلى صوته :

- ابعد عني وافعل ما تريد.

وفي تلك اللحظة دفع الرجل المتعاطف مع الدرويش، رفيقه بعنف وأخذ منه النعلين وأعطاهما لمحمد ثم قال له :

- اهرب، اهرب.

وبينما كان الدرويش يجري باتجاه القرية، كانت تصله أصداء الشجار بين أولئك السكارى.

القــرى الرئيســية بغـزاوة

- بني شعيب، 100 منزل، قرب سوق الثلاثاء.
- دشرة الحرايق، 300 منزل
- زاوية سيدي علال الحاج، 50 منزلا.
- البلوط، 100 منزل
- عين بوحسان، 100 منزل.
- الرملة الكبيرة، 100 منزل.
- الرملة الصغيرة، 100 منزل.

وتوجد هذه الدواوير الثلاثة الأخيرة على ضفاف واد غزاوة.

- تالوين [المنابع]، التسمية أمازيغية، 100 منزل.

- فيفي [اسم امرأة]، 100 منزل.
- القوى العسكرية : 3 ألف رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 21 ألف نسمة.

قــبيلة بنــي حســان وبنــي ليــث

بشمال الاخماس وعلى بعد كيلومترات من البحر الأبيض المتوسط، ترتفع جبال شاهقة يمكن رؤيتها من السفن المبحرة قرب الساحل، وهي معروفة في المغرب الشمالي باسم جبال بني حسان.

وقد سبق للرحالة دوفوكو De Foucauld أثناء جولته السريعة بالشاون، أن ترك هذه القمم الشاهقة على يساره، أي من جهة الشرق؛ في حين قام الدرويش بتسلقها مستعينا فقط بعصاه ومتحديا الثلوج التي جمدت أطرافه. ولمقاومة درجات الحرارة المنخفضة في فصل الشتاء،

فإن رجال ونساء هذه المنطقة يرتدون ملابس كثيفة من الصوف الأسود؛ ومن أبرزها الجلابة القصيرة التي تصل إلى الركبة بالنسبة للرجال والحايك المشدود بحزام صوفي طوله عشرة أمتار وعرضه عشرون سنتيمترا بالنسبة للمرأة. وتنتعل هذه الأخيرة " بوعفاس" وهو يتشكل من نعلين وحزام جلدي يوضع حول الساق. وتتميز القرى العديدة بشساعتها، وهي محاطة بغابات السنديان والبلوط والحور والعرعر. وتنتج أرضها القليل من القمح والشعير والكثير من الفول والعدس والذرة. كما تكثر بها أشجار التين والكروم، لذلك ليس من الغريب أن تصادف داخل الأسر مؤونة وافرة من "الصامت" والخل وجرات الخمر. وبهذه القرى أيضا الكثير من الماعز والعجول والقليل من البغال.

أما طعام الأهالي فمنفر، وهو يتألف من البيصار والبلوط والأرجال وبعض السمك الذي يشترى من بني سعيد.

ويستقبل الطالب بحفاوة، حيث يمكث بالمساجد التي يدرس بها القرآن بالطريقة السائدة في جبالة، أي عن طريق الحفظ فقط.

لكن، ما الذي يفسر تواجد هداوة بكثرة في هذه المنطقة ؟ إن تفسير ذلك يرجع إلى كون بني حسان وبني عروس هما القبيلتان المفضلتان لدى أعضاء هذه الطائفة الوسخة، حيث يقوم بعضهم بمعاشرة هداويات ثم الالتقاء بهن عن طريق الصدفة، فتثمر هذه العلاقة ذرية من الهداويين الصغار الذين سيصبحون فيما بعد متسولين جوالين وأعداء للنظافة مثل آبائهم. ويعتبر القنص هواية مفضلة لدى جبليي بني حسان وبني ليث. هكذا، يتم اصطياد " النمس" بالخصوص، كما تنصب الشباك للإيقاع بالحجل ويتم أيضا نصب فخ يدعى " المنداف"، حيث تحفر الأرض وتغطى ببعض الأغصان التي يوضع فوقها الطعم؛ وغالبا ما تسقط بنات آوى والثعالب والأرانب بداخلها. ويحكى أن جبليا اصطاد أسدا بهذه الطريقة. وعندما رأى ملك الحيوانات داخل الحفرة، صاح بنوع من الرهبة : " كبرت يا مندافي !" والمقصود بذلك، يا له من صيد عظيم سقط في فخي ! ومنذ ذلك الحين، دأب القناصون على استعمال هذه العبارة كلما كان الصيد ثمينا.

ونشير في الأخير إلى عملية البحث عن العلك التي يقوم بها الأطفال، بمثل حماس الأطفال الأروبيين؛ وهو ما يؤكد بأن الطبيعة الإنسانية واحدة، سواء كانت ترتدي الجلابة الإسلامية أو

السترة المسيحية. أما عن السلوكات الأخلاقية، فهي لا تختلف عما نجده بتطوان التي تجلب منها الراقصات المحترفات.

وبخصوص قبيلة بني ليث المتواجدة بأراضي بني حسان، فهناك القليل مما يمكن قوله. ونشير فقط إلى وجود أعلى جبل بالمنطقة، وهو جبل بوهاشم وبه قرية من 100 منزل تدعى طلعة جميل التي يستطيع بغل بالكاد بلوغها، نظرا لوعورة المسالك المؤدية إليها. ونغتنم الفرصة هنا، لرواية حكاية أسطورية متداولة بالبلدة، قد تكون مفيدة بالنسبة لعلماء الفولكلور؛ ويمكن ان نختار لها العنوان التالي : "الأثر الرائع للرجل اليمنى لمولاي عبد السلام بن مشيش". فنحن نعلم بأن سيد جبالة. كان يحب الأسفار مثل غيره من الأولياء، إما لحضور ملتقيات يجتمع فيها الصلحاء في مكان بعيد عن مقر إقامته وإما لزيارة بعض مريديه، في مناطق مختلفة من جبالة وعندما يكون مستعجلا، فإن المسافة التي يقطعها في كل خطوة تتراوح بين 10 و 15 كيلومتر؛ هكذا يقطع الجبال والوديان " بسرعة الضوء " ! وفي أحد الأيام استعد الولي الصالح للذهاب إلى اجتماع لأولياء الله بمكة المكرمة، فخطا الخطوة الاولى التي لا تتعدى 12 كيلومتر، من بني عروس إلى بني ليث وحطت رجله اليمني على صخرة بغابة تاينزة تاركة أثرا بعمق 8 سنتيمترات. وظلت القدم مرسومة بشكل واضح على الصخرة. وقد بنى أهالي المنطقة المؤمنون بالخرافات سورا حجريا [حوشا] حول هذا المكان الذي أصبح مزارا للورعين. ويرى الزائر العديد من الخرق المعلقة بالسور؛ وهي شبيهة بتلك التي يعلقها سكان وهران، الذين هجروا موطنهم الأصلي بإسبانيا ونابولي، بكنيسة سيدتنا سانتا كروز Santa-Cruz. لكن أيادي آثمة تخفيها عن العيان لأسباب مجهولة.

القــرى الرئيســية ببــني حســان

- زاوية سيدي هدي، 100 منزل، وهي مليئة بهداوة.
- حاء ميم، وهو دوار من حوالي 100 منزل؛ ويعتبر على الأرجح هو موطن المتبني " حاء ميم" الذي تحدثنا عنه من قبل.

القــرى الرئيســية ببنــي لــيث

- تاينزا، 50 منزلا.
- طلعة جميل، 100 منزل، فوق قمة جبل يصعب بلوغها.

- وطا شنتيل، 100 منزل.
- الرملة، 100 منزل.
- القوى العسكرية لبني حسان وبني ليث : 2500 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 17500 نسمة.

قبيـــــلة بنـــي وريـــــاگـل

ها قد عدنا إلى نقطة انطلاقنا، أي إلى القبائل الأربع الصغيرة، بأقصى جنوب جبالة. وقد سبق أن تحدثنا في الصفحات الأولى من هذا الكتاب عن ثلاث منها. وفي الواقع، فإننا لا نجد أي اختلاف بين فشتالة والجاية وسلاس وبني ورياگل؛ فهي تتوفر على نفس التربة والطقس والإنتاج والعادات. لكن، ما يميز القبيلة الأخيرة هو صومعة تيرزان الكبيرة التي تعشش اللقالق فوقها والتي تذكرنا بتقليد سائد بخصوص معاملة طيور السنونو واللقالق. ففي

المغرب، لا أحد يجرؤ على إيذائها، حيث يسمح للأولى بالاستقرار في كل مكان وللثانية بصنع أعشاشها فوق الصومعات وعلى سطوح المنازل.

وحسب رواية أسطورية عربية متداولة، فإن الطيور سألت السنونو يوما :

-لماذا يقتلنا الإنسان ولا يؤذيك.

فأجاب طائر السنونو بهذه الكلمات الثلاث التي أصبحت مضرب الأمثال وهي : " اترك الحب تنحب" ومعناها، ابتعد عن حبوب وفواكه الإنسان ولن تتعرض للأذى.

ومعلوم أن أهالي فاس يسخرون كثيرا من أهالي جبالة. وقد وقعت المغامرة التالية لجبلي من بني ورياگل على الأرجح، لأن سكان المناطق الجبلية الجنوبية غالبا ما يذهبون إلى فاس.

الفــاسي والجبــلي :

واحد الفاسي تاجر قال لواحد الجبلي روح للسوق تبيع القشينية، قال له هات العربون، قال له الفاسي قرب؛ قرب الجبلي والفاسي عكر له وجهه على الخذود؛ وانصرف الجبلي للحوانت وصار يقول يا اللي يشري القشينية يقول لهم هاهي وينعت لهم بصبعه على خده وهم يضحكوا عليه؛ وهذا من حانوت لحانوت حتى انتهى سوق الحوانت. عند ذلك تلاقى هو وواحد الجبلي ابن عمو، قال له ابن عمو واش هاذ التبهديل؛ حكى له الجبلي اللي صار بينه وبين التاجر، قال له ابن عمو راه زبلك وضحكوا عليك أهل فاس، وقال له روح اشتري فلس حنة وطلي بها صبعك الواسطة وامشي للناس اللي ضحكوا عليك وعيط من يشري الحنة واللي يقول لك وين راها الحنة وري له صبعك الواسطة وقل له هاهي الحنة؛ مشى الجبلي وعمل هذا الشي وفدا الشمتة.[1]

القــرى الرئيســية ببنــي وريــاگل

هل هذه التسمية هي تحويل لكلمة أورياغل ؟ [أنظر المغرب المجهول، الجزء الأول، مذكور، ص 100، الهامش 29]؛ أم يجب علينا أن نفترض كما فعل الدرويش، بأن أصل الكلمة أمازيغي ويعني " لا يهرب"؛ وبذلك يقترب من معنى Our ireggoul لدى الزواوا ؟

- الميزاب، 300 منزل

[1] لقد تم نقل هذه الرواية بأمانة، بلغة نصف المتعلمين بشمال المغرب. وطبعا فإن الإشارة بالأصبع الوسطى، تعتبر شتيمة بالنسبة لمسلمي إفريقيا الشمالية.

- أزغار، 100 منزل
- تيزران، ألف منزل
- سوق الخميس 100 منزل.

وتوجد هذه الدواوير جميعها على ضفاف واد الحد الذي يصب بورغة. وهناك مناجم يستخلص منها الكحل والجير.

- القوى العسكرية : 800 رجل من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان : 5600 نسمة.

قبيــلـة بنـــي أحمـــــد الســـراق

أخبرني الدرويش قائلا :

- كنت في هذه القبيلة طالبا ومعلما. فقد كنت أرتل القرآن كالعادة وأدرس النحو والفقه كطالب. أما كمعلم، فقد كنت أعلم الأطفال نفس الأمور التي تلقيتها. هكذا، يتم حشو أدمغة الأطفال الطرية، منذ قرون، بالمعتقدات المتعصبة والحقودة والعمياء ! [**ملحوظة المترجم** : نبرز مرة أخرى، الأحكام الجزافية والمطلقة لموليراس، على التراث الديني الإسلامي؛ وهو ما يتناقض مع ما سبق أن ذكره من قبل، عن انبثاق نور المعرفة في مدن مغربية مثل فاس]

وأمام هذا الانغلاق في الظلامية، الذي ليس حكرا على المسلمين وحدهم للأسف، لا يسع المرء إلا أن يحلم بثورة جذرية في النظام التربوي الحالي؛ هذا النظام القائم على التعليم الديني الضيق والمتعصب، دون أي نقد فلسفي ولا أية دراسة محايدة لتاريخ الأديان. [1]

لكن، لنترك الطلبة المغاربة ودروسهم الدينية ولنتحول مع رحالتنا في آخر قبيلة جبلية، وهي قبيلة بني أحمد السراق الواقعة جنوب غمارة والاخماس، على بعد كيلومرتات قليلة من دائرة فاس.

إن واد الحراق المعروف أيضا بواد منصورة، يخترق هذه المنطقة الجبلية الجميلة، المليئة بأشجار الزيتون والبرتقال والكروم الشبيهة بتلك الموجودة بالجزائر. وسأعفيكم من وصف الجداول والمنابع وبساتين الفواكه والخضر؛ بحيث سيقتصر حديثي، على الوضعية السياسية والاجتماعية لهذه القبيلة المدهشة التي تتحدى رغم صغر مساحتها، غمارة وبني زروال والاخماس وبني مسارة.

فمقاتلوها المشاة، البالغ عددهم 6 آلاف رجل مستعدون دوما لخوض المعارك التي لا تنتهي بين أقسام القبائل وبين هذه القبائل نفسها، ولذلك ظل أعداؤهم يخشون الاحتكاك بهم. وهل من الضروري التأكيد على أن لقب " السراق" هو اسم على مسمى ؟

إن الشيء المدهش هو أن أهالي هذه القبيلة الغنية والرائعة والمزدهرة، لا يتورعون عن سلب الأجانب أمتعتهم، لأن قوافل دائرة فاس المتوجهة لزيارة قبر مولاي عبد السلام بن مشيش، تضطر إلى اجتياز أراضيهم أو المرور بالقرب من حدودهم. لذلك يقوم هؤلاء اللصوص بابتزازها بشتى الوسائل؛ فهم يستمتعون بأخذ متاع الغير دون أن يصدر عنه أي احتجاج؛ وينطبق عليهم المثل الشائع " الباطل حلو". وهذه هي طبيعة الإنسان؛ فإلى جانب انعدام الاخلاق يوجد تأنيب الضمير الذي قد يصبح مثيرا للضحك في بعض الأحيان؛ وإليكم هذه الحكاية كمثال على ذلك.

الفـــــأر وجــرة الــزيــت :

---

[1] في مؤلفه الرائع وعنوانه " لا ديانة المستقبل" L’irréligion de l’avenir، عرض غيو Guyau نظاما تربويا متكاملا للدولة وللأسرة. وهذا التصور الصادر عن أحد أبرز الفلاسفة المحدثين ليس وهميا. ولربما تحقق في المستقبل البعيد، حينما تندمج كل الديانات في الأخلاق.

يحتفظ جبالة الجنوبيون بخمرهم وزيتهم داخل جرات ضخمة وواسعة، قد يغرق الرجل بداخلها.[2] وتشترى هذه الجرات من فاس ثم تحزم على ظهر البغال ليتم نقلها إلى شمال المغرب، حيث تملأ كما قلنا، بعصير العنب والزيتون. وبقبيلة بني أحمد، توجد بالمساجـد الكبــرى أقبية يحتفـظ فيهــا بجرات الخمر(! ؟) والزيـت والصامت كمؤونة للطلبة الأجانب وللضيوف العابرين. وقد وقع حدث بسيط، حينما كان الدرويش متواجدا بهذه القبيلة وتحديدا بقرية المنصورة؛ لكنه سيثير اهتمام فقهاء هذا المركز.

ففي إحدى الامسيات، نزل طالب إلى القبو لأخذ شيء من الزيت، وبعد أ غرف ما يحتاجه بواسطة دلو مجهز بسلسلة، غادر المكان، لكنه نسي إغلاق الجرة. وفي الصباح، ذهب طالب آخر للقيام بنفس المهمة. وعندما وجد الجرة مكشوفة، أخبر " مقدم" المسجد، فقام هذا الاخير بمعاقبة الطالب المهمل ونزل إلى القبو صحبة مجموعة من الطلبة ومن ضمنهم رحالتنا. ولاحظ الجميع بأن الجرة قد أصبحت شبه فارغة. وفجأة صاح أحد الحاضرين قائلا :

-انظروا، هناك شيء ما يطفو فوق الزيت !

وباستعمال الدلو، تم انتشال ذلك الشيء الذي كان فأرا ميتا. فاستدعي فقهاء القرية للتشاور والتداول في مسألتين بمنتهى الخطورة وهما :

1 -ألا يعتبر استهلاك الزيت المدنسة بهذا الشكل إثما ؟

2 -وهل يمكن استعمال هذه الزيت للإنارة ؟

وكان جواب جميع الفقهاء بالنفي. عندها، أخرج ستة رجال أقوياء الجرة من القبو وذهبوا بها إلى مكان بعيد عن المسجد، حيث دلقوا محتوياتها من الزيت المتبقية، تحت هتاف الأهالي المتحمسين. وجلب بعض الطلبة أغصان الشجر وأحرقوها داخل الجرة لتطهيرها. وفي تلك الأثناء كان الحشد يهدد الطالب الجاني الذي ظل وحيدا بالمسجد وهو ينتحب. غير أن "المقدم" خاطب الأهالي قائلا :

- اتركوه، فإن الشعور بالذنب يؤلمه.

فرد عليه محمد ساخرا :

قل إن موت الفأر هو الذي يؤلمه.

---

[2] تسمى هذه الجرات " خوابي" ومفردها " خابية".

وأثارت هذه السخرية ضحك الجميع، فتبدد التوتر. وفي الواقع، فإن الجبليين يقرون عموما بإمكانية استهلاك الزيوت أو الخمور التي غرق فيها حيوان أصغر من الفأر؛ لكن إذا كان بنفس حجمه أو أكبر منه، فإن الخمور يلقى بها، أما الزيوت فتباع إلى صانعي الصابون. غير أن أهالي بني أحمد السراق المتعصبين لا يقبلون بهذا الحل كما رأينا، رغم تواجد العديد من الورشات لإنتاج الصابون بقبيلتهم. فهم يفضلون ذبح كل يهود ونصارى الدنيا على أن يستخدموا الصابون الذي كانت زيته سببا في موت فأر. وبخصوص العسل والزبدة، فإن الأهالي يزيلون الجزء المدنس ويأكلون الباقي دون خوف من رد فعل الفقهاء في هذه الدنيا ومن عذاب الجحيم في الآخرة.

من جهة أخرى، فعند نهاية الخريف تأتي قوافل الجمال والبغال والحمير من دائرتي فاس ومراكش محملة بالصوف والحبوب لمقايضتها بمنتوجات القبيلة من زبيب وجوز ولوز وتين وخمر وزيت. والملاحظ أن القوافل المعروفة لدى الأهالي لا تمس بسوء، في حين أن مواكب العابرين والزائرين لبعض الأضرحة، تتعرض للنهب وللسرقة. ولهذا السبب يفضل الأجانب المتواجدون بهذه المواكب أداء فدية مسبقة، قبل اجتياز المسالك التي يسيطر عليها هؤلاء اللصوص المرعبون.

ولربما كانت ممارسة قطع الطريق منذ زمن طويل، هي السبب في وجود أعداد وفيرة من العجول والبغال والجياد والماعز والدجاج والحمام. وقد كان الدرويش يندهش من هذه الوفرة ومن علامات البذخ الظاهرة في القرى التي كان يزورها.

نـســـاك وطلـــبـــة :

إلى جانب تجارة الرقيق [من غلمان وعايلات] بالأسواق والتهتك المثير للأهالي، الذي يبدو أمامه سكان سدوم وعمورية كأتقياء؛ هناك ببني أحمد أماكن هادئة يتواجد بها الورعون والنساك حيث يعيشون في عزلة، بعيدا عن الضوضاء، يذكرون الله ليلا ونهارا ويصومون عشرة شهور في السنة ولربما أكثر؛ ولا يتناول البعض منهم الأطعمة المهيأة من طرف الأهالي، بل يكتفون بما تدره الغابة من فواكه وأعشاب؛ في حين يقبل البعض الآخر، الأطعمة التي يضعها المحسنون في أماكن معينة، دون مبادلة الحديث مع هؤلاء الزهاد.

إن هؤلاء الورعين الذين اشمأزوا من الفساد المهيمن في عالمهم، فضلوا الانزواء بقمم الجبال وبالمغاور، حيث يقضون وقتهم في التعبد والتشكي، لا هدف لهم سوى رضى الله وإعطاء المثال لإخوانهم في الدين. ففي كل كيلومتر يجتازه المرء داخل هذه القبيلة، يجد ضريحا أو زاوية أو مزارا أو قبرا يرقد فيه ولي من بين مئات الأولياء الذين تمتلئ بهم جنبات هذه المنطقة المحاذية لمنطقة سيد جبالة، مولاي عبد السلام المبجل.

هكذا، تهرع في كل سنة، حشود الطلبة الأجانب إلى القبيلة، للنهل من المعارف الدينية والدنيوية وأيضا للاستمتاع بالمآدب التي تقام بقرى بني أحمد السراق. ويروي لي محمد، كيف أن المدرسين والطلبة لا يأتون فقط من كل جهات المغرب، بل يقدمون من طرابلس ليبيا والجزائر وتونس وكورارة. فهناك مثل معروف يقول : " بني أحمد قبيلة مبروكة فالقراية " وهو ما يشجع طالب العلم على الاتكاء على عصاه وحمل لوحته والتنقل من دوار لآخر، قادما كما قلنا، من أعماق منطقة طرابلس أو الصحراء.

غير أن المنظر الرائع الذي يثير الطالب الأجنبي هو العدد الهائل للصومعات المربعة الشكل والعالية التي هي بمثابة منارات بالنسبة للقادمين إلى هذه المراكز العلمية.

وتبدو أصوات المؤذنين التي تبلغ صداها الوديان والجبال وكأنها تخاطب الأجنبي الفقير قائلة : هنا يمنحك رب المؤمنين ما تحتاجه من مأكل وملبس ومسكن؛ ويسلحك بالعلم الشرعي الذي لولاه لقضى أتباع الشيطان على مذهب سيد المرسلين.

ويشكل إنسان بني أحمد السراق نموذجا للجبلي الجنوبي؛ فقامته طويلة وملامحه دقيقة ولحيته طويلة وكثة ويميل لونه إلى السمرة، كما يبدو عليه المكر والدهاء. ومن الواضح أن القرب من فاس كان عاملا أساسيا في التفوق المعرفي لجبالة الجنوب على إخوانهم بالشمال، الذين ظلوا شبه متوحشين بجبالهم، بعيدين عن أنوار مدينة مولاي إدريس.

وبخصوص الفلاحة، يلاحظ أن أهالي بني أحمد يهتمون بالكروم، كما هو الشأن في مستوطناتنا بالجزائر، حيث يشذبون أغصان هذه الكروم ويعتنون بها، بولع الأشخاص المتذوقين للخمرة الجيدة وللصامت وللعنب.

وتوجد ببعض القرى، ورشات لصناعة الأسلحة النارية وفق نموذج البندقية التاغزوتية وأيضا لصناعة الصابون وحصائر الدوم والبرادع [الشواري] التي توضع على ظهور الحمير والبغال والسلال المدورة [الطبوقة] إلخ ... ويصنعها عمال من الجنسين.

وبالقمم العالية، قرب الغابات،يلاحظ المرء دواوير يشتغل أهاليها كحطابين ونجارين وصانعين للزفت. غير أن الاهتمام الأساسي لسكان القبيلة، ينصب على التعليم الديني وتحفيظ القرآن والتهجي بالحروف والكلمات، إلى حدود سن العاشرة. وفي المساء، يستمتع الرجال برقصات الغلمان والعايلات ويدخنون غلايين الكيف حتى بزوغ الفجر. عندها يعلن المؤذنون عن الصلاة، كتذكير بإنسانية الإنسان وكدعوة إلى الفلاح والعدل في هذه الدنيا.

القــرى الرئيســية ببنـــي أحمـــد الســراق

- زاوية سيدي يسف، 300 منزل؛ ويوجد بشمالها منجم للحديد.
- دكالة [المجتمعون]، التسمية أمازيغية، 300 منزل؛ ويوجد بجنوبها منجم للفضة.
- دارة كعالو، 500 منزل؛ وترجع التسمية إلى تهتك أهاليها.
- منصورة، 500 منزل؛ وهو المركز المفضل لدى الطلبة.

وتتوفر القبيلة على غابات شاسعة؛ كما أن رافدين هامين يصبان في الضفة اليمنى من واد الحراق وهما : واد تيسملال أو واد الشاون والواد الكبير أو واد بني أحمد الذي ينبع بقبيلة غزاوة.

وانطلاقا من قرية منصورة، يسمى واد الحرايق باسمها ثم يدعى واد أوذرور وأخيرا واد فشتالة على بعد كيلومترات من ورغة التي يصب فيها.

وأقسام بني أحمد السراق أربعة وهي : سيدي يسف، الزغيرة، دارة كعالو ومنصورة. ويمكنها أن تعبئ 6 آلاف رجل من المشاة؛ أما العدد المحتمل لسكان هذه القبيلة فيقدر بحوالي 42 ألف نسمة.

نظـرة شاملـــة علـى جبـالـــة

إن المعلومات المتوفرة حول دائرة جبالة، تنحصر فقط في جانبها البحري وخطها الممتد من طنجة إلى فاس. أما باقي الأجزاء، فلم تخضع لفضول الرحالة الأروبيين الذين اكتفوا بإتباع نفس الطرق التي سلكها المكتشفون السابقون؛ وأقصد بذلك الجانب الغربي القريب من المحيط الأطلسي. وقد تم رسم شبكة هذه الطرق في مؤلفات ذات صبغة تقنية وحتى في بعض الروايات وبصفحات المجلات المتخصصة في الجغرافيا، في العالم بأسره. ولن نقوم

هنا بفحص البيبليوغرافيا الضخمة التي أنجزها بلايفير Play Fair؛ فالمجلدات المؤلفة حول المغرب والبالغ عددها 2300 كتاب، تتحدث بالكاد عن هذه المنطقة الموحشة.[1]

وساترك للأستاذ مولهاوزن Muhlhausen وهو صديق بول شنيل P. Schnell [2] مهمة "تقشير" النصوص ورسم خرائط وروايات الرحالة والبحارة؛ وهذا عمل ضخم، سينجح في إنجازه بكل تأكيد.

فقد ألف هذا العالم كتاب " المغرب المعروف" وأحاول من جهتي إنجاز مؤلف " المغرب المجهول"، وأنا أريد بذلك المساهمة في بناء صرح الجغرافيا المغربية الذي يريد هذا العالم إقامته. طبعا، فإن المهمتين تختلفان وإن كانتا متوازيتين؛ ولهذا السبب اعتذرت عن الاقتراح اللطيف الذي تقدم به هذا العالم والمتمثل في إنجاز خريطة لجبالة وفق ما توصلت إليه من معلومات حول هذا الجزء من المغرب.

وعلى هواة الدقة والصرامة العلميتين ألا يقلقوا، ذلك أن شنيل، يهيء حاليا دراسة معمقة حول المغرب الشمالي، ستصدر قريبا ضمن ملحق بيترمان Pertermanns Erzangungen؛ وأتمنى أن تصحح بعضا من أخطائي وأن تعزز من جهة أخرى، ما ورد في اكتشافات الدرويش والمخبرين المسلمين الآخرين الذين اشتغلوا معي.

والآن، ليسمح لي القارئ بالحديث عن ظاهرة نادرة في تاريخ البحث العلمي وفي عالم الباحثين الذي يتنازع فيه الأعضاء بشراسة تذكرنا بعهود ما قبل التاريخ؛ وعن نموذج للتواضع والتفاني والدقة المتناهية يجسده رجل ملم بالجغرافيا المائية والطبيعية للمغرب. وأنا أقصد طبعا بول شنيل.

فعندما علم بأنني أنجز الجزء الثاني حول اكتشاف المغرب، لم يصدر هذا العلامة الألماني كتابه حول شمال المغرب واحتفظ به مدة تفوق السنة، من أجل الاستفادة من المعطيات غير المسبوقة التي توفرت لي حول جبالة.

---

[1] Play Fair, A Bibliography of Morocco, in -8, London, 1892.

[2] وهو مؤلف " الأطلس المغربي"؛ وقد صدر هذا العمل الهام بالألمانية كملحق ضمن العدد 103 من مجلة Mitteilungen de Patermana (Gotha, Justus, Perhes, 1892). وترجمه بدقة إلى الفرنسية عالم عزيز علي وهو السيد أوغستين برنار، أستاذ جغرافية إفريقيا بكلية الآداب بالجزائر. وقد صدرت الترجمة بباريس سنة 1898.

و أكد لي شنيل ببساطة، عزمه على عدم نشر كتابه، في انتظار انتهائي من إنجاز كتابي. وقد تأثرت كثيرا بهذا الموقف الرائع؛ ولكي لا أساهم في تأخير صدور كتابه، قمت بإطلاعه على بعض الأجزاء من مؤلفي فور خروجها من المطبعة. هكذا، فيما وراء خط نهر الراين ودون أن يرى أحدنا الآخر بل ودون أن يسبق لأحدنا أن صافح الآخر، نشأت علاقة ودية بين ممثلين لبلدين متنافسين. وقد شكرني شنيل على الثقة التي وضعتها فيه، من خلال رسائل صادقة، أقدم للقارئ بعض المقتطفات منها :

" مولهاوزن بتورنغن، 4 غشت 1898.

سيدي العزيز، يشرفني ويسعدني أن أتلقى 419 صفحة من الجزء الثاني لعملكم العظيم "المغرب المجهول"، وأشكركم جزيل الشكر على السماح لي بإلقاء نظرة عليه. ربما أخبركم السيد برنار بأنني كنت قد غادرت مورين Mürren عندما وصلت هذه البعثة الثمينة، ولهذا لم أتمكن من الإجابة على رسالتكم الطيبة.

وقد انتهيت هذا اليوم من قراءة العمل الرائع الذي أرسلتموه إلي؛ وأسارع بكتابة بعض الكلمات بشأنه. وأنا أرى بان مؤلف " جبالة" هو تتمة في نفس مستوى مؤلف " الريف" الذي سبق أن قدمت قراءة له في مجلة Pettermanns Mitteilungen . غير أن الجزء الثاني يتجاوز الأول من حيث المعلومات الهامة حول طبيعة حياة القبائل النصف مستقلة بشمال المغرب؛ ومن حيث المنهجية العلمية العميقة التي ربطتم فيها اكتشافات الدرويش بعدة وثائق وخصوصا منها، الوثائق العربية، التي يسرت لكم ثقافتكم الخاصة وإلمامكم باللغة العربية، الإطلاع عليها.

وإذا ما سمحتم لي بإبداء رأيي المتواضع، فإنني أنصحكم بوضع خريطة للمنطقة، إن أمكن؛ لأن هذه هي الوسيلة المؤكدة والمجربة، لإبراز النتائج العامة لعملكم الذي بذلتم فيه مجهودا جبارا على ما يبدو. ذلك أن أي عمل جغرافي لا يكتسي أهميته إلا من خلال الخريطة التي تقترن به، كخلاصة للأعمال المفصلة في النص؛ ومعلوم أن جميع علماء الخرائط والعديد من الجغرافيين لا يقرؤون النص، بل يكتفون برؤية الخريطة ونقلها. وهو ما يستدعي الاهتمام بالخرائط في المغرب، حتى بالنسبة للمناطق التي تم عبورها. وقد أثرت هذا

الموضوع بتفصيل في مقدمتي للترجمة الفرنسية لكتابي " الأطلس المغربي" الذي أتمنى أن تصل نسخة منه إليكم عند نهاية الشهر".

وإليكم رسالة أخرى من السيد شنيل، يخبرني فيها بتوصله ب 688 صفحة مطبوعة من "اكتشاف جبالة" :

" مولهاوزن / طور، 11 دجنبر 1898. سيدي العزيز، لقد تلقيت العمل الذي أرسلتموه لي ببالغ السرور، كما كنتم تتوقعون، وإنني ممتن لكم بهذا التعبير عن صداقتكم لي. وتأكدوا أنني أثمن الثقة التي وضعتموها في لقراءة عملكم قبل نشره. وأتمنى أن أجد الفرصة لرد هذا الجميل الذي لا يعوض. وقد شرعت في وضع خطاطة للتقرير الذي سأنجزه حول مؤلف "جبالة". وتتضمن الصفحات الجديدة التي توصلت بها مجموعة من المعطيات الهامة جدا. لكن هناك لغز يتعين فكه ويتعلق بواد اللوكوس. ففي أية قبيلة يوجد فعلا ؟ وحسب الوثائق التي أتوفر عليها فإنه يوجد بالاخماس[3]."

من جهة أخرى، هل تتوفرون على عنوان السيد دوفوكو؟ أعتذر عن كتابة هذه الكلمات ببطاقة بريدية، لأن "المغرب المعروف"، كما تفضلتم بنعته مشكورين؛ والذي لم يصدر بعد، لا يترك لي أية فسحة من الوقت لكتابة رسالة.

مع تحيات المخلص، ب. شنيل. "

إن الرسم الطوبوغرافي الذي سميته بنوع من الإدعاء " خريطة جبالة"، هو مجرد تخطيط أولي للمسار الذي قطعه رحالة مغامر؛ ولا يمكنه إلا أن يكون مؤقتا وأن يختفي عندما تباشر مهمة استكشافية علمية ومنهجية عملها بإمبراطورية الشريف. لكن وإلى ذلك الحين، " كم من المياه ستجري تحت قناطر نهر السين" كما يقال ؟ ومن المؤكد أننا نعتبر جميعا بمثابة "عين ثاقبة لكنها موجودة وسط الظلام".

لذلك سأمنح للنقاد فرصة التهجم على هذا الجزء غير المتقن من عملي والذي كان سيكون أسوأ لولا المساهمة الثمينة لزوجتي التي نقلت بأناة وصبر الخرائط التي أنجزتها لكل قبيلة وعملت على تجميعها في خريطة واحدة. وأعترف بأننا لا نعرف شيئا عن علم الخرائط – ولربما كنت أكثر جهلا منها – ومع ذلك، فقد كانت نيتنا الطيبة وإرادتنا وتعاوننا، هي التي مكنت من تحقيق

---

[3] وهو ما يتفق مع معلومات الدرويش المثبتة بخريطة جبالة.

هذا الإنجاز المتواضع؛ وقد سمحت لي خصوصا، باقتصاد أربعين يوما من العمل المضني الذي لم أكن مهيأ له.

طبعا سيوجد بعض المشاكسين الذين سيؤاخذوني على عدم استعانتي بخبراء في مجال الخرائط، من فرنسا وحتى ألمانيا [شنيل مثلا]، لإنجاز خرائطي حول الريف وجبالة. وجوابي البسيط هو كالتالي: إن هذا العمل سيكون مليئا بالأخطاء رغم إنجازه من طرف اختصاصيين، لأنه يصعب على أي عبقري في الدنيا الإجابة على هذا السؤال المحرج وهو: هل يمكن إنجاز خريطة كاملة لبلد مجهول، لم يسبق لأي عالم أروبي أن زاره؟ طبعا، لا يمكن لأحد أن يحقق هذه المعجزة، لذلك قررت إنجاز تصميم رحلات محمد بن الطيب بنفسي. وكل ما أتمناه هو أن يساهم ذلك في تحفيز الباحثين على مزيد من العطاء في القرون المقبلة.

ومعلوم أن أول شيء يقوم به الرحالة المسيحي قبل القيام بالسفر هو تخطيط المسار الذي سيتبعه؛ أما الرحالة المسلم بإفريقيا الشمالية، ونموذجه هو رحالتنا العجيب، فإنه يتحرك دون هدف محدد وتدفعه أحداث معينة إلى هذا المكان او ذاك. ولا يمكنكم التعرف على مسار رحالة مجذوب ومزاجي. طبعا، كان من الأفضل التوفر على بعض المسالك الجبلية المرسومة على الورق، عن طريق ليفنستون Livingstone أو بارث Barth أو دوفوكو De Foucauld. لكن اسمحوا لي بالقول مرة أخرى، إن هذه المهمة فوق طاقة الدرويش.

فقد اعترف لي بصراحة منذ اليوم الأول لهذه المهمة، بأنه ليس مهندسا ولا فيزيائيا ولا فلكيا ولا مختصا في مجال الخرائط. ولم يكن هذا الجهل بالأمر المزعج بالنسبة لي؛ فلو كان هذا المتسول الفيلسوف مشبعا بالعلوم المعروفة، لكنت قد اصطدمت بالدوغمائية الضيقة وبجفاف عقول الباحثين المتجاهلين للعلوم الأخلاقية والذين يعتقدون أن بإمكانهم حل أعقد المشاكل الاجتماعية بقوانين جبرية مختصرة، وبذلك فهم يحتقرون كل المسائل التي لا تخضع لهذه القوانين. وقد رأينا متخرجين من مدرسة البولتكنيك، لا يفقهون شيئا في عالم الأفكار وفي المجالات العلمية؛ كما رأينا مبرزين ودكاترة، مشبعين بالألقاب والشواهد الجامعية، لكنهم لا يتوفرون على أي فكر أصيل. بالمقابل، لم نر أبدا فكرا متفتحا وواضحا ولو كانت معارفه محدودة – كما هو الشأن بالنسبة لحالتنا – لم يطلع على كتاب الخليقة والسيكولوجيا الإنسانية، هذا الكتاب الذي نتعلم منذ الصغر، قلب صفحاته الساخنة التي تخاطب القلب مباشرة. لذلك، لا يتعين علينا أن نبحث بدقة عن المسافات والمسالك وعلو القمم الجبلية والتحديدات الفلكية والملاحظات المناخية

والجيولوجية الخ.. وباختصار، كل العدة التقنية المرافقة للدراسة الفيزيائية لمنطقة ما، إذ يستحيل الحصول من رحالة بئيس كالدرويش على مثل هذه المعطيات الدقيقة. بالمقابل، فإنه لم يسبق لأحد أن توفر على مثل هذا الحصاد السوسيولوجي والجغرافي قبله بالمغرب. وأمام هذه الحصيلة الهائلة، تتلاشى الثغرات الأخرى، مهما بلغت خطورتها، لأن المرشد الأساسي في العملية برمتها، كان هو الحس السليم والحماس الممزوج بالفضول.

ومع ذلك، فنحن سنبخس حق محمد إذا ما اعتقدنا بأنه لم يلاحظ المعطيات الطبيعية المحيطة به. فقد أثبت هذا "المفكر" المتميز مرات عديدة، خلال إنجاز هذا العمل، قدرته على الإحاطة بما يراه؛ وقد بقيت الصور الجبلية orographiques منطبعة في ذهنه. وهذه الانطباعات هي التي سنستدعيها الآن، لأخذ فكرة عامة عن هذه المنطقة المغربية التي شكلت موضوع الجزء الثاني من كتابنا "المغرب المجهول".

فقد كان العرب محقين عندما سموا أهالي المنطقة التي تجولنا في ربوعها ب "جبالة". فأينما ألقيت ببصرك، تجد الجبال أمامك، باستثناء ساحل المحيط الأطلسي، حيث تمتد الأراضي المنخفضة والشواطئ الرملية أو الصخرية. وإذن، فإن البنية الجبلية للمنطقة تبرر تسمية المغاربة لهذه المنطقة الشاسعة الموجودة بضفة البحر الأبيض المتوسط التي يحدها الريف من الجهة الشرقية، ببلاد جبالة. وهي منطقة تمتد من الريف إلى طنجة عبر الأجراف التي يلي بعضها بعضا. فلنصعد الآن إلى جبل كتامة الذي يعتبره الدرويش من أعلى جبال المنطقة ولنتأمل بمنظار يقرب الأشياء البعيدة، المساحة العامة للهضبة الجبلية. فهناك سلسلة جبلية قائمة بهذه الهضبة وتبرز قممها الجنوبية جهة الريف الغربي التي تأخذ اسم جبال صنهاجة وتشمل جزءا من أراضي أولاد بوسلامة وبني بوشيبت وبني أحمد وكتامة ومثيوة وغمارة والاخماس وبني حسان وبني عروس وجبل الحبيب. ومن هذا الأخير تنبثق القمم باتجاه الشمال الغربي، غير بعيد عن الساحل المتوسطي. ولدينا بعض المقاييس المتعلقة بعلو هذه القمم، فعلو جبل بني حسان المعروف بجبل حنا في خرائطنا يصل إلى 2201 متر؛ وأعلى نقطة بالجبال الغمارية تقدر ب 1850 متر [ولربما تعلق الأمر بجبل تازران]. أما جبل كتامة الذي لم يبلغه المنظار، فيعتبر هو الأعلى حسب محمد ويمكن لعلو قمته التي تظل مكسوة بالثلوج مدة ثلاثة أشهر في السنة، أن يتراوح بين 2500 و 3000 متر. وتوجد بين الجبال وديان عميقة، تتدفق فيها مياه المنابع والسيول، لتتحول فيما بعد إلى أنهار. وفيما وراء هذا الجدار، أي باتجاه الجنوب، تخف

حدة المنحدرات ويتراجع معها علو الجبال. وبدل المسالك الوعرة والتصدعات الخطيرة، تبرز الحقول المسطحة Terrasses المحاطة بالغابات والوديان المزروعة التي تنفتح تدريجيا على السهول الخصبة لدائرة فاس. هكذا، تتراجع القمم الشامخة بالشمال، لتتحول إلى تلال صغيرة عند اقترابها من الضفة اليمنى لورغة، هذا النهر الجميل الموجود بجنوب جبالة والذي يشكل حدا طبيعيا يفصل بين عالمين مختلفين وهما : سكان السهل العرب وسكان الجبل الأمازيغ الذين لم يتعربوا تماما.

وتقدر مساحة دائرة جبالة بحوالي 36 ألف كيلومتر مربع، كما يبلغ طول ضفتها المتوسطية الممتدة من الحدود الغربية للريف إلى طنجة أكثر من 150 كيلومتر. أما ساحل المحيط الممتد من طنجة إلى بحيرة المرجة[4] ، فيبلغ حوالي 80 كيلومتر.

طبعا، فإن عرضها يختلف بحسب المناطق، فمن أجراف غمارة إلى أطراف دائرة فاس، أحصى الدرويش ثلاثة أيام من المشي أي 120 كيلومتر؛ وتقل هذه المساحة من النقطة الشرقية لقبيلة البرانص مثلا. من جهة أخرى، يقدر رحالتنا المسافة الفاصلة بين العرائش والحدود الشرقية لجبالة بحوالي 75 ميلا.

هكذا، نجد انفسنا بمنطقة شاسعة تقدر مساحتها بضعف مساحة الريف؛ ويمكن مقارنتها من حيث الاتساع والغنى بخمس محافظات فرنسية.

---

[4] إن تكون بحيرة المرجة الزرقاء يرتبط بأسطورة جغرافية لم أذكرها من قبل. وإليكم هذاه الحكاية الشعبية كما رواها لي الدرويش : " ما أن وصل مولاي بوسلهام إلى المكان الذي يوجد به المصب الخليجي للمرجة، حتى شرع في التوضأ بمياه البحر. وشاهده ولي صالح بالمنطقة وهو سيدي الطيار، فخاطبه ساخرا :

-أيها الرجل من الواضح أنك شخص عديم القيمة، لأنني عند ما أريد التوضأ تأتي أمواج المحيط عندي ولا أذهب إليها بنفسي.

وشعر مولاي بوسلهام بالإهانة فأجابه بغضب :

-ما دمت قد خاطبتني بهذا الشكل، فإنني أقسم بالله بأن يصل البحر بقدرته تعالى إلى فاس وبأن تغتسل فيه بنات الحضر.

وصعد مولاي بوسلهام الساحل وهو يجر عصاه؛ وكلما تقدم في مشيه تبعته أمواج المحيط وبذلك شكلت المياه الحوض الحالي للمرجة. عندئذ، وجهت ولية صالحة إسمها للاميمونة تاگناوت بصرها نحو مدينة فاس وقامت بإشارات يائسة بيدها. وفجأة ظهرت سيدتان فاسيتان ونزلتا إلى البحيرة واستحمتا بمياهها. مباشرة بعد ذلك، خاطبت للاميمونة الولي المصري الأصل قائلة : توقف يا بوسلهام وانظر، لقد تحققت دعوتك؛ وها قد جاءت فتاتان حضريتان للتوضأ بالبحر. فتوقف مولاي بوسلهام وكذلك البحر. وبعد حصول هذه الكرامة أصبحت المرجة تعرف باسم " مشرع الحضر".

إن دائرة جبالة الرائعة التي حاولنا وصفها في الصفحات السابقة، تشمل 52 قبيلة مقاتلة ويبلغ عدد سكانها مليوني نسمة تقريبا؛ وإذا ما هوجمت هذه القبائل من طرف النصارى أعداء الإسلام، فإنها ستعبىء جيشا قوامه 300 ألف رجل، مستعدين للموت وللجهاد ضد الكفار، من أجل الظفر بالجنة.

وعليه، فإن هؤلاء الجبليين، هؤلاء الأمازيغ الذين تعربوا تدريجيا، سيقاومون المحتلين الأروبيين بعناد بطولي شبيه بالمقاومة البطولية التي أبداها إخوانهم الجزائريون ضد الاحتلال الفرنسي.

ومع ذلك، فإن هذا الشعب في حاجة إلى تنوير؛ لأن هناك قوى بداخله لا تعرف معنى التسامح الديني ولا التقدم المعنوي والمادي.

لكن، لنترك هذه التأملات الفلسفية التي ستجد مكانها الطبيعي بالخاتمة؛ ولنتمم هذا الفصل ببعض الأفكار الإثنوغرافية والأنثربولوجية حول جبالة الحاليين وحول أجدادهم أيضا، على أن ندرج بعد قليل أسماء قبائلهم.

إن اهالي جبالة الذين عاينتهم، يتوفرون على الخصائص المميزة للسكان الأمازيغ الأصليين ومعلوم أن الأنثربولوجيين صنفوا الشعب الأمازيغي إلى فئتين وهما :

1 -فئة السكان الأصليين القدامى؛ ولونهم أسمر.

2 -فئة السكان القادمين من الشمال؛ ولونهم أشقر.

والحال، أنني لم أجد ضمن الثلاثين جبليا الذين قابلتهم بوهران، أي شخص أشقر. فقد كان لون بعضهم كستنائيا ولون البعض أدهم أو شديد السمرة. وكان الجبلي عبد السلام بن محمد الذي قدم لي معلومات غزيرة حول الشاون، ذا لحية سوداء مثل جناح الغراب. ولأنه كان يخشى رد فعل مواطنيه، فإن هذا الشخص الحذر ظل يماطلني مدة سنة بخصوص صورته التي كنت أنوي إدراجها في الكتاب؛ وقد غادر وهران ولم أعد أسمع عنه ولا عن صورته أي خبر.

ومثل باقي الجبليين، فإن طول هذا الرجل كان فوق المتوسط، أي حوالي 170 سنتميتر؛ وهو متناسق الأعضاء مثل أي عربي، وكان يميل إلى البياض لكنه سرعان ما يتحول إلى السمرة، بفعل أشعة الشمس الحارقة بالجنوب الوهراني الذي كان ينتقل إليه كثيرا للتجارة.

ويتميز بجبهة عريضة وبعينين سوداويتين وأذنين متباعدتين نتيجة الضغط الدائم للعمامة؛ ووجه دقيق الملامح، بأنف مستقيم وشفتين ممتلئتين إلى حد ما وتنفرجا عن ابتسامة ساخرة.
هذه باختصار، هي الانطباعات التي بقيت بذاكرتي حول هذا الجبلي المغربي. وهذا الميل إلى السمنة الذي لاحظته لدى العديد من مواطنيه، يجعلني افترض بأن العرق الجبلي قد امتزج بعناصر اثنية أخرى؛ وهو الامتزاج الذي ساهم في ظهور الإنسان المغربي Maure بمدن الساحل الجزائري وبالمغرب، أي الإنسان الذي يصعب تحديد أصوله الأولى، لأنه يشكل خليطا من الأعراق التي توافدت على ساحل بلاد الأمازيغ على مدى القرون. إن منطقة جبالة تقع ما بين الدرجة 34 و 36 على خط العرض شمالا وما بين الدرجة 6 و 9 على خط الطول غرب باريس؛ وتحد من الشمال بالبحر الأبيض المتوسط ومن الغرب بالمحيط الأطلسي ومن الجنوب بدائرة فاس وجزء من البرابر ومن الشرق بالريف والدهرة.
هكذا، فإن هؤلاء الجبليين ينحدرون في غالبيتهم من السكان البيض الذين كانوا يقطنون "موريطانيا" فيما مضى والذين كانت تنعتهم النصوص الإغريقية القديمة باسم الليبيين.
وفيما بعد، سيدعوهم كل من سترابون Strabon وبلين Pline بالموريسيين Maurisiens وبالمور Maures وهي تسمية سلالية، يرى فيها الباحثون في أصول اللغات مرجعية سامية، تحيل على كلمة معوريم التي تعني أهالي الغرب. [5]
وباعتبارهم أمازيغ، فإن ليبيي طنجة، مثل مواطنيهم بأنحاء أخرى من موريطانيا الطنجاوية شيدوا مباني ضخمة، ما زالت آثارها تشهد على عظمة وقدم هذا الشعب.
وقد وجد تيسو Tissot في مناطق عديدة بالمغرب، صخورا ضخمة موضوعة بشكل أفقي وأخرى موضوعة بشكل عمودي، شبيهة بالآثار البدائية الموجودة بمدينة قسطنطينة؛ وهي لا تختلف عنها إلا من حيث الحجم.
وتبدو المقابر المغربية الكبيرة والقديمة على شكل متوازي الأضلاع Trapeze يتراوح عرضه ما بين 75 و 95 سنتيمتر، وليس على شكل مربع.
وبداخل هذا النوع من القبور، يوضع الجثمان وقد انثنت ركبتاه وذراعاه تحت ذقنه، في وضعية تذكرنا بوضعية الرضيع الذي تحتضنه أمه.

---

[5] يمكن للقارئ مراجعة ما ذكرناه في الصفحات السابقة، بخصوص الربة الأمازيغية " مورا".

وقد قيل لي، إن الحفدة الحاليين لليبيين القدامى والذين يعيشون في جهالة عمياء، لا يعيرون اهتماما لعظام أجدادهم العظماء، أثناء بحثهم عن الكنوز. فهم يشيرون إلى هذه البقايا، معلنين باشمئزاز : [6]

هذوك كانوا جهال.

جدول تلخيصي للقبائل الجبلية المذكورة :

El Djaya	الجـــــايــة	Ahl srif	أهل سريف
El Fah'aç	الفحـاص	Beni Ah'med	بني أحمد
El R'arbiya	الغربية	Beni Ah'med essurak	بني أحمد السراق
Endjra	أنجرة	Beni Arous	بني عروس
Es-sah'el	الساحل	Beni Bou chibeth	بني بوشيبت
Fechtala	فشتالة	Beni Gourfet	بني ݣرفط

[6] Tissot, Géographie comparée de la Maurétanie tingitane, op.cit., p.176.

Fennassa	فناسة	Beni H'assan	بني حسان
Houaret el H'ajar	هوارة الحجر	Beni H'ouzmer	بـــنــي حوزمر
H'ouz titt'aouine	حوز تيطاون	Beni id'er	بني إيذر
Ktama	كتامة	Beni issef	بني يسف
Le khlout'	الخلوط	Beni Leït	بني ليث
Lekhmas	الاخماس	Beni Maâdan	بني معـــدان
Meçmouda	مصمودة	Beni Mçaouer	بني مساور
Mernissa	مرنيسة	Beni Massara	بني مسارة
Meziath	مزياث	Beni Mezguelda	بني مزگلدة
Mthioua	مثيوة	Beni Ouandjel	بني ونجـــل
Ouad'ras	واذراس	Beni Oulid	بني وليـــد
Ouled Bekkar	أولاد بكـــار	Beni Ouriaguel	بني ورياكـــل
Ouled Bouslama	أولاد بوسلامـــة	Beni Saïd	بني سعيــــــد
Rehouna	رهونة	Beni Zeroual	بني زروال
Rer'ioua	رغيوة	Bou Rd'a	بورذا
R'mara	غمـــارة	Cenhajat l'out'a	صنهاجة الــوطا
R'zaoua	غــزاوة	Cenhajat l'R'ddou	صنهـــاجـة الغـــدو
Sett'a	ســطا	Djebel El Habib	جبــل الحبــيب
Slès	ســلاس	Dsoul	الــدســول
Soumatha	ســومـــاذة	El Branès	البـــرانص

خـــاتـــمـــة :

إن المغرب القابع تحت ركام الجهل والتشاؤم والمحتقر للدنيا ولكل من لا يشارك أهاليه المسلمين معتقداتهم الدينية، مازال يغط في سباته على مقربة من خلية النحل الأروبية، حيث تتطور الأفكار الفلسفية الداعية إلى مستقبل أفضل. فهل يفكر المغاربة في هذا الخطر المجاور لهم ؟ كلا ! فديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتنظيمهم الاجتماعي وكل ما يرونه ويسمعونه، يتحدث عن الماضي ويقنعهم بالعيش في أحضانه، من أجل راحة أبدية في العالم الآخر.

وعليكم ألا تتحدثوا عن المستقبل الدنيوي؛ فهذا أمر غير مفهوم وغير مقبول. فمنذ ثلاثة عشر قرنا، تغلغلت الديانة الإسلامية في هذا البلد وتحكمت في النفوس، إلى درجة أن اليقظة تبدو شبه مستحيلة حتى لدى العقول الأقل خمودا في إمبراطورية الشريف. وإذا ما حاورتم هذه العقول فلن تحصلوا إلا على الإجابة التالية :

- أمس خير من اليوم.

فالمغربي الذي يمجد الماضي ويحتقر تقدمنا معتبرا إياه مجرد سيادة للماديات على المعنويات، هو نموذج للمتشائم الديني الذي تحدثت عنه في الصفحات السابقة. فطريقة تصوره للعالم وفهمه للحياة، تثير دهشة العقول المتفتحة والعقلانية بأروبا الحديثة وتزعج الملاحظين والفلاسفة الذين لا يلمسون أي تحول في العادات والمؤسسات لدى هذا الشعب؛ فييأسون ويتخلون عن الدراسة السيكولوجية لمن يعتبرونهم مجرد جثث وتماثيل. ومع ذلك، فقد تم تحريك هذه الأخيرة وإثارة حماسها في الماضي عن طريق الوعد بالجنة في العالم الآخر؛ وهو وعد مثير في بدايته، لكنه سيصبح رهيبا فيما بعد. فبدل أن يساهم في تطور الحركة الفكرية، فهو يكرس الجمود والخمول القريبين من الموت. ذلك أن الحلم بالاستمتاع بالحور العين في الجنة، جعل جيراننا بالغرب يقطعون كل صلة بالمستقبل الأرضي. أكيد أن الإعلان عن نهاية هذا الوضع بمملكة الشريف، قد تكرر مرات عديدة بأروبا، منذ طرد المسلمين من الأندلس. ومع ذلك، فما زال المغرب يقاوم. فهو يعارض نموذجنا الأخلاقي والاجتماعي بتعصبه الأعمى وبرغبته في عدم الخضوع لأي تطور نابع من الخارج. وبذلك ظل في سباته العميق الذي استغرق ثلاثة عشر قرنا؛ مع استثناء تخلل هذه المرحلة، وهو نور القمر الذي أطل مع الحضارة العربية التي لم تكتمل مهمتها.

وأنا لا أريد تقليد هؤلاء الصحافيين الجريئين الذين يقومون كل صباح، بهدم ثم بناء إمبراطوريات جديدة ويحكمون بالتالي على المغرب بالموت. فمثل هذه التنبؤات المستقبلية Vaticinations أصبحت متجاوزة، وهي لا تصلح إلا لتخويف الجهال والأطفال. فالفرضيات التنبؤية والحدوس المقترنة بالحقيقة الفوق حسية Supra-sensible، هي نتاج لعقول مريضة ولخيالات مصابة بالهذيان. وأنا أقترح تعويض " الفرضية التنبؤية" ب "اليقين العلمي"؛ ذلك أن المشكل السياسي لمستقبل الأمم، يقتضي في ظل الصراع الحالي للأفكار، ترك المكان لاهتمام من نوع جديد؛ وأقصد بذلك حيوية الأعراق Vitalité des races. وتبدو لي هذه الحيوية

مرتبطة بشرط اجتماعي ضروري لكل تطور؛ وهو تطور العقول والضمائر. ولهذا، يتعين فحص الروح المغربية خصوصا والإسلامية عموما، والتأكد من مدى قابليتها لتلقي الصدمات الكهربائية وهي التي قيل عنها إنها ميتة أو تغط في سبات عميق.

ومن جهتي، فإنني اعتقد – ولربما كنت الوحيد الذي يفكر في هذا الأمر – بإمكانية بعث هذه الروح؛ وإليكم مبرراتي بهذا الخصوص.

فقد تأتي لحظة يمل فيها العقل الإنساني وضعه الشبيه بالمرآة التي تنعكس فيها آراء وأفكار الغير. ذلك أن المرء يتحمل هذا العبء لعدة سنوات ثم يحاول التخلص منه؛ أما الشعوب فتتحمله لعدة قرون ثم تزيحه؛ وهذا هو الاختلاف الوحيد بينهما.

وعندما يظهر هذا الملل في مدينة أو لدى عرق أو شعب، فإن الأمر يكون بمثابة إعلان عن منعطف في مسار البشرية. ويبدو لي، كمفكر متواضع، بأن أصداء الأجراس المغربية الصغيرة بدأت تسمع صوتها؛ وأنها ستتحول إلى نفير مرح في المستقبل؛ وهذا كل ما أتمناه.

وأعترف بأن بحثي السيكولوجي الخاص بأميي المغرب لم يحقق أهدافه؛ لأنني لم أحظ منهم سوى بإجابات متعصبة ومنغلقة. وهذا ليس بالأمر الغريب، إذ لا يمكننا أن نستخرج الدقيق من كيس الفحم. لكن مع الطلبة والعلماء، تغيرت الأمور. فقد كانوا هم أول من أمطروني بالأسئلة حول القضايا الدينية والميتافيزيقية الأكثر تعقيدا. وكانت الآراء تتوالى بشكل واضح ودقيق، مرفوقة باعترافات جريئة وتلقائية وصريحة، بعد أن تم كبتها طوال السنين.

وقد عبر لي عالم من فاس، فضل عدم ذكر اسمه، عن هذه الفكرة الخطيرة المليئة بالدلالات قائلا : " الأنبياء هم اللي حرشو الأمم على بعضهم بعض" فاندهشت من هذه الملاحظة وسألته :

- كـيف ذلـك ؟

لكنه اكتفى بترديد عبارته، كرجل متيقن مما يقول. وسألته من جديد :

- هل يوجد الكثير من الناس في المغرب لهم نفس الرأي؟

فأجابني:

- يوجد المئات.

والأمر المثير هو أن هذه الأفكار "الهدامة"، سبق وأن سمعتها من أحد أكبر العلماء وأفضل أساتذتي في الأدب. وأعتقد بأنه كان يهوديا واعتنق الإسلام ليمارس عمله الثقافي والفكري بحرية أكبر. وقد اعترف لي بأنه درس الأديان المنزلة الثلاثة ولم يجد فرقا جوهريا بينها، لأن

التعاليم والتشريعات التي أتت بها هي من صنع الإنسان. وكنا كطلبة مدينيين نعمل على إحراج الطلبة القرويين الذين كانوا يحلون بالمدينة لمتابعة دراستهم. وكنا نخاطبهم بما يلي :

-إن الله خلق السماء والأرض طبعا؛ لكن قبل ذلك، ما الذي كان يفعله وأين محله ؟ وكيف سيظل متوقفا عن الفعل وهو العاقل الفعال ؟

وكنا نطرح عليهم سؤالا آخر لا يقل إحراجا وهو :

-أنتم تعلمون بان هناك آية في القرآن تعلن بان " الله على كل شيء قدير"؛ وإذا ما كان الأمر كذلك، فهل باستطاعته أن يضعنا في مكان آخر إذا قلنا له " أخرجنا من ملكك" ؟ وماذا سيحدث لو اختبرنا قدرته بأن نطلب منه تدمير نفسه بنفسه ؟ ثم هل الله موجود في كل مكان؟

[**ملحوظة المترجم** : إن هذه الأسئلة الجريئة أو أغلبها، سبق أن نوقشت من طرف المتكلمين؛ المعتزلة والأشاعرة والجبرية والقدرية، منذ حوالي ثلاثة عشر قرنا، في إطار ما كان يعرف بمسألة التنزيه والعدل الإلهيين].

وكانت مثل هذه الأفكار تذهل الطلبة القرويين. لكن بعد مرور بضعة أيام، فوجئنا بأسئلتهم المحرجة، حيث خاطبنا طالب من أصول جبلية قائلا :

-إذا كان الله قادرا على كل شيء، فلماذا لم ينزل شرائعه بلغة كونية واحدة مفهومة من طرف الجميع ؟ فالنصوص اليهودية كتبت بلغة اليهود والأناجيل كتبت بلغة شعب محدد، كما أن القرآن كتب بلغة عربية صعبة الفهم، فهل معنى هذا أن زمن الأديان مقترن بزمن اللغات التي صيغت بها ؟ وهل من الضروري أن يتناوب الرسل والأنبياء حتى نصل إلى خاتم الأنبياء وآخر الديانات ؟ وما المقصود بتلك الكلمات الغامضة في القرآن، مثل الم، الر، حم ؟ ولماذا تستمر الدعوة لمحاربة الكفار، أي محاربة من لا يفكر مثلنا ؟ فهل يجب قتلهم ليتعلموا كيف يعيشون ؟

هذه نماذج من الأسئلة الجريئة والانتقادات الموجهة إلى الإسلام والتي تؤكد على وجود بصيص من العقلانية داخل الظلامية المغربية؛ مما يؤكد على أن عقل المسلم مستعد لتقبل أنوار ما ندعوه بالفكر الحر.

وتشير الأبيات الزجلية الساخرة التي يرددها الطلبة الجبليون، إلى وجود نقد عنيف ضد الأحكام الدينية المسبقة وضد المشعوذين الذين أخضعوا الذكاء الإسلامي لظلمات تصورهم. وقد نظم الطلبة هذه الأبيات، لذم الزوايا؛ ومما جاء فيها:

الكلب والدرقاوي كلهم واحد

والفقراء والجلوس معهم زايد

الجبة طويلة ومدلدلة

كخرقة مرمية في مزبلة

القوق [السبحة الكبيرة] والعكاز والدربال

الكفر مخفي بلا محال.

وكما تلاحظون، فإن الروح الإسلامية لم تمت، بل إنها تحاول إزالة قيودها. كما أن النخبة المغربية تميل بشكل غريزي إلى حرية التفكير التي هي مصدر كل الحريات الأخرى.

لذلك، فإنني أعلن مرة أخرى عن مشروعي وأجهر بما يلي:

يجب أن نرسل إلى المغرب مبعوثين يمثلون الفكر الحر، لأنهم الوحيدون القادرون على هزم التعصب الإسلامي؛ ويجب أن نشرع في الحملة المقدسة والمسالمة للعقول والتي لا تهدف إلى إراقة الدماء، بل إلى نشر الأنوار وسط ملايين المتعصبين الذين يعتبروننا من أشد أعدائهم، لأننا لا نشاطرهم معتقداتهم الدينية. ومن سيكون مؤهلا لمنح هذه الحرية وهذه الأنوار أفضل من أمتنا الكريمة والعزيزة الرافعة لشعار الحرية والمساواة والأخوة الذي غير مسار العالم. فهذه الكلمات الرائعة ستكون بمثابة الديانة الوحيدة أو بالأحرى اللا ديانة الكونية للمستقبل.

[**ملحوظة المترجم**: إن الهدف الاستعماري واضح من خلال هذا الكلام، ف"المغاربة المتعصبون" في حاجة إلى عطف وكرم فرنسا صاحبة المبادئ العظيمة حول الحرية والمساواة والأخوة !

وهذه هي قمة المفارقة، حيث يصبح استعمار واستعباد الشعوب، عملا حضاريا وتنويريا !]

والآن، أقترح عليكم هذه الكلمات الأخيرة المليئة بالوعود وبالأحلام التي ستتحقق وفق ما يقتضيه تطورنا الأخلاقي والسياسي.

- فعلى المستوى الأخلاقي، مما لا شك فيه أن تعصب الإسلام سيزول قبل المذاهب الأخرى الأقل إقصائية وتعصبا منه. وإذا ما تحرر المسلمون من خرافاتهم ومعتقداتهم المتعصبة، تحت تأثير الثقافة العالمية، فإنهم سيصبحون أناسا وديعين وطيبين؛ وسينخرطون حينئذ في المجموعة الكونية والأخوية الكبيرة التي ستجعل من كوكبنا في المستقبل ورشة للسلام والإحسان والعمل.

- ومن الناحية السياسية، لاشك أيضا في أن انتصار الجنود المسيحيين المرتقب على العثمانيين بتركيا المنخورة من الداخل، سيؤدي إلى انهيار آخر باشا عثماني وسيؤثر على مسار إمبراطورية الشرفاء المنخورة من الداخل أيضا.

لكن يبدو تحقق ذلك الآن، أمرا بعيد المنال. وأكرر مرة أخرى بأنه يتعين علينا عدم الإنصات للمتنبئين الأروبيين المتشائمين الذين يهددون من الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، العاهل الشريف بقرب نهاية سلطته !

والحال أن بإمكاننا التنبؤ بمستقبل زاهر ومتنور للمغرب، من خلال هذه الاستعارة الجميلة الصادرة عن أحد الفلاسفة المتصوفة بشمال غرب إفريقيا والتي تقول:

الغرب مليح ولنا عليه الأدلة
الشمس تغرب فيه ومنه تطلع الأهلة

انتهى الجزء الثاني والأخير

الفهـــــرس

- قبيلة سلاس
- قبيلة الجاية
- قبيلة بني زروال
- قبيلة كتامة
- قبيلة الاخماس

-مدينة الشاون

- قبيلة بني عروس
- قبيلة بني حوزمر

-مدينة تيطاون

- قبيلتا بني سعيد وبني معدان
- قبيلة غمارة

-قاع سرس

-بني زيات

-بني سلمان

-بني گرير

-بني سميح

-بني رزين

-بني زدجل

-بني خالد

-قبيلة البرانص

-قبيلة أولاد بكار

-قبيلة مرنيسة

-قبيلة بني ونجل

-قبائل بني بوشيبث وأولاد بوسلامة وبني أحمد

-قبيلة فناسة

-قبيلة بني وليد

-قبيلة مثيوة

-قبيلة مزياث

-قبيلة رغيوة

-قبيلة صنهاجة الوطا

-قبيلة هوارة الحجر

-قبيلة الدسول

-قبيلة صنهاجة الغدو

-قبيلة بورذا

-قبيلة بني مزگلدة

-قبيلة بني مسارة

-مدينة وزان

-قبيلة مصمودة

-قبيلة سوماثا

-قبيلة بني يسف

-قبيلة بني إيذر

-قبيلة رهونة

-قبيلة أهل سريف

-قبيلة سطا

-قبيلة الخلوط

-مدينة القصر الكبير

-مدينة العرائش

-قبيلة الساحل

-قبيلة الغربية

-مدينة أصيلة

-قبيلة بني مساور

-قبيلة الفحاص

-مدينة طنجة

-قبيلة أنجرة

-مدينة سبتة

-قبيلة حوز تيطاون

-قبيلتا واذراس وجبل الحبيب

-قبيلة بني گرفط

-قبيلة غزاوة

-قبيلتا بني حسان وبني ليث